

القسم الأول

القرن الأخير للنظام القديم

الكتاب الأول

الأنوار

الفصل الأول

روح القرن

١ - الاسلوب

لقد درج القول بان ملكية ديكارت الفكرية انتهت في القرن الثامن عشر
ديكارت ، نوك
نيوتون
وانها افسحت المجال لملكية لوك ونيوتون. هنالك لمعري نصوص تبرر وجهة
النظر هذه. فان «فلاسفة» كثيرين يستخفون بديكارت بسبب تركيبه العقلية
حول الآلية ومذاهبه في الزوابع التي زعم الفيلسوف بان يفسر بها الكون. وقد رأى فيها معارضوه
مجرد نسج خيال، اذ ان نتيجة واحدة قد تفضي اليها آليات مختلفة جداً . فنظروا الى ديكارت
كما الى تائه عقل وغائص في اضغاث الاحلام . وعزا « دالمبير » اكتشاف علم ما وراء الطبيعة
الى « لوك » وعلم الطبيعة الى نيوتون . وتكلم فولتير بازدرء عن « الروايات » الكروتوانية
وحدد التاريخ الذي يجب ان يعتبر تاريخ هزيمة ديكارت حتى في وطنه فرنسا : ١٧٣٠ .

الا ان نصوصاً اخرى تنظر الى ديكارت كما الى سيد الفكر الاعظم في القرن الثامن عشر .
لنقص فونتنبيل المعجب جداً بالمعلم . فقد كتب فولتير في السنة ١٧٣٣ : « ان من ارشدها الى
طريق الحقيقة قد لا يكون اقل قدراً من ذلك الذي بلغ نهاية هذه الطريق منذ ذلك الحين ،
(الرسالة الانكليزية الرابعة عشرة) . و اضاف دالمبير الى ذلك ، في السنة ١٧٥١ ، في خطبته
التمهيدية لدائرة المعارف :

« بيد ان ديكارت قد تجاسر على ارشاد العقول السليمة الى خلع نير الطاعة للفلسفة المدرسية
والرأي والسلطة ، وبكلمة موجزة للأراء المقبولة قبل التحقيق وللهمجية ؛ ولعله ادى للفلسفة
بهذا التمرد الذي نجح ثماره اليوم خدمة اجل من كل ما تدين به لمشاهير خلفائه ... واذا ما
انتهى الى الاعتقاد بتفسير كل شيء ، فهو قد ابتدأ بالشك في كل شيء ، والاسلحة التي نستخدمها
لمحاربته لا تفقد شيئاً من نسبتها اليه لاننا نوجهها اليه ... » .

وكتب « تورغو » في دائرة المعارف : « ان نيوتون قد وصف البلاد التي اكتشفها ديكارت ،
وان « لوك » و « بركلي » و « كوندريك » « هم جميعهم ابناء ديكارت » . وفي السنة ١٧٦٥

فاز توما بجاائزة الاكاديمية الفرنسية بسبب ثنائه على ديكارت : فهو قد اشار الى اننا اذا كنا قد تخلفنا عن آراء كثيرة طلع بها، وليس هذا ما حدث، فاننا قد سرنا بأمانة على طريقة تفكيره. كما ان « كوندورسيه » نفسه ، المشايخ للوك ونيوتون ، قد عنون الزمان التاسع ، في « اللوحة الایجازية لنجاحات الفكر البشري » منذ اوائل البشرية ، التي انجزها في السنة ١٧٩٤ ، بما لا يخجو من مغزى : « منذ ديكارت حتى الجمهورية الفرنسية ». فهو معجب بالفترة التي تبتدىء منذ ان احدثت عبقرية ديكارت ، في العقول ، هذه الانطلاقة العامة ، مبدأ الثورة الاول في مصائر المجلس البشري . وأكرم ديكارت ، ومجد ورجع اليه كذلك في لندن وبرلين وليزيغ . ان ديكارت ، في نظر « الفلاسفة » يفتح عهداً من عهود البشرية يضم القرن الثامن عشر .

قد يستنتج بالتالي من هذه النصوص ان القرن الثامن عشر قد رفض علم ما وراء الطبيعة وعلم الطبيعة اللذين طلع بهما ديكارت واحتفظ بأسلوبه . فما هي حقيقة الامر يا ترى ؟

كان ضرورياً في نظر ديكارت ، لإرساخ حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية ،^{النزاع} بين ديكارت والالين ربط هذه الأخيرة بمبادئ ميتافيزيقية ثابتة . وقف موقفاً حذراً من كل ما هو حسي ولوعي ، فادعى بتفسير الكون بمبادئ أكيدة لانها واضحة وجلية . تأكد من وجود الله ، وتأكد بواسطته من وجود العالم الخارجي ، ووجد بين المادة والاتساع ، واقعد على البساطة والقرار الالهي بمبادئ ثبوت الاجرام ، ودوام الحركة ، والصلابة ، والمبدأ العام لتصادم الاجسام ، واستخلص من ذلك سبع سنن للصدمة ، كما استخلص بعد ذلك ، بانتقالات المادة الرقيقة وبالزوايح ، كافة الآليات التي تفسر الظواهر . فعدا الكون من ثم استخلصاً ضمناً ، انطلاقاً من بعض الافكار الواضحة والجلية . لقد آمن ديكارت بحقيقة هذا الاستخلاص . وكان مقتنعاً بان تحليل الافكار هذا قد اوقفه على حقيقة تركيب الكون الرياضي المستترة تحت الظواهر . وكان مقتنعاً كذلك بانه بلغ وجود الاشياء وبأن هذا الوجود رياضي . فكان تعليمه قياساً رياضياً في علم الكائنات .

ولكن رفاق نضاله ضد تلميم ارسطو ، الالين ، «مرسين» ، «رورفال» ، «باسكال» ، «هوبس» ، لم يبرهنوا اذ ذلك عن اقتناعهم . لم يسلموا بضرورة ربط العلوم الطبيعية بمبادئ ميتافيزيقية . فان « غسندي » في اعتراضاته على « تأملات » ديكارت ، قد لفت نظر الفيلسوف الى ان حقائق الهندسة وحقائق العلوم الطبيعية الرياضية لا ترتبط بوجود الله : فهناك اشخاص عديدون يرتابون بالله ، ولكن واحداً لا يرتاب ببراهين الهندسة . ورفض الالين اسلوب ديكارت الاستنتاجي . فن المستحيل الحكم بحقيقة فكرة استناداً الى وضوحها . وليس تفسير تكون الظواهر بتقلبات الزوايح والمادة الرقيقة سوى مجرد اسطورة . يجب التمييز ، في الافكار الواضحة ، بين الافكار الحقيقية والافكار الوهمية ، وهذا يستحيل معرفته الا بالاختبار ،

قاعدة العلوم الطبيعية . سلموا بذهب ديكارت العقلي الكمي ، ولكنهم أكلوه بذهب عقلي اختبائي . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انهم لم يؤمنوا بإمكان معرفة كل شيء ولا يبلغ كنه الاشياء . فالواقع في نظرهم يتعدى مفاهيمنا تمديدا لامتناهيا . وكان رأيهم ان العلوم الطبيعية الرياضية تتبع لمحقق تراكيب سهلة الاستعمال ومفيدة ، ولكن هذه التراكيب لا ترفع النقاب عن الحقيقة في ما وراء واقع الظواهر . الصوت حركة في نظر عالم الطبيعة ؛ وهذه الحركة قابلة القياس ؛ فهم بذلك اسيادها ؛ ولكن المعرفة الكمية لا تعطيهم سوى مظهر من مظاهر الواقع ، وليست من ثم سوى تجزئة وتقطيع . كان الآليون سائرين باتجاهاتهم شطر مذهب العملية الذي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

انتصار الآلية النيوتونية
في هولندا والائر الهولندي

كان نيوتون قد تبنى أسلوب الآلين وحارب « افتراضات » ديكارت في علم الطبيعة . وكان التحالف السياسي بين انكلترا وهولندا البروتستانتيتين ضد فرنسا قد يسر العلاقات بين العلماء الهولنديين والعلماء الانكليزي . لذلك ، وعلى الرغم من ان هولندا كانت مهد الكرتزيانية ، وان علم الطبيعة الكرتزياني قد وجد فيها خير تعبيره المنسق في « قاموس » « شوفين » ، الذي اهد طبعه في السنة ١٧١٣ ، كانت الفلبه لنفوذ نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر . فعدا « غرافساند » صديقا لنيوتون خلال رحلة قام بها الى لندن في السنة ١٧١٥ . وفي السنة ١٧١٧ عمل « موشنبروك » في لندن تحت إشراف العالم الانكليزي . وبين السنة ١٧١٥ والسنة ١٧٣٦ ، وفي خطب استخدمت مقدمات لابحاثهم في علم الطبيعة والكيمياء ، اطرى الطبيب والكيميائي « بورهاف » والعالمان بالفلك والطبيعات غرافساند وموشنبروك ، في العلوم الطبيعية ، أسلوب الآلين الاختبائي ؛ ولكنهم قلما استشهدوا بديكارت وتناصوا الآلين الفرنسيين تناسيا كليا ، وربما كان ذلك بداعي عداوتهم لفرنسا التي حاربوها منذ امد قصير والتي ما زالت ظلينة اوروبا الكبرى . اما الذين اتوا على ذكرهم وغالوا في مديحهم فهم « بيكون » ، و« غاليليو » ، و« نيوتون » في الدرجة الاولى . ويؤكد موشنبروك الذي ترجم في السنة ١٧٣١ الاختبارات التي اجرتها ، ما بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٧ ، « اكاديمية الابحاث » الفلورنسية ، انه لا يجوز فصل هؤلاء الثلاثة ، كما يطيب لبورهاف ، منذ السنة ١٧١٥ ، ان يناقض الصواب وينسب الى بيكون كافة النجاحات المحققة في العلوم . واتوا كذلك على ذكر « توريشلي » ، و« هويغس » ، و« بويل » ، و« ليليز » ، واغفلوا كافة الفرنسيين باستثناء « ماريوت » ، والبروتستانت « ديزاغوليه » . فيتضح من ثم ان مسؤولية الطلوع بفكرة علم عصري ، ايطالي وانكليزي في جوهره ، ولا سيما انكليزي ، تقع على كاهل الهولنديين وقد احرزت هذه الفكرة نجاحا عظيما .

ولا عجب في ذلك ، اذ ان « علماء الطبيعيات » هؤلاء قد احتلوا في حقل العلم مركزاً متمبراً زاد من رفعتهم مركز الاقاليم المتحدة التجاري . تهاوت عليهم الطلاب من كافة انحاء

اوربا لتحصيل العلم تحت إشرافهم . وغدت لايدن مركزاً علمياً أوروبياً . ومنذ السنة ١٧٢٤ نشر تلامذة بورهاف الفرنسيون في باريس ما القاه عليهم من دروس قبل ان اصدرها المؤلف في هولندا بثماني سنوات . وقام « لامتري » و « دي فاي » والاب « نوليه » وفولتير برحلة الى هولندا وأوثقوا عرى الصداقة بالعلماء الهولنديين . فانتشرت الآراء الهولندية بفضل تراجمهم ومؤلفاتهم في علم الطبيعيات . وليست « خطبة » « ديلاند » الشهيرة في خير طريقة لاجراء الاختبارات (١٧٣٦) سوى اقتباس عن موشنبروك . وفي رأيهم جميعاً ان السنن التي تسيّر الكون « تخضع لارادة الكائن الاسمى الذي لم يوح بها لنا ؛ لذلك كان علينا ان نقتبل معرفتها من الظواهر » . فيجب من ثم « ان نلاحظ بعين ساهرة كافة حركات الطبيعة » ، ونسير على خطى نيوتون « الذي كان اول من اقصى عن علم الطبيعيات كافة الافتراضات ولم يسلم الا بمسا يمكن التثبت رياضياً من انه سلسلة من الظواهر » (سغرافساند) .

كان هذا الاسلوب من ثم متناقضاً في نقاط جوهرية واسلوب ديكارت .
 الاختلاط
 بين الكرتزيانية والآلية
 فكيف استطاع الفلاسفة ، والحالة هذه ، الاعتقاد بانهم ساروا بأمانة على خطى الفكر الكرتزياني ؟ في البدء قارم الكرتزيانيون في فرنسا مقارمة طويلة . « فعين ظهر كتاب « عناصر فلسفة نيوتون » (١٧٤٥) كانت الكرتزيانية ما زالت مسيطرة حتى في اكااديمية العلوم في باريس ، (كوندورسيه) . مشتركاً بين التفسيرين ، الكرتزيانية والنيوتونية ، كان الجهد المبذول بقية ايجاد تفسير كمي وآلي لكل شيء ، ومشاركاً ايضاً بين علماء المدرستين كان الاسلوب ، اسلوب الآلين . منذ ظهور « خطبة في الاسلوب » لم يدرك علماء الطبيعة الذين اقتضوا بالكرتزيانية بجمال فكر ديكارت ولم يروا منه سوى المظهر الآلي . فاث « ريجيوس » ، منذ السنة ١٦٤٦ ، « وكوردموا » ، منذ السنة ١٦٦٦ ، « ووهو » ، في السنة ١٦٧٥ ، و « ريجيس » ، في السنة ١٦٩٠ ، و « فونتيل » اخيراً ، المدافع الاكبر عن ديكارت منذ كتابه « احاديث حول تعدد العوالم المأهولة » (١٦٨٦) حتى كتابه « نظام الزوابع » (١٧٥٢) ، يجاهرون كلهم بأسلوب الآلين العلمي ، مع انهم يقولون كلهم بنظرية الماء والزوابع . اختلطت الكرتزيانية بالآلية البحتة . لم يكن ديكارت كرتزيانيا . وحين يتكلم « الفلاسفة » عن دور ديكارت كسيد الفكر ، فانهم انما يفكرون بالآلية وباساليب العلم الاختباري وروحه . واذا ما بقي لديكارت أثره الكبير في القرن الثامن عشر ، فيرد ذلك جزئياً الى الاختلاط والتجزئة العقلية في مؤلفاته . بيد ان هذا الاختلاط كان نتيجة حدث تاريخي : لم تنتصر الآلية الا مع ديكارت وبديكارت وفي ديكارت . ولعل هذا الاختلاط عكس واقعاً آخر ايضاً : اعترف العلماء بالضعف البشري فقبلوا مكرهين بمذهب العقلين الاختباري ، ولكن ليس مثل الآلية الاستنتاج الكرتزياني ، الممتق من المحسوس والكمي ، انطلاقاً من افكار واضحة وجلية ، والكون ممثلاً بهندسة مترامية الاطراف ؟

٢ - ظروف العمل

ان الكرتزيانية والنتائج المحققة حولت الرغبة الحارة في المعرفة نحو العلوم في شرف الجماهير الدرجة الاولى . فاستثير شرف حقيقي بكافة علوم الطبيعة ، اي « بعلم الطبيعيات » . وتفرغ لها اناس من كل الطبقات ، لاسيا في فرنسا ، وفي بعض البلدان الاخرى ايضا . فتمددت وسائل التعلم . وازدادت مجموعات الحيوانات والنباتات والحجارة ، كما ازدادت « دور » علم الطبيعيات ازدياداً مطرداً : فتكون او تأسس منها لدى الدوقية والقضاة ورؤساء الاديرة والاطباء والسيدات والجمعيات الدينية . وكان للويس الخامس عشر مجموعاته و « دوره » الخاصة ، بالإضافة الى « دار » الملك وحديقة الملك اللتين أسسها لويس الثالث عشر ووسعها « بوفون » بمضاعفة مساحة الحدائق ، وبناء المدافئ الزجاجية ومسرح للتعليم ، وتقديم المجموعات التي ارسلتها اليه كاترين الثانية ، واستنارة حماس الجميع : فقدمت السيدات الهبات كي ترد اسمائهن في « التاريخ الطبيعي » ؛ وكوفىء الوكلاء والموظفون الذين جمعوا له الناذج في المستعمرات بشهادات رسمية تميئهم « مراسلي غرفة الملك » . واتيحت رؤية هذه المجموعات العامة والخاصة بسهولة للهواة . وألقيت محاضرات علنية بغية حمل الجماهير على تذوق العلم . ومنذ السنة ١٧٣٤ القى الاب لوليه في باريس محاضرات حصرها في علم الطبيعيات الاختباري : لم يتعرض فيها للنظريات ولم يستخدم الرياضيات ، بل اكتفى بإحضار آلاته وإثبات ما لوحظ مباشرة . فأعطى بذلك عن العلم فكرة ناقصة ، لان العلم هو ، قبل اي شيء آخر ، سلسلة براهين يتوصل اليها الحساب ويثبتها الاختبار ، ولكن مستعميه لم يجدوا اية صعوبة في فهم ما يليق عليهم ، فأحرز نجاحاً عظيماً واستمال الكثيرين الى العلم . وازدحت في الشارح الذي اقام فيه عربات الدوقات اللواتي كن راغبات في اضطرار نشاطهن وحماسهن . وحين اسند اليه الملك ، في السنة ١٧٥٣ ، القاء دروس علم الطبيعيات الاختباري في كلية « نافار » ، اضطرت هذه الاخيرة لان تفتح ابوابها امام الهواة : فقد بلغ مستعمو لوليه الستائة . وفي حديقة الملك ، كان الكيميائي « رويل » يشرح في القاء درسه معتمراً حجة مستعارة ومرقدياً اكاماً مطرزة . ولكنه كان يتنشط فينزح اكامه وجمته ثم يخلع ثوبه ويلتقي بنضو صداره عنه ويكمل درسه مرقدياً القميص فقط ، فتنتقل حياه الى مستمعيه . والقيت مثل هذه الدروس في كليات الولايات وفي مدن كثيرة من فرنسا وهولندا والمانيا . وامتن اناس كثيرون سبل معيشتهم بانتقالهم من مكان الى آخر لاجراء اختبارات في علم الطبيعيات : وكانت الكهرباء ما استهوى الجماهير واستمالها . ونشرت كتب كثيرة ، ينطوي بعضها على قيمة كبرى ، لجعل العلوم في متناول الجميع ، كـ « مشهد الطبيعة » للأب « بلوش » ، و « دروس علم الطبيعيات الاختباري » للأب لوليه (١٧٤٨) ، و « التاريخ الطبيعي » لبوفون و « تاريخ الكهرباء » لبريستلي (١٧٧٥) ، بالإضافة الى العديد من الموجزات والقواميس والكتب المدرسية التي اصدرت قباعاً واعيد

طبيها تكررأ . وكرست الصحف اعمدة طويلة للمؤلفات العلمية ؛ وقد تخصص بعضها في المنشورات العلمية .

عمت البلاد « فورة تعلم » و « حمى فهم » لم يكونا جديدتين ولكنها غدتا اقل ندرة . فان « جنيف دي مالبواسير » مثلاً ، التي تنتمي الى اسرة ثرية من رجال المال ، وتعرف اللاتينية واليونانية والانكليزية والاطالية والاسبانية ، وتؤلف المآسي والمهازل ، قد طلبت من يلقنها دروساً خاصة في الرياضيات وتعلمت لـ « فالون دي بومار » في علم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وقرأت بوفون . كما ان ابنة احد النقاشين ، وهي التي ستصبح السيدة « رولاند » ، قد درست الرياضيات وعلم الطبيعيات ، وقرأت الاب نوليه ، وعالم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي « رومور » والرياضي والفلكي « كليرو » . ودرس فولتير الرياضيات وجعل منجزات نيوتون في متناول الجميع . وتاب « ديدرو » دروس التشريح وعلم الوظائف والكيمياء باشراف « روبل » طيلة ثلاث سنوات ، وخلف اصولاً هامة في علم الوظائف . ودرس « جانت جاك روسو » الرياضيات وعلم الفلك والطب وحرر « انظمه كيميائية » مسهبة جداً . وقام فرانكلين باختبارات كهربائية . وواصل « غوته » ابحاثه في البصريات وعلم النبات . وتلقى ولي عهد فرنسا دروساً في علم الطبيعيات ، وكان جورج الثالث ملك انكلترا عالماً بالنبات ، واعاد « فكتور - اميداي » الثالث امير « سافوا » اختبارات الاب نوليه .

لا ريب في ان الاكثريه خلال القرن السابق كانت قد كرست مزيداً من الوقت لتمييز ادق فروق الشواعر البشرية ، والبحث طويلاً عن خير المفردات والصيغ للتعبير عنها باقتان وقوة وطلاوة وملاحة . ولا ريب كذلك في انها كانت تناولت الاقدمين مزيد من التأمل لتكتشف في ما خلفوه بعض الايجامات بصدده شواعر مجهولة او شواعر أسيء فهمها او مناويل تلسج عليها . وكانت قد استعانت بممارسة فحص الضمير والاختلاف الى كرسي الاعتراف ، ومحاولة بلوغ الكمال المسيحي بمراقبة الشواعر والاهواء مراقبة يقظى بغية توجيهها وجعلها تسام في الخلاص . ولكن الديانة ، في القرن الثامن عشر ، ما عادت لتقدم مثل هذا العون : فاذا استمر الكثيرون في الذهاب الى القداديس وكرسي الاعتراف ، فالقلب ، على العموم ، اقل اشتراكاً داخلياً ، وهم اقل ايماناً منهم في السابق ، ولا يشعرون في الغالب بدينهم ولا يعيشونه . واذا ما زالوا يهونون الادب ، فان اتساع الرغبة في المعرفة لا يترك لهم متسعاً من الوقت للتذوق والتبهر . الذوق سائر في طريق الفساد . ففولتير ومونتسكيو ينحدران الى دون مستوى بالوا انحداراً محزناً احياناً . وليس فولتير مبيداً احياناً عن تفضيل « سطوع » له تاس « الخادع على ذهب فرجيل » . اصف الى ذلك من جهة ثانية انهم يبادرون كلهم الى الارتقاء من الظواهر الى الاصول ، وربطها بفلسفة العصر العمامة ، وممارسة « ميتافيزيقية القلب » كما قد يقول دالمبير . يهلون فحص الواقع ؛ وغالباً ما تغدو السيكلوجية بدائية والتعبير جافاً ومجرداً . فاذا تقدمت العلوم ، فان الآداب قد تدهرت ، واذا نظرنا الى القرن الثامن عشر من هذه الزاوية فاننا نراه اقل

بروزاً بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

ولكن الشغف بالعلوم يساعد اعمال العلماء الذين اصبحوا موضوع اعتبار
مساندة
الراي والحكومات مشجع روجدوا الظروف والوسائل المادية لمواصلة اعمالهم . فافاضي
بوفون اعلان كوثنية بأمر يصدره ملك فرنسا . عشرة شعراء يتغنون
بمظلمته . يقام له تمثال وهو في قيد الحياة . مسكنه في «مونبار» يندو مزاراً . حين يموت ، تقام
كنيسة على المرتفع المقابل لعصره وتضاء شعوعها طيلة سنة كاملة . لا يدنو احد من مكتبته
« الا كما من معهد حارسه خادمه الشيخ وحبره ابنه » . جورج الاول ملك انكلترا ويطرس
الاكبر عاهل روسيا يزوران مختبرات « علماء الطبيعيات » . فردريك الثاني يستقبل العلماء
والفلاسفة حول مائدته ، وكاترين الثانية في مكتبها لمجالستهم ومبادلتهم الاحاديث .

لم يقتصر المسال على العلماء الذين كان باستطلاعهم ، في اوائل عهد علوم كثيرة ، التوصل الى
نتائج حسنة بأدوات محدودة . فقد استخدم الكيميائي « شيل » كؤوس الشراب عوضاً عن
« الاجراس » . وجميع الغازات كان يربط بمنق قنينة نفيسة جلدية يشدها بخيط حين تتلاءم
وبداً فرائضها في غسله في حقل الكهرباء بانبوب زجاجي وجدده . ولكن علم الفلك
والجغرافية ما كانا ليكتفيا بأدوات بدائية . وما اثبت الكيمياء ان فرضت المتطلبات نفسها :
فان مختبر « لافوازييه » قد ضم اجهزة دقيقة كبيرة الحجم شاققة الصنع . واستلزم اختبارات
كمية ضخمة من المحروقات . ومن حسن الحظ ان الملوك قد اسماوا الاكاديميات التي وفرت
لاعضائها المرتبات ومكانات الحضور واستثارت التنافس وكافأت الجهود بالجوائز ونظمت بمئات
علمية قدها الدولة بالاعانات المالية . اعطى المثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وحذا حذره
خليفته لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ثم اقتفي الزم في كل مكان . استمر لويس
الخامس عشر في إسناد ادارة اعمال كبرى تتعلق بعلم هيئة الارض الى اعضاء اكاديمية العلوم في
باريس : قياس خط الطول ، قياس المسافة بين « برست » و« ستراسبورغ » ، خريطة فرنسا العامة
لكسيفي . واوعز بايفاد بمئات علمية كبرى الى البيرو ولايونيا ورأس الرجاء الصالح بغية
قياس درجات خط الطول وتحديد المسافة من الارض الى القمر ، والقيام بمهام اخرى . فسارت
الحكومات الاخرى على هذه الخطى . اسس بطرس الاكبر « اكاديمية سان بطرسبورغ »
(١٧٢٤) . وارسل « هرونغ » لاستكشاف المضيق الذي يفصل آسيا عن امريكا ، والذي
حمل اسمه من بعده . وامرت القيصرتان آنا وكاترين الثانية بالقيام برحلات علمية الى سيبيريا .
واستحضرت كاترين الثانية الى « سان بطرسبورغ » الرياضي السويسري « ارلر » والقيلسوف
الفرنسي « ديدرو » . والحقيقة ان « اولر » هو من حرر « الرسائل الى اميرة المانية » في
الفلسفة والعلوم الاميرة « دانهالت ديسو » . وتأسست اكاديمية استوكهولم الملكية في السنة
١٧٣٩ ، وجمية كوبنهاغن الملكية في السنة ١٧٤٥ . واستدعى فردريك الثاني ملك بروسيا

الى اكااديمية العلوم في برلين بعض الرياضيين : الفرنسيين « مورتوي » و«المبير » و« لاغرانج » والسويسري برنولي . اما جورج الثالث ، ملك انكلترا المشهور بتقديره ، فقد انفق بسخاء على العالم الفلكي « ولج هرشل » وعين له مرتباً شهرياً قدره ثلاثون جنيه وقدم له مسكناً مجاوراً لقصر « سلو » الملكي انشأ فيه مرصداً حقق فيه اكتشافاته . لابل تواطأت الحكومات الاوروبية للايعاز بمراقبة مرور الزهرة امام الشمس في السلتين ١٧٦١ و ١٧٦٩ بغية تحديد المسألة بين الشمس والارض . وكان انتهاز الفرصة امراً واجباً اذ ان مروراًي الزهرة ، اللذين تفصلها فترة ثماني سنوات ، لا يتكرران الا كل مائة وعشرين سنة تقريباً . فقام الانكليس بالرصد في تاهيتي وجون « هدسون » و«مادراس » والدانمركيون قرب رأس الشمال ، والاسوجيون في فنلندا ؛ والروس في لابونيا وسيبيريا ؛ والفرنسيون في كاليفورنيا وبونديشيري . اتحدت اوربا اذئذ لزيادة معرفة البشرية . ولم تكن النجاحات المهرزة بالحقائق الكبرى والجميلة والمفيدة لتجر على الحكومات سوى نفقات ضئيلة اذا ما قورنت هذه النفقات بما تتطلبه الدبلوماسية والحروب : فان « لاكاي » ، الذي اوفدته الحكومة الفرنسية الى رأس الرجاء الصالح في السنة ١٧٥١ لرصد القمر بغية تحديد المسافة بينه وبين الارض ، لم ينفق بعد اقامة اربع سنوات نفدً خلاها المهمة المسندة اليه وحدد بدقة مدهشة مكان اكثر من ١٠٠٠٠ كوكب في سماء نصف الكرة الجنوبي سوى ٩١٤٤١٥ فلساً بما في ذلك نفقات صنع الآلات .

يرد تقدم العلوم ونفوذ العلماء جزئياً الى ان التخصص ، على الرغم من ازدياده ،
 ما زال متأخراً جداً عما هو عليه اليوم . ما زالت معرفة الطبيعة في القرن
 الثامن عشر تدعى فلسفة ؛ وما زال أولئك الذين يدرسون سنها يطلقون على
 انفسهم اسم « الفلاسفة » . اصف الى ذلك من جهة ثانية انهم كلهم يعرفون مؤلفات الفلاسفة
 ببحر المعنى الذين يستخلصون من الاكتشافات العملية مبادئ وروحاً ويثبتون نتائجها على
 الكون والانسان . بواسطة مثل هذه المؤلفات كان للعلوم مزيد من النفوذ . ان بوفون مدين
 بمبادئه الموجهة الى لينيز ، ومونتسكيو مدين بمبادئه للمبرانش ، وكلهم مدينون لأرسطو
 وديكارت . زد على ذلك انهم يمارسون علوماً عدة . فالعالم الرياضي والفلكي لابلاس يسهم في
 اختبارات لافوازييه التي تنازلت الحرارة الحيوانية والتنفس . والعالم الرياضي اولر يخوض في
 نظرية القياس كما يخوض في النظريات الطبيعية حول حدوث الموجات والتموج . والطبيب
 لامتري ينقل المذهب الآلي الى عالم الاخلاق . وان في ذلك لفائدة ، اذ غالباً ما ينتج النجاح
 عن تطبيق اسلوب احد العلوم وتناجحه على علم آخر . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اكثرية
 العلماء يحققون او يكملون تحصيلهم العلمي برجوعهم الى الابحاث الاصلية ، وذلك بفضل
 ثقافتهم الكلاسيكية . فان رياضيين كثيرين كانوا قادرين على ان يرجعوا من اليونانية
 « العناصر » لاوكليد ، ومن اللاتينية « الهندسة » لديكارت « والمبادئ » لنيوتون . وبذلك
 اضافوا الى تميزهم في ادراك فكر المعلم ادراكاً مباشراً تميزهم في رؤية توسع علمهم حقيقياً

وتاريخياً وكيفية تكون المسائل حقاً وكيفية وجود الحلول التي أثارت مسائل أخرى . فصحان لديهم من ثم اوضح فكرة صائبة عن علمهم وروحهم وأسلوبه وسيره ومستقبله .

الا انهم بدأوا يواجهون صعوبة جديدة : فعلى غرار الفرنسيين اخذ العلماء يكتبون ، لا باللغة اللاتينية ، بل بلغتهم الام ، مع ان مؤلفات علمية كثيرة ما زالت توضع باللاتينية . فأشار دالمبير منذ منتصف القرن الى مساوىء الطريقة الجديدة : «ان الفيلسوف الذي يريد التعمق في درس مكتشفات سابقه سيضطر الى تحميل ذاكرته سبع او ثمانى لغات مختلفة ؛ وبعد ان يكرس لتعلمها اثنى وقت من حياته ، سيموت قبل ان يشرع في الدرس والتثقف » . وقد حار لافوازييه في امره حين اراد الرجوع الى مذكرات الكيميائي الانكليزي بريستلي : ولكن من حسن حظه ان امرأته تمكنت من ان تترجمها له . الا ان سواد العلماء ، حين لا يكتبون باللاتينية ، يستخدمون الفرنسية ، لغة اوروبا الشاملة . هذا ما فعله العلماء الآتون من بال ، علماء الرياضيات من عائلة برنولتي ، واولر الشهير ؛ وهذا ما فعله كذلك علماء اكااديمية برلين واكاديمية سان بطرسبورغ .

وجملة القول ان العلماء وجدوا ظروف عمل مرضية جداً نسبياً .

الفصل الثاني

الرياضيات

صدرت مؤلفات جميلة كثيرة ، ولكن مبدأ جديداً وجوهرياً واحداً لم
يكتشف . توسع علماء الرياضيات في تحليل الكمية الصغرى التي اكتشفها
تحليل
الكمية الصغرى
في القرن السابع عشر نيوتون وليبنيز اللذان استخدمتا أعمال ديكرات
« وفرما » . ان الحساب الجديد الذي يظهر حالة قدر معين في برهة معينة وبين في آن واحد
كيف يتبدل في هذه البرهة قوة واتجاهها ، قد اتاح لعلماء الفلك والطبيعيين درس الحركات
الدائمة . وقد اقبل الناس على قراءة الطبعة الثالثة لـ « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية »
لنيوتون التي ظهرت في السنة ١٧٢٦ ، و « اسلوب المدود » لنيوتون ايضاً الذي وُضع في السنة
١٦٧١ ، وترجمه تلميذه كولسون وظهر في السنة ١٧٣٦ . ولكن نيوتون وليبنيز قد تركا
حساب الكمية الصغرى ناقصاً جداً خلفين فيه قضايا دونما برهان ، ومسائل عديدة دونما حل ،
وعددًا من الايحاءات والمقترحات . فجاء خلفاؤهما يكملون ، ويوضحون ، ويشبتون .

انجز علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر اعمالاً عملية في جوهرها : فان ما اتوه هو
طرائق لحل المسائل التي طرحها علماء الآليات والفلك ، ولتفسير الوقائع التي ترفع النقاب
عنها ملاحظة الفلك او الاجسام الارضية . وان المسائل التي عالجوها هي شكل شراع
مستطيل فعرته الرياح ، و « وخط اسرع المجدار » بين خطين عموديين متعاقبين ، ورسم
شعاع ضوئي يجتاز « طبقات مختلفة الثقل النوعي » ، وسبب الرياح ، وحركات السوائل ،
والاوتار المترجرجة ، واشكال الارض ، وحركات القمر ، والترجيح والتأكدات . فحسنوا
من ثم الاداة الحسابية تحسيناً مدهشاً . في السنة ١٧٣٥ حل اولر ، في ثلاثة ايام ، بوسائله
الخاصة ، مسألة فلكية كان عدد من مشاهير علماء الرياضيات قد طلبوا عدة اشهر لحلها
بوسائل قديمة . وفي القرن التاسع عشر ، استطاع « غوس » حلها ، بطرائق افضل اجمالاً ،
في ساعة واحدة . فصل علماء الرياضيات فصلاً تاماً بين التحليل والهندسة .
في الحقبة السابقة ، درجوا على حل المسائل المطروحة بشكل هندسي وعلى تحويل نتائج
الحساب الى شكل هندسي . اما في القرن الثامن عشر فقد جمعوا من التحليل علماً مستقلاً ،

وبلغ من تدلل « لاغرانج » ، في النهاية ، انه لم يورد في كتابه « علم الآليات التحليلي » اي شكل واي رسم بياني .

في الثلث الاخير من القرن السابع عشر ، كان كبار علماء الرياضيات انكليزا كنيوتون او ألماناً كليبنيز. وفي القرن الثامن عشر ، كانوا سويسريين وفرنسيين . اما السويسريون ، عائلة برنولي واولر (١٧٠٧ - ١٧٨٣) ، من بال ، فقد استهوتهم ، بالفضل ، المسائل الخاصة والاكتشافات الكبرى للحقائق الجزئية ، وكان اولر مخترعاً لا يعرف الكلال اوحى بأكثر الآراء الكبرى التي توسع فيها خلفاؤه . واما الفرنسيون ، كليرو (١٧١٣ - ١٧٦٥) ، ودالمير ، ولاغرانج (١٧٣٦ - ١٨١٣) ، ولابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧) ، فكانوا بالفضل عقولا تألفية تكتشف الطرائق الباردة وتوجز في نتائج عامة تنوع الحالات الخاصة الكثيرة جداً . وقد شرحوا ونشروا ، بالإضافة الى ذلك ، مذهب نيوتون في نظام العالم وطبقوا الحساب الجديد على علمي الآليات والفلك وبنوا علم الآليات الفلكي . لقد مارست فرنسا نوعاً من الملكية الرياضية .

لعل المحطات الانكليزي النمسي يزد من جهة الى ان نيوتون قد خلقت طريقتة الحسابية اقل اكتمالاً من الطريقة التي خلقتها ليبنيز ؛ ومن جهة ثانية الى المشادة التي قامت بين الانكليزي والامان والسويسريين حول هذا السؤال الهام والمدمم الفائدة : من هو المكتشف الحقيقي لحساب الكمية الصغرى ، ليبنيز ام نيوتون ؟ فقد حدثت المهادلة من تبادل الآراء بين علماء الرياضيات في البر الاوروبي وعلماء الرياضيات في انكلترا . اكتفى الانكليزي بالاسباب نيوتون ، وحق السنة ١٨٢٠ جهلوا الاكتشافات الهامة التي تحققت في البر الاوروبي . لا بل انهم تراجعوا الى الوراء . فبينما طبق « بروك تايلور » ، في السنة ١٧١٧ ، حساب الزيادات المتناهية في السك ، ووضح نظريته الشهيرة ، استخدم « ماك لورين » في السنة ١٧٣١ ، في كتابه « بحث في المدود » او الكميات التي تتزايد بمد متواصل ، البراهين الهندسية لاضفاء صبغة الضبط والتدقيق على ما يقدم ، ووضح بعد ذلك بشكل هندسي النظرية القائلة بان حججها سائلا يدور حول محور يتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل مجسم ناقص بفعل الدوران . فأعاد بذلك انتباه مواطنيه الى الهندسة وجعلهم يهتمون التحليل . وهكذا عمل الانكليزي في حجرة مغلقة إذا صح التعبير ، فخدم نشاطهم شيئاً فشيئاً .

اما في البر الاوروبي فكان وضع الفرنسيين ملائماً لتقبل الحساب اللينيبي والحساب النيوتوني معاً . وكان من ازدهار الرياضيات ، بفضل اعمال ديكارت ، في اكااديمية العلوم في باريس وفي كلية فرنسا ، ان برزت هنالك عقول معدة خير إعداد لاستساغتها واستخلاص ما تنطوي عليه .

«الهندسة الوصفية» على الرغم من المكانة الرفيعة التي احتلتها التحليل ، اكتشف فرع جديد للهندسة هو الهندسة الوصفية . ويعود الفضل في ذلك الى الفرنسي «غاسبار مونج» (١٧٤٦ - ١٨١٨) . كان ابن حانوتي في بون (Beune) ، لفت الانتباه اليه رسم وضعه للمدينة التي نشأ فيها ، وعين مساعداً فنياً في مدرسة الهندسة الملكية في «ميزير» ، فاستغرب تعقد الوسائل المستخدمة لوضع مخططات التحصينات ورسومها الداخلية ، وطول الحسابات الضرورية. منذ السنة ١٧٦٦ ، حوّل الطرائق البيانية المختلفة التي يستخدمها المهندسون العسكريون والبنّاؤون ومهندسو العمارة والنجارون والفنانون الى تقنية عامة ذات نسق واحد مرتكزة الى البراهين الهندسية البسيطة والمدققة . فكان عمله هذا مولد الهندسة الوصفية . اعتمد قائد المدرسة الطريقة الجديدة بجرص كلي ، وفي السنة ١٧٦٨ عينه استاذاً للرياضيات ولكنه لم يسمح له بإشهار اكتشافه بسبب المنافسة القائمة بين المدارس العسكرية . الا انه انتشر بعض الانتشار بواسطة الضباط المتخرجين من المدرسة ، ولكنه لم ينشر مطبوعاً للمرة الاولى الا في السنة ١٧٩٥ .

علم الآليات العقلية
 لقد دفع علماء التحليل بعلم الآليات العقلية الى الامام. كان جوهره قد اكتشف في اواخر القرن السابع عشر في اعقاب اعمال هويغنس الذي وضع اساس هذا العلم ، واعمال نيوتون الذي صاغ في «مبادئه» مجموعة كاملة من القضايا وحدد الشكل الذي يبنى عليه علم الآليات العقلية . ومنذ عهدهما حتى السنة ١٩٠٠ لم يوضع اي مبدأ جديد حقاً . وما العمل الذي انجز بعدهما سوى توسع استنتاجي وصورتي وحسابي في المبادئ النيوتونية . وقد لعب الفرنسيون الدور الاول في ذلك . فان دالمبير قد اوجز ونسّق ، في كتابه «بحث في علم القوى» ، الاكتشافات المحققة وردّها الى بعض الطرائق البسيطة ، ومنها النظرية المعروفة باسمه التي اعطت الوسائل العملية لاستخدام الاختبارات المعروفة والمدروسة . فكفى العلماء مؤونة التفكير بصدد كل حالة خاصة جديدة . وصاغ موبرتوي ، منذ السنة ١٧٤٤ ، مبدأ اقل كمية عمل . لاحظ ان النور «حين يمتاز اوساطاً مختلفة لا يسلك اقصر طريق ولا طريق اقصر وقت» ، فاقترح ان تعتبر الطريق التي يسلكها النور في انكسار اشتمته وكأنها الطريق التي تكون كمية العمل فيها اقل كمية ممكنة . «ان كمية العمل هي حاصل ضرب حجم الاجسام بسرعتها وبالمسافة التي تجتازها» . ولكن عالم الطبيعة هذا كان منهمكاً باعتبارات ميتافيزيقية . فهو قد كان راغباً في ان يجعل من هذا المبدأ ناموساً عاماً من نواميس الطبيعة ، يجوز تطبيقه على حركة الحيوانات ونمو النباتات ودوران الكواكب . وقد ظن انه اذا ما اظهر كيف ان الكون يخضع لناموس واحد ، فهو انما يمطي فكرة سامية عن حكمة وعظمة الله تعالى ويقدم برهاناً جديداً على وجود الله .

قام علماء الطبيعيات من بعده بتجريد مبدأه من كل صبغة ميتافيزيقية واعادته الى الحالة الموضوعية . فصاغه اولر في السنة ١٧٥١ على الشكل التالي : «حين يحدث تفسير ما في الطبيعة ،

تكون كمية العمل الضرورية لهذا التغيير اصغر كمية ممكنة . واوضحه واستخلص منه طريقة « الكبريات والصغريات » وطبقه على الحركة المدسية الشكل التي تخضع لها الاجسام الوازنة . وعلى الحركات التي تجدها قوة مركزية ، الخ . ولكنه ما زال ينظر الى اجسام منعزلة لا الى مجموع اجسام تخضع لنظام واحد ، وما زال يرى في المبدأ ناموساً شاملاً من نواميس الطبيعة . اما لاغرانج فقد ترك جانبا ، في « علم الآليات التحليلي » ، كل اعتبار ميتافيزيقي وحصر المبدأ في علم الآليات ، ولكنه طبقه على مجموع الاجسام الخاضعة لنظام واحد بفضل اداة رياضية جديدة ، هي حساب التغيرات . وقد نظر الى المبدأ لا كما الى مبدأ ميتافيزيقي بل كما الى « نتيجة بسيطة وعامة لنواميس علم الآليات » . فسيطرت على « علم الآليات » الروح الموضوعية . كما ان لاغرانج قد نشر « علم الآليات التحليلي » ، في السنة ١٧٨٨ ، خلوأ من كل شكل هندسي . « لن يجد القارئ اي شكل في هذا المؤلف » (مقبمة) . استنتج كل علم الآليات من مبدأ السرعات الافتراضية بضبط ولباقة كاملين . فجاء عمله بناء تاماً لعلم الطبيعيات انطلاقاً من مبدأ مجرد واحد مع ما يستلزمه هذا العلم من صيغ تتوالى « وكانت ابيات قصيدة علمية » . انه لعمل بطولي متقن ينطوي على أهمية نظرية عظمى يلسق ويوجز عمل قرن كامل ، ولكن سخاوه من الاشكال لا يجعله سهل الاستخدام مهما كان رأي لاغرانج في ذلك .

وهكذا فان علم الرياضيات ، العلم الكامل في نوعه ، هو نموذج كافة العلوم ، « المهندس » والرياضيون ، او « المهندسون » كما دعوا آنذاك ، مثال العالم بالذات . وفيما يلي وصف الصورة التي كونها القرن عن المهندس كما يراها عالم الفلك « بايبي » :

المهندس رجل يتولى اكتشاف الحقيقة ، وان مجته هذا البحث شاق ابدأ في حقل العلوم كما في حقل الاخلاق على السواء . عمق نظر ، وسلامة حكم وخيال حاد ، تلك هي صفات المهندس : عمق نظر لرؤية كافة النتائج لمبدأ ما ؛ ... سلامة حكم ... للارتقاء من هذه النتائج المنفردة الى المبدأ الذي ترتبط به . ولكن ما يعطي هذا العمق ويصدر هذا الحكم هو الخيال الذي يفعل فعله داخل الاجسام . يرسم صورة كيانها الباطني ؛ ... يشرح الشيء اذا صح التعبير ... وبعد ان يظهر الخيال كل شيء ، الصعوبات والوسائل ، يصبح بمكنة المهندس ان يسير الى الامام ؛ واذا هو انطلق من مبدأ لا مراة فيه يجعل الحل المقترح اكيداً ، اعترف له الناس بالمقل الرشيد ؛ واذا ما أرشد هذا المبدأ البسيط جداً الى اقصر الطرق ، كان المهندس لبقاً في فنه ؛ ويكون عبقرياً اخيراً اذا ما توصل الى حقيقة كبرى ومفيدة وغير داخلة في الحقائق المعروفة ...

كانت « الهندسة » الاعداد العقلي لكل من يرغب في ان يصبح « فيلسوفاً » . اما الروح الهندسية فهي روح كل هذا القرن الذي اشتهر بالاستنتاج والتعميم .

علم الفلك

في حقل علم الفلك ، اكمل الفرنسيون اعمال نيوتون . وبنوا علم الآليات الفلكي وجعلوا من علم الفلك علماً كاملاً ، مثال علوم الطبيعة . واطهر تقدم علم الفلك الطريق التي يجب ان يسلكها كل علم . واعطى علماء الفلك خير امثلة عن البرهنة الاختبارية . وغدا علم الفلك كدرسة في كافة الحالات التي تنطوي على الملاحظة والاختبار والبرهنة الاختبارية . فيجب من ثم ان لا نمر به مرور الكرام .

مر علم الفلك قبل القرن السادس عشر ، على غرار كل العلوم الاخرى ، في مرحلة طويلة من ملاحظة الظواهر وابتداع الافتراضات بغية تفسيرها واخضاعها للحساب . ثم جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر عهد اكتشاف النواميس التي تخضع لها الظواهر . كان كوبرنيك قد استدل بالظواهر على حركات الارض على نفسها وحول الشمس ؛ وكان كبار قد اكتشف نواميس حركة السيارات . وكانت اخيراً ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، المرحلة الثالثة : الارتفاع من هذه النواميس الى المبدأ الذي يفسرها كلها ، وهذا ما كان نيوتون قد فعله بمبدأ الجاذبية الشاملة .

مسألة الجاذبية ما زالت آراء نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر بحاجة الى إثبات . في البدء حل نيوتون المسألة التالية : ما هي القوة المحركة المفترض تسليطها على السيارات اذا كانت هذه السيارات خاضعة لنواميس نيوتون ؟ وكان قد اجاب عن السؤال بان هذه القوة يجب ان تكون ، لكل سيارة ، موجبة نحو الشمس ونسبية لحجم السيارة ، وان تتغير بتناسب عكسي لمربع المسافة . ثم واصل تأملاته ، فتبادر لذهنه ان هذه الجاذبية ليست محصورة في تأثير الشمس في السيارات ، وان القوة نفسها تدير القمر حول الارض ، وتسقط الاجسام الوازنة على سطح كرتنا الارضية ، لا بل ان هذه القوة تجعل كل ذرة مادية تؤثر في كل ذرة مادية اخرى وانها متبادلة في كافة المحاء الكون . هذا هو مبدأ الجاذبية الشاملة .

لكننا نوجب إثبات النظرية ورؤية ما اذا كانت الوقائع المعروفة تدخل حقاً في هذا المبدأ ،

وإذا ما كانت المعارف الجديدة الممكنة حول النظام الشمسي تدخل فيه . لقد اصطدم مبدأ نيوتون في الواقع باعتراضات نظرية كبرى . فقد بدا وكأن الجاذبية تفرض تأثيراً عبر المسافات لم يتوصل احد الى تصوره بوضوح . واتهم الكهريزيانيون نيوتون ببعث الخصائص الخفية . اما نيوتون فكان يصرح انه يرى الظواهر رأي العين ويحسبها ويضع نواميسها ولا يريد ان يؤكد شيئاً بصدد طبيعة الجاذبية واسبابها . ولكن تلاميذه كانوا يؤكدون بأن الجاذبية مردها تأثير حقيقي عبر المسافات وبانها خاصية جوهرية من خصائص المادة . فبدوا وكأنهم يرجعون القهقري نحو الفلسفة المدرسية . وقد كتب لينينز في السنة ١٧١٥ ما يلي :

« ... الجسم لا يتحرك طبيعياً الا يجزم آخر يدفعه بالتصاقه به ؛ ويستمر في الحركة بعد ذلك الى ان يعيقه جسم آخر يتصل به . كل حركة أخرى في الجسم اما عجابية واما خيالية .. بهذا تنهار الجاذبيات بالمعنى الحصري والتأثيرات الاخرى التي لا تفسرها طبائع مخلوقات والتي يجب اللجوء في تفسير حدوثها الى المعجزة او الى المحالات ، اي الى الخصائص الخفية التي تقول بها الفلسفة المدرسية والتي اخذ البعض يطمعون علينا بها تحت اسم القوة الموهمة ، ولكنهم يعيدوننا بذلك الى مملكة الظلمات ، ... »

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وقائع كثيرة لم يحسن تفسيرها عملياً ؛ كمد البحر وجزره مثلاً ؛ اجل لقد عزاها نيوتون الى جاذبية الارض والشمس ولكنه لم يضبط حساب قوتها ولم يتلعب بالتفصيل نتائج الشمس والقمر ؛ افترض كوكباً دون حركة يرفع ويخفض المياه على كرة غير متحركة . فتعرض بذلك لتهمة التحكم ، وتهمة الابتعاد عن الوقائع وسد فراغ المعرفة بالالفاظ . وما زال على الجاذبية ان تفرض نفسها .

ان عمل امتحان النظرية قد تم بطريقتين : البحث عن وقائع جديدة قد تؤدي براهين الجاذبية او تبطل الافتراض ، لا سيما قبل السنة ١٧٥٠ ؛ تفسير الوقائع بالتفصيل بحساب اجري وفاقاً للافتراض ، لا سيما في النصف الثاني من القرن .

سبق لنيوتون وهويغنس أن أعلننا قدرة كافة الكواكب على الجاذبية . فهل تسلطت الارض ايضاً ، على كافة الاجسام ، جاذبية نسبية لحجم هذه الاجسام هي ثقل الاجسام في نظر البشر ؟ كان مفروضاً ان يتغير هذا الثقل وفاقاً لمكان وجود الجسم على سطح الارض ؛ لما كانت الارض تدور حول محور وهمي يمر بالقطبين ، كانت القوة المبعدة عن المركز كبيرة عند خط الاستواء خصوصاً ومتناقصة باتجاه القطب ؛ وكان مفروضاً ان تكون الاشياء اقل التجذاباً عند خط الاستواء ؛ كما كان مفروضاً أن تكون الارض قد ارتفعت عند خط الاستواء اكثر منها عند القطب ؛ فوجب من ثم أن لا تكون كرة كاملة بل مسطحة بعض التسطح عند القطب . كان نيوتون وهويغنس متفقين الرأي على هذه النقطة . ولكنها اختلفا بعد ذلك ؛ فقد عزا نيوتون هذه الجاذبية الى كافة اجزاء المادة ؛ وكانت ، في نظره ؛ شاملة حقاً ؛ وقد حسب ان التسطح

يجب ان يكون بنسبة ١ الى ٢٣٠ من محيط الدائرة . اما هويغنس فقد اعتبر ان الثقل قوة ترد الى الكرة ككل واحد ؛ وأنكر الصفة الشاملة للجاذبية ؛ فوجب من ثم ، في نظره ، ان يكون التسطح أقل بكثير مما توصل اليه نيوتون ، أي بنسبة ١ الى ٥٧٨ من محيط الدائرة فقط . ولمعرفة ما اذا كانت هذه القوة الجاذبة ، التي عزاها نيوتون الى الكواكب ، موجودة حقاً ، كان لزاماً معرفة ما اذا كانت الارض مسطحة عند القطبين ؛ ولتقديم الدليل على أن هذه القوة الجاذبة هي خاصية من خاصيات كافة الذرات المادية ، كان لزاماً تحديد النسبة .

بات ضرورياً ، لتحقيق هذه الغاية ، قياس درجة من درجات خط الطول ، بواسطة مسح الارض ، في أقرب مكان ممكن من القطب ومن مقاييس موريتوي ولاكوندامين
خط الاستواء : فاذا لم يكن محيط الدائرة كاملاً ، أي اذا كان مسطحاً عند القطب ، يكون قوس الدرجة عند خط الاستواء أقصر منه عند القطب . فبادرت أكاديمية العلوم في باريس الى البحث . أوفدت بعثتان في السنة ١٧٣٥ : احدهما الى البيرو ، مع لاكوندامين وبوغر ؛ والثانية الى أقصى خليج بوتنيسا في لايبونيا ، مع موريتوي وكليرو . قاس هذان الاخيران الدرجة ٧٦ من العرض الشمالي ، ووجدوا في السنة ١٧٣٦ ان طولها يبلغ ٥٧٤٣٨ « تواز » [التواز يساوي ٦ اقدام] ، أي انها زادت ٣٧٨ « تواز » عن الدرجة التي حددها بيكار بين باريس واميان عند الدرجة ٥٠ من العرض الشمالي . فكانت الارض من ثم مسطحة عند القطب كما سبق لنيوتون وهويغنس ان اعلنا ذلك . ولكن بضع مئات من « التوازات » ، بالنسبة لبضع عشرات الوف ، فرق زهيد جداً ؛ أو ليس هنالك تعرض للخطأ؟ كان موريتوي قد تنبه للامر ؛ فافترض أنه اخطأ أبداً في مثلثاته بعشرين ثانية عند قياس الزاويتين الاوليين ، وبأربعين ثانية عند قياس الزاوية الثالثة ؛ وان هذه الأخطاء تسير ابدأ في اتجاه واحد وتؤول طبعاً الى انقاص القوس ؛ فلا يكون الخطأ ، في هذه الحالات القصوى سوى ٥٤ « تواز » ونصفاً . وهكذا لم يبق مجال لأي ريب . وقد تأيدت حسابات موريتوي وكليرو ، بعد مرور ثماني سنوات ، بحسابات لاكوندامين وبوغر في سكتو . صرف هذان الاخيران وقتاً أطول لأن نوامي المنطقة الاستوائية أخرت عملها . قاسا الدرجة ٣ من العرض الشمالي متخذين كل الاحتياطات الممكنة بغية تحاشي الأخطاء الاتفاقية الناجمة عن تعيب الملاحظ وشرود فكره ، أو عن الظروف الجوية السيئة . قيست قاعدة الثلث الأول ، التي تتوقف عليها كافة الحسابات اللاحقة ، بواسطة فريقين مختلفين قاما بهذا العمل كل على حدة . هذا « أحد أصح البراهين التي يمكن أن تخلف للأجيال الآتية » . ووجدوا أن قياس الدرجة هو ٥٦٧٧٥ « تواز » . ولكنها قاما بالقياس في أرض مرتفعة فحدث كل شيء كما لو قاسا محيط دائرة أكبر . توجب من ثم رد القياس الى مستوى البحر فحصلنا نهائياً على ٥٦٧٧٣ تواز للدرجة . كان نيوتون وهويغنس على حق بصدد النقطة الأولى ؛ الأرض مسطحة عند القطبين ، والقوة البعده عن المركز تنقص الثقل عند خط الاستواء ؛ والثقل ليس احدى خاصيات الأجسام بل احدى ظواهر الجاذبية الارضية .

ولكن القياسات المجرأة قد أثبتت ان التسطح يبلغ $1/178$ من محيط الدائرة في القطب . وهذا ما أيده في فرنسا منذ السنة ١٧٤٠ قياسات خط الطول بين دنكرك وبرينيان باطالة الدرجات تدريجياً نحو الشمال . وما كانت القوة اللازمة لاحداث مثل هذا التسطح لتتأتى الا من جاذبية كافة أجزاء الارض : اذن الجاذبية شاملة : وقد أصاب نيوتون في رأيه ضد هويغنس .

اثبت الفلكي بوغر ذلك باختبارات غاية في البساطة على جاذبية الجبال . وقد ملاحظت
بوغر ومسككين
سُجر الى درس هذه الاخيرة على حدة بينما كان يبحث عن حقيقة ما اذا كانت الجاذبية تتسلط بنفسه عكسية لمربع المسافات . سبق لبعضهم ان لاحظوا ان الساعات ذات الرقاص تتأخر تحت خط الاستواء : الثقل اقل ، والرقاص « يجتذب » بقوة اقل ، فحركته من ثم اقل سرعة . ولضبط الساعة ، وجب تقصير الرقاص ، وهذا مما يزيد سرعة ذبذباته . وقد وجد بوغر في كيتو على ارتفاع ١٤٦٦ تواز فوق مستوى البحر ، بالاضافة الى ذلك ، انه يجب تقصير الرقاص $33/100$ من الخط الذي كان يرمعه عند مستوى البحر . وظن ان هذا الواقع مرده اقترابه من الشمس التي تزداد جاذبيتها . وكى يكون على بينة من الأمر نقل الرقاص الى قمة جبل « بيشنشا » على ارتفاع ٩٦٨ تواز فوق كيتو . وهنا ايضاً وجب تقصير الرقاص $19/100$. وكاد يكون هذا النقصان متناسباً عكساً لمربع المسافات بحسب تاموس نيوتون . ولكن لماذا كاد يكون فقط ؟ تبادل الى ذهن بوغر ان الثقل ، اذا كان ينقص بفعل الارتفاع ، اي بالاقتراب من الشمس ، انما يزداد بفعل الجبل ، اي بزيادة حجم الارض الذي يزيد جاذبيتها : فكان الانسان ، في أعلى الجبال ، موجود على كرة كبرى ذات شعاع اكبر . والجبال بالتالي سبب من اسباب ازدياد الجاذبية .

ولكن ما تبادل الى ذهن بوغر لم يكن في هذه الحال سوى افتراض ، لا تفسيراً عن واقع . فبات اجراء الاختبارات امراً ضرورياً . ولكن كيف اجراؤها في علم الفلك حيث لا نستطيع في أغلب الاحيان ملامسة مواضيع المعرفة ، وحيث نمعز ابدأ عن تحريكها ؟ يجب اذن عزل الظواهر بالفكر ، وهم علماء الفلك من حققوا اكمل نماذج البرهنة الاختبارية . ففكر بوغر بعزل تأثير الجبل . وقد استخدم هذه النسيابة فادم ارباع الدائرة المستعملة لقياس علو الكواكب فوق الأفق . بين الفادم الخط العمودي بين مركز الارض وسمت الرأس . وهو عمودي لان الكرة الممدنية الصغيرة 'تجتذب' نحو مركز الارض . اذا ما وضعت هذه الاداة يجانب جبل متسع وعال ، كان واجباً ان يجذب الجبل الفادم اليه ويحمده عن الخط العمودي . ولكن ما هو السبيل الى رؤية ذلك ؟

اذا ما نظرنا الى كوكب بالمنظار المثبت في ربع الدائرة ، حددت الزاوية المتكونة من اتجاه المنظار والخط العمودي ، المسافة بالدرجات بين الكوكب
بوغر
وحياة الجبال
وسمت الرأس . ولكن اذا اجتذب الجبل الفادم ، فان سمت الرأس سيتأرجح من مكانه بالنسبة للمراقب . فالمرقبات التي تتناول كوكباً واحداً ، على خط عرض واحد ،

وبعداً عن الجبل ، ستعطي من ثم زوايا مختلفة . اختار بوغر جبل « شموراو » : لاحظ انتقال سميت الرأس من مكانه ، ومن ثم حياد الفادم ، وانتهى الى القول بجاذبية الجبال . ولكنه بقي في لبس من الأمر : فالانتقال كان ضئيلاً جداً ، وربما كانت الريح العاصفة التي هبت اثناء المراقبتين سبباً لحياد الفادم . الا ان الاسكتلندي مسككين قد اجلى كل ريب حول جاذبية الجبال بنتيجة ٣٣٧ مراقبة اجراها في اسكتلندا . وبما ان الجبال ، وهي صغيرة جداً اذا ما قورنت بالكرة الارضية ، قادرة على الاجتذاب ، فليس ما يحول دون قدرة اصغر اجزاء المادة على هذا الاجتذاب . فاعتبر حسنو النوايا ان نيوتون كان على صواب . وارتأوا ان الجاذبية لا تدرك مع ان حقيقتها لا ريب فيها : يجب الاعتراف بواقعها دون فهمها . وقد استخدم كليرو كل هذه الاعمال ليبرهن ان شكل الارض شكل قطع اهليلجي تقريباً .

تأييدت الجاذبية الشاملة بمراقبات « له مونييه » (١٧٤٦) . لقد سبق مراقبات « له مونييه » للعلماء ولاحظوا ان هنالك بعض التباين في حركة زحل حين يقترب من المشتري كل عشرين سنة . فاذا كانت نظرية نيوتون صحيحة ، كان مرد التباين جاذبية المشتري . ولكن ما هو السبيل الى عزل هذه الجاذبية عن جاذبية الشمس ؟ توصل « له مونييه » الى ذلك بان درس ، بين المراقبات القديمة فقط ، تلك التي كان مفروضاً ان يتلقى زحل اثناءها التأثير نفسه من الشمس حين يكون موجوداً في النقطة نفسها من مداره ، وعلى المسافة عينها من الشمس ؛ فتبين له ان المشتري وحده ، في هذه الحالات ، كان موجوداً في امكنة مختلفة وعلى مسافات مختلفة . ثم قام له مونييه نفسه بالمراقبة في الظروف نفسها . فوجد اختلافات مطابقة في حركة زحل المبطئة ، وهو تأثير لا يمكن ان يتأتى إلا من حجم المشتري . اما حركة المشتري فكانت على نقيض ذلك تزداد سرعة . فبرز واقع الجاذبية جلياً في جزء آخر من النظام الشمسي ، وانكش المكان المتروك للشك . واكتشف العلماء اخيراً ان اقمار المشتري ترسم حوله قطعاً اهليلجياً وفاقاً لنواميس كبلر . فكان ذلك دليلاً على امكان تطبيق هذه النواميس على النظام الشمسي كله ، ولما كانت الجاذبية مبدأ هذه النواميس ، فقد تأيدت بها تأيداً غير مباشر .

اذا لم نستطع القول ان اختباراً بخصر المعنى قد اجري في جميع هذه الاعمال ، اذا ان المراقب لا يحول ولا يغير بنفسه الظواهر الطبيعية ، فهذا لا يعني ان الطريقة الاختبارية لم تطبق تطبيقاً كاملاً : فعلى غرار ما يجري في الاختبار ، أثبتت النتائج المستخلصة من المراقبات بمراقبات تناولت وقائع عزل بعضها عن البعض الآخر بالحيلة .

وهكذا فان وقائع خاصة جديدة قد ايدت نظرية نيوتون . وقدم علماء الرياضيات نوعاً آخر من البراهين باستخدام تحليل الكمية الصغرى . انطلقوا من المبدأ المشروح ، فاهتدوا بالاستنتاج الى كل نتائجه ، وكل المراقبات المجرأة ، واطهروا تسلسل الوقائع وتنبأوا تنبؤات تحققت .

إثبات الجاذبية
بالحساب

باستطاعتنا شرح طرائقهم على الوجه التالي : لنفترض جرمًا قذفته في الفضاء قوة دفعها متساو ودائمه ؛ سرعته معروفة واتجاهه محدد ؛ ما هي الطريق التي سيسلكها ، وما هو الخط المنحني الذي سيرسمه اذا كان ، كما يقول نيوتون ، يجتذبًا حقًا وباستمرار الى مركز جرم آخر موجود على مسافة معينة بقوة متناسبة عكسًا لمربع المسافات ؟ هذه هي مسألة الجسمين . في وقت قصير جدًا ، تميل « قوة الدفع » الى جعله يرسم خطًا مستقيمًا صغيرًا ؛ وتميل قوة الجاذبية الى جعله يرسم خطًا مستقيمًا صغيرًا آخر في اتجاه مختلف . يؤلف هذان الخطان الصغيران زاوية ويشكلان ضلعين من مسطح متوازي الاضلاع : ان الجرم يتتبع خط زاويتها في خضوعه للقوتين معًا ، وخط الزاوية هذا هو طريقه في هذا الوقت ، وجزء من المنحني الذي سيرسمه . وباستطاعتنا ان نرى كذلك طريقه في الهنيئة التالية ، وهكذا دواليك . خط الزاوية تفاضلي ، وبعقدورنا الارتقاء بواسطة حساب التكامل الى كميتها السكاملة المحدودة التي هي معادلة المنحني . ولا يمكن ان يكون هذا الاخير سوى قطع اهليلجي او دائرة او قطع زائد او قطع مكافئ .

اما مسألة الاجسام الثلاثة فأكثر تعقداً . لنفترض ثلاثة اجسام معينة بمواقعها واحجامها وسرعاتها ؛ ما هي الخطوط المنحنية التي سترسمها يجاذبيتها المناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربعات المسافات ؟ يقدم لنا نموذج هذه المسائل القمر الذي تجتذبه الارض وتجيده الشمس ، والذي يفادر في كل هنيئة القطع الاهليلجي الذي يرسمه . اقتضى اجراء سلسلة من المقاربات : حساب قطع القمر الاهليلجي كما لو كانت الشمس دون اي تأثير ، ثم حساب تأثير الشمس بحسب مكانها في كل هنيئة ؛ وهكذا توصل العلماء بحسابات طويلة وشاقة الى تحديد موقع القمر في كل هنيئة في الفلك .

ان كل ما اجري قد ايد نظرية نيوتون تأييداً كاملاً . اتفق الحساب والمراقبة ؛ اجري الحساب وحده فوضع الاجرام حيث وجدتها المراقبة بحسب الاوقات ، وعين المكان الذي وجدتها فيه المراقبة ؛ ودل على كافة الحركات ، حتى اصغرها ، واطهر كيف انها تنجم عن موقع الاجسام في الهنيئة السابقة ؛ وفسر بالنتيجة كل شيء . وهكذا فان اولر وماك لورين ودانيال برنولي قد فسروا بمبدأ الجاذبية حركة مد البحر وجزره ، وهو الموضوع الذي اقترحته اكااديمية العلوم في باريس ؛ وقد اخذوا بعين الاعتبار سير القمر والشمس ، والارض التي تدور حول نفسها ، وهذا ما يبعد الذرات المائية ، كما اخذوا بعين الاعتبار التأثير الذي يرفعها واحتكاك الماء بالقمر والشواطئ ، ففسر كل شيء .

احرز كليرو ، في السنة ١٧٥٢ ، جائزة اكااديمية سان بطرس
برج ببيان حول « نظرية القمر » ، المسألة التي اهلها نيوتون
والتي وجد هو لها حلاً يكاد يكون كاملاً . وفي السنة ١٧٦٤

نظرية السيارات والاقمار
ثبات النظام الشمسي

فسر لاغرانج السبب الذي من اجله يدور القمر ابداً الوجه نفسه نحو الارض ، ثم طلع بنظرية

اقهار المشتري فحل مسألة الاجسام الستة . وفي السنة ١٧٤٨ والسنة ١٧٥٢ احرز اولر جائزة اكااديمية العلوم في باريس باثباته اعمال له مونييه حسابيا وبتقديمه الدليل على ان التباين في حركة زحل والمشتري مرده جاذبيتها المتبادلة ؛ وبرهن حقيقة ظنّ طلع به جاك كاسيني يُردّ بموجبه التباين الى مكان المدارات الخاص ، وتكون الظواهر متناقضة في سنوات عدة ، وهكذا فانه سار في طريق اثبات دوام النظام الشمسي ، ولكنه ترك هذا المجد للابلاس . لقد ارتاب نيوتون واولر نفسه ، ان تستطيع قوى النظام الشمسي الكثيرة عدا والمتميزة اوضاعاً والمختلفة قوة المحافظة باستمرار على اتزان ثابت . وقد ظن نيوتون بأن يداً قوية انما تتدخل بين وقت وآخر لاعادة الاجسام الحادثة بفعل تأثيرها المتبادل الى مواقعها الخاصة . وكان ذلك في نظره اثباتاً لضرورة وجود الله . ولكن المراقبة اظهرت ان معدل سرعة كل من القمر والمشتري يزداد وان معدل سرعة زحل يتدنى . وبدا وكأن زحل سيخرج من النظام الشمسي والمشتري سيهبط على الشمس والقمر على الارض . فبرهن لابلاس في السنة ١٧٧٣ ان حركات السيارات ومعدل المسافات بينها ثابتة او عرضة لتغيرات دورية صغرى فقط . ثم برهن ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٧٨٧ ، ان التغيرات انما هي اختلالات دورية تخضع لناموس الجاذبية . فكان النظام الشمسي من ثم ثابتاً وخاضعاً بكليته لمبدأ الجاذبية الشاملة . ولا فائدة من ثم من وجود الله : فلم يعد لابلاس بحاجة الى هذا الافتراض .

المذنبات بيد ان اوضح إثبات للمبدأ ولقيمة الحساب ، قدمه كلير و في السنة ١٧٥٩ في موضوع مذنب « هالي » الكبير الحجم . فعلى الرغم من اعمال هالي ونيوتون ، ما زال الشك مخيماً حول ما اذا كانت المذنبات تظهر حقاً بعد فترات متساوية ، وما اذا كانت حركتها دورية حول الشمس ، وما اذا كانت هذه الحركة ثابتة ومنظمة ثبوت وانتظام حركة السيارات . ظهرت بعض المذنبات في السنة ١٧٢٩ ، والسنة ١٧٤٢ ، والسنة ١٧٤٤ ، والسنة ١٧٤٧ ، والسنة ١٧٤٨ . بالاستناد الى سرعتها واتجاهها ، حين كانت مائلة للعيان ، توصل علماء الرياضيات الى حساب مداراتها ووجدوا انها قطع مكافئ . فاذا كانت المذنبات تعود ثانية ، فعنى ذلك ان هذا القطع المكافئ هو جزء من قطع اهليلجي كبير جداً . ولكن هالي كان قد انبأ بعودة مذنب السنة ١٦٨٢ بعد مرور ست وسبعين سنة . وكان قد عاد من قبل بعد فترات ٧٦ سنة و ٦٢ يوماً و ٧٦ سنة و ٤٢ يوماً . بالاستناد الى المراقبات التي تناولت هذا المذنب في السنة ١٥٣١ والسنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٨٢ ، حسب كلير وعودته آخذاً بعين الاعتبار تأثير المشتري وزحل على سيره وانبا بأنه سيبلغ هذه المرة اقرب مسافة الى الشمس بعد مرور ٧٦ سنة و ٢١١ يوماً اي في ١٣ نيسان من السنة ١٧٥٩ . الا انه اضاف انه قد يكون اخطأ بشهر . وفي الواقع كان المذنب منظوراً منذ اواخر كانون الاول من السنة ١٧٥٨ ، وقد شوهد في باريس منذ ٢١ كانون الثاني من السنة ١٧٥٩ .

وبلغ اقرب مسافة الى الشمس في ١٣ آذار من السنة ١٧٥٩ . فأثارت دقة الحساب اعجاب العالم وثقته . وراقب المذنب كافة علماء الفلك وحسبوا عناصره ووجدوها متشابهة كل التشابه بعناصره في ظهوراته السابقة . فكان ذلك برهاناً على ان المذنبات ، على غرار السيارات ، ترسم قطعاً اهليلجياً تحتل الشمس احد محترقيه ، وذلك وفقاً لنواميس كيبلر . كما كان برهاناً على ان المذنبات ايضاً تخضع لمبدأ الجاذبية الشاملة . وقد احرز كليرو جائزة سان بطرسبورغ الامبراطورية في السنة ١٧٦٢ بحرضه نظرية المذنبات .

الا ان المذنبات ما فتئت تثير مخاوف الرأي العام . ففي السنة ١٧٧٣ تكلم «لاند» في اكااديمية العلوم عن امكان حدوث مدة عظيم بسبب مرور مذنب على مقربة من الارض قد يكون من شأنه غمر اليابسة . انتشر افتراض لاند في باريس ، ومالبت ان تشوّه بانتقاله من شخص الى آخر فامسى نبوءة بوقوع الارض في المذنب : لا بل لحدود يوم هذا الوقوع بالذات . غير ان «ديسيجور» قد بين ان احتمال هذا الوقوع ضئيل جداً اذ ان المذنب الذي بلغ اقرب نقطة الى الارض قد بقي على مسافة ٧٥٠٠٠٠ فرسخ ؛ وان المد مستحيل حدوثه اذ ان المذنب الذي يقترب حتى مسافة ١٣٠٠٠ فرسخ من الارض لن يبقى على مقربة كافية من الارض تمكنه التأثير في البحار سوى ساعتين ونصف الساعة بينما يقتضي للمذنب عشر ساعات و٥٢ دقيقة حتى يحدث المد وتغمر المياه الارض . كانت البرهان قاطعاً : لا تنطوي المذنبات على اي خطر .

وهكذا فقد قدم الحساب ، او « الهندسة » كما درج القول حينذاك ، اثباتات ساطعة لآراء نيوتون . اجل لقد كان بالامكان الاستغناء عن التحليل : فلو اجريت الوف المراقبات لانتهت كلها الى تقديم الدليل على ان نواميس نيوتون تتحقق ابدأ . ولكن علم الفلك كان في طريقه لان يسمي علماً استنتاجياً ؛ لقد بلغ كماله ، وفي اواخر القرن ، استطاع الفلكي بايتي كتابة ما يلي : « ان هذين العاملين [الهندسة وعلم الفلك] يتماسان اليوم تماساً يجعلهما يبدوان وكأنهما مختلفين » .

بينما كان المحترفون و « المهندسون » يستثبتون الافتراضات ، واصل المراقبون عمل الوصف وتوسع الكون توسعاً مدهشاً . وقد سهلت المراقبات لسلسلة من النجاحات التقنية التي ولدتها حاجات المراقبين . حدد بوغر ولاكلي انحراف الهواء في حالات الارتفاع والضغط والحرارة المختلفة ، فبات ممكناً والحالة هذه ان يؤخذ بعين الاعتبار حياد الاشعة الضوئية ، الصادرة عن الكواكب ، اثناء مرورها عبر الجو ، الذي يرينا الكواكب في مواقع غير مواقعها الحقيقية . وفي السنة ١٧٤٩ ، اضاف « كلود باسمن » الى المناظير حركة اشبه بجمرة الساعة اتحت منذئذ تتبع الكواكب بدقة في انتقالها . ولكن اهم التحسينات هي تلك التي ادخلت على المناظير والمراقب نفسها . ففي المناظير حيث تجتاز الاشعة الضوئية العدسات الزجاجية لتصل الى عين المراقب ، يعطي الزجاج نتائج

وسائل جديدة
للمراقبة

الموشور ، وتتلون الصور وتصبح غير واضحة ، ولذلك اخترع غريغوري ونيوتون المرقب حيث تعكس مرآة كروية الأشعة الضوئية . وفي السنة ١٧٤٧ خطر لأول ان يصنع مكبرات المراقب من عدستين زجاجيتين يوضع بعض الماء بينها ؛ فكان على الأشعة الضوئية والحالة هذه ان تمر في مواد مختلفة الخصائص في كسر الأشعة لتحلل الأشعة وتفصل بين الألوان تحليلاً وفصلاً مختلفين ؛ وقد استطاع العلماء ان يظهروا المضادة بين هذه النتائج وينقضوا نتيجة باخرى ويعيدوا الى الشعاع الملون هذا المزيج المضبوط الذي يكون بياض النور. ولكن استخدام الماء لم يكن سهلاً. في السنة ١٧٥٨ توفق عالم البصريات الانكليزي « دولوند » الى ان يكتشف ، بعد تردد ، زجاجات مختلفة الخصائص في كسر الأشعة ايضاً ، واستطاع ان يصنع مناظير تنفذ النور الابيض دون تحليله وتبلغ خمس اقدام طولاً وتعطي النتيجة نفسها التي تعطيها المناظير العادية البالغة اثني عشرة قدماً طولاً . وصنع ابنه مناظير تبلغ ثلاث اقدام طولاً وتعطي نتيجة منظار مصنوع بحسب المبادئ القديمة يبلغ ١٥ قدماً. فضلت المناظير المراقب فترة من الزمن. ولكنها استلزمت زجاجاً يدخل الرصاص في تركيبه ولم يرافقه النجاح الكامل صنعه الا اتفاقاً . لذلك عاد الانكليزي « وليم هرشل » وروج المراقب . كانت هذه الاخيرة تعطي صوراً غير واضحة بسبب التفاوت في الانحناء ؛ وهذا ما يعرف بزيفان الكروية . حاول هرشل اعطاء المرايا العاكسة اشكال قطع مكافئ وقطع زائد ؛ فأقصى بذلك زيفان الكروية . في السنة ١٧٨٩ كان لديه مرقب يبلغ ١٢ متراً طولاً و ١,٤٧ قطراً أحقق بواسطته اكتشافات روجت المراقب مرة أخرى .

ال اكتشافات
 ساعدت تحسينات الأجهزة على مواصلة استكشاف الفلك . ففي السنة ١٧٥١ ، حدد لأكاي ، في رأس الرجاء الصالح ، مواقع كافة النجوم المنظورة بين القطب الجنوبي وخط الجدي ووضع جدولاً بعشرة آلاف نجم . وفي السنة ١٧٨١ اكتشف هرشل السيارة اورانوس ؛ كما اكتشف في السنة ١٧٨٩ قمرى زحل السادس والسابع ؛ ولاحظ أن نجومًا ضعيفة الضوء كثيرة تحتوي على لواة لامعة وان بعضها يؤلف مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم .

اخذت تبرز امكانية وجود غوالم اخرى مأهولة . واعتقد مرصدا لندن وباريس باكتشاف جو يحيط بالقمر . فان كسوف الشمس في اول نيسان من السنة ١٧٦٤ قد بدا وكأنه يظهر المحرافا في الأشعة الشمسية لا يمكن ان يرد الا الى جو ، لان الشعاع يأتي من الشمس بسرعة فائقة تجمله ينجم من « جاذبية » (كذا) القمر . وكان الحياض ضعيفاً ؛ اذن الجو ليس كثيفاً . وحملت مراقبات أخرى على الاعتقاد بوجود جو حول المريخ والزهرة وعطارد . ارتدت السيارات والنجوم ارتداداً مدوماً الى الوراء في كون كان يتسع اتساعاً مطرداً. في السنة ١٧٥١ حدد لأكاي بمد القمر بـ ٨٥٤٦٤ فرسخاً . وأتاحت مراقبات دولية مشتركة أجريت في

السنة ١٧٦١ والسنة ١٧٦٩ لتحديد بعد الشمس عن الأرض بـ ٣٥ مليون فرسخ تقريباً وتحديد أبعادها بـ ١٤٠٠٠٠٠ ضعف أبعاد الأرض . ولاحظ « برادلي » ان الزاوية المتكونة من الخط المستقيم الذي يصل عين المراقب بأحد النجوم والخط المستقيم الذي يصل مركز الأرض بهذا النجم لا تعادل ثانية واحدة من القوس . ولا يلزم للقمر ثانية واحدة لكسف النجوم التي يصادفها . لذلك فان قطر هذه النجوم لا يحتمل مسافة نصف ثانية في الفلك . وهذا يفرهن ان النجوم أبعد من الشمس في الفلك بـ ٢٠٦٠٠٠ مرة ؛ ولكن اذا ما ابعدت الشمس الى مسافة توازي ٢٠٦٠٠٠ ضعف مسافتها لفدا اتساعها ٢٠٦٠٠٠ مرة اقل بما يبدو ولغدا قطرهما مساوياً لـ ١/١٠٧ من الثانية . اذن النجوم أكبر من الشمس وتحتمل مكاناً بعيداً خارج النظام الشمسي .

وهكذا ، على الرغم مما تبقى من جهالات واخطاء ، توفرت الظروف تاليف لابلاس الضرورية لكي يستطيع الانسان محاولة تصور نظام الكون ، وهذا ما حاوله لابلاس في كتابه « عرض نظام العالم » الذي تعود طبعته الاولى الى السنة ١٧٩٦ ، والذي هو كتاب حجة جمع وأوجز ورتب ونسق ، بتدقيق كلي ، كافة المعارف المحققة وتخطاها بان دفاع خيالية إله خالقت ، وقصيدة تثير الإعجاب وتشترك في مثل كبار الأنبياء المقدس ، وان اوغست كونت مدين له بالكثير مما كتب : فان قسماً كبيراً من « الفلسفة الموضوعية » موجود في لابلاس .

يبحث على التوالي ، في خمسة كتب ، في الحركات الظاهرة للأجرام السماوية ، والحركات الحقيقية للأجرام السماوية ، ونواميس الحركة ، ونظرية الجاذبية الشاملة ، وتاريخ علم الفلك . فهدفه فلسفي ويتخطى مجرد بيان المعارف . يرغب في اظهار سير علم الفلك ، « ... الطريق التي سلكها هذا العلم في تجارحاته والتي يجب ان تسلكها العلوم الطبيعية الأخرى على غرار ... » ؛ وصف الظواهر اولاً ، ثم استعادة ما يحدث في الواقع ، ثم اكتشاف العلاقات الشاملة واللازمة بين الظواهر ، اي النواميس ، واخيراً ادراك المبدأ العام الذي يستطيع العقل أن يرد اليه كافة النواميس ويحمل منه نقطة انطلاق للبناء ثانية بواسطة الاستدلال . وهو يشدد الكلام على ركانة النتائج :

« لقد اصبح علم الفلك والحالة هذه حلاً لمسألة كبرى في علم الآليات ... ان لديه اليقين الذي يستند الى عدد وتنوع الظواهر المشروحة بكل تدقيق ، والى بساطة المسدأ الذي يكفي وحده لهذه الشروح . فلا خوف من أن يناقض كوكب جديد هذا المبدأ ، بل يمكن بعكس ذلك الجزم سلفاً بأن حركته ستكون مطابقة له . »
ويبين واقم الحال :

« هذا هو ، بدون ريب ، تكوين النظام الشمسي . ان كرة الشمس الضخمة ، المركز الرئيسي لحركات هذا النظام المختلفة ، تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً ونصف اليوم ؛

مساحتها مغطاة بمخض من مادة مضيئة ؛ وفي ما وراها تتحرك السيارات وأقمارها في مدارات تكاد تكون مستديرة وعلى مستويات قليلة الانحدار بالنسبة لخط الاستواء الشمسي . وهناك مذنبات لا يحصى لها عد تقارب من الشمس ثم تبعد عنها الى مسافات تقدم الدليل على أن سلطانها يمتد الى أبعد من الحدود المعروفة لنظام السيارات . لا يؤثر هذا الكوكب مجاذيبته في كافة هذه الاجرام بارغامها على الدوران حوله فحسب ، بل يوزع عليها نوره وحرارته . تأثيره الخيتر يساعد على ولادة الحيوانات ونمو النباتات التي تغطي وجه الارض ، وتحملنا المماثلة على الاعتقاد بأنه يعطي نتائج مشابهة في السيارات ، فطبيعي لعمرى أن نفكر بأن المادة ، التي نرى إخصابها يتكاثر تكاثراً كبيراً متنوعاً ، ليست عقيمة في سيارة بضخامة المشتري لها ، على غرار الارض ، لياليها ونهاراتها وسنواتها ، وتحديث فيها ، كما تشير الى ذلك المراقبات ، تغييرات تفرض قوى ناشطة جداً . ان الانسان ، وهو من توافق تكوينه الحرارة التي ينعم بها على الارض ، قد لا يستطيع ، في الاربع ، العيش على السيارات الأخرى ؛ ولكن ليس مفروضاً أن يكون هنالك تعضيات كثيرة جداً توافق تكوينها الحرارة المختلفة في أجرام هذا الكون ؟ اذا كان اختلاف العناصر والاقاليم يكفي وحده لاحداث مثل هذا التنوع في المحاصيل الارضية ، فك بالاحرى يفرض ان تختلف محاصيل السيارات الكثيرة وأقمارها ؟ ان المخيلة لأعجز من أن تكون أية فكرة عنها ، ولكن وجودها ، في أقل تقدير ، قريب الى المعقول ... »

ثم بين رحابة الكون ووحدة تركيبه ويرتفع الى فكرة التطور . في ما وراء الشمس . توجد شمس لا يحصى لها عد هي النجوم ؛ يخضع بعضها ، في لونها ونورها ، لتغييرات دورية تشير ، على سطحها ، كما على سطح الشمس ، الى بقع كبرى تظهرها وتحفيها حركات الدوران . وهناك نجوم اخرى ظهرت واختفت ، بعد ان لمعت لمعانا ساطعاً اتاح رؤيتها في وضوح النهار . بعد ان كان لونها ابيض ناصعاً ، في البدء ، على غرار المشتري ، عدا اصفر ضارباً الى الحمرة ، ثم ابيض رصاصياً ، على غرار زحل ، ثم اختفت عن الانظار ، ولكنها لا تزال موجودة .

تؤلف هذه النجوم فئات عدة . تبدو شمسا واكثر النجوم لمعانا مجتمعة في احدى هذه الفئات التي تظهر وكأنها تحيط بالفلك وتكون المجرّة . ولكن المجرّة قد تظهر لمراقب يبتعد عنها الى ما لا نهاية له وكأنها نور ابيض متصل ذو قطر صغير ، اذا ان انتشار الاشعة الذي لا يضمحل في احسن المراقب ، سيملاً المسافات التي تفصل بين النجوم . فمن المحتمل جداً والحالة هذه ان يكون بعض النجوم الضعيفة الضوء مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم قد تبدو ، اذا ما نظر اليها من داخلها ، شبيهة بالمجرّة .

«فاذا ما فكرنا الآن بهذا العدد الضخم من النجوم والنجوم الضعيفة الضوء المنتشرة في الفضاء السماوي ، وبالمسافات الشاسعة التي تفصل بينها ، فان الخيلة التي سدهشها عظمة الكون ، ستجد صعوبة في ان تتصور له حدوداً . »

تبدو النجوم الضعيفة الضوء وكأنها تتكاثف . راقب هرشل الشهير التكاثف في نجوم

ضعيفة الضوء كثيرة « كما يراقب المرء ، في حرج واسع الاطراف ، نحو الاشجار في كل نوع من الانواع يشتمل عليها » . بعضها مجرد مادة غائمة ضعيفة الضوء ، وبعضها على شيء من التكاثف حول نواة باهتة اللعان ؛ وبعضها الآخر ذو نواة اكثر لماناً ؛ وهنالك نجوم ضعيفة الضوء كثيرة الاجزاء مؤلفة من نويات لامعة متقاربة جداً ، يحيط بكل منها جو من مادة غائمة ضعيفة الضوء ؛ وهنالك اخيراً مجموعات النجوم . وهكذا ينتهي المرء ، بواسطة تزايد تكاثف المادة الغائمة الى الشمس التي كان يحيط بها من قبل جو مترامي الاطراف ، « وهذا اعتبار توصلت اليه بدررس ظواهر النظام الشمسي ... ان التوصل الى مثل هذه النتيجة التي تلتفت الانتباه ، بسلوك طرق مختلفة ، يجعل من مرور الشمس في هذه الحالة امراً محتملاً جداً » .

وفي احد بياناته ، عرض لابلاس « بالتحفظ الذي يجب ان يوحيه كل ما ليس نتيجة المراقبة والحساب » افتراضه الشهير حول اصل وتطور النظام الشمسي الناشء عن نجم غائم ضعيف الضوء قديم العهد تكاثف شيئاً فشيئاً . يغلب على الظن ان المادة الغائمة الضعيفة الضوء تكاثفت في مركزها بحيث كوَّنت نواة . كلما تزايدت الكثافة تزايدت سرعة الدوران . ويغلب على الظن كذلك ان التفاوت بين الكثافة والسرعة قد عزل عن النواة المركزية عدّة حلقات مشتركة المركز ، وان الكثافة قد تزايدت تزايداً متفاوتاً في كل من هذه الحلقات ، التي تقسمت في الارجح اجراماً هي السيارات . فجاءت هذه النظرية تحل ، محل الرأي القائل بحالة الكواكب المستقرة الدائمة ، الرأي القائل بحدوث تغير في الزمان ، وتحول كائن الى آخر ، وتدخل نوعاً من النشوء والارتقاء الى علم الفلك .

وينتهي لابلاس بهذا التشديد :

« ان علم الفلك ، بمعظمه موضوعه وكال نظرياته ، اجمل بدائع العقل البشري وأشرف عناوين إدراكه . تضلّل الانسان زمناً طويلاً بأوهام الحواس والأناية فنظر الى نفسه كما الى مركز حركة الكواكب ، وقد نال عقاب صلفه الباطل بالخوف التي اوحتها اليه . واخيراً انتهت اعمال قرون طويلة الى اسقاط الستار الذي كان يحجب نظام العالم عن عينيه . فاكتشف حينذاك انه على سيارة صغيرة جداً في النظام الشمسي الذي ليست رحابته الواسعة الارجاء سوى نقطة لا تذكر في اتساع الفضاء غير المحدود . الا ان النتائج السامية التي حمله اليها هذا الاكتشاف من شأنها ان تعزّيه عن المرتبة التي يعينها للارض باظنهاره عظمتها الشخصية في صغر القاعدة التي استخدمها لقياس السماوات . فلنحفظ بعناية وللنم وديعة هذه المعارف السامية التي هي نعيم الكائنات المفكرة . لقد أدت خدمات هامة للملاحة والجغرافية ؛ ولكن خدمتها الجلّسى انها بددت الخواف الناجمة عن الظواهر السابوية وقضت على الاخطاء الناجمة عن جهلنا حقيقة علائقنا بالطبيعة ، وهي اخطاء وخواف قد تتجدد بسرعة اذا ما انطلقاً مشعل المعلوم » .

الفصل الرابع علم الطبيعة

كانت لمجالات علم الطبيعة صاعقة في السنوات الثمانين الأولى من القرن السابع عشر . اما في القرن الثامن عشر فكانت النتائج أقل لمائناً، ومع ذلك فقد تحققت اكتشافات جميلة في حقلَي الحرارة والكهرباء . ولكن الوقت اضيق في النظريات حول طبيعة الظواهر .

حاول ديكارت معرفة طبيعة النور ، فتبنى طريقة التموج : افترض ان الاجسام المضيئة تشرك في موجات اجزائها الصغرى سائلاً متمططاً غاية في الرقة منتشراً في الفضاء ؛ يأخذ هذا السائل بالارتجاج فينجم النور عن ارتجاجه كما ينجم الصوت عن ارتجاجات الهواء . فكان النور من ثم انطباعاً تحدثه في حواسنا احدى حركات المادة، أي حالة خاصة من حالات الحركة . أما نيوتون فقد اعتبر ، بعد تردد طويل ، ان الوقائع توحى بالتفضيل طريقة البث : النور مركب من ذرات مضيئة تقذف بها اجسام ترسل النور حتى اعيننا : فليس النور حالة من حالات الحركة بل جسماً خاصاً . فرضت هذه النظرية نفسها على القرن الثامن عشر بأسره ، باستثناء اوار الذي استمر في تفسير اختلاف الالوان باختلاف ديومة الارتجاجات . وقد حملت المعاصرين على النظر بالمائة الى الحرارة والكهرباء نظرهم الى اجسام ، لا الى حركات مختلفة لمادة منتشرة واحدة . فكان ذلك تقهقراً بالنسبة الى القرن السابع عشر .

استطاع درس الحرارة احراز التقدم بفضل أداة قياس دقيقة ثابتة حساسة لم تتوفر
المحرر
من قبل : هي المحر الذي جاء نتيجة جهود بذلها علماء ينتمون الى بلدان مختلفة
أدخلوا عليه تحسينات متوالية .

اهتدى الى مبدأ المحر « فاهرنهيت » الدانتيقي ، صانع الادوات المختصة بالحوادث الجوية . في السنة ١٧٢٤ ، اكتشف أن لكل سائل نقطة بخار ثابتة تتغير بتأثير الضغط الجوي . فاستطاع من ثم ان يستخدم للقياسات سائلاً تبلغ نقطة بخاره حرارة أعلى من حرارة الماء : وان يتخذ كحرارة أصلية حرارة بخار الماء الغالي تحت ضغط جوي طبيعي عند مستوى البحر ، أي ٧٦ سم من الزئبق . بقي عليه تعيين الجسم الذي يعطي ابدا الحرارة الدنيا نفسها والتثبت من أن الجسم المختار يتمدد أو يتقلص ، بين النقطتين المقابلتين للحرارتين القصويتين ، تمدداً وتقلصاً

مستمرين ومتناسبين تقريباً لتبدلات الحرارة . وبعد تردد اعتمد الزئبق أو الكحول سائلاً ، وعين الصفر بجملة مزيج من الشادر والجليد والماء ، والدرجة ٢١٢ في بخار الماء العالي . ولكن المزيج وتعيين الدرجات كانا صعبين التحقيق ، كما ان استخدام الدرجات لم يكن بالأمر السهل .

اما عالم الطبيعة الفرنسي رومور فقد استخدم لتعيين الصفر ، في السنة ١٧٣٠ ، الجليد الذائب ، واعتمد سائلاً كحولاً ممزوجاً بثلاث مقادير ماء يتمطط تغطاً أكثر ويعطي دلالات أوضح ، وقسم الدرجات الى ثمانين لأن السائل الذي اعتمده يتمطط من ١٠٠٠ الى ١٠٨٠ بين حرارة الجليد الذائب وحرارة بخار الماء العالي ، وهي درجات أسهل تعييناً على أنبوب . ولكن صنع المحر ما زال معقداً . ولم يتوصل رومور قط الى صنع أدوات متشابهة للدلالات .

وارتأى « دي كرسنت » الجنيفي ، في السنة ١٧٤٠ ، اعتماد الدرجات المثوية ، ولكنه اخطأ بتعيين الصفر بجملة اقبية مرصد باريس ، اذ ان ذلك جعل صنع المحر مستحيلاً في غير مكان او ارغم على اجراء حسابات للمقارنة بين الملاحظات .

وفي السنة ١٧٤٢ ، جمع سلسيوس استاذ علم الفلك في اوبسالا من اعمال اسوج بين اكثر الطرائق سهولة ، اي الجليد الذائب والتقسيم الى ١٠٠ درجة . ولكنه عين الصفر بجملة بخار الماء العالي والدرجة ١٠٠ بجملة الجليد الذائب . فكان ذلك مزعجاً للقراءة . في السنة ١٧٥٠ ، عكس زميله « سترومر » سلم الدرجات واعطى المحر شكله الحالي .

ان محر سلسيوس هذا ، الذي نعرفه باسم المحر المثوي ، اسهل استعمالاً من غيره . ولذلك لم يلبث ان اعتمد في فرنسا . ولكن ما زال هناك ١٩ سلم درجات في السنة ١٧٨٠ ؛ سلم فاهرنهيت في هولندا وانكلترا وامريكا بوجه خاص ؛ وسلم رومور في المانيا ؛ وكان مقدراً لها ان تعرف ديمومة طويلة .

قياس كمية الحرارة بفضل المحر استطاع الاسكتلندي « جوزف بلاك » الكيميائي والطبيب ، والاستاذ في غلاسكو وادنبرا استنبات الافكار التي اوحى اليه بها مراقباته والتوصل الى قياس كمية الحرارة . منذ السنة ١٧٥٦ ، اطال التأمل ببطء ذوبان الجليد واستمرار بقاء كميات من الثلج المتحول جليداً على الجبال في قلب الصيف ، والوقت المديد الضروري للماء العالي كي يتبدد بخاراً . ففكر بان كمية كبرى من الحرارة انها تستهلك في الارجح لإحداث تحول الجليد الى ماء والماء الى بخار دون ان يطرأ اي تبدل على حرارة الاجسام . فافترض من ثم ان كمية كبرى من سائل رقيق ، يدعى الحرارة ، تتجزئ بجزئيات المادة ؛ فتمحل دون ان تزول من الوجود ؛ يفرض ان تصبح كامنة ؛ هذه هي الحرارة الكامنة . اراد حينذاك استنبات هذه الفكرة وايضاها بالارقام . بحث عن كمية الحرارة اللازمة

لتحويل الماء الى بخار ، اي عن الحرارة الكامنة في عملية التحويل الى بخار . فوجد اولاً انه يقتضي كمية ثابتة من الحرارة لرفع حرارة كمية معينة من الماء درجة واحدة : هذه هي قابلية الماء للحرارة ، او حرارته النوعية . وهكذا توفرت لديه وحدة لقياس الحرارة ، واستطاع اذ ذاك تحديد كمية الحرارة التي يتخلى عنها البخار للعودة الى حالة سائل ذي حرارة بمائلة ، ومن ثم تحديد كمية الحرارة الضرورية لتحويل ماء حرارته ١٠٠ درجة مئوية الى بخار . واكتشف كذلك كمية الحرارة الضرورية لتحويل الجليد الذائب الى ماء تكون درجة حرارته صفراً في سلم الدرجات المئوية فوجد لحرارة التحويل الى بخار وحرارة الذوبان ارقاماً لا تختلف اختلافاً كبيراً عن الارقام الحالية . وقد توصل اثناء اعماله الى تقديم الدليل على ان زيادات متساوية في الحرارة تحدث تغيرات متساوية في مستوى سائل محرارته ، والى اثبات قيمة دلالاتها . ولاحظ ان الاجسام تختلف بقابليتها للحرارة ، وانه لا يقتضي كمية الحرارة نفسها لرفع كميات متساوية من هذه الاجسام الى درجة حرارة واحدة . عرض اكتشافاته في محاضراته منذ السنة ١٧٦١ ، وقد صنع اثنان من تلامذته الفرنسيين ، الكيميائي «لافوازييه» والمهندس «لابلاس» ، مسعراً جليدياً ، وحدداً ، حوالي السنة ١٧٨٣ ، الحرارة النوعية لعدد كبير من الاجسام .

وهكذا بات بمكنة الانسان قياس الحرارة وأثرها في انتقال الاجسام من حال الى حال : وبات الانسان بالفعل نفسه سيد ذوبان الاجسام وتكوين البخار . وكان مقدراً له ان يعرف ، عند الحاجة ، ما يقتضي له من محروقات ووقت للحصول على قوة معينة او تحويل معين . وأتاحت اعمال بلاك لجاييس وات ان يحسن الآلة البخارية ويجعل منها الأداة القوية والطبعة التي كان مقدراً لها ان تحدث ثورة في العالم .

إلا أن هذه النتائج لم تبدل الآراء في الحرارة . نظر الجميع الى هذه الاخيرة كما الى سائل رقيق ، او مادة متمططة جداً تتناثر اجزاؤها وتتوزع هي على الاجسام بكمية متناسبة للجاذبية الاتفاقية التي تتبادلها هذه الاجسام وهذا السائل ، اي لقابلية الحرارة .

كانت الكهرباء الفرع الذي أكب عليه بمزيد من النجاح ، او أقله الفرع الذي كان لنتائجه ، الجديدة كلها ، أكبر تأثير في الخيلة . انحصرت الابحاث في الكهرباء الساكنة حتى السنة ١٧٩٠ حين بدأ درس التيار الكهربائي .

كانت المعارف الكهربائية محدودة جداً في اوائل القرن الثامن عشر . وما زال الناس يمتقدون بان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بلون الاشياء . إلا انهم كانوا قد عرفوا اظهار الكهرباء اما بواسطة انبوب زجاجي يحك ، أما بواسطة آلة قوامها كرة زجاجية تحرك بمقبض وتحك باليد العارية . ثم تحسنت هذه الآلة شيئاً فشيئاً : فحلت الاسطوانة الزجاجية ثم القرص الزجاجي محل الكرة ، واستبدلت اليد بالوسادات ؛ وفي السنة ١٧٦٢ ، اعتمدت نهائياً الوسادة الجلدية

المغطاة بلمنم التصدير . الا ان الاب لوليه ، الذي تميز بيد صغيرة وجافة جداً ، قد ثابر على الحلك باليد العارية .

الكتشافات الاولى
احرزت نجاحات مريمة في حقل لم يكتشف فيه شيء بعد . في السنة ١٧٢٩ ، اكتشف الانكليزي « غراي » ، بواسطة انبوب زجاجي بسيط ، ان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بالمواد التي تتركب منها الاجسام وقام بأول تصنيف للاجسام الحسنة الثقل (المعادن) والسيئة النقل (الحرير) . وكان الاول في تقديم الدليل على ان جسم الانسان يتكهرب وينقل الكهرباء ، كما كان اول من اجتذب اجساماً خفيفة (عدة قصاصات من الورق) برأس وقدمي شخص مكهرب ومعزول ، فأتى بذلك اختباراً كان له وقعه العظيم وكان مقدراً له ان يعرف لجاحاً كبيراً جداً . وكان كذلك اول من اكتشف النقل الى مسافات بعيدة وجعل الكهرباء تجتاز ٧٦٥ قدماً .

واصل الفرنسي « دي فاي » اختباره حتى السنة ١٧٣٩ . اثبت ان كافة الاجسام قابلة للتكهرب فنقض بذلك تصنيف جليبر للاجسام بتقسيمها الى كهربائية وغير كهربائية . اظهر أوجه التشابه بين الكهرباء والصاعقة : فحين كان هو نفسه متكهرباً ، معلقاً بجبال حريرية تمزله عزلاً تاماً ، وير شخص آخر على مقربة منه ، بدا وكان بروقاً تخرج من جسمه وتسمع حسيماً جامداً . فكانت هذه البروق في الظلمة وكأنها شرارات نارية وكان نوراً ينبعث من جسمه . ويروى ان الاب نوليه استصدر منه شرارات تبلغ سنتيمترات عدة . وكان رأي نوليه ان البرق والشرارة الكهربائية شيء واحد . واكتشف « دي فاي » الكهربائية بالماسة ووجد ان الاجسام الكهربائية تجتذب كافة الاجسام غير الكهربائية وتدفقها حال تكهرب هذه الاخيرة بها . واكتشف نوعين من الكهرباء : الكهربائية الزجاجية (الايجابية) والكهرباء الصمغية (السلبية) ، وجاذبيتها لمكسها ودفقها لنظيرها . فحاول ان يفسر هذه الظواهر ، ولكنه لم يجد ما يتخيله سوى سائلين .

كان لهذه الاكتشافات وقع عظيم جداً . راح أناس كثيرون يكسبون معيشتهم قنينة لايدن باجراء الاختبارات في مكان تلو الآخر . وكان الجميع راغبين في أن يتكهربوا ، ويجتذبوا الرياش برأسهم أو يشعلوا الكحول بالشرارة المتدلعة من سن سيف يمك به الانسان المكهرب . وأكثر أساتذة الجامعات من الاختبارات العلنية . وفي لايدن ، حاول الأستاذ موشنبروك ، في السنة ١٧٤٥ ، كهرية الماء في قنينة . فحدث أن أحد أصدقائه ، الذي كان ممسكاً بالقنينة باحدى يديه ، حاول باليد الاخرى سحب الشرط الواصل الماء بالنقل . تلقى ضربة قوية في ذراعيه وصدره . كتب موشنبروك بذلك على الفور الى ريو مور . فرغب الناس كلهم في تلقي التفريغ الكهربائي . وزادت قنينة لايدن من سلطة المختبرين . وقد أمر الأب نوليه التفريغ الكهربائي بسرية تضم ١٨٠ رجلاً من الحرس الفرنسي ، ثم بـ ٣٠٠ راهب ألفوا

صفاً واحداً وجمعت بينهم قضبان حديدية . عند التفريغ كان الأشخاص الذين تمر بهم الكهرباء يقفزون في الهواء . بالقنينة قتلوا الطيور وأمروا الكهرباء بالأنهر والبحيرات ومغنطوا الإبر . ولوحظ سريان السائل سرياناً فواتياً .

كانت الكهرباء حتى ذلك التاريخ موضوع فضول في الدرجة الأولى ،
لكنها سيغدو بمكنة الانسان في وقت قريب أن يظهر وجودها الشامل
الكمبراه الجوية
رمانعة الصواعق
ويفسر بها بعض أكثر الظواهر الطبيعية جلاء .

في السنة ١٧٤٧ ، ارسل الانكليزي « كولنسون » ، عضو جمعية لندن الملكية ، الى صديقه الاميريكي « بنجامين فرانكلن » ، انبويًا زجاجياً وتعليقات لإجراء بعض الاختبارات . اكب فرانكلن عليها بشغف ولاحظ قدرة الاسنان على « اجتذاب وقذف النار الكهربائيه » . وكان لا يزال يعتقد اذ ذلك ان الصاعقة مردها « نفث كبريتور الحديد القابل للتهاب » الذي هو كبريتور كبروني يشتعل تلقائياً . ولكنه لاحظ في السنة ١٧٤٩ ان البرق والشرارة الكهربائيه مضيئان كلاهما ولونها واحد وينشران رائحة كبريتية واحدة ويرسمان خطوطاً معوجة متماثلة ويتميزان بالسرعة نفسها ، والصوت نفسه ، وقابلية المعادن لنقلها ، والقدرة نفسها على تدوير هذه المعادن وقتل الحيوانات واشعال المواد اللهبية . وتساءل عما اذا لم يكن ممكناً اجتذاب البرق بالاسنان على غرار الكهرباء . واقترح ان توضع ، على مرتفع ، مرقبة مزودة بقضيب حديدي مقرون جداً يبلغ طوله ١٠ امتار ، وان يوضع في المرقبة رجل معزول بقرص من الصمغ يجوز ان يكهرب اذا ما مر الغمام منخفضاً . و اشار بأنه قد يمكن ، بهذه الطريقة ، « استراق الكهرباء من الغمام » وحماية المساكن والكنايس والمراكب من الصاعقة . فعرض آراءه في رسالة الى كولنسون في شهر تموز من السنة ١٧٥٠ . اطلع كولنسون عليها جمعية لندن الملكية التي اكتفت بالاستهزاء والازدراء بروي فرانكلن . فنشر كولنسون حينذاك رسائل صديقه في مجلد ترجم الى كافة اللغات .

في فرنسا ، فتت هذه المسائل الانتباه . فان « روماس » مستشار محكمة « نيراك » وعضو اكاديمية بوردو ، قد اشار ايضاً ، بعد الأب نوليه ، في السنة ١٧٥٠ ، الى وجه التشابه بين الصاعقة والكهرباء . وكان الفرنسيون على علم باختبارات « جالابر » الذي اكتشف هو ايضاً ، في السنة ١٧٤٨ ، في جنيف ، طاقة الاسنان . وترجم « دالبيار » احد اصداق بوفون ، مؤلف فرانكلن ، فبادر بوفون الى رفع قضيب حديدي فوق قصره في مونبار وشجع دالبيار على اعادة اختبار فرانكلن . اجري الاختبار في « مارلي » في اليوم العاشر من نوار من السنة ١٧٥٢ ، بنجاح تام ، برعاية ملك فرنسا ، واعيد ، بعد مرور اسبوع ، في باريس ، بواسطة قضيب يبلغ ٣٢ متراً طولاً .

الا ان فرانكلن لم يكن موقناً تماماً بان المختبرين قد « استرقوا » الكهرباء من الغمام

العاصفة لأن الغضب ان لم قبلها . فصمم على ان يرسل الى الغمام « طيارة » وينقل الكهرباء بواسطة الجبل . فعل ذلك في ايلول من السنة ١٧٥٢ وتمكن من « استراق » كهرباء احدى الغمام ، وتلقي شرارة ، وشحن قنينة بالكهرباء ، وبلغ خبر اختباره باريس في شهر كانون الثاني من السنة ١٧٥٣ . قام روماس في « نيرك » بعمل مماثل في شهر حزيران وتمكن بذلك من اجهاض عاصفة هوجاء . ونصب فرانكلن قضيباً حديدياً فوق مسكنه . ثم حدث حادث افاح تحسين الجهاز : اعتقد فرانكلن بضرورة عزل اسفل القضيب ؛ ولكن « ريتشم » ، الذي وجد في السنة ١٧٥٣ على مقربة من اسفل قضيب احكم عزله في سان بطرسبورغ قتل بالصاعقة التي ضربت منه الرأس ، حين لم تستطع التنوير . فلمس العلماء الحاجة الى تسهيل تفوير الكهرباء ، ومنذ السنة ١٧٥٤ انتشرت مانعة الصواعق .

وهكذا وجد الانسان التفسير الطبيعي لظاهرة اعتبرت وكأنها مظهر من مظاهر الغضب الإلهي : فان بوالو كان لا يزال يعتقد بان الله هو الذي يرعد ويحجلج . فكان الانسان في طريق النجاة من المخاوف وادراك الطبيعة واثق الاخطار .

تأيد وجود الكهرباء الشامل . في السنة ١٧٧٣ ، اثبت « وولش » ، في
الكهرباء العضوية
والناعبة الكهربائية
لا روشيل ، ان الصدمات التي تحدثها بعض الاسماك كهربائية ؛ فقد وصل
ظهر وبطن رعاد بناقل كهرباء وحصل على تفريغ كهربائي . كما ان
الاطالي « غالفاني » ، الطبيب واستاذ التشريح في بولونيا ، قد اجري اختبارات في افخاذ
الضفادع واثبت ، بين السنة ١٧٨٠ والسنة ١٧٩١ ، وجود الكهرباء في عضلات الحيوانات ووضع
الصيفة المشهورة : « ان جسم الحيوانات قنينة لايدن عضوية » وواصل اختباراتاه مواطنه
فولتا استاذ الطبيعيات في « روما » ثم في بافيا ، فوجد ان الكهرباء تؤثر في اعصاب البصر
والذوق . تابع اجائه في هذه الطريق ، وفي ٢٠ آذار من السنة ١٨٠٠ ، وصف ، في رسالة الى رئيس
جمعية لندن الملكية ، نابعته التي هي « عضو كهربائي صناعي » : تضديد طبقات من ثلاث
حلقات : حلقة نحاسية وحلقة زنكية متلاصقتان تغلفهما حلقة ورقية رطبة . في ٢ نوار من
السنة ١٨٠٠ حلل الماء بفضل الناعبة الكهربائية : فاكتشفت بذلك اداة جوهرية للبحث
والتطبيق العملي .

اما « فرنسوا كولون » ، الذي كان مهندساً في باريس ، والذي اكتشف ، في السنة ١٧٨٤ ،
ميزان القوى الصغيرة بواسطة شريط مفتل ، فقد أوضح ، بين السنة ١٧٨٥ والسنة ١٧٨٩ ، ان
ناموس نيوتون لذي تكون الجاذبية بموجبه متناسبة طردياً للاحجام وعكساً لمربع المسافات صحيح
في الجاذبية الودفع الكهربائين والمغناطيسيين . فاوحى من ثم بالفكرة القائلة بان كافة الظواهر
الطبيعية قد تفسر يوماً ببدء الجاذبية دون غيره .
وقام اللندني « كافنديش » بأبحاث كاملة في الكهرباء الساكنة منذ السنة ١٧٧٣ ، ولكن
مؤلفاته لم تشر الا في السنة ١٨٧٩ .

بقيت الآراء في طبيعة الكهرباء متأثرة تأثراً بينا بمادة ديكارت الرقيقة
 وطبيعة الكهرباء وبنذرات نيوتون. فان « دي فاي » ، في « مذكرته الرابعة حول الكهرباء »
 قد فسر بالكهرتريانية الدفع الذي يحدثه الانبوب الكهربائي في ورقة ذهبية بعد ان تكون
 الجاذبية الاولى قد جرت الورقة والصقتها بالانبوب : « تجدر الملاحظة ، استناداً الى المسافة التي
 تقف الورقة عندها بعيداً عن الانبوب ، ان بمقدورنا الحكم على مدى الزوابع الكهربائية ، وان
 بمقدورنا كذلك ، اذا ما سیرنا الورقة فوق اجزاء الانبوب المختلفة ، اما بادارتها حول محورها
 واما بجعلها في وضع عمودي ، ان تكون صورة لحدود الزوابع ، او بالأحرى صورة لطبقة
 الزوابع التي لها من القوة ما يكفي لمقاومة وزن الورقة ، لأننا اذا ما اخذنا قصاصات صغيرة
 جداً ، رأيناها تقف على مسافة ابعد جداً . وفي السنة ١٧٣٧ ، توسع « دي فاي » في تفسيره
 الظاهرة بالزوابع الكهرتريانية . وفي السنة نفسها ، فرض « بريفا دي مولير » في المجلد الثالث من
 « دروسه في علم الطبيعة » ، رغبة منه في تفسير ملاحظاته ، ضرورة التسليم بتكون ما هو
 اشبه بالجو حول الجسم الكهربائي . ولما كان هذا الجو مضيئاً في الظلمة وقابل للاشتمال حين
 نذني الاصبع منه ، « لا يبقى مجال للشك بان اجزاء هذا الجو الصغرى ليست ذرات زيت
 حقيقية » . وليست هذه الذرات ، طالما هي في مسام الجسم الكهربائي ، سوى زوابع صغيرة
 جداً توازن ذرات اصغر منها هي ذرات الاثير ، الوسط المتمطط . بفعل الاحتكاك تخرج زوابع
 الزيت الصغيرة هذه وتكبر . وحين تلامس انتضاح الاصبع غير المنظور ، تختمر وتلتهب .
 وكان « بريفا » قد تبني في السنة ١٧٢٩ زوابع المادة الرقيقة الصغرى ، ذات السرعة الكبرى في
 الابعاد عن المركز التي سدّها مالبرانث في السنة ١٧١٢ ، في الطبعة الرابعة من « البحث عن
 الحقيقة » ، مسدّد الاجزاء الصغرى التي قال بها ديكارت . وبفضلها استطاع « بريفا » الاهتداء
 في الزوابع السأوية الى ناموس كبلر الثالث وملاشاة احد اعتراضات نيوتون الاساسية على
 ديكارت . ولكنه بواسطة تأملاته في طبيعة الكهرباء اتاح بالاضافة الى ذلك لفونتنيل الخلوص
 الى جواز وجود الكهرباء في الزوابع السأوية وجواز تجاذب هذه الزوابع وتدافعها تجاذباً
 وتدافعاً مستمرين (١٧٣٧) . وهكذا تزول كافة الاعتراضات على الكهرتريانية . إلا أن
 اعمال الفلكيين افضت الى غلبة نيوتون . كما ان المفهوم النيوتوني للثب قد اوحى لفرانكلن
 بنظريته : الكهرباء « عنصر مشترك » موجود في كافة الاجسام ؛ اذا ما توفر منها لجسم فوق
 نصيبه الطبيعي ، فالكهرباء ايجابية ؛ واذا حدث عكس ذلك ، فالكهرباء سلبية . وقد سلم
 بهذه النظرية حتى « فاراداي » .

الفصل الخامس

الكيمياء

سارت الكيمياء في طريق صيرورتها علماً . انتقل الكيميائيون من وصف الظواهر الى اكتشاف الواقع بتنجية أجسام عديدة اعتبرت من قبل بسيطة ، ثم انتهت عبقرية لافوازييه ، الذي كمل طريقة العمل واكتشف لواميس الظواهر الرئيسية ، الى تكوين العلم .

لم تعد عناصر ارسطو الأولية ، النار ، الهواء ، التراب ، الماء ، كافية لتفسير العنصر اللهبى الظواهر الكيميائية المكتشفة حديثاً . فكان من الألماني « ستاهل » ، أستاذ الطب في « هال » ، أن ابتدع لتفسيرها ، في السنة ١٦٩٧ ، نظرية السائل اللهبى التي نشرها في السنة ١٧١٧ .

ان شيئاً ما يخرج من الجسم المشتعل أثناء احتراقه . وهو وجود هذا العنصر في الجسم ما يجعل هذا الجسم قابلاً للاحتراق . ان هذا العنصر ، أو « فلوجستون » (لهيب) ، الذي لا يُشمر بوجوده في حالة التركيب الكيميائي ، لا يصبح حسياً الا حين ينبعث من الجسم . وحينذاك يؤلف قوام النار . الاحتراق هو انتقال النار المركبة مع الجسم (العنصر اللهبى) الى حالة النار الطليقة ، وقد تحيل ستاهل هذا العنصر ، ولعله تأثر في ذلك بديكارت ، كجامد مركب من اجزاء غاية في الصغر قليلة التلاحم فيما بينها ، أكثر قدرة من اية مادة أخرى على التحرك محرراً سريعاً هو كنه كافة نتائج النار كما ساد الاعتقاد . فكل مادة مركبة من العنصر اللهبى من جهة ومن عنصر آخر يختلف باختلاف الاجسام من جهة ثانية . المعدن مركب من عنصر لهي ومن « كلس » يختلف باختلاف طبيعة المعدن . حين يكتلس المعدن ، ينبعث العنصر اللهبى ويبقى « الكلس » .

قامت هنالك صعوبة : فقد لوحظ ان القصدير والرصاص يرتفع وزنها حين يكتلسان . فكيف التوفيق بين هذا الواقع وفقدان أحد عناصرهما . ولكن ستاهل استدل من ذلك على ان العنصر اللهبى أخف وزناً من الهواء وانه يميل طبيعاً الى رفع الجسم المركب معه وافقاده بعض وزنه .

ادخلت النظرية تبسيطاً عظيماً على مفاهيم الكيميائيين . فهي قد سهلت تفسير الظواهر المعروفة خير تفسير . وقد احرزت نجاحاً حقيقياً .

كان اذن اهم الكيميائيين « ليهين » ، واذا ما استثنينا لافوازيه ، فانهم جعلوا العلم يتقدم بواسطة التحليل النوعي في النصف الثاني من القرن ، بعد أن أتاح لهم لإحكام الطريقة الاختبارية السير قدماً . كان دور الوقائع والاختبارات والافتراضات في العلم معروفاً حينذاك خير معرفة بفضل بيكون ونيوتون وبفضل أعمال علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وفي السنة ١٧٣٦ ، استشهد « ديلاند » باحدى خطب الهولندي موشنبروك في بحثه حول «خير طريقة لاجراء الاختبارات» ، فاقترح قواعد تضاهي بشدها القواعد الكلاسيكية التي اقترحها « ستوارت مل » بعد ذلك . ولكنها باقت شبه مبتذلة في السنة ١٧٥٠ .

ان الاسكتلندي جوزف بلاك قد مهد لأعمال شيل وبريستلي ولافوازيه بشق الطريق لنمط جديد في الكيمياء ، كيمياء الغازات أو « الكيمياء الغازية » ، وباقتتاح طريقة لافوازيه ، طريقة الوزن ، مرتكز الكيمياء العصرية . قبل بلاك نظير الكيميائيون الى الجو كما الى خواء توجد فيه أجزاء صغرى مختلفة الأنواع لم يتوصل أحد الى التفريق بينها . بحث بلاك عن دواء أفضل قوة من ماء الكلس لمداراة النقرس والحصاة في الكلى او المثانة ، فدرس المنفيزية البيضاء ، عالج سلفات المغنيزيوم بكاربونات البوتاس ، فحصل على ضالته المنشودة ، كربونات المغنيزيوم . ولكنه فحص خصائص المركب الجديد ، فوجد أنه يفقد « هواء » بالفوران حين يعالج بالحوامض أو بالنار ، وهو « هواء » ليس سوى جزءه من الهواء الجوي . اطلق عليه اسم « الهواء الثابت » الذي ليس سوى غاز الكربون (١٧٥٤ - ١٧٥٦) . ولكنه تحول بعد ذلك الى مسائل « الحرارة الكامنة » .

ان الصيدلي الاسويجي شيل ، الذي ولد في « ستراالسوند » في السنة ١٧٤٢ ، شيل وكان مجهولاً في وطنه ، وأثار الاعجاب في كافة المحساء اوروبا ، بفضل صديقه « برغمان » استاذ الكيمياء في اوبسالا ، بذكراته التي ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، وتوفي في السنة ١٧٨٦ عن عمر ٤٤ سنة ، قد كرس حياته للبحث في كل اوقات فراغه . امتاز بارابة ومثابرة نادرتين ، فكان سيد التحليل النوعي بواسطة الماء . لم يضاهاه احد في استكشاف جسم جديد في تفاعل كيميائي ، كما لم يضاهاه أحد في عزل جسم جديد . اكتشف عدداً كبيراً من الاجسام البسيطة : كلور ، اوكسيجين ، باريت ، منغانيز ، وجعل وجود عدة اجسام أخرى مرجحاً بدرسه مركباتها : فان اختباراته على فلورور الكلسيوم وحامض الفلور الصواني كسد أفضلت الى التسليم بجسم أسامي يعرف باسم الفلور ؛ وانبا بوجود الموليبدين والتونغستين . واكتشف عدداً كبيراً من الحوامض العضوية والمعدنية ، حامض دردي الحجر ، وحامض الزرنيخ ، وحامض اللبن ، والحامض البروسي ، وحامض الليمون ، وحامض العفص ، وغيرها ..

ووصف عملية تحضير الفليسرين وخصائصه . وحدد كيفية تركيب الهواء الحقيقية من عنصرين أحدهما « هواء النار » (او كسيجين) القابل الامتصاص بالكبريتورات القلوية وعدد من الاجسام الأخرى ، والثاني « الهواء الفاسد » (ازوت) الذي يبقى هو هو كامسلاً . وحصل على الاوكسيجين بتحليله النطرون وبيير او كسيد المنغانيز و او كسيد الزئبق و او كسيد الفضة ، وعين كل خصائصه خير تمييز .

وهكذا فإنه قد أدى خدمات جلتي بوصفه المدقق لوقائع خاصة عديدة . ولكنه حين أراد اكتشاف علائق هذه الوقائع فيما بينها وردت العلائق الى مبدأ هام ، بغية جعل اللسان سيد الظواهر ، ضل الطريق وهام على وجهه . في رأيه ان الحرارة والنور مركبان من العنصر اللهبى وهواء النار . العنصر اللهبى وهواء النار وازنان ، ولكن اجتماعها مما قد يعطي جسماً لا وزن له . ويبلغ هذا الأخير من الرقة ما يتيح له اجتياز الزجاج والتبدد بشكل حرارة اولاً وبجالة نورانياً . وجلي ان هذا الكلام حشو وهدر لم يتركها لشيل ما يأخذه على آخر الفلاسفة الكلاميين .

ما هو مرد عجز العالم عن اتمام عمله يا ترى ؟ ان مرده هو ان شيل ليس في الحقيقة سوى عامل افتقر الى ثقافة عامة ، فلم يلبث ان اغتر بالكلمات . املت تربيته في صفه ، فتمسك بالممارسة العملية ، ولكنه امتاز بمعرفة طبيعية حركتها شغف المعرفة ، فأتى عملاً مفيداً . الا انه افتقر ابداً ، للإفادة كل الإفادة من صفاته النادرة ، الى فلسفة الطبيعة والاداة الرياضية .

ولد الانكليزي بريستي في ٣٠ اذار ١٧٣٣ ، على مقربة من « ليدس » في بريستي « يوركشاير » ، من اب جواخ . وغدا راعياً واستاذاً . لفتت انتباهه الشهرة التي عرفتها الكهرباء ، فكتب اول تاريخ للكهرباء في السنة ١٧٧٥ ، واجرى بعض الاختبارات ، وأصبح عضواً في جمعية لندن الملكية . كان مقيماً في جوار ممثل جمعة ، فأخذ منذ السنة ١٧٦٧ يجري بعض الاختبارات على غاز الكربون . واصل في اوقات فراغه اختباراته على الغازات وابتكر عدة اجهزة لانتاج الغازات ومعالجتها ودرسها . فأدرك وحده في عهده مدى تكون الغازات وتنوع طبيعتها . وتضلع خير تضلع من فن ايجاد الصلة بين الغاز وكافة المواد الأخرى ؟ وخلف للقرن التاسع عشر معظم الطرائق المعتمدة في معالجة الغازات .

حين باشر ممارسة عمله ، كانت الغازات المعروفة اثنين فقط : حامض الكربون او الهواء الثابت ، والهيدروجين او الهواء القابل للاحتراق . اكتشف بريستي الازوت ، وثاني او كسيد الازوت ، وغاز الكلور ، وغاز اللشادر ، واول او كسيد الازوت ، وحمض الكبريت ، و الاوكسيجين الذي اخرجته من او كسيد الزئبق في اول آب ١٧٧٤ واسماه الهواء الحلو من العنصر اللهبى واكتشف دوره في دوام التنفس والثره في الدم الوريدي ؟ ثم اكتشف غاز فلور الصوان و او كسيد الكربون . فتم له بذلك اكتشاف الغازات التسعة الأهم شيئاً ، تلك التي

تفسر الهواء ، والتنفس والاحتراق ، والتكلس ، أي العمليات الرئيسية التي تجري في الكرة الارضية .

ولكنه لم يتوصل هو ايضا الى وضع أسس علم الكيمياء ولم يعرف السمو الى ما فوق تحديد الاحداث الخاصة . لا بل درج على قول ما جوهره : كلما اكتشفت ، تدنى ادراكي وتدنت معرفتي ؛ وكلما تأملت زاد ارتياي . ولا يرد ذلك ، فيما يعنيه ، إلى افتقاره إلى ثقافة عامة : فقد تعلم اليونانية والعبرية واللاتينية في مدرسة داخلية ؛ وتعلم الرياضيات والفرنسية والألمانية والايطالية للتسلية ؛ وتعلم الكلدانية والسريانية والعربية للتعلم في الكتاب المقدس ؛ ومارس الفلسفة واللاهوت ممارسة تخصص ووضع فيها ثمانين مجلداً .

إلا إنه أرتكب خطأ في الاسلوب؛ فقد قام بما قام به دون تبصر ولا قصد، ولم يسيره « فكر سابق البحث والتحقيق » ولا افتراض يحجب استنتاجاته ، ولا مخطط بحث . استخدم يديه اكثر من دماغه . امتحن اختبارات سابقه التي انطوت على فوران واستقطار وحرارة واتاحت لافتراض بتكون جسم غازي ، وبما ان معظم الاجسام الغازية كانت مجهولة ، فقد توفى إلى اكتشاف بعضها . أجرى « اختبارات للمشاهدة » : او كسيد الزئبق الأحمر أعطاه غازاً ؛ لم يميز بينه وبين بيراوكسيد الازوت ؛ امتحنه بثاني او كسيد الازوت فكانت دهشته كبيرة حين رأى الخلط يصطبغ بلون أحمر ؛ فلم يميز اذ ذلك بينه وبين الهواء ؛ وحدث اتفاقاً أن أدخل شمعة في الدردي ، فأخذ العجب منه كل مأخذ حين رأها تشتعل . « ... لو لم أر أمامي شمعة مضاءة ، لما أجرى هذا الامتحان ، ولبقيت كافة اختباراتي اللاحقة على هذا النوع من الهواء في عالم المجهول ... » . انتقل من دهشة إلى دهشة ومن اتفاق إلى اتفاق إلى ان بين ان هذا الغاز هو جديد ومتجانس وهو الجزء الملبب والممكن نشقه في الهواء ، أي الاوكسيجين . ولكن ثمن فقدان الاسلوب هذا هو أن النتائج لم تتجمع قط في ذهنه وأنه لم يستطع الحكم فيها مجتمعة . لاحظ عدداً كبيراً من الاحداث المتنافية والعنصر اللهي ، ولكنه بقي « عنصراً لهيباً » ، وحين توفي في السنة ١٨٠٤ لم يكن من عنصري لهبي سواء في العالم . ولعل هذا الراعي انشغل ايضاً بالمجادلات اللاهوتية : فلم تكن اختباراتة سوى طلب للراحة في حال أن العلم يتطلب الاستئثار بكل الانسان . ولعل هذا المؤمن كان شديد الميل كذلك الى الاسترشاد بوحى الروح . ولعل هذا الانكليزي ، اخيراً ، كان ضحية نزعة غير فادرة عند ابناء وطنه الى جمع الاحداث دون محاولة استيضاح علائقها ولا تسلسلها ، تفضي احياناً الى عجز كلي عن اصلاح الآراء العلمية أو السياسية التي أثبت الاختبار بطلانها التام أو قدمها المقيم .

وأخيراً جاء لافوازييه . ولد في ١٦ آب ١٧٤٣ ، منحدرًا من عائلة بورجوازية لافوازييه ميسورة . تلقى دروسه بامتياز في كلية « مازارين » حيث تلقن اللاتينية والبيان والمنطق . بعد ذلك أطلق له والده الحرية ، فدرس الرياضيات وعلم الفلك على « لاكاي » ،

وعلم النبات على « جوسيو » ، والكيمياء على « رويل » . توفر له من ثم ما لم يتوفر لشيل :
 التهذب الأدبي والرياضي ، أي الآداب التي تعود التمييز بين أدق الفوارق والعلائق في الأفكار
 وتقدير معنى الكلمات الصحيح واستعمال أدوات الفكر هذه ، والرياضيات التي هي أداة
 الافتراض الواضح والسير الأمين والنتيجة الأكيدة . وتوفر له ما لم يتوفر لشيل وبريستلي معاً :
 فكرة اجمالية عن العلم وسيره وأساليبه وطرائقه ، وفكرة عامة جليلة واضحة عن العالم انارت
 سبيله طيلة حياته . غدا عضواً في أكاديمية العلوم في السنة ١٧٦٨ « فتيسر له الاتصال بالعلماء
 والاطلاع على كافة الاكتشافات المفيدة لأعماله ؛ وكان بالإضافة الى ذلك يلتزم جمع الضرائب
 ويدير احتكار ملح البارود ، والتحق بهندوق القطع في السنة ١٧٨٨ ، فتوفرت له الثروة
 وبات قادراً على تكريس ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً لمختبره ، وتوفرت له من ثم كافة أسباب
 إخصاب عبقريته .

امتدى منذ البدء بوحى هذا الافتراض : كل ظواهر الكيمياء مردّها انتقالات المادة ؛
 ولكن المادة تبقى ابداً هي هي في الكون اذا ما نظرنا اليه ككل ؛ قد تتغير شكلاً ، ولكنها
 لا تزيد ولا تنقص : لا شيء يفقد ولا شيء يستحدث . فاذا صح ذلك ، فان الشكل الخارجي
 قد يتبدل في اثناء مغلقي ، ولكن الوزن لن يتغير ؛ في كل تفاعل كيميائي يجب أن يحكون وزن
 المواد المتكونة مساوياً لوزن المواد المستعملة . أداة البحث هي الميزان الذي يفيدنا عما اذا كان
 هنالك مادة جديدة يجب اكتشافها ، أو جسم جديد يجب تعقيق هويته والبحث عن مصدره ؛
 الطريقة هي طريقة الوزن . كانت الكيمياء نوعية ، فأصبحت كمية ، أي علماً حقيقياً .

أبين الفرق بجلاء باختبار السنة ١٧٧٠ الذي ساعده على تقديم الدليل على أن الماء لا يتحول
 رابساً . أوعز لافوازييه بصنع ميزان صحيح ، ثم امتحنه واعترف بضرورة الوزن المزدوج .
 وزن اثنائه في حالات جوية مختلفة واستثبت أنه يفقد بعض وزنه حين يكون ساخناً بتبخير
 الرطوبة التي تلتصق به بارداً ، واستنتج من ذلك ضرورة اجراء الوزن الذي كان يريد مقارنته
 في الحالات الجوية نفسها . استخدم اثنائه يتصاعد فيه البخار إلى أعلاه حيث يتفخر ثم يتساقط
 ويأخذ بالغليان مرة أخرى . أخذ كمية من الماء ، ووزنها ، وأفرغها في اثنائه الذي سبق له
 ووزنه ، ووزن الماء والاثنائه معاً رغبة منه في تحاشي كل خطأ ، وأقلل الاثنائه إقفالاً محكماً ، وكرر
 الماء طوال مائة يوم ويوم . بعد انقضاء هذا الوقت لم يطرأ أي تغيير على وزن الاثنائه والماء معاً ؛
 إلا أن الاثنائه قد فقد ١٧ حبة من وزنه ، والماء بات عكراً وازداد كثافة . وبعد تبخيره خلف
 درديا بلغ وزنه ٢٠ حبة . كان الاثنائه مصدر ١٧ حبة . أما الحبات الثلاث فكانت مجهولة
 المصدر ، ولكن لافوازييه استنتج بحق أن حجماً على هذا الصغر مصدره طاريء من طواريء
 الاختبار ، وان الماء لا يتحول رابياً . أسهرى شيل الاختبار نفسه ، ولكن شيل لجأ إلى التحليل
 حيث لجأ لافوازييه إلى الوزن . اكتشف أن الدردي او أكسيد سيليسيوم ؛ فالماء الذي أصبح
 قلوباً قد ضم اليه عناصر قابلة الذوبان ؛ وكان استنتاج شيل من ثم مماثلاً . ولكن شيل استند

إلى بصره وذوقه ولمسه ، إلى حدة حواسه ، إلى سلامة ذاكرته ، إلى احكام صغيرة شخصية
ضمنية كثيرة ، بينما استند لافوازييه إلى الميزان الذي استخدمه بنطق ودقة ، إلى أرقام يقبل بها
الجميع . لم يكن شيل أميناً من أنه رأى كل شيء ومن انه لم يهمل ناحية من لواحي الظواهر ،
بينما كان لافوازييه أميناً من أنه لم يهمل أي جسم وأي تفاعل . ولم يكن معنى ذلك ان
التحليل النوعي يجب الاستغناء عنه ، فذلك غير ممكن ؛ بل ان عليه إفساح المركز الاول
لطريقة الوزن .

ما لبث الميزان أن اوحى للافوازييه بأفكاره الموجهة التي كانت والعنصر اللهبى على طرفي
نقيض . فقد قال في مذكرة قدمها إلى اكااديمية العلوم بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٧٧٢ ما يلي :
« منذ أيام خلت اكتشفت ان الكبريت يولد باحتراقه حامضاً ويزداد وزناً ؛ وهذا يصح في
الفسفور ايضاً . إن هذا الأزدیاد في الوزن مصدره اتحادها بكية كبيرة جداً من الهواء . . . »

منذ ذاك الحين صدر الحكم على العنصر اللهبى في عقله ، ولكن الواجب كان يقضي بتقديم
الدليل على زيف نظرية ستاهل واستبدالها بنظرية أخرى تكون أكثر انطباقاً على الوقائع .
اختط لافوازييه لنفسه طريقة بحث منظمة اتبناها طيلة أكثر من عشر سنوات بطول أناة وعزم
لا يعرفان الكلل . كان يقصد محتثه منذ الساعة السادسة صباحاً ويكرس للكيمياء ساعات
عديدة ، ثم يعود اليه في المساء بعد انصرافه في النهار إلى أعماله المالية . وفي أيام الاحاد كان
يجمع ، حول اكواره ، العلماء والعمال الذين يعدون له الأجهزة ، وبعض الشبان . ومنذ السنة
١٧٧٢ حتى السنة ١٧٨٦ ، رفع على التوالي ، بياناً نشرت في مجلدات اكااديمية العلوم ، وبلغ
بما ارسله منها في السنتين ١٧٨١ و ١٧٨٢ أن استحال نشرها كلها . تراپطت هذه البيانات
وتكاملت ؛ أفضت الوقائع إلى افكار جديدة ، وأدت الأفكار الجديدة إلى درس وقائع مهمة
أوالى اكتشاف وقائع مجهولة . لم يُترك شيء للمصادفة والاتفاق ؛ فالتفكير هو ما وجه
البحث ابداً .

يستحيل علينا الدخول في تفاصيل هذه الاختبارات التي كان اشهرها ، في السنة ١٧٧٧ ،
تحليل الهواء الذي قاده إلى اكتشاف الأزوت والاكسيجين ونسبها الصحيحة وخصائصهما
ودورهما في التنفس والاحتراق ، ثم إلى إعادة تركيب الهواء من اجزائه المختلفة ؛ وفي السنة
١٧٨٣ ، تحليل الماء وإعادة تركيبه من مقوماته . وفي النهاية أثبت ان العنصر اللهبى لا وجود
له ، وان الهواء الخالي من العنصر اللهبى جسم بسيط ، هو الاوكسيجين ؛ وأن الاوكسيجين يتحد
بالمعادن إبان تكليسها ، وانه يحول الكبريت والفسفور والفحم إلى حوامض ؛ وانه يؤلف
الجزء الفاعل في الهواء ويغذي اللهب والموقد ؛ وانه يحول ، في تنفس الحيوانات ، دمها
الوريدي إلى دم شرياني ، ويغذي الحرارة الخاصة بها ؛ وانه يشكل الجزء الاساسي في قشرة
الكرة الارضية وفي الماء والنباتات والحيوانات ؛ وانه كائن أزلي لا يفنى ، ينتقل من مكان إلى

آخر دون ان يكسب أو يفقد شيئاً ، على مثال المادة بصورة عامة . وفي السنة ١٧٨٣ ، وبعد بيان اجهز على العنصر اللبني الذي قال به ستاهل ، وضع كتابه « بحث في الكيمياء » في مجلدين صغيرين كان من حسن سبكهما وضبطها الهندسي ووضوح فصولها وكال تسلسلها المنطقي أن آثاراً إعجاب أوروبا فعمافت الكتب الأخرى .

تأخر الكيائيون أكثر من غيرهم في الانضمام الى لافوازييه . ولكن « برتوليه » و« غوتون دي مورفو » تبنيأ أخيراً نظريته في السنة ١٧٨٥ ، وما لبث « شابتال » ان حذا حذوها ، وفي السنة ١٧٨٧ علم « فوركروا » النظريتين وقارن بينهما في محاضراته .

أدى لافوازييه خدمة أخيرة للكيمياء بإسهامه في وضع لغة خاصة بها . الاصطلاحات كانت الكيمياء ملأى بالأسماء الغريبة : الغاروث ، ملح الالمبروث ، الماء الكيمائية الفاجيديني ، زيت الدردي الناقص ، زبدة الزرنينخ ، زهور الزنك . وقد شاطر رأي لافوازييه كافة كيميائيي أوروبا ، كما عبر عنه في الخطبة التمهيدية لكتابه « بحث اولي في الكيمياء » : « ... يقتضي تعود طويل وذاكرة حادة لاستذكار المواد التي تعبر عنها [اسماؤها] وبصورة خاصة للاهتمام الى نوع التركيب الذي تعود اليه ... انها تولد افكاراً خاطئة جداً » . وبين لافوازييه بعد ذلك ، متصرفاً تصرف تلميذ كوندبلاك ولا سيما تصرف العالم ، استحالة فصل المصطلحات عن العلم وفصل العلم عن المصطلحات ، لأن كل علم قوامه سلسلة الوقائع التي تكونه والافكار التي تذكرها والكلمات التي تعبر عنها . على الكلمة ان تولد الفكر ، وعلى الفكر ان يصور الوقائع :

« انها رسوم ثلاثة لحاتم واحد ... وبما ان الكلمات هي ما يحفظ الافكار وينقلها ، يستنتج من ذلك اننا لا نستطيع اتقان الكلام دون اتقان العلم ، ولا اتقان العلم دون اتقان الكلام ، وان الوقائع ، مهما بلغ من ثبوتها ، ومن صحة الافكار التي قد تولدها ، لن تفضي الا الى تعابير خاطئة اذا لم تكن لدينا المفردات الصائبة للتعبير عنها » .

طلب الكيائيون المصطلحات من غوتون دي مورفو الذي باشر العمل في السنة ١٧٨٧ مع لافوازييه وفوركروا وبرتولسيه . فقررروا الدلالة على المواد البسيطة بكلمات بسيطة تعبر عن اكثر خصائص المادة شمولا وتميزاً : اوكسيجين (مولد الحموضة) بسبب دوره في تكوين الحوامض . اما الاجسام المتكونة من اتحاد عدة مواد بسيطة ، فقد قسموها الى طوائف واجناس وانواع . فالمواد المعدنية المعرضة لتأثير الهواء والنار معاً تفقد لمعانها المعدني ويرتفع وزنها وتتخذ ظاهراً ترابياً : انها مركبة من عنصر مشترك بينها ومن عنصر خاص بكل منها ؛ اشتق اسم الجلس من العنصر المشترك : اوكسيد ؛ واضيف اليه اسم المعدن الخاص . والحوامض مركبة من مادتين ، « من صنف تلك التي نعتبرها بسيطة » ، احدهما مشاركة بينها كلها ، قوامها الحموضة ، اشتق منها اسم الجنس ؛ والثانية خاصة بكل

حامض ، اشتق منها الاسم النوعي . وفي العدد الأكبر من الحوامض قد يوجد العنصران
المركبان ، العنصر الحمض والعنصر المحمض ، بنسب مختلفة تؤلف كلتها نقاط توازن : يُعبر عن
هاتين الحالتين بالحامض الواحد بتغيير آخر الاسم النوعي (*eux, ique*) .

وهكذا كان للكيمياء ، بفضل لافوازييه ، نهجها ، ولقتها ، ومجموع وقائع ترتبط بنواميس .
لقد ولد علم فتي ؛ وسيعرف نمواً عجيبياً .

العلوم الطبيعية

تقدمت معرفة الطبيعة بخطى حثيثة ، على أنها ما زالت ، في اغلب الاحيان ، وصفاً ، او « تاريخاً طبيعياً » ، وهذه خطوة اولى ضرورية على كل حال .
ولكن مقارنة الرقائق أثارت مسائل كبرى ، فوضعت نظريات كثيرة ، واستعين كثيراً بالطريقة الاختبارية التي طبقت تطبيقاً مطرداً على تعقد الظواهر الحيوية ، وارتسمت فكرة عامة جديدة : ويمكن اعتبار كل عمل القرن اعداداً لمذهب التطور المعاصر .

كان بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨١) احد اوسع عوامل التقدم نشاطاً . كان لكلير بوفون الذي قُلب « الكونت دي بوفون » ، ابن مستشار في مجلس قضاء ديجون ، ودرس في سن مبكرة علم الرياضيات وعلم الطبيعة ، وارسطو ، وديكارت ، ولينيئز ، ووضع بيانات علمية ونشر ترجمات كتب علمية . عين بعد ذلك امين حدائق الملك (حديقة النباتات الحالية) فتمخض عقله بفكرة « تاريخ طبيعي » واسع جداً كرس له حياته منذ ذلك التاريخ . منذ السنة ١٧٤٩ حتى السنة ١٧٨٩ ظهر منه ٣٢ مجلداً يقطع ١/٤ في الارض والانسان ورباعيات القوائم والطيور والمعادن . ثم انجز « لاسبيد » ، بالاستناد الى ملاحظات بوفون ، « تاريخ الأفاعي » (١٧٨٩) ، وطبيعي ان بوفون قد استعان بعدد كبير من المساعدين لخص بالذكر منهم « دوبنتون » الذي عاونه في موضوع رباعيات القوائم . ولكن بوفون تولى شخصياً تحرير الاقسام التي استهوته استهواءً خاصاً : « نظرية الارض » ، « تاريخ الانسان الطبيعي » (١٧٤٩) ، « تواريخ الطبيعة » (١٧٧٨) ، « علم المعادن » . كان عالماً بطبقات الارض وعلماً بطبائع الانسان في الدرجة الاولى .

تناول النقد بوفون كما تناول كافة واضعي المؤلفات الجامعة والنظريات الكبرى والنظريات الجريئة والعلماء الذين هم علماء وادباء معاً . اخذ عليه تصنعه وتفخيمه . ولكن الاقسام التي يستشهد بها لاصدار هذا الحكم هي من وضع بعض معاونيه . فهو حين يكتب يفرغ ما يكتبه في قالب بسيط ينبض بعظمة حقيقية . « ... ان حركة اللوحات الهادئة والقوية - وتبسطها المستفيض والجليل يبعلمان من هذا الكتاب العلمي في بعض اجزائه ، كـ « تواريخ الطبيعة » مثلاً ،

فصيدة تثصف بالروعة والجلال . يروى انه حدث له ان صرف صبيحة كاملة في تركيب جملة واحدة ، وانه كان قادراً على تبير استعمال كل كلمة . فجدير بنا من ثم ان نهنثه بهذه المقدرة . واذا كانت لغة بوفون متصفة بالعظمة والاسهاب والتبل ، فرد ذلك الى انه طرق مواضيع عظيمة وشمر شعوراً عميقاً بعظمتها . واخذ عليه ، وذلك امر مهم صدر احياناً عن رجال علم من مصف رومور ، انه عالم مزيف ، وباني مذهب جمع به الخيال ، وانه يسكاد يكون مجرماً بحق الفكر . اما الواقع فهو انه قد لاحظ واختبر طوال حياته ، واحترم الوقائع خير ما يكون الاحترام ، واجلى برهان على ذلك انه غير على الدوام نهجه ونمط حكمه ، وانه حين ثبت له ، من تقدم دروبه ، ما تنطوي عليه « نظرية الأرض » من نقص واخطاء ، اعد كتابتها ، بعد مرور ٢٩ سنة ، باسم « قوارينج الأرض » . ولكنه لم يكتف ، على غرار العقول الضعيفة والاقفدة الخابية ، بالحقائق الجزئية : بل حاول ان يدرك ويرى مجموع الوقائع ويمسك بالروابط التي تصل بينها . لقد كان قوة من قوى الطبيعة . اولع بالملذات والمآكل الفاخرة وجمع المال ولمه بالحقيقة ، وقضى اوقاته بين « مونبار » وباريس ، واختلف الى الصالونات وعاشر المثلات ، وضارب في تجارة العقارات ، واستثمر المهاجر والغابات ، وادار مملاً للحديد ، واستطاع على الرغم من كل ذلك ان يكرس اكثر اوقاته للعمل العلمي . ازدرى بالمجادلات ، وواصل درس الوقائع مهمة لا تعرف الكلل ، وقال ، مغفلاً صفة نادرة من صفات الفكر ، ان العبقرية ليست سوى قدرة كبرى على الصبر وان فعزوه في انه سلخ خمسين سنة في مكتبه . شغفه بالعلم ادخل الحياة الى كتبه بتلك الحرارة وتلك البلاغة اللتين جعلتا منها احد اكثر المؤلفات قراءة واوسعها انتشاراً في دور الكتب ، ومؤلفاً ربما كان له اكبر دور في بعث الميل الى العلوم الطبيعية والروح العلمية ، كما انه اتاح ، بفضل الطريقة التي نادى بها والوقائع التي جمعها والآراء التي اقترحها والنظريات التي بسطها ، قيام عدد كبير من الاعمال ونشوء فروع علمية جديدة ! الجغرافية الحيوانية ، علم طبائع الانسان ، علم خصوصيات الشعوب ، علم الاحاث .

واسهم بوفون في تحرير التاريخ الطبيعي من كل تأثير عقلي فرضي وردّه الى درس انتقالات المادة . كان خصماً عنيداً للعنل الغائبة التي كان يطيب للأب « بلوش » ، مؤلف « مشهد الطبيعة » (١٧٣٢ - ١٧٤٠) الذي عرف شهرة كبرى ، الاسترسال فيها : « ملح الله البحر لأنه يصبح مضراً بدون ملح .

... وخلق المد والجزر حتى تدخل السفن بسهولة الى المرافىء ... وكان من شأن اللون الاحمر واللون الابيض ان يعيي البصر ، ومن شأن اللون الاسود ان يثير الحزن ، لذلك وجد اللون الاخضر في الارياف لمساعدة الرؤية ، كما وجدت درجات مختلفة من اللون الاخضر ليهجتها . « أليس القول ان هنالك نوراً لأن لنا أعيناً ، وان هنالك اصواتاً لأن لنا آذاناً ، او القول

ان لنا آذاناً وأعيناً لأن هنالك لوراً واصواتاً ، ترداد لقول واحد ، او بالحري ما معنى هذا القول ؟ ، وقد لاحظ من جهة ثانية في اكثر الحيوانات « اجزاء لا طائل تحتها ولا فائدة منها او اجزاء زائدة » تهدم فكرة نظام للحيوانات المخلوقة بفعل عقل كلتي الكمال وكلتي القدرة .

ناهض الرغبة المستهجنة في نسبة كل شيء الى هدف معين ، وعدم الاكتفاء « بمعرفة كيفية الاشياء والطريقة التي تسلكها الطبيعة في عملها » ، واستبدال « هذا الشيء الواقعي بفكرة لا طائل تحتها بمحاولة التكهن بسبب الوقائع والغاية التي تتوخاها من عملها » . وانتهى الى هذه النتيجة :

« ليست العلل الغائية ما يمكننا من الحكم في اعمال الطبيعة ؛ يجب الاتّ نسب لها مثل هذه المقاصد الصغيرة واخضاعها في عملها الى لياقات أدبية ، بل ان نبحت عن كيفية عملها فعلاً وان نستخدم ، بغية معرفتها ، كافة « العلائق الطبيعية » التي يوفرها لنا التنوع الكبير في نتائج عملها » .

ان ردّ كل شيء الى معرفة « العلائق الطبيعية » ، دون اي تساؤل آخر ، كان بالنتيجة تعريفاً عن الفكر وثأسيساً لعلم موضوعي . ولكن بوفون لم يتملص الا ببطء من الآراء القديمة : فهو قد استعاض عن الله واللاهوت بمفهوم « الطبيعة » الميتافيزيقي . حين نذكر الطبيعة نجعل منها نوعاً من كائن مثالي درجنا على ان ننسب اليه ، كلمة ، كافة المعلولات الثابتة ، كافة ظواهر الكون » . افترض ان لها مقاصد ومشاريع واخطاء ورفاثب فجائية ؛ وانها تجرب وترسم وتحاول . الا أن مفهومه قد انجلى شيئاً فشيئاً . لاحظ أن الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً لأنها قد تصبح كل شيء ، ولا كائناً لأنها قد تصبح الهأ . « الطبيعة هي « مجموع النواميس » التي وضعها الخالق » . ومجموع النواميس ، أي مجموع العلائق الشاملة والضرورية بين الوقائع ، يعني نظرة موضوعية سكلها .

قبل بوفون ، سبق لريومور ، في « تاريخ الحشرات » (١٧٣٤ - ١٧٤٢) ، وفي بياناته ومراسلاته ، ان نصح بدرس الطبيعة نفسها درساً مباشراً واستثبات كل ما يرويه المؤلفون ، حتى أرسطو وبلين . أما بوفون فلم يرد سوى معرفة الوقائع وأوحى احترام الواقع :

ان تخيل نظام أسهل من وضع نظرية ... المؤرخ مخلوق ليصف لا لبيدع ... يجب الا يميز لنفسه أي اقتراض ... ولا يجوز أن يستخدم تخيلته الا للتوفيق بين الملاحظات وتعميم الوقائع وتأليف مجموع منها يوفر للعقل ترتيباً منسقاً للأفكار الواضحة والعلائق المتسلسلة .

وهكذا فانه قد نُجر في الجيولوجية الى نبذ كل التفسيرات التي لا تفرضها الجيولوجية
الوقائع فرضاً : غياب القمر ، وجود سيارة اختفت ، طوفان شامل ؛ « انها افتراضات يسهل اطلاق العنان للمخيلة في موضوعها ، إذ أن مثل هذه العلل تسبب كل ما نريد

ان تسلب . لم يرد سوى « معلولات تحدث كل يوم وحركات تتعاقب وتتجدد بدوئ
انقطاع ، وعمليات دائمة تتكرر أبداً » . هذه هي نظرية « الملل الراحنة » التي تبلت على
نظرية الكوارث .

حين بدأ دروسه الجيولوجية ، كانت الفكرة العامة ، على الرغم مما الجزه بعض علماء
الطبيعة المتأزمين من أعمال جزئية مفيدة ، هي الفكرة الواردة في حرف سفر التكوين :
صنع الله العالم في ستة أيام ، وخلق القارات والحيوانات بمرة واحدة ، كما رآها الناس في القرن
الثامن عشر . وكان منذ القديم ، باستثناء تغييرات جزئية طفيفة يرد حدوث معظمها الى
الانسان . هذه كانت النظرية التي اطلق عليها فيما بعد اسم نظرية الثبوت . عُرفت آثار عضوية
متحجرة كثيرة ، ولكنهم تخلصوا منها بنسبتها الى خلق الطبيعة اللعوب التي تلهت بإعطاء
الحصبة البسيطة أشكالاً أشبه بالأصداف والأوراق النباتية والأسماك ، أو باعتبارها أثراً من آثار
الطوفان . اما الذين لم يقتنعوا فلم يتجاسروا على مناقضة حرف التوراة وآثروا الاعتصام بالصمت .
أراد يوفون ألا يخشى سوى الخطأ ، والا يبتغي سوى الحقيقة ، والا يعرف سوى الوقائع .
منذ السنة ١٧٤٩ ، عين للأثار العضوية المتحجرة ، في « نظرية الأرض » ، أصلها الحقيقي ،
ولكثرتنا الأرضية عمراً حددته بـ ٧٤٠٠٠ سنة بدلاً من الـ ٦٠٠٠ التي حدده بها اللاهوتيون ،
وأظهر تطوراً . واستند في السنة ١٧٧٨ ، في « توارينخ الطبيعة » ، الى خمسة « وقائع » ،
وخمس « آيات » .

بيّن الوقائع :

« الأرض ترتفع عند خط الاستواء وتنخفض عند القطبين بالنسبة التي تفرضها نواميس
الجاذبية والقوة المبددة عن المركز .

الكرة الأرضية تتميز بجمرة داخلية خاصة بها مستقلة عن الحرارة التي قد تصلها من أشعة الشمس .
الحرارة التي ترسلها الشمس الى الأرض خفيفة نسبياً اذا ما قورنت بجمرة الكرة الأرضية
الخاصة ... وقد لا تكون الحرارة المرسله من الشمس كافية لابقاء الطبيعة حية .
المواد التي تؤلف الكرة الأرضية هي على العموم من طبيعة الزجاج ويمكن أن تحوّل كلها
الى زجاج .

يوجد على كل سطح الأرض ، وعلى الجبال نفسها حتى ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ « تواز » كمية
ضخمة من الأصداف وبقايا أخرى من نباتات البحر وأسماكه .

ووصف آيات الماضي :

« اذا ما فحصنا الأصداف والآثار العضوية البحرية التي تستخرج من الأرض في فرنسا وانكلترا
وألمانيا وبلدان أوروبا الأخرى ، تبين لنا أن قسماً كبيراً من الانواع الحيوانية التي تعود اليها
هذه البقايا لا يوجد الا في البحار المتاخمة ، أو لا وجود له في أيامنا هذه ، أو لا يوجد الا في
البحار الجنوبية .

لجند في سيبريا وفي الأصفاح الشمالية الأخرى من أوروبا وآسيا من الهياكل العظمية والانياب وعظام الفيلة وأفراس الماء والمراميس ما يؤكد لنا أن أنواع هذه الحيوانات التي لا يمكن أن تتكاثر بالتناسل الا في المناطق الجنوبية قد وجدت فيما مضى وتكاثرت في المناطق الشمالية .
لجند انياب وعظام فيلة ، كما لجند أنياب أفراس ماء ليس في مناطق قارتنا الشمالية فحسب ، بل في مناطق شمالي اميركا ايضاً ، مع أن أنواع الفيل وفرس الماء لا توجد في قارة العالم الجديد هذه .

وقد خيل اليه ان هذه الوقائع الراهنة وبقايا الماضي هذه تفرض عليه فكرة تطور في الزمان رسم خطوطه الكبرى . يقسم تاريخ الأرض الى سبعة عهود . العهد الأول هو عهد الميع والاتقاد : « حين اتخذت الأرض والسيارات شكلها » ؛ والثاني هو عهد الإبراد : « حين جمدت المادة وكونت خوالد الكرة الداخلية » ، كما كوَّنت الكتل الكبرى القابلة للتحويل الى زجاج والموجودة على سطحها ؛ ؛ والثالث : « حين غمرت المياه قاراتنا » ؛ والرابع : « حين تراجمت المياه وأخذت البراكين تثور وتغذف اللحم » ؛ والخامس : « حين قطنت الفيلة وحيوانات الجنوب الأخرى مناطق الشمال » ؛ والسادس : « حين تم انفصال القارات » ؛ والسابع : « حين غدت قدرة الانسان عوناً للطبيعة » .

وهكذا فقد غدا النهجُ درسَ انتقالات المادة ؛ والمبدأ الاساسي المسلم به دون برهان ديمومة النواميس الطبيعية التي كانت ظواهر الماضي بموجبها ماثلة لظواهر الحاضر ؛ والفكرة العامة التطور الدائم ، التحول البطيء في الزمان : فتأسست بذلك الجيولوجية الحديثة .

إن فكرة التطور هذه ، التي نحن الفناها ، قد قلبت طرائق التفكير وصادفت مقاومات كثيرة . قلقت الكنيسة : فبوفون قد دافع عن رأي معاكس لرأي سفر التكوين . في ١٥ كانون الثاني ١٧٥١ ، زيفت كلية اللاهوت ١٦ رأياً جديداً وأوجبت استدرالك القول . أعلن بوفون أنه يؤمن « إيماناً ثابتاً بكل ما يرويه التاريخ عن الخلق ، وانه يتخلى عن كل ما قد يخالف رواية موسى » . وتابع طريقه . ولكن اناساً من امثال فولتير نفسه لم يستطيعوا فهم بوفون : فهو قد تصور عللاً دائمة أحدثت المعوللات نفسها في كافة الازمنة ، دون ان يكون هنالك تأثير لحالة الاشياء في عهد سابق عليها في عهد لاحق ، وعند في ان يرى في الآثار العضوية المتحجرة اصدافاً احضرها حجاج الحملات الصليبية من سوريا او اسماكا نبذها الرومان من موائدهم لانها غير طازجة ، دون أن يتمكن من ان يفسر ، في هذه الحال ، كيف أن الآثار المتحجرة تكتشف أرصفة قد تتجاوز ١٠٠ فرسخ طولاً .

لقد انجز خلال هذا القرن عمل عظيم جداً هو تصنيف الكائنات الحية اجناساً والتصنيفات النباتية والحيوانية وانواعاً . وكان التصنيف ضرورياً للاسراع في تشخيص النباتات التي عرف منها ١٨٠٠٠ في اواخر القرن السابق ، والحيوانات التي كان عددها يرتفع ارتفاعاً مطرداً . ولكن علماء الطبيعة قد عندوا في اجراء هذا التصنيف لانهم ابتغوا من وراء

ذلك اكتشاف مخطط الله ايضاً .

في اوائل القرن استخدم علماء الطبيعة التصنيف النباتي للفرنسي « تورنفور » والتصنيف الحيواني للعالم اليوناني أرسطو . أدخل عليها السويدي « لينيه » (١٧٠٧ - ١٧٨٠) ، وهو ابن راع بروستانتى ، نحسيناً كبيراً . فان كتابه « انظمة الطبيعة » الذى نشر في السنة ١٧٣٥ قد اعيد نشره منقحاً ١٣ مرة حتى السنة ١٧٨٨ ونشر معه عدة مؤلفات اخرى . في علم النبات وزع ٧٠٠٠ نبات على ٢٤ طائفة وفاقاً لعدد ابرها وترتيبها ونسبتها واجتماعها ؛ وبسط المصطلحات النباتية تبسيطاً كبيراً . كان علماء الطبيعة قد درجوا على تضمين اسم النوع خطوط الوصف الاساسية . فكان يقتضى ذاكرة اعجوبة لحفظ هذه الاسماء الطويلة ، وبات التصنيف يرهق العقل بدلاً من ان يفرّج عنه . اما لينيه فقد اعتمد المصطلحات الثنائية العنصر : اسم للجنس وآخر للنوع ؛ فعدت الطريقة سهلة ؛ وهي لا تزال حتى ايامنا هذه اساساً للمصطلحات النباتية ؛ فمكن بذلك خلفاءه من القيام بعملهم الوصفي العظيم . وادخل في علم الحيوانات بعض التحسين على تصنيف ارسطو دون ان يقلب رأساً على عقب ، فآخذ بعين الاعتبار الاعضاء الداخلية ، وكان اول من ميز بين الحيوانات الولودة بواسطة الاثداء وصنف ، بين الضرعيات ، الحوتيات التي صنفت حتى ذلك التاريخ بين الاسماك .

وعى اهمية عمله وقدره واكبره . فقد نظر الى الانواع كما الى كيانات حقيقية متميزة بفوارق متباينة ودائمة هي الصفات النوعية . كل نوع يطابق عملاً من اعمال الخالق الذي عين له كافة الخصائص الضرورية وجعله ثابتاً ودائماً . فهمة عالم الطبيعة الاولى تقوم في جرد الانواع لأنه بذلك يصف عمل الله المعجيب : علم التنظيم هو العلم الاسمى . ان لينيه لعمري هو فيلسوف مذهب الثبوت .

بيد ان عمله بقي ناقصاً ، فهو قد اختار ما يختص بالابر مبدءاً للتصنيف لأنه اعتقد بأن تحديد الصفات على هذا الشكل يضمني عليها قيمة كبرى ؛ كما فكر بالتوصل الى تصنيف طبيعي . اما في الواقع فكانت اختياره تحكيمياً ، وبقيت ابواب تصنيفه صعبة : صنف اشجار الورد ثلاثة ابواب مختلفة وادخل شجرة التين في باب نبات النار . وفي علم الحيوان ، جمع في باب الحيوانات الضارية النمر والاسد وعلب الماء والفقمة والكلب والغنغذ والخلد والحفاش ا وادخل في باب الافراس الحصان والفيول وفرس الماء وفار السم والخنزير الم يبعث نظامه ارتياحاً في النفس ولم يصادف قبولاً وقناعة : فظهر عشرون نظاماً غيره ، افضت كلها الى تعمق في درس الصفات المميزة وتقدم عظيم في الوصف والطرائق ، واتاحت الاقتراب شيئاً فشيئاً من الطريقة الطبيعية . اضع الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاكتشافات بدت وكأنها تزيل الفروق بين العوالم . لقد ساد الاعتقاد ابداً بان المرجان نبات بحري . فاثبت احد اطباء مرسليليا ، « بيسونيل » ، في السنة ١٧٢٧ ، ان هذه النباتات « حشرات تكون المرجان » . ودرس الانكليزي « ترمبلي » ،

في السنة ١٧٤٠ ، نباتاً مائياً أُنضح له شيئاً فشيئاً انه حيوان هو الهدرية الخضراء التي توفق في اختباراته عليها الى الحصول على التولدات الحيوانية المعروفة الاولى : 'قُطعت الهدرية فكوّن كل قسم منها هدرية كاملة ؛ لا بل انه توفق الى اجراء اللقح الحيواني والحصول على هدريات ذات رأسين او عدة رؤوس . كان صدى عمله عظيماً واتجه الانتباه الى هذه الحيوانات التي كان تصنيفها من الصعوبة بمكان . واخذت تبرز فكرة دوام الطبيعة .

رأى يوفون بوضوح ، وربما كان اول من رأى ، طابع التصنيفات الصناعي وماجسم ليلتيه بعنف . واذا ما هو انتهى الى التصنيف ايضاً ، تقريبا عن العقل ، فانه لم يكن قسط مفروراً :

يرون ان الاوس نوع من الهر ، والثعلب والذئب نوع من الكلب وقط الزباد نوع من الغرير ، والخنزير الهندي نوع من الأرنب البري ، والجرذ نوع من القندس ، ووحيد القرن نوع من الفيل ، والجوارح نوع من الحصان ، وكل ذلك لأن هنالك بعض النسب الصغرى في عدد ائدائه هذه الحيوانات واسنانها او بعض التشابه في قرونها ... افليس القول ان الحمار حمار والهر هر اسهل واصح واقرب الى الطبيعة من ان نريد ... الحمار حصاناً والهر أوساً ؟

بيد أن الفرنسي « آدنسون » (١٧٢٧ - ١٨٠٦) هو من امتدى الى طريقة التصنيف الطبيعي وقوّم أسس الايمان بواقع النوع . ففي كتابه « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧) ، وفي مؤلفه الهام « فصائل النباتات » (١٧٣٦) ، شدد الكلام على الاشكال المنظمة . لم يستطع أحد اثبات وجود الطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، لأن « ليس هنالك سوى كائنات فردية تتعاقب ، منصهراً بعضها في البعض الآخر ، اذا صح التعبير ، بواسطة الفروق المميزة » . واذا ما فحصنا الفروق بدقة ، توصلنا في النهاية الى تمييز « الخطوط الفاصلة » . وربما لم يكن بمضها ، بما هو بارز ويكون « فراغاً » بين الكائنات ، دلالة اختلاف في النوع ، بل ان سببها الوحيد « هو جهلنا للكائنات الوسيطة التي تصل بينها ، أي فقدان هذه الكائنات بالذات في تعاقب الأزمنة وبفعل تقلبات وجه الارض » . ولكن لما كانت الضرورة العملية توجب التصنيف ، بات لزاماً ، على الأقل ، احترام « الترتيب الذي تبقي عليه هذه الخطوط الفاصلة فيما بينها » ، واتباع « طريقة الطبيعة او ... الطريقة الطبيعية ... وحتى اذا لم يكن من وجود للطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، بالمفهوم الذي يعنيه المنهجيون المعاصرون ، فقد يمكن استناداً الى مدى الفراغات ، اكتشاف تقسيمات متشابهة يجوز ان تحمل اسمها في طريقة طبيعية » . تحلى آدنسون عن كافة المعاديات وانكب على فحص المجموعات : فالمجموعة هي الواقع . « وصفت في البدء كل نبات وصفاً كاملاً مخصصاً لكل من أجزائه ، بكل تفاصيله ، مقالاً خاصاً ؛ وكلما مررت بأنواع جديدة تقوم بمض الصلات بينها وبين ما سبق وصفه ، وصفتها الى جانب الاولى ضارباً صفحاً عن أوجه التشابه ومدوناً الفوارق فقط . تبين لي من

مجموع هذه الأوصاف المقارنة ان النباتات تتنشق من ذاتها في طوائف أو فصائل لا يمكن أن تكون قياسية أو تحكمية من حيث أنها غير مبنية على جزء واحد أو عدة أجزاء ... بل على كافة الاجزاء معا . فكانت هذه الملاحظات حول انتقال غير محسوس من فئة الى أخرى طريقاً سهلاً نحو مذهب التحول ؛ كما ان تحقيق واقع مستمر يقطّعه عقلنا أجزاء لأجل راحته الشخصية ، وكما لو كان ذلك بفعل ضرورة يستلزمها تركيبه ، لم يكن منطوياً على نتائج فلسفية ضئيلة .

التناسل الذاتي
حاول القرن الثامن عشر ان يتغلغل في أسرار هذه الأجهزة العضوية التي توفر له وصف ظاهرها . فما هو أولاً مصدرها يا ترى ؟ كان القرن السابق قد هدم الاعتقاد بالتناسلات الذاتية فيما خص الديدان والذباب وكافة الحشرات . فقد اثبتت بعض الاختبارات انها تولد جميعها من تراوج ذكر وأنثى . كما كان قد اكتشف الجراثيم بواسطة المجهز . الا أن بوفون رجع في السنة ١٧٤٨ ، بغية تفسير مصدرها ، الى نظرية التناسل الذاتي الموافقة لرأيه في التطور . طلب الى الاب « نيدهام » القيام بالاختبار . أعد الاب نيدهام بعض مرق اللحم المشوي « الساخن جداً » في قنارٍ سكب فيها ماء غالياً وسدّها سداً محكماً ثم وضعها في رماد « ساخن جداً » . بعد مرور أربعة أيام ظهرت على التوالي خيوط عفن ، وغيرات ، وخائثر ، وجراثيم ، ونقاعيات . فتكلم نيدهام عن « قوّة انمائية » في المادة تجعلها تنتقل الى حالة النبات ثم الى حالة الحيوان .

حينذاك أجرى عالم الطبيعة الايطالي « سبالنزاني » (١٧٢٩ - ١٧٩٩) سلسلة من الاختبارات الخليفة باستور . اشبه في أن نيدهام لم « يعرض الآنية لدرجة من الحرارة كافية لافناء الجراثيم الموجودة فيها » . يضاف الى ذلك انه لم يسدّ قنانيه الا بالقرق « الذي هو مسامي جداً » ، فلم يتمكن من الحيولة دون دخول الجراثيم الى منقوعاته . في السنة ١٧٦٥ ، سكب سبالنزاني منقوعات في قنارٍ ختمت اعناقها باذابة الزجاج ثم وضعت في الماء الغالي طيلة ساعة كاملة . فلم يظهر أي « حيوان صغير » . أما اذا أبقيت القناني مفتوحة أو سخنت لفترة قصيرة ، فتتكاثر الحيوانات الصغيرة بسرعة .

اعترض نيدهام على ذلك : اضعف سبالنزاني القوة الانمائية بمغالاته في التسخين . فسخن سبالنزاني قنانيه حينذاك طيلة ساعتين في الماء الغالي ، ولكنه لم يحكم سدّها : ظهرت الحيوانات الصغيرة ، وما كانت الحرارة من ثم لتضعف أية قوة ، وبالتالي كان الاختبار الاول صحيحاً ومقبولاً .

زعم نيدهام آنذاك ان سبالنزاني قلل في المرة الأولى كثافة هواء القناني بسدها باذابة الزجاج ؛ وهذا هو سبب عسدم ظهور الحيوانات الصغيرة . استخدم سبالنزاني قناني تلتهمي بانبوب شعري . اقلها باذابة الزجاج وبقطع الانبوب سريعاً : لم يطرأ من ثم أي تغيير على

ضغط الهواء . أعاد اختباره الأول في هذه الفئاني : فجاءت النتيجة ماثلة .
استطاع سبالزاني أن يؤكد ما يلي : « القوة الاتمائية ليست سوى نتاج الهيلة » . (الحيوانات
الصغيرة) تولد من « بذور » تقاوم قوة النار بمض الوقت ولا تلبث في النهاية أن تموت . الا
أن فكرة التطور والمادية سبعت الاعتقاد بالتناسلات الذاتية . وكان مقدرأ لباستور « وبوشيه »
أن يبعدها الجدال الذي قام بين نيدهام وسبالزاني .

التفدية
كيف تعمل هذه الاجهزة العضوية عملها يا ترى ؟ فصل الانكليزي « هايان »
في كتابه « علم سكون النباتات » (١٧٢٧) الاختبارات التي سمحت له
بالتأكيد أن انتقال اللسخ صعداً يجرى بسبب الانتضاح ؛ وان الأوراق هي مركز هذا الانتضاح
تحت تأثير نور الشمس . وفي أواخر القرن أتاح تقدم الكيمياء اكتشاف كيفية تكوين
النباتات لمادتها بذاتها . وفي السنة ١٧٧١ لاحظ بريستلي أن ساق التنعاع الموضوع تحت اناه
زجاجي مقلل افضالاً حكماً ينقي الهواء . وبعد أعمال لافوازييه ، ادرك العلماء ان النباتات
تستولي على غاز الكربون في النهار وتحفظ بالكربون وتتخلل عن الأوكسجين : الكربون
يبقى متحداً بالنبات .

اما فيما خص الحيوانات فقد قال القرن الثامن عشر ، مدة طويلة ، بآراء ديكارت : الجسم
آلة ، أو اجتماع أنابيب ، ومخول ، ومناقيخ ، ومضخات ، ومناخل . لم يكن هنالك أية فكرة
عن الظواهر الكيميائية . الصفراء ، والبول ، والحليب كل ذلك يتكون في الدم . الدم يمر في
الغدود التي ليست سوى مصاف لإفراء هذه الاخلاط . ولما كان كل شيء آليا ، فمن الممكن
اخضاع كل شيء للحساب . برهن الانكليزي « كيل » بطريقة الإستنتاج ان جسم انسان يزن
١٦٠ لبرة يشتمل على ١٠٠ لبرة دما و ١٠ لبرات عظما و ١٧ لبرة شحما . وكان ذلك خطأ
غير نادر يقوم ، بالاستنتاج ، باعتماد طرائق علم أكثر بساطة وتقدما ، في علم أحدث عهداً وأكثر
تعميداً ، غير آخذ بعين الاعتبار الا ما هو مشترك بين العليين ومهملاً ما هو خاص بالعلم الأكثر
تعميداً . وهذا ما كان سيحدث ، بعد ذلك بزمن ، بتطبيق علم الحياة على درس المجتمعات
البشرية ، والحصول بهذا التطبيق على نتائج غريبة .

تقدم « بارتيذ » ، في السنة ١٧٧٨ ، بنظرية « الحيوية » : ان مجرد حركة القوى الطبيعية
لا يمكن ان يفسر ظواهر الحياة . هذه الاخيرة تنجم عن فعل مبدأ حيوي لا تكتشف نواميسه
الا بدرس خصائص الاعضاء ، بحسب الروح النيوتونية . فكانت ذلك وعيا لنوعية ظواهر
الحياة ونبدأ لكافة النظريات الميتافيزيقية في الحياة . وقد غدت مونبلييه مركز مذهب الحيوية .

تحققت النتائج على ايدي المختبرين . فقد برهن ريو مور ، في السنة ١٧٥٢ ، وسبالزاني في
السنة ١٧٨٠ ، ان الهضم كيميائي عند الحيوانات الغشائية المعدة ، بينما زعم سابقهما انه يرد
الى عملية السحق التي تتولاها عضلات المعدة . فأمتنا الاطعمة ضد عملية السحق هذه بواسطة

انبوب صغير من التنك احداثا فيه ثقبوا كثيرة ، ووجدوا ان الاطعمة قد مضمت . ثم وضعا اسفنجة في الانبوب وجمعا العصارة المدية . وضع سبالزاني هذه العصارة في انايب ملىء باللحم سدها سداً محكماً وتأبطها طيلة ثلاثة ايام ، فوجد بعدها ان اللحم كان قد مضى مضماً تاماً : فكان ذلك اول هضم اصطناعي .

ساد الاعتقاد حتى السنة ١٧٧٥ ان الهواء يدخل الى الدم لتبريده أو لتزويده ببدا محي . في تلك السنة برهن بريستي ان التنفس ينجم عن تبادل غازي . ثم جاء لافوازييه فحل في السنة ١٧٧٧ ، باختبارات معدودة ، المسألة التي عطف عليها الاطباء وعلماء الطبيعة منذ قرون عديدة : فبرهن ان الدم ، في الرئتين ، يمتص الاوكسجين ويتغذى عن حامض الكربون . ومنذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ ، طبق لافوازييه ، مسح لابلاس ثم مع سيغين ، مقياس كمية الحرارة على درس الحرارة الحيوانية؛ وأثبت ان التنفس هو السبب الرئيسي للمحافظة على حرارة الجسم ، وان العرق يبرد الجسم حين يكون بحاجة الى ذلك ، وان الهضم يميد الى الدم ما يفقده بالتنفس والعرق .

كيف تتناسل الكائنات الحية ؟ أدت اختبارات عديدة الى اكتشاف تزواج الانصاب النباتات: يتم الانصاب بسقوط غبار طلع ذكور الازهار على اناث الازهار . تحققت هذه النتيجة منذ السنة ١٧٥٠ . ولكن العلماء فشلوا فشلاً ذريعاً في التغلغل في اسرار تناسل الحيوانات . لوحظت وقائع غريبة من أمثال تناسل الارق الذاتي ، التناسل بواسطة المذارى المخصبة ، الذي لفت رومور الانتباه اليه . اجريت بعض الاختبارات . ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة واحدة .

« ان جاذبية متساوية وعمياء موزعة على المادة كلها قد لا تفيد في تفسير كيفية تركيب هذه الاجزاء بغية تكوين جسم غاية في البساطة . إذا توفرت لها جميعها النزعة نفسها أو القوة عينها ليتحد بعضها ببعض الآخر ، فلماذا يكون هذا البعض عيناً وذاك البعض اذناً ؟ لماذا هذا الاحكام العجيب ؟ ولماذا لا تتحد كلها اتحاداً مختلطاً ؟ » .

وبسبب جهلهم كل شيء من ذلك ، تعلق العلماء بنظرية التكون السابق وتداخل الجراثيم التي لا تتعرض للمساقل المطروحة : اشتمل الانسان الاول في ذاته والحيوانات الاولى في ذاتها على كافة الاجيال اللاحقة متكونة ومتداخلة كلها . وقد حسب أحد العلماء ان ٢٠٠ جيل تمثل ٢٠٠ مليار من الكائنات البشرية المتداخلة على هذه الصورة ! انتقد بوفون هذا الرأي وهذا المفهوم انتقاداً لاذعاً ، ولكن العلماء المنحون امام « حكمة الملي التي لا تدرك » .

على الرغم من هذا الاخفاق اخذت فكرة استمرار الطبيعة تتقدم رويداً رويداً . فان طرائق الملاحظة والاختبار التي نجحت ذلك النجاح الكبير في درس الاجسام الحيا ، قد نجحت

وحدها ايضا في درس الاجسام العضوية ا وقد آل عدد كبير من الظواهر الحيوية الى ظواهر طبيعية وكيميائية ، الى حركات من حركات المادة . واعتقد بعضهم بأنه سيأتي يوم يؤول فيه اليها كل ما لم يفسر بعد : فكانوا ماديين تماما .

استخدم القرن الثامن عشر مفهوم الحركة الانعكاسية الذي طلع به الانكليزي الاعصاب « ويليس » في القرن السابع عشر . فان « استروك » من مونبليه ، قد درس في بيانيه المائدين الى السنة ١٧٢٣ والسنة ١٧٣٦ ، « القابليات » أي ردود الفعل التي تؤدي ، همد تهيج احسد الاعضاء ، الى تقلص أو تشنج في عضو آخر : اغلاق الجفون ، السعال ، العطاس ، الهواج ، المصص ، البلع . فسرهما بحركة مزدوجة من « التأمير » التي تصعد من المناخر باتجاه الدماغ ، فتصطدم بليفته وتسلق طريق غضب الحجاب الحاجز . يتحرك هذا الاخير بعنف فيحدث العطاس .

ولكن ما زال كل شيء خاضعاً للدماغ ، في الثلث الأخير من القرن حدث ثورة كوبرنيكية : اكتشاف مراكز « حسية حركية » تعمل بدون الدماغ . فإن « هويت » ، من « ادنبرا » ، قد حصل على حركة انعكاسية ، اثناء اختباره على ضفادع مقطوعة رؤوسها ، على الرغم من عدم وجود الدماغ ، وبرهن على أن النخاع الشوكي هو ما يسبب هذه الحركات : فهي لا تحدث بعد تعطيل هذا الدماغ (١٧٤٦) . ورأى « اونز » ، الاستاذ في « هال » ، أن الجسم مركب من عدة « آلات حيوانية » تنبض بقوة نوعية خاصة بها وتحدث مباشرة وقبأة حركات حيوانية تنمي جسم الحيوان بدون أي تدخل من الدماغ ، وبدون وعي وبدون ادراك . تؤمن الاتصال بين هذه « الآلات الحيوانية » عقد وضاغائر عصبية تمكس الانطباعات الخارجية وتحدث الحركات الانعكاسية (١٧٧١) .

ورأى « بروشاسكا » ، الاستاذ في براغ ، ان « المركز الحسي المشترك » (الانتفاخ الفقاري والنخاع الشوكي) ، يؤمن ، بمنزل عن الدماغ ، بقاء الجهاز العضوي ودفاعه ضد اسباب الفناء على انواعها . تسبب الأعصاب الحسية ، بفعل اتصالها بهذا « المركز الحسي المشترك » ، تحول الانطباع الى حركة . ويتم الانطباع الحسي عند مستوى عقد الاصول الخلفية للأعصاب الفقارية .

تخاض هؤلاء العلماء الثلاثة التمرض لطبيعة الخلوط العصبي والقوة العصبية - وتبنوا الطريقة النيوتونية فاكتفوا بدراس خصائص الاعصاب لمحاولة تحديد نوايس حيوانية دونما اكثيرات للآلية الكروتونية والنظريات الطبيعية : « إلا أن الأدنى لا يفسر الأعلى . ولعلم الحياة نسقه النوعي ونوايسه الخاصة .

بيد أن فكرة تطور الكائنات وتبدلاتها البطيئة والتدرجية والمستمرة وقابليتها مذهب التحول الكبرى للتغير كانت سائرة قدماً ومؤدية شيئاً فشيئاً إلى مذهب التحول . وقد أوسحت وقائع كثيرة بهذه الفكرة : الحيوانات المتحجرة المجهولة في ايامنا هذه ؛ الطابيح

الصنعي الذي يرتديه النوع والوسائط الكثيرة بين الانواع المتقاربة ؛ نجاحات علم التشريح المقارن على يد الفرنسيين « دوينتون » الذي شرّح لبوفون ، بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٧ ، ١٨٣ نوعاً من الضرعيات ، و « فيك دازير » ، طبيب مارسي - انطوانيت ، للذي قارن بين الهياكل العظمية والقلوب والمعد عند الطيور والاسماك ، فاكتشفا وحدة تخطيط التركيب : ان التخطيط العام لتركيب هذه الحيوانات متماثل ، والاعضاء نفسها موجودة عند جميعها في الوضع النسبي نفسه ومركبة من الاجزاء نفسها وفاقاً للترتيب عينه ، كما لو كانت كلها منحدره من جد مشترك ؛ ورأيا تشابه الخلق ونوع الحياة الذي حمل على الاعتقاد بالمطابقة البيئية . واتجهت الاتجاه نفسه جغرافية بوفون الحيوانية : لما كانت الفوارق بين الحيوانات نفسها تتبع المناخ والنباتات وارتفاع سطح الارض ، فلا يمكن أن ترد الا الى تغيرات تحدث بتأثير العوامل الطبيعية ؛ واطهر علم الوظائف أهمية العوامل الطبيعية والكيميائية في حياة الأجهزة العضوية ؛ وبدأت بعض الوقائع الغريبة وكأنها تشير في الطبيعة الى قوى مجهولة غير اعتيادية : فقد رأى « ترمبلي » الهدريات المقطعة إرباً إرباً تستعيد تكوينها مرة أخرى ؛ وابر الهدريات برؤوس في اوضاع غريبة بميدة التصديق جداً . وابر « دوهاميل - ومونسو » ، في السنة ١٧٤٦ ، رأس الحيوان بصيصه الديك . وشاهد رومور ، في السنة ١٧١٢ ، تجدد تكون رجل السرطان المقطوعة ؛ كما شاهد سبالزاني في السنة ١٧٦٨ تجدد تكون رأس حازون مقطوع الرأس ؛ ورأى بونيه في السنة ١٧٨٠ تجدد تكون عين سمندر ماء .

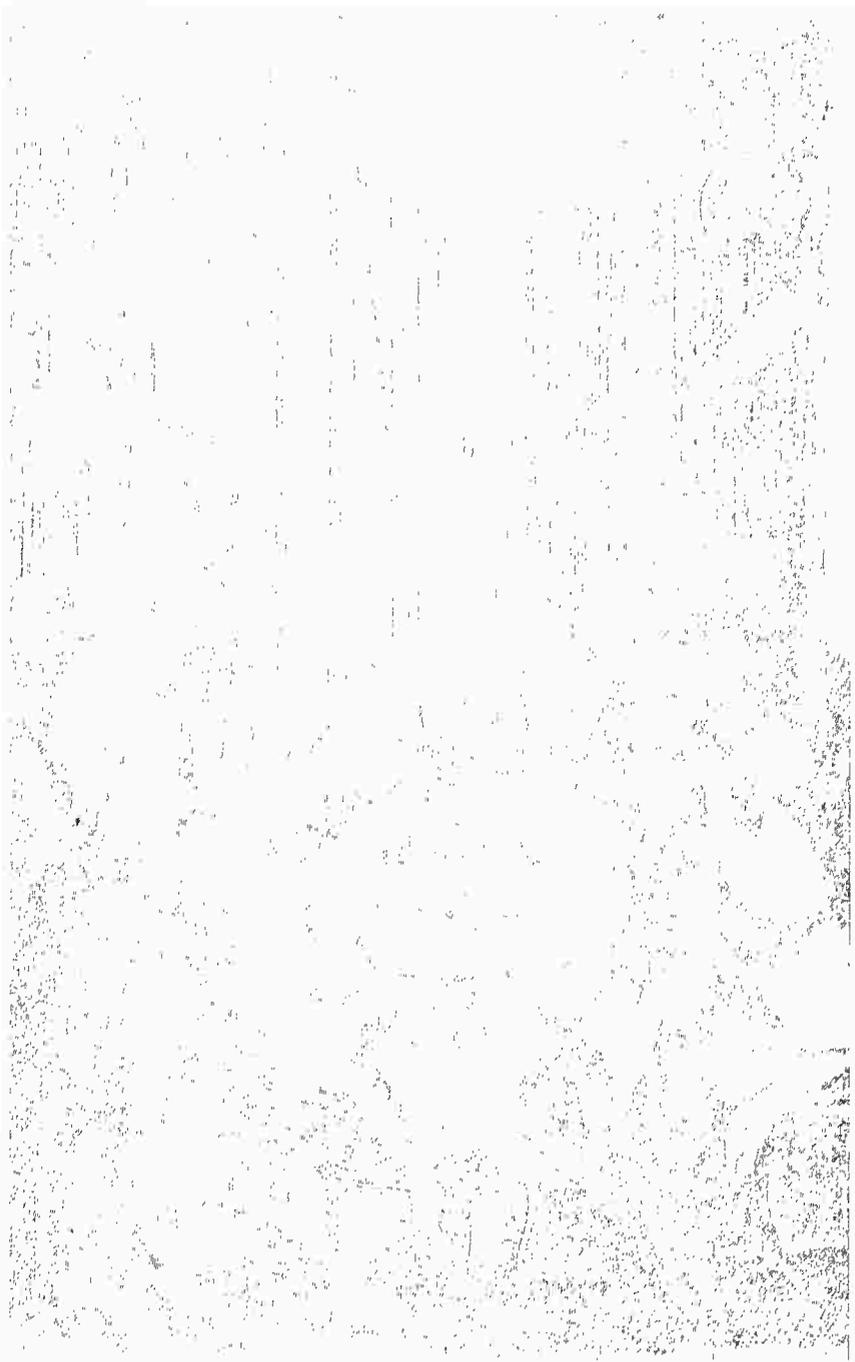
وهكذا فقد نشأت نظرية التحول باكرأ في ذهن الفرنسيين . فعالم الرياضيات والفلكي « موبرتوي » ، الذي استنار باختبارات تهجين عديدة ، قد عبر عن فكره تعبيراً تحولياً في « الزهرة الطبيعية » (١٧٤٥) و « نظام الطبيعة » (١٧٥١) و « علم نواميس العالم العامة » (١٧٥٦) . بين تبدلات حاصلة بتأثير المناخ والاغذية وقابلة الانتقال منذ التوالد الأول : « ألا نستطيع أن نفسر بذلك كيف أمكن حصول تعدد أكثر الانواع تبانياً انطلاقاً من فردين فقط؟ » لقد تصورت في ذهنه منذ ذاك التاريخ فكرة المطابقة للطبيعة والانتقاء الطبيعي ؛ ولقد اتفق هذه التأثيرات الطبيعية عدداً غفيراً من الأفراد ؛ فما كان منها سيء التركيب ولم يستطع سد عوزه قد انتهى الى الاضمحلال ، أما ما تبقى فقد عرف البقاء بفضل « بعض علائق الانتقاء » .

اما آدنسون فقد اقتنع بقابلية التبدل لدى الانواع . تحققت ظهور انواع نباتات جديدة ، اما باخصاب نباتين مختلفين من نوع واحد ، واما بالزراعة والتربة والمناخ والجفاف والرطوبة والظل والشمس . قد تزول هذه التبدلات في التوالد اللاحق ، ولكنها قد تنتقل بالوراثة ايضاً ؛ فيتكون من ثم نوع جديد .

خلص بوفون الى القول ان الحمار ليس سوى حصان فسد نوعه بتأثير المناخ والغذاء ؛ وان الانسان والقرود ينحدران من اصل واحد على غرار البعصان والحمار ؛ وان « كل فصيلة ، سواء



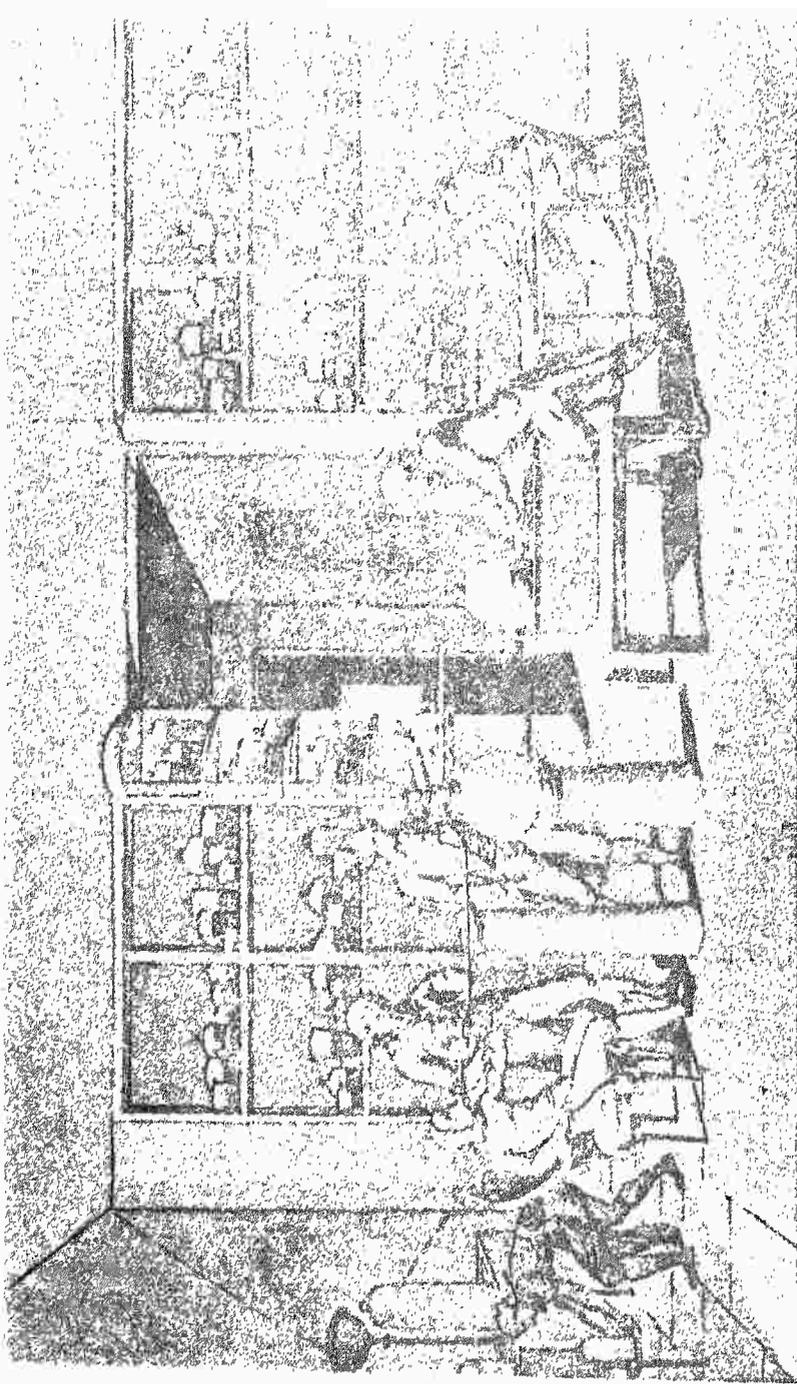
سید فیاض



11-2-18

٤ - مختبر كيميائي

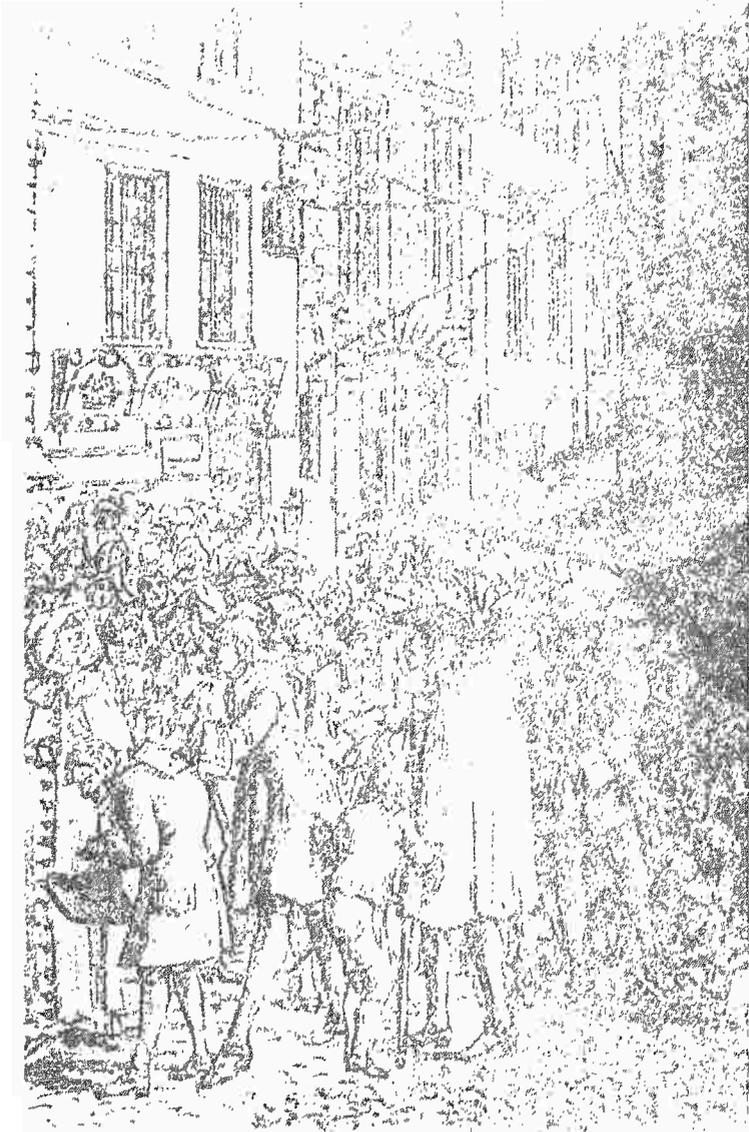




٥ - لافوارزيه في مختبره



ان تويج فولد في المرح الف نسي



۷- شارع کهنکامبو اعمام ۱۷۲.

٩ - كالأحور غونينيس، يزقون منطاداً هبطاً في قرية هو



١- مذهب الفلاح

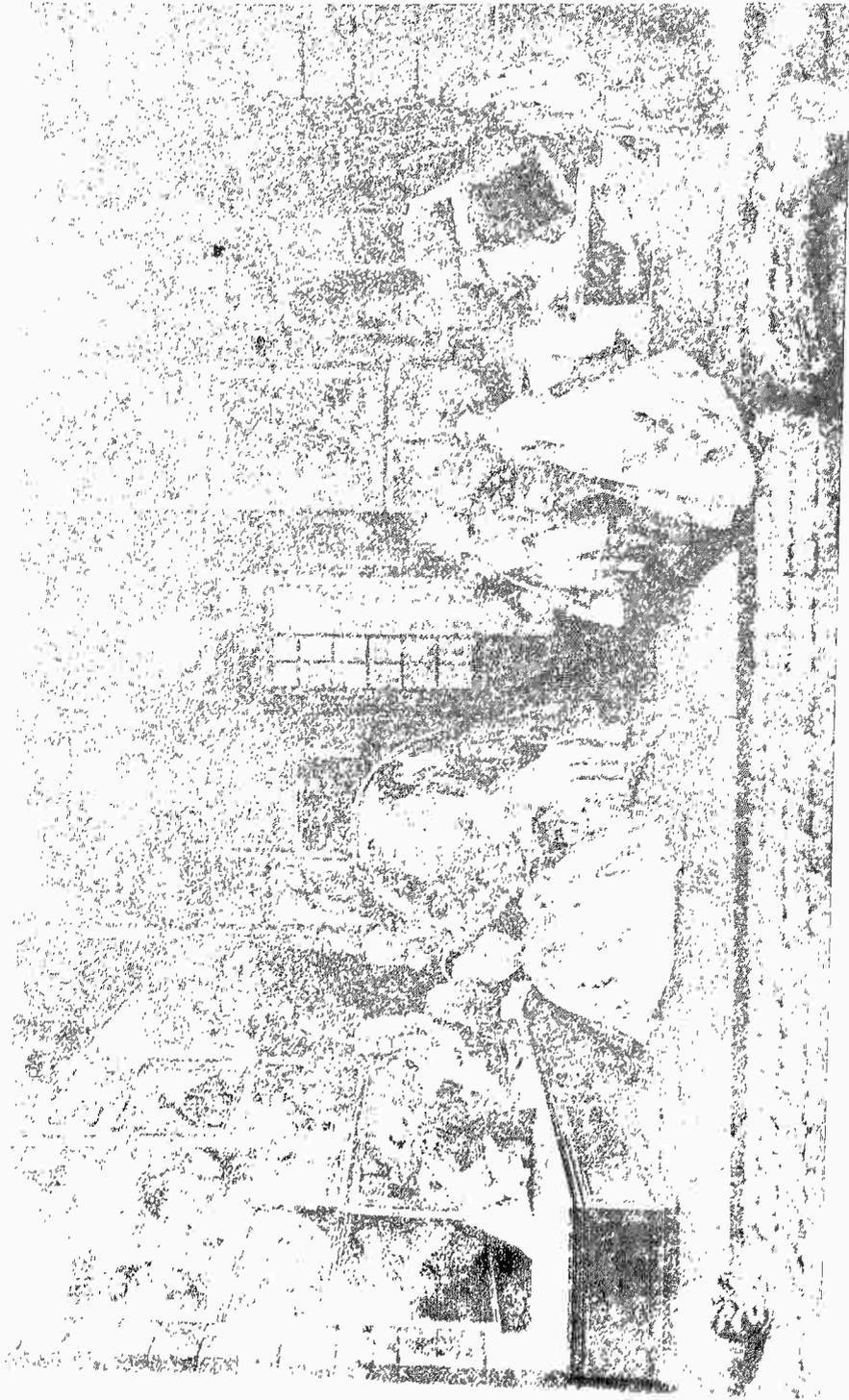




١١ - منظر دار "سويير" من جهة الشارع



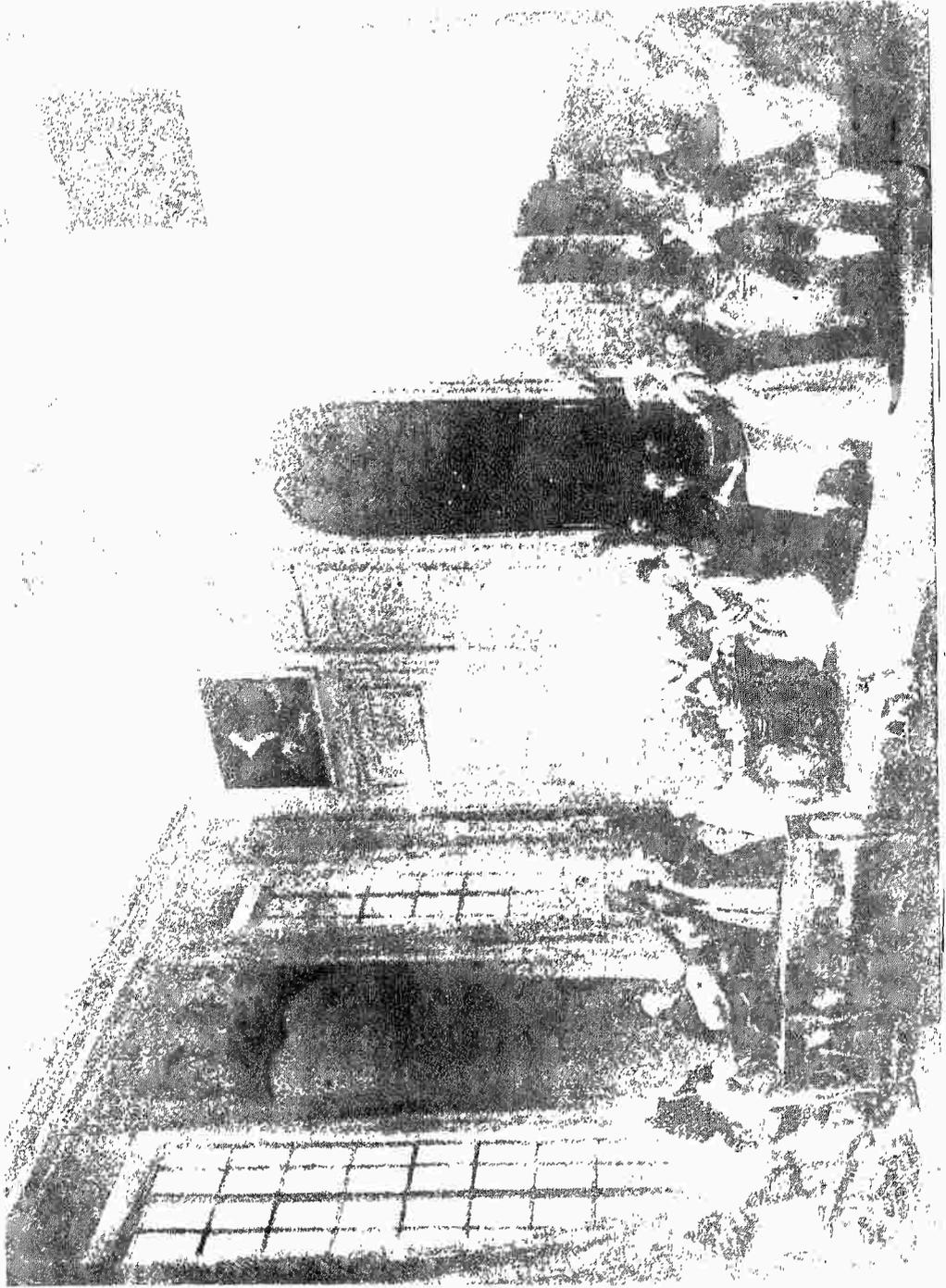
١٢- قناصة الاستقبال في الموقر عام ١٧٥٣



۱۳- وگنر جریسین



١٤ - قصر "سازسوي" في بوندام



١٥- الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون أميرة كويتي



١٦-رقصتنا روسية

عند الحيوانات او النباتات ، تنحدر من ارومة واحدة ؛ « لا بل ان كافة الحيوانات انحدرت من حيوان واحد ولد ، في تماقب الازمنة ، بتحسن او فساد نوعه ، كافة اجناس الحيوانات الاخرى ... » ، بتأثير الظروف الخارجية التي تسبب تبدلات تدريجية تنتقل الى الذراري .

بيد ان كل ما ذكرنا ما زال متشتتاً في المؤلفات ، ثانوياً ، عارضاً ، اي انه ما زال نظرة سريعة الزوال . الا ان الفكرة قد رأت النور . وكان مقدراً لـ «لامارك» ، مؤدب ابن بوفون ، ان يجعل منها نظرية كاملة في اوائل القرن التالي .

علوم الانسان

احرزت علوم الانسان تقدماً كبيراً وان بقيت ناقصة جداً . نرى فيها روح « علم الطبيعة » وسياقه . الروح : العليل الغائبة الغيت ، والعناية الالهية أقصيت ، ومبدأ الحتمية سلم به ؛ الانسان لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار بعد اليوم سوى العطل الباعلة الطبيعية : البيئة الطبيعية ، الحاجات البشرية ، العواطف ، الاهواء ، الأفكار ؛ الطرائق المعتمدة هي ملاحظة الوقائع ملاحظة مباشرة أو بواسطة الشهود ، والبرهنة الاختبارية . السياق : وصف الظواهر وصفاً دقيقاً ، بذل الجهد بغية التوصل في هذا المجموع الى معيات او ترادفات دائمة ، تميز التلاحم والارتقاء الى النواميس ، والنزوع الى رد النواميس الى أقل عدد ممكن من المبادئ العامة . ولكن صعوبة تطبيق الأداة الرياضية على أكثر الوقائع تعقداً وتحركاً وتشابكاً ، التي غالباً ما لا يدرك العالم منها سوى رسوم غير كافية ، أخرت اكتمال هذه العلوم ، فبقيت وقتاً أطول في المرحلة الوصفية ، مرحلة التاريخ .

علم طبائع الانسان
أسس بوفون علم طبائع الانسان والجغرافية البشرية . درس الانسان نوعاً بعد أن 'درس من قبله فرداً . في السنة ١٧٤٩ ، اثبت في كتابه « تاريخ الانسان الطبيعي » وحدة الجنس البشري . ان نوعين مختلفين يولدان فروعاً عقيمة ؛ والحال كل الفروع البشرية مخصبة . اذن الانسان يؤلف نوعاً يضم تنوعات هي الاجناس التي تختلف بفعل المناخ والغذاء وطريقة الحياة . « ليس الانسان الابيض في اوروبا والأسود في افريقيا والاصفر في آسيا والاحمر في اميركا سوى الانسان نفسه متخضبا بلون المناخ » . ولكن البشرية واحدة تتميز أبدأ تميزاً متزايداً عن الحيوانية بالذهن والمقل . الذهن هدف الانسان وهو في الوقت نفسه سعادته . وهكذا فقد انتهى العالم المعادي للدين الى استنتاج روحاني .

ان علم المجتمعات البشرية المتكونة في نطاق النوع ، الذي سيدعوه « اوغست العلم الواسع كونت » علم الاجتماع ، كان في طريق التكون . وان طريقة التاريخ النقدية ، التي سيستخدمها هذا العلم بالنظر الى ان الملاحظات المباشرة غير كافية ابدأ والى انه يجب اللجوء

الى الشهادات في الماضي البعيد او في الماضي القريب الذي ندعوه حاضراً ، كانت معروفة تمام المعرفة بفضل جهود قرنين ونيّف . فالفرنسي « لويس دي بوفور » يعطي عنها ، في كتابه « بحث في الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الاولى من التاريخ الروماني » (١٧٣٨) ، امثلة جميلة يمكن ان يستخلص منها بسهولة دراسة منسقة قانونية . بوفور في حالة الشك الكروتزياني ، الذي هو ثمرة محبة شديدة للحقيقة . فهو يتفحص تأكيدات المؤرخين الاقدمين . يجد منها ما ينطوي على تناقض . يريد استنباطها . يجب لذلك جمع المستندات الأكيدة لأن قيمة عمل المؤرخ ترتكز الى قيمة مصادره . ولكن يجب التيقن من ان المستندات صحيحة ومن انها لا تزال في حالتها الاولى ، فيجب من ثم الفحص عن كيفية واسطة انتقالها وتلبع سيرها حتى ايامنا هذه . بعد جمع المستندات يتوجب فهمها . يجب قراءتها دون « انشغال » ، والحرص على ان لا يطلب من النص ما يتوخاه المؤرخ ، وفهم التعابير بالمعنى الذي تتضمنه طبيعياً ، واستخلاص النتائج التي تتولد منها تلقائياً . يجب الانتباه كل الانتباه الى الكلمات ، واذا انطوت على اقل غموض ، يجب البحث عن المقاطع الأخرى التي استعملت فيها لتعيين معناها الصحيح في سياق الكلام .

نعرف الآن ما تقوله النصوص . فهل تقول الحقيقة يا ترى ؟ يجب هنا التمسك بمبدأ عدم التناقض الذي هو القسم الاساسي في البرهان . كل ما ينطوي على تناقض يجب رفضه : كل ما يناقض نواميس الطبيعة او الاحتمال العقلي باطل مهما كان من عدد وشهرة المؤلفين . اذا كان هنالك تناقض بين نصوص قد يقبل بها العقل ، يجب اذ ذاك التمييز . يجب ابدأ تفضيل تأكيد مستند صحيح على تأكيد المؤرخ ؛ وتأكيد مؤرخ من بين مؤرخين يتفق ووقائع تاريخ بلدان اخرى يرتبط بتاريخ البلاد المعنية ؛ وتأكيد من يكتب ضد مصالحه الخاصة بعد التعمق في درس الموضوع ؛ وتأكيد من لا يتوخى التجميل او التعيب ؛ يجب الوقوف موقف الحذر من الاكثار من التفاصيل التي تستأزم شاهد عيان مدقق : ان هذا الاكثار ينطوي على التناقض لأن الفرصة نادراً ما تسنح للملاحظة الدقيقة الواضحة . يجب البحث عن غاية المؤلف واصوله وخلقه وعاداته في العمل وظروف كتابته .

يجب اخيراً ، بواسطة الاستشهادات والاسنادات ، تمكين القارئ ، الذي يفرض عليه الشك والتفحص والتقرير بالإستناد الى مبدأ عدم التناقض ، اصدار حكمه على النتائج بذاته . ان هذه الطريقة احدى اجمل ثمار مذهب العقليين .

مارسها بوفور خير ممارسة . ولكنها كانت ملكاً مشتركاً . فقد مارسها كذلك كافة العلماء الواسعي الاطلاع ، كما مارسها المؤرخون ، اقله في احسن اوقاتهم . تسرعوا احياناً في الاعتقاد بوجود التناقض ، وبالغوا في الاركان الى معرفتهم الناقصة للنواميس الطبيعية ، وغالوا في احترام الاحتمال العقلي ؛ « ان ما هو حقيقي قد يكون احياناً غير محتمل عقلياً » ؛ وقد يبدو

لنا غير محتمل عقلياً ما هو غير مأروف . فانزلقوا من ثم ، على غرار فولتير ، الى النقد المفرط الذي هو مصدر اخطاء خطيرة . ولكنهم تجزوا على العموم عملاً كبيراً جداً .

واصل القرن الثامن عشر جهود القرن السابق في حقل العلم الواسع . اكتشفت كمية ضخمة من النصوص واستنسخت ونشرت . ووضعت جداول مسهبة بالمؤلفات . وجمعت المعلومات حول انتقال المستندات ، ومؤلفيها ، واورجه استخدامها ، والجغرافية وكيفية التاريخ في عهدها ، اي كل ما قد يفيد في التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح . انجز عمل جبار في كل مكان ، ولا سيما في فرنسا على يد البندكتيين و«اكاديمية الكتابات والآداب الجميلة» . ويؤلمنا هنا الانستطيع ذكر ذلك العدد الغفير من العمال المهرة المتفانين حتى التضحية ، ومن المؤلفات الكبرى والبالغة الاهمية . بات بالامكان تجديد التاريخ القديم واكتشاف القرون الوسطى واكتشاف حضارات آسيا ، سيدخل كل ذلك في اعجاز القرن اللاحق . فتح «بريمار» النحوي «وغوبيل» مترجم «شو-كنغ» ابواب تاريخ الصين القديمة . وفي السنة ١٧٦٢ جاء الفرنسي «انكتيل - دوبرون» الى باريس بـ ١٨٠ مخطوطاً زنديا وپهلويا وفارسيا وسلكريتياً . وفي السنة ١٧٧١ نشر ترجمة «زند - افسنا» . وفي السنة ١٧٩٣ استند «سيلفستر دي ساسي» الى قاموسه البهلوي وحل ألفاز كتابات الملوك الساسانيين . كما ان الانكليزي «جونز» ، رئيس جمعية لككوتا الآسيوية ، التي تأسست في ١٥ كانون الثاني من السنة ١٧٨٤ ، قد نشر في السنة ١٧٨٩ ترجمة للأساسة الهندية «شاكونتالا» ، وبأشر في السنة ١٧٩٤ نشر شرائع «مانو» . فبدأ الشرق يخرج من الاساطير . الا ان مصر وبلاد ما بين النهرين بقيتا مجهولتين .

علم الاجتماع
جمعت النصوص ونقدت وادركت واثبتت الوقائع ووضعت في إطارها الزماني والمكاني ، فاست الحاجة الى الأعمال الضرورية التالية : تصنيفها وفقاً لتشابهها ، وتحديد علاقتها وترباطها ، واستخلاص النواميس منها ، ورد هذه الأخيرة الى بعض المبادئ العامة الخاضعة لبدأ اصلي . ليس هذا النهج المنطقي المثالي ، في الواقع ، نهج القرن الثامن عشر ، اذ ان عمل العلماء الواسعي الاطلاع والمؤرخين السابقين قد اتاح ، منذ النصف الاول من القرن ، لبعض ذوي العقول النيرة ، محاولة العمليات الأخيرة .

فان الايطالي «فيكو» (١٦٦٨ - ١٧٤٤) قد نشر كتابه «مبادئ علم جديد» في السنة ١٧٢٥ . انه احد مؤسعي علم الاجتماع بعد «ماكيافي» و«جان بودين» . في رأيه ان الله يوجه التاريخ نحو انتصار كنيسته . ولكن اذا كان هناك الله ، العلة الاولى ، فان هناك العلل الثانوية ، الطبيعية . يكتفي فيكو بدرس نواميس التاريخ الطبيعية بمزمل عن كل تدخل عجائبي . يوجد نظام ازلي يسير الأمور ، وناموس مثالي يخضع له نمو كل أمة ، وهذا لعمري رأي افلاطوني ، ولكنه رأي نيوتوني ايضاً ؛ ان ظواهر مختلفة كثيرة تحدث وفقاً لناموس واحد . يكتشف العالم هذا الناموس بملاحظة الدلائل التي خلفتها البشرية ؛ لغات الامم القديمة ومؤلفاتها ،

الاساطير والحرافات ، القصائد القديمة ، الشرائع الاولى ، التي هي انمكاسات احوالنا
السيكولوجية السابقة و احوالنا الاجتماعية الاولى . فليس والحالة هذه من حاجة الى القراءة
لرؤية حركة الالهواء البشرية المشتركة ، ومتابعة رواية مؤثرة ، وقذوق تعابير متناسقة او لاذعة ،
بل الى التوقف عند الكلمات والتراكيب التي تدل على شكل خاص من اشكال التفكير
والشعور ، او عرف ، او تنظيم نوعي ، والاستمانة بذلك لاستعادة حالة البشرية الاولى . هذا
هو « العلم الجديد » . فيكون يثبت وحدة المجلس البشري . ان في البشر بصيرة عامة ، وقوة
تمييز دون تفكير تشمل المجلس البشري كله ، وامة بكاملها ، وطبقة بكليتها ، و « افكاراً
متائلة نشأت في آن واحد عند شعوب كاملة يجهل بعضها البعض الآخر » . وهكذا فاننا نجد
عند كل الأمم نظماً مشتركة وتطوراً متشابهاً . في امة معينة يخضع كل شيء لحالة الافكار : الدين ،
والطبقات الاجتماعية ، والحق ، والحكم ، ونوع الحياة ، تنجم عنها وتصل بينها علائق انتفاع .
اذا وجد احدها ، وجدت كلها . هكذا يصف فيكون ظروف وجود مجتمع في وقت معين ، او
التوازن الاجتماعي . ولكن الفكر البشري يتحول ، يتطور ويمر في سلسلة احوال تتجدد ابدأ ،
ويسبب تحولاً في المجتمعات التي تمر في سلسلة احوال مقابلة تتجدد ابدأ ايضاً . الافكار تسير
العالم . هكذا يثبت فيكون سنة تطور المجتمعات ، يدرس علم القوى الاجتماعية : حالة طبيعية
بربرية ، ثم حالة ثيوقراطية عائلية ، وحالة ارسنوقراطية في المدن تسيطر الخيلة عليها كلها
سيطرة تخف وطاقتها تدريجياً ، وحالة ملكية يتغلب فيها العقل ، ثم تعمر والتملال وعود على
بدء . ليس التطور غير محدد بل دورياً ، يؤلف كلا يتجدد مع كل امة . انه تكرر دائم .

كان فيكون مشوش التفكير غامض التعبير ، فلم يعرف الشهرة في زمانه ، ومع ذلك كان له
بعض التأثير . فان مونتسكيو قد قرأ مؤلفاته ، وعبر في ملاحظاته الشخصية عن مقدار الأثر
الذي تركته فيه نظريات فيكون ، وعن طريق مونتسكيو انتقل رأياً فيكون الرئيسيان ،
التوازن ، والتطور ، الى القرن كله . وكان مقدراً لفيكون ان يترك اثرأ اهم وأعمق في القرن
التاسع عشر ، ولا سيما في « فوستيل دي كولانج » . كانت آراؤه الموجبة الهامة صحيحة .
اخطأ هدفه بسبب افتقاره الى المواد الكافية . أما اليوم ، أي بعد قرنين من العمل التاريخي
المثمر ، فتجدد العودة الى معاهلته .

اصاب الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) في كتابته حول علم القوى الاجتماعية في
مؤلفه « اعتبارات حول اسباب عظمة الرومان والمخاططهم » (١٧٣٤) ، وحاول توضيح
التوازن الاجتماعي في كتابه « روح الشرائع » (١٧٤٨) . كان رجل شرع قريباً ، وتولى ردحاً
من الزمن رئاسة محكمة بوردو ، ثم ما لبث ان تكرر بكليته لعمله الذي انكب عليه طيلة
ثلاثين حوالاً . كان كرتزيانياً يكثر من الاستنتاجات ، ولكنه كان عالماً بالطبيعية والتاريخ
الطبيعي ايضاً ورحالة بصيراً ومطالماً لا يعرف الكلل ، فكانت طريقته الرئيسية الملاحظة
والاستدلال ؛ الوصف ، التحقق ، الارتقاء من الوقائع الى نواميسها ومن النواميس الى المبادئ ،

وهو نهج يحجبه بعض الشيء في مؤلفاته نسق العرض الذي يختلف طبعاً عن نسق الاكتشاف . وقد صرح بذلك بوضوح في مقدمة « روح الشرائع » . بدأ يلاحظ رغبة منه في المعرفة والملاحظة : « تفحصت البشر أولاً » ؛ تصورت امامه فكرة كتابه الاولى : « واعتقدت انهم ليسوا مسيرين في هذه الشرائع والاخلاق المختلفة الكثيرة ، بشهواتهم واهدافهم دون غيرها » . واصل حينذاك ابجائه ومحاولاته : « مراراً كثيرة شرعت في هذا المؤلف ومراراً كثيرة اعرضت عنه ... سرت في موضوعي دونما قصد ؛ كنت جاهلاً القواعد والاستثناءات ، ولا اكتشف الحقيقة إلا لاضاعتها » . واخيراً توضحت فكرته العامة ، واستطاع صياغة نظرياته : « ولكن حين اكتشفت مبادئي ، جاء إلي كل ما كنت ابحث عنه ... وضعت المبادئ » ، ومنذ ذلك الحين اخذ يستثبت نظرياته ويحولها نواميس : « ورأيت الحالات الخاصة تخضع لها كما من ذاتها وتواريخ الامم كلها كما لو كانت ذيوها لها ، وكل ناموس خاص ، مرتبط بناموس آخر ، يرتبط بناموس اوسع شمولاً » .

الطبيعة كلها تدار بنواميس طبيعية ، على غرار « آلة » مدهشة : ان النواميس ، في اوسع مفاهيمها ، هي العلائق اللازمة التي تنجم عن طبيعة الاشياء ، ولكل الكائنات نواميسها في هذا المعنى . . ولكن المجتمعات البشرية هي ايضاً كائنات طبيعية وتخضع لنواميس طبيعية . يجب ان تكون الشرائع التي يسنها البشر ، أي الشرائع الموضوعية ، مرتبطة ارتباطاً انتفاعاً بالنواميس الطبيعية وفيها بينها . الانسان حر ، وقد يحدث ان تخالف شريعته « العلائق اللازمة » : فلا ينجم عن ذلك سوى السوء . يتوجب من ثم على الانسان ان يعرف هذه العلائق كي يحترمها ويستخدمها . ويفرض ان تكون « الشرائع البشرية من الموافقة للشعب الذي سنت من اجله بحيث يصبح اتفاقاً نادراً ان تكون شرائع امة مناسبة لامة اخرى . يجب ان تطابق طبيعة الحكم القائم أو المراد اقامته ... يجب ان تكون مختصة بطبيعة البلاد ، بالمناخ البارد أو الحار أو المعتدل ، وبنوع البقعة وموقعها واتساعها ونوع حياة السكان الفلاحين أو القناصين أو الرعاة ، وبدرجة الحرية التي يمكن ان يقبل بها الدستور ، وبدن السكان وميولهم وثرواتهم وعددهم وتجارتهم واخلاقهم وطرائقهم . ولها اخيراً ارتباطات فيما بينها ؛ لها ارتباطات بمصدرها ، بالنظام العام الذي استند اليه في وضعها ، بمقصد المشرع . يجب مراعاة كل هذه الاعتبارات عند النظر اليها » . بحسب هذه الاسئلة ، حدد هذه العلائق اللازمة في كل مؤلفه ، وهو تعاقبها ما يؤلف مخطوطه الذي تحجبه بعض الشيء تجزئة مفرطة معدة لتسهيل القراءة تضيع سياق الافكار .

حتمية ونسبية ، هذان هما المبدأان الاساسيان . المعطية الممينة تستلزم شريعة معينة وتستبعد شريعة اخرى معينة . هذه الحتمية تؤمن حرية الانسان الذي قد يكون اعزل من السلاح في عالم قد يؤدي كل عمل فيه الى نتائج متقلبة جداً ، فيستحيل التبصر والتنظيم والعمل ، وقد يكون فيه الانسان مستعبداً لقوى عمياء . كما هو يستخدم نواميس العالم الطبيعي ، كذلك يستطيع

استخدام شرائح العالم الاجتماعي ، خصوصاً في سبيل التوصل الى هذا الخير الاسمي ، المناسب لطبيعته البشرية ، الحرية . ويتحول مونتسكيو في كل برهة الى مهندس اجتماعي ، فيظهر السلوك الواجب للتوصل في كل حالة الى اقصى حد ممكن من الحرية والانسانية . فالسلطات الثلاث مثلاً هي في الدولة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . في اوروبا الغربية يجب ان يفصل بينها وتسند الى ائام مختلفين حتى تحم من كل منها السلطان الاخرين وتراقبها ، وبغية الحيولة دون الاستبداد الذي قد يفضي إليه تركزها إما في ملك وإما في عدد من النبلاء وإما في أيدي الشعب .

أفرغ الكتاب في لغة متينة ، عادمة السهولة ، مؤثرة ، صافية وكثيفة كالبلور حيناً ، أو زاهرة وقاطعة كحد الفولاذ حيناً آخر ، فعرف نجاحاً عظيماً جداً ، وترجم الى كل اللغات ، وأهم الملوك والسياسيين ورجال الشرع والمؤرخين في كافة البلدان ، وأوحى بال دستور الأمريكي في السنة ١٧٨٧ ، وبال دستورين الفرنسيين في السنة ١٧٩١ وفي السنة الثالثة ، وبال دستور البروسي في السنة ١٧٩٢ ، وبمعظم دساتير القرن التاسع عشر . وان « كارل ماركس » نفسه مدين لمونتسكيو ايضاً . ولكن مقاصد مونتسكيو لم تكن سهلة الادراك ، فلم يفهمه الناس كثيراً : وراح أكثرهم يبحثون عنده عن مقتطفات انطوت ، بفصلها عن النص ، معنى وقع من أنفسهم موقع الرضى .

لم يخلف أحد مونتسكيو مباشرة . الا أن روح كتابه وكثرة المسائل الاقتصادية السياسي التي طرحتها تأكيداته على بساط البحث قد أوحى بعدد كبير من الأعمال الجزئية . أما الذين اقتربوا منه في الواقع أكثر من سوامم ، بإعارة النواميس الطبيعية اهتمامهم دون تبني مبدأ النسبية الذي قال به ، فهم الاقتصاديون الذين اعتبروا الزراعة مصدر الثروة الوحيد .

كان « كيناي » (١٦٩٤ - ١٧٧٤) طبيب لويس الرابع عشر ، وعالماً احياناً ، وملاكاً كبيراً . فاستفاد من ملاحظات كثيرة وعبر عن آرائه في فصلي « المزارعون » و « الحبوب » من « دائرة المعارف » (١٧٥٦ - ١٧٥٧) ، في « الجدول الاقتصادي » (١٧٥٨) ، وفي « الحق الطبيعي » (١٧٦٥) . ثم جاء تلاميذه فرسموا شكل « العلم الجديد » الذي بلغ منذ نشأته « أقصى درجات الوضوح » ، وأطلق عليه « ديبون دي نور » ، اسم « فيزيوقراطيا » أو حكم الطبيعة .

تؤلف الظواهر الطبيعية وقائع تخضع لبعض النواميس النابعة من طبيعة الاشياء ، وتشكل هذه النواميس مجموع آفيسة ، أو علما . انها من وضع الله تعالى ؛ وهي جزء من نواميس الطبيعة بل هي أفضلها اطلاقاً .

ليس المال شيئاً يذكر ، انه مجرد واسطة عقيمة . الثروة الحقيقية نتاج قابل الاستهلاك دون

أن تؤدي الى انقاص المادة التي ساعدت على ايجاده . الزراعة وحدها تعطى مثل هذا النتاج ، « النتاج الصافي » . الصناعة لا تعطى نتاجاً صافياً ؛ انها تحول شكل المواد الراهنة ، وتحديث بعملها هذا أشكالاً مفيدة ، ولكنها تنقض المادة دون الاعاضة منها . وينحصر عمل التجارة في نقل ومقايضة هذه المنوعات . الفلاح وحده يخلق مادة جديدة ويكوئها ثانية ويضاعفها . لذلك فان الطبقة الأساسية هي طبقة الملاكين العقاريين التي استصلحت الارض ، وتليها طبقة الفلاحين ، ثم جميع الآخرين ، « الطبقة المقيمة » . يجب ان يخضع كل شيء للنتاج الزراعي . ويجب من ثم الاكثار من الملكية الفردية بإلغاء المشاعات وتحرير الزراعة من حقوق الارتفاق الجماعية والحقوق القطاعية ، وتشجيع الاملاك الكبرى القادرة وحدها على توفير التسليف والزراعة العلمية ، وتأمين البيع الوفير بسياسة الأجور المرتفعة ، والفلاء او « السعر الجيد » بحرية التجارة ، وزيادة الثروة قبل السكان .

الملك حق تاجم عن مشيئة الله ، وهو من ثم حق طبيعي . وكذلك الحرية التي تسمح وحدها بممارسة حق التملك ، والامن ، وعدم المساواة ، والاستبداد ، لان دور الحكم محصور في أن يعبر بلغة بشرية ، في الشرائع الموضوعية ، عن النواميس الطبيعية التي لا تقبل جدلاً . المستبد يبي الضرائب الضرورية من الملاكين دون غيرهم ، لانهم دون غيرهم يحصلون على نتاج صاف ، فصاله ومصالحهم واحدة ، ويجب ان يكون حقه في السلطة وراثياً على غرار حقه في التملك ، وان لا يؤدي حساباً الا لهم أو لمندوبيهم ولضميروه وفاقاً للنواميس الطبيعية .

جاء النجاح عظيماً . وقد صرح ميرابو ان « الجدول الاقتصادي » يشكل ، بعد ابتكار الكتابة والنقد ، ثالث الابتكارات الرئيسية التي حققها العقل البشري . فبات مذهب حكم الطبيعة ديناً في فرنسا . وتأثرت به جمعية السنة ١٧٨٩ التأسيسية تأثراً عميقاً . وبلغ من اعجاب كارل ماركس ب « كيناي » ان رأى فيه مؤسس الاقتصاد المعاصر .

بين تلاميذ كيناي المستقلين عن فكرة المعلم ، « تورغو » ، الذي سيصبح وزيراً في عهد لويس الرابع عشر ، والذي شدّد الكلام على أن العامل لا يتقاضى في النتيجة سوى اللازم في اللازم لتأمين مميشته ، وهذه هي « شريعة الأجور النحاسية » التي تسمح بتخفيض أسعار الكلفة وتحرم العامل من أمله في الخروج من طبقته وتخلق طبقة من الأثرياء . فرأى تورغو مع وكيل التجارة وجوب اطلاق الحرية للفرد لأنه يدرك مصالحه أكثر من كل شخص آخر : « اتركه يعمل ، واطركه يمر » .

بيد أن المؤسس الحقيقي لمذهب الاحرار في القرن التاسع عشر كان تلميذ كيناي الاسكتلندي « آدم سميث » (١٧٢٣ - ١٧٩٠) . في كتابه « محاولة في ثروة الامم » (١٧٧٦) ، يصف نظاماً طبيعياً يتحقق حيثما تترك الطبيعة وشأنها ، هو في نظره خير نظام . يميل الانسان طبعاً الى تحسين حاله ، وهو خير من يتبين مصلحته الشخصية : فيجب من ثم ان تطلق له

الحرية. يجب ان لا تتدخل الدولة الا عندما يميز الافراد عن ايجاد المؤسسات المفيدة للمجتمع . ان هذا العالم جمهورية كبرى مواطنوها منتجون ومستهلكون يرتبط بعضهم ببعض الآخر ، ويجب ان يفتح السلام من الشعور بهذا الارتباط المتبادل .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تحليله للقيمة يجعل منه سلف الاشتراكيين والشيوعيين . العمل هو المقياس الحقيقي للقيمة البضائع وهو ما يحدد سعرها . في البدء عداد كل هذا السعر للعامل . ولكن حين جمع أحد الافراد رأس مال ، أي أرضاً أو مادة خاماً أو أداة ، واستثمره بواسطة العامل ، احتفظ الرأسمالي بجزء من السمر وأعطى العامل ما تبقى أي الأجر . كل منها يريد أكبر نصيب ممكن من السمر . فتحديد الأجر هو من ثم نتيجة أخذ ورد بين الرأسمالي والعامل يتحولان الى « صراع بين الطبقات » المتنافسة . « أبواب الاعمال يؤلفون ، في كل مكان وزمان ، ما هو أشبه بتكتل ضمني دائم متائل للسهولة دون ارتفاع الأجور » . وقد تعبس سميت حيال أولئك الذين لا يلتجون : « الملك ... وكافة وزراء العدل وكافة العسكريين عمال غير منتجين ... وبالإمكان إلحاق الكهنة والمحامين والأطباء والادباء ... بالطبقة نفسها » . وتعبس كذلك حيال التجار الذين تناقض مصالحهم المصلحة الاجتماعية . فكانت كل هذه التحاليل مصدر وحي لكارل ماركس .

التاريخ تفرغ مؤلفون آخرون الى الأعمال التاريخية الوسيطة التمهيدية ، بالنسبة الى بلاد أو عهد معين ، أو بالنسبة الى البشرية جماعاً : ترتيب الاحداث وتسلسلها ، وهذا ما يعتبر في أغلب الأحيان تاريخاً بخصر المعنى .

ظهرت سلسلة من كتب التاريخ الخاصة : « قرن لويس الرابع عشر » لفولتير (١٧٥١) ، « تاريخ بريطانيا العظمى » لدافيد هيوم (١٧٥٤) ، « تاريخ اسكتلندا » ل روبرتسون (١٧٥٩) ، « تاريخ اوسنابروك » لجوستوس موزر (١٧٦٨) . لقد تبدلت روح هذا التاريخ منذ مونتسكيو . اعتبر بوفور والمؤرخون السابقون أن لا طائل تحت المعلومات المتعلقة بالحكومات والمعادات ؛ يجب الاكتفاء « بترتيب الاحداث وتحديد تواريخها » وهذا هو جوهر التاريخ . أما في نظر المؤرخين الجدد ، فالجوهر هو تاريخ الحضارة . وكان الفرنسي فولتير أول من قال بذلك :

« يجب أن لا يتوقع القارئ الوقوف هنا على أدق تفاصيل الحروب والهجمات على المدن المحتلة والمستردة بقوة السلاح أو المساوخة والمستعادة بالمعاهدات . فلن نتوقف في هذا التاريخ إلا عند ما يستوقف انتباه كل الازمنة وما يمكن أن يرسم صورة لعبقرية البشر واخلاقهم ، وما يمكن أن يلقي درساً ويجعل على محبة الفضيلة والفنون والوطن » .

الاخلاق ، المعادات ، الاعراف ، المعتقدات ، الحرافات ، المعادات المستهجنة ، الاكتشافات ،

هذا هو الجوهر^(١). الانسان هو موضوع هذا التاريخ ، وان وجهة النظر هذه تفضي الى إلقاء نظرة شاملة على تاريخ البشرية . وهذا ما فعله فولتير في كتابه « محاولة في اخلاق الأمم وروحيتها » ، (١٧٥٦) . وكعادته ناقض نفسه مراراً ، وانتهى بصورة خاصة ، هنا كما في كتبه الأخرى ، الى « خواء من الافكار الواضحة » ، ربما لأنه كان يتحاشى التأثر بظهور واحد من مظاهر الاشياء بفضل ذكائه المتفوق . التاريخ محال ، يخضع لاتفاق ، لكوب ماء على فستان ، لأنف غاية في القصر ، ولكنه يخضع كذلك لامراء عظام يصنعونه وفاقاً لمخططات مدروسة ، هم عنايات صغرى حلت محل العناية الكبرى . يشمل التاريخ ، في جملة ما يشمل ، اربعة قرون عظمى : قرن بريكليس ، قرن اوغسطوس ، قرن آل مديسيس ، قرنلوليس الرابع عشر . وانما يجب ألا يدرس الفتيان الا التاريخ المعاصر ، المفيد وحده . التاريخ يخضع للأهواء البشرية التي هي لا تتبدل ، وكل عهد يشكل كلا يكاد يكون مستقلاً عن الماضي وغير ذي أثر في المستقبل ، ومع ذلك تتقدم البشرية كما لو كان تقدمها خاضعاً لسنة معينة . ومهما يكن من الأمر ، فقد استهوت مؤلفاته القراء ، فأوحى بفكرة التاريخ الحقيقي وتذوقه ، والقى ضوءاً على احداث كثيرة ، وأثار العديد من المسائل ، وجعل كل المؤرخين مدينين له .

انتهى هؤلاء تدريجياً الى التخلي عن مجرد الاحداث الماثلة المتعاقبة في الزمان ، وتوصلوا ، بفضل تقدم دراساتهم وتأثير العلوم الطبيعية ، الى مفهوم التحولات ، أي مفهوم التطور . فقد أظهر « ونكلن » ، بكتابه « تاريخ الفن في العصور القديمة » (١٧٦٤) ، ان الفن يخضع لتطور الخلقوات العام ، يولد وينفتح ويشيخ ويموت . انه ظاهرة حية . وتصور آخرون تقدماً محرزه البشرية انطلاقاً من الهمجية نحو كمال العقل . فبعد تورغو و « دائرة المعارف » اللذين طلعا بالفكرة^(٢) ، ألفت الالمانى « لسنغ » كتابه « تربية الجنس البشري » (١٧٨٠) ، كما ألف مواطنه « هردر » كتابه « آراء في فلسفة تاريخ البشرية » (١٧٨٤ - ١٧٩١) . ولكنها استنجداً باله مبهم أو بحياة الكون السرية . فجاء ما كتباه بحثاً فلسفياً في المعقولات اكثر منه علماً بمصر المعنى . أما الفرنسي كوندورسيه فكان أبعد موضوعية منها في كتابه « تخطيط لوحة تاريخية لنجاحات العقل البشري » (١٧٩٤) ، فكل عمل بوفون في « تاريخ الطبيعة » وصاغ سنة التقدم : « ان قابلية الانسان للتكامل تتجاوز في الواقع كل حد » ، وليس لها « من أجل سوى ديمومة الكرة التي الفت بنا الطبيعة فيها » ؛ « ولن تسير ابدأ الى الوراء » ما دامت ظروف الكرة الطبيعية هي هي دون تبدل . التطور متواصل : « ان نتيجة كل هنية حاضرة تتوقف على نتيجة الهنيات السابقة ، وتؤثر في نتيجة الهنيات اللاحقة » . التطور يصدر عن

(١) بولنغبروك ، (١٧٥٢) : « التاريخ والفلسفة يعلماننا بالامثال كيف يجب ان نسلك في كافة ظروف الحياة العامة والخاصة » .

(٢) اوضح تورغو في « خطبة في نجاحات العقل البشري » سنة الحالات الثلاث الشهيرة ، الحالة اللاهوتية ، والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الموضوعية ، لارغست كونت .

اسباب واضحة ومتميزة : يكون الانسان باستمرار افكاراً جديدة ، بالجمع بين ما توفره له منها حواسه ، وباتصاله بسواه من البشر ، وبوسائل صناعية ، كالكلام والكتابة والجبر ، ببتكرها ابداً ودائماً . ترتسم اللوحة بملاحظة مترادفة تتناول المجتمعات البشرية في مختلف العهود التي مرت بها ، « وستضي بالانسان » الى تأمين واستعمال النجاحات الجديدة التي تسمح له طبيعته بارتجائها . عشرة « عهود » تعاقبت : ١ . تجمع البشر عشائر وقبائل ؛ ٢ . الشعوب الرعاة ، والانتقال من هذه الحال الى الشعوب الفلاحين ؛ ٣ . تقدم الشعوب الفلاحين حتى اكتشاف الكتابة الايجدية ؛ ٤ . تقدم العقل البشري في اليونان حتى زمن تقسيم العلوم حوالي قرن الاسكندر ؛ ٥ . تقدم العلوم منذ تقسيمها حتى انحطاطها الناجم عن المسيحية ؛ ٦ . انحطاط الانوار حتى تجديدها حوالي عهد الحملات الصليبية ؛ ٧ . منذ نجاحات العلوم الاولى ، حين تجدها في الغرب ، حتى اكتشاف الطباعة ؛ ٨ . منذ اكتشاف الطباعة حتى اليوم الذي غردت فيه العلوم والفلسفة على السلطة ؛ ٩ . منذ ديكارت حتى قيام الجمهورية الفرنسية ؛ ١٠ . النجاحات المقبلة للعقل البشري . على ضوء هذا التاريخ ، سنعرف كيف نتجنب « آراء سبق الوم » قبلها اجدادنا ونضمن انتصار العقل والحقيقة والبشرية ؛ « صيحة الحرب : عقل ، تساهل ، بشرية » . وقد افاد اوغست كونت في القرن التاسع عشر افادة كبرى ، في مؤلفه حول علم الاجتماع ، من آراء كوندورسيه الذي بدا له ناهجاً نهجاً علمياً مدققاً .

أما في الواقع فان كوندورسيه لم يواصل بذلك عمله العلمي بل بشر بالجميل . كان فولتير قد حاول وصف الماضي وتفسيره ، دون نظرية يجب إثباتها ، ودون فلسفة التاريخ . وأراد كوندورسيه ان يظهر البشرية سائرة ابداً نحو مزيد من العقل ، شرط تجنب المسيحية ، وعبر عن مفهوم تفاؤلي للتطور كان فعل ايمان عظيماً عند انسان يؤلف كتابه منفيًا ومطاردًا . وكان يرى تاريخ البشرية معداً لان ينتج ما يحبه حبا تفضيليا . فكان ذلك انتقاما من العاطفة . ان كوندورسيه ، في ما يمينه ، قد شق الطريق امام مخيلة واختلاجات قلب المؤرخين الرومنطيقيين من امثال اوغستين تيرتي ، والشعراء من امثال فيكتور هوغو في « اسطورة الاجيال » . فكانت فكرة التاريخ العلمي آخذة بالتذلل .

القرن الثامن عشر هو عدو المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي نادى بها القرن «علم العقول» السابق . تمثل بلوك ودعى « علم العقول » دراسة الادراك البشري . والمقصود هو تحليل العقل للتفكير في كل شيء بسداد وجلاء كبيرين ، ولمعرفة النهج الذي يجب أن يسلكه العقل البشري والمدى الذي يمكنه بلوغه . كان هذا الدرس مبنيًا على الملاحظة والاستدلال منذ ان أثبت ديكارت أن فعلاً واحداً يجوز نسبه نسبة معقولة الى النفس ، هو فعل التفكير : الشعور ، الارادة ، الادراك ، التصور . أقصى بذلك عن النفس الوظائف الانمائية والمغذية والمطاوعة والدوائية التي قال بها الفلاسفة المدرسيون . لم يعد من حاجة لمعرفة النفس الا الى ملاحظة حالات الفكر . ملاحظة ، استدلال ، انتقال من الاحداث الخاصة الى نواميسها ،

ومن النواميس الى مبادئها، ان هذا الدرس هو علم طبيعي، مستوحى هو ايضا من علم الطبيعيات الذي وضعه نيوتون. هذا العلم يتيح اصدار حكم في ما يُدرك عادة بعلم المقولات: الافكار حول الله والكون وخلود النفس والحرية والمصير البشري .

كانت السيطرة في القرن الثامن عشر لتعاليم لوك . كل افكارنا تصدر عن الحواس ، ومن ثم عن الاختبار الذي يعطينا الافكار البسيطة : البرد ، الحرارة ، المرارة ، الاتساع ، الشكل ، الحركة . ان افكار الاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والمعددي هي ، بين هذه الافكار البسيطة ، « الصفات الأولية » وتمثل الاشياء كما هي ؛ انها تمثيلية ، انها صور الاشياء . أما الافكار الاخرى ، الالوان ، والاصوات ، والمذاقات ، فهي « صفات ثانوية » تنتج عن الانطباع الذي تحدثه في حواسنا حركات غير محسوسة تصدر عن الاجسام . النظرية حاسية وآلية . انها تثبت قيمة « علم الطبيعة » اذ اننا نعرف عناصره ، وتثبت « الصفات الأولية » كما هي في الواقع . لقد تردد لوك حول هذه النقطة الاخيرة : أما تلاميذه فلم يترددوا .

والحال ، هاجم الاسقف الانغليكاني « بركلي » (١٦٨٥ - ١٧٥٣) مرتكزات مذهب الآلية هذه . نشرت مؤلفاته الهامة قبل السنة ١٧١٥ ، ولكنه ، حتى موته ، أعاد طبعها تذكراً متبعاً لإياها بملحق متممة . فكرر في ترددات لوك بصدد القيمة التمثيلية لـ « الصفات الأولية » وبصدد مسألة طرحها « مولينو » على لوك : هل بإمكان انسان ولد ضريباً ثم أبصر النور بعد عملية جراحية ان يميز فوراً ، بواسطة حاسة النظر ، بين كرة ومكعب كان يميز بينها بواسطة حاسة اللمس ؟ اجاب لوك في حينه سلباً . سيضطرب الأعمى في هذه الحال الى القيام بالاختبارات والمقارنة حتى يتعلم ان هذا التأثير البصري العين يقابله ذاك الحجم العين وتلك المسافة العينية اللذان عينتها له حاسة اللمس . اثبت بركلي ان ذلك يصح فينا جميعاً : نحن لا نرى المسافات ولا نرى الأحجام ، بل نركبها تركيباً ؛ نتعلم بالاختبار ان هذا التغير في امتزاج الالوان والضوء وهذا الحس بمطابقة العين يقابلان تلك المسافة وذاك الحجم . ثم نستخدم هذا الاختبار بحكم صامت لاشعوري . ان هنالك عملاً خاصاً بالمقل وحركة لاراعية . في السنة ١٧٢٨ ، نشر الطبيب « شيزلدن » ملاحظة فتى أجرى له عملية السادة (الماء الأزرق) : قال هذا الفتى ان الأشياء « تلامس » عيني ، وان شيئاً يحجم الإبهام وضع على مقربة من عيني قد بدا له وكأنه يحجم الغرفة كلها . ودرست بعد ذلك حالات مماثلة . فكان بركلي من ثم مصيباً : ان ادراك الأحجام والمسافات بواسطة النظر نتيجة الاختبار . الاحجام والمسافات « صفات ثانوية » بالنسبة لحاسة النظر . واعتقد بأن حاسة اللمس وحدها تدركها مباشرة كـ « صفات أولية » .

استخلص بركلي من تحقيقات نهائية نتائج تتسم بمنطق جريء: انما الأشكال البصرية دلائل ، أو لفة . ولكنها ليست دليل وقائع خارجية ، بل دليل صفات مختصة بحاسة اللمس ، تصورات اللون هي دلائل تصورات الشكل والحجم والصلابة التي تعطيها حاسة اللمس . والحال ليست

هذه التصورات مختصة بالجسم اذ ان الحجم يتغير بحسب المسافة وتركيب الأعين، واذا ان الصلابة والرخاوة مرتبطتان بالقوة التي نبديها . التصورات وحدها موضوع معرفة مباشرة . الطبيعة هي التصورات المستقلة عن الارادة التي تتكون تكوناً متعاقباً محدداً ؛ والأجسام هي تركيبات منمنمة للتصورات . العقل هو الواقع الوحيد .

ولكن العقل حر : نحن نعرف أنفسنا بوصفنا عوامل احواراً . التصورات المتعاقبة المستقلة عن الارادة تصدر عن عقل متفوق . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان الأشكال البصرية هي دلائل ، أو لغة ؛ والحال ، كل لغة هي عمل العقل . الأشكال البصرية هي لغة شاملة ، اذن هي عمل عقل شامل ، الله .

باستطاعتنا التأكيد من ثم ان وجود العقول والله ، واللغة الشاملة التي يكلمنا الله بواسطتها ، والامكانية العقلية لوشي آخر بشكل كلام ، امور ثابتة جداً . اما علم الطبيعة الآلي فوهم وخداع ، وحساب الكمية الصغرى محال ، لأن التسليم بقابلية التجزئة الى ما لا نهاية له تسليم بأن الاتساع موجود دون أن يقع تحت الحواس ، في حال أن لا وجود الا للتصور الذهني . علم الطبيعيات هو معرفة بعض التصورات المتعاقبة تماقياً منتظماً .

ناقض بركلي بذلك كل روح القرن . فأراد الفرنسي « كونديللاك » (١٧١٥ - ١٧٨٠) ، وهو من أسرة برلمانين تلقى علومه في الكلية سان - سوليس ، انقاذ مذهب الآلية . كان كرتزانيا مقتنماً ، فلم يستطع القبول بنظرية بركلي الذي افترض احكاماً لا شعورية ، هي مفهوم غامض غير متميز . « يكفي ان يعرف الذين يريدون فتح أعينهم بأنهم يشاهدون نوراً ولوناً واتساعاً وأحجاماً ، الخ . انا لا أرتقي الى ما فوق ذلك لأنني هنا ابدأ بتحقيق معرفة واضحة بديهية » . الحواس تنقل الينا تصورات بسيطة نعين لها دليلاً ؛ نقارن ونجمع وتبدل هذه الدلائل ، التي هي اللغة ، ونستخلص منها تصورات مركبة . كل تصوراتنا ، حتى الخيلة والذاكرة والحكم والبرهان منها ، ليست سوى « التأثر الحسي المتحول » ، وكل القوى تنشأ عن تأثيرات حسية ، لا بل قد تنشأ عن أدها أي تأثير حاسة الشم . ثم حاول ان يعرف كيف ان الكائن البشري ، الممتلك كافة قواه ، سيرف العالم الخارجي ، فوصل الى مسألة بركلي : ميز بين الادراك البصري الاولي ، الفامض ، حيث ليس للأشياء حدود واضحة ، وبين الادراك البصري الحالي للأشياء المتميزة الموجودة في مكان معين . تُرد النتيجة الى تحليل يجري باللس . حاسة اللمس تعرف الاشكال ، وحاسة البصر تدرجها ، ولكن دون أي شيء يضاف الى التأثر الحسي الاولي ، دون إيجاء من تأثيرات حاسة اللمس التي استمعت بها . منذ البدء ، يرى الكائن البشري الأشياء ، ولكنه لا يميزها لأنه لم يلمسها . الا ان الأشياء موجودة كما يراها بعد التحليل . يعرفها كضارجية بفضل حركة جسمه التي توقفها مقاومة الأجسام الجامدة . اذا كان الجسم الجامد ضارجاً عن جسمه ، لا يكون هناك سوى تلامس ؛ واذا لامس جسمه بالذات ، يكون هناك

تلامس في الجزء الملامس والجزء الملامس معاً . هكذا يعرف الانسان جسماً من الاجسام ويفرق بينه وبين الاجسام الأخرى . يستثبت واقع العالم الخارجي والاتساع والحركة والقيمة التمثيلية لتصوراته الذهنية الناشئة عن التأثيرات الحسية ؛ بذلك كان « علم الطبيعة » الآلي مضموناً .

اتضح بالفعل نفسه طريقة العلم . بما اننا نستخلص تصوراتنا المركبة من مقارنة علامات اللغة ، يجب ان يكون هناك توافق تام بين التصورات والعلامات ، وان لا نستعمل أية كلمة لا يكون مدلولها موضعاً ولا يختص بواقع واضح متميز . العلم « لغة مهذبة » . يجب من جهة ثانية أن لا نستنتج بل أن نحمل : الحواس تعطينا كلاً ندرکه ادراكاً آتياً غامضاً ؛ ندرک اجزائه تدريجياً وانفراداً ؛ وتوصل إلى إدراك الكل نفسه إدراكاً آتياً ومتميزاً . إن في إدراكنا تجزئة وإعادة تركيب ، تحليلاً وتالياً . ليست أرفع الطرائق العلمية سوى أشكال لطريقة العقل البشري البسيطة والشاملة . فباستطاعة كل عقل من ثم الانتقال من التأليف إلى التحليل . العلم في متناول الجميع . يجب أن تؤلف المعارف المحصلة طرائق غير استدلالية : « تركيب الاجزاء المختلفة للفن أو لعلم وفقاً لترتيب تتعاضد فيه كلها وتفسر الاخيرة منها بالاولى التي هي المبادئ » . يجب ان تكون هذه المبادئ ظواهر معروفة جيداً كالجاذبية الشاملة . إن علم الطبيعة الذي وضعه نيوتون خير مثال للعلم والطريقة .

كان لكونديلاك ، بمؤلفاته الكثيرة^(١) ، أكبر أثر في علماء زمانه ، وفي جماعة الباحثين في التصورات والافكار ، وفي عدد من المؤلفين من أمثال « ستندال » .

ان ما حاول كونديلاك تأمينه ، أي قيمة معرفتنا العلمية وبراهين وجود الله ، الساعاتي « الاسمي » في علم الآليات الشامل ، قد قوضه الاسكتلندي هيوم بحجة زاد منها انه أركن في حياته العملية إركاناً تاماً الى الاعتقادات الطبيعية والبدئية . ام مؤلفاته هي « بحث في الطبيعة البشرية » محاولة في ادخال طريقة البرهنة الاختبارية الى العلوم الادبية ، (١٧٤٠) و« المحاولات الفلسفية حول الإدراك البشري » (١٧٤٨) . « أراد على غرار كونديلاك استخدام طرائق نيوتون: الانطلاق من تقديرات واعتقادات الانسان بغية البحث بالتحليل والاستدلال عن مبادئها ، التي يجب ان تعين في كل علم حدود كل رغبة بشرية حارة في المعرفة » .

قال هيوم ايضاً بمذهب الحاسيين . ان انطباعات الحواس هي الاصول التي تشكل الافكار نسخها . الفكرة الصحيحة هي تلك التي تقابل أو يمكن ان تقابل انطباعاً . ولكن هذا التحليلي الذي لم يعتمد طريقة خاصة قد لاحظ ان هنالك تصورات ذهنية بسيطة دون انطباع مقابل ؛ اذا عرضنا على العين سلم ألوان كاملاً باستثناء لون واحد ، فان العين سترى الدرجة الناقصة كما لو

(١) ومن بينها « محاولة في أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) ، و« بحث في المذاهب » (١٧٤٩) ، و« بحث في تأثيرات الحواس » (١٧٥٤) ، و« المنطق » (١٧٨٠) .

كانت هنالك حركة عقلية خاصة نحو التأثير الحسي وفاقاً لبعض النواميس ، وكما لو كان العقل يسبق المعرفة بواسطة الحواس ، او كما لو كان في العقل شيء سابق للاختبار .

الانطباعات تولد الافكار البسيطة . العقل ينتقل من الافكار البسيطة الى الافكار المركبة بتوارد يتم وفاقاً لمبادئ المخيلة الشاملة ؛ الافكار تتجمع بتشابهها ، باتصال الانطباعات ، لأن احدها يمثل علة يكون الثاني لها معلولاً . ان هذه النواميس هي بالنسبة للافكار ما هو تاموس الجاذبية النيوتوني بالنسبة للاجسام ؛ انها اصلية وأولية . ليس من حاجة للارتقاء الى ابعاد من ذلك . إلا أن الانسان يبقى حراً ؛ باستطاعته الحيولة دون تجاذب الافكار ، باستطاعته الجمع تحكماً بين فكرين ؛ يضاف الى ذلك ان الافكار قد تتجاذب دونما مبرر ، كما بالتشابه مثلاً . هنالك خطأ في الحالتين الاخيرتين .

ان هذه التجاذبات تعطينا تصورات مركبة قد لا يكون لها وجود في الواقع . لناخذ الصلة بين العلة والمعلول مثلاً ؛ فان مراقبة علة معينة (انخفاض حرارة الماء) لن تثبت البتة ان هذه العلة يجب ان تؤدي بالضرورة الى معلول معين (التجمد) . ان احد ملوك سيام لم يصدق يوماً ان هنالك بلداناً يبلغ من تجمد الماء فيها انه يصبح قادراً على حمل الفيل . الاختبار وحده هو ما يعلننا ، للاختبار ، أي تعاقب بعض الأحداث الثابتة ، أو تكرر بعض الاعادات بشكل معين ، قد يتغير يوماً .

لسنا ندرك ابدأ سوى تعاقب الانطباعات والتصورات . ان مجموعة تصورات بسيطة يجمعها المخيلة بحسب تواردها بالاتصال وتلبس اسماً غريباً تعطينا فكرة المادة وقد يكون ذلك خدعة العادة والكلام . فما الاجسام ياترى ؟ انها اكدام انطباعات متواترة يجمعها بحسب تشابهها ونعتقد انها وقائع دائمة . والنفس ؟ اهي لامادية ، اهي مادة روحية ؟ لعلها ليست سوى سلسلة انطباعات وتصورات متعاقبة تتوارد في الذاكرة ، فنخلق المخيلة وهم ديمومتنا . إلا ان هيوم يعترف بأنه لا يعلم كيف « تتحد احساساتنا المتعاقبة في فكرة أو في ضميرنا » . ومن هو الله ؟ ان نقد فكري المادة والعلة يؤدي الى العلة الاولى والمادة اللامتناهية . التشابه بين جهاز صنعي وبين الكون برهان احتمالي من براهين العلوم الاختبارية ، ولكن التشابه بين جزء محدود وبين كل غير محدود قابل للنزاع والجدال .

ان هيوم المخيف قد ايقظ « كانت » من « سباته العقائدي » . كما ان « جان - جاك روسو » قد ترك فيه اثرأ كبيراً ايضاً بتشديده على الحكم ، على هذه الكلمة الصغيرة « هو موجود » ، التي هي دليل نشاط الانسان . ان « كانت » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذي كان استاذاً في جامعة كرونسبرغ وعالم فلكياً وعالم طبيعيات وفيلسوفاً ، قد نشر في السنة ١٧٨١ « نقد العقل الصريح » ، وفي السنة ١٧٨٨ « نقد العقل العملي » وعداداً من المؤلفات الاخرى في الفلسفة والاخلاق والتاريخ والدين . طمح في أن يحدث في علم العقل البشري الثورة التي احدثها كوبرنيك

في علم الفلك وفي ان يغير وجهة النظر تقييداً تاماً. اراد ان يثبت ان عقلنا لا يتقبل صورة الاشياء بل يستخدم واقعا مجمله ليكون به الاشياء . وهو ايضا يتخذ علم الطبيعة النيوتوني مثالا للمعرفة : سلسلة من الاختبارات المختلفة ، نواميس تربط بين هذه الاختبارات ، مبدأ ترتبط به هذه النواميس . لقد لازمه وتسلط عليه مثل العلوم الطبيعية .

ينطلق « كانت » من تحليل الحكم . هنالك القضايا « الاولى » السابقة للاختبار التي لا يحتاج تحقيقها الى الاختبار ، والقضايا « الاستدلالية » المبنية على الاختبار . ان القضايا « الاولى » كلها اعتبرت من قبله تحليلية: الخبر فيها موجود وجوداً ضمنياً في المبتدأ أو الاسم ويستخلصه العقل منها بالتحليل . هذه هي حال القضايا الرياضية واليتافيزيقية والاخلاقية . واعتبرت القضايا « الاستدلالية » كلها تأليفية : الخبر ليس جزءاً من المبتدأ أو الاسم بل يؤدي اليه الاختبار ويوازي العقل بينه وبينها بالتأليف ، كما في هذه القضية مثلاً : الذهب قابل الذوبان بتأثير حرارة تبلغ ١٠٠٠ درجة ، التي هي تأليفية « واستدلالية » .

والحال ، القضية التحليلية « الاولى » لا تزيد المعرفة : انها توضحها . القضية التأليفية وحدها هي ما ينميها . ولكن الرياضيات تنمي معرفتنا . اعتقد كانت ، على نقيض دالمبير ، ان « $2 + 2 = 4$ » تأتينا بمعرفة جديدة تختلف عن مجرد التأمل في ٢ و ٢ . الرياضيات « أولية » . اذن هنالك قضايا تأليفية « أولية » : الخط المستقيم ، مبدأ السببية ، وغيرهما . اذن هنالك ، قبل اي اختبار ، معطية عقلية وحركة عقلية وفاقاً لبعض النواميس ، وهذا عمل غير شعوري بالنسبة لنا . وتوصل « كانت » هنا الى بدايته بركلي وهيوم : ان افكارنا كلها وقوانا كلها لا تأتينا من التأثيرات الحسية . العقل واقع حي سابق للتأثيرات الحسية . فبرزت مرة اخرى الافكار المطبوعة .

بعد بلوغ هذه النتيجة ، بات لزاماً التوصل الى واقع العقل هذا . درس « كانت » انطباعاتنا الحسية . ليس باستطاعة حسنا ان يتأثر الا في المكان والزمان . المكان والزمان « اوليان » ، وهما شرطان للانطباع الحسي ، وشكلان من اشكال الحس الحاصل قبل الاختبار . الحس لا يعطينا سوى انطباعات حسية . وحق لجعل من هذه الانطباعات تافراً حسياً بما هو جامد ، ورخو ، وبارد ، وحار ، يجب ان يقيم الادراك ، او اللشاط البدهي للعقل ، علائق بين الانطباعات الحسية بواسطة « مفاهيم » ينطوي عليها « اوليا » قبل اي اختبار : السببية ، الكمية ، النوعية ، وغيرها . وجود الادراك يستلزم وجود الـ « انا » ، « انا » المتكلم ، الذي هو معطية « اولية » ، قبل اي اختبار ، وشرط الاختبار . وهكذا حلت المسألة التي تركها هيوم : كيف يمكن ان تعرف مجموعة الانطباعات وكأنها « انا » المتكلم .

ان واقعا خارجياً يحدث الانطباعات الحسية هو شرط التفكير . ولكن التفكير لا يبلغ هذا الواقع او « نومين » (*noumène*) بحد ذاته . والعقل لا يعرف منه الا ما يصله مركباً بواسطة الادراك ، وفاقاً لمفاهيمه « الاولى » ، بحسب ما اعطاه الحس في اشكاله « الاولى » ، او

« الظواهر » . ان ما نعيه شعوريا هو تركيب يحققه عقلنا انطلاقاً من واقع مجهول . وهكذا ليس لتصوراتنا الذهنية من قيمة تمثيلية ، فليست هي صورة للأشياء ؛ فانهار مذهب الحاسيين الاختباري القائل بان الحس اصل المعرفة .

ينتج عن ذلك اننا لا نعرف انفسنا كما نحن . « انا » كل منا ظاهرة تتوصل اليها بالاختبار ، من خلال شكل الزمان « الاولي » ، بحسب مفاهيم الادراك .

لا نستطيع معرفة العالم كما هو ، كـ (noumène) بل كما يبدو لنا فقط ، اي كظاهرة . ولذلك نرانا تفصل ابداً ، حيال العالم ، الى معارضات او مناقضات . اذا قيل ان العالم متناه لانه يجب ايجاد حد للفضاء الراهن ، فبالامكان الاجابة بانه لامتناه لان مكان شيء ما هو نسي لمكان شيء اخر ، واذا قيل انه متناه لأننا لا نستطيع الانطلاق من معلول للانتقال من علة الى علة الى ما لا نهاية له ، ولانه يجب بالنتيجة ايجاد علة اولى حرة ، امكن الاجابة بانه لامتناه لان علة حرة تقطع التسلسل السببي اذا لم تكن هي نفسها معلولا لعللة اخرى ، ولان علة حرة تناقض مبدأ السببية ؛ وهكذا دواليك .

لا نستطيع اثبات قيمة الحتمية المطلقة . انها ناموس من نواميس معرفتنا ؛ وليس اختبارنا ممكن الا في الزمان الذي تتعاقب فيه العلل والمعلولات تعاقبا لازماً . واكنها ليست ناموسا من نواميس الكيان ؛ فقد يكون هنالك علة حرة ، خارج الزمان .

لا نستطيع اثبات الله . انه احد تأليف العقل اللازمة . لا نستطيع تصور كل شيء الا بالنسبة لكائن يستوعب كل واقع ممكن ، يكون بمثابة مثال كامل للأشياء الناقصة . ولكن ، هل ان هذا الكائن اللازم لنا هو موجود حقا ؟ الكون يسير بموجب نظام يشير الاعجاب ويفرض كائنا كلي الذكاء وكلي القدرة ؟ لنسلم بكائن كلي الذكاء وكلي القدرة ، الا انه قد يكون محدوداً ، متناهما . ولكن كل الكائنات غير لازمة الوجود ؛ قد يكون ممكنا ان لا توجد ، ليس لها علة وجود في ذاتها ، انها مرتبطة بكائنات اخرى . يقتضي كائن لازم ، لا يمكن ان لا يكون ، يفسر كافة الكائنات الاخرى ولا يحتاج لان يُفسر . لنسلم بذلك ؛ ولكن لا يُثبت على هذا الشكل وجود اله ذاتي وخالق ؛ قد يكون الكائن اللازم المادة او الها مختلطاً بالأشياء ويظهر فيها . ولكن اكمل كائن يمكن تصوره موجود حتما ؛ اذا انتزع منه الوجود ، فلن يكون الاكمل ؛ تصوره كاملا هو فرض وجوده . غير ان الوجود لا يزيد شيئاً في نظر « كانت » ؛ فان « تالر » حقيقية ليست اعظم كالا من ١٠٠ تالر ممكنة .

وهكذا فان علم المعقولات ليس ثابتاً ، وليس علماً . ان ما نعرفه واقعي لا حقيقي . ان علنا ، المبني انطلاقاً من الوقائع الحسية ، علم مشروع اذا اننا لا نستطيع عمل شيء آخر ؛ اضع الى ذلك من جهة ثانية انه علم ناجح ، وهذا يظهر بعض التوافق بين مفاهيمنا والعالم

الخارجي . ولكنه علم ليس له سوى قيمة عملية . لا نستطيع في الحقيقة ان نعرف شيئاً من جوهر الأشياء .

كان مقدراً لتفكير « كانت » ان يصبح منطلق كافة فلاسفة القرن التاسع عشر تقريباً . اعتبر « نقده » زمناً طويلاً وكأنه اكتشاف نهائي يعين الشروط الدائمة لكل معرفة فعلية ويؤلف حد حقل المعرفة بالنسبة للعقل البشري .

اذن قام رجال ذاك العهد بمجهود علمي جبار . حاولوا تنظيم كافة المعارف على توسع العلم غرار « علم الطبيعة » : الحقوق ، الاخلاق ، كل شيء ، وحتى الجمال . فان الكاهن الفرنسي « دي بوس » قد اسس علم الجمال الجديد بكتابه « افكار نقدية في الشعر والرسم » (١٧١٩) . وفي السنة ١٧٣٥ اطلق الألماني « بومغارتن » على هذا العلم اسم « علم سنن الجمال » .

مهما بلغ من انتشار العلم والروح العلمية ، فانها ما زالا ، على الرغم من ذلك ، وقفا على اقلية ، وكم في هذه الاقلية بالذات من عزائم تراخت بفعل الانسياق وراء الاهواء . كان هناك علماء زائفون اعتقدوا برجال البحر وبنات البحر والمنقاء المغربية والتنين والوحش البشري والفرس الوحيدة القرن ونشروا اعتقادهم ، وزعموا انهم وجدوا ورسوموا بشراً وحيوانات تعيش في الحصباء ، وشاهدوا اصداقاً تولد في الأرض وتنمو فيها . وقد اكد فولتير نفسه انه شاهد ولادة اصداق في ريفه . وكان هناك اساتذة من امثال ذاك الذي فستمر ، في السنة ١٧٦٨ ، في باريس ، في كلية مونتيفو ، تناسل الحيوانات كما يلي : « ان روح الحيوان الفحل (الكلب مثلاً) تبعث من ذاتها بشعاع روحي مغلف بمخلاة من جذره الخضل : هذا هو زرع الكلب ا ، وكان هناك جمهور الطفيليين الذين ازدحوا حول وعاء « مسمّر » بائع الأدوية ، المزود بالقضبان والسلاسل السرية ، واعتقدوا بالشفاء من كافة الامراض وبالوضع دون الم بفضل قوى مجهولة في المغنطيسية الحيوانية . وكان هناك الفلاحون الذين انقضوا على الكرات الهوائية الاولى ومزقوها شرمزق ، والصناعيون اليدويون الذين ثاروا على مانعات الصواعق الاولى ؛ وجميع من اعتقد بالسحر والسحرة والعماريت الوهمية والسحرة المتنكرين بهيئة الذئاب ، اي المحيط البشري الذي طفت فوقه قبضة من الفلاسفة والعلماء .

لم يجمع العلم وقائع جديدة الا باستسلام العقل البشري الذي قبل ، لتفسير الملاحظات ، بمبادئ لم يدركها . ماذا كانت كل هذه العوامل الخفية ، السائل الحراري ، والسائل الكهربائي ، والسوائل العادمة الثقلي التي تنطوي على قوة فاعلة ملازمة لها ياترى ؟ حاول ديكارت ان يقضي في كل مكان على هذه الملازمة ، كما حاول ان يثبت بالرهان في كل مكان ما هو خاص ونوعي ، أي ما هو غامض ومغشّي وضميني بغية ردّه الى بعض عناصر مشتركة ، الاتساع والحركة ، أي الى ما هو جبلي و متميز وصريح . فقد بدت السوائل وكأنها تعود بالحالة الفكرية الى ما قبل ديكارت .

ولكن العلم ملك ضمن حدوده . انه يصبح دنيا . فقد برزت الثقة الممياء في المعلوم . وان الانسان ، الذي بات بواسطة العلم سيد اسرار الطبيعة وقادرآء كما اعتقدوا ، على شفاء الامراض المستعصية بواسطة جهاز الدكتور « ناسم » الكهربائي (١٧٧٤) ، وتقديد حياة الانسان الى ما حد له بواسطة الاوكسيجين ، وتنظيم خير مجتمع بواسطة العلم الاجتماعي ، كان في طريقه الى العصر الذهبي .

النظريات الشاملة

« فلسفة الأنوار » حوالي السنة ١٧٦٠ بدا النجاح وكأنه يحالف « فلسفة الأنوار » التي بناها أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفلاسفة » . أوضحوا أفكارهم في مآس ، وقصائد ملحمية وتعليمية وهجائية وروايات ومقالات انتقادية عنيفة وحوارات وشروح جل فلسفية وقواميس . أما مؤلفهم الشامل الاول ، « اجمال فلسفة القرن الثامن عشر » المعد لأن يحل محل « الاجمال اللاهوتي » للقديس توما الاقوييني ، فقد كان قاموساً هو « دائرة المعارف الفرنسية » للمبير وديدرو ، التي ظهر الجزء الأول منها في أول تموز ١٧٥١ مع خطبة تمهيدية من وضع دالمبير ، والتي انجزت في السنة ١٧٦٤ على الرغم مما وضعت السلطة في سبيلها من عراقيل وعقبات . تألف نصها من ١٧ مجلداً ولوحاتها من ١١ مجلداً . وأكمل الاجمال هذا بكتاب موجز هو « القاموس الفلسفي » السهل نقله لفولتير (١٧٦٤) . أما دائرة المعارف التي أسهم في إنجازها ١٣٠ شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء في الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من أهل اليسار ومن حملة الألقاب الرسمية ، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية الكبرى المستنيرة وحدها ، فكانت مؤلفاً بورجوازيًا . وكان أهم « الفلاسفة » ، الكتبة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو ، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو ، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير ، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء رجال قضاء أو شرع هم أقرب إليها من أهل الجنديّة . كان تفكير العصر بورجوازيًا أكثر منه في القرون السابقة .

ان تفكير هؤلاء البورجوازيين عقلي وموضوعي ونفعي . يريدون في كل شيء البداهة والوضوح والمطابقة للعقل واحترام مبادئه : الذاتية ، عدم التناقض ، السببية ، الشرعية . للعقل قيمة سامية . انه قادر على كل شيء ، ويدرك كل شيء ، ويصدر حكمه في كل شيء . هو الاله الأخير . اما الذين وجدوا له حدوداً ، كفولتير مثلاً ، فقد اعتقدوا ، على الأقل ، ان ليس خارج العقل سوى ليل وخواء ، وانسه سبيلنا الوحيد المقبول الى المعرفة . العقل يستدل انطلاقاً من حقائق بسيطة وجلية ، إلا أنه فوق كل شيء ، يراقب الوقائع ويستخلص منها التواميس . يجب أن يقتصر العقل على المعارف المفيدة للإنسان : كل ما لا يفيد باطل . اف

من الرغبة في المعرفة لمجرد الرغبة ! قد يكون هذا التفكير معقماً . ولكنهم لحسن الحظ قد بقوا له أوفياء .

قال معظم « الفلاسفة » بالدين الطبيعي مع إنكار الوحي . اثبت لهم عقلمهم وجوب وجود هلة أولى لأنه يستحيل الارتقاء الى ما لا نهاية له من علة الى علة ؛ فهناك من ثم كائن أولي يرتبط به كل شيء ويكون بالتالي كلي القدرة . ولكن هذا الكائن الأسمى كلي الذكاء أيضاً ، لأن الكون آلة ميكانيكية تثير الدهشة بتركيبتها وتنظيمها : النظام يستلزم ذكاء منظماً . ان هذا الكائن الأسمى ، الكلي القدرة والكلي الذكاء ، اله هو . لا نستطيع معرفة هذا الاله ومعرفة ما هو بالضبط ، بيد اننا نعرف انه موجود : هذا هو المعتقد المشترك بين كافة الأديان ، هذا هو الدين الشامل .

إن الله خلف بالضرورة عمله ناقصاً : فقد لا يميز بين الله وعالم كامل قد يكون هو نفسه الله ؛ الله وحده كامل . ولكن الله الكلي القدرة والكلي الذكاء ، وخالق عالم على مثل هذا التناسق ، قد خلق بالضرورة خير عالم ممكن . اذا كانت هنالك شرور ، ففي سبيل خير أكبر لا ندرکه . أطلق على هذا المذهب اسمه ، « التفاؤل » ، في السنة ١٧٣٧ . كان فولتير في البدء من تبعته المتقنمين ، ثم بات عدوه العنيد بعد كارثة الزلزال التي حلت ببلشونة (١٧٥٥) وألف كتابه اللاذع « كنيديد » (١٧٥٩) : قال « كاكبو » : ما هو التفاؤل ؟ - أجاب كنيديد : إنه الكلف بالتأكد أن كل شيء جيد في حال أن كل شيء سيء . منذ هذا التاريخ أخذ التفاؤل بالانكفاء إلى الوراء .

نظم الله العالم بنواميس أزلية لا يدخل عليها أي تغيير . فلا فائدة إذن من الإبهال اليه ، ولا من حاجة إلى الطقوس والاسرار . إن ما يجب عمله هو درس الطبيعة لمعرفة نواميسها والعمل بموجبها .

كان بعض الفلاسفة ماديين وملحدين : « مورقوي » ، الطبيب « لاماري » ، ملتزم جمع الضرائب « هلفتيوس » ، البارون « دولباك » الذي كان يجمع حول مائدته الملحدين الباريسيين الرئيسيين ويدير منشورات تتميز بالدعابة الاحادية ، وديدرو أخيراً بين الفينة والفينة . كل شيء في نظرم يفسر بالمادة . المادة أزلية ؛ من طبيعتها تتولد الحركة ونواميسها والنظام الكوني ؛ ومن الحركة يتولد كل شيء ، حتى الفكر . الله افتراض باطل . نظر الناس الى الملحدين بحلم وتسامح : ففي أشهر روايات القرن « هيلوز الجديدة » لجان جاك روسو ، يظهر السيد « دي فوطار » ملحدأ خفيف الظل . ولكن هؤلاء الفلاسفة لم يتجاوزوا عسد أصابع اليد ولم يترك تعليمهم أترأ يذكر .

رأى « معظم الفلاسفة » ان الطبيعة التي خلقها الله ونظمها تجعل البشر يمشون حياة اجتماعية . على العقل البشري أن يكتشف النواميس الطبيعية التي تنظم المجتمعات بقية العمل

بموجبها . هنالك حق طبيعي مبني على النواميس الطبيعية . على الانسان ان يعبر عن هذا الحق الطبيعي بشرائع موضوعية . وهنالك اخلاق طبيعية مطابقة للنوانميس الطبيعية . على أن على الانسان أن يعبر عن هذه الأخلاق بمبادئ ويجمعها في تعليم طبيعي .

حواسنا توحى لنا اننا موجودون على الأرض لأجل السعادة ، أي لأجل التمتع باللذة : « يجب أن نبدأ بالتفكير في أنفسنا أن لا عمل لنا في هذا العالم سوى أن نوفر لنا فيه احساسات وشواعر مستطابة » . التمتع باللذة حق . « ان محبة النعمى ، التي هي أقوى من محبة الوجود ، يجب أن تكون بالنسبة للأخلاق كما هي الجاذبية بالنسبة لعلم الآليات . الأناية مرتكز علم الأخلاق . ولكن يجب أن تفهم الأناية جيداً . العقل يرشدها ويظهر لها « حقيقة عملية واحدة لا جدال فيها هي حاجة البشر المتبادلة بعضهم الى بعض ... والواجبات المتبادلة التي تفرضها هذه الحاجة عليهم . اذا ما افترضت هذه الحقيقة ، اشتقت منها كافة قواعد الاخلاق بتسلسل لازب ... « لعل علم الأخلاق أكمل كافة العلوم اطلاقاً . » هذا هو أساس القواعد الأولية : لا تعمل لسواك ما لا تريد أن يُعمل لك؛ واعمل لسواك ما تريد أن يعمل لك . ومن هنا تشتق قواعد التساهل والاحسان والانسانية ، المتفقة من جهة ثانية واريحية الانسان الطبيعية ، ولكنها تخضع لتدابير حكيمة حتى يحد كل شخص في آخر يومه ان لذته اكبر من المه وان حساب الاخلاق يثبت له ، اذا رجعت كفة اللذة ، انه سعيد حقاً . وينجم عن ذلك حلم عام معين : الانسان الذي يتصرف تصرفاً سيئاً لا يمكن ان يكون سوى انسان ارتكب خطأ . وينجم عن ذلك ايضا الاعتقاد بخلود النفس والجزاء بعد الموت : يخطئ البعض ويعذبونني على غير حق ؛ فمن المخالفة لكهال الكائن الاسمى ان لا يعيىض من هذا الضرر في العالم الثاني بنظام مكافآف وعقوبات .

يجب ان تنظم المجتمعات في سبيل سعادة البشر . ولأجل تأمينها عقد البشر فيما بينهم في البدء اتفاقاً ووجدوا قوام ضد الكوارث الطبيعية وضد اعدائهم . لا يمكن ان تنجم هذه السعادة الا عن التقيد بالحقوق الطبيعية الناتجة عن النواميس الطبيعية . فالبشر من ثم يختارون حكومتهم حتى تضمن لهم حقوقهم ، وهنالك عقد اتفاق حقيقي بين الحاكم والمحكومين ؛ ويمكنه هؤلاء استبدال الرئيس الذي قد لا يحترم العقد ويتعدى على حقوقهم او يتغاضى عن التمدي عليها . اذن الثورة حق ايضاً . ولكن على الحكومة ان تتولى كل السلطات للتمكن من القيام بمهمتها . يجب ان تكون استبدادية وملكية في الدول التي تتجاوز مساحة معينة . « قد تقوم بالضرورة ، في الجمهورية ، احزاب من شأنها ان تمزقها وتقضي عليها » . الحكم الملكي « وحده اهتدى الى الوسائل الحقيقية الكفيلة بملئنا نتمتع بكل سعادة ممكنة وبكل حرية ممكنة وبكل الفوائد التي يستطيع عضو المجتمع ان يتمتع بها على وجه الارض » . على المتبد ان يتلقى تعاليم « الفلاسفة » دون غيرهم . هذه هي نظرية « الاستبداد المستنير » ، التي نشرها ، في المانيا ايضاً ، « وولف » وكتبة آخرون كثيرون ضمنوا لها لمجاًحاً كبيراً .

على الامير ان يؤمن حقوق الانسان . حرية الشخص اولا : بالغاء الرق والقدادية . يمنح حرية الانتقال والتجارة والصناعة والملاحة والحرية المدنية ، لا الحرية السياسية ، او حرية سياسية محدودة ؛ فالحرية السياسية « خير لم يوجد لأجل الشعب » . لن يكون هنالك حرية فكر ولا حرية دين بل تساهل الى ان يستنير كافة البشر . ويكون هنالك حرية الكلام حتى يستطيع الفلاسفة الاعراب عن آرائهم . اما حيال الآخرين فيجب التصرف بفطنة وبصيرة : لا يمكن للحرية التمهيم على الحرية ان تكون حرية . وقد رأينا ديدرو الذي عينه وكيل الشرطة ، «سارتين» ، رقيباً على المؤلفات ، يدرس مهزلة « الهجاء » لـ « باليسو » ويطلب حظرها لأنها تستهزئ بالفلاسفة . وكثيراً ما وشى هؤلاء كتابه بمعارضهم الى الحكومة .

على الامير ان يؤمن المساواة امام القانون ويبطل امتيازات النسب ، فيدفع الاكليروسيون والاشراف جميعهم الضريبة اللسبية ، ويحاكمون امام المحاكم نفسها وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها . وتفتح ابواب المهن كلها لكافة الكفاءات لان المساواة في المحرق طبيعية ولان من المصلحة العامة ان يعين خيار الرعية في اعلى الوظائف . ولكن الطبيعة حبت البشر بإرادة وذلكه وكفاءات متفاوتة . فينتج عن تفاوت المواهب هذا تفاوت في الثروات هو من ثم طبيعي . والتملك الذي ينشأ من استخدام الحرية هو طبيعي ايضاً ، وهو مقدس . على الامير ان يبقني بعناد على حرمة التملك وتفاوت الثروات . وباستطاعته ان يسند الى كبار الاثرياء والملاكين العقاريين سلطة تشريعية . فيكون هنالك ارسوقراطية الثروة والمواهب . « مجامحات الانوار محدودة » بحسب ما جاء في « دائرة المعارف » ، فهي لا تبلغ الضواحي قط لان الشعب هنا متأخر جداً . عدد اسافل الناس يكاد لا يتغير ... الجماهير جاهلة وبلهاء . وقال فولتير قولاً اشد قسوة من ذلك : « يقتضي للشعب الاحق والهمجي نير وقص وعلف » .

يجب ان تكون العدالة اكثر حلماً . حرمتنا الخارجية محدودة . فنحن نريد من ثم آراء فرضت علينا ، وهذه الآراء تخضع لتأوراتنا الحسية التي تخضع لبيئتنا ووزرائتنا : فسؤوليتنا من ثم مخففة بعض التخفيف . العدالة تستهدف الحث على القيام باعمال مفيدة للمجتمع والحيولة دون الأعمال الأخرى . يجب إلغاء كل ما هو خطر او غير مفيد فقط : الاستنطاق بواسطة التعذيب الذي يتيح للمجرم القوي ان يفوز بالبراءة ويرغم البريء الضعيف على الاقرار بجرائم لم يقترفها ؛ العقوبات المترولة لتحكم القاضي او العادمة التناسب والجريمة ؛ العقوبات التي تتناول الجناية على العزة الالهية ، وهي خطيئة بكنة الله ان يقتص من مرتكبها بمنزل عن القاضي . يجب ان لا يسلم بعقوبة الموت الا اذا كانت السبيل الوحيد لانقاذ حياة اكبر عدد ممكن من البشر . للمتهم الحق في ان يعامل معاملة البريء لا معاملة المجرم ، وللمجرم في ان يعامل بحلم ورحمة ، والاولى للدولة ان تمنح الجرائم بالتربية من ان تقتص من المجرمين . وقد توسع الميلاني « بكاريا » في كتابه « الجرائم والعقوبات » (١٧٦٤) . في هذه الآراء التي استوحاها من مونتسكيو و « دائرة المعارف » .

لا يمكن التسليم بالحرب ، وهي آفة البشرية ووصمة عار في جبينها ، الا اذا دعت الحاجة القصوى الى امتشاق السلاح في سبيل الدفاع المشروع عن النفس . ولا يكون حينذاك كل شيء جائزاً للجندي ، الذي عليه ان لا يفعل شيئاً يناقض « نوااميس البشرية الأزلية » ، وان يبحث عن مجده في « سخائه » . على الأمم ، المؤلفة من بشر احرار ، ان تعتبر نفسها كاشخاص احرار تترتب عليهم واجبات الافراد . وقد واصل الأب «دي سان - بيير» حتى السنة ١٧٤٣ الدعوة التي باشر بشها في عهد لويس الرابع عشر في سبيل سلم دائم بواسطة اتحاد دائم بين كافة ملوك اوروبا : الاتحاد سيحول دون اندلاع الحرب فيما بينهم ؛ وسيجد من التسليح ، ولن تقسم اية بلاد ، وسيكون للاتحاد جيش مؤلف من مجندي الامم المختلفة لفرض احترام مقرراته ، وسيكون مركز الاتحاد في مدينة السلام ، الحرة والحيادية ، كجنيف مثلاً .

تتقدم الانسانية تقدماً مستمراً بانتشار الانوار . التربية ابعده وسائل التقدم اثرأ . يجب ان توجهها الدولة لمصلحة الدولة التي يجب ان توفر لها مواطنين تجمعهم روح واحدة ويكونون اهلاً للقيام بوظائف الدولة المختلفة بغيرة بلاوغ مثل اعلى مشترك . يجب ان يتولى شؤونها مكتسب خاص خاضع لسلطة الوزير المكلف امر الاشراف على امن عام الدولة . يجب ان تكون التربية طبيعية حسية ، وان تبدأ بالمحسوس ، بالوصف ، حتى تنتقل الى ما هو عقلي ، ان تنطلق مما هو بسيط حتى تبلغ ما هو مركب : استنبات الوقائع قبل البحث عن العليل . يجب ان تكون طبيعية : اي ان تكون اجساماً قوية بالمعيشة المشوشنة والتارين ؛ وعملية : اي ان تستلزم درس لغة البلاد التي نعيش فيها ، والتاريخ المعاصر ، والجغرافية ، والمعلوم الطبيعية ، والرياضيات ، وعلم الطبيعة ، والتدرب على العمل اليدوي . وقد شدد الكلام في هذه النقاط مؤلفون كثيرون نخص بالذكر منهم القاضي الفرنسي «لاشالوتيه» الذي وضع في السنة ١٧٦٣ كتابه «محرارة في التربية الوطنية» . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان المعرفة في تناول الجميع : «الحقيقة بسيطة ، وبلااستطاعة ابدأ وضمها في تناول الجميع» . هذا ما قاله دامبير في سياق كلامه عن «التفاضل» في «دائرة المعارف» .

وقعت هذه الآراء موقع الرضى من نفوس الملوك الذين كانوا قد اعلنوا الحرب على امتيازات الكنائس والاشراف والجمعيات . راسلوا الفلاسفة واستقبلوهم . فقد تبادل فولتير وديدرو ودالمبير الرسائل وملك بروسيا فردريك الثاني وقيصرة روسيا كاترين الثانية . كما اقام فولتير في برلين وديدرو في سان بطرسبورغ .

الا أن ناشر هذه الآراء الرئيسي هو الماسونية . وقد تساءل «بول هازار» عما الماسونية إذالم تكن دائرة المعارف مشروعاً ماسونياً . انتمى الماسونيون إلى نقابات البنائين في القرون الوسطى الذين كانوا يحرصون على الاحتفاظ بأسرارهم المهنية وقبلوا بأن ينضوي الى جمعيتهم بعض عظماء الأسياد المولعين بمعرفة الأشياء . استمرت معارفهم في انكسارها حتى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت معها تقاليدهم وصكوكهم واحتفالاتهم وكتاب رتبهم ؛

أما الأعضاء فخليط من مهندسي العمارة المتهنين ، ورجال الفكر ، والأشرف . في السنة ١٧١٧ ، انصهرت أربعة محافل من محافل لندن في محفل انكثرا الكبير واستبدلت الماسونية المهنية القديمة بماسونية فلسفية . في السنة ١٧٢٣ ، وبناء على أمر المعلم - الأكبر ، وضع الراعي الماسوني اندرسون « دساتير الماسونيين » التي تعتبر انجيل هذه الكنيسة الفكرية والنفعية وقانونها وكتاب فرضها .

تحتفظ الماسونية ، من اصولها في القرون الوسطى ، بالرموز والطقوس التي أتتها من الشرق على ما يقال ؛ تعليم الأوليات ، الأعمدة ، الأقمشة الكتانية المصورة التي تمثل هيكل سليمان ، النجم الساطع ، الزاوية المثلثة ، البركار ، ميزان التسوية (رمز المساواة) ، السر المطلق و تحت طائلة قطع العنق واقتلاع اللسان وتمزيق القلب ؛ وكل ذلك حتى أدفن في أعماق البحار ويحرق جسمي ويحول الى رماد ينثر في الهواء .

يؤلف الماسونيون من ثم شيعة صوفية ، مما أسهم في نجاحهم . يريدون اصلاح النظام الأخلاقي والاجتماعي بنظام فكري جديد . يقولون بمذهب العقليين ويحاربون الديانة المسيحية ، ولكنهم يدينون بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ويعبدون مهندس الكون العظيم ؛ يجب على الماسوني أن لا يكون لا « زنديقا ملحداً » ولا « دهريا بليداً » ، بل ان ينضوي الى « هذه الديانة العامة التي يجمع عليها كل البشر » . يتعلقون بالحرية والمساواة ويقولون بمذهب التمتع باللذة .

« في طريق تكسوها الأزهار

الماسوني يجتاز الحياة

باحثاً عن التمتع باللذة ...

هتاف الطبيعة ، أيها الصديقي ، هو الحرية ...

نحن متساوون دون فوضى وأحرار دون فساد

والخضوع لشرائطنا مرتكز استقلالنا .

الماسونيون جمعية دولية خاضعة لنظام متسلسل السلطات ، وقانونها هو تقاني الأعضاء بعضهم في سبيل البعض الآخر وتبادل المساعدة .

على الرغم من أن البابا اكليمينضوس الثاني عشر قد أصدر حكمه ، في السنة ١٧٣٨ ، يمنع الماسونية في العالم المسيحي ، ومن أن البابا بندكتوس الرابع عشر قد جدّد المنع في السنة ١٧٥١ ، فإن انتشارها كان سريعاً وواسعاً . لها لبثت المحافل ، بفضل الأعضاء من تجار ودبلوماسيين ، وبجارة وجنود وأسرى حرب وممثلين هزليين متنقلين ، ان تأسست في كل أنحاء العالم ، في « مونس » في بلجيكا (١٧٢١) ، وباريس (١٧٢٦) ، وروسيا (١٧٣١) ، وفلورنسا

(١٧٣٣) ، روما ولشبونة (١٧٣٥) ، وبولونيا وكوبنهاغن (١٧٤٣) ، وجبل طارق وأمريكا منذ السنة ١٧٣١ ، والهند والبنغال . استهوت الماسونية الأعيان والبورجوازيين اليسوريين وأعضاء المهن الحرة والفلاسفة مونتسكيو ، وهلفتيوس ، وبنيامين فرانكلن ، « ولاند » ، وفولتير الذي قبلت عضويته في ٧ نيسان ١٧٧٨ في محفل الاخوات التسع في باريس . وانضوى اليها الاشراف باعداد كبرى واحتل بعضهم مركز المعلم الأكبر : دوقية وكونتية انكليز ، والدوق « دانتين » والأمير « بوربون - كونديه » والكونت « دي كلرمون » والدوق « دي شارتر » في فرنسا ؛ والمركيز « دي بلتغارد » ، ياور الملك « شارل - عمانوئيل الثالث دي سافوا » ، ومؤسس محفل « شمبيري » الأول ، وهو المحفل الأم لسافوا والبييمون ؛ والأمير دي « سان سيفيرو » ، المعلم الأكبر لمحفل نابولي ؛ « وفرنسوا دي لورين » زوج ماري - تيريز النمساوية وإمبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؛ ومملك بروسيا فردريك الثاني الذي أصبح منذ السنة ١٧٤٤ المعلم الأكبر لمحفل الكرات الثلاث في برلين . وكان هذا الانضواء خير وسيلة لمراقبة هذه الجمعيات السرية وضمان دعواتها ومساندتها لهم . الماسونية قوة تنشر آراء الفلاسفة وتوحد الطبقات والأمم وتسهم في خلق ذهنية مشتركة تكون منطلقاً لأعمال مماثلة .

المسيحية والكنائس قام في وجه الفلاسفة خصوم أقوياء . وفي طليعة هؤلاء المسيحية عدوهم الأزرق . أخذوا عليها انها تطلب من العقل فوق ما يتحمل . فكيف استطاع آدم ، الكائن المحدود ، أن يبين الله امانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الانسان الأولى ؟ كيف يمكن للطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بألاف السنين ؟ كيف يمكن تصور اله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ واله يتجسد ؟ وانسان يقوم من بين الأموات ؟ سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة ، الجارحة ، البعيدة الفهم والتصديق ! أليس جلياً أن ليس هناك من كتب موحي بها من الله ، بل مؤلفات من وضع بشر نقلوا آراء عصرهم السائدة ، نقتحت وشوهت وأفسدت تكراراً ، وفاقاً لمقتضيات الزمان أو لدرجة فطنة وانتباه المستسخين .

وأخذوا على المسيحية انها تعارض الطبيعة وتنصح بالفقر والعمل الجاهد ، والتضحية والتواضع والألم والخضوع . لا بل نسبوا إليها أبوة شوارع غير انسانية : المسيحي ينتهج بوفاة ولده الذي يربح السعادة الأزلية ؛ ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القداس .

واتهموها بالحاق الضرر بالمجتمع . الأديرة ملاجئ كسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار . البتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين

والجنود . إرسال المال إلى البابا يفقر الأمة . الكنسيون ينفون من الضرائب في حال أنهم يمتلكون أراضي واسعة الأطراف ، ويحرمون الدولة من موارد وفيرة . الآراء الدينية تقسم المواطنين : وليس تاريخ الكنيسة سوى سلسلة طويلة من الاضطرابات والحروب . الكنيسة توحى بروح مقاومة وعدم انقياد : على المسيحيين أن يطيعوا الله قبل البشر ، وان يتقيدوا بوصايا الله لا ان ينصاعوا لأوامر الحكومة . ليس المواطنون والحالة هذه بكليتهم للدولة ، وما هو العمل ضدهم ما داموا يتصورون أن ساعة وفاتهم ستكون ساعة سعادتهم الأزلية ؟

ان في مثل هذه النتائج لدليلا على أن رجال الكنيسة جميعهم مكارون ومرأون . لا يبحثون سوى عن مصلحتهم الشخصية ، الثروة ، والسيطرة . يتجرون بجهل البشر وخوفهم وضعفهم ويخدعونهم بالأساطير والحرافات ويعيشون على حسابهم ويسخرون منهم .

ثم يطفح جام الغضب . فيتولى فولتير الحملة على الكنيسة : « لنسحق الشائنة » . تلك كانت نزعة طيلة حياته ، ولكنها غدت ، منذ السنة ١٧٦٠ ، شغل هذا المعجوز الشاغل . لا شيء يصعب عليه : تبسيط استخفافي ، حذف ، تشويه . فقد صدرت بدون انقطاع ، عن «مصنع فرناي» ، الأهاجي الأزدراية اللاذعة التي كتبت من أجل أولئك الذين يؤثر فيهم المزاج والجناس المستقبح أكثر من البرهان . « كان هدفه تخليف هذه السخرية لشعب آخرق وغليظ قد يالف الضحك أمام ما لا يدركه » . بواسطته خصوصا « ولدت في القرن الثامن عشر ... ودامت بعد ذلك فئة من الناس لم تعتمد غذاء روحيا سوى محاربة الاكليروس ... واعتقدت أن محاربة الاكليروس قد تكفي لتقويم الحكومات ولجعل المجتمعات كاملة وللإيصال الى السعادة » . انتشر الكفران في كل مكان . وقام الباعة الجوالون يزودون النبلاء والبورجوازيين والكنسيين بمخطوطات وكتب تنامض الاكليروس . في المقاهي والحدايق العامة ، سمع جواسيس الأمن الأراجيف الموجهة ضد الكنيسة والدين ، والصادرة عن الكهنة أنفسهم أحيانا .

ضعفت الكنيسة الكاثوليكية . وكانت آنذاك أقل قدرة على المقاومة بسبب تدخل الدولة في شؤونها ، وتسرب روح العصر إليها ، وانقساماتها الداخلية . كان الملوك والأمراء والنبلاء قد أخذوا على عاتقهم ، في كل الدول ، وعلى مر الأيام ، تعيين رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وخدمة الرعايا في المراكز الهامة . وغالبا ما اسندوا هذه الوظائف الى غير الابكار من أبناء الاشراف ، أو الى خلائق البطائن دونما نظر جدي الى الدعوة والمؤهلات . فماش العديد من الأهباء عيشة كبار الأسياد العلمانيين وأحيوا الأعياد والحفلات وشيدوا الأبنية وزاولوا القنص ولجأوا الى الدسائس والدبلوماسية وانشغلوا بالزراعة والمعامل والطرق والجنسور ، ولكنهم اهلوا واجباتهم الرئيسية : نشر الكلام الالهي واعداد كهنتهم وترقيتهم الى الدرجات الكهنوتية . اما الكهنة ، الذين غالبا ما ينتمرون الى عامة الشعب ، وتسند اليهم

خدمة أسوأ الخورنيات حالاً ، او ممارسة الوظائف الهامة ، لقاء أجر زهيد ، بالوكالة عن الأسقف أو خادم الرعية الغائبين ، فكانوا في أغلب الأحيان سريعي الغضب ، خامدي النشاط ، قصيري الباع في أمور الدين . فقدت الدروس الكنسية ، في الواقع ، كثيراً من قيمتها . وقد أصاب أسقف « سواسون » ، « فيتز - جيمس » ، حين كتب الى مونتسكيو ، في ٢٩ ايلول ١٧٥٠ ، ما يلي : «يحدّر التفكير جدياً باعادة الحياة الى دروس اللاهوت التي هبطت هبوطاً كلياً ، ومحاولة اعداد خدام دين يعرفونه ويستطيعون الدفاع عنه » . وقد أضاف الى ذلك : « الدين المسيحي من الجمال بحيث أنفي لا اعتقد بإمكان معرفته دون محبته ؛ واذا ما وجد من يجدف عليه ، فهذا دليل على جهله له . » ولذلك استسلم العديد من الكنسيين الى الآراء الجديدة وابتوا يمتقدون ، بقليل أو كثير من الصراحة ، بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ، وينادون بالاحاد أحياناً . وفتز ايمان الآخرين ؛ وكف الوعاظ ، بسبب عدم اطمئنانهم وعدم قناعتهم ، عن التكلم في موضوع العقيدة ، واقتصروا على الكلام عن صميميات اخلاقية مستبهمة . وكان بعض المدافعين عن العقائد المسيحية يملين ، وعادمي الحذاقة ومثيرين للسخرية أحياناً . ونظم الأب « بلغرين » حقائق العقيدة المسيحية بحيث تنشده وفقاً لألحان مألوفة رائجة . واخيراً كانت الكنيسة قد فقدت اعتبارها بفعل الجدال الكبير الذي قام بين الجنسين واليسوعيين . فهؤلاء وأولئك قد تجاهلوا الهبة المتوجبة عليهم . وقد اضعفت اتهاماتهم المتبادلة كلا الطرفين . عاجلوا أدق عقائد الايمان في الساحات العامة ؛ فعمل ذلك أعمق الناس جهلاً على اصدار حكمه فيها . وقد طلب من السلطة المدنية أن تتدخل في الدين .

في كل مكان تقريباً ، دافعت الدولة مبدئياً عن الكنيسة . كان عمل مجلس التفتيش مستمراً في اسبانيا والبرتغال ، ولم ينقطع حبس احراق المهرطقة . وفي كل مكان ، كانت هنالك رقابة ، واضطرار التعرض لأحكام الأساقفة وجمعيات الأكليروس والعقوبات الحكومية . واتخذت تدابير شديدة أحياناً : فان ماري تيريز قد حظرت فهرس الكتب المحرمة لأن مجرد قراءة العناوين قد يثير الرغبة في قراءة الكتب التي كان الاولى ان لا يعرف بوجودها نفسه . وفي أوساط البروتستانت طرد غليوم الاول الأستاذ « وولف » من منبره التعليمي في « هال » . وحصلت اعتقالات واضطهادات وابعادات .

ولكن الملوك ما كانوا يحبوا في الكنيسة إلا ما كان من شأنه أن يخدم صرحهم . فهم وربطانهم ومرارهم ووزراؤهم قد انساقوا وراء الآراء الجديدة أيضاً . وغدت تصرفاتهم متناقضة . فان لويس الخامس عشر ، في فرنسا ، قد عين أميناً للكتابة « ماليزرب » العاطف على حرية أهل الادب . كما أن « داميلافيل » المفوض الاول في إدارة الضرائب ، كان يهرطرد مؤلفات فولتير المعادية للدين بخاتم المراقب العام ، وكان لماري - تيريز المشهورة بتقواها مستشار جلسيني وزوج ماسوي . وكانت مقاومة الدعاية المعادية للدين ضعيفة . فهبط تأثير الكنيسة . والدليل على ذلك الالغاء على مراحل الذي استهدف جيش البسايا ، أعني به جمعية اليسوعيين

المرتبطة بالبابا بندر طاعة خاص . فقد ألفت الجمعية في البرتغال (١٧٥٩) ، وفرنسا (١٧٦٤)
واسبانيا (١٧٦٧) ، وناپولي ، وبارم ، وأقصى اليسوعيون إلا عن فرنسا . وأرغم الملوك
الكاثوليك البابا على حل جمعية يسوع ، في ٢١ تموز ١٧٧٣ . فهتف فولتير : « لن يكون هنالك
كنيسة بعد مرور عشرين سنة » .

بيد أن الكنيسة استمرت . وقد استمرت ، في الدرجة الاولى ، بفضل هذه الجوقة من الكهنة
والراهبات الذين لم تستوقفهم الصعوبات الفكرية ، بل جاشت قلوبهم بتلك الهبة العظيمة للقريب
التي هي محبة الله فبدلوا أنفسهم بصمت في سبيل المرضى والمعزة والفقراء والاطفال . واستمرت
بفضل هؤلاء المرسلين الذين ذهبوا ، كما في الماضي ، يضحون بحياتهم لتخليص اخوتهم . واستمرت
بفضل تلك الالوف من العلمانيين الوريثين الذين بدلوا وسمهم ، دونما ضجة ، سكي يجيوا
دينهم ويكولوا كل يوم أعظم صدقاً وضميراً وفضيلة وتقانياً ومحبة . فكان لها معترفوها
وشهداؤها وقديسوها .

واستمرت كذلك بفضل العلمانيين أو الكنسيين الذين ردوا على الهجوم بهجوم معاكس .
أوضحوا أن الايمان بيسوع المسيح ليس مرتبطاً بأية فلسفة : فالقديس اغسطينوس قد جاهر
بالافلاطونية ، والقديس توما الاقويني فضل ارسطو ، وبوسويه كان كرتزيانيسا . وان العقيدة
المسيحية لا تتنافى والفلسفة الجديدة . وأن كهنة اتقياء كثيرين يقولون بفلسفة ديكارت ولوك
ويمجبون بها . انهم مسيحيون « مستثرون » جمعوا بين حقائق العلم والحقائق المسيحية .
فاليسوعي « بوفيه » ، الاستاذ في كلية لويس الكبير ، قد علم مذهب لوك . وحاول
الفرنسيون ورهبان القديس فيلبس النيري أن يدخلوا إلى البرتغال مذهب بيكون ونيوتون
ويمدودا فلامنتهم النقد والحكم الشخصي . وأعاد الأب « كونارسكي » النظر في برامج الجامعة
البولونية : فأوصى بدراسة بيكون وغسندي وديكارت ولوك . وحارب المدافعون عن العقائد
المسيحية بأسلحة الفلاسفة نفسها . العقل ؟ أحبته الكنيسة ابدأ ودائماً ؛ لا يجوز اقسام اليمين
استناداً الى قول المعلمين ؛ يجب أن ينبثق الايمان من الفحص العقلي ، ولا يجوز أن يكون نتيجة
الاكراه ؛ لا دين حقيقي سوى الدين الحر والاختياري . يقتضي من ثم التساهل واللين والاقناع .
العقل خير ادواتنا ولكنه محدود ؛ هنالك نطاق يمجزع عن بلوغه باعتراف الفلاسفة انفسهم .
لذلك أوحى الله لنا ببعض حقائق ما كنا لتتوصل اليها بطريقة أخرى . فالايان بالاسرار ليس
من ثم متعارضاً والعقل ؛ لا بل هو العقل ما يستحث على ذلك . النقد التاريخي ؟ انه يثبت
صدق الكتاب المقدس ، فان المعجزات ، التي يخبرها شهود عيان او شهود معاصرون يدل كل
شيء على صدقهم وسلامة طويتهم ، وتتناول وقائع مرتبطة بوقائع لاحقة ، ويسلم بها حتى
اولئك الذين تقضي مصلحتهم بنكرانها ، تردي طابعاً لا يقبل الجدل أو الاعتراض . لا ريب
في انها تناقض لواميس الطبيعة ، ولكن ليس من تناقض إلا بالنسبة لعقولنا الضعيفة ، لا بالنسبة
للادراك الالهي القادر على أن يرى الصلة بين كل الاشياء وان يصهر في وحدة واحدة ما هو

بالنسبة لنا تباعد واختلاف . المساواة في الحقوق ؟ المنفعة الاجتماعية ؟ هذا هو تعليم المسيح بالذات . إن بين البشر ، أبناء الله ، وإخوة المسيح ، مساواة طبيعية : وظائفهم غير متساوية ، أما هم فمتساوون . على أمرائهم أن لا يجعلوا نصب أعينهم سوى خير الدولة ، وأن يعملوا في كل شيء بمقتضى الشريعة الإلهية التي تنهى عن ارتكاب المنكر وقامر بالإسهام في خير الجميع ، وحتى الاعداء ، كما تأمر بأن نعمل لسوانا من البشر ما نتمنى أن يعملوه لنا . خير علاج للآلام الاجتماعية عمة البشر المتأججة المتبادلة . الدين محبة ، لا تطرف في التقوى . ويخلص الأب جينوفيزي ، الأستاذ في جامعة نابولي ، إلى القول : « أنا أعبد الإنجيل الذي جوهره المحبة . آه ما أعذبها هذه الكلمة ، المحبة . وكم تكون حياتنا سعيدة لو انها تسود وحدها » . المحبة ربطت بين ملايين البشر في الكنيسة بروابط لم تقو أية محاولة على تحطيمها .

نزلت بالكنائس البروتستانتية المختلفة ، لا سيما الكنيسة الانغليكانية والكنائس اللوثرية (المانيا الشمالية واسوج مثلاً) ، مصائب مماثلة لمصائب الكنيسة الكاثوليكية : العبودية للدولة ، نقص في عدد الأكليروس وتدن في مستوى تربيته (في بعض البلدان الكلفيدية كاسكتلندا وجنيف) ، وفتور في الايمان ، ونزعة عامة الى المذهب العقلي والدين الطبيعي والاخلاق « الطبيعة » . ولكن حدثت عند البروتستانت حركات تجديد أشد عنفاً ، أو أقله أكثر بروزاً منها عند الكاثوليك ، بسبب الاستقلال المتأصل في البروتستانتية : الكتاب هو المصدر الوحيد لكل حقيقة ؛ كل من يقرأه ، مستنيراً بالروح القدس ، يدركه إدراكاً تاماً ويحكم بالصواب فيما اذا كانت الكنيسة والدولة متفقتين وأياه ؛ وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تقرضا شيئاً يعارض الكتاب . هذا ما يفسر عدد ونشاط المنشقين الذين يريدون « تجديد » الحياة الدينية والعودة إلى جوهر البروتستانتية : عقيدة « الخلاص بالايمان » . ان الانسان ، الملطخ بالخطيئة الاصلية ، لا يخلص إلا بالايمان بالمسيح الذي يستتبع الحياة الداخلية بمحبة الاله الحي ، والصلاة والتأمل ، ومطابقة الأعمال للإنجيل . هذا ما قال به بروتستانت المانيا واسوج والدانمارك ؛ والأخوة المورافيون الذين انطلقت شيعتهم من بوهيميا وانتشرت في كافة أنحاء أوروبا الوسطى ، وحتى في البلدان الانكلو - ساكسونية ؛ والانجيليون الذين حصروا عملهم داخل الكنيسة الانغليكانية ؛ والميثوديون الانكليز الذين أسسهم « ويلي » في السنة ١٧٣٨ ، وانفصلوا نهائياً عن الكنيسة الانغليكانية في السنة ١٧٩١ ليؤلفوا كنيسة مستقلة تستميل مريديها بنفسها غير آخذة بعين الاعتبار سوى الدعوة الفردية ؛ والبريتانيون في انكاترا وامريكا الذين انتهوا الى القول بالاختيار منذ الازل للمجد السماوي . في البلدان الانكلو - ساكسونية الآخذة في التصنيع ، بشر هؤلاء المسيحيون الفياري العمال بهجة الحياة الداخلية واسلام الامر لله ، وأرباب المصانع بالأخوة المسيحية . فأوجدوا حركة انسانية طالبت ، على لسان « شارب » و « وليم فورس » ، بحل المسألة المعالية والغناء النخاسة والرق .

الرومنطيقون أقامت أشكال أخرى من أشكال الحس اعداء أقوياء في وجهه فلسفة
الانوار . انطوت هذه الفلسفة ، بفعل منطقها المتصلب ، ونقدتها الهدام ،
وعلم اخلاقها الحذر والمتبصر والمركز ابدأ ، في النتيجة ، الى اثنائية واعية ، على شيء من
الحصر والانكماش والجفاف ، انتهى عند كونديلاك وهلفتيوس ودولباك ، الى ما هو اشبه بهيكل
عظمي معرى من اللحم . ما كانت لتشبع حاجات القلب والحس والخيلة مع انها ، في الوقت
نفسه ، كانت تحركها وتطلق لها العنان . نادى الفلاسفة بأن الأهواء جيدة كلها وانها مثار كل
نشاط ، كما نادوا بشريعة اشباع الحس ، وحرية الفرد المطلقة في ان يحكم بنفسه ويسلك بموجب
أحكامه . زد على ذلك ان فقدان السياق في تفكيرهم كان تشجيعا للفرد على رفض تعاليمهم
وعلى سلوك الطريق الخاصة التي يطيب له سلوكها . تكلموا عن الطبيعة كما عن امرأة ، ولكنهم
لم يتفقوا فيما بينهم بصدها ؛ فتارة رأوا فيها اما جاهدة في سد حاجات ابنائها ؛ وأخرى
اميرة بعيدة تحتقر الافراد احتقاراً عميقاً ولا تهتم الا للنوع ؛ واخرى ابا هول لغزياً لا تهتم لشيء
ويعيش في الصمت حياته العادمة الرحمة . يضاف الى هذا من جهة ثانية ان كل ذلك لم يكن
سوى مجازات واستعارات اعتبرت تفسيرات اولية ، بينما هي فلسفة مدرسية في طور المخطاط .
أرادوا العمل بنواميس الطبيعة ، ولكن كل واحد منهم وجد لنفسه نواമيسه الخاصة . اذا
جمعت بين جميع هؤلاء الفلاسفة خطوط مشتركة كبرى تؤلف « فلسفة الانوار » ، فهذا لا يعني
انهم لا يناقضون بعضهم بعضاً في الكثير من النقاط ، وانهم لا يناقضون انفسهم : فهم متقاريون
ولكنهم متغاريون . لذلك نشأت حركة تستهدف نبذ كل هذه الاقوال وسلوك طرق أخرى
يرشد كلا من القائمين بها وحي فؤاده .

جان جاك روسو بين العديد من الكتبة الفرديين ، الخياليين والعاطفين ، المنساقين وراء
حسهم ، على شغفهم بالمعقل في الوقت نفسه ، المنطلقين من شاعرهم
ليستلنجوا منها ، بمنطق صارم ، مذهبا فلسفيا كاملا ، وليفرضوا على العالم هذا النتاج من صنع
ذاتهم الذي هو اعظم هؤلاء الرومنطيقين طرا ، ومعلم الرومنطيقين الذين جاؤوا من بعدهم ،
يبرز جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) . ابصر النور في جنيف ، وكان ابنا لساعاتي ؛
هام ابداء على وجهه وتطفل في أغلب الاحيان على العظام ، وتميز بخجله ، ومن ثم بكبريائه ،
وبحس منسقام جملة يجهد بالبكاء عند كل انطباع على بعض القوة ، وبمخيلة سمري ، فبلغ من
تألمه ابداء من علائقه بالبشر ولا سياً بالعظام ، ومن انظمة المجتمع ومصطلحاته وموجباته ، انه
سُرّ وحده ، بالمقابلة ، وفي وسط الطبيعة ، بالتمتع بذاته وتأثراته الحسية والروايات التي ما
انفلك عن بناها في مخيلته حيث خلق على هواء عوالم مصنوعة لاجله . في السنة ١٧٥٠ ، اهتدى
الى طريقه ، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته اكااديمية ديجون : « هل أسهم إحياء العلوم
والفنون في تنقية الاخلاق » . تشجع روسو بموافقة ديدرو وايماءاته ، فعالج الموضوع وقاز
بالجائزة في ٢٣ آب ١٧٥٠ . دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة : « لقد فسدت نفوسنا بمقدار

تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال . « وناقض نفسه : « العلوم والفنون مدينة بنشأتها الى نقائصنا . » على العلماء الحقيقيين ان يديروا الدولة . ولكن لا شأن لذلك : فالعلوم والفنون تضيع الوقت ، وتختلج بالبذخ ، وتفسد الذوق ، وتقتل الفضائل المسكوية ؛ والطباعة آفة ؛ والفلاسفة مخرقون على الجماهير الساذجة . نشر هذا الهجوم على المعابد « نوعاً من الرعب » . تحدث عنه فولتير ودالمبير وملك بولونيا ستانسلاس لكزنسكي . ولا غرو في ذلك اذ ان معالج هذه الآراء المبتذلة رجل متشبع من التوراة وملتزم على كبار منطقيي القرن السابع عشر ، ديكارث وبور - رويال وماالبرانش ، تحركه كافة الآلام التي تعرض لها وكافة الاحقاد المتكدسة في نفسه . وهذا ما جعل جلته عادمة السهولة ، خطابية ، مؤثرة في القلوب ، قوية ، ايقاعية ، تعارض اسلوب العصر الموجز الظريف ، وتؤثر وتقرض نفسها . كرس روسو كاتباً . ومنذ ذلك الحين انفصل تدريجياً عن الفلاسفة .

في السنة ١٧٥٤ نشر كتابه « خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر » . رسم فيها بدوره ، على غرار الكثيرين من اهل زمانه ، لوحة الممجي الصالح في حالة الطبيعة ، حالة النعمة : عضلي ورشيق ، متوحّد ، فطري ، سعيد كل السعادة . « حالة التفكير حالة تناقض الطبيعة ... الانسان الذي يتأمل حيوان مفسد » . ولكن الانسان قدرة مشرومة على التحسن والتكامل . زد على ذلك ان سنوات المحول وفصول الامطار الطويلة ، وفصول الصيف المحرقة ، والفيضانات والزلازل ترغمه على مشاركة بشر آخرين ليؤلف معهم فرق قنص ثم قبائل رعاة . في الجمعيات يتولد الحسد والشقاق والصلف والاحنقار . يؤدي الاتفاق الى اكتشاف النار ، شرط الزراعة . توجب على البشر ، بعد ان اصبحوا فلاحين ، ان يتقاسموا الاراضي ويقروا التملك الفردي ، ومنذ ذلك الحين ، فقد كل شيء ، وارتكبت الخطيئة الأصلية ، وسلك البشر طريق « قحول النوع » . عن التملك نشأ عدم المساواة ، والمنافسة ، والحصومة ، والكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والرياء ، وصراع الطبقات ، والحروب . بات لزاماً اختيار رئيس ؛ فعدا الرئيس طاغية . نزلت بالبرية كافة المصائب . وهكذا يتضح ان الخطبة حل لمسألة الشر . « البشر سيئو الخلق ... الا ان الانسان صالح بطبيعته ... فماذا الذي دفع به الى هذا الدرك من الفساد ان لم يكن التبدلات التي طرأت على بليته والنجاحات التي حقةها والمعارف التي حصلها ؟ » عرفت « الخطبة » اوسع انتشار عرفته مؤلفات روسو باستثناء « هيلوز الجديدة » . عرضت في المكتبات اكثر من « العقد الاجتماعي » . واسهمت اكثر من اي مؤلف آخر في نشر عبادة المساواة .

حاول روسو آنذاك الاهداء الى « حالة براءة وطهارة في الفساد الاجتماعي » .

لا يستطيع الانسان من ثم الاستغناء عن عضد الانسان ؛ لا يستطيع العودة الى الوراء . والحال ، الحالة الاجتماعية ليست طبيعية ، وهي ترتكز الى اصطلاحات . فيجب والحالة هذه تعيين شكل اصطلاحي يكون من شأنه الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية وفوائد حالة الطبيعة . هذا هو موضوع « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) : ايجاد شكل شراكة

يحفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة ؛ وموضوع « اميل » (١٧٦٢) :
ايجاد طريقة تربوية تجعل الانسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعة وعلى براءة الحالة
الطبيعية وفضائلها .

سيعمد مذهب اميل الى عزله عن المجتمع لتربيته تربية فضلى ، ولجعله يعيش بحسب الطبيعة ،
ولاستخدام استعداده للبحث عما هو مستطاب وتجنب كل شيء آخر . ستكون التربية من ثم
تربية سلبية . يجب الانعمّ التلميذ شيئاً ، بل ان نسله مباشرة الى درس الاشياء كي يتعلم على
حسابه ما يجب السعي لنيله وما يجب تجنبه . اذا كسر لوح زجاج النافذة في غرفته ، فليتألم من
البرد . لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ دعه وشأنه ، اذ انه سيمثل البطالة . لا ريب في ان الاشياء قد
تعلمه ما قد لا زيده ، او لا توفر له الدروس المتوخاة . علينا ان نثيرها او نبتكرها :
كالظواهر باننا ضلنا الطريق حتى يدرك اميل فائدة علم الفلك ؛ او تدبير مؤامرة بالاتفاق مع
سكان القرية المجاورة حتى تكررّه الكلمة الخدشة الآذان الخروج منفرداً . اذا كان سريع
الغضب ، يقال له « كلا » دون اي تفسير . وهكذا اذا ما تربى اميل في جو من الصدق
والحرية مختلف كل الاختلاف عن جو التربية المألوفة ، فانه سيحافظ على الفضائل المطبوعة
في الانساب .

حين يبلغ اميل سن العشرين ، يكشف له القناع عن حقائق الدين . هذه هي « المجاهرة
بحقائق الدين » التي يولي روسو ، البروتستانتي المرتد الى الكاثوليكية ، والساقط ثانية في
الهرطقة ، امرها الى كاهن كاثوليكي من مقاطعة سافوا . يتردد بين آراء الفلاسفة المتناقضة فيقرر
الاسترشاد بـ « النور الداخلي » ، مصمماً على التسليم بكل الحقائق « التي لن تستطيع » في
صدق قلبي ، رفض الموافقة عليها . القلب الصادق والمراطف الطاهرة هي شرط الحقيقة قبل
العقل . يرى نفسه يفكر ، بتصورات ذهنية يولدها عقله بمناسبة التأثيرات الحسية ؛ دون ان
تصدر عن التأثيرات الحسية ؛ له قدرة على الحكم سابقة للتأثيرات الحسية ، ليس هو « كأننا
حسياً وسلبياً ، بل كأننا فاعلاً وعاقلاً » ، على نقيض لوك ومدرسته . كل ما حوله مادة جامدة
مع انها خاضعة لحركة منتظمة . ولكن « اذا كانت المادة المتحركة تثبت لي وجود ارادة ،
فان المادة المتحركة وفاقاً لبعض النواميس تثبت لي وجود عقل » . يتوصل من ثم الى العقل
الاسمي ، الله . الانسان ، العاقل ، المختلف اختلافاً عميقاً عن الحيوانات ، هو ملك الارض ، مهما
قال الفلاسفة في ذلك . ولكن الشر موجود . الله براء منه . اعطى الانسان سمو الكمال ،
الحرية . الانسان الحر يوجد التشويش في الطبيعة ويخلق الشر . ليكون عادلاً فيغدو سعيماً .
الحاجة الى التكفير عن الظلمات دليل على خلود النفس وعلى العقوبات والمكافآت بعد الموت .
قواعد الاخلاق مدونة في اعماق القلب : « كل ما اشعر به خيراً يكون خيراً ، وكل ما اشعر
به شراً يكون شراً ؛ الضمير خير حلال للمشاكل ... العقل يحددنا غالباً ... ولكن الضمير
لا يحدد ابداً ... فهو من ثم ، في اعماق نفوسنا ، مبدأ مطبوع ، للعدل والفضيلة .

ميزة الانسان الفريدة في الطبيعة ، والتصورات الذهنية المطبوعة ، والانكماش على النفس لاكتشاف الحقيقة في ذاتنا ، في صمت الالهواء ، بعيداً عن العالم ، هذا هو الرأي المعاكس لفلسفة الانوار ، وكان من شأنه ان يصبح انتقام ديكارث الكامل على لوك لو ارتكز كل شيء الى العقل لا الى العاطفة .

سيعمد البشر المحسّون والصالحون الى التشارك ، الى وضع « عقد اجتماعي » فيما بينهم ، بحيث يحافظون على حريتهم . « الانسان مولود حراً وهو في كل مكان موثق بالقيود ... التخلي عن الحرية هو التخلي عن صفة الانسان ، عن حقوق الانسانية ، وحتى عن واجباتها ... ان مثل هذا التخلي يتعارض وطبيعة الانسان » . السبيل الى التوفيق بين السلطة والحرية هو تنازل كل شريك عن كافة حقوقه للجماعة . فلما كان كل انسان يهب نفسه الى المجموع ، فهو لا يهب نفسه لأحد ، ولما كان ليس من شريك تتمتع حياله بالحقوق نفسها التي تتخلى له عنها ، فإننا نكسب ما يعادل كل ما نخسره ، لا بل نكسب مزيداً من القوة للمحافظة على ما لنا . « الارادة العامة تصنع القانون ، والارادة العامة ليست ارادة انسان ، ولا ارادة جمعية من المثلين ؛ ليست مجموع الارادات الخاصة ولا قرار الاكثورية . في كل فرد ارادة خاصة تحركها الغرائز والاهواء الظرفية ؛ و ارادة عميقة هي « عمل بحث من اعمال الادراك الذي يرشد في صمت الالهواء الى ما يستطيع الانسان فرضه على نظيره والى ما يحق لنظيره ان يفرضه عليه » . هذه الارادة متائلة عند كل البشر ، مزهمة عن الضلال ؛ انها الارادة العامة المتبثقة عن الضمير الفردي ، المستخلصة بالهدوء والتفكير في العزلة بعيداً عن الاحزاب والتكتلات والهيئات . لا حاجة لاية جمعية ، أو نقابة ، أو حزب ، بل لهاباء من الافراد ، « وإلا لاستطعنا القول ان ليس هناك من بعد مقارعون بعدد البشر ، بل بعدد الجمعيات فقط » .

ان القانون ، وهو التعبير عن الارادة العامة ، كلي القدرة . الدولة ، حيال اعضائها ، سيدة بملكاتهم بفعل العقد الاجتماعي ... الملاكون يعتبرون مؤمنين على الممتلكات العامة . الدولة تحكم في مسا يجب ان تتركه من حرية لكل فرد ؛ باستطاعتها فرض دين مدني ، ضروري للمجتمع ، وابعاد من لا يعتنقه ، والحكم بالموت على من يعتنقه « ويسلك كمن لا يدين به » . وهذا يعني فتح الباب على مصراعيه امام الاستبداد .

ولما كان يقتضي عملياً ، وعلى الرغم من كل شيء ، اصدار قرار بأكثورية الاصوات ، فمن شأن العقد الاجتماعي ان يفضي الى طفيان الاكثورية على الاقلية .

حكم روسو بنفسه على الاهمية العملية التي انطوى عليها عمله في كتبه ومراسلاته . فنصح بصراحة الى احدى السيدات بأن ترسل الى مدرسة داخلية ابناً لها غير قابل للتأديب . وكتب الى احد الكهنة : « اذا كان صحيحاً انك تبليت المخطط الذي حاولت رسمه في « اميل » ، فاني معجب بشجاعتك » . وكتب عن العقد الاجتماعي « انه لا يمكن ان يوافق سوى دول صغيرة

جداً ، كجنيف ، وبرن ، وكورسكا . وكتب في مكان آخر : « ان حكماً على مثل هذا الكمال لا يلائم البشر . وفي رسالة الى ميراو ، شبه المسألة التي حاول حلها « بمسألة تربية الدائرة في الهندسة » .

إلا أن الجمهور لم يعر اهتمامه التحفظات التي جهل معظمها على كل حال . فغدا روسو إلهاً . وبدل العادات والاخلاق . فاستحضرت السيدات الجميلات اطفالهن إلى مقصوراتهن في الاوبرا لإرضاعهم على مرأى الجماهير وفي وسط عاصفة من التصفيق ، لان روسو أوصى بإرضاع الامهات لأطفالهن . وجمعت الغيتات نباتات الحقول لدرسها لان روسو كان يهوى علم النبات .

استوحى «مورلتي» الحالة الفكرية نفسها، وطلب في « دستور الطبيعة » (١٧٥٥) الرجوع إلى الطبيعة التي تعلم الانسان مشاعية الممتلكات . التملك مصدر كل الجرائم . والشيعوية ستكون عودة إلى العصر الذهبي . وكتب الاب « مابلي » ، تلميذ روسو ، في كتابه ، « التشريع » ، ما يلي : « اتمعون ما هو مصدر كافة المصائب التي تنزل بالبشرية ؟ انه التملك » . ونصح « بهذه المشاعية المباركة في الممتلكات » ، اي بشيعوية زراعية من شأنها القضاء على الاهواء الانانية وإشعاع الفرائض الاجتماعية . وحاول « مرسيه » ، في روايته التي تتناول المستقبل ، « باريس في السنة ٢٤٤٠ » ، الحد من التفاوت بالزواجات الاكراهية بين الاغنياء والفقراء ، وروج « بريسو دي وارفيل » ، الذي سيصبح عضواً في « الجمعية التشريعية » و « جمعية الميثاق » ، الصيغة التي طلع بها « برودون » : « التملك هو السرقة » .

بيد ان أهم تلامذة روسو شأنًا هو « كانت » . فان « مجاهرة نائب السافوا « كانت » بمقائق الدين » قد أوحى له ، بنسبة وحي « هيوم » تقريباً ، بـ « نقد العقل البحت » . كما أوحى له ايضاً بكتابه « نقد العقل العملي » ، واخلاقه ، ودينه ، وسياسته . حلل كانت الاخلاق للارتقاء إلى مبدئها ، بحسب طريقة نيوتون ، فوجد أنها تملص كلها بقيمة مطلقة لـ « حسن النية » . « النية الحسنة » هي تصميم على القيام بالواجب تابع من أعمق اعماق ذاتنا ، اشبه بنزعة من طبيعتنا الداخلية الخفية ، او مبدأ مطبوع ، كما قال بذلك روسو . يكون الواجب متمماً حين يؤتى العمل بتصميم على القيام بالواجب وحين لحكم في ضميرنا اننا قننا به بحكم الواجب . لا شأن لطبيعة العمل ، وقد نخطيء بالقيام به ، فقيمة العمل لا تتولد من المعرفة بل من الشهور المتكون فينا بقيمته ، ومن الحكم الذي تصدره عليه : فقتل والد عجوز ، بحكم الواجب ، في الأم والقلق الشديد ؛ للاستغناء عن شخص لا يجدي نفعاً إلا بان مجاعة ، حمل خاطيء ، ولكنه عمل جيد ادبياً ؛ ومساعدة انسان بالنس لضمانيه جميله نتيجة للأناية : ان العمل ، المتفق وعلم الاخلاق ، ليس جيداً ادبياً .

الواجب شيء مطلق لا يرتبط بالظروف : « اعمل بحسب مبدأ يمكنك معه ان تريد في الوقت نفسه ان يصبح سنة شاملة » . هذا هو الامر الجازم ، الناموس الاخلاقي . يكتشف الناموس

الاخلاقي الذي يستخلص المطلق والشامل من كل بواعث الحس . الشعور يبعث التحريك ، يولد « النية الحسنة » ؛ ولكن العقل هو ما يرشد الى الطريق . العقل هو القوة التي تجعل الانسان انساناً . على هذا الاخير من ثم ان يحترم العقل والحرية ، في نفسه وعند الآخرين: « اعمل بحيث تستخدم الانسانية ابدأ في شخصك كما في شخص الغير ، كغاية لا كوسيلة فقط » .

ولكن الانسان متجمل بحس يجب إشباعه ، حتى يصبح هو سعيداً . ولكنه غالباً ما يصبح تعسفاً بخضوعه للقانون الاخلاقي . فمن المرجح من ثم ان له نفساً خالدة وان هنالك الهماً يمنحه السمادة بحسب استحقاقاته . الله هو المشترع الواجب احترامه ؛ العمل الاخلاقي هو في النتيجة العمل الذي يرضي الله ؛ الدين هو التصميم الثابت على تميم واجباتنا ارضاءً لله . الله هو المبدأ الاساسي الذي يسلم به العقل العملي بدون برهان . الكنيسة هي مجموع الناس الحسني النية . الكنائس هي محاولات مقارنة هذه الكنيسة الشاملة .

على القانون ان يسعى جهده لإرضاء حاجات الانسان وميزتي الحرية والعقل فيه . وعليه ان يحترم المبادئ : « اعمل بحيث تتخذ الانسانية هدفاً لا وسيلة » ؛ و « اعمل خارجياً بحيث يتاح لاستخدام ارادتك الحر ان لا يتنافى ووجود حرية كل فرد بحسب سنة عامة » . هذه المبادئ تضمن للدولة ، التي هي لسان حال القانون ، السلطة القسرية على الفرد ، وحق الفرد في مقاومة الدولة ، وحق التملك الذي يعطي كل فرد نطاق ممارسة حريته . كما انها تستلزم النظام الجمهوري . عندما تتبنى كافة البلدان الدستور الجمهوري ، يصبح باستطاعتها تأسيس جمعية أمم ، وإقرار حق دولي ، وتأمين السلم الدائم .

عارض « كانت » من ثم مونتسكيو والفلاسفة بفكرة المبادئ المطلقة ، المستقلة عن الزمان والامكنة والظروف ، كما عارض الفلاسفة بعلمه الاخلاقي النابع من القلب المستنير بالعقل ، لا من الحواس المرشدة بالعقل .

كان شارحو الكتاب المقدس من الالمان قد عادوا مرة اخرى الى درس سينوزا . كانت ألوهية الكون التي طلع بها ، اي قوله باله يتميز بصيرورة دائمة ويظهر في كل الطبيعة ، مصدر وحي لـ « لسنغ » و « هردر » . ارتأى لسنغ ان ما يدعو البشر حقيقة ليس سوى تعاقب اشكال عابرة لحقيقة تكتشف اثناء تقدمها . وارتأى هردر ان حياتنا نبض في حياة الكل الاعظم ؛ وان تاريخ البشرية هو تعاقب الرسوم الايجازية التي تقترب بها الطبيعة اقتراباً مستمراً ، يتحول تدريجي ، من المثل الاكمل . لسنا ندرك هذا العمل بواسطة العقل ، بل بحس ذاتي مباشر . وهكذا فان الفلاسفة الذين اعتقدوا بانهم توصلوا بواسطة العقل الى حقيقة نهائية قد تعرضوا هنا ايضاً لهجمات رأي سيكون له اعظم أثر في العهد اللاحق .

تأسست في هذه الاثناء ماسونية من المهتمين والصوفيين ، معادية للفلسفة الانسيكلوبيدية التي رجتها بالسباب والشتم . انطلقت موجة صوفية من المانيا وسويسرا واسوج وبلغت شرقي فرنسا وباريس . استوحى هؤلاء الماسونيون العقيدة المسيحية وبحثوا ، بمزلة عن كل كنيسة ، عن

اصلاح نفوسهم بالاتصال بما هو الهى كي يحبوا بحسب الانجيل . ولكنهم اهتموا في مناجاة الارواح ، والتنويم المغناطيسي ، والكيمياء ، والسحر ، وهي كلها ممارسات انفت منها الكنائس المسيحية . انبياءهم هم الاسوجي « سويدنبرغ » الذي تاجى الموتى واكتشف « الاسرار الساهرة » و « عجائب السهـ و جهنم » ، « والسويسري » لافاتير ، الذي اعتقد بإمكان حصوله بالايان على قدرة فائقة الطيعة ، واتصاله بالله بواسطة التنويم المغناطيسي ، والذي غدا مسكنه في زوربخ ، في السنة ١٧٨٩ ، مزاراً اوروبياً ، والفرنسي « سان مسارتين » ، « الفيلسوف المجهول » ، المادي للم لان الانسان لا يستطيع اكتشاف شيء ، بل الاستذكار فقط ، وعليه انبه يستعمل مجيء ملك المسيح بالتأمل والصلاة (الاخطاء والحقيقة ، ١٧٧٥) . تأسست جمعيات صوفية في المانيا ، جمعية « التقليد التام » التي استألت الامراء والاميرات وكبار الاسياد ، وجمعية « وردة الصليب » التي كان ملك بروسيا الجديد ، « فردريك - غليوم الثاني » عضواً من اعضائها ، والتي اراد أحد مشايخها ، وهو طبيب عام في الجيش البروسي ، التقاط التيارك بغية تكرير بلسم هذه المادة الارلية . وتأسست محافل صوفية في « ليون » ، « وشمبيري » ، وستراسبورغ ، وغرينوبل . وكان كل هؤلاء الصوفيين على اتصال فيما بينهم .

كان هناك إلى جوانب الرسل الممخرفون الذين احرزوا نجاحاً باريسياً مدهشاً . لمخص بالذكر منهم « كالموستر » الذي استدعى الارواح واسس في ليون محفل « الحكمة الطسافرة » حيث كان التماس ينخطفون امام موسى رابليما الذين يظهران لهم ، والطبيب الفييني « مسمر » الذي ادعى شفاه كافة الامراض « برعسانه الخشي السحري » . انتشر الذومون المغناطيسيون ، والمخظون الثامون ، والمهمون ، بأعداد كبيرة في كل مكان . وفي الضباب الفكري استسلم بعض الافراد الى نزعات غامضة . فظن كثيرون بانهم امام ثورة تشق الطريق التي تؤدي الى العمام الثاني ، ولن تلبث ان تقوم بتجديد البشرية .

تحت ستار محاولة في علم الاجتماع ، هي « روح الشرائع » ، حارب مونتسكيو الجمهوريون محاولات الاصلاح . حاول ان يثبت ان الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقاً لنواميس طبيعية حقيقية ، بظروف الاقليم ، والتربة ، ونوع الحياة ، وطبع الشعوب ، واخلاقها ، ودينها ، الخ . فالتخذ من ذلك حجة للتمريض بانه لا يجوز مس الدستور الفرنسي ، وبان هذا الدستور يعمل من المجالس التمثيلية فياصل شرائع الملكة ومعاوني الملك . عظمم دستوراً يتدحى من دستور الانكليز تقام بموجبيه ، بين السلطة التنفيذية التي يتولاها الملك والسلطة التشريعية التي يدارسها منقو الأمة ، سلطة قضائية يتولاها القضاة وتكون حكماً كحارس للدستور . ودافع عن المذهب الذي عاد اليه ، في السنة ١٧٣٢ ، الكونت « دي بولنفيليه » في كتابه « محاولة في طبعة الاشراف » : الطبقات الاجتماعية الفرنسية اجنساس بشرية ، الاشراف ينحدرون من الفاتحين الفرنجة ، وغانمة الشعب من الغالين المستعبدين ، الاشراف يمتلكون فرنسا بموجب حق الفتيح ، في البدء كانت الملكية انتخابية ومحدودة ، وكان على الملك ان يطلبوا رأي فدايديهم ،

ثم اغتصبوا امتيازات الاسباد . وطالب مونتسكيو بأن يكون لطبقة الاشراف مزيد من الشأن والأهمية لأنها من صميم الملكية . فكان كتابه ، حتى السنة ١٧٨٩ ، المجمل المعارضة الارستوقراطية الرجعية .

فيتضح من ثم أن فلسفة الانوار ، التي حوربت في كل مكان ، تقهقرت تقهقراً تدريجياً في اواخر القرن . كان العالم على مشارف عصر جديد .

الأنوار والنصينة

بلغ تقدم التقنية في أوروبا ما يميز لنا الكلام عن ثورة حقيقية . تفوقت أوروبا بالمعدات والتنظيم على كافة أنحاء العالم الأخرى . وتحققت الاكتشافات في اغلب الأحيان على يد حرفيين متهنين أو هواة استعنتهم الحاجات الاجتماعية ، أو فقدان التوازن الاقتصادي ، أو الأزمات على اختلاف أنواعها . لم تستخدم مصطلحات العلم ولم يدرس العلماء المسائل التطبيقية الا تدريجياً : فالبحرية ثم الجيش في النصف الأول من القرن ، والصناعة ، في النصف الثاني منه ، استفادت من الخبرة العلمية ، وفي أواخر القرن بدأ كمنّا ان تصبح التقنية بمجوع تطبيقات العلم على الحياة العملية .

الا ان العلم والروح العلمية لم يبقا قط عن الاكتشافات : فأقل مخترعي الآلات تعاملت قد استخدم بعض الحساب والهندسة ، والمبادئ الأولية لعلم الميكانيكيات ، واعتمد في عمله ، على علم أو غير علم منه ، طرائق الحكم الشخصي والملاحظة والاختبار ، كما اعتمد مذهب الآلية الكونية . ويمكن القول بصورة خاصة ، نظراً الى الأزمات التي حدثت في جميع أنحاء العالم ، ان مصدر سخافة الاختراعات هو روح القرن بأكملها التي لولف الروح العلمية جزءاً منها : ايمان بالسعادة الواجب بلوغها على الأرض بارتضاء الحواس ، بالتقدم المادي ، الذي نسي عقولاً خيرة كثيرة عن النظريات اللاهوتية والتأملات الدينية ووجهها شطرها هو عملي ومفيد ؛ ويقين كرتزياني ، انتشر واستحدث الجمود الفردية ، بان كل شخص يستطيع ، بمجرد العقل الرشيد ، اكتشاف ما فات «الجدود الفلاظ» ، وان من لم يتعلم في الكليات والجامعات يحتفظ بعقل سليم لان هذا العقل لا يكون معوجاً ب «آراء المدرسة» ، ولان باستطاعة الانسان تحقيق اكتشافات فضلى بقواه الخاصة وحدها ، وسأذكر من الكتب ، ولا سيما القديمة منها ، وميل الى التفحص عن الأشياء نفسها ، ونزعة أمتها الكرتزيانية والدروس الكلاسيكية الى الارتقاء في كل شيء عن الوقائع الى المبادئ البدئية واستخلاص النتائج الواجبة منها وفقاً لترتيب صارم يتحقق في الوقائع . وقد لمبت الحاجة الى الوضوح والترتيب دوراً هاماً في بعض النجاحات التقنية . فباشمئزاز ، وأي شمئزاز ، فضع المدغمي «ديكودراي» الفوضى القديمة في معدات المدفعية ، «ذاك الخرق المرط الذي لم يمكن النظر اليه الا كما الى نتيجة همجية آباءنا القديمة» ؛ وباحتقار ، وأي احتقار

مستهنزيء ، وصف «سورلافيل» الفوضى القديمة في كتائب الفرسان : « ان مثل هذه البلبلة الشبه بفوضى البرابرة » . فتحقق معظم النجاحات التقنية بفضل انتشار الروح الجديدة .

بيد ان الانطلاقة الاقتصادية ، على نقيض العلم ، قد تركت اعظم اثر في التقنية . وان لنا في انكلترا ، حيث تحققت اهم الاكتشافات التقنية ، خير مثل على ذلك . توسعت التجارة الانكليزية في ما وراء البحار توسعاً كبيراً بعد الانتصارات الانكليزية ، اي بعد معاهدتي اوترخت (١٧١٣) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . قفزت الاستيرادات الانكليزية من ٦ ملايين جنيه سترييني في السنة ١٧١٥ الى ١٩ مليوناً في السنة ١٧٩٠ ، كما قفزت التصديرات من ٧ ملايين جنيه سترييني ونصف المليون في السنة ١٧١٥ الى ٢٠ مليوناً في السنة ١٧٩٠ . والحال ان ارباح هذه التجارة هي ما يوفر رؤوس الاموال للصناعة . فصناعات الحديد الاولى في جنوبي ولاية «وايلز» هي عمل تجار الشاي وتجار آخريين من بريستول ولندن . ومعظم التجهيز الصناعي في وادي «كلايد» عمل تجار التبغ في «غلاسكو» . وانطلقت التجارة الداخلية بدورها انطلاقة كبرى ، بفضل انشاء طرق حداثت عليها ثورة صامتة ، هي الاستماضة عن حيوانات النقل بعربات تزيد من حجم النقلات وسرعتها . وافادت التجارة كذلك من فتح الاقنية الذي خفض سعر الفحم المسلم في «منشستر» الى نصفه في السنة ١٧٦١ . هي الاقنية ما اباح استثمار المناجم والمهاجر والاحراج . وعلى ضفافها قامت الصناعات وتحققت اعظم التطورات في التقنية الصناعية الانكليزية ، عند «ماثيو بولتون» صانع آلات «وات» البخارية ، وعند «صموئيل ووكر» ، متعاطي صناعة استخراج المعادن وتقنياتها ومعالجتها ومجهز الجنود بالاعتدة ، وعند «ودجود» الخراف العبقري . ولكن ما ترك اثرأ مباركاً في التقنية هو كذلك توظيف الصناعيين لارباحهم في مشاريعهم ، وانخفاض معدل الفائدة الذي هبط من ٥ ٪ في السنة ١٧١٤ الى ٢٫٥ ٪ في السنة ١٧٥٧ ، فادى ذلك بالنتيجة الى مضاعفة قيمة رؤوس الاموال المستقرة ، وتزايد عدد السكان الذي ارتفع ، في انكلترا وولاية وايلز ، من ٥ ملايين ونصف المليون في السنة ١٧٠٠ الى ٩ ملايين في السنة ١٨٠١ ، وضآلة عدد العمال الكفاء التي دفعت الى اختراع الآلات .

الفصل الأول

التقنية العسكرية

يجب ان تأتي التقنية العسكرية في الدرجة الاولى لان المعاصرين أعاروها اهتمامهم قبل كافة التقنيات الأخرى . اجل كان هنالك ، في كافة أنحاء أوروبا ، اشراف يتصلون باشراف القرون الوسطى من المسكرين وينظرون الى الهندية كما الى الحرفة النبيلة بالذات . ولكن هذا الالتفات كان تمييزاً عن حاجة دائمة أيضاً : اذ ان الدولة ، بدون جيش قوي ، لا تلبث ان تزول من الوجود ، الفن العسكري يستطيع وحده ان يؤمن للشعوب كيانها واستقلالها وأمنها ، اي المنافع التي لا مسافع بدونها ؟ الحربه الاولى هي حرية الدولة ؟ اذا تعرضت هذه الاخيرة للاخطار ، لا تكون حركات المواطنين سوى وهم باطل .

ان تاريخ التقنية العسكرية في القرن الثامن عشر هو تاريخ و التقدّمات المتتالية الحربية في حقل فن الحرب في سبيل استخدام البندقية والمدفعية الصغيلة خبير استخدام . اخترعت البندقية في القرن السابق . استخدمت في ألمانيا منذ السنة ١٦٨٩ وفرض استخدامها في فرنسا منذ السنة ١٦٩٩ ، فحلت نهائياً محل البندقية القديمة ذات الفتيلة في السنة ١٧١٥ ، واخفت عن فرق حاملي الحراب بفضل الحريسة ذات « ماسورة الرصاص » المتعممة لها . لم تكن ابعاد رمي من البندقية القديمة : ٣٠٠ خطوة كحد أقصى و ١٨٠ خطوة لتأتي بلقانة . ولكنها كانت اخف واسهل استعمالاً . وبفضل طريقة اشعال النار فيها بواسطة زناد مزود بمسواة ، لم تشكل خطراً على البحارين بل اناحت للجنود اطلاق النار مقتربين بعضهم من بعض ، يضاف الى ذلك انها كانت اسرع حشواً . فمنذ السنة ١٧١٥ ، بات باستطاعة الجندي اطلاق النار مرة كل دقيقة . وفي السنة ١٧٤٠ اناح اعتماد القضيبي الحديدي ، وهو اصعب من القضيبي الحشبي القديم ، حشو البندقية بالبارود والرصاص وما يفصل بينهما دون احتياطات كبرى ، كما اناح توفيراً في الوقت ، فانتقلت سرعة اطلاق النار الى طلقتين او ثلاث في الدقيقة . وفي السنة ١٧٤١ ، تمكن الجندي ، بواسطة الخرطوشة ، من ان يطلق ثلاث طلقات كل دقيقة في اي وقت من الاوقات تقريباً .

المدفع الصغير

كانت المدفعية مؤلفة من مدافع برونزية ، صغيلة من الداخل ، مغطى من فوهتها ببيارات ٤ و ٨ و ١٢ و ١٦ و ٢٤ و ٣٣ لبرة لاطلاق

القذائف بخط مستقيم ، ومن مدافع قصيرة للاطلاق المنحني ، الضروري ضد الجيوش المتمركزة وراء المتاريس او في الخنادق . وكانت تقذف بمدل ثلاث مرات في الدقيقة للمدافع من عيار ٤ لبرات ، او مرة او اثنتين للمدافع الاخرى ، قذائف حديدية كروية او مستطيلة ، ملأى او فارغة ، وعلباً من التنك تتمزق في الهواء وتطر على العدو القطع الحديدية المحشوة بها . تراوح مرمى القذيفة بين ٦٠٠ و ١٨٠٠ متر ، والقطع الحديدية بين ١٥٠ و ٦٠٠ متر . كانت القذيفة من عيار ٤ لبرات تخترق بين ٦ و ٨ اشخاص على مسافة ٣٠٠ خطوة . وزاد المدفعيون من فعالية القذيفة يجعلها تثب بعد اصطدامها بالارض بفضل احنا المدايع احنا معيناً ؛ وكان من شأن القذيفة ان تثب خمس او ست وثبات بين صفوف المشاة وتحدث خسائر فادحة . ولكن هذه المدفعية كانت عادمة الضبط جداً ؛ فالانحراف عن الهدف كان يبلغ سدس المسافة . وكان ممكناً ، بحسب البيارات والمسافات ، ان تسقط القذيفة بين ٥٠ و ١٥٠ متراً امام او وراء الهدف . وكانت المدفعية بصورة خاصة ثقيلة جداً ؛ فالمدفع من عيار ٤ لبرات كان يزن ٦٥٠ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٣٣ لبرة ٣٠٨٥ كيلوغراماً . وكان يقتضي لجرها حيوانات مقرونة قوية . وبعد ان توزع المدفعية على مراكزها ، المدايع الخفيفة والمتوسطة صفاً واحداً في الجبهة ، والمدفعية الثقيلة مجموعة في كلا الجانبين لتشبيك نيرانها امام الجبهة ، لا تتحرك الا في ظروف استثنائية نادرة . لم يكن باستطاعتها مرافقة المشاة في حركتهم الاندفاعية الى الامام ، وكانت تتوقف عن مساندتهم حين تصبح الحاجة الى نيرانها ماسة جداً ؛ كما لم يكن باستطاعتها اللحاق بهم في حال تراجعهم ، فيستولي عليها العدو دونما صعوبة .

اصبح الجندي الراجل ، منذ ذاك التاريخ ، سيد ساحة المعركة :

الحرب
في السنة ١٧١٥

وصاصته تخترق آلات الوقاية المدنية وترغم الفارس على البقاء بعيداً

ريثاً يتساح للجيش مواجهة هجوم جانبي مفاجيء ؛ يتمتع بسرعة

الحركة التي لا تتوفر لمدفعية يجدها ثقل وزنها في الارض ؛ الخيالة والمدفعيون لا يعملون الا لأجل المشاة : انهم معاونهم . فرق المشاة سيدة المارك . كان من شأن البندقية ، منذ السنة ١٧١٥ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، ان تقلب فن الحرب رأساً على عقب . وانما توجب مرور قرن كامل تقريباً للاستفادة من نتائج الاختراع الجديد ، وهو نابليون بونابرت فقط من اوصل التطور البادى الى كماله .

في السنة ١٧١٥ ، كان الجيش ينظم صفوفاً في ساحة الوضى لمباركة الاعداء بالاسلحة النارية . لفت انتباه القادة العسكريين سرعة اطلاق النار بالبندقية . فوضعوا نصب اعينهم اقامة ما يشبه سباطاً من الرصاص ، امام المشاة ، لايقاف العدو في حالة الدفاع ، ولايقاع الاختلال في نيرانه وإتاحة التقدم ، في حالة الهجوم . كان على المشاة ، عند تلقي الامر بذلك ، ان يطلقوا نيرانهم

في آن واحد دونما تسديد تقريباً ؛ فالجواهر لم يكن الضبط ، بل السرعة ، لاقامة سور من نار . نظم القادة من ثم فرق المشاة ، في ساحة الوغى ، صفوفًا طويلة متوازية في وجه العدو . إلا أنهم ابتغوا على تنظيحات لم توجد إلا لاسلحة أخرى . فكما فعل اسلافهم ، في زمن البندقية القديمة ذات القنبلة ، نظموا الجنود ستة صفوف على اربع أو خمس خطوات بين الجندي والجندي وبين الصف والصف حتى يستطيع كل صف اعادة حشو . للاحه بينا لطاق الصفوف الاخرى نير انها الواحد بعد الآخر ، ولم يكن من حاجة لكل ذلك بعد أن تأمنت سلامة الاطلاق وسرعته بواسطة البندقية . وأرادوا جيشاً منظم الصفوف ، ليسا في زمن السلاح الابيض عندما كانت فاعلية الصدام تستلزم ان يواجه الصف ذلك الصف العدو في آن واحد . واستمروا في تحريم عكس نظام الصفوف : لم يسمح قط بأن يوضع الى الشمال جنود تعودوا البقاء الى اليمين ، وأن يوضع في الصف الاول جنود كانوا عادة في الصف الثاني ، وهو تقليد يعود الى زمن توجب فيه وضح الرجال الاقوياء في المقدمة لاختراق صفوف الاعداء . فنجم عن ذلك بطء عظيم في اصطاف الجيش للقتال وتنظيم صفوف الجنود وفقاً للمسافات المطاوية ؛ وحاجة الى الانتظام بعيداً عن العدو ، الانتقال الى ساحة الوغى عبر الارياف في مسيرة لا يقوت العدو سرها ؛ واستحالة إرغام العدو على الاذنتال اذا سما هو أراد الانسحاب ، لان الحفاظلة على تنظيم الجنود وفقاً للمسافات المعروضة توجب السير ببطء والتوقف مراراً ، فيتمكن العدو ، في هذه الاثناء ، من الابتعاد صفوفه طويلاً ضيقة بسرعة المشاة المادية ؛ واستحالة المناورة في ساحة المعركة ، واستحالة مطاردة جيش الاعداء وسحقه ، وبالتالي الاضطراب الى انحداد (ستراتيجية اللواحق) ، أي الى مهاجمة مستودعات العدو ومصادمه الحربية وطرق مواصلاته وكافة المدن المحصنة ، الى أن يعجز جيش الاعداء عن التمحون والانتقال ؛ وحرب بطيئة جديدة ، لا نهاية لها . وكانت النتيجة الاولى لتحسين المتاد تجسيم نواقص الجيوش القديمة . فان الصفوف الطويلة في اراثل القرن الثامن عشر كانت اقل مقدرة على المناورة منها في جيوش تورين وكوندبه .

ثم البروسيون من ادخلوا التحسينات الاولى . كانت الحرب صناعة بروسيا الجيش البروسي الوطنية ، وكانت نخبة البروسيين تقف ذاتها على الفسفن العسكري . تحققت معظم التقدمات الرئيسية في عهد « فردريك - غليوم الاول » ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ - ١٧٤٠) ، على يد احد خيرة حروب لوبس الرابع عشر ، الامير « دانهالت - دشو » . منذ السنة ١٧٢٠ ، اعتمد الجيش البروسي رسمياً بمص التدابير العسكرية التلقائية التي اعتمدها الضباط والجنود في ساحة المعركة في السنوات الاخيرة من حرب وراثشة عرش اسبانيا ؛ والاصطاف الدقيق ، والاصطاف المرصوص ، ونظم الجنود لثلاثة صفوف فقط ، جنود الصف الاول جاثين ، وجنود الصف الثاني واقفين منحنين ، وجنود الصف الثالث واقفين مستقيمين ، يطلقون نيرانهم لتتاليها . وقد سبق لهذا التنظيم ، الذي فرضه عدد الجنود المحدود في اعقاب الحسائر الفادحة ، ان تمت كعاقبه ، على الرغم من الاصطاف والدقيق ، بفضل البندقية .

فأتاح ، بعدد أقل من الجنود ، حماية جبهة طويلة والحؤول دون اندفاع العدو بأعداد كبيرة . وحرصت الصفوف بحيث تلمس المراقب مسافة ، وتماس الركبة حربة الجندي في الصف الامامي ، رغبة في مضاعفة كثافة النيران . فسهلت بالفعل نفسه عمليات الاصطفاف والانتقال من الصف سلفة سلفة الى نظام خط الجبهة .

كان المشاة البروسيون يلبغون ساحة المعركة صفوفاً طويلة ضيقة ويمانبون الحط الذي سينتسرون عليه صفوفاً متوازية في وجه العدو . وفي الصف الطويل ، تفصل بين الفرقة ، المنظمة مسبقاً وفاقاً لمراكزها ومراكز افرادها في الجبهة ، عن الفرقة السابقة مسافة تعادل المسافة التي ستحتلها في الجبهة ؛ وهذا ما يعرف بالصف الطويل ذي المسافة الكاملة . ثم يتوقف الصف الطويل هذا . فتصبح كل فرقة امام العدو ويحتل افرادها مراكزهم في الصفوف بمرحلة تحويلية ذات مدار ثابت يدور فيها أحد الجناحين بينما يبقى طرف الجناح الآخر في مكانه . وقد سهلت هذه الحركة الخطوة الموزونة . وبعد الاصطفاف للمعركة يتسلم كل زعيم (كولونيل) « وجهة نظر » يوجه إليها علمه ، بمراقبة بمباشي (ماجور) ، فتحتفظ الاعلام ، وبالتالي الفرق ، بصف مستقيم دقيق . وكان الهجوم يشن مشياً لا ركضاً ، رغبة في المحافظة على ضبط الصفوف ، تطلق فيه النيران على دفعات منتظمة ، باسناد مؤخرة البندقية الى الخاصرة رغبة في كسب الوقت والحيلولة دون حدوث الكتف (اطلاق المرشة) . وعلى بعد ٢٠ خطوة يطلق المشاة نيرانهم مرة اخيرة على العدو ويهجمون عليه بالحراب ، إذا هو لم يتقهقر بعد ، ويزيد من أثر نيران المشاة استخدام المدافع الخفيفة أو المدافع الاسوجية التي كان باستطاعة المشاة اطلاق نيرانها باليد ، والتي كانت تحتل المسافات الفاصلة بين الفرق . وأهملت المدافع الثقيلة من عيار ٣٣ لبرة . واستعملت المدفعية البروسية المنهضة ، والفشكة ، أو خرطوشة المدفع ، واشتملت على نسبة كبيرة من المدافع القصيرة . أما الفرسان البروسيون ، الذين توزعوا كواكب كبيرة على صفين ، فكانوا أول من اعتمد الكرة قاصداً رغبة في التخلص من نيران العدو في اقصر وقت وفي مضاعفة قوة الاصطدام . يندفعون لمحو جانبي العدو بعد ان يكون قد اضعف بنيران البنادق والمدافع . دفاعهم نيران ثابتة ، وهجومهم نيران متحركة الى الامام .

اما فردريك الثاني (١٧٤٠ - ١٧٨٦) ، الذي استخدم جيش ابيه ، فقد اخطأ باعتماده السلاح الابيض دون غيره ، وباصدار الاوامر للجيش بالهجوم دون اطلاق النار ، رغبة منه في سرعة تقدمها . ولكن جيوشه أوقفت ابدأ بنيران العدو بعد تكبد خسائر فادحة بالارواح لا سيما بين الضباط . لذلك لم يلبث ان تخلى عن خطة الهجوم بهذا السلاح . وقد كتب في السنة ١٧٦٨ ، في « وصيته العسكرية » ، « هذه الجملة الفصل : « إنما تكسب الممارك بتفوق النيران » . وبلغ من اقتناعه بذلك انه سير مع طلائع الجيوش مجموعات كاملة من المدفعية تضم مدافع ثقيلة من عيار ١٦ و ٢٤ لبرة . فكانت النتيجة ان هذه الطلائع لم تتوقف أمام القرى المحصنة التي كان باستطاعتها قهرها بالمدفع ، بينما كان مشاة الامم الاخرى يوقفون اندفاعهم ويمنون بالخسائر امام

الجنادق والمتاريس . وكان اهم ما ادخله على فن الحرب الاستعاضة عن « الاصطاف المتوازي »
« بالاصطاف الازور » . فحاول ، في كل المعارك تقريباً ، تسير فرقه على طريقة الادراج ، اي
انه ، إذا ما كان مصمماً على التوصل الى نتيجة لجهة الشمال مثلا ، يجعل الفيلق الشمالي الاول
متقدماً بمض التقدم على الثاني ، والثاني على الثالث ، وهكذا دواليك ، بحيث يكون كل
فيلق منحرفاً بمض الانحراف عن الفيلق السابق من الشمال الى اليمين . ويمجز العدو ، بسبب
الصفوف المرصوفة ، عن تمييز التباين في الابعاد ، ويلتظر الجيش البروسي ، كالمعتاد ، على جبهة
موازية لجبهته . فيتوقف البروسيون فجأة ويصطفون بسرعة في جبهة « زوراء » بالنسبة لجبهة
العدو ، بينما يضع فردريك فرقه الاحتياطية وراء الجناح المتقدم فيصبح اعظم قوة من العدو في
هذه النقطة ويستطيع مهاجمته بأعداد كبيرة والالتفاف حواله والتغلب عليه ، فلا يستطيع
العدو القيام بأية حركة باتجاه الجناح البروسي الضعيف ، وليس له متسع من الوقت لاعادة تنظيم
صفوفه ومواجهة الهجوم الجانبي .

كان اثر البروسيين كبيراً في جيوش الاعداء بفعل انتظام انطلاق نيرانهم وسرعة حركاتهم .
فلم يكن نادراً ان تحتل صفوفهم الطويلة مراكزها في الجبهة في عشر دقائق . وترد هذه السرعة
المدهشة الى الدقة في اعداد كافة الحركات مسبقاً والى طول الاناة في تلقينها الجنود . فيصبح
الجنود أشبه بالآلات متحركة قادرة على القيام بحركاتها المعتادة بكل سرعة وفي اية حال من
الاحوال . وقد درج فردريك الثاني على مقارنة حركات الجيش البروسي بحركة مجموع دواليب
ساعة متقنة الصنع . وهكذا تمكن البروسيون من التغلب على اعدائهم بسرعة حركتهم والحفاظة
على نظام تام في اشد الظروف حرجية . فاستفاد فردريك الثاني ، القائد المبصري ، خيرا استفادة
من هذه الاداة .

لم يلبث النمساويون ، والامراء الالمان ، والهانوفريون ، والهولنديون ، والانكليز الذين كان ملوكهم
امراء هانوفريين ، ان اقتبسوا عن البروسيين الصفوف الدقيقة والصفوف المرصوفة واطلاق
النيران دفعة واحدة . اما الفرنسيون فقد استخدموا الصفوف المرصوفة في وقت مبكر نسبياً ،
ولكنهم لم يعتمدوها رسمياً الا في السنة ١٧٥٠ .

وجملة القول ان البروسيين لم يستحدثوا جديداً يذكر . قاموا خير قيام بحركاتهم ولكن
حركاتهم لم تكن خيرا حركات . لم يحنوا من البندقية الفوائد التي كان بالامكان جنيها منها .
فنادراً ما يأتي اطلاق النيران دفعة واحدة بالنتيجة المتوخاة ، الا على مسافة قريبة جداً ، لأن
الجندي يهتم لاطلاق النار في آن واحد مع رفاقه ، لا لقتل العدو ، مع ان قتل العدو هو
الممول عليه . « يستحيل على الجندي ان يحسن التسديد إذا ما اضطر الى إغارة انتباهه امر
القائد (موريس دي ساكس) . وكان الصف الثالث دون فائدة . والاصطاف الدقيق المستقيم
كذلك ، بالإضافة الى صعوبة المحافظة عليه ، لان دخان المدفع كان يحجب الاعلام . ويكون

الاصطفاف الدقيق ذا فائدة في الارض المنبسطة بصورة خاصة . ولم يدخل البروسيون تحسينات تذكر على المدفعية . وقد اصر فردريك الثاني ، على الرغم من سيدليتز ، على ان يكرر الفرسان « بشكل سور » ، متراصين عند الانطلاق ، السوقاء بمحاذاة السوقاء . ولكن حركة تمايل الحصان القامص تستلزم للفارس مكاناً ارحب منه في سير الحصان العادي . وكمن مرة اضطر بعض الفرسان المتراصين ، الذين القوا ارضاً عن مروجهم ، الى الخروج من الصف وتقدم الآخرين او ايقاف مطاياهم ، ففقد الصف قدرته على الاصطدام .

تحققت اهم التقدمات على يد النمساويين ولا سيما على يد الفرنسيين . وهي تقاوص التقدمات السابقة وسيناتها ما حركت عبقرية هؤلاء الآخرين النمساوية والفرنسية الابتكارية . قنط الفرنسيون من بلاوغ كال رماية الجيش البروسي وحركاته . ورأوا ان هذه التاربن الدائمة الدقيقة ، وهذا الاعداد لكل حركة ، وهذا الصبر ، وهذه الآلية تتنافى كلها « وعبقرية الامة » . سلوا بانهم لن يتفوقوا في هذا الميدان ، فبحثوا عن الاعاضة من دولتهم بتحسينات وتجديدات تكتيكية وخلقوا جيش نابليون .

العدو البروسيون

الانتقال من صف السير الى صف الحكومة

كانت لهم حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) مدرستي ملاحظة وتفكير افضتا الى صدور ابحاث عديسة ، وكتب ، وقوانين ملكية تنظم تعام الرماية والمناورات والقتال . ولكن القوانين تأخرت في تسجيل الاكتشافات لأن الوزراء ، البميين جداً عن ساحات المعارك ، لم يعرفوا دائماً تمييز الآراء المنطبقة على الوقائع في غمرة المشاريع المقدمة . اما ام المبتكرين فهم : موريس دي ساكس بطل معركة « فونتنوا » الظافر الذي اوجز خبرته في كتابه « تأملات » ؛ والمارشال « دي برويل » ، الأول بين قادة حرب السنوات السبع الذي خلف للفرنسيين ذكريات سيئة جداً ، مع ان القادة الفرنسيين برهنوا فيها عن موهبة ابتكارية وقدرة على التجديد كانت سبباً من اسباب الاخفاقات ، لانهم ، مع مرؤوسيههم ، طالما تلمسوا طريقهم في استخدام طرائق جديدة هي عنوان مجد وفخار ؛ والكونت « دي غيبير » ، الذي كان ابن معاون المارشال « دي برويل » ، وشهد بنفسه الفصول الأخيرة من حرب السنوات السبع ، والف « محاولة عامة في فن الحرب » نشرت في السنة ١٧٧٢ وتأثر بها بوتنبرث ؛ واخيراً المدفعيان « فالير » و « غريوبفال » ، والفارس « دي تيل » . كانت الملاحظة والاختبار خير الاساليب التي انتهجها كافة هؤلاء الرجال العظام . « يجب الرجوع ابدأ الى الاختبار . . . حتى إذا ادت البرهنة ظاهراً الى نتائج ثابتة جداً » . ان ما لم تعلمه الحرب قد روقب بعناية في مناورات شهيرة قام بها المشاة في معسكر

« فوسيو » (١٧٧٨) ، وفي معنق ستراسبورغ (١٧٦٤) و « مويوج » (١٧٦٦) اللتين
 نزلتا بالمدفعية ، وفي غارين الفرسان في متز (١٧٨٨) ، وكان غيبير اول من عين بدقة
 الوقت الذي يستغرقه إطلاق النيران ، ومن فحصر بدرس الحركات وتماقبها كي يختار منها
 ما يعطي خير نتيجة .

مما لبث الخبراء ان لاحظوا صعوبة انتشار الجيوش والمهاجمة بصفوف
 المنظمة . فتبادرت الى الذهن فكرة مفاجأة العدو بكثرة قوية قبل ان
 ينظم صفوفه للمركبة ، او بين تارين كثيفتين ، اي عسدرأ وفي صفوف طويلة ، بغية تجنب
 الانتشار والسير بمزيد من السرعة . كان مفروضاً ان تتقدم الحركة على النار . اوصى الفارس
 « فولار » بالصف الطويل ، اي « بالاصطفاف العميق » في كتابه « مكتشفات جديدة في فن
 الحرب » (١٧٢٤) . وانما حدثت في ذهن هذا الجندي الممتاز ، على الرغم من انسه شاهد
 الحرب ، طاهرة قد يسمح تكررها الدائم بعد النزاعات المسلحة بان يجعل منها قانوناً : اعني بان
 اهزل النار . اراد اصطلاحاً طويلاً يضم بين ٣٠ و ١٨٠ صفاً من الجنود المتراصين يكون بعضهم



الصف المنحرف

مسلمين بالحرب لشي صفوف المدد بالاصطدام . « ان قوة الوحدة الحقيقية تكن في سماكتها
 واحاطت صفوفها ووحدها وراسها » . تتسلط عليه تلامذة متعمسون على الرغم من خسيرة
 الحرب . فقام التركيز « دي سيلفا » بحساب طويل جداً استلزم ست صفحات لتقدير القوة
 الحية التي ينطوي عليه صدام الصف الطويل . وعلى الرغم من خيرة الحرب ، عاد « مسنيل -
 ديران » ، في السنة ١٧٥٥ ، الى رأي فولار في كتابه « مشروع تنظيم فرنسي في فن الحرب » ،
 وعاد اليه مرة اخرى في السنة ١٧٧٧ . وقد عند آذاك القائلون برأي فولار في اعتبار الكثرة
 بالسلاح الابيض تنطبق وحدها على المزاج الفرنسي ، واتهموا غيبير باحتذاء مشال الاجنبي ،
 وبالتخلي باخلاق الليبرسين . وكان مقدرا للجمهورية الثالثة ان تشهد تجدد هذه المنازعات
 قبل السنة ١٩١١ .

اما في الواقع فاذا كانت فكرة مفهوم الصفوف العميقة بالحرب فكرة صائبة ، فان هذا
 المفهوم - كما كان ليصبح ممكناً بشكل الصفوف العميقة الذي نادى به كل من فولار ومسنيل -
 ديران ، للصفوف الكثيرة لا تجدي نفعا : اذ ان الصف الاول هو وحده ما يجعل عبء الصدام .

جنود الصفوف الأخرى لا يضيفون أية قوة ولا عمل لهم في المعركة بالسلاح الأبيض سوى الحلول محل الجنود القتلى أو الجرحى . ان مثل هذا المجموع معرض للفناء بنيران العدو . ولا يستطيع الضباط ، في مثل هذا التنظيم ، قيادة وحداتهم كما تجدر القيادة . ولن تلبث الصفوف ان تحتلط ، والجيش ان يصبح قطعياً . زد على ذلك اخيراً ان مثل هذا الاصطفاة العميق لا يصلح لاية حركة باستثناء السير الى الامام . فكل مناورة مستحيلة وكل تراجع مستحيل . وقد تناوله غيبيز بنقد حاسم :

« كل النواميس الطبيعية المتعلقة بحركة الاجسام واصطدامها تصبح اضغاث احلام حين يراة تطبيقها على فن الحرب ؛ فليس بالامكان اولاً تشبيه الوحدة العسكرية بكتلة جامدة لانها ليست جسماً متراساً خلوأ من الفجوات ؛ وثانياً ، ليس في الوحدة التي تهاجم العدو سوى جنود الصف الذي يتصل بالمدو من تتوفر فيهم قوة الصدام ؛ فكل من وراهم يمجزون عن التراص والاتحاد اللذين تتميز بها الاجسام الطبيعية ، ويفقدون بدون فائدة ولا يصدر عنهم سوى الفوضى والضوضاء . ولو فرضنا ، ثالثاً ، امكانية حدوث هذا الصدام المزعوم بمساهمة كافة الصفوف ، فان وحدة مؤلفة من افراد يقدرون الخطر ويشعرون به ، اقله تقديراً وشعوراً آليين ، لا تخلو من بعض الارتخاء والانقسام في ارادات الافراد ، مما يؤدي بالضرورة الى البطء في تقرير السير وقياس الخطوة ، فليس هناك من ثم من كمية حركة كاملة ، وليس من حاصل حجم وسرعة ، وليس من اصطدام ، لان الاصطدام يفرض بان تستمر السرعة ، بعد احداثها في الجسم المتحرك بالعة المحركة ، حتى اللحاق بالجسم المصدوم ... »

« يندر ، اوبالاسرى ، لا يحدث البتة ان تنتظر [وحدات المشاة] بعضها بعضاً بحيث تصادم وقتشابك بالحراب . . اذا لم يتوقف المهاجم بفعل النيران ، فان المهاجم يتراجع في الوقت اللازم قبل ان يقارب منه العدو .

النيران الاختيارية
 نُبّه الجميع بقساوة الى فاعلية النيران في معركة « دوتنجن » التي قاتل الفرنسيين فيها ملك انكلترا جورج الثاني على رأس مجندين ألمان وانكليز (١٧٤٣) . فقد روى احد الضباط الفرنسيين ما يلي : « كان مشاتهم متراسين يبدون وكأنهم سور من قلز تنطلق منه نيران من الحدة والتواصل ما جعل قدامى الضباط يعترفون بأنهم لم يشاهدوا مثلها في يوم من الايام . كانت الحسائر الفرنسية فادحة جداً ، وزوال الوم شديد المرارة على انصار السلاح الابيض . وجاءت معركة « فونتنوا » (١٧٤٥) تؤيد الواقع : فان وحدة الحرس الفرنسية التي كابدت نيران الانكليز على مسافة ٣٠ خطوة قد لاذت بالفرار ؛ اما شردمة « اوبتير » التي استبسلت في صمودها فقد خسرت نصف جنودها . فكانت النتيجة حاسمة : النيران هي الجوهر ؛ وهي تتفوق على الحركة . وبرهنت النيران المطلقة دفعة واحدة ، من مسافة قصيرة ، عن انها فعالة جداً ايضاً . ولكن هذه الممارك اوحى بما اثبتته غيرها فيما

بعد : حين كان المشاة الأنكليزي والهاولفريون ، وحتى البروسيون ، يرون العدو وقد بات قريباً جداً منهم ، كان يستحيل على الضباط إرغام رجالهم على انتظار الامر لاطلاق النار . ففقدت النيران ما في تعاقبها من جمال واصبح اطلاق النار اختيارياً . ولكن هذا الانطلاق برهن عن انه اقتل واقفل من الاطلاق الموحد لان الجنود يحصرون مهم حينذاك في ضبط التسديد بغية منع العدو من ادراكهم . فهم لا يطلقون نيرانهم للكس كما في النيران الموحدة ، بل للقتل . فأخذ الفرنسيون يعتمدون تلقائياً النيران الاختيارية وقد اوصى بها غيبير بالحاح . واخيراً أقر قانون السنة ١٧٧٦ رسمياً النيران الاختيارية بعد النار الموحدة الاولى .

جنود الطليعة
 اثناء هذه الحروب ، لاحظ المهاريون قاعلية نيران الجنود المسلحين بسلاح خفيف والمتناترين امام جبهة الجيوش ، اعني بهم جنود الطليعة . كان السباقون الى استخدام النمساويين الذين غمروا ساحات الماركات بجنود الطليعة من الكرواوتين . كان هؤلاء الرجال الموزعين هنا وهناك ، وراء الاسيحة ، والسواقي ، والاشجار المنفردة ، والادغال ، والمرقعات ، يطلقون النار على صفوف المشاة ، ويشددون الضربات ، ويحندلون الضحايا ، وينشرون الفوضى في الصفوف ، ويزعزون معنويات المهاجم ، بينما هم يستخدمون طبيعة الارض فلا تلحق بهم نيران صفوف المشاة كبير اذى ، ثم ينسحبون وراء صفوف مشاتهم ، حين يبلغ العدو مرمى بنادق هؤلاء . وكانوا يطلقون النيران على المدفعيين الاعداء ويشوشون نيران المدفعية . كما كانوا يفتكون جانبياً بفرسان العدو المهاجمين على الفرسان من مواطنيهم . ولم يلبث موريس دي ساكس ان رأى ان باستطاعتهم ، بفضل تسديد نيرانهم ، الشبيهة « بنيران القناصين » ، شل حركة وحدة محاربة ، الشيء الذي ساد الاعتقاد حينذاك باستحالته على غير وحدة محاربة بفضل النيران الموحدة . ففي فونتونا تمكن افراد سرية « غراسين » الـ ١٢٠٠ الموزعين جنود طليعة في غابة « باري » ، من ايقاف سيل فرقة « انغولدسي » . اجل لقد جرى ذلك في ارض ذات كسور . ولكن في روكو (١٧٤٦) وزع موريس دي ساكس سريتي « غراسين » و « لامورليير » جنود طليعة في ارض مكشوفة لجهة جناحه الايمن ؛ فتجاوزوا قرية « آنس » وأتاحوا الاستيلاء عليها . فأكثر الجيش الفرنسي منذ ذلك الحين من استخدام جنود الطليعة هؤلاء ، « القناصين » ، وكان استخدامهم متفكراً واندفاع ووزق ، الفرنسيين . وخلال حرب السنوات السبع ، استخدمهم « برويل » باستمرار بغية اعداد الهجوم بالسلاح الابيض ، ولجنب طغيان العدو على جناحيه ، وتفطية انتشار الجيش ، والدفاع عن الغابات ، والقرى ، والرياض ، والبيوت المنفردة . وتوفق اخيراً الى التغلب على مقاومات الوزراء ، واستحصل في السنة ١٧٦٦ على نص رسمي باحدات فوج قناصين في كل سرية ، واستخدام قرابة ٦٠ جندي طليعة في كل فوج ، وعلى نص آخر في السنة ١٧٨٤ باحدات افواج من القناصين المشاة بلغ عددها ١٢ في السنة ١٧٨٨ . في هذا التاريخ جاءت حرب اميركا ، وقضاء المزارعين الاميركيين على فصيحة انكليزية في لكسنغتون ، واستسلام صف

طويل من الجنود الانكليزي في « ساراتوغا » ، تثبت قيمة قتال جنود الطبيعة . فاكشف بالفعل نفسه خير استخدام للبندقية .

الا ان فعالية النيران كانت قد ارغمت على اللجوء الى صف الهجوم . ففي صف الهجوم مهاجمة اهداف جبهة محدودة ، كمدخل قرية ، او مدخل طريق حرجية ، او مجاز ، او ثلثة او زاوية في مئراس ، ووجب تفضيل الصف الطويل لأنه لا يعرض العديد من الجنود ، في آن واحد ، لنيران المدافعين ، ولأنه أكثر موافقة للتقدم نحو الهدف وداخلة . استخدم موريس دي ساكس صفوفاً طويلاً لمهاجمة المواقع في « روكو » و« لوفلد » ؛ كما استخدمها برويل لمهاجمة الغابات والمنازل . زد على ذلك ، من جهة ثانية ، انه بدلاً من ان يؤلف صفوفاً أخرى من فرق الاحتياطية ، غالباً ما تركها صفوفاً طويلة ، لان الصف الطويل اسرع انتقالاً من الصفوف المتوازية ولان ذلك يسهل عليه نقل فرق الاحتياط بسرعة الى مكان استخدامها . ولكن القادة واجهوا حينذاك مسائل شكل الصف الطويل والتقدم نحو الهدف وانتشار الجيوش ، مع المحافظة على الصفوف المتوازية ، في اطراف الغابات او في السهول بعد الاستيلاء على الهدف ، للحيولة دون هجوم معاكس يقوم به العدو ، لان الصفوف المتوازية أكثر موافقة للدفاع من الصف الطويل .

بيد ان الصف الطويل المعتمد لم يكن ذلك الذي قال به فولار ، والذي لم يتجاسر أي ضابط على المجازفة باعتياده بعد الكارثة التي حلت بالصف الانكليزي في فوننتوا ، والذي اثبتت التجارب المجراة في معسكر « فوسيو » عدم اهليته للمناورة ، بل صف السير البسيط ؛ وهو يؤلف من صفوف متوازية لا يتجاوز الواحد منها الاربعة جنود ؛ وتفضل بين الفرق مسافة عدة خطوات لتجنب الوقوف الفجائي بفعل عدم انتظام سير المقدمة الذي تسببه طبيعة الارض أو نيران العدو . كان مثل هذا الصف الطويل سهل القيادة ، والاضعاع للنظام ، والقيام بالمناورات . يسير بخطى حثيثة ، لا بل عدواً اذا مست الحاجة . يتقدمه جنود الطبيعة الذين لا يتوارون إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ويحيط به حتى مرمى بنادق العدو مشاة مصطفون صفوفاً متوازية يصوبون بنادقهم إلى الفرجات والنوافذ والادغال وكل مكان آخر تنطلق منه النيران لإبعاد نيران العدو ومنعه من ضرب الصف الطويل . النيران تعد الحركة وترافقها . وبعد الاستيلاء على الهدف ، ينتقل جنود الطبيعة الى المقدمة ويؤلفون ستاراً . ينتشر الصف الطويل صفوفاً متوازية على طول الجبهة التي يتوجب عليه الدفاع عنها بمجرد دوران كل جندي الى اليمين (أو اليسار) ، دونما حركة تحويلية . واذا كان على الصفوف المتوازية السير مجدداً في صف طويل ، يدور الجنود الى اليسار (او اليمين) ، وتسير الفصيلة التي تحتل المقدمة وتبدل اتجاهها نحو العدو ؛ وتسير كل من الفصائل الاخرى بدورها ، وتحتل مركزها وراء الفصيلة السابقة ، على مسافة خطوات معدودة ، بعد أن تكون قد سلكت أقصر الطرق في انتقالها . لا شأن بعد اليوم لعكس المراكز . يحتل الجنود والوحدات المراكز التي تملئها الظروف . وهكذا

الانتقال من الصف الطويل الى الصفوف المتوازية ومن الصفوف المتوازية الى الصفوف الطويلة عملية بسيطة وسريعة جداً .

اعتمد المارشال « دي برويل » ومعاونه « غيبير » هذه الطرائق تكراراً خلال حرب السنوات السبع . وقد عرفت هذه الصفوف ، منذ السنة ١٧٦٦ ، باسم « الصفوف على طريقة غيبير » . ثم وضع فيها ابن المعاون نظرية كاملة في السنة ١٧٧٢ . وأوصى بالاضافة الى ذلك ، في الارض المكشوفة ، بالمهجوم عدواً ، وبصفوف متوازية ، دونما اهتمام لاستقامة الصفوف التي لا تجدي فتيلاً ؛ ويتحول على مدار متحرك يستمر فيه الجنود الذين يشكلون مدار الحركة الدائرة في السير ببطء بغية كسب الوقت . وصدر قانون السنة ١٧٦٩ باعتقاد « الصفوف على طريقة » غيبير . وبعد طويل « جدال حول الاصطفاغ الدقيق والاصطفاغ العميق » اعتمدت آراء غيبير بالتعليقات المؤقتة الصادرة في ٢٠ ايار ١٧٨٨ .

كان مقدراً للطرائق « الغيبيرية » إتاحة تطورات سريعة وسهلة . إلا ان القيادة الفرقة فكروا ، في الوقت نفسه ، بوسائل اخرى للتوصل الى توزيع الجيش المقاتل بسرعة في وجه العدو . حقق البروسيون ذلك بفضل تدريبهم المدهش . لذلك سارت جيوشهم صفاً طويلاً واحداً أو صفيين ، أو ثلاثة على الأكثر . وسعى القادة الفرنسيون إلى تنظيم صفوف طويلة أكثر عدداً تسير في طرق متوازية وبسرعة مماثلة : فكان الصف أقل طولاً والانتقال الى الصفوف المتوازية ، الذي تفرضه البندقية ، اسرع تحقيقاً . وقد توصلوا الى ذلك بتقسيم الجيش فرقتاً . فقد سبق لموريس دي ساكس أن شكل فرقتاً ، بعد معركة فونتنوا ، للزحف على روكو ثم على لوفلد . واعتمد برويل الطريقة نفسها في حملة السنة ١٧٦٠ . تُقسم صفا المشاة أربعة اجزاء أو « فرق » ؛ وضمت كل فرقة قسماً من الصف الأول وآخر من الصف الثاني ، فجاء المجموع ١٦ فرجاً من المشاة . ورافق كل فرقة من المشاة قسم من فرقة الفرسان وآخر من المدفعية اللتين قسمتا أربعة اقسام ايضاً . وعند الاقتراب من العدو ، كانت الفرقة تنقسم صفيين طويلين . وهكذا اصبحت الفرقة جيشاً مصغراً كاملاً يضم المشاة والمدفعية والفرسان ، أي كل الوسائل الكفيلة بقهر العدو أو إيقافه . أحدثت لتسهيل انتشار الجيوش في الجبهة فقط ، ولكنها لن تلبث أن تبدل ظروف الحرب وتتيح مناورات جديدة تستهدف جانبي العدو أو مؤخرته . ولكن القادة الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، لم يعرفوا بعد كيف يستخدمونها خير استخدام .

وهكذا برز قسم هام من نتائج استخدام البندقية . وليست كافة الطرائق التي يعزى اكلشافها احياناً الى جنود الثورة والتي ربما استهدفت جزئياً اخفاء نقص تدريب المتطوعين ، من استخدام جنود الطليعة ، والمهجوم بالحرايب عدواً وفي صفوف طويلة ، وتقسيم الجيش فرقتاً ، سوى وسائل قتال وتنظيمات احدثها الجيش الملكي خلال القرن الثامن عشر ، بسبب اداة جديدة ، هي البندقية .

الفرسان
حقق الفرسان الفرنسيون تقدمات عظيمة ، ولكنهم حذوا في ذلك حذو
البروسيين والنمساويين . فقد اقرت قوانين السنتين ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كواكب
الخيالة الكبرى ، والقيام قاصداً بهجوم قصير وعنيف ، على ان لا تؤلف الكواكب سوراً واحداً
بل تتخللها المسافات ؛ واعتماد الصف الطويل في مهاجمة المشاة لاختراق صفوفهم .

مدفعية فالير
قام بعض الفرنسيين بثورة في حقل المدفعية . فان قانون ٧ تشرين الاول ١٧٣٢
فرض في فرنسا مذهب فالير الذي عمل به حتى السنة ١٧٦٥ . ويقوم فضل
فالير الاكبر في انه قام بعمل تنظيمي . أراد مدفعية واحدة تتوزع مدافعها على خمسة عبارات ،
من ٤ الى ٢٤ لبرة ، « تكون كلها موافقة لمهاجمة المواقع والدفاع عنها ، وتشترك الفئات الثلاث
الاول منها بحسب الظروف بحيث تصبح موافقة للحرب في الارياف ؛ فيصبح ممكناً ، إذا قضت
الحاجة ، ان تقدم المواقع العمون للجيوش ، والجيوش للمواقع . ان هذه الكلمات يقولها ابن
فالير تحدد عمل الاب خير تحديد وتتضمن نقده . أراد فالير ، رغبة في التبسيط ، صنع عتاد
مزودج الهدف . ولكنه لم يستجب تماماً لاية حاجة . فان مدافعه ، على الرغم من تخفيف وزنها ،
قد بقيت ثقيلة جداً لساحة المعركة (المدفع من عيار ٤ ، ٥٧٥ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٢٤ ،
٢٧٠٠ كيلوغرام) . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تنظيمه قد برهن عن اكثر العقليات
رجمية : فهو قد صرف النظر عن المدفع القصير ؛ وأمر بأن يحشى المدفع بملقعة عميقة طويلة
المقبض ، المصباح ، يستغني بها عن الفشكة ، رغبة منه في التمهّل وتوفير الذخائر ؛ وألقى
المنهضة بحيث توجب في معظم الأوقات اطلاق النار اطلاقاً تقديرياً ؛ وترك الفوارق في صنع
الذخائر بحيث استحال استخدام القذائف المصبوبة لمدفع معين في مدفع آخر من العيار نفسه ؛
زد على ذلك ان قطع المدافع المختلفة والاسناد لم تكن قابلة للتبديل والتغيير .

« بيليدور »
حاول فالير تلافى الزيادة في الوزن بأن اعتمد في السنة ١٧٤٠ ، على غرار
معظم دول أوروبا الوسطى ، المدفع الخفيف على الطريقة الاسوجية ، وهو مدفع
قصير جداً من عيار ٤ لبرات ، يبلغ وزنه ٣٠٠ كيلوغرام ، يمكن جره بالأيدي ، ويستطيع
المشاة استخدامه . إلا انه رفض تخفيف المدافع الاخرى . فبرهن بيليدور ، العالم بالطبيعات ،
والاستاذ في مدرسة « لافير » للمدفعية ، في السنة ١٧٣٩ ، ان المرمى ليس نسبياً لحشوة البارود ،
وان حشوة توازي ثلث وزن القذيفة تميز من حشوة توازي ثلثي وزنها . فما لبث كافة
المدفعيين ان خفضوا وزن حشوة البارود . فبات ممكناً والحالة هذه انقاص سماكة القطع
ووزنها . ولكن فالير قاوم هذا الانقاص بعتاد . لا بل عزل بيليدور عن منصبه .

إلا ان الحروب اظهرت ضرورة تخفيف المدفعية . فخلال حرب السنوات السبع استخدم
النمساويون قطعة خفيفة من عيار ٣ لبرات لمواكبة المشاة . وفي السنة ١٧٥٦ ، أمر « برويل »
بإعادة خرت المدافع من عيار ٨ و ١٢ لبرة وتحويلها الى مدافع من عيار ١٢ و ١٦ لبرة بانقاص

سماكة جوانبها ، فجعلها أخف وزناً واسهل تحريكاً .

مدفعية « غريبوفال » اجريت التطويرات الحاسمة على يد « غريبوفال » . كان ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي ، فجمع بهذه الصفة ثروة ملاحظات خلال حرب السنوات السبع ، وأثناء خدمته في الجيش النمساوي ، وأثناء اسره في بروسيا في السنة ١٧٦٢ . وحين استدعاه الوزير « شوازل » الى فرنسا عرف كيف يستخلص النتائج مما شاهده وزود الجيش الفرنسي بخير عتاد في العالم ، العتاد الذي استخدم في كافة حروب الثورة والامبراطورية .

ادرك غريبوفال الحاجة الماسة الى تخصيص المدافع ، الى ادخال تقسيم العمل الى المدفعية . ميز بين مدافع الحصار (عيار ٢٤ و ١٦) ومدافع القتال في الارياض (عيار ١٢ و ٨ و ٤) . خفف مدافع القتال في الارياض بانقاص طولها وسماكتها . فانخفض وزن المدفع عيار ٤ من ٥٧٥ كيلوغراما الى ٣٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ٨ من ١٠٥٠ كيلوغراما الى ٦٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ١٢ من ١٦٠٠ كيلوغرام الى ٩٠٠ كيلوغرام . وقصّر وخفف الاسناد ايضاً وأمر باعتماد الجمر الواحد الذي يتيح استخدام الاحصنة اثنان اثنان معاً بدلاً من الجمرين اللذين لا يسمحان باستخدام الاحصنة إلا واحداً وراء الآخر . فبات الجمر اكثر فعالية ، واستطاعت الاحصنة الجارة السير خفيفاً ، لا بل قاصداً . وبات يمكنه مدفعيته اخيراً ان تنتقل من أي مكان الى أي مكان آخر بفضل الجبل الطويل وقدة الجلد . فالجبل الطويل هو في جوهره جبل يصل بين السند ومقدم العربية . فقد غداً ممكناً بواسطته اجتياز الخندق ، والحافة التي تعترض المنحدرات ، واطلاق النار اثناء الانسحاب ايضاً ، إذ يكفي في هذه الحال إيقاف الاحصنة ، فيصبح المدفع من نفسه في وضع الاطلاق . اما قدة الجلد فاشبه بحالة تسمح للجنود بجر المدافع في ساحة المعركة . ويكفي ثمانية جنود لجر المدافع من عيار ٤ و ٨ لبراة ؛ و ١٥ جندياً لجر المدافع من عيار ١٢ لبرة . فغداً يمكن المدفعية ، التي اصبحت سهلة التحريك ، ان تواكب المشاة منذ الآن ، وتساند هجماتهم وتسير وراهم اثناء الانسحاب وتحمي مؤخرتهم .

وزاد غريبوفال من فعالية هذه المدفعية باعتماد المدفع القصير ، وبعدهد المدافع ؛ لكل الف جندي بدلاً من واحد ؛ فخصص كل فوج بمدفعين عيار ٤ أو مدفعي مشاة . وحسن غريبوفال رمى القذيفة وقوة اختراقها . فوفق بدقة بين القذيفة وقطر المدفع الداخلي لانقاص هواء القذيفة وضياغ الغاز . وفي سبيل ذلك أمر بأن لا تصب المدافع حول نواة يتشوه شكلها بتأثير الحرارة وتسبب خشونة في داخل المدفع ، بل أن تصب مليئة وتحررت بعد ذلك . وأتاحت بعض المقاييس النحاسية المحقق عيارها ، كالنظارات والاسطوانات ، مراقبة قياسات القذيفة وداخل المدفع التي كانت مستحيلة حتى ذلك التاريخ . وجلبت المدافع من الخارج بالخرطة . فزاله الاضافات التزيينية . وتمكن الضباط من رؤية نقائص المعدن واستلام مدافع محدودة

السماكة ومن نوع جيد لا تنفجر في وجه من يستخدمها . وغدت المدفعية أدق تسديداً باستخدام خط الاحكام والمنهضة اللذين اطلاقا مرمى المدفع ووسما مجال عمل المدفعية . وبات إطلاق النار اسرع تنفيذاً باستخدام الفشكة .

وجعل غريبوفال الاصلاحات عملية سهلة . فرض على العمال طاوله متقنة الصنع محدودة القياسات ، واقطعة ، ومثاقب ، ومساطر حديدية ، وقوالب ، وعيارات . فباتت صناعة العربات والاسناد ومقدم العربات متماثلة متساوية . وأمكن تبديل القطع ، منها كان مصدرها ، حتى على مقربة من ساحة المعركة .

في السنة ١٧٧٦ ، وبعد منازعات طويلة ، عين غريبوفال مفتشاً عاماً للمدفعية ، واعتمدت طريقته نهائياً .

سبق للمدفعي الانكليزي « روبنز » ، في كتاب لم يترجم إلا في السنة ١٧٧١ المدفع المفروض (رياضيات تتضمن المبادئ الجديدة في المدفعية) ، أن اقترح تفرييض المدافع من الداخل لزيادة التدقيق ، ولكنه اصطدم ، لاسباب نظرية ، بـ « اولر » الذي حال ما له من نفوذ دون العمل باقتراح روبنز على الرغم من اختبارات هذا الأخير الممنعة . وهكذا تأخرت ثورة أخرى اعظم نتائج من الثورة السابقة .

بفعل تطويرات الاسلحة المختلفة هذه ، تبدلت كل ظروف الحرب . فقد باتت الحرب الجديدة بمكنة القائد ، الآن ، إرغام العدو على القتال : عدد كبير من جنود الطليعة المتشتمين سيكرهه على ابطاء انسحابه ، ثم على التوقف للاجابة على النار بالنار ، وربما استطاع أن يقطع عليه الطريق ؛ وسرعة تحول صف طويل إلى صفوف متوازية ، وإمكان قيام الصف الطويل بهجوم بالحراب ؛ فلن يستطيع العدو الهرب بعد اليوم ، بينما يعد القناص صفوف جيشه للمعركة . وسيتمكن القائد من محاولة الالتفاف حول العدو وتهديد مؤخرته : أن فعالية نيران جنود الطليعة ، وجمع الاسلحة المختلفة في الفرقة الواحدة ، سيتيحان ، لشطر من الجيش معتمم في أرض ذات شجون أو في مواقع محصنة ، أن يوقف لمدة طويلة هجمات عدو متفوق عدداً ويوفر للقائد وما تبقى من الجيش تحت أمرته الوقت الكافي للقيام بحركة التفافية^(١) . وسيتمكن القائد أخيراً من اختراق جبهة العدو ، اما بصف طويل من الخيالة ، واما بمجموعة كبرى من المدافع تؤمن الاختراق ، كما أوصى بذلك غيبير ؛ وما ان تحدث التلمة حتى يتدفق عليها المشاة للانتشار في المؤخرة والارتداد إلى الجناح العدو الأكثر تصدعاً والقضاء عليه قضاء تاماً . وسيتمكن القائد ، بفضل صفوف غيبير الطويلة ، من تبديل مراكز جيشه بسرعة في قلب

(١) وهذا ما سبق لفرديريك الثاني ان فعله في « زورندورف » حيث أوقفت فرقة « زيتن » جيش العدو في مكانه ، بينما كان فرديريك ، مع القسم الأكبر من الجيش البروسي ، يلتف حوالبه .

الممركة ، ومفاجأة العدو مفاجآت كثيرة مختلفة . فأناحت كل هذه التطويرات إمكانات التخلي عن « استراتيجية الواثق » في سبيل الحرب الحقيقية ، تلك التي تستهدف تدمير جيوش العدو ، حرب الافناء القصيرة السريعة .

إلا أن القادة لم يبلغوا بعد هذه المرحلة . ففي عهده الهيئة التشريعية « نفسها ، قاموا بالحرب على الطريقة القديمة ، واقتضى نزاع استغرق سنوات عدة لاقرار نقل النظرية الى ميدان العمل . أما غيبير فكان قد أدرك كل شيء وشعر مسبقاً بكل شيء ، وانبا بكل شيء ، وخلص الى هذه النتيجة :

« إن جيشاً حسن التنظيم والقيادة لن يصادف البتة موقعاً يوقف تقدمه ... كما أنت قائداً يتمرد ، في هذا الصدد ، على الآراء الموروثة ، سوف يجير عدوه ، ويذهله ولا يترك له مجالاً للتنفس ويرغمه على القتال أو على التراجع ابدأ امامه . وأني تجاسر وأعتقد بأن هنالك طريقة لقيادة الجيوش اجدى ، وضمن نتيجة حاسمة ولجاحات كبرى ، من تلك التي اعتمدناها حتى اليوم ... سيبرز انسان ، ربما كان قبل ذلك مغموراً بين الجماهير وفي الظلمة ، انسان لم يعرف الشهرة لا بكلامه ولا بمؤلفاته ، انسان ربما جهل موهبته ولم يشعر بها إلا بمبارستها ... إن هذا الانسان سيسيطر على الآراء ، وظروف الحظ ، ويقول عن كبار واضعي النظريات ما قاله مهندس العمارة المتهن ، امام الاثينيين ، عن مهندس العمارة الخطيب : سأنفذ ما قاله لكم منافسي . وكان نابوليون بوتابرت من سيحقق حلم غيبير .
« ان اله الحرب قريب الظهور ، لاننا سمعنا نبيه (١) » .

التوسع الادربي
احرز الاوروبيون ، آنذاك ، تفوقاً عظيماً على كافة الشعوب ، ليس بالاهتدة والمناورات فحسب ، بل بالنظام والاعداد اللذين جعلوا من الاوروبيين ، كما بدا ذلك ، مثالا انسانياً خاصاً يتميز برباطة جأش ، وعزيمة وعناد ، وبسالة لا نظير لها ايضاً . ففي بلاد الهند ، حيث كان اكثر المحاربين شجاعة ، بسبب فقدان النظام والانضباط اللازمين ، عرضة لخوف محزن ليس ما يبرره ، قال المهرات « سنديا » للانكليز في السنة ١٧٧٩ :

« أي جنود جنودكم : اصطفاقاهم اشبه يجدار من الآجر اذا سقط احدكم ، سد الثلمة جندي آخر : هذه هي الجيوش التي اتنى ان اقودها » .

ان هذا التفوق لم يوفر للأوروبيين النصر والرعايا فحسب بل الحلفاء والاصدقاء ايضاً . فقد كان احدى أم وسائل دخولهم شتى أنحاء العالم وسيرهم نحو السيطرة الشاملة .

(١) ج . كرلين .

الفصل الثاني

الثورة الملاحية

تمددت المبادئ الكبرى للسفن الشراعية منذ أعمال « دانيال برلويي » في الهندسون السنة ١٧٣٨ ، وأعمال أولر في السنة ١٧٤٩ . استمرت اكااديميات العلوم والبحرية ، طيلة القرن ، في تقديم المعطيات العلمية لتصميم بناء السفن الحربية . كما أن بعض السفن الماهرة ، الضليعين في العلوم الرياضية والآلية والطبيعية ، برعوا في تطبيقها . « انتهت منذئذ المرحلة الاختبارية ، مرحلة « أرباب الفأس » كما عرفوا في عهد لويس الرابع عشر ، الذين طبقوا أساليب شخصية وقوالب موروثه ابناً عن أب وأباً عن جد . وحل المهندس محل المتهن ... فبين ما انتجه القرن السابق وما انتجه عهد لويس الخامس عشر تقوم كل المسافة التي تفصل بين عمل عامل بسيط ، مهما بلغ من مهارته ، وبين النتيجة المحققة بتعاون الرياضيين والعلماء المهندسين المتخصصين » . وقد تكلم هذا الواقع بالتكريس الرسمي . ففي فرنسا اطلق قانون السنة ١٧٦٥ على السفن اسم « مهندسي البحرية » . وقد تلقوا علومهم في معهد بناء السفن في باريس ، سلف المعهد الحالي للهندسة البحرية . وشجع الحركه العلمية الفارس « دي بوردا » ، مفتش بناء السفن الحربية منذ السنة ١٧٨٤ ، ومستحدث الاساليب الجديدة .

ازدادت سرعة السفن وقدرتها على المناورة . حافظت السفن على طول ٤٠ متراً السفن التجارية الكبرى ، حتى ٦٠ متراً الأكبر السفن الحربية ، وعلى عرض يوازي ثلث الطول أو ربعه . انثنت جوانب السفينة الحربية نحو الداخل ، بين مجموعة المدافع السفلى والشرعة العليا . اما الاتساع في القسم الأدنى فقد زاد من استقرارها . اكتسبت مزيداً من الدقة . وزالت تدريجياً الزخارف والنقوش . ارتفع المقدم بينما انخفض الكوثل : استميض عن الطبقة التي كانت تبنى فوق شرعة المؤخر ، بطبقة صفري بنيت فوق مؤخر هذه الشرعة ، ثم الغيت هذه الطبقة الصفري في عهد لويس السادس عشر . وهكذا خفت مقاومة الهواء . وكانت هياكل السفن مزودة تحت خط العوم بمسامير وصل فطحاء ثقيلة لا تلبث الاثنته والاصداف ان تضيف اليها ثقلاً فوق ثقل . فاستعاض الانكليزي عن المسامير بوريقات لحامية دقيقة اخف وزناً تسهل الانسياب . واحتذى الفرنسيون مثال سفينة انكليزية استولوا عليها .

وفي السنة ١٧٧٨ كانت البارجة « ايفيجي » اول السفن الفرنسية المبطنه بالنحاس . ولكن البطانة كانت مرتفعة الكلفة ويجب تبديلها مرة بعد مرة .

قويت أجهزة السفينة ، وثبتت الصواري والدواقل وزيدت مساحة الاشرعة . غدت الاشرعة اكثر عدداً وبات ممكناً مراعاة النسبة الصائبة بين مساحتها وقوة الريح . وأتاحت شبكة من الحبال مناورات سهلة ودقيقة . دارت السفن على ذاتها وسارت كيفما طاب لقباطتها بكل امان . وتمكنت من بلوغ أقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة .

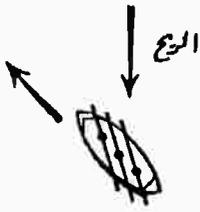
« لقد اصبح شكل هذه السفن عصرياً ، وهي من هذا القبيل اكثر تشابهاً بالسفن الشراعية خلال القرن التاسع عشر منها بالسفن الشراعية في عهد لويس الرابع عشر » .

استطاع الملاحون التوجه شيئاً فشيئاً الى المكان المقصود بمزيد من مسالة
تحديد موضع السفينة الامان . احدثت الحكومات مستودعات خرائط ورسوم وصحف
وبيانات في موضوع الملاحة في فرنسا (١٧٢٠) وفي انكلترا وهولندا
(١٧٤٠) . حسن مقياس سرعة السفن بأن اضيف اليه ثقل يجنبه جزئياً تأثير التيارات البحرية .
وأتاحت بعض الاجهزة الانعكاسية ، كالنثاني ، المؤلف من ثمن محيط الدائرة ، اي من ٤٥ درجة ،
والذي أحكمه الانكليزي « هادلي » منذ السنة ١٧٣١ ، ثم السداسي ، المؤلف من سدس محيط
الدائرة ، اي من ٦٠ درجة ، حوالي السنة ١٧٥٠ ، تتبع كافة حركات البحر ، وتقدير ارتفاع
الشمس ظهراً بفارق دقيقة او دقيقتين من القوس تقريباً ، وحساب خط العرض حساباً أكثر
تدقيقاً . ولكن ملاحين كثيرين استمروا في استخدام القوس الفولاذي الذي بلغت فوارق
دلالاته ثلاثين دقيقة من القوس تقريباً .

كانت اهم مسألة تمكنوا من حلها مسألة خطوط الطول . كان باستطاعة الملاحين تحديدها
بمراقبة أن حدوث ظاهرة فلكية وحساب أن مراقبتها في مكان معروف . وكان باستطاعتهم
الاستناد الى كسوف الشمس وكسوف القمر النادرين ؛ وفحص اقيار المشري ، على الرغم من
صعوبته ؛ ومسافة النجوم الى القمر التي تتطلب معرفتها حسابات كثيرة . الا ان كل ذلك لم
يكن عملياً ، وقد فاق في الوقت نفسه معارف القباطنة . فكان أسهل السبل ، والحالة
هذه ، الاستناد الى فارق الزمان : اي تحديد الوقت المنصرم منذ مغادرة السفينة لمكان معين
حتى مرور الشمس في أعلى نقطة فوق مكان وجود السفينة ظهراً . من السهل اذ ذاك معرفة خط
الطول لان كل أربع دقائق زمنية تقابلها درجة قوسية .

ولكن الصعوبة نجمت عن ان الساعات لا تحافظ على ساعة نقطة الانطلاق . فهي كانت
تتعطل اثناء مسير السفينة بسبب الانتقال من خط عرض الى خط عرض آخر وبسبب حركات
البحر . وهكذا فان الملاحين الذين نادراً ما أتوا أخطاء كبرى في تحديد خطوط العرض ، قد
ارتكبوا أخطاء جسيمة في تحديد خطوط الطول . ففي السنة ١٧٥٠ عينت الخرائط الانكليزية

والهولندية مكان الشاطئ الشرقي لـ « الأرض الجديدة » على مسافة ٩ درجات من مكانه الحقيقي . وفي السنة ١٧٦٥ بلغت الأخطاء عدة درجات في تحديد مكان رأس الرجاء الصالح ورأس « هورن » الواقعين على طرق بحرية مسلوكة جداً . فكان هنالك ثلاثة أرخبيلات باسم « غالاباغوس » و « عدة جزر باسم « القديسة هيلانة » . وكان الملاحون يتجهون نحو يابسات لا قرار لها في مكانها . فاضطروا أخيراً الى بلوغ خط عرض المكان المقصود والسير شرقاً أو غرباً الى ان تقراءى لهم اليابسة . ولكن ما أكثر الأخطاء والطوارئ ا ففي السنة ١٧٤١ ضل القبطان الانكليزي « انسون » خط الطول المقصود وتاه طيلة شهر في المحيط الهادي الجنوبي اثناء بحثه عن جزيرة « جوان - فرنانديز » : فتوفي ٨٠ شخصاً من الملاحين بدهاء الحفر . وفي السنة ١٧٦٣ ، توجهت السفينة الفرنسية « له غلوريو » الى رأس الرجاء الصالح ؛ فاعتقد القبطان في طريقه انه بلغ نقطة تقع شرقي جزر الرأس الأخضر بينما هو كان غربي هذه الجزر وسار باتجاه الغرب حتى بلغ البرازيل . وفي السنة ١٧٧٥ ، اتجهت السفينة الانكليزية نحو جبل طارق : دل حساب تحديد مكان السفينة انها على مسافة أربعين ميلاً غربي رأس « فيليستير » الاسباني ، عندما جنحت الى شاطئ رملي امام جزيرة « ريه » .



سبق للبرلمان الانكليزي ، في السنة ١٧١٤ ، ان خصص ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لمن يجد طريقة لاكتشاف خط الطول في البحر بفارق نصف درجة قوسية تقريباً . بعد عمل استغرق اربعين سنة ، صنع النجار الانكليزي « هارسون » مقياساً للزمان . في السنة ١٧٦١ ، شحن هذا المقياس في سفينة متجهة نحو جزيرة جامايكا ، واعيد الى انكلترا بعد مرور ١٤٧ يوماً ، فوجد بعد الفحص ان الفارق الزمني فيه لم يبلغ سوى دقيقة واربع وخمسين ثانية . كانت المسألة محلولة ما دام نصف الدرجة القوسية يقابله دقيقتان في الزمان . ولكن تركيب جهاز هارسون كان على كثير من التعقيد . امر البرلمان باعطائه ١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني وارجأ المبلغ المتبقي الى اليوم الذي يتوفق فيه هارسون الى جعل تطبيق جهازه من البساطة بحيث يمكن النسيج على منواله بسهولة . تسكامل هذا المقياس بفضل الفرنسيين ، « لروا » الذي ابتكر ، في السنة ١٧٦٦ ، الزنبرك اللولبي المتساوي الدوام ، والمنفذ ، والرقاص المعدل ، و « برتو » الذي صنع ، بين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧١ ، مقاييس زمان كثيرة . وبين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧٢ ، زودت عدة سفن فرنسية بمقاييس اعطت نتائج مرضية . وهو مقياس هارسون ما اتاح لـ « كوك » القيام برحلته الثانية . ولكن الاختراع الجديد لم يعم استعماله الا رويداً رويداً . فخلال الحرب الاميركية نفسها ، ارتكب قادة الأساطيل اخطاء جسيمة في تحديد خط الطول . زادت الاساطيل الحربية شيئاً فشيئاً من قوتها وخفضت في الوقت نفسه عدد نماذج السفن بالغاء الناذج الضعيفة . فلن تتجاوز السفن الشراعية بعد اليوم القياسات التي بلغت السفن الحربية الكبرى .

كانت هنالك البوارج ، المدة للقتال ؛ والمراكب الحربية المعدة للاستكشاف وحرب المطاردة ؛ والحراقات المدة لنقل الأوامر . كانت البوارج ذات شرعة واحدة او شرعتين او ثلاث . وزودت البارجة ذات الشرعة الواحدة بـ ٥٠ مدفعاً من عيار ١٢ و ٨ ، وبـ ٣٠٠ بحار . والسفينة ذات الشرعتين بـ ٦٤ مدفعاً من عيار ٢٤ و ١٢ ، و ٨٠ مدفعاً من عيار ٣٦ و ١٨ ، تؤلف كلها مجموعتين ، سفلى وعليا ، ويعدد من البحارة يتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ . والسفينة ذات الشرعات الثلاث بـ ٩٠ الى ١٢٠ مدفعاً و بـ ٩٠ الى ١٢٠ بحار؛ وضمت المجموعة السفلى مدافع من عيار ٦ و ٤ والمجموعة الثانية مدافع من عيار ١٨ ؛ والمجموعة الثالثة مدافع من عيار ١٢ ؛ وثبتت في مقدمة ومؤخرة الشرعة العليا مدافع من عيار ٦ ؛ وفي الطبقة الصغرى مدافع من عيار ٤ . وزودت مراكب الاستكشاف والمطاردة بـ ٢٠ مدفعاً من عيار ٦ او ٣٠ مدفعاً من عيار ٨ او ٤٠ مدفعاً من عيار ١٢ . وكانت هذه المراكب الأخيرة توازي سفن الدرجة الرابعة في عهد لويس الرابع عشر التي زالت من الوجود . اما الحراقات فقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ بحاراً وسلحت للكرة الاولى بـ ١٢ مدفعاً من عيار ٤ ، فاستطاعت منذئذ الاشتراك في القتال .

في الثلث الأخير من القرن ، الغيت السفينة ذات الشرعة الواحدة بسبب عدم قدرتها ، منذ ذاك التاريخ ، على الاشتراك في القتال . ولم تعتبر السفينة ذات الشرعتين ، المسلحة بـ ٦٤ مدفعاً ، كبارجة بعد ذلك التاريخ ، وهي لن تلبث ان تزول . اما السفن المقاتلة الحقيقية فكانت السفن ذات الشرعتين المسلحة بـ ٧٤ و ٨٠ مدفعاً ، والسفن ذات الشرعات الثلاث المسلحة بـ ١١٠ مدافع و ١٢٠ مدفعاً . زودت كلها بمدافع من عيار ٣٦ في المجموعة السفلى ؛ وزودت السفينة ذات الشرعات الثلاث بمدافع من عيار ٢٤ في المجموعة الثانية ؛ والسفينة ذات الشرعات الثلاث ، المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً ، بمدافع من عيار ١٨ .

كانت السفينة « دول بورغونيا » ، التي شرع في بنائها في السنة ١٧٨٥ ، مزودة بـ ١١٨ مدفعاً وضمت ١٠٩٢ بحاراً ، وكان طولها ٦٣ متراً عند خط العموم ، وعرضها ١٦،٩٦ متراً ، وعمقها ٨،٠٨ امتار من الحيزوم حتى الشرعة العليا ، وبلغت اشروعها ٣١٦٢ متراً مربعاً . وكانت قادرة على التمون باغذية تكفي لـ ١٨٠ يوماً وماء يكفي لـ ١٢٠ يوماً .

كان بالأمكان اطلاق نيران المدافع مرة كل خمس دقائق اذا كان البحارة متمرنين تمريناً جيداً . كما كان بالأمكان ، اذا احق المدفع احناء معيناً ، ان يبلغ مرمى القذيفة ٤٠٠٠ متر ، ولكن المرمى الفعال تراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ متر . في السنة ١٧٧٤ ، صبت مصانع « كارون » في سكوثلندا مدفعاً جديداً ، هو المدفع الكاروني ، القصير ، المركب على سند ثابت ، الذي لم يتجاوز ثلث وزن مدفع من العيار نفسه ولم يستازم للعديد عينه من المدفعيين . كانت نيرانه اقل تسديداً ومرماه اقرب مسافة ، ولكنه اتاح تسليح السفن الصغرى ومقدمات الشرعات ومؤخراتها بمدافع يفوق عيارها ما سمحت به المدافع الاخرى . استخدمه الانكليز بسرعة على

نطاق واسع . ولكن استعماله لم يعم في الاسطول الفرنسي الا في عهد الثورة .

كان المدفعيون يستفيدون من تحريك السفينة بفعل حركة الماء لاطلاق
الفرن الحربى البحرى والستراتيجية البحرية
نيرانهم . فقضت الطريقة الفرنسية بالاطلاق حين ترتفع فوهة المدفع
بغية اسقاط الصواري . اما الطريقة الانكليزية فقضت بالاطلاق حين
تنخفض الفوهة لاصابة السفن العدو في جسمها . لم يكن القصد اغراق سفن الأعداء اذ ان
الحشب كان بالغ السماكة فوق خط العموم وكثرة الألياف كفيلة بسد الثقب الذي ما كان
ليتجاوز ١٧ سنتيمتراً قطراً اذا ما احدثته قذيفة من عيار ٣٦ ليرة . ولكن القذائف كانت
تطير شظايا خشبية شديدة الخطر على البحارة الأعداء الذين حاولوا اتقاءها بشباك مشدودة
بين كوة مدفع وأخرى وبلغ اقمشة كثيرة حول الرأس . وجلي ان الطريقة الانكليزية كانت
خيراً من الطريقة الفرنسية ؛ فالبحارة الانكليز كانوا يصلحون بسرعة الاضرار التي تلحقها
بصواري سفنهم القذائف الفرنسية التي كثيراً ما لا تصيب الهدف على كل حال ؛ اما القذائف
الانكليزية فقلما تذهب سدى ، اذ ان الهدف اوسع مساحة وثبة القذيفة على وجه الماء امراً
ممكناً ؛ لذلك كانت الحسائر الفادحة في الأرواح ، التي يمني بها العدو ، ترغمه على التوقف عن
القتال . وكان تفوق الانكليز هذا السبب الأكبر لانتصاراتهم .

طراً على الفن الحربى بعض الانحطاط منذ اواسط القرن السابع عشر . لفتت قوة المدفعية
الانتباه الى استخدام المدافع خير استخدام . فقدرة السفن على المناورة ألتحت الحركات العلمية
المنظمة . وربما انتقلت الى الاساطيل عدوى الآراء السائدة في الجيوش البرية ايضاً . فان
الانكليز ، وسواهم من بعدهم ، قد نظموا سفنهم صفاً مستقيماً تفصل فيه بين مقدم سفينة ومؤخر
سابقتها مسافة قصيرة جداً ، « الصاري الامامي المائل على الكوئل » . وكان الصف شيئاً
مقدساً . فكان الأخرى بكل سفينة ، اذا اقتضى الامر ، ان تترك العدو يقترب منها ويهاجمها
من ان تتركه يخترق الصف . ولم يجز لاية سفينة ان تغادر مركزها في الصف حتى ولو اعطبت
او حطمت صواربها . كالم يجز لاية سفينة ان تخرج من الصف لمطاردة سفينة عدوة الا بأمر من
قائد الاسطول . وكان واجب القبطان الوحيد الحرص على انتظام الصف واكتاله . فاستحالت
من ثم كل مناورة . وغالباً ما اقتصرت المعركة على اطلاق نيران المدافع دون نتيجة حاسمة .
وقد قال امين سر الدولة للبحرية الفرنسية ، « موروا » ما يلي : « هل تعلمون ماهي المعركة
البحرية ؟ مناورة ، وتبادل اطلاق نيران المدافع ، ثم انسحاب كل من الاسطولين ... وهذا
لا يمنع البحر من ان يبقى مالخاً .

كان من ثم القضاء على الاساطيل العدو امراً مستحيلاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية
ان السفن كانت باهظة الكلاف والقباطنة يتحاشون بالتالي ان تفرق او تصاب بأذى . لذلك
تحديدت الاساطيل المتعادبة بعضها البعض جهد المستطاع واعتمد البحارة استراتيجية هي اشبه

« بسترراتيجية الواحق » : مهاجمة تجارة العدو بسفن المطاردة ، الاستيلاء على المستعمرات ، غارات مفاجئة على شواطئ العدو لتدمير تجهيزاته فيها . وقد بلغت هذه الحرب الخاصة ذروة ضراوتها حين تحارب الفرنسيون والانكليز من اجل جزيرة « سانت - لوسي » في الانتيل « اذ رأى الناس مشهداً غريباً لاسطولين راسيين على مقربة من جزيرة بينسا كانت جيوش الانزال فيها تتنازع السيطرة عليها » ، وفي السنة ١٧٨١ ، حين غادرت بحر المانش اربعة اساطيل معا ، اسطولان انكليزيان مهمتها نقل المؤن الى جبل طارق ومهاجمة مدينة « الرأس » ، وآخران فرنسيان مهمتها نقل المؤن الى الانتيل والدفاع عن مدينة « الرأس » ، دون ان يفكر احد بان المهمة قد تنفذ خير تنفيذ ، او بالاحرى قد تصبح نافذة ، بتدمير الاسطولين العدوين عند خروجها الى المحيط حيث لم يبحث كل منهما الا عن تجنب الآخر .

وكان قد سبق للكونت دي برويل ، اخي المارشال ، في اوائل الحرب الاميركية ، ان نادى بحرب تدميرية بغية انزال الجيوش في انكلترا نفسها والقضاء عليها مرة واحدة . ولكنه لم يلق آذاناً صاغية .

ان الذين قاموا بانقلاب ثوري في حقل الحرب البحرية هم « رودني » و « سوفرين » الاميرال الانكليزي رودني ، بطل معركة « سانت » الظافر ، والغارس « دي سوفرين » الفرلسي . لتأخذ مثل سوفرين . كان بروفسيا ورث تقليد قتال التصارع الذي استموى ضباط السفن الحربية القديمة وحركته روح هجومية نادرة . اسند اليه في السنة ١٧٨١ امر الدفاع عن مدينة « الرأس » ، فقام بهذه المهمة قياماً اثار الاعجاب ، ثم طلب اليه تعزيز اسطول « جزيرة فرنسا » في المحيط الهندي ، ففدا قائداً لهذا الاسطول بعد وفاة اميراله ، وتولى في السنة ١٧٨٢ والسنة ١٧٨٣ قيادة حملة الهند الشهيرة التي هزم فيها الاساطيل الانكليزية خمس مرات ومهد لانتصار الجيوش البرية ، فاطلق عليه الهنود لقب « الاميرال - الشيطان » ونظر اليه العديد منهم كما الى اله . وقد طبق في هذه الحملة المبادئ التي اوسحت بها اليه حياة سلخها في المعارك .

تدمير اسطول الاعداء هو تنفيذ لكافة المهام . لذلك كان سوفرين يبحث عن الاسطول العدو وينقض عليه حيثما يجده ، حتى في المراقىء الكبرى دونما اكترات لمداقع الساحل التي لا يمكن ان تطلق نيراناً فعالة في اشتباك قد يصاب فيه الاصدقاء والاعداء على السواء . انتظام الاسطول صفاً مستقيماً ينطوي على اضرار كبيرة لانه يشل الحركة : لذلك امر سوفرين « بان تصطف السفن للقتال اصطفافاً طبيعياً » ؛ انه في نطاق عمله « لفيلسوف » حقاً . وحتى يكون الهجوم مجدياً ، يجب الا يقتصر على اطلاق نيران المدافع من مسافة بعيدة ؛ يجب الاقتراب الى مسافة لا تتجاوز مرمى المسدس (٣٠ خطوة تقريباً) ، وقد اعطى سوفرين المثل بنفسه على الرغم من القذائف التي طيرت من حوله شظايا خشب طبقتة العليا ، والتي نجح منها

كما بمعجزة . ويجب بصورة خاصة الاحاطة بكبير عدد ممكن من السفن المدورة وتدميرها قديماً كلياً . نقطة الضعف في الاسطول المصطف للمركة هي المؤخرة او الذنب . لذلك هاجم سوفرين المؤخرة مجدداً في الوقت نفسه مقدمة الاسطول المدور بخطرات الالتفاف . وهكذا استطاع ، بسفن اقل عدداً من سفن العدو ، إثبات تفوقه في النقطة الهامة واحراز نصر حاسم .



رسم ايجازي لمناورة « سوفرن »
الانكليز
الفرنسيون

ان هذه المبادئ ، التي تبدو وكأنها في منتهى البساطة ، كانت بمثابة انقلاب في آراء اهل زمانه جعل من المتعذر على مرؤوسيه ان يفهم موه جيداً ، فكانت النتيجة ان اوامره لم تنفذ مجداً في يوم من الايام . ان سوفرين « قد جدد الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية وقام في البحر بثورة شبيهة بتلك التي سيقوم بها نابوليون ، بعد سنوات معدودات ، في قيادة الجيوش . وبعمله هذا يحتمل سوفرين مركزه بين كبار عباقرة الحرب » .

بعد تحقيق كل هذه التقنيات ، كانت اساطيل اوروبا الاساطيل الوحيدة التي مخرت كل البحار ، وكان الاوروبيون البشريين الوحيدين الذين قصدوا كل انحاء العالم .

وظهرت السفينة التجارية اخيراً . في السنة ١٧٥٣ ، خصصت اكااديمية السفينة التجارية العوام في باريس جائزة لمن يتوفق الى توفير وسائل تسد مسد فعل الريح . بحث المركيز الفرنسي « دي جوزفروا - دابان » عن الحل . فعظّم له في السنة ١٧٧٥ ، بعد ان شاهد « مطفاة » « شايو » في باريس ، ان يطبق على السفن الآلة ذات المفعول البسيط التي ابتكرها « جايس وات » . وتوفق الى حساب المقاومة الواجب التغلب عليها والى ايجاد طريقة نقل الحركة . فألف جمعية صغرى مع بعض الاشراف وانزل الى نهر « دو » زورقاً تجارياً مزوداً بمجاذيف ذات مفاصل سافر بواسطته في النهر خلال شهري حزيران وتموز من السنة ١٧٧٦ . الا ان المجاذيف لم تعمل عملها كما ينبغي . فابتكر المجلة ذات اللوحات ، التي اعتمدت من بعده ، وفي ١٥ تموز من السنة ١٧٨٣ صعد نهر السون الى ليون امام ١٠٠٠٠ مشاهد . حينذاك اراد جوزفروا - دابان استثمار اختراعه ، ولكن التمويلين طالبوا ، كضمان لاموالهم ، امتيازاً لمدة ثلاثين سنة . وقبل الموافقة على هذا الامتياز ، اوعز الوزير كالون الى اكااديمية العلوم بتأليف لجنة لم تسلم بالامر بسبب عدم قناعتها : ان الآلة ذات المفعول البسيط لا تفي بالحاجة لتأمين حركة الدوران المتواصل المطلوب . وقرضت اللجنة على جوزفروا اعادة اختباره على نهر السين في باريس . ولكن جوزفروا كان قد انفق كل ثروته ، فاحتقره الاشراف واستهزأت به

الجماهير ، فاقلع عن كل شيء ، مع ان الآلة ذات المفعول المزدوج لن تلبث ان تتغلب على كافة الصعوبات .

ان الآلة ذات المفعول المزدوج التي ابتكرها « وات » والتي نقلت حركة دوران منتظمة جداً قد ادخلت اميركا منذ السنة ١٧٨١ . ان ضفاف الانهر المستنقعة او الكثيرة الاشجار جعلت عملية جر الزوارق امراً مستحيلاً ؛ كما ان المراكب التي تنزل مجاري هذه الانهر كانت اعجز من ان تصمد لها مرة ثانية ، فتتلف او تفكك . لذلك مست الحاجة الى المركب البخاري فعرض الاميركي « فيلتش » ، منذ السنة ١٧٨٤ ، مركبا بخاريا اختبره في السنة ١٧٨٧ على نهر « ديلاوار » بحضور « واشنطن » وفرانكلن فيه . فنار الحماس ، وتأسست في فيلادلفيا شركة برئاسة فرانكلن ، وتدفقت الاكتتابات ، ومنحت الحكومة امتيازاً . واصل فيلتش تجاربه . ولكن جهاز الدفع الذي ابتكره ، وهو في جوهره عوارض خشبية افقية يجرها البخار اثبتت فيها مجاذيف عادية ، كان مضيعة لكثير من القوة وعرضة للتعطل . والسبب في ذلك انه استعان في صنع آلهته بمجدادين عاديين : فتميزت بالكثير من العيوب والنواقص . فاعتقدت الجماهير بانها ستتطلب صيانة دائمة واصلاحات كثيرة وانها ستكون باهظة الكلفة . فحدث تحول في الرأي . اما فيلتش الذي تخلى عنه الجميع ونعت بالجنون ، فقد انتحر في السنة ١٧٩٣ . الا ان الحل سيهتدي اليه في اوائل القرن التاسع عشر مواطنه « فولتون » الذي سيقبظ ظروف الملاحة والنقل وكل الاقتصاد رأساً على عقب .

الفصل الثالث

الثورة المآلية والصناعية

الروح النفمية في اوروبا القرن الثامن عشر اتسمت الثورة المآلية التي بدأت في القرنين السابقين ، وحدثت ، لا سيما بعد السنة ١٧٦٠ ، ثورة صناعية حقيقية استهلكت عهد فن اختراع الآلات واستعمالها . اتجه الاهتمام شطر الفنون الميكانيكية . فان اعظم قاموس حققه القرن هو « دائرة المعارف » ، القاموس الملعل للعلوم والفنون والحرف ، الذي اعطت مجلدات نصه السبعة عشر ومجلدات لوحاته الاحد عشر معلومات جزيلة الفائدة حول اجهزة ميكانيكية كثيرة وطرائق صناعية لا حصر لها . مجد المؤلفون التقنية . ودهش دالمبير في « الخطبة التمهيدية لدائرة المعارف » من « الاحتقار الذي ينظر به الى الفنون الميكانيكية » و« مخترعها انفسهم » ، ومن أن « اسماء هؤلاء المفضلين على الجلس البشري مجهولة كلها تقريبا » ، في حال أن تاريخ مخربه ، واعني بهم الفاتحين ، لا يجمله احد . ومع ذلك ، ربما توجب البحث لدى الصناعيين اليدويين عن اشد البراهين إثارة للعجب على بصيرة العقل وطول اناته وامكاناته وطرح على نفسه هذا السؤال : « . . . وكى لا نخرج من نطاق صناعة الساعات ، لماذا لا يحظى اولئك الذين ندين لهم بزنبرك الساعة والمنظمة والدقاق بالاعتبار نفسه الذي حظي به اولئك الذين عملوا على التوالي على تكميل الجبر ؟ » . وذهب فولتير في استغرابه الى أبعد من ذلك :

« من يستطيع تصديق ذلك يا ترى ؟ الجنون الذي يكرر سفاسف الفلسفة المدرسية طوال سنتين يتلقى جلاجه وصولجانه في احتفال رسمي ، فيتبختر ويقرر ؛ وهي مدرسة «بدلام» هذه التي تمهد الطريق لبلوغ المراتب السنية والثروات . وما وبونا فنتورا يتألقان فوق المذابح ، واولئك الذين اخترعوا المحراث والمكوك والمنجرة والمنشار لا يعرفهم احد . » .

ما كانت تقدمات الصناعات لتصبح ممكنة بدون رؤوس اموال وبدون وسائل دفع خاصة . والحال ما انفكت رؤوس الاموال خلال القرن تفرز رؤوس الاموال وتتكسد ، ووسائل الدفع تتكاثر ، والاسعار والارباح والأجور الاسمية ترتفع . ازداد حجم المعادن الثمينة من جهة وتكاملت وانتشرت التقنيات المآلية من جهة اخرى .

ان التجارة ، ولا سيما التجارة البحرية والاستعمارية الكبرى قد جمعت رؤوس
 الاموال في اوروبا الغربية حيث تكدس ، طوال القرن ، معظم انتاج الذهب
 والفضة في العالم ، تكدسا مستمرا متزايدا . وكان المنتج الأكبر مستعمرة
 المكسيك الاسبانية حيث استثمرت مناجم جديدة ؛ ولكن هنالك مستعمرات اخرى كثيرة
 انتجتها ايضا^(١) . افاد تدفق المعادن الثمينة دول اوروبا الغربية في الدرجة الاولى . فقد دخل
 على انكلترا ذهب وثير من البرازيل بعد معاهدة « ميتوين » (١٧٠٣) بينها وبين البرتغال ؛
 ومنذ معاهدة باريس (١٧٦٣) وضمت يدها على تجارة هندوستان ، باب الشرق الأقصى ،
 واستأثرت بمعادنها الثمينة . وتلقت فرنسا معدنا ثميناً وافراً من الامبراطورية الاسبانية بفضل
 التجارة الكبرى التي نشطت بينها وبين اسبانيا وحتى بينها وبين الامبراطورية مباشرة بالاتفاق
 مع بعض تجار قادش الاسبانيين . واستفادت هولندا من هذا التيار ، ولكن بنسبة دنيا ، لأن
 صناعتها تأخرت وانخفض حجم صادراتها تدريجياً . أما دول اوروبا الاخرى فلم تستفد منه الا
 استفادة محدودة ، لأن بعضها ، كاسبانيا والبرتغال ، كان شبه خال من المعادن الثمينة بفعل
 اضطراره الى استيراد الكثير من البضائع ، والبعض الآخر ، كالنمسا وبروسيا وروسيا ، كان
 بعيداً عن البحار دون مستعمرات ودون تجارة كبرى على بعض الأهمية .

ولكن المعادن ما كانت لتكفي للمدفوعات . فان سرعة تداولها المحدودة قد جعلت الناس
 يشعرون شعوراً اعظم بنقص حجمها . يضاف الى ذلك ان نقلها كان باهظ الاكلاف ومحفوفاً
 بأخطار السرقة . فكان باستطاعة الفرنسيين ، حتى في السنة ١٧٨٢ ، أن يروا ، في المدن
 التجارية الكبرى ، في العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، بين الساعة العاشرة والساعة
 الثانية عشرة ، حاملين يسرون بسرعة في كل الاتجاهات ناقلين اكباساً ملأى بالفضة تنوء عليهم
 بثقلها . وكانت وكالات الشحن تنقل بين مدينة وأخرى اكباساً تتسع لـ ٢٠٠ دينار يساوي
 الواحد منها ٦ ليرات ، وتصر في صناديق مسطحة مغطاة بالتبن ومشدودة بالحبال ، لقاء ليرتين
 لكل الف ليرة حتى مسافة ٢٠ فرسخاً ، وليرة لكل ١٠٠٠ ليرة عن كل ١٠ فراسخ فوق
 الـ ٢٠ فرسخاً . فكان هناك ، كما هو جلي ، ما يحمل المشتري على التردد والتراجع .

(١) قدر سونبر الانتاج العالمي ، بالكيلوغرامات ، كما يلي :

نسبة الزيادة	ذهب	فضة	
% ١٠٠٨	١٢٨٢٠	٣٣٥ ٠٠٠	١٧٢٠ - ١٧٠١
% ٢١٠٢٦	١٠٠٨٠	٤٣١ ٢٠٠	١٧٤٠ - ١٧٢١
% ٢٣٠٦٤		٥٣٣ ١٤٥	١٧٦٠ - ١٧٤١
% ٢٢٠٣٤		٦٥٢ ٧٤٠	١٧٨٠ - ١٧٦١
% ٣٤٠٦٧		٨٧٩ ٠٦٠	١٨٠٠ - ١٧٨١

ولا عجب والحالة هذه ، اذا ما اتقن القرن الثامن عشر كل التقنية المصرفية .
النقد الورقي
احدثت هذه الاخيرة شيئاً فشيئاً منذ القرون الوسطى في كبريات مدن
التجارة الدولية ، البنديقية ، جنوى ، جنيف ، انفرس ، اوغسبورغ ، وحسنت تحسيناً عظيماً في
القرن السابع عشر على يد الهولنديين الذين صدروها الى انكلترا ، وتقدمت تقدماً كبيراً بفعل
معاملات البيع والشراء بالدين التي فرضتها حرب وراثة عرش اسبانيا ، فتكاملت في القرن
الثامن عشر وانتشرت في دول البر الاوروي الكبرى عن طريق فرنسا وبلغت شرقي اوروبا .

تعاطى العمليات المصرفية على أنواعها مصارف دولة (لندن ، امستردام)
الادراق النقدية
ومصارف خاصة ، وكتاب عدل ، وسماسرة تجارة . فكان هناك الإيداع ،
والتحويل ، والورق النقدي ، والسفتجة ، والحسم ، وشركة التوصية ، والقروض لقاء رهونات
عقارية أو اوراق مالية أو قروض لأجال قصيرة ، والدخول الدائمة ومدى الحياة ، والاسهم ،
والسندات . ومورست في المصافق ، بواسطة الدلالين ، تجارة الاوراق المالية ، والصفقة المؤجلة ،
والتسليف على الاوراق المالية ، والبيع لأجال قصيرة .

وارتبطت التأمينات على الحياة بهذه المضاربات . وقامت منذ ذلك الحين منازعات ضارية بين
المساومين على الارتفاع والمساومين على التذني ، فحاول هؤلاء بحجم المبيعات ،
وارلئك بحجم المشتريات ، لأجال قصيرة ، تحويل الاسعار لمصلحتهم . واستغلت
الاحبار السياسية : الانتصار ، الهزيمة ، المعاهدة ، المفاوضات ، ارتقاب تغيير وزير أو عشيقه ،
وانحياض سياسي جديد ، التي كانت تنبىء بأن سوقا استثمارية أو صفقة كبرى ستنتقل من يد الى
يد اخرى فتؤثر تأثيراً عظيماً جداً في اسعار اسهم الشركات التجارية . ومنذ ذلك الحين لم تكن
الاشاعة الكاذبة والديسة السياسية امرأً مجهولاً . جرى النقد مجرى السياسة وغالباً ما أثر فيها .
استخدمت من ثم كافة الاساليب الهامة ولكنها لم تستخدم استخداماً سوياً في كل مكان .

دانت هولندا منذ زمن بعيد لتجارها العالمية بالعمولة ولدورها كـ « جواله
النقد الورقي
في هولندا
البحار ، بكونها الدولة الاوروبية التي استخدمت فيها كل هذه الاساليب
استخداماً ماهراً جداً في مصرف امستردام ومصنفها . في امستردام انجر
بسفنتجات اوروبا جمعاء ، وفي مصنفها حدثت اسعار كافة الاوراق المالية . وابتكر الهولنديون
في القرن الثامن عشر القرض لقاء رهونات لفلاحى « سورينان » : فكان دين المدنيين مؤمناً عليه
بالمغارس . ولم تتح قروض هولندا استثماراً تمتلكاتها زراعياً فحسب ، بل استثمار الهند الغربية
(انثيل) الفرنسية والانكليزية والمستعمرات الدانمركية ايضا . وقد قدمت هولندا اكثر من
ثلث رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع الصناعية المؤسسة في مختلف الدول الالمانية . ففي
السنة ١٧٨٧ بلغت دخول هولندا في الخارج ١٢٣ مليوناً ، أي ما يعادل ٦٢ فلورين لكل
هولندي ، وهو مبلغ ضخم لعمري . إلا ان اهمية الهولنديين النسبية قد اخذت في التذني منذ

السنة ١٧٥٠ بتوسع مستعمرات البلدان الاخرى وتجارتها وصناعتها . وبصورة خاصة تأخرت الصناعة الهولندية لأن الدول التجارية قد حدثت من تصدير الخامات التي يفتقر إليها الهولنديون . فأرغم الهولنديون من ثم على شراء قسم كبير من المصنوعات التي سيقايضونها ، فباعوها بأسعار تفوق اسعار منتجها . وتقهقرت بالتالي تجارتهم وتأخر تدفق رؤوس الاموال على امستردام .

تفوقت انكلترا تفوقاً متزايد الامة بفضل ازدهار تجارتها البحرية الكبرى في انكلترا . بعد معاهدة اوترخت (١٧١٣) التي حدثت من المزاومة الفرنسية ، ولا سيما بعد معاهدة باريس (١٧٦٣) التي فتحت ابواب الهند للانكليز ، تدفقت رؤوس الاموال . وزع مصرف سكتلندا ارباحاً تعادل ٢٠٪ . وبفضل مصرف انكلترا ومصفاها ، سارت لندن قدما في طريق التفوق على امستردام . لجأت الدولة الانكليزية ، التي ثقلت عليها الديون بسبب حرب وراثة عرش اسبانيا ، الى قروض كثيرة ، ولكنها اعتمدت في عقدها اساليب حكيمة . فلم تقترض إلا في حالات استثنائية ، لا لتغطية العجز ولا لتأمين الانفاق العادي . سددت المتأخرات تسديداً شديداً بدقة باحداث ضرائب مقابلة . وفرت كافة التسهيلات للأفراد لبيع الدخول : الملك يقصد سمساراً يتصل بالشاري ؛ الملك يوقع تحلية مؤلفة من سطرين على قصاصة ورق ؛ يذهب والشاري الى المكتب حيث توجد سجلات الاملاك العامة ؛ فيتم الانتقال دون نفقة من حساب البائع الى حساب الشاري ؛ ولا تستلزم هذه العملية كلها سوى ١/٨٪ يشكل عمولة السمسار . اما في هولندا وفرنسا فكان متوجبا على الملك الاخير ان يحتفظ بوثائق تسلسل انتقال المالك إليه . وكانت هنالك في فرنسا صعوبات اخرى كثيرة ايضاً .

ارتفع عدد الشركات المساهمة ارتفاعاً كبيراً : شركات التأمين ضد الحريق ، على الحياة ، على الزواج ، الخ . فقد بلغ هذا العدد في انكلترا ، منذ اوائل القرن ، ١٤٠ شركة مساهمة . في ٢٦ آذار ١٧١٤ اصدر « جوت فريك » في لندن اول بيان اسبوعي بالاسعار . وفي حى المضاربة ، التي حدثت في السنة ١٧٢٠ ، بتأثير مثل « لو » في فرنسا ، تأسست شركات غريبة جداً : شركة رأسمالها مليون جنيه استرليني من اجل عجلة دائمة الدوران ، واخرى لأجل تكرير مياه البحر . وعلى غرار « لو » في فرنسا تقدم مصرف انكلترا وشركة البحر الجنوبي باقتراح الحلول محل الدولة تجاه دائيتها مقابل فائدة تناقصية يستوفيانها من الدولة . وأدت المضاربة الجاحفة في السنة ١٧٢٠ ، كما حدث في فرنسا ، الى تضخم مفرط في الاسهم ، ثم الى اختلال وانهار ، ولكن فقدان الثقة في الشركات المساهمة لم يدم طويلاً ، كما في فرنسا ، إذ لم تمض سنوات معدودات حتى استعادت هذه الشركات ازدهارها .

وكانت جنيف مركزاً مالياً عظيم الامة . وقد بلغ من مهارة تجارها الماليين ان قال عنهم الدوق « دي شوازلو ، ما يلي : « ان اتقائهم للحساب قد بلغ مبلغاً يوجب علينا ، إذا ما رأينا

جنيفياً يلقي بنفسه من نافذة الدور الثالث ، ان نخذو حذو بكل طمانينة ، اقتناعاً منا بأننا سنكسب ٢٠٪ بالسير على خطاه .

في فرنسا تأخرت فرنسا عن ركب كل هذه الدول لان التجارة فيها أقل نمواً وتقدماً ، ولأن الكاثوليكية فيها دين الدولة . الحق القانوني والحق المدني يجرمان الفائدة التي تؤمن كسباً دون مشقة ودون مسؤولية . ولا يجيزانها الا عندما يتعرض المالك لحظير أكيد كما في الشركات البحرية مثلا . في السنة ١٧٤٥ تقدم بعض صيارفة « انغوليم » ، الذين عجزوا عن استرداد مالهم من مدينتهم المتمنعين ، بدعوى الى القضاء ، ولكنهم فوجئوا بالحكم عليهم لعدم صحة الدعوى : خالفوا القانون بالادانة بالفائدة ؛ فخسارتم من ثم قصاص عادل .

الا ان الدين بالفائدة انتشر بحكم الضرورة . لا بل ان فرنسا عرفت ، قبل « لو » ، الشركات المساهمة ، والسند لأمر حامله ، والصفقة المؤجلة ، اقله بأشكالها الاولى . وخلال القرن الثامن عشر ادخل بعض السكتلنديين ، من امثال « لو » ، والسويسريين من امثال « نكر » و « بنشو » و « كلافيير » ، الى فرنسا ، كل التقنيات المعروفة في البلدان الأخرى ، وقد تمت في فرنسا آنذاك ام الاختبارات وابعدها اثرأ دولياً .

ان ما جعل الناس يعملون بأراء جون لو ليس حاجات التجارة الكبرى ، على الرغم من نموها مع اسبانيا وهولندا وانكلترا وألمانيا والهند حتى السنة ١٧٦٠ ، ومع الانتيل طوال القرن كله ، بل حاجات دولة اصيحت على قاب قوسين من الافلاس في اعقاب حروب لويس الرابع عشر . التقصد في نظر لو وسيلة مقايضة . فالسأله الكبرى هي من ثم الاسراع في ترويض النقد لمضاعفة الشراء والبيع باطراد ومضاعفة الانتاج بالمقابلة . وجلي بالتالي ان «لو» من مشايخي النقد الورقي المتحمسين . افلح في اقتراحه على الحكومة الحلول محلها تجاه دائئتها ووفاء الدين تدريجياً . استحصل من الوصي على العرش ، في السنة ١٧١٦ ، على اجازة بتأسيس مصرف خاص كانت ثلاثة ارباع رأسماله ديوناً على الدولة . وفي السنة ١٧١٧ ، أسس شركة الغرب التي كان مفروضاً ان تستخدم اوراقاً نقدية يصدرها المصرف والتي قبضت ثمن أسهمها سندات ملكية . ثم اشرك في جمعية جبارة اطلق عليها اسم « النظام » ، مصرفه الذي اعطي صفة المصرف الملكي في السنة ١٧١٨ ، وشركة الغرب التي تحولت في السنة ١٧١٩ الى شركة الهند ، بغية استثمار الميسيسي وكندا والانتيل وغينيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى ؛ وضم اليها التزام التبغ وسك النقود وجباية الضرائب . فكان ان الآمال في ارباح طائلة ، التي قوتها دعاوة ماهرة ، رفعت سعر الأسهم من ٥٠٠ ليرة الى اكثر من ١٨٠٠٠ ليرة . الا ان ربيحة الـ ٤٠٪ التي بُشِّر بها في كانون الاول ١٧١٩ ما كانت لتمثل ، بالنسبة لهذا السعر ، الا ١٪ أو أكثر بقليل . اخذ المضاربون بالبيع . وانخفضت قيمة الأسهم . وتضعضت الثقة حتى

في اوراق المصرف النقدية ؛ فتزاحمت الجماهير مطالبة بأن تدفع لها حقوقها نقوداً معدنية . ولكن ما كان اصدره لو من النقد الورقي قد فاق موجودات صناديقه من هذه النقود ، فاضطر المصرف الى اقفال ابوابه . وفي كانون الاول ١٧٢٠ تخفضت قيمة سهم الشركة الى ليرة ذهبية ، فأفلس « لو » وتوارى عن الانظار . ان لو قد خفف وطأة دين الحكومة وانض المشاريع التجارية والصناعية وأحدث انقلاباً اجتماعياً وولد في الناس كراهية النقد الورقي والبيع والشراء بالدين . « منذ « لو » ، بات [النقد الورقي] موضوع اشمئزاز لا ببل موضوع رعدة وفرح » . أنف الفرنسيون من المصرف وذكره . فتأخرت انطلاقة الثقة في المعاملة ، وتأخرت معها الانطلاقة الصناعية والتجارية .

في السنة ١٧٢٤ فتح مصفق باريس ابوابه . ولكن تسليم الاوراق المالية حدد بأربع وعشرين ساعة ؛ وحرمت الصفقة المؤجلة . وقد ووفق على فتحه في السنة ١٧٨٠ . استفاد الوزير « كالون » منه لمحاولة رفع سعر أسهم شركة الهند بوسائل الاب « دسبانياك » . ولكن القضية انتهت الى غير ما يشتهي ذورها وحلت امام القضاء في عهد الثورة .

في السنة ١٧٧٦ أسس سويسري وسكتلندي « صندوق الحسم » متجنبين بحكمة كلمة مصرف . حسم الصندوق السندات التجارية وتقبل الودائع وأصدر سندات لم تعرف قط رواجاً خارج باريس . ومنذ السنة ١٧٧٦ تأسس يانصيب فرنسا الملكي الذي اصدر في السنة ١٧٨٣ سندات تعين فائدة لحاملها وتسدّد خلال ثماني سنوات ، كانت بمثابة للسندات الطويلة الأجل على الخزانة . وفي السنة ١٧٧٧ تأسس « مصرف المحبة » لمحاربة الربى فأقرض التجار ، أهم زبنة آنذاك ، أموالاً لقاء رهونات .

منذ السنة ١٧٥٠ ، ولا سيما منذ السنة ١٧٨٠ ، انتشرت الشركات المساهمة انتشاراً واسعاً: شركات معادن الفحم الحجري ، مؤسسات التمدين ، مصانع الغزل ، المصارف ، التأمينات البحرية . تولت « صحيفة باريس » وصحيفة فرنسا نشر لائحة الأسعار . وتأسست بشكل شركات مساهمة شركة « الزين » (١٧٥٧) وشركة « انيش » (١٧٧٣) لاستخراج الفحم المعدني ؛ وشركة القطن ، في « نوفيل - لارشفيك » على مقربة من ليون (١٧٨٢) ، التي وزع رأسمالها على ٢٤ سهماً قيمة كل منها ٢٥٠٠٠ ليرة ، فساعد على تزويد المصنع بأحدث الآلات ؛ ومصانع الفولاذ في امبوي (١٧٨٤) التي حدد رأسمالها بمليونين ؛ وأول شركة فرنسية للتأمين ضد الحريق اسمها السويسري كلافيير (١٧٨٨) ؛ وعدد كبير آخر من الشركات ، لتبطين السفن مثلاً ، او تنقية الفحم الحجري ، او صناعة التراب العضوي القابل للاحتراق . واستخدم السند لحامله لتأسيس مصنع « له كروزو » في السنة ١٧٨٢ كي ينصهر فيه ، في السنة ١٧٨٥ ، معمل الملكة للبلور ومعمل صب المعادن الملكي في « اندريه » و « مونسلين » ، برأسمال قدره عشرة ملايين موزعة على ٤٠٠٠ سهم ، فبات الملك مساهماً .

وهذا دليل على ان الصناعة الكبرى واستخدام الآلات قد ارتكزا الى الدين .
 في البلدان الأخرى ، عرفت المحلات التجارية الكبرى الدين منذ زمن بعيد . فمنذ السنة ١٧٢٠ قامت في ميمورغ شركات تأمين بحري .
 ولكن الدول الكبرى كانت جدد متأخرة . ففي الدول النمساوية ، أراد شارل السادس ، متأثراً بمثل « لو » ، تأسيس « شركة اوستند » ممولاً على المؤسسات التجارية والمصارف في اوستند وانغرس . ومنذ السنة ١٧٥٠ أصدرت النمسا نقداً ورقياً ، وخذت حذوها كل من اسوج وروسيا واسبانيا . ولم يكن هناك مصفق رسمي بل مصافق « سوداء » في برلين وفيينا . وأسس فردريك الثاني مصرف بروسيا في السنة ١٧٦٣ حين عجز عن مواجهة واجباته في أعقاب حرب السنوات السبع .

الثورة الصناعية
 في انكلترا
 اننا نشاهد في انكلترا المرحلة الاخيرة لانتقال اقتصاد مبني على الماء والخشب الى اقتصاد مبني على الفحم والحديد . في السنة ١٧١٤ ، ما زال الخشب يستخدم لكل شيء . لاشك في انه استخدم وقوداً ، ولكنه هو ما وقتر الانسان لصناعات المنسوجات والزجاج ، والقار للسفن . واستخدام كذلك في دباغة الجلود . ولكن انكلترا عانت « مجاعة » خشب عرضت كل نموها للخطر . لذلك فنحن نشاهد الانتقال من اقتصاد مبني على استثمار المحاصيل النباتية والحيوانية الى اقتصاد مبني على استثمار المنسوجات المعدنية . ففي تبييض المنسوجات مثلاً ، استخدم اللين الحازر . ولكن الزراعة ما كانت لتوفر المنظفات الكافية لصناعة المنسوجات التي ادى ذلك الى عرقلة انطلاقتها . فبات لزاماً استخراج المنظفات من المواد المعدنية ، وهذه هي مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان التي لعبت دوراً كبيراً .

الصناعة المنزلية
 في السنة ١٧١٤ ، لم تكن الصناعة ، في انكلترا كما في اي بلد آخر ، المورد الأهم ، مع انها تمت فيها اكثر من غيرها . كان اكثر اشكال الصناعة انتشاراً في الصناعة المنزلية التي ازدهرت في صناعة الصوف الهامة بنوع خاص . فان عمالاً يدويين كثيرين من وزعوا حياتهم بين الصناعة والفلاحة قد امتلكوا ادواتهم . كانوا يشترون المادة الخام ويحولونها في منازلهم بمساعدة زوجاتهم واولادهم ، وبعض العمال احياناً . وكانوا ينقلون مصنوعاتهم على عربتهم التي يجرها حصانهم ببقية بيعة في سوق البلدة . وكانوا يزورون بضعة هكتارات من الاراضي . ويربون بعض الماشية ببقية تأمين كفافهم من الموارد . فهم من كانوا ينتجون اقمشة وسكاكين شفيد واسلحة برمنغهام وادواتها المعدنية ولعبها ، ودبابيس بريستول ، اي قسماً كبيراً مما كان يصدر الى موانئ الشرق الادنى وحق الى اميركا .

التركيز التجاري
 تقسيم العمل والانتاج بالجملة
 الا ان العلائق ببلدان ما وراء البحار ، والمقايضات المتزايدة ، والطلب المتعظم ، وحاجات الزين الجدد او اذواقهم الخاصة ، والوقوف في وجه المزاحمين ، قد ادت الى تركيز الصناعة مركزاً تجارياً . اراد بعض التجار الجواخين وبائعي الادوات المعدنية ولعب الاولاد نوعية فضلى ؛ وسعراً

ادنى ايضاً ، فارادوا في سبيل هذه الغاية فرض طرائقهم الصناعية على المنتجين وفرض كسب محدود . وتوصلوا الى ما ارادوا بما يترويد فلاحى المناطق الخاوية من الصناعة بالانوال ، واما بالاستفادة من جذب الحوائد وحاجات العمال المنزليين ليستولوا على ادواتهم تسديدا لاموال يسلفونهم اياها ، واما بتوفيرهم على العامل مالك الأدوات انتقلاته للبحث عن المادة الخام ولبيع مصنوعاته . اخذوا على انفسهم ايجاد الموائين والشارين . كان ذلك اول تقسيم للعمل جعلهم اسياذ السوق ، ومن ثم اسياذ المصنوعات ومصنعتها . فالتاجر الذي عرف باسم الصناعي او صاحب المصنع ، يقدم المواد الخام ، اى الصوف والقطن والقنب والحديد ، والأدوات والنماذج . اما العامل فينفذ العمل . ثم يعود الصناعي فيطلب الأشياء المصنوعة ويبيعها . وهكذا اصبح العامل اليدوي عاملاً مأجوراً بعد ان كان صناعياً مستقلاً . هذه هي مرحلة المصنع ، التعبير الذي لا يعنى مؤسسة كبرى بل مجموع المصانع الفردية التي تعمل لأجل تاجر هو متعهد رأسمالي . وضم المصنع احياناً ، بالإضافة الى ذلك ، مشغلاً كبيراً تجمع فيه المصنوعات لأعمال الصقل النهائية . ومنذ هذه المرحلة ادخلت تحسينات كبرى على تقنية الصناعة : « توزيع العمل » و « الصناعة بالجملة » ، قبل اختراع الآلات واستعمالها . بدأ توزيع العمل بصناعة الصوف حيث مهد له السبيل نوع التقنية : الغسل ، التقشير ، الطرق ، الحلاجة ، الندافة ، الغزل ، الحياكة ، الجز ، الكشط . فان المهارة التي يحققها العامل الاختصاصي في احدى العمليات زادت من انتاجه كماً ونوعاً في الوقت نفسه وخفضت سعر الكلفة لانتاج افضل . ولا عجب من ثم اذا ما تكاملت هذه المهارة على مر الأيام . فاقضت حيث امكن ذلك الى الصناعة بالجملة ، كما في مصنع الدبابيس الصغير ، الذي وصفه « آدم سميث » في السنة ١٧٧٦ ، وحيث قام كل عامل اما بوحدة ، واما باثنتين او ثلاث من العمليات الثمانية عشر التي تطلبها صناعة الدبوس الواحد ، وتوصلوا بعمل يدهم الى انتاج ٤٨٠٠٠ دبوس يومياً .

وكان هنالك اخيراً ، في الصناعات التي استلزمت آلات معقدة التركيب والمعامل وباهظة الاكلاف ، بعض « معامل » تجمع فيها الأجهزة والعمال ، كما في صناعة الحرير مثلا . فقد جهزت بعض الشركات المساهمة بعض مناجم النحاس ؛ كما امتلك بعض ارباب معامل الحديد من النبلاء ، مصهرا او مصهرين ، ومعمل حدادة وانتجوا خمسة وستة اطنان اسبوعياً .

وتحققت تحسينات جديدة بفضل نمو التجارة . ان هذه الأخيرة خلقت الحاجة : زين جدد في بلدان ما وراء البحار ، ادواق جديدة عند الزين الانكليز ، منافسون جدد . استوردت ليفربول من الشرق منسوجات قطنية ادى النجاح الذي عرفته الى قيام صناعة ماثلة في منشستر ، وغدت ليفربول تستورد المادة الاولى ، القطن الخام . الا ان ذلك اوجب حينذاك مجاراة عمال آسيا القانعين بمستوى حياة

مئتين ، والمتجملين بخفة يدوية لا نظير لها عند الأوروبيين . فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاختراع آلات جديدة . وقد سبق أن لفت أحد الأبحاث المغفلة الانتباه « الى ان تجارة الهند الشرقية ، بتوفيرها مصنوعات ادنى سعراً من مصنوعاتنا ، سترغمنا في الأرجح على اختراع طرائق وآلات تتيح لنا ان ننتج بيد عاملة قليلة وبكلفة متدنية ، ومن ثم ان نخفض سعر المصنوعات » . ان الآلات كلها ، والاختراعات كلها بصورة عامة ، ولدت من فقسدان التوازن الاقتصادي ومن الحاجة الى تخفيض اسعار الكلفة ، ولكنها ولدت كذلك من امكان الحصول على رؤوس اموال بفائدة ضئيلة وتحقيق ارباح كبرى . وقد كثرت في البدء ، كما هو طبيعي ، في الصناعات التي لم تكن خاضعة لأنظمة التعاونيات ، كصناعة القطن مثلاً ، وهي احدث عهداً من ان يأخذها المشرع بعين الاعتبار . ففي الصناعة القطنية حدد عرض الأثواب بعرض ذراعي العامل ، بسبب مرور المكوك ، وإذا ما طلب ثوب اوسع عرضاً توجب استخدام عاملين وفاق ارتفاع سعر الكلفة ارتفاع الأرباح . وهذا ما حدا بـ «جون كاي» الى البحث عن مكوك المتحرك ، والى ابتكاره في السنة ١٧٣٣ ، فأتاح هذا المكوك انتاج اثواب بالعرض المطلوب . ثم عم استعماله حوالى السنة ١٧٦٠ . وفي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ، حدث نقص المحروقات من انتاج الحديد وحديد الصب ، اذ ان اشجار الغابات كانت تقطع لتوسيع المراعي . فتوجب استيراد الحديد من السويد لصناعات برمنهام وشيفيلد ، ولكنه كان باهظ الثمن ورفع سعر الكلفة رفماً مفرطاً ، بينما تعرض ارباب المصاهر من الانكليز للافلاس . فدفع ذلك بعض آل «داربي» ، في السنة ١٧٣٥ ، الى ابتكار الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، لأن الفحم الحجري غير المقطر ينشر مركبات كبريتية تجعل حديد الصب قصماً . اما الآلة البخارية فقد ولدت من عجز الانهار عن تحريك عجلات الآلات ، وعن صعوبة احداث الخزانات ، الباهظة الاكلاف على كل حال . واستخدمت الآلة التي سبها «نيوكومن» (١٧٠٥) بالبخار الجوي لرفع الماء الذي يسقط بعد ذلك على العجلات ذات اللوحات ، ولتحريك المضخات بغية تفرغ ماء المناجم .

لم تكن كل هذه الاكتشافات ، في البدء ، عمل العلماء ، بل عمل محترفين مهرة المحترعون متمكنين من الطرائق التقنية المستعملة وواقفين بالممارسة على موضوع أبحاثهم . فان جون كاي قد كان حائكاً في البدء ثم صانع منافس للانوال . ومن بين مخترعي آلات الغزل ، كان « هارغريفز » ، الذي ابتكر في السنة ١٧٦٥ ، آلة لغزل عدة خيوط دفعة واحدة ، حائكاً ثم نجاراً ؛ وكان «توماس هايز» ، الذي ابتكر «الغزل المائي» (١٧٦٧) عاملاً نفاشاً بسيطاً ؛ وكان كرومبتون ، الذي ابتكر آلة تجمع بين الآلتين (١٧٧٩) ، غزلاً وحائكاً . وكان كلارتريت ، مبتكر آلة الحياكة ، راعياً محباً للبشر ، وبجرد هاور في علم الآليات . وكان آل داربي ارباب مصاهر ؛ وتحقق تحويل حديد الصب الى حديد ، في السنة ١٧٨٣ ، على يد «بيتر أونيوتر» ، رئيس العمال في احد المصاهر ، « وهنري كورث » ، احد ارباب المصاهر . وان الآلة البخارية ، التي اكتشفت في القرن السابع عشر وجعلت صالحة للعمل على يد نيوكومن ،

الحداد والقفال ، أصبحت عملية حقا على يد « جايس وات » ، صانع الآلات المخترية . ولكن هذا الأخير أفاد من قياس الحرارة الذي حققه « بلاك » . وهكذا انضم العلم الى التقنية . وبعد تحقيق هذه الطرائق كلها ، درسها العلماء واكتشفوا نواميسها ، وتوقفوا بواسطتها ، في القرن اللاحق ، الى اكتشافات علمية وتقنية جديدة .

لقد سبق هذه الاختراعات كلها مرحلة طويلة من السعي والبحث لنجاح الاختراعات والاختفاق . فقبل هارغريفز وهابز ، اكتشف « جون ويات » و « ولويس بول » آلة غازلة جيدة (١٧٣٣ - ١٧٣٩) . وقبل آل دربي ، ييدر ان « دادي » ، قد توصل ، منذ أواخر عهد جاك الاول ، الى اكتشاف مبدأ الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، وهنالك حالات اخرى كثيرة . ولكن المخترعين الاول قد اخفقوا في البدء بسبب عدم كفاءتهم العملية واقتقارهم الى الروح التجارية . اتقنوا التفكير والادراك والاكتشاف دون النقاش والحساب والبيع والشراء . وغالبا ما كانوا وجلين وجزعين ومتريبين دون طموح حقيقي اقتناع بالاكتشاف ، شأن هابز ووات . وقد اصطدموا على الاخص بمقاومات الصناعيين الحذرين ابدأ بسبب خوفهم من خسارة المال ، ومقاومات العمال المعادين للآلة الذين يخشون فقدان مرتزقهم فيحطمون ويحرقون الآلات . وقد توجب ، حتى تفرض هذه الآخرة نفسها ، ان تصبح الازمات الاقتصادية ، التي دقمت الى البحث عنها ، من الشدة بحيث تبدو الآلات بوضوح وكأنها السبيل الوحيد الى التغلب عليها . مات معظم المخترعين مغمورين وفقراء . ولكن سرهم سرقة واستخدامه الصناعيون الذين رفضوا مكافأته . فان « آر كرايت » قد انتحل آلة هابز الغازلة واكتشافات ثانوية عديدة حققها كثيرون غيره . كان تاجراً ماهراً ، فنجح وجمع ثروة طائلة وغدا « سير » وعظيماً بين العظماء . وقد عزا اليه مواطنوه إثراء انكلترا ونجاح الصراع الطويل ضد فرنسا ، مغفلين عدم استقامته . وجعل « كارليل » من آر كرايت احد ابطاله وقارنه بنابليون . وحالف جايس وات الحظ بموافقة بولتون البوريتاني الذي شجعه وسانده وبنى الآلة وجعلها تفرض نفسها بعد سنوات طويلة من الصراع .

حدث كل اختراع تخلخل اقتصاديا جديداً أوجب البحث عن آلات رابطة الاختراعات جديدة . فقد تولدت الاختراعات . ارتفعت نسبة انتاج المنسوجات في صناعة النسيج ارتفاعاً كبيراً بفضل المكوك المتحرك بينما بقي الخيط ينزل بالدولاب . اتقر الحاكة الى الخيط لا سيما في فصل الصيف حين ينصرف الغززون والغزالات الى اعمال الحصاد . وقد لجم عن ذلك ان التجار الذين تمهدوا بتلبية طلبات البضائع ، معولين على طاقة الانوال ، لم يستطيعوا التنفيذ بسبب اقتقارهم الى الخيط . فاضطروا الى تسريح عمالهم وخسروا بعض زبائنهم . اشتدت الازمة حوالي السنة ١٧٦٠ بسبب الانتصارات الانكليزية في الهند التي افضت الى ازدياد الطلب . وهذا ما اوحى الى هارغريفز باختراع آله الغازلة (١٧٦٧) التي

اتاحت لمعامل واحد في منزله ان يغزل بين ٨ و ٨٠ خيطا معا . انتجت هذه الآلة خيطا دقيقا ولكن هذا الخيط كان راهيا وقصبا . اما آلة هايز الغازلة (١٧٦٨) ، وقوامها اساطين وسفاقيد عمودية ، فقد انتجت خيطا متينا ، على بعض الثخانة ، لم يتح بلوغ دقة الاقمشة الشرقية . واما آلة كرومبتون (١٧٧٩) فقد انتجت خيطا متينا جدا غاية في الدقة صالحا جدا لصناعة الاقمشة الموصلية . ولكن الغزال تقدم آنذاك الحائك الذي ما زال يعمل بيديه . ولم يعرف الغزلون كيف يصرفون بضائعهم . فأخذوا يصدرون بعضها الى السبر الاوروي . ولاح من ثم خطر المنافسة للاقمشة الانكليزية . فكان ذلك منطلقا لمساعي كارترت ، في السنة ١٧٨٥ ، في سبيل ابتكار نوله الآلي الذي نجح نجاحا تاما منذ السنة ١٨٠٠ . والدليل على ذلك ان نولين بنجاريين ، يراقبها فتى في سن الخامسة عشرة ، كانا ينسجان ثلاثة اواب ونصف الثوب ، في حين ان عاملا ماهرا يستخدم المكوك المتحرك لم ينسج في الوقت نفسه سوى ثوب واحد . فتيسر استهلاك الخيط المغزول ؛ وانخفض سعر الاقمشة ؛ وارتفع عدد الزبائن .

مناعة استخراج المعادن ومعالجتها
 إن الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، الذي ابتكره آل « داربي » ، قد زاد من كمية الحديد المصبوب . ولكن معالجي المعادن لم يعرفوا كيف يحولونه الى حديد . فتجمعت منه كمية كبرى عجزوا عن بيعها في حين مست الحاجة الى الحديد الذي ما زال يصنع بواسطة الفحم . فقام « اونيونز » و « كورت » بتجارب كثيرة وتوقفوا الى تحويل حديد الصب الى حديد (١٧٨٣ - ١٧٨٤) : يخصص حديد الصب بنار الفحم المعدني المقطر ، فيفقد جزءا من كربونه ؛ ثم يذاب مع خبث غني بأوكسيد الحديد ؛ فيتحد ما تبقى فيه من كربون بالأوكسيجين ، ويتجمع المعدن النقي كتلة شبيهة بالاسفنج ، تطرق لتتقى من الخبث ، وتصفح بين الاساطين . وقد اكتشفت هذه الطريقة دون ان يعلم المكتشفان أن حديد الصب يحوي الكربون المطلوب ابعاده . فكان أن الخبرة سبقت النظرية .

في السنة ١٧٥٠ ، اكتشف « هنتسن » الفولاذ المائع باذابة الحديد في بوتقة من الحزف المعادم الذوبان مع نزر يسير من الفحم والزجاج المسحوق بمثابة كاشف كيميائي . ومنذ السنة ١٧٧٠ انتج فولاذ لا نظير له اتاحت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد انتاجه بكميات كبرى .

استلزم آلة « نيوكومن » الجوية محروقات لا تتناسب كلفتها والنتائج المحققة .
 الآلة البخارية
 حين يرفع البخار المكبس ، يدخل بعض الماء البارد في وعاء المضخة : فيخثر البخار ويحدث فراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية بفعل الضغط الجوي . ولكن الماء المدخل في وعاء المضخة المرتفع الحرارة يسخن بدوره ؛ ويتحول جزء منه الى بخار . لذلك لم يكن الفراغ كاملا . فيقاوم هذا البخار نزول المكبس نزولا كاملا ، ويضيع بعض القوة . أضف الى ذلك ان

وعاء المضخة كان يبرد بالماء المدخل اليه وبعودة الهواء الداخلي حين ينزل المكبس . فعين يوجه البخار ثانية لرفع المكبس ، يفقد هذا البخار ، الذي يدخل الى اسطوانة باردة ، بعض قوته الامتدادية ، فيقتضي تسخين وعاء المضخة اولاً وتوجيه كمية من البخار توازي اضعاف ما يتطلبه رفع المكبس طبيعياً .

تسلح « وات » بنظريات « بلاك » فاخترع ، في السنة ١٧٦٥ ، المحتر المنعزل . وضع الى جانب وعاء المضخة حيث يتحرك المكبس اسطوانة تحافظ على حرارة منخفضة بفعل جريان ماء بارد وتتصل بوعاء المضخة بأنبوب مزود بصمام . يفتح صمام وعاء المضخة المليء بالبخار . فيندفع هذا الاخير ، بفعل قابليته الكبرى للامتداد ، في الاسطوانة الباردة ، ويحدث التبخير فراغاً يمتدب اليه كل البخار . ويكون التبخير كلياً دون ان يبرد وعاء المضخة الا بالهواء الذي يدخل حين ينزل المكبس . في السنة ١٧٦٩ استحصل على شهادة اختراع لآلته ذات المفعول الواحد : اسطوانة مقفلة مزودة في اعلاها بنافاذة صغرى يتحرك فيها جلدع المكبس . يصل البخار الى وجه المكبس العلوي ، ويدفعه نزولاً ، اذ ان البخار السفلي قد وجه نحو المحتر . ثم تستخدم الاحصنة بحيث يصل البخار الى وجهي المكبس اللذين يخضعان حينذاك لقوى متساوية : فيرتفع المكبس من ثم بفعل الضغط الموازن . ويحد من ضياع الحرارة غلاف خشبي يحاط به وعاء المضخة . فانقصت « المضخة النارية » الجديدة استهلاك المحروقات بنسبة ٣ الى ٤ . وكان الصناعي « بولتون » ، صانع آلات « وات » ، « يعطي » الآلات ويستعيد آلات « نيوكومن » ولا يطالب الا بثلث المبلغ الذي يوفر سنوياً من ثمن المحروقات . ففي « شايروتر » ، دفع الملاكون سنوياً لبولتون ووات ، مقابل ثلاث مضخات نارية ، ٦٠٠٠٠ فرنك ذهباً ، ولكنهم دفعوا هذا المبلغ كاسفي الوجه في حين انهم كانوا يرجون بدورهم ١٢٠٠٠٠ فرنك .

إن الآلة ذات المفعول الواحد لم توفر القوة الا اثناء نزول المكبس . فكانت القوة متقطعة . وان الآلة ، الموافقة جداً لتحريك المضخات ، كانت أقل موافقة لعمل المصانع المتساوي والدائم . أدرك وات ذلك وابتكر محركاً شاملاً هو « آله ذات المفعول المزدوج » . جعل البخار يؤثر بالتناوب في وجهي المكبس وأحدث بذلك حركة ذهابية وإيابية متساوية القوة ابداً . وبالإضافة الى ذلك حول حركة المكبس المستقيمة الى حركة دائرية بواسطة ذراع الدافعة ومقبض الادارة (١٧٨٤) . فأمكن منذئذ استخدام قوة البخار في الآلات على انواعها : انوال غزل القطن ونسجه ، الاكيار ، آلات تصفيح المعادن ، المطارق ، مطاحن الحبوب والمُنْتِشَة ، والصوان ، وقصب السكر . لقد دخل تاريخ العالم عهداً جديداً .

تعاونت كل هذه الاختراعات تعاوناً متبادلاً . فقد اقتضى اسطوانات هندسية المتبادل
الاطار ومكابس محكمة الالتصاق دونما احتسك ودواليب متشابكة بمثل دقة
بين الصناعات
تشابك دواليب الساعة ، لآلات التصفيح ، ومخارط المعادن ، والمطارق
البخارية ، والمثاقب ، والانوال . وحل الحديد أكثر فأكثر محل الخشب لأنه أشد صلابة ويتيح

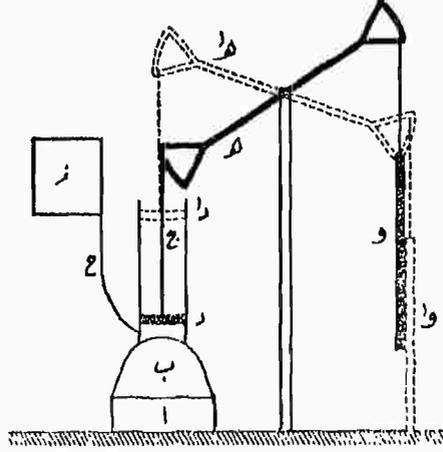
مزيداً من الدقة . فلا اختراع آلات حيث لا حديد . وأتاحت تحسينات صناعة المعادن الحصول على الكميات الكبرى والاصناف الجيدة . فقد وفرت الآلة البخارية اكبر قوة وأسهلها استعمالاً دونما خسارة واعظمها مرونة وأسلسها انقياداً . بيد أن الآلة البخارية لم يعم استخدامها إلا في السنة ١٨٠٢ ، مع أن الآلات الغازلة البخارية الأولى مرتقي الى السنة ١٧٨٥ . وأوجدت انواع الصناعات النسيجية والمعدنية والآلات ، بدورها ، اسواقاً للحديد والآلات وات .

التجمعات الصناعية
لقد حدث تجمع اول قبل اختراع الآلات والبخار . فقد وجد بعض التجار الصناعيين موافقاً أن يجمعوا في الأبلية نفسها عمالاً يسهون في انتاج الصنف نفسه رغبة منهم في أن يحسنوا مراقبتهم ويكفوا انفسهم مؤونة نقل المادة من عامل الى عامل في مراحل الصناعة المختلفة . ثم قامت مصانع جديدة . ولكن اختراع الآلات اوجب بعض التجمع . فان اجهزة « اركرايت » كانت باهظة الثمن وتستلزم مكاناً واسعاً ، كما ان اجزاءها كانت مترابطة في العمل : آلة الخليج الأولى ، آلة الخليج الثانية ، آلة الغزل ، القوة المحركة المركزية . استخدم الصناعيون من ثم مكاناً واحداً وعمالاً يتقيدون بالنظام . وأصبحت مصانع الغزل ابلية قرميدية تألفت من أربع أو خمس طبقات وضمت بين ١٥٠ و ٦٠٠ عامل . وتألف مصنع بولتون ، منذ السنة ١٧٦٥ ، من خمسة ابلية ، وضم ٦٠٠ عامل ، وسير آلاتها كلها دولاب محرك قوي . فكان أرباب هذه المعامل صناعيين حقاً . وفي صناعة المعادن ، منذ أن استخدم الفحم الحجري المقطر ، لم تتحدد ضخامة المشروع باتساع الاحراج . فقد جاز أن يضم كل مشروع عدة مصاهر ومعامل . لا بل شاهد الناس ظهور التجمع العمودي : ففي السنة ١٧٨٧ ، كان « ولكتسون » يمتلك مناجم حديد ، ومناجم فحم معدني ، ومصاهر ، وأرصعة في التاينز .

ورافق التجمع الداخلي تجمع جغرافي . فلما كانت شلالات الماء ضرورية لتحريك الآلات تجمعت الصناعة في البدء في المناطق الرطبة وذات الكسور ، بعد ان كانت متشتتة هنا وهناك : في انكلترا ، على منحدرات جبال بنين الثلاثة ؛ القطن في جنوبي كوتية لانكستر (منشستر) بنوع خاص ، وشمال كوتية دربي (دربي) ، منذ السنة ١٧٧٥ ؛ والصوف في مقاطعة يوركشاير ، في ليدس وبرادفورد ؛ وفي اسكتلندا ، في وادي « كلايد » . ثم حين عم استخدام البخار ، بعد السنة ١٧٨٥ ، تبدل تجمع الصناعات بعض الشيء . فان المناطق الشمالية ، التي كانت مناطق استخراج الفحم الكبرى ايضاً ، بقيت مناطق صناعية ، ولكن نظراً الى ان طرق المواصلات المائية الكثيرة اتحت نقل الفحم الحجري بسهولة ، قامت المعامل اما على مقربة من اسواق الخيامات واما على مقربة من اسواق بيع الصنوعات ، وأما على مقربة من المراكز السكنية التي توفر العمال . فبرز من ثم تخصص المناطق .

وربط التجمع المالي بين المشاريع ، فكان ذلك ارتساماً « لتجمع أفقي » احياناً . فقد

امتلك اركرايت بين ثمانية وعشرة معامل مثل كل منها رأسمال يقدر بمدة آلاف من الجنيهات
السترلينية . ولكن لدينا كذلك امثلة تجمع جماعي ، هي الشركات ، التي غالباً ما اقتصرت ،
من جهة ثانية ، على تشارك اشخاص معدودين .



رسم ايجازي لآلة نيوكومن

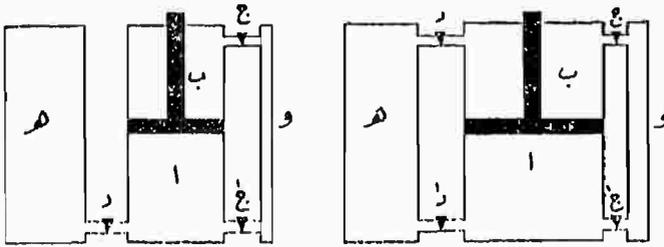
١ - المرقد ؛ ب - مسخن البخار ؛ ج - وعاء المضخة ؛ د ؛ دا - المكبس ؛
١٨ ، ٨ - الرقاص ؛ و ، وا - ثقل موازن متصل بمضخة ؛ ز - خزان ماء بارد ؛ ح - انبوب .

ان اختراع الآلات والطرائق التقنية الأخرى اعطت المملكة المتحدة
تفوقاً عظيماً على الأمم الأخرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد
زادت الكميات المصنوعة أولاً . في السنة ١٧٨٠ صدرت المملكة المتحدة

تحسن النوعيات
وتزايد الكميات

أقمشة قطنية بما قيمته ٣٦٠٠٠٠ جنيه سترليني ؛ وفي السنة ١٧٩٢ صدرت بما قيمته مليونان .
في السنة ١٧١٧ ، انتج آل داربي بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طن من الحديد المصبوب سنوياً ، بينما انتجوا
بين ١٣٠٠٠ و ١٤٠٠٠ طن في السنة ١٧٩٠ . ثم حسنت الكمية والقيمة التجارية . فقد أتاحت
آلة « هايز » ، الغازلة انتاج الأنسجة القطنية . وأتاحت آلة كرومبتون انتاج أنسجة موصلية
أخف وزناً من تلك التي كان ينتجها الهنود ؛ فارتفعت قيمة المادة الخام بنسبة ٥٠٠٠٪ اثناء
مراحل الصناعة . ومنذ السنة ١٧٨٣ ، توصل الانكليز الى توشية الأقمشة بواسطة اسطوانات
لحاسية . وفي السنة ١٧٨٦ طبق « تايلور » سر « الاحمر التركي » وانتج اقمشة « ادريسة » ما
لبثت ان اكتسبت شهرة الأقمشة الهندية . وأعطت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد
قضبانا حديدية أفضل من افضل حديد سويدي أو روسي . وكلا الطلب على الفولاذ الذائب
الذي انتجه هنتسمن ، في كافة أنحاء أوروبا . واخيراً تدنت الأسعار : فقد قامت الاسطوانة
النحاسية بعمل ١٠٠ عامل ؛ وكانت المطرقة البخارية تضرب ١٥٠ ضربة في الدقيقة .

ان التحقيقات الانكليزية اذهلت الأجانب . فان ولكنسون ، « ابا صناعة المائي الحديد » ، قد بنى في السنة ١٧٧٩ ، فوق الـ « سفن » ، اول جسر من الحديد المصبوب قوامه حنية واحدة . وسيتوقف في السنة ١٧٩٧ الى ان يبني في سندرلند ، فوق الـ « وير » ، جسراً من الحديد المصبوب تمر تحته سفينة بحرية بكل صوارها . ودون ان يتوقف عند الاتهامات الموجهة اليه بتحدي المعقول العام ، انزل الى البحر في السنة ١٧٨٧ اول سفينة حديدية . وفي السنة ١٧٨٨ سلم مصلحة مياه مدينة باريس ٦٤ كيلو متراً من الأنابيب المصنوعة من الحديد المصبوب .



رسم الجياري لآلة رات

١ - وعاء المضخة ؛ ب - مكبس ؛ ج ، ح ا صمامات لدخول البخار ؛ د ، هـ صمامات لخروج البخار ؛ هـ - مخار ؛ و - انبوب يتصل بمسخن البخار

منذ ذاك الحين برزت نتائج الصناعة الكبرى المألوفة لدينا ؛ أزمات الصراع الطبقي تخمة الانتاج ، مع ما رافقها من ارتفاع مفاجيء في أسعار المصنوعات وانهار مالي في السنة ١٧٩٣ ؛ وارتفاع عدد السكان ونمو المدن ؛ وقيام طبقة من الرأسماليين الصناعيين لا حلم لها ، من جهة ثانية ، الا ان تنصر في طبقة النبلاء ؛ توسع طبقة من عمال المصانع الذين لا يمتلكون اية وسيلة من وسائل الانتاج وليس لهم سوى سواعدهم وأولادهم ، اي طبقة من الكادحين . لقد ارتفعت اجور بعضهم الحقيقية ، وتحسن الغذاء والصحة ، وطال امد الحياة مع الانتاج . ولكن الكثيرين من عمال الصناعة ، كعمال المصانع المندرجين ، وصانعي المسامير ، والحائك ، ما زالوا يتقاضون اجراً ضئيلاً ويتغذون تغذية سيئة ويقومون في مساكن حقيرة ، قففتك بهم حتى المصانع وداء السل ؛ منذ السنة ١٧٨٥ ، تجمع هؤلاء العمال وقاموا باضرابات وابعمال عنف استهدفت الآلات والأشخاص وطالبوا البرلمان بتشريع يحميهم ؛ فكان ذلك منطلق الصراع الطبقي .

على الرغم من هذه التطورات ، بقيت الصناعة الصغرى اوسع الصناعات انتشاراً . فان آلة هارغريفز الغازلة ، التي يصلح استعمالها في المنزل ، قد انتشرت في كل مكان بين السنة ١٧٧٥ والسنة ١٧٨٥ ، وارتفع من ثم عدد المنتجين الفرديين . وقد استمروا في عملهم هذا ، حتى بعد استخدام

استمرار
الصناعة المنزلية

النول الآلي ، مرتضين بتخفيضات كبرى على أجورهم ، وبالأس . وفي صناعة الصوف ، وصناعة الآلات المعدنية ، وصناعة السكاكين ، دافع الصناعيون اليدويون عن انفسهم دفاعاً طويلاً . ففي أوائل القرن التاسع عشر ، ما زال مجموع انتاجهم يفوق مجموع انتاج المصانع .

ان القماش الذي ينتجه النول يحتاج الى تنظيف وتخصيب قبل تسليمه
الصناعة الكيميائية الى التجارة . والتبييض ضروري جداً لتقصير القماش ، لأن من شأنه الشحم أن يلعب دور مثبت الألوان ، اي أن من شأنه أن يؤلف مع الصباغ مركبات كيميائية قد تلون القماش ، حيث يوجد الشحم ، بألوان داكنة أو أكثر لمعاناً . فأخضع القماش من ثم الى عملية اولى هي اغلاؤه في الماء مع رماد الحطب ، الغني بالاشنان ، يلشر بعدها طيلة ايام فوق العشب ، ثم ينقع في مصالة حامضة ، ثم قنتهي عملية التبييض بغسله بالصابون . الا ان هذه العمليات أثارَت مشاكل خطيرة : الافتقار الى خشب الوقود ، حرمان الزراعة من مساحات كبرى ، تربية مواش كثيرة للحصول على المصالة فقط ، الافتقار الى الصابون . فقامت العقبات في طريق صناعة النسيج .

مست الحاجة الى الحامض الكبريتي والاشنان . اجل لقد انتج الحامض الكبريتي وعرف الناس كيف يعالجون الاملاح بهذا الحامض لانتاج الاشنان . ولكن المشكلة كانت في انتاج كيات كبرى بأسعار منخفضة . استخرج الملح بوفرة من ماء البحر بواسطة التبخير . اما بصدد الحامض الكبريتي فقد احرز نجاح اول بفعل حاجات الصناعات المختلفة : القبعات ، الجلود ، الازرار ، القصدير ، النحاس . وبدلاً من أن يحصل على الحامض باكسدة كبريتور الحديد اكسدة جوية بطيئة ، أحرق الفرنسي « لفيغر » الكبريت وعالجه بملح البارود فحصل من ثم ، في مدى زمني أقصر ، على حامض كبريتي أقل كلفة . وقد أدخل هذه الطريقة الى انكلترا الانكليزي « يشوع وورد » منذ السنة ١٧٣٦ . ولكن كميات الحامض الكبريتي المنتج ما زالت ضئيلة ومرتفعة الاثمان .

إن الحامض الكبريتي الغير المجرّد من مائه تماماً لا يفعل في الرصاص . فاستعاض « ريبوك » و « جريت » عن الزجاج بالرصاص في معالجة الحامض ونقله . وهكذا استطاعوا زيادة حجم سفن أكثر متانة ، وتخفيض سعر النقل ، وانتاج كيات كبرى ، والبيع بأسعار متدنية ، وتصدير الحامض ، منذ السنة ١٧٥٠ ، الى كافة أنحاء اوروبا الشمالية الغربية . فأخذ الحامض الكبريتي يحل محل المصالة في عملية التبييض . وقد أعطى في خمس ساعات نتيجة لا تعطيها المصالة إلا في خمسة ايام .

في السنة ١٧٨٤ خطر للكيميائي الفرنسي « برتوليه » أن يستخدم في التبييض خصائص ازالة الألوان التي ينطوي عليها الكلور . ونزولاً عند رأيه طبق « جايس وات » هذه الطريقة ، في السنة ١٧٨٨ ، في تبييض انتاج مصنع حيه . ثم ما لبث اختراع ماء « جافيل » ، وهو كلور

مضاف الى محلول اشنان ، ان زاد بصورة غريبة سرعة التبييض .

كان « كير » و « كوليسون » قد حلا ، كل من جهته ، منذ السنة ١٧٦٩ ، مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان . فاستطاع « موسبرات » ، بفضل تجاربها ، أن يؤسس ، في السنة ١٨٢٣ ، معمله الشهير الذي يعتبر منطلق صناعة الاشنان الكبرى في بريطانيا العظمى . وهكذا حلت نهائياً مسألة التبييض ، فازدهرت صناعة اللسيج .

اتجهت الرغبة العامة الى الاقمشة الزاهية . ولكن كل الصباغات المعروفة لم تكن لتفي بالمطلوب بسبب عدم ثباتها . ففي الألوان الزرقاء مثلاً لم يصبغ النيلج والعظم القماش بكليته بل كانا يلونان وجه القماش فقط ويزولان بالاستعمال . اكتشف الصباغ البرليني في السنة ١٧٠٤ « الازرق البروسي » ونشر صيغته في السنة ١٧٢٤ . فجعلها الكيميائي « ماكر » صناعية في السنة ١٧٥٠ . وهكذا تحقق لون ازرق « يضاوي بشفوفه ولعانه شفوف ولعان اجمل ياقوت ازرق » ، ويصبغ القماش في جميع اجزائه ، ويحافظ على زهوه ، وحصل « جورج غوردن » في السنة ١٧٥٨ على احمر بنفسجي جميل جداً بنقع اشنة الصباغين في محلول النشادر . وأنقذ الفرنسيان « بوريل » و « بابيون » تجارة الاقمشة الانكليزية في افريقيا باهتدائهما ، في السنة ١٧٨٦ ، الى « الاحمر التركي » ، وهو احمر زاه ، باستخدام القوة .

وقد تمت كل هذه الاكتشافات بالتمس وبدون معارف كيميائية تقريباً .

الزراعة الصناعية
جُددت الزراعة قبل الصناعة نفسها . تنازعت الخطوة لدى الانكليز طريقتان : طريقة « نورفولك » التي اعتمدت منذ أواخر القرن السابع عشر ، وطريقة « جترو تول » . اعلن هذا الأخير ، في كتاب نشر في السنة ١٧٣١ ، ان الأسمدة نافلة ، لا بل مضرة ، اي انها سبب موت . وفي رأيه أن النباتات تتغذى بأشياء صفراء ملتصقة بمساحة تجاويرف التربة الداخلية . فيجب من ثم ، تسهيلات لتغذية النباتات ، تقسيم الارض جهد المستطاع حتى تتمكن الجذور من اختراق التراب بسهولة . اذن يجب الاكثار من الحراثة ، وقدابتكر « تول » طرائق عدة للحراثة حتى اثناء طلوع الخنطة . وهكذا تصبح الأسمدة والدورات الزراعية غير ذات جدوى . اما اشياء طريقة « نورفولك » ، الذين اكثروا من الحراثة ايضاً ، فقد استخدموا الأسمدة ، السجيل والكلس ، استخداماً واسماً ، كما استخدموا بصورة منتظمة الزراعات الدورية ، ونباتات الكلال ، كالحندقوقة والايديوصرن والفصفاصة واللقت والسلمج . ثم اثبتت اختبارات « هوم » و « دوكون » ان تول كان على خطأ ، فكانت الغلبة لطريقة نورفولك التي اتاحت توفير كميات كبرى من الغذاء الضروري لسكان متزايدن عدداً وتخفيض نسبة الوفيات ، وسهلت التصنيع .

في سبيل تطبيق التقنيات الجديدة ، عزل كبار الملاكين مزارعهم وضموا اراضيهم وصونوها بمساعدة البرلمان الذي كان تحت سيطرتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بداعي التقنية بل بغية

الاستثمار بمكاسب الطريقة الجديدة. وقد ناسبت طريقة نورفولك كل المناسبة «الارض المكشوفة» والزراعة الجماعية ، بتصوين المراعي ، وقد أقدمت على ذلك قرى كثيرة .

كانت النجاحات في البر الاوروي اكثر بطناً ، ويرد ذلك بصورة عامة الى عدم توفر رؤوس الاموال التي لم يكن ما يوفرها سوى التجارة البحرية الكبرى . اجل توفر المال لهولندا ، ولكن صناعتها مالت الى التأخر ، ربما بسبب عدم توفر الخامات في ارضها ، وفي اعقاب القيود التي فرضتها الدول الاخرى ، الساعية وراء التصنيع ، على خروج الخامات من اراضيها . وظف الهولنديون أموالهم في انكلترا وفرنسا والدول الالمانية المختلفة واسهموا في تصنيع هذه البلدان . وخارج انكلترا والاقالم المتحدة ، نمت الصناعة بفضل تدخل الدولة الذي أملتة دوافع عسكرية: التحرر من الأجنبي ، انتاج الأقمشة لللباس العسكري ، والاسلحة ، والبارود ، والتصدير لأجل تأمين النقد الضروري للسياسة الكبرى ولاضعاف العدو بالمنافسة . وقد تدخلت الدولة بالاكنتابات ، والمكافآت ، والاحتكارات ، والتعريفات الجمركية ، والمشاريع الرسمية ، ولكن ببعض الصعوبة ، لتوسيع صناعة صناعية ، لا أسواق لها ، تدفع ثمناً لنموها سلسلة من الافلاسات وعوداً على بدء .

كانت فرنسا قد اجتازت هذه المرحلة آنذاك ، وكانت صناعتها قد اتسمت في فرنسا منذ ذلك الحين ببعض التلقائية . كان للبلاد تجارة بحرية واستعمارية كبرى ورؤوس اموال كثيرة ، ولكن دون القوتين البحريتين درجة ، وكانت تقنياتها المالية دون تقنياتها تقدماً . يضاف الى ذلك ، من جهة أخرى ، ان الدولة قد استنزفت ، بسبب سوء تنظيم ماليتها ، قسماً كبيراً من رؤوس الأموال المتوفرة . لذلك لم تتمكن الصناعة الفرنسية من الاستغناء عن إسهام الدولة المباشر ، فكانت النجاحات ابطأ منها في انكلترا . كما في انكلترا ، احتلت الصناعة المنزلية المركز الأول . وتزايد التجمع التجاري في مراكز معينة تزايداً مطرداً . ففي صناعة الجوارب في ليون مثلاً ، استخدم ٤٨ تاجراً ٨١٩ عاملاً اختصاصياً . واذا كان لآل « فان روبيه » ، في « ابفيل » ، ١٨٠٠ عاملاً ، موزعين على عدة معامل على كل حال ، فان حوالي عشرة آلاف عاملاً قد اشتغلوا لأجلهم كل في منزله . وكانت « المصانع الملكية » الاثنا عشر تنجز الأعمال التحضيرية (الجز واعادة الحياكة) بواسطة العمال الموزعين على المعامل ، ولكن الغزل ومعظم الحياكة كانا ينجزان بواسطة عمال الجوارب وفي منازلهم .

ونشاهد من جهة ثانية تجمعا في المصنع ، قبل استخدام الآلات ، في الصناعات التي استلزمت اجهزة معقدة التركيب وباهظة الاثمان ، وانماطاً كثيرة مختلفة للصنف الواحد . في « رمس » تجمع أكثر من نصف اموال الصوف . وفي « لوفيه » ، جمع ١٥ متهداً ألوف العمال . اما في صناعة القطن ، فلأقمشة الهندية ، التي تستلزم أرضاً واسعة للتبييض وأبنية فسيحة للمعامل وغرفاً كبرى للتنشيف وأدوات كثيرة وغزونات هامة من الأقمشة والمواد الملونة وتوزيع

عمل بين العمال المشتغلين تحت سقف واحد ، كان هنالك ، حوالي السنة ١٧٨٩ ، مائة صناعي ينتجون ١٢ مليون ليرة من الأقمشة المصبوغة . وكانت هنالك شركات مساهمة عدة على جانب كبير من الثروة . فقد أسس « اوبركامف » ، في السنة ١٧٨٩ ، شركة يناهز رأسمالها الاجتماعي ٩ ملايين . واما في المناجم فمنذ السنة ١٧٤٤ احتفظت الدولة لنفسها بما تحت سطح الارض وأعطت امتياز استثماره لشركات كبرى . فكان لدى شركة « انزين » ، التي تأسست في السنة ١٧٥٦ ، أربعة آلاف عامل قبل السنة ١٧٨٩ . وتأسست شركات أخرى في « آليه » ، و « كارمو » ، وفي أمكنة أخرى أيضاً . فكان ان الاستثمار ، الذي تم حتى ذلك التاريخ ، في حفائر صغيرة كثيرة قليلة العمق ، على ايدي ملاكين هم غالباً من الفلاحين ، قد تحسن تحسناً سريعاً . لقد حلت الاستثمارات محل التنقيبات الاتفاقية . وعوضاً عن النزول بواسطة دركات مفروضة في جدران الآبار استخدم عمال المناجم السلام الحديدية ، كما استخدموا في « انزين » ، بعد السنة ١٧٦٠ ، سلات يجرها ملفاف تديره الجياد . وتأمنت تهوية الأروقة بآبار خاصة . ولكافحة المياه بنيت جدران الأروقة بالقرميد في « انزين » ، وأحدثت خزانات ، واستعاض عن المضخات اليدوية الصغيرة التي يجرها عامل واحد بمضخات كبرى يجرها عمال وأحصنة . فبلغ عمق الآبار قرابة ٣٠٠ متر بعد ان كان لا يتجاوز الخمسين متراً ؛ لا بل بلغ عمق إحدى الآبار ١٢٠٠ متر . وقد انتجت شركة انزين ، في السنة ١٧٨٩ ، ٣٧٥٠٠٠ طن من الفحم الحجري .

وأخيراً استخدمت الآلات . فمنذ السنة ١٧٣٢ استخدمت آلة نيوكومن في المناجم أحياناً . وفي حقل غزل الحرير ميكانيكياً أتاحت اكتشافات « فوكنسون » قيام مؤسسات كبرى . ففي « اوبنا » جمع فوكنسون ١٢٠ قدراً لحل الغزل في بناء واحد . اما الغزل فقد بقي صناعة منزلية وريفية . وفي صناعة القطن استحضرت الفرنسيون عمالاً وآلات من انكلترا . وفي السنة ١٧٨٩ كانت هنالك معامل في « بريف » و « اميان » و « اورليان » و « مونتارجيس » و « لوفيه » . وظهر الحديد المصبوب بالفحم المعدني المقطر ، فأفضى الى تأسيس مصانع كبرى كمصنع ال « كروزو » ، مثلاً . وغدت آلة وات البخارية الاولى مضخة « شاو » النارية ، المعدة لرفع المياه لباريس ، في السنة ١٧٧٩ . ولكن استعمال الآلة لم ينتشر بسرعة . ففي السنة ١٧٨٩ لم يكن عدد المضخات النارية مرتفعاً في فرنسا . وان اقتناء شركة انزين لاثنتي عشرة مضخة منها كان مثاراً للدهشة . ولن يعم استعمال الآلات الا في عهد الامبراطورية .

على الرغم من جهود الأمراء كانت النجاحات التقنية في دول أوروبا في البلدان الأخرى ابطأ منها في فرنسا أيضاً . كانت هذه الدول ، مع حفظ النسبة ، في الوضع الذي وجدت فيه فرنسا في عهد ككولبير . مست الحاجة في أوروبا الوسطى والشرقية الى رؤوس الأموال لأن الدول لم تسهم اسهاماً يذكر في التجارة العالمية ولأنها افتقرت

الى المستعمرات . لذلك لجسد في كل مكان ، في « بافاريا » و « رومبرغ » و « هس » والنمسا وروسيا وروسيا ، ميزات مشتركة مختلفة الدرجات . الدولة تتدخل في كل مكان . الأمير يحدث المشاريع ، ويتخلى عنها للأفراد ، او يفرض تأسيسها على النبلاء ، والأديرة ، والمدن ، والتجار ، واليهود . تستفيد هذه المشاريع من مساعدات مالية ، واعفاءات من الضرائب والرسوم ، واحتكارات ، كما تستفيد في أغلب الأحيان من مدربين أجنبى ويد عاملة مسخرة (متسولين ، متشردين ، بنات داغرات ، أيتام ، جنود) . تنظم العمل مماثل له في المصانع : معمل مركزي يستكمل فيه العمل ، ولكن معظم العمليات ينجزها في منازلهم اجراء قد يحصون بالالوف . ففي « فريدو » من اعمال بوهيميا ، ضم مصنع « جوهان فريس » للنسيج ٥٥ عاملاً في مشاغله ووزع عمالاً على ٢٠٠٠ آخرين في منازلهم . وياع مصنع برلين ، « كونفيلدس لأجرهوس » ، في السنة ١٧٤٠ ، اجواخاً من الصنف الممتاز انتجها لحسابه ١٤٠٠ عامل في منازلهم . ووزع « سولنجن » المادة الخام على عمال يعملون في منازلهم ويسلمونه السكاكين بأسعار محددة . وفي روسيا استخدمت مصانع الاجواخ والحريير خمس عمالها في مشاغلهما بينما عمل الباقون لحسابها في منازلهم . في السنة ١٧٨٠ ، وفي مصنع « ميدينغ » لاشرعة المراكب ، تجاوز عدد العمال العاملين في منازلهم ، الى حد بعيد ، عدد عمال المشاغل . ويصح هذا القول في مصانع المخرمات والساعات والزجاجيات والمرايا . المصانع المجموعة كلياً نادرة جداً ، وليس لدينا أمثلة عنها الا في صناعة الاواني الصيلية ، والتبغ ، والآلات الفاخر ، وتحضير الجمعة ، والتقطير ، ونشر الاخشاب ، او حين يتوجب استخدام يد عاملة بمجموعة بحكم الهدف ، كجنود افواج حامية يرسلو الخمسة الذين كانوا يغزلون القطن في ثكناتهم في أوقات فراغهم ، أو يد عاملة بمجموعة بحكم واجب المراقبة ، كمساجين « سباندو » (غزل الحريير والصوف) وأيتام « بوتسدام » (المخرمات البرابانية) ونزلاء « ارفورت » ، وغيرهم ايضاً . اما الآلات فكان استعمالها اكثر تأخراً واكثر بطناً ايضاً : فان آلة وات الاولى ظهرت في ألمانيا في السنة ١٧٨٥ . ان القرن الثامن عشر الذي ابتكر الآلات المختلفة أنتجها بكثرة ، قد انصرف كذلك الى تحقيق اختراعات معدة لمستقبل باهر : مانعة الصواعق ، السيارة والقطار الحديدي ، المركب البخاري ، التلغراف والهاتف ، الملاحة الجوية .

مانعة الصواعق نتيجة ابحاث فرانكلن الذي اوقف المانعة الاولى فوق بيته
مانعة الصواعق في شهر ايلول من السنة ١٧٥٢ . منذ السنة ١٧٥٤ انتشر استعمالها . ففي السنة ١٧٨٢ ، كان منها ٤٠٠ في فيلادلفيا . في السنة ١٧٦٢ انتصبت أول مانعة للصواعق في لندن . انتقلت بعد ذلك الى البر الاوروي ، الى ايطاليا منذ السنة ١٧٧٦ ، والى جنوبي فرنسا ثم الى باريس في السنة ١٧٨٢ . اعترض بعض اللاهوتيين على استعمالها : الرعد والبروق دلائل الغضب الالهي ؛ فمن الكفر مقاومة طاقتها التدميرية . أجاب لاهوتيون آخرون والفلاسفة أن على البشر اتقاء الصاعقة ، كما عليهم اتقاء المطر والثلج والرياح ، بالوسائل التي وضعها الله بين

أيديهم . وغالباً ما أثارت هذه الآلة الخوف في قلوب الجماهير . في السنة ١٧٨٣ ، أوقف أحد اشرف « سانتومير » الريفيين فوق بيته مانعة للصواعق تلتهم بحرية تتحدى السماء . هاجت الجماهير . اصدرت البلدية اليه امرأ بانزال المانعة . تقدم بدعوى الى محكمة « آراس » التي ابطلت القرار البلدي تحت تأثير مرافعة محام شاب ، سيعرف الشهرة فيما بعد ، هو « مكسيميليان دي روبسبير » . ثم فرضت مانعة الصواعق نفسها بخدماتها الباهرة . فان الابنية التي كثيراً ما تعرضت للصواعق ، ككنيسة القديس مرقس في البندقية وكاتدرائية سينتاً ، لم تصب يوماً بأذى الصواعق منذ تزويدها بمانعات الصواعق . وعرفت السفن مزيداً من الأمان : فان سفينة كوك قد بقيت سليمة ، بفضل مانعة الصواعق المرفوعة فوقها ، الى جانب سفينة هولندية اصببت بالصاعقة .

حاول المهندس الفرنسي ، « جوزف كونيو » ، استخدام طاقة البخار للسيارة والقطار الحديدي لتعريك المدفعية . بنى عجلة بخارية لنقل الاثقال ، وعرضها على محك امتحان غرييوفال ، وأمر الوزير « شوازل » بتجربتها تكراراً في السنتين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ . في هذه السنة الأخيرة ، جربت آلة كونيو ، وهي السيارة الاولى ، في « دار الصناعة » ، فجرت مدفأً ثقيلاً من عيار ٤٨ ، مسح سنده الثقيل ، مسافة ٥ كيلومترات في ساعة واحدة . تسلقت اشد المرتفعات وعورة ونحطت بسهولة خشونات الارض . ولكن حركاتها كانت من العنف بحيث صعبت ادارتها فجمحت باتجاه جدار وهدمته . ومن حيث هي آلة يلعب فيها التخثير دوراً اولياً ، احتاجت الى كمية كبرى من الماء ، ولم يهتد كونيو الى أية طريقة إحصائية لآلته استعاضة عن الماء . كان توقيفها ضرورياً كل ربع ساعة . فلم يكن استعمالها عملياً . في السنة ١٧٨٦ ، تقدم الاميركي « اولفر ايفانس » من مجلس ولاية بنسلفانيا بطلب امتياز لسيارة بخارية تتحرك بآلة ذات ضغط عال لا تحتاج الى كمية كبرى من الماء . ولكنه لم يحصل على امتيازه الا في السنة ١٧٩٧ ، وفي النهاية كان الفشل حليفه . إلا أن الانكليز استخدموا في مناجم الفحم المدني خطوطاً حديدية لتسهيل جرّ عجلات نقل الفحم بواسطة الاحصنة ، وهو استخدام هذه الخطوط التي أضغفت تأثير الاحتكاك ، واستخدام الآلة ذات الضغط العالي ، التي جعلها كونيو ، ما أتاح الاهتداء إلى حل بواسطة القاطرة والخط الحديدي .

وَجرت تجربة جهاز هاتمي . في أول حزيران من السنة ١٧٨٢ ، اوضح « دون الهاتف غوتاي » ، « أحد رهبان دير « سيتو » ، أمام اكاديمية العلوم ، وسيلة تتيح الاتصال بالاماكن البعيدة : وهي أن تقام ، بين مراكز متعاقبة ، أنابيب معدنية يسري فيها الصوت دون أن يفقد قوته فقداناً محسوساً . وكان يعتقد أن باستطاعته أن ينقل امرأ ، خلال ساعة ، الى مسافة ٢٠٠ فرسخ . التمس المركزي « دي كوندورسيه » اجراء اختبار فأذن الملك لويس السادس عشر بذلك . استخدمت في الاختبار الانابيب التي تنقل السائل الى مضخة « شاو » على مسافة

٨٠٠ متر ، فجاء النجاح كاملاً . الشمس « غوتاي » حينذاك امتحاناً يتناول ١٥٠ فرسخاً :
ولكن الادارة الملكية اعتبرته باهظ الاكلاف . حاول غوتاي فتح اكتتاب في باريس ، ثم في
فيلادلفيا ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة .

بذلت جهود كبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا سيما تلك التي
التلغراف قام بها الكاهن الفرنسي « كلود شاب » ، بغية الاهتداء الى التلغراف الكهربائي .
إلا أنها انتهت كلها إلى الفشل لأن الذين بذلوا لم يعرفوا سوى الكهرباء الساكنة التي قنبتق من
الاحتكاك أو تنتجها الآلات الكهربائية . إن هذه الكهرباء لا توجد إلا على سطح الاجسام وتميل
باستمرار إلى الابتعاد عنها ؛ فالهواء الرطب وحده كاف لأن تتلاشى . لذلك فإن ثلاثين سنة من
المحاولات لم تعط أية ثمرة . عاد الباحثون الى العلائم التي تكون في الفضاء فترى أو تسمع الى
مسافات بعيدة . فابتكر الألماني برغستراسر ، من هانو ، لغة شكلية لم تكن عملية ، اذ ان جملة
مؤلفة من ٢٠ كلمة استازمت اطلاق ٢٠٠٠٠ طلقة مدفع أو قذف ٢٠٠٠٠ سهم ناري . وكان
مقدراً لـ « كلود شاب » أن يهتدي الى الحل في عهد الثورة .

رأت الملاحة الجوية النور في فرنسا . ان الاخوين « اتيان وجوزف مونبولفييه » ،
الملاحة الجوية وهما إبنان لأحد صناعيي الورق في « انوناي » اشتهر في كافة انحاء اوروبا بكمال
مصنوعاته ، وقفا على المؤلف الذي وصف فيه بريستي عدة غازات جديدة . فكرا بالارتفاع
الى الجو بأن يحصرا في غلاف خفيف الوزن غازاً أخف وزناً من الهواء : فارتفع الجهاز الى أن
يصادف ، على علو معين ، طبقات يبقية ثقلها النوعي في حالة توازن . قاما باختبارهما الكبير
الاول في « انوناي » ، في ٤ حزيران من السنة ١٧٨٣ ، أمام مندوبي ولاية « نيفاربه » : ان
المنطاد المعروف باسميها ، والبالغ قطره اثني عشر متراً ، والمصنوع غلافه من نسيج مبطن
بالورق ، والذي سخن هواؤه بالدرين المشتعل ، قد ارتفع حتى ٥٠٠ متر علواً .

طلبت اكااديمية العلوم إعادة الاختبار ، في ساحة مارس ، في ٢٧ آب من السنة ١٧٨٣ .
ملاً البروفسور « شارل » المنطاد بالهيدروجين الذي يزن ١٤ مرة أقل من الهواء ، والذي
حصل عليه للمرة الاولى بكميات كبرى بعد أن كان يحصل عليه في المختبرات فقط . أمام
٣٠٠٠٠ شخص يبكون ويتعانقون ، لان أحد أقدم أحلام الانسانية كان في طريق التحقيق ،
ارتفع المنطاد حتى علو ١٠٠٠ متر . ولكنه كان قد هلى تماماً عند الانطلاق ، فتمزق وسقط
على مسافة ٢٠ كيلو متراً من باريس . فذعر الفلاحون اولاً اعتقاداً منهم أن القمر قد سقط
من السماء ، وانتقموا من خوفهم بتقطيع المنطاد ارباً ارباً . اضطرت الادارة الملكية إلى اشعار
الفلاحين رسمياً بأن ليس هناك ما يثير مخاوفهم وبأن لا يمزقوا شيئاً من الآن فصاعداً . وبعد
اختبار شرّفه الملك بحضوره ، في ١٩ ايلول من السنة ١٧٨٣ ، كان « بيلتردي روزيه »
والمركز « دارلند » الانسانين الاولين اللذين طارا في الجو ؛ حلقا فوق باريس في ١٩ تشرين

الثاني من السنة ١٧٨٣ . اما البروفسور شارل ، الذي ابتكر « السلة » والشبكة والصمام ، فقد اصطحب روبيير وبلغ معه ٤٠٠٠ متر علوا في اول كانون الاول من السنة ١٧٨٣ ، ثم نزل الى الارض على مسافة ٣٦ كيلومتراً من باريس ، مسجلاً مع رفيقه الارقام القياسية الأولى في المسافة والارتفاع . وانطلق « بلانشار » والدكتور « جفرى » من شاطيء « دوفر » في ٧ كانون الأول من السنة ١٧٨٣ وكانا اول من اجتاز المانش عن طريق الجو . وكان « بيلاتردى روزييه » الذي لاقى حتفه في ١٥ حزيران على اثر تمزق غلاف منطاده اول شهيد من شهداء الجو . وابتكر « بلانشار » و « غويتون دي مورفو » المنطاد الميسر ولكن مجاذيفها لم تصلح الا لاثبات استحالة الاكتفاء بقوة الانسان . تأسست في كل مكان من فرنسا جمعيات من الهواة ، وفي كل يوم ارتفع منطاد في الجو . استوحت أزياء القبعات والاشعة والملابس والمجلات « مونفولفييه » والمنطاد « وشارل » و « وروبيير » . ثم عم هذا التيار اوروبا . ففي انكلترا ، ارتفع منطاد هيدروجيني في ٢٢ شباط من السنة ١٧٨٤ . وفي ايطاليا ارتفع المنطاد الاول في ميلانو في الخامس والعشرين من الشهر نفسه والسنة عينها . منذ السنة ١٧٨٤ ، وفي رسالة من أكاديمية ليون ، فكر « غودين » باستخدام المناطيد في الحقل العسكري ولقت الانتباه الى ان « سوبيز » ما كان ليخسر معركة روسباخ لو كان لديه منطاد . وكان مقدراً للمنطاد ان يستخدم في الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٩٤ ويؤمن لفرنسا السيطرة الجوية الاولى .

وهكذا فإن الثورة التقنية الكبرى ، التي وفرت لاوروبا تفوقاً مادياً عظيماً
ارروبا والعالم على كافة شعوب العالم ، والتي اتاحت لها ثلب شهرة حضارات آسيا نفسها ،
قبل ان يتزود العالم بهذه التقنيات ويرتد اليها ، ترد لعمري الى الروح الاوروبية البحتة ، ولكن
هذه الروح غالباً ما استشارتها الحاجات التي خلقها الاتصال بشعوب ما وراء البحار ، وغالباً ما
وجدت في علاقتها بهذه الشعوب وسائل عملها . وربما كان باستطاعتنا القول ان الثورة المالية
والصناعية مظهر من مظاهر اتصال اوروبا بالعالم .

الفصل الرابع

تقنيات التحسين الانساني

١- الطب والجراحة

حقق الفن الطبي تقدماً كبيراً بفضل تأثير الحركة العلمية . فان طرائق الملاحظة والاختبار أخذت تعتمد اعتماداً متزايداً يوماً بعد يوم .

بقيت تنشئة الاطباء خاضعة للكتب والنظريات كما هو محتم . ولكن الاساتذة
الدررس والطلاب أخذوا يمتحنون النظرية بالواقع . كان على الطلاب المسجلين في كلية
باريس الطبية ، بعد انتهاء دروسهم الكلاسيكية ، ان يتلقوا الدروس طيلة سنتين للفوز بدرجة
حامل البكالوريا في الطب : وكان التشريح ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والصيدلة ،
والجراحة ، والتوليد مادة هذه الدروس . وكان عليهم بعد ذلك تلقي الدروس طيلة سنتين
اخرين للفوز بالاجازة : وكان لزاماً عليهم حضور المناقشات العامة التي تعتمد فيها الاقيسة
المنطقية للمجادلة . وكان عليهم اخيراً ، لنيل الدكتوراه ، مرافقة اطباء الكلية في زيارتهم
لمرضى المستشفى البلدي ومستشفى « المحبة » . وكان هذا الجزء العملي اخذاً بالنمو والتوسع .
تأسست العيادة الجامعية الاولى في فينسا في السنة ١٧٥٤ ، ثم تأسست عيادة أخرى في باريس
في السنة ١٧٧٠ . في درس التوليد ، وهو الفن الذي تفوق فيه الفرنسيون ، درّب الطلاب
تدريباً عملياً على دمي من شمع ، وهذه الوسائل البدائية تمت تنشئة مولدين ممتازين . وكانت
العديد من الاطباء ، في الوقت نفسه ، علماء طبيعة من الطراز الاول كـ « هالر » و « سبالزوني »
و « فيك دازير » . ونشأ الى جانب تعليم الكليات تعليم حديث الطابع : في السنة ١٧٧١ ،
اعتلى « بورتال » اول منبر لتلقين علم الوظائف في كلية فرنسا . اجتذبت باريس ومونبلييه
الطلاب من كافة الحماة أوروبا . وكانت لـ « بادوا » و « بافيا » و « بودا » و « فينا » اهميتها الكبرى أيضاً .
وأتاحت بعض المنشورات الدورية الخاصة للاطباء مقارنة ملاحظاتهم : « المكتبة الطبية » في
ارפורت ، منذ السنة ١٧٥١ ؛ « صحيفة الطب والجراحة » في باريس ، منذ السنة ١٧٥٤ حتى
السنة ١٧٩٢ ؛ « صحيفة الطب » في البندقية ، منذ السنة ١٧٦٣ حتى السنة ١٧٧٧ .

كان للجراحين أفرام الكبير . ثوجب عليهم ، حتى ذلك التاريخ ، اجراء العمليات وفاقاً لأوامر رؤسائهم من الأطباء . ولكنهم كانوا مهرة في علمهم . مارس معظمهم العمل أولاً في حوانيت الحجامين الذين كانت الجراحة الصغرى وطب الاسنان وفقاً عليهم . واصلوا التعليم بالمهارة . فرفعوا فنهم ، بفضل الاختبار المستمر ، الى درجة عليا من الكمال وأمنوا له الاستقلال . وتوقفوا الى اقرار تعلم جراحى خاص . وفي السنة ١٧٣١ ، تأسست في فرنسا الاكاديمية الملكية للجراحة . وفي انكلترا ، اقر البرلمان ، في السنة ١٧٤٥ ، منح الجراحين امتيازاً فبنوا مدرسة ومسرحاً مدرجاً . وفي السنة ١٧٨٢ ، أسس « جبوزف الثاني » في فيننا مدرسة للجراحة ، وحذا حذوه « كريستيان الرابع » في كوينهاغن في السنة ١٧٨٥ . انطوى التعليم قبل كل شيء آخر ، في هذه المدارس ، على دروس عملية تدوم ثلاث سنوات تخضع لامتحانات عملية في الدرجة الاولى : تشريح ، عمليات ، تضييد . وجدير بالانتباه ان كثيراً من النجاحات الطبية احرزها جراحون ألفوا الملاحظة والاختبار .

التشخيص والتقدير
ان اعراضاً معروفة كثيرة وصفت بمزيد من الدقة ونظمت جداول بالاعراض التي تساعد على كشفها وتتبع سيرها . فقد اعطى الفرنسي « جان سيناك » مثلاً دلائل امراض القلب : خفقان القلب ، تورم الارجل ، الربو ، صعوبة التنفس لا سيما في حالة الضجوع ، تمدد الايهر ، نفث الدم . ووصف الاطباء الايطاليون حميات المستنقعات . ودرس كذلك درساً افضل الزحار ، والمنص الاسري ، وتضخم العين ، والذئبة والحمى القرمزية (التي لم تميز عن الحصبة) ، والنكاف ، والامراض الجنسية . واكتشفت امراض مجهولة ايضاً . فان « رولو » ، الجراح الممام للمدفعية الانكليزية ، قد اكتشف في احد ضباط المدفعية الداء السكري مع ميزاته : شهوة اكل وظماً مفرطان ، هزال ، بول غزير ، حلو المذاق ، التهاب اللثا ، تخلخل الاسنان . واكتشفت الحمى التيفية ، التي اطلق عليها اسم الحمى المخاطية ، والحمى الخفيف ، وسئل العظم الذي اطلق على اسم ظواهره اسم الجراح الانكليزي الذي اكتشفه « داء بوت » .

اخذ الاطباء بعين الاعتبار الحرارة وعدد الانباض لتقدير حالة المريض . وهم الانكليز من استعملوا المعر بصورة خاصة . وتبنى الطب وجهة النظر السكية ، فاصبح بذلك اكثر طابعاً علمياً . وفي السنة ١٧٦٠ ، اكتشف الطبيب « اونبروجر » ، في فينا ، القرع كوسيلة لتشخيص امراض الصدر ، ولكن اكتشافه لم يلفت الانتباه تقريباً .

الطب الدراني
كانت المذاهب الطبية ، بحكم الاشياء ، كثيرة جداً ، اذ كان على الطبيب ان ينظر الى مجموع ، هو الكائن البشري ، ومن ثم ان يقوم بعملية تأليفية . نال مذهب « ستاهل » (١٧٦٠ - ١٧٣٤) القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية ، ومذهب « بورهاف » (١٧٦١ - ١٧٣٨) الاختياري ، ومذهب « هوفمن » ، الآي ، ومذهب

بارتز (١٧٣٤ - ١٨٠٦) القائل بوجود مبدأ حيوي مُميز عن الروح والجسم معاً ، حظوة على التوالي عند الجماهير . اختلف هؤلاء المؤلفون واتباعهم كل الاختلاف عن مبهم وانما جمعت بينهم صفة مشتركة هي وقوفهم موقف الانتظار والارتقاب . ان للطبيعة قوة علاجية ، وللداء فائدة في انه يزيل من الجسم عناصر مضرّة ، وان الحمى ، بنوع خاص ، احدى وسائل التطهير والتنقية . فعذار من ثم مقاومة الاعراض ، وملاشاة الحمى والبواسير مثلاً ، لنتنظر ونسهل عمل الطبيعة بتنقية الجسم من اخلاطه واجزائه النتنة . الى هذا التفكير يرد استعمال الوسائل السهلة : التليين ، الحقن ، الحمية (بالحمية شفى رولو مريضه المصاب بداء السكري) ؛ والطرائق المزيّسة الاحتقان : الفصد والحراقة ؛ والبارين الخفيفة ، والدلك ، والمياه المعدنية . فزالت باطراد الادوية المستهجنة كعين السرطان ، والآلء ، ولحم الثعبان .

ولكن برزت اكثر فأكثر ايضاً ضرورة مواجهة المرض نفسه مباييرة ، في وقت واحد . فاختلطت بالروح التأليفية روح تحليلية لن تلبث أن تحل محلها . أما أم واضعي النظريات في هذا الحقل فهو عالم الأمراض العقلية الفرنسي « بينيل » (١٧٣٥ - ١٨٢٦) الذي يطري الطريقة التحليلية ويؤكد بان كل داء يرد الى خلل عضوي يجب اكتشافه ومعالجته . وقد رأى القرن انتصار الكينا التي اشار بها الايطاليون بنوع خاص لمعالجة الحميات . واستخدمت القمعية لتقوية القلب في حال الاستسقاء . ولمعالجة فقر الدم اشار « فولر » ، بالتفضيل بالزرنينخ السائل (سائل فولر) . وخطر للانكليزي « برنفل » ، في السنة ١٧٥٠ ، ان يضع الحراقة على مركز الألم الشديد في الصدر لمعالجة البرسام والتهاب الرئة . وحاول « فولتا » شفاء امراض الاذن بالصدمة الكهربائية . وعالج « كراتنستين » الدانماركي بالكهرباء أمراض الشلل والنقرس والرثية الزمنة . وفي السنة ١٧٩٠ لم يحصل « فوركروا » على نتائج تذكر بتنشيق الاوكسيجين مرضى السل ، ولكنه احرز نجاحاً في حالات الربو واليرقان وداء الخنازير والكسح .

اهتم الاطباء اهتماماً كبيراً لاقتناء الامراض ولا سيما الامراض الوبائية التي تفتك
الوقاية
بسكان العالم فتكاً . عاث الطاعون فساداً في اوكرانيا في السنة ١٧٣٧ ، وفي مسينا في السنة ١٧٤٣ ، وفي موسكو منذ السنة ١٧٨٩ . واقتنعت الحمى التيفية آثار الجيوش . فكانت موضعية في اسبانيا منذ السنة ١٧٥٠ . وفي السنة ١٧٦١ اجتاح اوربا واميركا وباء « صدام فتاك » . كما اجتاح اوربا السعال الديكي : فأفنى في السويد وحدها ٤٠٠٠٠ طفل بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٤ . وكان وباء الجدري كارثة حقيقية سببت موت ١٤٠٠٠ شخص في باريس وحدها ، في السنة ١٧١٩ . وفي السنة ١٧٧٠ انتشر في العالم وباء جدري عام : ففتك بسكان كافة المدن الكبرى ؛ ويقدر ضحاياه في الهند بثلاثة ملايين شخص .

المحصرت التدابير المتخذة ، لمدة طويلة ، في تدابير الأمن تقريباً . فكانت المناطق المضابة تحاط بجنود يؤلفون حولها نطاقاً صحياً يحظر الخروج منه . وكان يحظر السفر على المسافرين ما

لم يبرزوا شهادة صحية . وكانوا يخضعون ، عند وصولهم ، للحجر الصحي ، اي يوضعون تحت المراقبة على حدة طيلة اربعين يوماً . وكان كل مريض يثير الشبهة يوضع حالاً في الانفراد في محجر صحي . بدأ « فرانك » النمساوي ، في السنة ١٧٧٩ ، ينشر « قواعد السياسة الطبية » . اكد بأن مراقبة الصحة العامة احد واجبات الدولة وطالب بتسريع خاص . وفي البندقية كان الاعلان عن حالات السل وتطهير أمتعة المسولين امرين إلزاميين ، وسجرت محاولات مماثلة في بلدان اخرى .

ألف الأطباء من جهة ثانية كتباً صحية من شأنها أن تتيح لكل انسان تحسين صحته ومقاومة الامراض مقاومة أجدى . نخص بالذكر ، بين هذه المؤلفات ، « آراء للشعب حول صحته » (١٧٦١) و « صحة أهل القلم » (١٧٧٢) الذي لا تزال له أهميته في أيامنا هذه ، وكلاماً للسويسري « تيسو » .

واحرز تقدم حاسم في اتقاء الجدري بالتلقيح . علمت السيدة « مونتنيغ » حرم سفير انكلترا في الاستانة بان الجر كسيات يخزن انفسهن بابر مغمسة في قبح الجدري ، فيصبن من ثم يجردى خفيف ثم لا يلبثن ان يحصلن على مناعة ضد المرض ، كالم كانت اجسامهن قد تمرنت على مقاومة المرض الخفيف واستمدت قوى لاتقاء المرض الحقيقي . اطلمت السيدة مونتنيغ الغرب على الطريقة ، فكان أن تبناها الطبيب السويسري « ترونشين » (١٧٠٩ - ١٧٨١) وجعل من نفسه بطل التلقيح .

ولاحظ الجراح الانكليزي « جيز » (١٧٤٩ - ١٨٢٣) ، المكلف تلقيح سكان احدى الكونتيات الانكليزية ، ان الذين اصابوا فيما سبق بجدري البقر (Vaccine) لا يتأثرون باللقاح ولا يصابون بالجدري البشري . وبعد ملاحظات واختبارات استغرقت عشرين سنة ، طعم في ١٤ ايار ١٧٩٦ اول ولد ، « جايس فيلبس » ، بقبح جدري البقر ، ونشر في السنة ١٧٩٨ « تحقيقه حول اسباب ونتائج جدري البقر » الذي احدث تأثيراً عظيماً . فقد انقذت البشرية من الجدري . ثم اكتشف بعد ذلك ان التطعيم يمارس في اماكن عديدة من الهند ، وفي بلاد فارس ، وبلاد البيرو . ولكن ما كان يجري ليس سوى اتفاقات محلية . اما جيز فهو وحده من توصل الى اكتشاف معمل وشامل .

فن التوليد
في منتصف الطريق بين الطب والجراحة ، احرز فن التوليد تقدماً عظيماً جداً ، لان كل ما فيه قد رد الى مبادئ آلية وطبيعية ، « باعتبار ان التوليد ليس سوى عملية آلية ، خاضعة لنواميس الحركة » (« بودلوك » ، ١٧٤٥ - ١٨١٠) . فان بوزوس (١٦٨٦ - ١٧٥٣) و « لفرية » (١٧٠٣ - ١٧٨٠) ، مولد ولى عهد فرنسا ، احكماً ملقط الجنين الذي كان مستقيماً حتى ذاك العهد : ادخلا عليه الانحناء اللازم ، فبات استعماله رائجاً . وان « بلنك » (١٧٣٨ - ١٨٠٧) ، الاستاذ في بودا وينا ، قاس الحوض قياسات دقيقة ،

وحدد لكل قياس العمليات الخاصة . توصل فن التوليد الى « يقين هندسي » ، وبلغ كماله التقني . وتنحصر النجاحات المحرزة بعد ذلك الوقت في التطهير والتبنيج .

وبلغت عمليات جراحية كثيرة درجة الكمال ايضا . فان الفرنسي « بتي » الجراحة (١٦٧٤ - ١٧٥٠) قد ادخل الاطمئنان الى نفوس الجراحين بالملوى الضاغط ذي الوسائل الذي ابتكره والذي اتاح تجنب نزيف الدم . كان بالاضافة الى ذلك اختصاصيا في معالجة انفكالك العظيم ، وكان اول من استخرج الحصى من المرارة . وبلغ من البتر كماله التقني : فقد اجريت بنجاح عمليات استئصال الاعضاء المرضة والقروح وتورمات المفاصل البيضاء والتورمات العظمية ، والغدد وامهات الدم والسرطانات ، مع علم الجراحين بان هذه الاخيرة تعود الى الظهور . وان « شوبار » (١٧٤٣ - ١٧٩٥) ، مكتشف احدى طرائق بتر الرجل ، قد احرز نجاحات كبرى في جراحة المسالك البولية . واشتهر « داقيل » (١٦٩٦ - ١٧٦٢) بمهارته في إزالة سادة العين (الماء الازرق) باستئصال البلورية ، فاستدعي الى كافة بلاطات اوروبا واجرى في السنة ١٧٥٢ ، عمليات لـ ٢٠٦ مرضى اقترن ١٨٢ منها بنجاح تام . واحرز تقدم كبير في شق المثانة لاستخراج الحصى منها ، ولا سيما على يد ممتن باريسي هو الاخر « سكوم » الذي ابتكر جهازاً لتفتيت الحصى الكبيرة ، وطريقة للشق بواسطة جهاز منحني يدخل الى المثانة . كانت العمليات مؤلة جداً لان الجراح لم تتوفر لديه اية وسيلة للتخدير او التبنيج ، ولكنها كانت تتم بنجاح بفضل المهارة التقنية والنظافة والتطهير المؤلم ، حتى بواسطة الحديد الحمى بالنار اذا اقتضت الحاجة . عرفت بعد ذلك اوائل القرن اللاحق مرحلة قهقرى الى ان استؤنف السير قدماً بواسطة الاكتشافات حول الجراثيم ومواد التخدير والتبنيج .

٢ - التعليم

هو جرم التعليم التقليدي هجوماً أكثر اعلاناً وأكثر شمولا ، وأكثر بلاغة أحيانا روح القرن منه في القرن السابق ، دون ان يقال في هذا الهجوم شيء جديد حقا . ليس رأي القرن الثامن عشر في موضوع التعليم سوى تكللة لرأي القرن السابع عشر واضعاف له احيانا . ولكن هنالك ، بدون شك ، مزيداً من التحقيقات .

نجد ثلاثة انواع من المهاجين . فهنالك من جهة العلميون الذين يعتبرون ان التدريس لا يفسح مجالا كافياً للاكتشافات الحديثة وفروع العلوم الجديدة . وهنالك من جهة ثانية النفعيون الذين يريدون ان تنطوي البرامج على مزيد من الفنون والمعارف التي يمكن الافادة منها فوراً في الحياة اليومية . وهنالك اخيراً الحاسيون ، مستوحو « لوك » ، من امثال كوندبلاك وروسو ، المقتنعون اقتناعاً تاماً بأن كل افكارنا مصدرها الحواس والراغبون في تعليم بواسطة الكائنات والاشياء ، وبواسطة

ملاحظة الوقائع والاختبار ، لا بواسطة الكتاب والكلمة . وغالباً ما يسير الانسان نفسه في هذه الاتجاهات الثلاثة . كان الجدال حاداً ، وغالباً ما انطوى على سوء النية . غالى المصلحون في مساوىء التعليم وعاملوا خصومهم بازدراء . وأخذ المحافظون عليهم اهمال الاختبار والواقع . نجح المصلحون ، بصورة اجمالية ، ولكن دون ان يحققوا كل ما رغبتوا فيه : فقد ادخلت مواد جديدة على البرامج ، واعتمدت طرائق جديدة احياناً ، فكان ان التعليم النفمي ، الذي ندهوه تقنياً ، قد نما وتقدم . جرت الاصلاحات في فرنسا بنوع خاص ، وفي البلدان الخاضعة للملك جرمانيين وفي روسيا . أما في الدول الأخرى فقد كانت الاستحداثات محدودة جداً . فقد بقيت انكلترا نفسها وفيه للتعليم الكلاسيكي القديم ولتعليم المهنة بالممارسة تعليماً مباشراً .

التعليم الابتدائي
ان التعليم الابتدائي الذي يجب ان يزود الاولاد بين سن السادسة وسن الحادية عشرة بالمعارف الاولى التي يمكن الافادة منها فوراً ، كان متباين الانتشار . فقد وزع في العائلات على الاثرياء والميسورين . أما عامة الشعب فكان تعليمها خاصاً في البلدان الكاثوليكية : تولته جمعيات رهبانية ، كـ « اخوة العقيدة المسيحية » ، بمساهمة الرعايا والاهالي أو بدونها . ولم يكن هناك في انكلترا الانكليكانية سوى مدارس راعوية تتعهدا الاحسانات الخاصة على قدر الامكان ، وفي البلدان الكلفينية واللوثرية أدى واجب قراءة الكتاب المقدس الى قيام تعليم ابتدائي علني غالباً ما اعطى نتائج جيدة . وفي النصف الثاني من القرن سعى « المستبدون المستنيريون » جهدهم لايجاد تعليم رسمي يستهدف تربية أفراد الرعية الامناء والمطيعين والاكفاء . وفي روسيا جعل فردريك الثاني التعليم الزامياً في السنة ١٧٦٣ . وفي النمسا اعادت ماري - تيريز تنظيم التعليم الابتدائي في السنة ١٧٧٤ . وفي روسيا اصدرت كاترين الثانية ، في السنة ١٧٨٦ ، قانوناً للمدارس الخاصة قضى بأن يكون التعليم وفقاً على الدولة . شمل التعليم الدين والاخلاق أولاً ، أي تلقين الجميع مفهوماً للكون ولصير الانسان ، ولما كان هذا الأخير ودوره في المجتمع ، ثم عتاد المعرفة الأولية : قراءة ، وكتابة ، وحساب . وكانت النتائج حسنة في معظم الاحيان . وفي فرنسا امتاز لعمرى تعليم عامة الشعب عنه في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اعتبر هذا التعليم ، منذ عهد مبكر ، غير كاف لأولئك الذين توجب عليهم كسب معيشتهم حال انتهاء سني دراستهم . فلذلك ، وبسبب أهمية العمل اليدوي لاحكام النظر واتقان العمل واصابة الرأي ، اُضيف اليه اخوة العقيدة المسيحية في فرنسا منذ زمن طويل التدرب على الحرف . وفي ألمانيا اُدار «فرانك» و «سمار» في « هال » منذ السنة ١٧٠٠ مدارس وفق فيها بين التعليم والتدرب التقني في المشغل ، ولما هذا النحو فردريك الثاني الذي اُضيف الى برامج المدارس الابتدائية زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز .

الى جانب المؤسسات التي افسحت مجالاً للتعليم التقني ، تأسست مدارس تقنية بمقتضى ، في

ألمانيا وفرنسا بصورة خاصة . ففي باريس تأسست مدرسة الرسم الملكية في السنة ١٧٦٧ لـ ١٥٠٠ ولد فوق الثامنة تلقوا دروسهم فيها مجاناً . وأسس بعض الافراد ، والبلديات ، والولايات ، حيث قامت المصانع ، مدارس لقتن فيها الرسم والرياضيات . وفتح احد الفلاسفة ، الدوق دي لاروشفوكو - لنكور ، لايتام فرقته ، مدرسة مهنية مشهورة أقرها صك ملكي في السنة ١٧٨٦ كانت نموذجاً لمدرسة الفنون والحرف في عهد الثورة الفرنسية . وانما أخذ على هذه المدارس انها لم تهتم الا لتربية العامل مهمله فيه الانسان والمواطن .

يجب ان نضيف الى هذه المؤسسات ، بسبب الطابع الاولي لتعليمها ، معاهد تعليم أخوة الاپكار من الاشراف الفرنسيين ، التي تولت اعداد الضباط ، والتي نسج على منوالها في بروسيا وروسيا (١٧٣٢) .

وأراد بعض ذوي النظريات ، المستوحين روسو ، ان يلقنوا العلم بالشكل ، بالتأثيرات الحسية . فان الألماني « باسكو » (١٧٢٣ - ١٧٩٠) قد ألقى « دروس اشياء » في داسو . كان يضع امام أعين الاولاد لوحة تمثل امرأة مضناة طريجة الفراش وبعلاً جالساً الى جانبها وقبعتين صغيرتين على طاولة . وكان على الاولاد ان « يحدوا » وضع الامرأة ، ومعنى القبعتين والاختطار التي تتعرض لها الامرأة الحامل وواجبات الاولاد نحو أمهاتهم اللواتي ذقن الامرين قبل وضعهم . وتؤلف دروس الاشياء كذلك جوهر طريقة « بستالوزي » (١٧٤٦ - ١٨٢٧) الذي باشر رسالة تربوية في « نوهوف » في السنة ١٧٧٥ ، ولكن نشاطه الاول ، الذي لم ينحصر في التعليم الابتدائي ، لاحق للعهد الذي يمنينا . وقد أخذ على هذه الطرائق ، الحصرية جداً ، انها لا تصلح الا للأولاد المتخلفين وانها مضيعة لوقت الولد الطبيعي الذي لم يقدر حدسه وخياله وحتى تفكيره حق التقدير .

التعليم الثانوي
كان التعليم الثانوي خاصاً في كل مكان تقريباً تحت رقابة الكنيسة والدولة . وأدارت الكليات تعاونيات تعليمية أو جامعات ، كجامعة او كسفورد أو جامعة باريس ، أو جمعيات رهبانية ، كجمعية اليسوعيين الذين أداروا العدد الأكبر منها ، وجمعيقي البندكتيين ورهبان القديس فيلبس النيري ، أو الافراد ايضاً في حالات كثيرة . في كليات اليسوعيين وجامعة باريس كان التعليم مجاناً للخارجيين ، وكان الداخليون يستفيدون من منح كثيرة . طالب « المستنبرون » اكثر فأكثر ، لاسيا في فرنسا ، بـ « تربية وطنية » وباساتذة علمانيين يتخارون بين الناجحين في « مباراة لنيل شهادة التدريس » . ثم اصبحت هذه النزعة عامة بعد طرد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلاً بات لزاماً ، بعد السنة ١٧٦٣ ، أن يدير كل كلية « مكتب إدارة » يضم أبرز القضاة . ولكن حل هيئة من الاساتذة الممتازين تسبب في تقهقر تعليمي أفادت منه بروسيا وروسيا اللتين احسننا وفادة اليسوعيين .

ارتكز تعليم الكليات الى درس الآداب القديمة كما درست في ايام النهضة . وكان تعليمها عملياً .

وزع على رجال الغد من قضاة ومدبرين ومحامين واطباء وكهنة ورعاة واساتذة وضباط عامين، فكان طبيعياً أن يجعلهم يتقنون اللغة ، خير اداة لأدق عمليات الفكر واكثرها تعقيداً ، لا بل الشرط الذي لا بد منه لكل تفكير . استخدمت الكليات لهذه الغاية اللغة اللاتينية ، اللغة الأم للحضارة الأوروبية ؛ ولما استخدمت اللغة اليونانية ، وهي اكثر صعوبة وبعداً ؛ ولم تستخدم اللغات الحية قط ، وهي لم تزال ، باستثناء الفرنسية ، لغات مترددة لن تستقر إلا خلال القرن ؛ وكانت استعمال المفردات كأدوات للفكر من الصعوبة بمكان بسبب افتقار المفردات الهامة بصورة خاصة الى مداليل ثابتة محددة . يضاف الى ذلك ، على حد ما قيل ، أن المؤلفين اللاتين من شعراء ومؤرخين وخطباء ارباه بالاختبار العاطفي والاخلاقي والسياسي الذي لم يفقد شيئاً من اهميته . فحالات ومشاكل الازمنة كلها متوفرة في مؤلفاتهم . وكان الدين ، الذي ينطوي على فلسفة كاملة وعلى علم كامل يتناول الطبيعة البشرية والمجتمعات ، متداخلاً كل شيء . فلم يكن للدين كتبه وواجباته فحسب بل ان كتب الصغار الابتدائية تألفت من مختارات للمؤلفين القدماء حول الله والاخلاق ايضاً ؛ وكان يُحكّم على آراء العصور القديمة ورجالها من زاوية مسيحية . فكان من ثم ، كما ساد الاعتقاد ، تعليماً غنياً جداً .

قسمت الدروس الى مرحلتين . وقد شملت المرحلة الاولى ثلاثة دروس في الصرف والنحو ودرسا في الادب القديم خصص جلّه للشعر ، ودرسا في البيان . البيان علم طبيعي . يستخلص من درس كبار المؤلفين قواعد الاقتناع . ثم يصيغها احكاماً ويتصل بالتالي ، كككل علم ، بفن أو بتقنية اذا صح التعبير .

كان اكثر التلامذة يهجرون الكلية بعد المرحلة الاولى . وكان الآخرون يتلقون بالاضافة الى ذلك دروس الفلسفة طيلة سنتين . يدرسون المنطق الصوري وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق . المنطق الصوري علم طبيعي يستخلص من درس امهات مؤلفات الفكر البشري قواعد الحكم والبرهان ويستنتج منها فن التفكير . وكانوا يدرسون مبادئ الرياضيات وعلم الطبيعة ، على أن هذا الاخير كان محصوراً في البراهين حول طبيعة المادة وخصائصها . فكان كل شيء ينتهي الى عرض بالاقيسة لمذهب ارسطو يتداخله احياناً شيء من تعاليم ديكرارت ولوك .

تميزت الدروس بالنشاط في المرحلة الاولى بنوع خاص . غالباً ما درست اللغة اللاتينية بحسب الطريقة المباشرة ، بدون كلمة فرنسية واحدة ، سوى النصوص المطلوبة ترجمتها . وهكذا فان التلميذ ، الذي لا يلبث ان يمتلك ناصية اللغة ، كان يؤلف باستمرار ، باللغة اللاتينية ، الروايات نثراً ، والامثال نثراً وشعراً ، والمراثي ، والانشيد ، والتآبين ، والمرافعات ، والخطب . وكان طبيعياً أن تلقى الدروس في المرحلة الثانية ، وكان لدى التلامذة دفاتر يدونون فيها ما يلقى عليهم . ولكن مجرد فهم المسألة المطروحة وتتبع الاقيسة المتعاقبة كان مجهوداً صعباً للشبان ، وقد درجت المادة على المجادلة بواسطة الاقيسة . وكان التدريب يكتمل بتأريين علمية ، مهازل ، وتلاوات عن ظهر قلب ، ومجادلات ، امام الاعيان والاقارب .

. تعرض هذا التعليم للمهاجمة . فقد استهزأ بعضهم بمواضيع البيان من أمثال « ندامة نيرون بعد اقدامه على قتل أمه » ، لان التلامذة ، الذين لم يترفوا جرم قتل قط ، ما كانوا يستطيعوا انتاج شيء شخصي . اما انصار هذه التآيين فارتأوا ان المهاجمة لا تعطي وزناً لحس الشبان ومخيلتهم وحدهم ، وان الاساتذة على حق في اللجوء اليها لتنميتها ، اذ اننا لا ندرك حق الادراك الا العواطف التي قد نشعر بها بعض الشيء . وان اهمية المخيلة تفوق اهمية البرهان : ان ما نستطيع رؤيته ولمسه وقياسه قليل جداً ؛ فمن « رأى » فرنسا ، وألمانيا ، والدولة ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الكادحين ، والعدالة ، والقساوة ، والحقد ؟ وانتقد بعض الخصوم مواضيع الفلسفة : « هل الكيان مشترك بين الجوهر والعرض ؟ » اما الانصار فكانوا يجيبون بأن هذه المواضيع ، المختارة ، تطرح ، كما يجب ان تطرح ، بتعابير تقنية هي في منتهى الضبط والدقة .

الا ان بعض فئات رجال الاعمال قد اعتبرت ان ليس هنالك ما يفيد تجار وصناعي ومزارعي الغد ، وربما تصور ابناء الصناعيين اليدويين والفلاحين ، الذين جاؤوا لقضاء بعض سنوات في الكلية ، دوماً رغبة في متابعة دروسهم العليا ، انهم انما يضيعون وقتهم . وارتأوا ، أقله في فرنسا ، ان ما بلغته اللغة من الاستقرار ، والادب من الثروة ، يعني عن اللغة اللاتينية التي لم يمد لها من حاجة الا لترجمة النصوص ؛ وان ما حققته العلوم من تقدم وما وفرته من براهين ودلائل رائمة يسمح بالاستغناء عن كثير من حيل البيان والمنطق . وفي ذلك دليل على ان محاولات جرت لتجديد التعليم الكلاسيكي وتنمية التعليم التقني .

في كل مكان تقريباً ادخلت مواد جديدة على برامج الكليات . في بروسيا ، ادخل فردريك الثاني في السنة ١٧٦٣ تعليم اللغة الفرنسية ، وأحل منطق « وولف » محل منطق ارسطو . في النمسا ، اوجب برنامج الدروس لسنة ١٧٧٣ اعتماد الطريقة الاختبارية في علم الطبيعة والفلسفة والاخلاق . في فرنسا اقدمت بعض كليات رهبان القديس فيلبوس النيري ، ثم الجامعة بعد السنة ١٧٦٣ ، على تعليم اللغة الفرنسية بواسطة الصرف والنحو ، وعلى تدريس البيان بواسطة المؤلفين الفرنسيين . ادخل التاريخ الحديث ، وبعد أن كان سرداً زمنياً للحوادث ، لم يلبث ان اصبح درس الحضارات والحكومات والسياسة الخارجية . تأسست منابر لتلقين علم الطبيعة الاختباري ومختبرات لعلم الطبيعة في كليات عدة بعد السنة ١٧٦٠ . ظهرت اللغات الاجنبية . في الفلسفة ، دحض الاساتذة نيوتون ولوك وديكارت ، وبمعنى ذلك انهم تكلموا عنهم وأوجدوا الشغف بمعرفتهم . استصوب البعض آراءهم ، وتخلّى واحد او اثنان عن البرهنة بالاقيسة . وكان أهم تطوير لفت الانتباه ما أقدم عليه بندكتيو « سان - مور » في كلية « سوريز » : بمكنة التلامذة ، الذين يرغبون في ذلك ، تلقي دروسهم بدون اللغة اللاتينية ووضوح برنامجهم الخاص بفضل حقوق اختيار اعطيت لهم . الا أن معظم الكليات حافظت على تقليد اثبت مزاياه وأفضليته .

وإذا عارض اساتذة الكليات ادخال العلوم العملية الى المؤسسات ، ظهرت مدارس خاصة بالتعليم التقني . في المانيا أسس « هكر » ، حوالي السنة ١٧٤٧ ، « المدرسة الواقعية » الاولى . وبعد السنة ١٧٦٣ ، اكثر فردريك الثاني من هذه المدارس في بروسيا . وتعددت مدارس التجارة في المانيا . ودخلت فرنسا عن طريق « الازاس » حيث أسس تجار « ميلوز » ، في السنة ١٧٨١ ، المدرسة الاولى . وظهرت بعض المدارس الزراعية . وعلمت المدارس كتبها الدين واللغات الحية والتاريخ والجغرافية والرياضيات وعلم الطبيعة والرسم ، كما علمت بالاضافة الى ذلك ، بحسب الاختصاص ، الكيمياء والعلوم الطبيعية والمراسلة التجارية ومسك الدفاتر وحساب الاوزان والمقاييس في الدول الهامة والعمليات التجارية والزراعة واعمال المشغل . فاتجه التعليم كله شطر الحياة العملية اليومية .

أحدثت مدارس عسكرية وبحرية خاصة . فكان لال هبسبورغ مدارس عسكرية في بروكسل منذ السنة ١٧١٧ ، وفي فيينا منذ السنة ١٧١٨ . وحدث الفرنسيون خير المدارس لإعداد ضباط الغد لدروسهم العليا . فتحت المدرسة العسكرية الملكية ابوابها في السنة ١٧٥١ لتلامذة تتراوح اعمارهم بين ١٣ و ٢٠ سنة . ثم احدث الكونت « دي سان جرمين » في السنة ١٧٧٦ اثني عشرة مدرسة عسكرية اقليمية ، اسندت ادارتها الى رجال كنيسة يعاونهم بعض الضباط ، لقبول تلامذة حتى سن الرابعة عشرة . كان هؤلاء التلامذة يتعلمون اللغة اللاتينية واللغات الحية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والرسم وعلم الطبيعة الاختباري والرقص والمسايقة والموسيقى . وقد ضمت هذه المدارس تلامذة يدفعون رسوماً مدرسية واخرين يستفيدون من منح تتحملها الدولة . وكان نابوليون واحداً من هؤلاء الاخيرين في مدرسة « بريين » .

استقبلت فرقتا حراس البحرية في برست وتولون ، لبحرية الدولة ، ابناء نبلاء تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٧ سنة . سرح افراد هاتين الفرقتين في السنة ١٧٨٦ ، فاستعير عنهما بسكيتين احدهما في « فان » والاخرى في « اليه » . تناول التعليم الرياضيات والرسم وبناء السفن والملاحة وقيادة السفن والاستهداء بواسطة الخرائط . وفي فصل الصيف كانت تنظم اسفار بحرية على ظهر سفن التدريس .

وكان هنالك ، للبحرية التجارية ، ٢٤ مدرسة خاصة لتلقين علم المياه السطحية في المرافئ الهامة ، وفي السنة ١٧٤٦ أحدثت مدارس رسمية في « برست » و « روشفور » و « تولون » .

أمّا في التعليم العالي ، الذي يوزع على شبان اكبر سنأ اعد ذهنهم لتحصيل التعليم العالي أعلى درجات المعارف الخاصة ، فقد بقيت الجامعات ، لسوء الحظ ، بعيدة على العموم عن العلوم الجديدة والعلوم العملية . احدثت الجامعات الالمانية دروساً في الاستثمار الزراعي للشبان المعدين لادارة الاملاك الملصكية ، أو مشاريع زراعية اخرى . وحدثت

جامعات « هال » و « هيدلبرغ » و « غوتنجن » دروساً في الكيمياء العملية وعلم الآليات ، ولكن معارضة اساتذة اللاهوت والآداب القديمة كانت سبباً في التحلي عنها بعد سنوات معدودة . وادخل آل هيسبورغ العلوم الاختبارية والتعاليم المفيدة الى الجامعات القائمة في بلدانهم ، ولا سيما جامعة بافيا في ايطاليا الشمالية . إلا ان الدروس الجديدة نظمت على العموم الى جانب الجامعات على يد الاكاديميات والجمعيات الادبية والعلمية وبعض المؤسسات الخاصة . وكان لبعض العلماء واثرياء الهواة ، في فرنسا ، مجموعات عديدة من النماذج والآلات ، كـ « فوكسون » ، مثلاً الذي عرض ، في السنة ١٧٧٥ ، بمجموعته من آلات الغزل والحياكة في احد فنادق ضاحية « سانت انطوان » وسمح للجمهور بمشاهدتها . ثم أوصى بها في السنة ١٧٨٢ الى الملك لويس السادس عشر الذي اضاف إليها ٥٠٠ نموذج بغية تحسين المصنوعات . وان هذه المجموعة التي ضمت بعد ذلك الى مجموعة اكاديمية العلوم ، غدت ما نعرفه اليوم بالمعرض الوطني للفنون والحرف . وغدت حديقة الملك ، التي ادارها بوفون ، مركزاً للتشرائح العملية والتعليم . واجتذبت الدروس في علم النبات والكيمياء والتشريح والصيدلة ، التي ألفها بعض العلماء ، طلاباً كثيرين جداً . وامست مدارس لتعليم اعمال المناجم في المانيا ، في « برونسويك » (١٧٤٥) و « فريبورغ » (١٧٦٥) و « كلوستال » (١٧٧٥) ، وفي فرنسا ، في باريس (١٧٧٨) . وغدت المدرسة الفرنسية للجسور والسدود (١٧٤٧) نموذج المدارس العصرية العليا للهندسة المدنية .

واكتسبت الاكاديمية العسكرية النمساوية في « فيينز-نوستات » (١٧٥٢) شهرة حلالاً . وأعيد فتح المدرسة العسكرية في باريس ، في السنة ١٧٧٧ ، لتستقبل نخبة طلاب المدارس العسكرية الاقليمية . وقد تلقى نابليون بونابرت فيها دروسه بعد تخرجه من بريين .

وقامت في فرنسا آنذاك افضل مدارس المدفعية . أما أهمها لمدرسة « لافير » حيث درست شؤون المدفعية ، للمرة الاولى ، تدريساً قياسياً مبنيّاً على العقل . وقد اشتهرت كذلك مدرسة « هانوفر » (١٧٨٢) حيث درس « شارنهورست » مجدّد الجيش البروسي بعد معركة « ايينا » .

وقد لقن خير تعليم تقني عرفته أوروبا في المدرسة الهندسية الفرنسية في « ميزيير » ، التي تأسست في السنة ١٧٤٨ ، على غرار أكاديمية المهندسين السكسونية للهندسة في الأرجح . فان الطلاب ، الآتين من مدرسة المدفعية في « لافير » ، ما كانوا ليقبلوا فيها الا بعد امتحان عسير . وقد اعتبر مهندسو الجيش الفرنسي خير المهندسين في أوروبا . وخرجت المدرسة رجالاً معروفين كثيرين : « لازار كارنو » ، منظم النصر ؛ والرياضي « بونسليه » ، وكونيو ، مخترع السيارة ؛ وكولومب ، العالم بالطبيعيات ؛ والوطني « روجيه دي ليل » ، مؤلف المرسلين .

منذ السنة ١٧٢٠ تلقى واضعو الخرائط البحرية من الفرنسيين علومهم في دار الخرائط والتصاميم الخاصة بالبحرية في باريس . وتخرج سنوياً من مدرسة البحرية في اللاوفر ١٢ مصمماً

السفن . وكانت مدرسة المدفيعين المتمرنين ، المؤسسة في السنة ١٧٦٦ ، تستقبل شباناً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وتجعل منهم ضباط مدفعية في البحرية .

وجّه التعليم في كافة هذه المدارس شطر الناحية العملية . وتناولت الدروس ، المتميزة كلها بقيمة عملية كبرى ، مواد خاصة مختارة . ونذكر على سبيل المثال أن طلاب هندسة المناجم كانوا يدرسون المواد التالية: الكيمياء ، وعلم المعادن ، وعلم سير المياه ورفعها ، والتهوية ، واستثمار المناجم . وكانوا يعملون في قاعة التدريس مسائل عملية عديدة ويرسمون التصاميم . ويعملون في المختبر . وقد كرس نصف الوقت ، ثلاثة أيام من أصل ستة على العموم ، للأعمال المختلفة : بناء الجسور والحصون ، صنع البارود ، مناورات ، ورماية . ومن جهة ثانية كانوا يقضون شطراً من الصيف يمارسون خلاله أعمالاً تمريزية في المصانع وورش الأشغال العامة ومراكز بناء السفن واصلاحها . فكانت نتيجة الاتحاد الوثيق بين العلم والتطبيق العملي وبين عمل الفكر وعمل الايدي تعليماً مهنياً ذا قيمة عظيمة . ويعتبر المؤرخ الاميريكي « ف . ب ارتز » ان التعليم التقني الفرنسي العالي كان على العموم خير تعليم تقني في كافة أنحاء اوروبا ، أي في العالم ، خلال القرن الثامن عشر .

٣ - الصحافة

إن الصحافة الدورية ، التي نشأت في مستهل القرن السابع عشر ، قد نمت نمواً كبيراً خلال القرن الثامن عشر ، في هولندا ولا سيما في انكلترا ، بفضل مزيد من الحرية ونشاط الحياة السياسية ، وفي البلدان الاخرى ، على غرار هذين البلدين ، كلما نمت الحياة الفكرية وبرزت وسائل العمل السياسي التي توفرها الصحافة . فالصحافة تمكس في كل مكان حالة البلاد عكساً يكاد يكون صحيحاً .

حافظت الصحيفتان الهولنديتان ، « صحيفة اوترخت » و « صحيفة ليدن » ، الصحف الهولندية على الشهرة الأوروبية التي اكتسبتها خلال القرن السابق . ملأت صفحاتها اخبار هامة في أغلب الاحيان ، كالاعلام بمشاريع المعاهدات ، أو معثرة ومعية بسبب الحرية التي يتمتع بها اصحاب المطابع في هذه البلاد الجمهورية ، وبسبب تجارتها العالمية الكبرى ، وموقعها كمتفرق طرق على بحار ضيقة هي اكثر البحار الأوروبية نشاطاً ، عند مصب الرين . حررتا في معظم ايام السنة باللغة الفرنسية فوجدتا قراء في كل مكان ، وقد سمح الملوك بدخولها دونما صعوبة لأن هذه اللغة تجهلها الطبقات المتوسطة والشعبية . تميزتا بالاستقلال وغالباً ما شكت مجالس الوزراء لحكومة الاقاليم المتحدة قحة الصحافيين ومذالها . فكانت الحكومة توجه اليهم التهديد تلو التهديد دون أن تعقب ذلك بعمل جدّي في غالب الاحيان . لذلك كان ملك بروسيا ، فردريك الثاني ، يتدخل شخصياً : هاجمته يوماً جريدة تصدر في « غروننغ » فنيه أحد امناء سر المندوبية البروسية الصحافي إلى أنه ، اذا استمر في مهاجمته ، « سيستخذ بحقك قرار سيجعلك

تقدم على فعلتك طيلة الايام المتبقية من حياتك » . وقد زاحت الصحف الهولندية صحف أخرى تصدر باللغة الفرنسية ، تأسست في بلدان صغرى تتمتع بحرية لم تعرفها الدول الكبرى ، وضمنت لها النجاح بالصدق والصراحة : « صحيفة هرف » في أفليم « لياج » ؛ « روح الصحف » في لياج ، و « صحيفة برن » و « صحيفة كولونيا » . إلا أن بعض هذه الصحف لم يرضوا في تقبل مساعدات المارك المالية .

ازدهرت في انكلترا صحافة عصرية الطابع . تميزت بحريتها الكبرى
الصحافة الانكليزية نسبياً . لا حاجة الى ترخيص مسبق : باستطاعة اي كان ان يؤسس ساعة يشاء الصحيفة التي يطيب له تأسيسها . ولا رقابة احتياطية : فالمقالات لا يقرأها ولا يقطع منها ولا يحذفها رقيب رسمي قبل ظهورها . وهذا شيء ضروري في بلاد خاضعة لنظام تمثيلي وبرلماني الى حد بعيد ، حيث بعض المواطنين ينتخبون ومن حقهم ابداء رأيهم . ولكن الصحافة ليست حاجة سياسية فحسب ؛ فهي نتيجة تفتح كافة اشكال الحياة الاجتماعية ، ولذلك فتبادل الآراء والاخبار ينمو مع كل ما سواه .

بلغت هذه الصحافة بعض الكمال نسبياً . فان المنشورات الدورية ، التي كانت اسبوعية في البدء ، صدرت ثلاث مرات في الاسبوع منذ ان سيرت ثلاث عربات بريد على الطرق الرئيسية المتفرعة من لندن . غدت الـ « دايلي كورانت » ، ابتداء من السنة ١٧٠٢ ، اول صحيفة يومية . كانت هناك اربعة انواع رئيسية من المنشورات الدورية : الجريدة السياسية ؛ والجريدة الاخلاقية ، وابعدها شهرة جريدة الـ « سبكتاتور » لاديسون الذي عرف نجاحاً عظيماً حتى السنة ١٧١٢ واقتفى اثره اكثر من مائة صحافي في انكلترا وخلفه صحافيون كثيرون في السير الاوروبي ؛ والجريدة الاعلانية ؛ واخيراً « المجلة » ، « مخزن » كل جديد مهم في العالم : وكانت المجلة الاولى « مجلة الجنتمن » الشهيرة التي تأسست في السنة ١٧٣١ وتألقت من ٢٢ صفحة مطبوعة على عمودين . ولكن هذا التقسيم ليس مطلقاً . فان الجرائد السياسية قد نشرت محاولات اخلاقية واعلانات ، والجرائد الاعلانية نشرت مقالات سياسية ، ونشرت المجلات خلاصات المناقشات البرلمانية . في هذه البلاد التي كانت موطن التجارة الكبرى ، عاشت الصحافة من الاعلانات ، وقد كتب احد الصحافيين في السنة ١٧٥٩ : « ان صناعة الاعلان هي الآن على قباب قوسين من الكمال ، وليس سهلاً ادخال اي تحسين عليها » .

الصحافة الانكليزية صحافة طبقة من اليسورين . فهؤلاء قد اقصوا الفقراء بضريبة الطابع البريدي التي فرضت في السنة ١٧١٢ ، وزيدت نسبتها تدريجياً ، فازالت من الوجود الجرائد الصغيرة المعديدة التي كانت تباع بفلس وتنتشر الشعب من الجهل من حيث هو يعلم اولاده فيها القراءة . الا ان الجرائد كانت ، بفضل المقاهي ، في متناول الصناعيين اليدويين انفسهم . وك كانت دهشة مونتسكيو كبيرة حين رأى عاملاً مسقماً يطلب ان يوفى له بمجريدة .

وهي صحافة نضال ايضاً حاولت الاحزاب والحكومة الافادة منها. فرؤساء الاحزاب أسسوا الجرائد وتنازعوا الصحافيين اللامعين الذين يحمي بعضهم بين كبار الكتبة الانكليز : « ديفو » ، « سوفت » ، « فيلدنغ » . لا بل ان أحد الاسياد العظام ، « بولنبروك » ، قد احترف الصحافة منذ السنة ١٧٢٨ حتى السنة ١٧٣١ تفانياً منه في سبيل حزبه . وقد استخدم رئيس مجلس الوزراء « مالبول » (١٧٢١ - ١٧٤٢) عدداً من المستكتين واعطى تصاميم المقالات واوحى بما يجب أن يُنشر لعدد كبير من الجرائد وقدم المساعدات المالية للمستقلين أو المعادين . فجر ذلك على الدولة ٥٠٠٠٠ الف جنيه استرليني في السنة . اتفقت كلمة كافة السياسيين على أن لا يعرف الصحافيون عن البرلمان إلا ما يرونه مفيداً . لم تكن الجلسات عامة وقد حظر نشر وقائعها . فكان خيراً أن لا يعرف الجمهور معرفة أكيدة أن رئيس مجلس الوزراء كان يمر بين مقاعد النواب موزعاً عليهم الاوراق النقدية . ووجدت الصحافة نفسها ، من ثم ، معاقبة ومستعبدة بعض الاستعباد .

حاول بعض الصحافيين ، الحريصين على تأدية واجبهم المهني قبيل كل شيء ، أن يؤمنوا استقلالهم . وقد بلغوا ما سموا اليه ، فيما خص الاحزاب ، بفضل الاعلانات وحتى بفضل ضريبة الطابع البريدي التي ازالته المنافسين من طريقهم . نشر مديرو المجلات وقائع جلسات مجلس العموم بالاشارة الى النواب بحرفين من اسمهم اولا (١٧٣١ - ١٧٣٨) ، ثم بتظاهرهم ، بعد صدور رواية « سوفت » ، بسرد مناقشات مجلس شيوخ « ليليبوت » (١٧٣٨ - ١٧٥٢) ، واخيراً بنقلهم تفاصيل المناقشات بصراحة ، فسارت الجرائد على خطاهم . وكان أن الأزمة الكبرى التي نشبت بمحاولة جورج الثالث ممارسة الحكم الشخصي ، وقد برزت فيها قضية « ويلكس » بصورة خاصة ، أفضت الى انتصار الصحافيين . ففي السنة ١٧٧١ ، أوقف بعض الصحافيين لنشرهم تفاصيل المناقشات البرلمانية ، فأخلى سبيلهم قضاة لندن ، وكان من قوة تيار الرأي العام أن تخلى البرلمان عن المنع . وبعد محاولات كثيرة بذلت بغية تكليف القضاة الملكيين تقرير ما اذا كانت المقالات تنطوي على طابع القذف والذم ، تركت هذه المهمة اخيراً ، في السنة ١٧٩٢ ، للمحلفين والصحافيين الذين اصبحوا ، بمثل هذه الحماية ، يتمتعون بحرية تامة .

في المستعمرات الانكليزية الاميركية تقدمت الصحافة تقدماً عسيراً . الصحافة الاميركية فالجبر والورق وأحرف المطابع المستوردة من اوروبا كانت مرتفعة الاسعار . وكان عدد المشتركين ضئيلاً لأن الأخبار كانت نادرة ومتأخرة . وكان اجتياز الاطلنطي يستغرق بين خمسة وثمانية اسابيع ، ولم تكن المواصلات أقل بطناً بين المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية . ومع ذلك فقد كان هنالك ، في السنة ١٧٧٥ ، ٣٤ جريدة اسبوعية تصدر بانتظام تقريباً ، أهمها جريدة « فرانكلن » ، « جريدة بلسلفانيا » ، في فيلادلفيا . خلال حرب الاستقلال ، أدير النضال الفكري بواسطة الكتب الصغيرة بصورة خاصة : إلا أن

« جريدة بوسطن » لصاحبها « سام ادامز » وجراند « توماس باين » قد لعبت دورها ايضا . ثم تعاطف ميل الاميركيين الى المنشورات الدورية . فتأسست مصانع ورق وجبر وأحرف مطابع للاستغناء عن انكلترا . وفي السنة ١٧٨٢ ، كان هنالك ٤٣ نشرة دورية ، وفي السنة ١٧٨٤ ، ظهرت الجريدة اليومية الاولى ، « بنسلفانيا باكت » .

كانت الصحافة في البر الاوروي ، حيثما قامت ملكية مطلقة ، خاضعة للترخيص المسبق ، والاحتكار ، والرقابة المسبقة . وكان الصحفيون ، من جهة ثانية ، محتقرين في كل البلدان كجبهة وسطحيين . فكان للمؤلفات الكبرى والكتب الصغرى مركز الصدارة . ولذلك فان فولتير ، وهو اول صحافي عرفته العصور المتعاقبة ، لم يكتب في الجرائد . فكثرت من ثم الجرائد المخطوطة التي بيعت في الخفاء ، وهي الشكل الدوني من اشكال الصحافة .

الصحافة
في البر الاوروي

بيد ان استرخاء عاماً قد شجع الصحافة في فرنسا . دفعت بعض الجرائد الجديدة تعويضاً للجريدة الدورية الممتازة ، « جريدة فرنسا » ، للأخبار السياسية ، و « مرکور فرنسا » للأخبار الادبية والعالمية ، و « جريدة العلماء » . وحرر غيرها خارج فرنسا وسمح لها بالدخول مقابل رسم تستوفيه وزارة الشؤون الخارجية . الا ان فقدان الوحدة في الحكومة غالباً ما اتاح الاهتداء الى وزير يحمي الجريدة من الرقابة . فصدرت منشورات دورية كثيرة اشهرت الأب « بريفو » ، والأب « ديفوتتين » ، وفريرون . لابل ان المكتبي « بنكوك » قد نظم منذ السنة ١٧٧٢ شركة احتكارية حقيقية للجرائد وتوصل في السنة ١٧٨٧ الى الحصول على امتياز « جريدة فرنسا » و « مرکور فرنسا » ، وأدخل في خدمته المحررين النضاليين ، المشهورين بعنفهم وحميهم ، الذين يفتشون الحرية . ولكن التأخر كبير بالنسبة للصحافة الانكليزية : فلن « جريدة باريس » ، وهي أول جريدة يومية ، لم تصدر الا في السنة ١٧٧٧ .

حاولت الحكومة ان تضمن لها خدمات الصحفيين الفرنسيين والصحافيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية في كافة أنحاء اوروبا . وقد انققت في محارلتها مبالغ ضخمة من المال . ثم فكرت بأن تكون لها جرائدها ايضا . ففي السنة ١٧٦١ أُلحق « شوازل » « جريدة فرنسا » بوزارة الشؤون الخارجية واوز الى المشرفين عليها باعتماد « اللهجة الجمهورية » . وبواسطة الصحافة أعد « فرجين » الرأي العام للحرب الاميركية . ومنذ السنة ١٧٧٥ أخذت « جريدة فرنسا » ، وال « مرکور » تعظم « الثائرين » . ومنذ السنة ١٦٧٦ ، ادارت وزارة الشؤون الخارجية سرا جريدة « شؤون انكلترا واميركا » التي ما فتئت تهاجم الانكليز وانتهت الى امتداح مبادئ اعلان الاستقلال ونشر مقتطفات طويلة من « المقول العام » ، مقالة توماس باين الانتقادية الديمقراطية المعنيفة . فكان ذلك بمثابة لعب بالنار .

أما الدول الأوروبية الأخرى ، فكانت كلتها دون فرنسا بمراحل . الترخيص
البدان الأخرى يمنح بكل تقدير ، والرقابة تمارس بكل صرامة . نمت النشرات الدورية على
العموم في المدن الحرة ، المزدهرة تجاريتها ، « فرنكفورت » ، « هامبورغ » ، كولونيا ، أوغسبورغ ،
ولكنها لم تنجح من ازعاج الرقابة الدائمة . بيد ان الأولوية كانت للنشرات الأدبية الدورية في كل
مكان . وفرديك الثاني هو الوحيد ، بين كافة الملوك ، من أفاد من الصحافة خير افادة
بمراعاته مصلحة الشخصية دون كل مصلحة أخرى . استحدثت الجرائد في مدنه الكبرى .
وكتب مقالات واوحى بغيرها ونقح سواها . مارس البُطل بكل مهارة . فلإثارة الرأي العام
الألماني والبروتستانتي على النمسا الكاثوليكية ، لم يأنف من ان ينشر في كل مكان رسالة مزعومة
من البابا الى القائد النمساوي « دون » وكتاب تهنئة مزورا من القائد الفرنسي « سوبيز » الى
هذا الأخير (١٧٥٩) . في السنة ١٧٦٧ هزت برلين شائعة حرب جديدة . فاعطت الجريدتان
البرلينيتان شق التفاصيل حول عاصفة برّدية شديدة اجتاحت ، بزعمها ، منطقة « بوستدام » .
نسي البرلينيون الحرب في استزادتهم من التفاصيل حول هذه الكارثة الخيالية . في سيليزيا المحتلة
ارغمت « جريدة سيليزيا » على اطراء الانتصارات البروسية والنظام البروسي ، ومهاجمة النمسا .
وأوعز فرديك الثاني بأن تؤسس في « كليف » جريدة باللغة الفرنسية بغية التأثير على أوروبا ، هي
« بريد الرين الأسفل » . وقدم المساعدات المالية ، شأن غيره ، للجرائد الصادرة باللغة الفرنسية ،
ك « جريدة برن » مثلا . وحارب خصومه بكافة الوسائل . فأمر مثلا بأن يوسع مدير « جريدة
كولونيا » المعادية ضريبا بالعصا . اضطر النمساويون ، بدورهم ، الى اثاره جرائد المدن الكبرى
على فرديك الثاني . وفي اقصى أوروبا ، أي في روسيا الآخذة في التنبه الى حياة الغرب
الفكرية ، ادارت كاترين الثانية مجلة « شيء من كل شيء » واعتمدت فيها الاسلوب الجدلي .
بذلت بعض المحاولات في سبيل تحقيق حرية الصحافة ، كمشاهدة « جوزف الثاني » مثلا ،
ولصحتها لم تدم طويلا .

يتضح من ثم ان الصحافة برزت كأداة تربية قوية . وهناك جرائد دورية انكليزية وفرنسية
عديدة اثبتت قيمتها الكبرى . ولكنها توجهت بصورة خاصة الى اليسوريين والمتقنين من النبلاء
والبورجوازيين . ان زمن الصحافة الشعبية لم يحن بعد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت
الصحافة ، منذ ذاك التاريخ ، اداة كذب واداة تضليل للرأي العام .

ان مجموع الطرائق التقنية التي بحثناها في هذه العجالة ، سواء كانت جديدة كل الجدة ، ام
تأخذ استخدامها آفاقا جديدة واشكالا جديدة ، لجدير لعمرى بأن يحمل اسم الثورة . توفرت
للأوروبيين وسائل فاقت كل ما عرف منها قبل ذاك التاريخ . وكان بإمكانهم تولي امر تحسينهم
الخاص وتحسين كافة البشر ومحاولة ايصالهم الى مستوى الانسانية الاسمى . ولكنهم لم يسعوا في
اغلب الاحيان إلا وراء الفتح والاستثمار بغية اشباع رغائبهم . وعلى الرغم من النوايا الكريمة ،
فقد حال الاتجاه التجاري للحضارة الأوروبية خلال القرن الثامن عشر دون قيام الأوروبيين
بهداية الاعراق الملوثة في ما وراء المحيط الى خير ما امتلكته أوروبا .

الأنوار وتعذر تحقيق الأمة الأوروبية

الفصل الأول

وحدة أوروبا

افتتنت أوروبا بجم ساحر، هو حلم الأمة الأوروبية. وعى المثقفون ما يقرب بينهم من أحياء آداب قديمة، ومسيحية، أو مثل موروثه عنها، تداخلت كل أفكار العصر، حق المعادية المعادية منها، وفردية النهضة، وروح علمية عصرية، وأشكال فنية، وحياة مجتمع، وتقنيات، ولاحظوا وجود هذا السكان، أوروبا. وصفها فولتير كـ «... نوع من جمهورية كبرى مقسمة بين عدة دول، بعضها ملكي وبعضها الآخر مختلط، هذه استوقراطية، وتلك شعبية؛ ولكنها متطابقة كلها، من حيث هي ترتكز إلى أساس ديني واحد، وتؤمن ببادئ حقوقية وسياسية واحدة، مجهولة في الحما العالم الأخرى...» والح ميلانيون في التأكيد: «ان البشر، الذين كانوا في ما مضى رومانين أو فلورنسين أو جنويين أو لومبارديين قد أصبحوا كلهم أوروبيين تقريباً»؛ وذهب الجيني في روسو في تأكيده إلى حد قوله «ان ليس هنالك اليوم من فرنسين والمسان واسبانيين وحتى من انكليز، ليس هنالك سوى أوروبيين. ميول الجميع واحدة هرواؤم واحدة وأخلاقهم واحدة لان واحداً من كل هذه لم يتخذ شكلاً قومياً بموجب نظام خاص». ودرج المثقفون على الكلام عن «عادات أوروبا المشتركة». أما المستقبل المرتقب فكان نهاية الحروب وتقارب كافة الدول في اتحاد كبير للدول المتحدة الأوروبية.

أوروبا الفرنسية هي فرنسا آنذاك ما وحدت أوروبا فكرياً وأخلاقياً. على الرغم من هزيمتها في حرب وراثة عرش اسبانيا ومن اعترافها بالهزيمة في معاهدتي «أوترخت» و«راستات»، وعلى الرغم من ان انكلترا أصبحت الدولة الأولى لجارياً

وسياسياً ، فان فرنسا ما زالت تثير وتفقد اوروبا ، وتثير وتفقد بواسطتها عالماً بكامله . فإن
 المركيز « كاراشيولي » ، سفير نابولي ، قد صدر كتاباً صغيراً وضعه في السنة ١٧٧٦ بهذا العنوان :
 « باريس ، مثال الامم الاجنبية » او « اوروبا الفرنسية » . وقد جاء فيه : « من اليسير ابدأ
 التعرف الى امة مهيمنة تحاول اقتفاء آثارها . بالامس كل شيء كان رومانيا ، اما اليوم فكل
 شيء اصبح فرنسياً . وفي اواخر القرن ، قال « ريفارول » في احتفال تنويجه في اكااديمية
 برلين : « يبدو ان الزمان قد حان للكلام عن العالم الفرنسي » ، كما سبق الكلام في ما مضى
 عن العالم الروماني . والمقصود بكل ذلك هيمنة فرنسية مرتكزة ، لا الى القوة ، بل الى
 رضى الافكار الحرة .

لأوروبا لغتها المشتركة ، اللغة الفرنسية ، التي كانت قيمتها احد اسباب رفعة
 المقام الفرنسية . منذ السنة ١٧١٤ ، اذ سلم صاحب الجلالة الامبراطورية
 لصاحب الجلالة المسيحية جدا ، في راستات ، بتوقيع اتفاق باللغة الفرنسية ،
 حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية ، حتى حدود آسيا ، كغاية دبلوماسية : ففي السنة ١٧٧٤
 حرر الاتراك والروس معاھدتهم باللغة الفرنسية .

الفرنسية
 لغة اوروبية

وتكلم امراء اوروبا جمعاء اللغة الفرنسية وكتبوا باللغة الفرنسية ، ونحنا نحوم افراد بطانئهم .
 وراستت ماري-تيريز النمساوية ابنتها جوزف الثاني وابنتها ماري - انطونيت باللغة الفرنسية .
 ونظر فردريك الثاني ، ملك بروسيا ، الى اللغة الالمانية كما الى طمطمانية بربرية ولم يستعمل
 سوى اللغة الفرنسية . باللغة الفرنسية راسلت الفلاسفة كاترين الثانية امبراطورة روسيا .
 واستخدم اهل الأدب كذلك اللغة الفرنسية . لا بل ان الجرمانى « لسنغ » كاد يؤلف
 ال « لاوكون » بالفرنسية ، وان « غوته » ، الذي سيتكلم فيما بعد عن « لغته الالمانية المزيّنة » ،
 قد تردد بين اللغتين . واجاد العديد من الاوروبيين التأليف باللغة الفرنسية ، وانه لجدير بسبعة
 منهم ان يحتلوا مركزاً في أدبنا : البريطانى « هاملتون » ، الامير البلجيكى « دي لينيه » ،
 الكاهن الايطالى « غالباى » ، الصحافى الالمانى « غريم » ، ملك بروسيا « فردريك الثاني » ،
 الامبراطورة كاترين الثانية ، الجنيفى جان جاك روسو . وتكلم اللغة الفرنسية كافة « اهل
 الفضيلة والامانة » . فكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع الرفيع . ولم ينتقل الادب الانكليزى الى
 اوروبا الا في ترجمات او مقتبسات فرنسية . وحتى يستطيع الهنغارون استخدام مجموعة
 ايطالية ، كان ضروريا ان تكون مترجمة الى الفرنسية . وامل النخبة الالمانية عرفت مؤلفات
 كبار الكتاب الالمان ، من امثال « كلوبستوك » و « لسنغ » ، من خلال ترجمة فرنسية .
 وغير القول ما قاله فردريك الثاني حين امر ان تنشر باللغة الفرنسية « بحاث اكااديمية برلين » :
 « على الاكاديميات ، كي تكون مفيدة ، ان تبلغ اكتشافاتها باللغة الشاملة ، وهذه اللغة هي
 الفرنسية » ؛ وفي كتابه « التاريخ العصري » جاء عن اللغة الفرنسية ما يلى : « تدخل الى كافة

المنازل وكافة المدن. سافر من لشبونة الى بطرسبورغ ومن ستوكهولم الى نابولي ، وتكلم الفرنسية ، فتصادف في كل مكان من يفهم ما تقول ، .

ان اللغة الفرنسية مدينة بهذه الملكية الخارقة لوضوحها . فهي اكثر اللغات وضوحاً لان عمل الكلاسيكيين قد اقصمها على اعم المفردات بالاستغناء عن معظم الكلمات التي تستخدم في العلم الواسع الخاص وفي الاختبار التقني، وعن الكلمات الاقليمية والمحلية والشخصية والمؤثرة؛ ولأن كل كلمة أو تعبير احتفظ بها قد كانا موضوع بحث وتدقيق ، وكل معنى قد حدد ، والقوة والمدلول قد قيسا ، والتجانسات والاستعمال والموافقات قد عينت ، وأخيراً لان ليس من لغة في أوروبا بلغت هذا القدر من الضبط والصحة والوضوح وقرب المأخذ بالنسبة لكل من ليس منتسباً للبلاد او المهنة .

انتصرت لانها استخدمت في اكمل المؤلفات ، تلك التي انتظمت فيها الافكار انتظاماً خالياً من كل عيب ينقلنا تدريجياً من الفكر البسيط الى الافكار المطردة التركيب بحسب تسلسل منطقي ؛ ولأن كل فكر قليل الفائدة أو غريب عما يريد المؤلف ايضاحه او اثباته يقصى اقصاء تاماً ؛ ولأنها استخدمت كذلك في المؤلفات التي تحققت فيها خير تحقيق صفات النظام والسياق والتدرج والاتصال واستمرار البيان، وفي تلك التي تطرق جوهر الموضوع بدون مداورة وتفسير وتبرهن وتقمع وتقرّب الى الادراك ، بشكل لا نظير له .

ان هذه المؤلفات ، وهي اجلي ما انتجته أوروبا ، لكافية بمجرد صناعتها لأن تؤلف مدرسة فكرية ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تنطوي على كنز قل نظيره من الملاحظات والآراء . غزا الادب الفرنسي كل شيء . قرأ الناس كبار كلاسيكيي القرن السابع عشر ومؤلفي القرن الثامن عشر واعادوا قراءتهم تكراراً وتأملوا فيهم واستساغوم وقلدوم واقتبسوم . لقد هتف الميلاني « بكاريا » قائلاً : « أنا مدين بكل شيء للكتب الفرنسية . ايه المبير وديدرو وهلفتيوس ويوفون ، ايتها الاسماء الدائمة الشهرة التي لا يمكن ان نسمع بها دون اهتزاز وتأثر ، ان مؤلفاتكم الخالدة هي كتب مطالعتي الدائمة وموضوع انشغالي في النهار وتأملاتي في الليل » . وكان باستطاعة الوف مؤلفة ان تقول ما قاله بكاريا . وتشرب فردريك الثاني « بابل » ، وفونتنبيل ، ومونتسكيو الذي دعاه « توراة المشرع المصري » ، ولا سيما فولتير . وتغذى جوزف الثاني بمؤلفات واضعي دائرة المعارف والاقتصاديين و « الملك » فولتير . وتشبع الكتاب الالمان من الادب الفرنسي . لابل ان صحافياً اشتهر بألمانيته ك « لسنغ » قد حاول افراغ جملته في قالب جملة فولتير ، واشهر بمسرحياته نظريات ديدرو ، واستوحى الاب « دي بوس » في نقده الفني . وجاء غوته الى جامعة ستراسبورغ بغية اتقان اللغة الفرنسية واقتن بالفرنسيين . لابل بلغ من تأثر الانكليز بالادب الفرنسي ان مقالات انتقادية سياسية قد صيغت صياغة فرنسية . لقد سيطر على أوروبا الجاه عقلي مشترك وطريقة تفكير مشتركة وآراء كثيرة مشتركة .

وكان فرنسياً كذلك الفن الأوروبي، وهو مصدر آخر لميول ومشاعر مشتركة .
الفن الفرنسي اراد المجتمع الفرنسي آنذاك ان يجمل حياته بلاذ الحواس اللطيفة التي تستلزم
فن اوروبي حكماً محصاً ، وقد خرج الفن الفرنسي من هذه النزعة التي قواها .

انه متجانس وتطوره متواصل . بشق النفس نستطيع ان نميز مزيداً من الشهوانية والهوى
في عهد الوصاية ، اثناء المرحلة التي عقبته الحرب ؛ وحالة توازن حوالي السنة ١٧٥٠ ، حين
عرف النمط المعروف بنمط لويس الخامس عشر اوج ازدهاره ؛ ونزعة متزايدة الى البساطة
وعدم التصنع ، ابتداء من السنة ١٧٦٠ ، تحت تأثير العصور القديمة المكتشفة في اتروريا ،
وبومبيي ، ومصر ، ونظريات « ونكلن » ، في ما اطلق عليه اسم نمط لويس السادس عشر .
ولكن هنالك ما هو اشد بتمصيم على متابعة المهمة المشروع بها وادخال الجدة في التقليد .
فكان « دافيد » اول من ظهر بظهور الناثر . وان هذه الوحدة وهذا الاستمرار يردان الى
هيكل اداري « لا يزعم الاقوياء ... » ، ويساند الضعفاء ، ويتيح للمتوسطين انفسهم ان لا
يكونوا البتة ارياء كلياً : سلطة وكيل الابنية ومهندس الملك ورسامه الاولين ، واثر
الاكاديميات النشيطة جداً التي تعلم وترشد وتكافىء . وترد الوحدة والاستمرار كذلك الى
الزين الذين يحتل البورجوازيون ولا سيما البورجوازيات المركز الاول بينهم : المرأة هي مصدر
الوحي الاول . اما الملك ، الذي واجه صعوبات مالية جمة ، فلم تعد نصرمة الفن وقفاً عليه ، بينما
كانت البلاد آخذة يجمع الثروات بواسطة التجارة والمصانع . واذا استمرت الملكتان « ماري
لكزنسكا » و « ماري انطوانيت » والعائلات النبيلة الكبرى في تشييد الابنية وطلب البضائع ،
فان حديشي النعمة وحديشي العهد بالغنى قد لعبوا دوراً ربما كان اكبر من دور الملكتين
والعائلات النبيلة : الخليلات الملكيات المنحدرات من اصل وضيع ، كالسيدة « دي بومبادور »
والسيدة « دي باري » ؛ ورجال المال كـ « كروزا » و « باري - دوفرنى » ؛ وممثلات الاوبرا
كـ « غيار » . لم يعد الفن فرساياليا فحسب ، انه باريسى في الدرجة الاولى ، والولايات تفتفي
اثر باريس . الفنان يحلم بجمهور اكبر عدداً . فمنذ السنة ١٧٣٧ ، لا تسمح الاجتماعات في
قاعات الاستقبال ، التي يسرد تفاصيلها الصحافيون ، كديدرو مثلاً ، بالاتصال بمزيد من الناس
فحسب ، بل ان اعادة نشر المؤلفات بنقوش متقنة يرغم على ارضاء هواة من صغار البورجوازيين
انفسهم ايضاً . من هذه التأثيرات المختلفة انبتق الفن الذي تميز بتنوعه وسحره .

ازدهر في أعقاب حروب لويس الرابع عشر الطويلة والعصيبة ، في عصر أبعد استقراراً
كادت المملكة لم تشعر فيه بقتال ملوكها في الخارج ، واستوحى السعي وراء السعادة على هذه
الارض ، فجاء فنا علمانياً بعتاً ليس من روح الكنيسة لا بقليل ولا بكثير . هندسة عمارة
كان ام تزييناً ، رسماً أم نقاشة ، زياً أم موسيقى ، فانه يطفح بالطلاوة أبداً . اناقة ، وخفة ،
حتى في القوة ، وانطلاق ، ونسق رشيق ، واعتدال ، ولحفظاً ، انه لمن الصعب التعبير عن هذه

الطلاوة بالكلام ، ولكن ليس من يشاهد تحقيقات هذا الفن دون أن يتأثر بها . انه فن فني ؛ فني باختيار نماذجه أولاً : فمع ان الرسامين والنقاشين لم يرفضوا الكهول والشيوخ في رسم الاشخاص ، وحتى المشاهد ، فانهم قد فضلوا الاطفال والفتيان والشبان ولا سيما الشابات ، لأن العصر كان « عصر المرأة » ؛ وفني كذلك يبيله الى الحركة ، ونزوة العنف في التمايل المحتلجة ، ومسيرة الجماعات الراقصة على اللوحات ، ونسق وجه الابنية الذي يشعر المشاهد امامه وكأنه مأخوذ ومحمول كما في موسيقى راقصة سحرية . انه لفن بهج أيضاً : فاخشاب الاثاث الزاهية الالوان ، ومرايا المداخن المتألقة ، والوان الرسوم اللامعة والمتنوعة ، وجمال العربي ، والبسات ، كل ما فيه سحر للعيون ، وعيد دائم ، وكل ما فيه يعبق بهجة الحياة . وانه لفن مريح اخيراً لا يغفل رغد العيش البتة . ان هذه الميزات المسيطرة ، التي قد ترافقها ميزات أخرى ، موجودة في كافة تحقيقات هذا الفن .

هندسة العمارة الفرلسية عني القرن الثامن عشر عناية خاصة بتجميل المدن الذي سبق للقرن السالف ان عاد إليه . نظر الى المدينة ككل لتجميلها وتحسين حياة سكانها المادية . سمى وراء الجمال والمنفعة في آن واحد . كوّن لنفسه مفهوماً كلاسيكياً و اراد إخضاع الطبيعة لمشيئة الانسان وعقله ، ولكنه لم يهمل الطبيعة قط ، ولا التاريخ ، لأن الصواب يقضي بالافادة من معطياتها . فبرزت في كل مكان الارصفة الجميلة والجسور المتينة في « رين » و « اورليان » و « بلوا » و « تور » و « نانت » ، والمنزهات العامة وحدائق المدن ، ك«الداائرة الكبرى» في « تولوز » مع نجمتها المحضوذة (١٧٥٢) ، و« حديقة «النيبوع» في « نيم » ، و«ال «بيرو» في « مونبلييه » مع اطلالته على أفق جبال « سيفين » العابس والاجرد ؛ وبرزت في كل مكان الساحات الملكية الممتدة لأن تكون اطاراً لتمثال الملك ، في «ليون» و«مونبلييه» و«ديجون» و«رمس» ، و«فالنسيان» ، و«نانسي» ، و«بورديو» ، و«رين» ، ولا سيما ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الاتفاق) في باريس . ولكن الساحة ، التي كانت مغلقة في القرن السابع عشر ، انفتحت في القرن الثامن عشر واسهمت في السير العام . لم يشيد في جوار ساحة لويس الخامس عشر سوى صف من الابنية الى الورا ، وامتدت الحدائق الى يمينها ويسارها وانساب نهر السين امامها . وتجاورت الساحات ، كما نرى ، في نانسي مثلاً ، ساحة « دوكال » مع حواجزها الحديدية المشبكة الشهيرة التي حققها « لامور » ، وساحتي « الحجر » و« نصف الدائرة » اللتين « تتقابلان » كأنها مقطعان من نغم واحد . وظهرت فكرة تجميل عصرية جداً في التصاميم التي وضعها « لدو » لمدينة نموذجية تقرر بناؤها في « شو » ، من اعمال « فرانش - كوئتيه » ، حيث تبدو الابنية المكعبة والكروية ، الخلو من كل ترتيب ، تسبقاً لما سيحققه « له كوربوزيه » .

احتفظت هندسة العمارة بطابعها الكلاسيكي ، وعلى الرغم من اننا نلمس فيها تطور القرن العام ، فلمل الفن هو أقل ما تبدل فيها . لم يحدث الملك أشياء جديدة كثيرة في فرساي ، وان

ارفع هنا لـ « تريانون الصغير » الذي حققه « غابرييل » (١٧٦٨) والذي هو تحفة القرن الثامن عشر . فباريس هي التي استأثرت بالمحدثات الهامة . لم تقم هناك أبنية دينية كثيرة (العديسة جنيفيف التي حققها « سوفلو » ، و « سان سوليس » التي حققها « سرفندوني ») . ولكن الابنية الدينية تجددت بالاستعاضة عن الركائز الضخمة الثقيلة بالاعدة الرشيقة وبعتماد الاروقة . اكثر الابنية الجديدة أبنية منعمة عامة : المدرسة العسكرية ، وهي من تحقيق غابرييل (١٧٥١) ، ومدرسة الجراحة ، من تحقيق « غندوان » (١٧٨٠) ، ودار السكة (١٧٧١) ، والمسارح ، كـ « الاوديون » ، من تحقيق « انطوان » و « بير » ، ومسرح « فكتور لويس » في بوردو الذي كان سلمه الابهى الكبير ، المستوحى من القصور الملكية ، مثلاً نسج « شارل غارنيه » على منواله عندما حقق دار الاوبرا في باريس . وقامت كذلك دور ارستوقراطية كثيرة شيدت بحسب تصميم خاص : المسكن منفرد تحيط به ابنية الخدمة القائمة الزوايا ويفصله عن الشارع فناء الشرف ، ووجه البناء مع بناء آخر امامي في الوسط ، والحدائق في المؤخرة . اما امثلة ذلك فدار « سوبيز » ، من تحقيق « ديلاير » و « بوفران » ، ودار « بيرون » (متحف « رودين ») من تحقيق غابرييل ، ودار « ماتينيون » (رئاسة مجلس الوزراء) من تحقيق « كورتون » ، ودار « سالم » (قصر جوقة الشرف) من تحقيق « روسو » ، وقد شيدت كلها تقريباً في ضاحية (سان جرمان) عند منطلق طريق فرسايل ؛ وقصور آل « روهان » في « ستراسبورغ » و « سافرن » من اعمال الازناس .

هذه الهندسة كلاسيكية بما اقتبسته عن العصور القديمة وعصر النهضة : الاعمدة ، الاروقة ، تيجان الاعمدة الدورية والايونية والكورنثية ، العتبات فوق الاعمدة مع الساكف ، الافاريز والاطناف ، المثلثات في اعلى مقدم البناء ، الدرابزونات والقباب . وهي كلاسيكية بنظامها الصارم . تتألف الابنية كما تتألف عظام « بوسويه » و « ماسي » « راسين » . التوازن والانسجام والتناسق ، تلك هي صفات هذه الهندسة التي تكملها هندسة اخضيضاب الحدائق على الطريقة الفرنسية : ان نظر المشاهد يهتدي بحواشي الحدائق الطويلة وصفوف الاشجار المشدبة الوارفة الظلال ، ينتقل من ارض مخضوضرة الى مرآة مائية ، ثم يضيع في أفق منحنوني وتستقر العين في التهايل البيضاء .

ان هذه الهندسة معتدلة جداً . لا تعتمد التزيين الا بكل ترزنت . الجمال يقوم في كمال نحت الحجر ، وتناسق الخطوط ، وضبط النسب ، والمطابقة الصحيحة بين كافة الاجزاء والغاية التي وجدت من اجلها ، والذوق الصائب في وضع العرض حيث يرتاح اليه النظر . وقد برزت صفة الاعتدال هذه بعد السنة ١٧٥٠ بصورة خاصة . ولكن لا برودة ولا تعبس ، اذا استثنينا اواخر القرن . ان حياة رقيقة تسري في اوجه البناء هذه ، وايقاعاً خفياً يهز عضلات المشاهد وموسيقى شجية تجتذبه . على الرغم من عظمتها الحقيقية ، وحتى من جلالها احياناً ، فان ما يشبه الحنمة والانفداع ، والطلاوة الراقصة ، يجعل المشاهد يتعرف فيها الى عصرها . اما بعد

السنة ١٧٧٠ ، فقد أصبح المعبد اليوناني ، بتأثير من علماء العاديات ، النموذج المألوف للسارح (اوديون) ، والاسواق (المصق) ، والكنائس (سان فيليب - دي - رول) ، من تحقيق شالفرين) ، واتجه الذوق الفاتر شطر الجفاف والتكشف قبل ان ينتقل ، في عهد نابوليون الاول ، الى الضخامة والعظمة .

وعلى نقيض ذلك ، تبدل تزيين هذه الابنية وتأثيرها تبديلاً تاماً . فان الراحة والصفاء والطرافة قد تقدمت العظمة والقوة . ظهرت «مسكن صغيرة» حتى في فرسايل . وبغية افارتها وتكبيرها ، وضعت المرايا فوق المداخل . ثم احدث التزيين بالملاط الكلسي والرخامي والمعاجين على انواعها والواح تحشيب الجدران والحديد المشغول ما يشبه الخطوط المنحنية التي تكونها الالعب النارية . ان مشاهد الرعيان ، والحظائر ، والقرود الصاعرة ، والطيور ، والازهار ، والثمار ، واكليل الازهار ، وكنانة اله الحب وقده هي المشاهد التي زالت عادتها ولم يستخدمها الفرنسيون الا داخل دورهم ، والتي تفتحت في دار سوييز ، في قاعة بوفران الالهيلجية المشهورة ، او في رواق دار تولوز (مصرف فرنسا) المذهب . غدا الاثاث اخف وزناً واسهل نقلاً والبس بالنسيج المحشو واتخذ اشكالا تنفق ومنعطقات القوام . محل الكرسي المستقيم المسند ، المعد للتصدر ، والمشهور بطراز لويس الرابع عشر ، الكرسي المشهور بطراز لويس الخامس عشر والذي حشي مقعده ومسانده وغلقت بالمديجات . وظهرت الكراسي الواسعة ذات الاذنين ، والكراسي الطويلة او «الخطيئة الممتدة» ، والارائك ، والتخوت والكراسي الخفيفة . ونثرت الطاولات المستديرة والطاولات الصغيرة والمكاتب والحزائن ذات الادراج وعلب ايداع محتويات الجيوب ، في كل مكان تقريباً . اما مادة هذه المفروشات فبهجة وساطعة بالوان متقلبة : اخشاب الجزر ، البلاذر ، خشب الورد ، وخشب البنفسج ، والمالك الاحمر والذهبي والمالك المتعدد الالوان ، وبرنيق «مارتين» . واذا عرف الميل الى الرفاهية الاستمرار ، فان اعمال التنقيب في بومبي قد روتجت تدريجياً ، ابتداء من السنة ١٧٦٥ ، اشكالا مستقيمة وهندسية لاتزال تتميز بالحنفة والطلاوة ، والالوان غدت اقل ايذاء للنظر ، وظهرت الخلفيات السوداء الاولى مزدانة بفسيفساء او رسوم قديمة المواضيع ، ولاسيما بالراقصات الساحرة . ان الطراز المعروف بطراز لويس السادس عشر قد بدأ قبل لويس السادس عشر بزمن بعيد .

ماشى الرسم الظروف الجديدة . فلا مكان في المساكن الصغرى للوحات الرسم الفرنسي التاريخية والميثولوجية الكبرى ، بل للوحات الصغرى الكثيرة ، فوق المداخل والابواب مثلاً ، التي يحلو النظر اليها . لذلك تنوعت مواضيع الرسم التزييني وكثرت اللوحات الصغرى التي يسهل تركيزها ونقلها من مكان الى اخر .

اعدت الرسم للارضاء والاعجاب قبل التربية والتهذيب ، لذلك نراه يتخلى عن المثل العقلي

الاعلى الذي سعى وراءه في لوحة « رعاة اركاديا » . توجه الى الحس بواسطة اللون . الرسامون حلونون كلفوا بالبندقين ، والفلمنكيين ك « روبنس » ، والهولنديين ك « رمبراندت » . فهم والمعجبون بهم يتلذذون باللون كلون ، ويتمتعون باهتزازاته كما بالموسيقى . اما الصناعة فمعصرية في اغلب الاحيان وتبشر بالتأثيرين . يفصل « شاردين » بين الالوان التي يحساررها ويربط بينها بتقاطع الانمكاسات . وينهج « فراغونار » النهج نفسه ، ويعتمد تبادل الاشعاع بين السدوف والخلفيات ، ويلون الظلال . فعدا الرسم ، اكثر فاكثر ، تأليفا يتلقف الايجاز الحاسم .

ليقظ الرسم الخيال . انه شعر العصر ، ذلك الشعر الذي افتقر اليه الادب ايما افتقار . فها هي « الاعياد الانيسة » ل « فاتتو » (١٦٨٤ - ١٧٢١) التي هي حوار مستلذ بين اسبياد شبان وسيدات شابات ، وخرافات حقيقية ، نخص بالذكر منها لوحة « الاجمار الى سيتير » (١٧١٧) الشهيرة ؛ وها هما لوحتا « دور فينوس » و « الراعويات » ل « بوشيه » (١٧١٣ - ١٧٧٠) اللتان تمثلان حلم انسانية جميلة ، شهوانية ، مخصابة ، في طبيعة منظمة ؛ وها هي انشودة الحب ، ل « فراغونار » (١٧٣٢ - ١٨٠٦) ، التي تمبقي منذ ذلك التاريخ بكل الشعر الغنائي الرومنطقي ؛ وها هي لوحات غرق السفن والعواصف في ضوء القمر ؛ ل « فرنيه » (١٧١٤ - ١٧٨٩) ، والاطلال ل « هوبير روبير » (١٧٣٣ - ١٨٠٨) .

ولكن الرسامين ابناء زمن كانت محبته للحياة اليومية اقوى من ان يكثرثوا للعالم المحيط بهم . فان « فاتو » نفسه قد رسم مشاهد عسكرية ، كما رسم « فرنيه » مرافق فرنسا . ونجد في ما خلفه « هوبير روبير » تاريخاً مصوراً لفرنسا تحت ظل النظام القديم . اما الاختصاصي شاردين (١٦٩٩ - ١٧٧٩) ، فكان رسام صغار البورجوازيين (« الام المنهمكة » و « صلاة تناول الطعام ») . ويرع كلهم في رسم صور الاشخاص ، فكانوا سيكولوجيين يتقصون اعتمق اشخاص الشخص الذي يرسمونه . ويحب ان نضيف الى من ذكرنا . ناتيه « (١٦٨٥ - ١٧٦٦) الذي رسم مساري لكزنسكا و « سيدات » فرنسا ، والسيدة « فيجيه لبران » التي رسمت ماري انطوانيت ، وامهرم اطلاقاً ، المصور بالقلم ، « لاتور » (١٧٠٤ - ١٧٨٩) ، اللوذعي حتى الفظاظه ، الذي رسم « مدام دي بومبادور » ولويس الخامس عشر .

الا ان في هذا القرن ، الذي بلغ هذا القدر من الثروة والتنوع ، نواحي اقل جمالاً : الرسم الخلاعي الذي لا تجرؤ على اصدار حكنا عليه في ما انتجه « فراغونار » الصادق والضاحك (الارجوحة ، القميص المخلوعة) ، والذي تقز منه النفس امام ما خلفه « غروز » المرثي (الابريق المكسور) ، وما هو شر من ذلك ، رسم « غروز » الاخلاقي ، البهرج والمفضم ، الذي له اسوأ وقع على المشاهد .

أما النقاشه بماه الفضة التي برع فيها « كولين الابن » وسانتوين و « ومورو الابن » ، فقد عرقت فرسايل وبأريس . وقد اكتشفت النقاشه بالالوان في السنة ١٧٢٥ .

وأما التدبيح الذي وفّر له الرسوم الإيجازية أشهر رسامي العصر فقد أعطى نتائجاً جيّداً جداً نقل أو نسج على منواله في كل مكان .

في أواخر القرن تأثر «دافيد» (١٧٤٨ - ١٨٢٥) بإستاذه «فيان» وبالسكولي «ونكلن». على الفن ان يستخلص من الطبيعة الجمال المثالي ؛ قام القديما بذلك خير قيام ؛ يجب التلمذ عليهم ؛ إلا ان الرسم القديم ، اذا ما استثنينا الآنية اليونانية والرسوم الجدرانية في بومبي ، قد اضمحل وزالت آثاره ، فيجب من ثم النسج على منوال النقاشة وانتاج نقوش مصورة . ان «مين الهوراس» ، التي عرضت في روما في السنة ١٧٨٤ وضمت ، على تمسبها وطابعها المسرحي ، اجزاء جميلة جداً ، قد عرفت نجاحاً عظيماً جداً وكانت بمثابة بيان المدرسة الجديدة . فأوقف دافيد بذلك ، لسنوات طويلة ، تياراً لن يظهر ثانية إلا مع مدرسة السنة ١٨٣٠ .

تطورت النقاشة من الحركة الوثابة في «جياذ الشمس» ل«روريه الاريفي»
النقاشة الفرنسية الى الاتزان في يد «غرينيل» ل«بوشاردون» (١٧٣٩) والى الكلاسيكية الزاهدة وربما العابسة في «سان برونو» و«ديانا» ل«هودون» .

حافظت اكثر من الرسم على المواضيع الكبرى : التماثيل الملكية للساحات (لويس الخامس عشر «ليوشاردون» في ساحة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٠ ؛ و «لويس الخامس عشر ل«بيغال» في «رمس» ، ١٧٥٦) ، وقد حطمت كتبها على يد الثورة ؛ الأبنية المدفنية ، كضريح المارشال «دي ساكس» في ستراسبورغ ل«بيغال» (١٧٧٧) . ولكنها ، في الدرجة الأولى ، نقاشة مساكن تتميز بالخطوط المرنة ويضاهي فيها الأجر الرخام وتكثر من النساء والاولاد والفتيان: ك«مركور رابطاً جناحيه» و«الولد والقفص» ، و«الولد والمصفور» ل«بيغال» ، و«المستحمة» ل«فالكوتيه» . وكان النقاشون اخيراً مصوري اشخاص سيدهم ولوجيبين ايضاً يظهرن لنا مجتمع عصرهم كاملاً : بيغال («فولتير عار» ، ١٧٧١) ، «لموان» ، «باجو» ، «كافيري» ، وخصوصاً «هودون» ، الذي يمتسب «لاتور» النقاشة («فولتير» في بناء الكوميديا الفرنسية ، و«واشنطن» في كاييتول «ريتشموند» ، و«فرانكلن») .

هل كانت الموسيقى الفرنسية ، في هذا القرن ، دون الفنون الأخرى ؟
الموسيقى الفرنسية يبدو ان فرنسا لم تنجب عباقرة من امثال اولئك الذين المجهتسم النمسا وتورنج . ولكن اثر الموسيقى الفرنسية ، على الرغم من ذلك ، كان كبيراً . فالفرنسيون كانوا في الدرجة الأولى اساتذة معتبرين عرفوا ، هنا ايضاً ، الاهتمام الى النظام العميق المحتجب تحت الظواهر واكتشاف التواميس وردها كتبها الى مبدأ مشترك . وهذا ما فعله «رامو» ، المراقب البصير ، والعقل القياسي والمنطقي ، في مؤلفين هما بمثابة «مراحل الاجرومية الموسيقية» : «بحث في الايقاع» (١٧٢٢) و«دلائل مبدأ الايقاع» (١٧٥٠) . فرد نهائياً مقامات الألحان الاثني عشر القديمة الى المقامين الأكبر والاصغر ، والمقام الاصغر الى المقام الأكبر ،

والمقام الأكبر الى توافق الاصوات الاساسيين ، التام والسباعي ، وهذين الآخرين الى اللحن الخاص ، اي « النقطة الايقاعية » . وقد خضع التلحين كله ، حتى العهد المعاصر ، لأعمال رامو . عرف الفرنسيون اذن كيف يستخلصون من ممارستهم الموسيقية ، بمجمود تحليل وتجريد ، قواعد عامة وتمارين منسقة لتعلم العزف على الآلات الموسيقية . فقد نشر « فرنسوا كوبرين » ، الكبير ، في السنة ١٧١٧ ، « فن العزف على البيانو (القديم) » ، ونشر « رامو » ، في السنة ١٧٢٤ ، مجموعة معزوفات للبيانو ، تحت اسم « اسلوب لآلية الأصابع » . واعطى الفرنسيون خير أمثلة عن موسيقى البلاط وموسيقى قاعات الاستقبال . وجلبوا في البيانو القديم ، الذي هو جد « البيانو الحالي » ، ولكنه يبيض الوتر بدلا من ان يطرقه طرفاً ، فلا يستطيع من ثم صيانة الصوت ؛ والى هذا يرد ضعف رنينه ، « حزمة مفاتيح تحرك » ، والحاجة الى المديجات والزين المختلفة ، وتخصيصه للموسيقى الخفيفة والرقيقة : البيانو القديم « مشط دقيق لامرأة شقراء مجمدة الشعر جداً » . ان رامو و « وداكين » (١٦٩٤ - ١٧٧٢) ، ولا سيما فرنسوا كوبرين الكبير (١٦٦٨ - ١٧٣٣) قد اکتروا في الموسيقى من « الاعياد الانيسة » و « التسليات الريفية » و « الراعيات » التي حققها الرسم ، فجاءت نغمها لطيفاً ومرناً على غرار اناث من طراز لويس الخامس عشر ، على بعض التصنع في الطلاوة وتلاطف في الالاقفة ، تتسلط عليها المرأة تسلطاً كلياً كما تدلّ على ذلك اسمائها : « الساحرة » ، « العنفة » ، « الشهوانية » ، « الساذجة » ، الخ . وقد جليّ رامو بالاضافة الى ذلك في الاوبرا . واشهر مؤلفاته الكثيرة « كاستور وبولوكس » (١٧٣٧) . اعطى فيها مثال الموسيقى النبيلة ، المتحفظة ، المعدة لمساعدة الشعر في التعبير عن المشاعر وأحوال النفس دوغما زخارف نافلة ، الكلاسيكية ، لفنة الفؤاد . وهم الفرنسيون اخيراً من خلقوا الاوبرا الهزلية التي أشهرها اسم « غرزي » ، وعندهم اکتشفت اصول الايقاع الذي احدثته منذ السنة ١٧٤٣ مدرسة « مانهايم » الألمانية .

اتجه الزي كذلك شطر المستحب والمستحسن . منذ السنة ١٧١٨ ، انتشر الزي الفرنسي استعمال القضببان الخفيفة والطوية التي تنفخ «التنانير»؛ وكانت البهجة كبيرة بالخلاص من فساتين الزي القديم الضيقة . ارتدت النساء « مبادل » ، أي فساتين واسعة ومتسدة ، تكشف العنق والكتفين وأعلى الصدر ، ومزودة باكام على شكل القمع والهيكال الصيني . الاقمشة خفيفة : منسوجات قطنية من الهند ، ومنسوجات موصلية ، وشفوف دقيقة جداً ، وحرائر . السيدات يقصرن شعرهن الذي يمدنه قصاباً كبيراً ويضطررون في سبيل ذلك الى الذهاب الى المزينين . ويبرزن جملهن بقسيات من النسيج الحريري الدقيق الاسود يلصقنها بالوجه ، « الازبية » : « المولمة » ، الى جانب العين ، « الماجنة » ، فوق الانف ، « المغناجة » ، في أعلى الخد .

وتحلى الرجال عن الجعم المستعارة الضخمة والملابس المثقلة بالالوشحة والمخرمات واعتمدوا الملابس البسيطة ، الضيقة ، السراويل من نوع « غسد المسدس » ، والثوب المنحدر الى

الركبتين ، والجعم المطلحة .

منذ السنة ١٧٥٠ ، زادت كسوة رأس النساء ارتفاعاً . وفي عهد لويس السادس عشر باتت مرتفعة جداً ، حتى بات وجه النساء على ارتفاع ثلثي طولهن . وابتكر « ليونار ، القبعات المعبرة » على طريقة مونفوليه ، و « طريقة المتمردين » ، و « طريقة الدجاجة الحسنة » مع مركب حريري مبسوط الأشرطة . أما الملابس فقد تكلفت ، أكثر فأكثر ، البساطة وطابع الازياء الانكليزية للرجال .

ابتكر الزي فنانون حقيقيون ، هم الخياطون وخدمهم صنعوا ألبسة الجنسين في القرن السابق ، أما اليوم فقد ظهر طراز جديد هو طراز الخياطة وصانعة القبعات النسائية . إن الأنسة « برتين » ، و « زيرة الزي » ، « المقيمة في شارع « سانتونوريه » ، تشاهد الملكة « ماري - انطوانيت » يومياً . المزيّنون الاختصاصيون يحلون محل الفراش والفراشة . « داجيه » يزين السيدة « دي بومبادور » ؛ و « ليونار » يزين « ماري - انطوانيت » ؛ و « له فرو » يؤسس أكاديمية التزيين . وتقوم جرائد الازياء بنقد الفن الجديد .

ان بعض متذوقي المآكل ساعدوا الطهاة على تحسين فن الطباخة . يفرض الطهاية الفرنسية
تذوق المآكل حساً مرهفاً في اللسان والمذاق ، وانتباهاً كلياً دائماً ، وحكماً
سليماً للتمييز بين الطعم والروائح الزكية في ادق فوارقها ومطابقتها وتداخلاتها . النهم فن من
الفنون الجميلة ، وهو جدير بان تكون له ربة شعره . الطهاة في دور « اورليان » و « كوفتي »
و « سوييز » ، والطهاة في دور الاحبار ورجال المال يتبارون في وضع خبير جداول الاطعمة
تنظيماً ، وتركيب اكثر المتبلات اتقاناً وتخليد اسماء اسياهم باطلاقها على ثريدة من التراث ،
او على حساء جديد . انتظمت الوجبات الفرنسية انتظام المسرحيات الكلاسيكية . المحفور
والاجبان الفرنسية ارسخت شهرتها . ابتكرت السيدة « دي بومبادور » صنف القدد من لحم
ظهور الدجاج في « المنظر الجميل » ، وابتكرت سيدات غيرها صنف السهانيات على طريقة
« ميربوا » وصنف الفراريج على طريقة « فيلروا » . وخلدت مآثر الدوق « دي ريشليو » في
« بور - ماهون » بالحساء المركب من زيت وخل وملح وقلقل وعرة البيض . وكان القرن الثامن
عشر بالاضافة الى ذلك قرن التبيذ الشمباني المزبد ، والفظائر المحشوة بقطع الاكباد المشهورة
باسم فطائر ستواسبورخ ، و« حلوى « Praline » الدوق « دي برالين » . كما كان قرن الطاهي
« كاريم » المشهور الذي كانت محبته للمطبخ اقوى من ان يتأخر في تناول الطعام ، والمقصف
« بريا - سافارين » الذي ولد في السنة ١٧٦٥ .

غزا الفن الفرنسي اوروبا . تراحم الامراء والنبلاء على الطهاة الفرنسيين .
غزر فرنسا
صدرت المفروشات الفرنسية من فرنسا شحنات كبرى . عند الامراء في رده
لاروبا
صانعي الاثاث والفروش الفرنسيين بقية احداث المعامل في بلدانهم . وقد بلغ
من شهرة مصنع الـ (غوبلين) الملكي الفرنسي ان هذا الاسم اصبح اسم جنس لتعيين المفروشات

المصرية على اختلاف مصدرها . زودت حوانيت الصاغة في باريس كافة البلاطات الاجنبية . وانتشرت منتجات مصنع « سيفر » الملكي من آنية صينية وآنية شبيهة بالمرمر في كل مكان . واستوردت النساء من باريس الفساتين والجوارب الحريرية والمراوح والقفايز المعطرة واحمر الشفاء وكافة « سلع الهبة الصغيرة الحجم » . وتزين وارتدين الملابس على الطريقة الفرنسية . وكن يرتقبن بفارغ الصبر دمية شارع « سانتولوريه » ، المزينة الشعر والجملة بالملابس ، التي تأتين كل شهر بإحدث زي في باريس . وكن في ساعات دواهن يستسلعن الى السحر احياناً . فقد عادت كنة كاترين الثانية يوماً من باريس بـ ٢٠٠ صندوق من فساتين شارع « سانتولوريه » وخرقه ، وما ان رأها كاترين حتى طاش صوابها واصدرت قانوناً يقيد النفقات المفرطة . وقد شقت باقات خيوط الحرير الازينية والبهارج والمخرمات الحريرية طريقاً امام الملحنين والكتاب والرسمين .

ان الموسيقى الفرنسية ، التي احقرها جان جاك روسو ، كانت موضوع تقدير الالمان . وشقت القطع الموسيقية الفرنسية ، ولا سيما موسيقى البيانو ، طريقها الى كافة البلاطات الالمانية حيث عزفت وقلدت ونقلت . واقتبس الايطاليون والالمان الكثير من موسيقى رامو الاصلية . وفي كلامه عن فرنسوا كوبرين الكبير ، صرح « برامز » ، بأن « سكارلاتي » و « هايندل » و « باخ » من عداد تلاميذه ، (مدخل طبعة المؤلفات الموسيقية المعدة للبيانو) . واعجب « باخ » بكوبرين وأشار على تلامذته بالافادة منه . وان باخ هذا ، الذي هو عبقرية متميزة ، لمدين الى الفرنسيين بفنه في التسلسل وطريقته الكلاسيكية ، الراسيكية والفرسايكية ، في حصر أهمية القطعة الموسيقية بفكرة واحدة تسيطر عليها من أولها الى آخرها . وليست « ثورة » غلوك ، المزعومة في الاوبرا سوى تطبيق لمبادئ رامو على يد رجل عبقرى ، والى باريس جاء غلوك ، الذي لم تفهمه فينبأ المتعودة محسنات الاوبرا الايطالية ، ليرى انتصار كلاسيكته القائمة . وتأثر « موزار » ، متأثراً قوياً بمؤلفات رامو للاوبرا وبالاوبرا الفرنسية الهزلية . وانك لترى ، في كل ما خلفه هايدن وموزار ، اثر الموسيقى الارستوقراطية العالمية ، الطريفة والخفيفة ، التي جلى فيها الفرنسيون . وقد ذاع صيت باريس في كافة أنحاء اوروبا بسبب امتياز طبعاتها الموسيقية . فان والد موزار قد طلب الى الباريسيين نقش مؤلفات ابنه ، كما ان غلوك قد ارسل الى باريس من فينشا تركيب معزوفة « اورفيه » كي ينقش فيها نقشاً فخيماً .

ولكن اعرق اثر تركته فرنسا هو أثرها في هندسة المهارة والنقاشة والرسم . وكان من حق المهندس « بات » ، أن يكتب في السنة ١٧٦٥ ، تجولاً في روسيا وروسيا والدانمارك وروتمبرغ ، والبالاتينا ، وبافاريا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وايطاليا ، تر في كل مكان مهندسين فرنسيين يحتلون المراكز الاولى . وينتشر نقاشونا كذلك في كل مكان ايضاً ... باريس هي بالنسبة لاروفا ما كانته أئينا بالنسبة لليونان حين ازدهرت فيها الفنون : انها تقدم الفنانين لكافة اقطار العالم . في كل مكان نشاهد فرنسيين يحتلون مركز الرسام الاول والمهندس

الأول والنقاش الأول لدى الامراء والملوك . وهم لا يكتبون بالابداع والخلق ، بل يديرون أكاديمية الفنون الجميلة الأجنبية ويدرسون فيها أيضاً . وإذا لم ينتقلوا من مكان الى آخر ، أرسادوا التصاميم والرسوم التي يراقبون تنفيذها . يؤثرون بنشوراتهم المجموعات النقوش المطبوعة في فرنسا التي تضمها كل مكتبة من مكتبات الفنانين الاجانب ، والتي هي ، بالنسبة لهؤلاء ، مرجع يستوحون منه الافكار والاشكال الهندسية : كتب الهندسة لـ « دافيار » ، وبلونديل ، ومجموعة كبريات جوائز مهندسة العمارة ، وكتاب فن تنظيم الحدائق لـ « لبلون » ، ومجموعة تماثيل ... قصر فرساي ، ومجموعة « جوليان » لصور « فاتو » ورسومه . الامراء يرسلون المشاريع التي يضمها مهندسو بلدانهم الى الأكاديميات الفرنسية طالبين ابداء الرأي واجراء التحويرات اللازمة . وبأني عدد غفير من الفنانين الأجانب لتلقي دروسهم في فرنسا فينتشرون فيها الذوق الفرنسي .

اقتبست اوروبا عن فرنسا فنها البلاطي . ان مدينة فرساي الملكية ، مع تصميمها الموضوع بشكل مروحة ، واتجاه شوارعها الى القصر الذي يسيطر على المدينة ، وفي ذلك ما فيه من تعبير عن نظام الحكم المطلق ، قد نسج على منوالها في « كارلسروه » مقر حكام « باد » ، وفي « سان بطرسبورغ » حيث نضد « لبلون » ، مهندس القيصر العام ، بين السنة ١٧١٦ والسنة ١٧١٩ ، فوق الاقضية المشتركة المركز ، مروحة مؤلفة من ثلاثة ابعاد نظرية كبرى تتجه كلها الى اعلى برج « الاميرالية » ، فجعل من عاصمة القياصرة فرساي جديدة .

حاول كافة الامراء تقليد قصر فرساي مع افئائه الامامية التي تضيق تدريجياً باتجاه فناء الشرف ، وحديقته المنظمة ، وبنامى « مارلي » و « تريانون » الملحقين به ، ورواق المرايا الكبير ، وسلم السفراء ، والسقف الرمزي تخليداً لمجد الملك ، وصورة الملك حاملاً اسلحته او مرتدياً بزة التكريس . كلهم رغبوا في ساحة ملكية تكون اطراً لتمثال الملك فارساً أو راجلاً ، على غرار لويس الرابع عشر الراجل لـ « ديجاردين » ، ولويس الرابع عشر الفارس لـ « جيراردون » ، أو لويس الخامس عشر لـ « بوشاردون » ، وقد حطم هذان الأخيران في عهد الثورة .

ان القصر المنتخبي في بونت الذي حققه « روبر دي كوت » ، وقلامذته وزينه « اودران » و « اوبنورت » و « فاستيه » ، ومقر « بوبلدورف » الريفي ، وقصر « بروهل » ، قد شيدت في المانيا الرينانية لمنتخب « كولونيا » . وشيد منتخبي تريف ، في « كوبلانس » ، على يسد « اكسنار » ثم « بير » الابن ، ومراقبة اكاديمية باريس للهندسة ، بناء على الطراز المعروف بطراز لويس الرابع عشر . واقتبس منتخبي « ماينس » قصر مارلي ، وأسد وضغ تصاميم البناء الى الألمان وطلب الى الفرنسيين اعادة النظر فيها . وفي البلاطينا ، المنجز « بينفاج » قصر منتخبي مانهايم وانشأ حديقة « شترلجن » ، على غرار فرساي . وفي روتنخ المنجز « لاغبيير » بعد السنة ١٧٥١ القصر الدوق في « شتوتغارت » . وفي بافاريا طلب الأمير المنتخب من « روبر

دي كوت، تصاميم قصره في شلسهايم واستخدم مهندسين تتلمذوا على الفرنسيين. وفي «كاسل» شيد الأخوان «دي ري» «لاندغراف» قصوراً ومتحفاً واريرا. وفي برلين شيد «جان دي يودت» «دار الصناعة»، وتعمد فرديريك الثاني عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين الذين شيدوا له قصر «بوستدام» و«سان - سوسي». وأعد له النقاشون الفرنسيون عدداً كبيراً من القطع الرخامية المنقوشة للسطوح والحدائق. يضاف الى ذلك أن تمثال المنتخب الأكبر لا يفترق بشيء عن التماثيل الفرنسية، كما ان ساحة فرديريك مقتبسة عن ساحة لويس الخامس عشر. ثم ان الرسام «بين» قد خلف صوراً لفرديريك الثاني في كافة مراحل حياته. وفي «درسد» تزخر «الحديقة الكبرى» التي دمرتها القذائف البروسية، بالتماثيل المستوحاة من تماثيل فرساي. وقد رسم الفنانان الفرنسيان «سيلفستر» و«هوتين» الصورة الملكية واعادا الى الذاكرة بلاط درسد وملاذه.

في النمسا شيد «جودو» جامعة فيينيسا. واستعان النمساوي «دونر» بالنقوش الفرنسية لنقش تمثال «شارل السادس» على غرار تمثال لويس الرابع عشر، وزين ينبوع «السوق الجديدة» بتماثيل شبيهة بتماثيل فرساي، وليست ساحة جوزف الثاني سوى ساحة لويس الخامس عشر بالذات. وقد تولى أحد قلامذة «لارجيلير» رئاسة أكاديمية الرسم العليا. وأراد الأمير «اوجين» أن يكون له فرساته الصنير في قصر «المنظر الجميل» وحديقته.

في روسيا جعل «لبون» قصرأ وحديقة فرنسيين من «بيترهوف» والحديقة الصيفية التي جعلها «بينو» بالعديد من الينايبع الضخمة. وحقق «فالين دي لاموت» بعد السنة ١٧٥٦ قصر أكاديمية الفنون الجميلة ثم «صومعة» كاترين الثانية، المستوحاة من «ترانون». ونسج على منوال فرساي في المقرات الامبراطورية في «قيصر كويه-سيلو» و«بافوسك» وحق في المقرات السيدية، كمقر الأمير «غاليترين» في «اركنجلسكويه» ومقر الكونت شرمتياف في «كوتوفو». وفي السنة ١٧٦٦ استدهت كاترين الثانية «فالكونيه» الذي نقش تمثالا ضخماً لبطرس الأكبر فارساً، وهو المصلح ومشيد المدن، مستوحياً مشروع تمثال لويس الرابع عشر، فحقق اجمل التماثيل الملكية في القرن الثامن عشر.

في بولونيا يشاهد الأثر الفرنسي في قصر لازينكي الصيفي وقد زينته النقاش «لبرون»، نقاش الملك الأول، الذي اسهم ايضا في أعمال قصر فرسوفيا الملكي.

وان ساحق «كولنجس - تورف» و«امالينبورغ» في الدانمارك لساحتان ملكيتان، كما ان «سالي» قد صنع تمثال الملك فرديريك الخامس فارساً من البرونز على غرار تمثال لويس الخامس عشر لـ «بوشاردون».

في السويد المنجز قصر وحديقة «دروتننهولم» والتجميل الداخلي في قصر ستوكهولم الملكي على غرار فرساي. وقد عمل هنا وهناك فرق عديدة من النقاشين الفرنسيين. وأقام «لارشفيك»

بين السنة ١٧٥٥ و السنة ١٧٧٨ في ستوكهولم تمثالاً لـ «غوستاف فازا» راحلاً وآخر لـ «غوستاف – ادولف» فارساً . وتولى ديبريه ، بين السنة ١٧٨٤ و السنة ١٨٠٩ كافة الأعمال التزيينية التي تطلبها المسرح وأعياد البلاط . وزين رسامو مدرسة « بوشيه » القصر الملكي .

في اسبانيا ، أراد فيليب الخامس أن يجعل من الـ « غرانجا » قصر فرساي جديداً . فصنع النقاشون الفرنسيون العديد من التماثيل والنيابيع ، وهكذا حوتوا شكل حديقة « ارانجويز » . وشيد مهندسون فرنسيون منزه « بوين رتيرو » في مدريد ، ودار « كوربوس » ، وقصر « المنظر الجميل » . وفي البرتغال جاء قصر « كلوز » قصر فرساي جديداً أيضاً ، كما جاءت ساحة التجارة في لشبونة ، التي انشئت لتخليداً لمجد جوزف الاول ، مماثلة لساحة لويس الخامس عشر . وفي ايطاليا اقتبس « كازتو » في « نابولي » و « سكولورنو » في « بارما » عن قصر فرساي ، كما اقتبس عنه « هت لو » في هولندا و « هامبتون كورت » وحديقة شاتسورث في انكلترا .

ونقلت أوروبا عن فرنسا فنّها المجتمعي ، الفن الباريسي ، ففي كل مكان يشاهد في الدور الخاصة بتصميم الدار الباريسية المميز ، كدار البارون « دي بزغال » في سولور (سويسرا) ودار « تور » و « كاكسي » في فرنكفورت ، وهي من تحفيق « روبير دي كوت » ، والدور الارستوقراطية في سبي « وللمستراس » في برلين .

وقد استعاد التزيين فيها كلها موضوع « الاعياد الانيسة » لـ « فاتو » . فشغفت به أوروبا ، لذلك نرى اجمل مجموعات « الاعياد الانيسة » للرسامين الفرنسيين في لندن وبرلين وستوكهولم ولندنغراد . وهي رسوم الاشخاص التي حققها الرسامون والنقاشون الفرنسيون ما يؤلف خير مراجع صورية لكافة بلاطات أوروبا .

لا يتسع المجال هنا لاحصاء المنجزات الاوروبية التي حققها الفرنسيون او اقتبست عن الفرنسيين . بيد ان الامثلة التي قدمنا لكافية للدلالة على هيمنة فرنسا الفنية .

ترد هذه الهيمنة في الدرجة الأولى الى تفوق الفن والادب في حد اسباب التوسع الفرنسي ذاتها . ولكن ظروفها خارجة عن ذلك سهلت انتشار المنجزات والفنانين وانتشار الحس والمشاعر والآراء المشتركة .

فهناك اولاً سحر العظمة الفرنسية الكبير . القرن الثامن عشر هو في نظرنا العظمة الفرنسية الفارة التي افتقرت فيها فرنسا الى الهيمنة البحرية والتجارية والسياسية . اما في نظر المعاصرين ، فان فرنسا ، التي كانت اكثر بلدان أوروبا سكاناً وخيرها تنظيمياً ، ما زالت ، على الرغم من هزائمها ، التي تخللتها انتصارات كبرى على كل حال ، اربح قوة عسكرية في البر الاوروبي اطلاقاً . وان في القوة لجاذبا .

بلاط فرنسا
جشم ملك فرنسا ابدأ ، في نظر ملوك أوروبا ، مثال الملك بالذات ، كما كان
بلاط فرنسا نموذج البلاطات كلها . لذلك حرص اصغر صفار الامراء الالمان
على ان يقلدوا ، في اماراتهم ، لويس الرابع عشر وفرساي ، وبلاط فرنسا . ولذلك قصد
الامراء والعظماء فرنسا طيلة القرن لاستكمال تهذيبهم فيها . نذكر من بينهم بطرس الأكبر في
السنة ١٧١٧ و كريستيان السابع ملك الدانمارك في السنة ١٧٦٨ وولي عهد السويد غوستاف ،
باسم الكونت « دي غوتسلاند » ، في السنة ١٧٧١ ، وجوزف الثاني امبراطور النمسا ، باسم
الكونت « دي فالكنستين » ، في السنة ١٧٧٧ ، والفرانديك « بول » الروسي ، باسم كونت
« الشمال » ، في السنة ١٧٨٢ ، والامير هنري البروسي ، باسم كونت « اولز » ، في
السنة ١٧٨٤ .

قاعات الاستقبال
يضاف الى ذلك ان عظماء اسيا كافة الأمم ، وفنانيا وكتانيا ، قد
استهوا قاعات الاستقبال الباريسية ، قاعات الدوقة « دي مين » ،
والمركيزة « دي لمبير » ، والدوق « دي سولتي » ، والامير والاميرة « دي ليون » في عهد
الوصاية ؛ ثم قاعات المركيزة « دي دفتان » والسيدة « دي تنسين » والسيدة « جوفرين » ؛
وفي النصف الثاني من القرن ، قاعات الاستقبال الفلسفية في دور البارون « دولباك » والآنسة
« كينو » والآنسة « دي لسيناس » ؛ والقاعة الموسيقية في دار « لابولينير » ؛ وبعد وفاة
الآنسة دي لسيناس في السنة ١٧٧٦ والسيدة جوفرين في السنة ١٧٧٧ ، قاعة السيدة « نكتر » ؛
وقاعات اخرى كثيرة في دور عظماء الأسياد ، والامراء الملكيين ، ورجال المال ، وأهل
القلم . لم يتقن في أي مكان آخر ما اتقن في هذه القاعات من تطرق بعيد الى كافة المواضيع
دون اطالة ، واطلاق الكلمات كالسهام ، وتقاذف الأفكار في مباراة حادة يدافع فيها كل
من الأطراف عن موقفه بالنبرة والحركة والنظرة ، في « نوع من الكهرباء يطير الشرار »
(السيدة « دي ستال ») . وبرعت السيدة جوفرين بصورة خاصة في حمل ضيوفها على الكلام :
« مقاعدها انا في ابولون ؛ انها توحى باشياء سامية » (الاب غالاني) . واجتذبت اليها اكبر
عدد من مشاهير الاجانب :

« لا أزال أذكر انني رأيت أوروبا جمعاء

تؤلف حول مقعدها حلقات ثلاثا »

(« دي ليل »)

وقد درج ملك بولونيا ، « ستانيسلاس - اوغست بونياتوفسكي » ، على مناداتها بكلمة
« امي » . استقبلها في فرسوفيا ، كما استقبلتها في فييتنا بأهبة ماري - تريز وجوزف الثاني .

احيط الأجانب في كل مكان في باريس بحسن الالتفات والملاطفة
الاستقبال الفرنسي وأعطوا مركز الصدارة . « يلاقي الاجنبي هنا المراعاة نفسها السقي
تلقاها سيدة في انكلترا » (بقيامين فرانكلن) . درجت أكاديميات الفنون الجميلة في العواصم

الأوروبية ، وهي شبيهة بها في فرنسا ، وعلى اتصال دائم بها ، على إيفاد الطلاب الداخلين الى باريس . وكان باستطاعة الفنانين الأجانب ، حتى البروتستانتين منهم ، الدخول الى الاكاديمية والاستحصال على الحقوق الوطنية . لذلك فسان معظم الاجانب لا يفادرون باريس ، « التي لم يتركها احد مسروراً » ، الا بانكسار قلب مؤلم ، وهم يصابون بعلة الحنين اليها ، فيشعرون وكأنهم « منفيون في وطنهم نفسه » . « لا حياة الا في باريس ، اما في الاماكن الاخرى فالحياة حياة ضيق » ، كما قال كازانوف ؛ وقال الامير هنري البروسي : « سلخت نصف حياتي تائقاً الى رؤية باريس ؛ وسأسلخ النصف الآخر متعسراً عليها » .

الهجرة الفرنسية
وغزا الفرنسيون أوروبا من جهتهم أيضاً . عددهم جعل من هجرتهم امراً يكاد يكون الزامياً ، اذ ان عدد سكان فرنسا الذي تجاوز عدد سكان روسيا نفسها ، قد بلغ ١٦ مليوناً في السنة ١٧١٥ و ٢٦ مليوناً في السنة ١٧٨٩ ، وكان يتزايد تزايداً سريعاً ومطرذاً بفضل ارتفاع نسبة الولادات . زد على ذلك ان انهيار نظام « لو » ، والأضرار التي نجمت عنه ، وتدني الطلب ، قد تسببت في هجرة فرنسيين كثيرين ؛ فتوثقت عرى الصداقات وعرفت الديومة . وقد ساعد على اكرام وفادة الفرنسيين اثره أوروبا العام عن طريق تجارة ما وراء البحار والنشاط الاقتصادي الذي ابداه ملوك اصبحوا « مستبدين مستنيرين » . وكانت هنالك اخيراً العلاقات العائلية . فقد جمعت بين اكثر العائلات الملكية والاميرية في أوروبا روابط الوراثة والمصاهرة والصداقة او الخدمات بسلالة البوربون في فرنسا : سلالة البوربون في اسبانيا واطاليا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وذريته : سلالة هابسبورغ في النمسا ، بزواج ماري - انطوانيت من ولي عهد فرنسا ، وقد سبق قبل ذلك ان ازداد اثر فرنسا في فيينا بزواج « ماري - تريز » من « فرنسوا دي لورين » . وما كانت مشاريع زواج لويس الرابع عشر من ابنة بطرس الاكبر ، ليصابت ، لتبقى دون اثر على حسن الالتفات الذي ابدته هذه الاخيرة للفرنسيين بعد اعتلائها عرش القيصرية . وكان الامراء المنتخبون الكلتسيون في كولونيا وتريف وماينس زبناً سياسيين أو نساء ملوك فرنسا . فان منتخب كولونيا ، « جوزف كليمان » ، كان اخاً لزوجة ولي العهد الكبير ؛ وحين اقصى عن ولايته ابان حرب وراثة عرش اسبانيا ، التجأ الى فرساي . كما ان « ماكس - عمانويل » ، منتخب بافاريا ، ونسيب لويس الرابع عشر ، قد التجأ هو ايضاً ، فقرة من الزمن ، الى فرنسا . وكان منتخب تريف « كليمان ونسلاش دي ساكس » عملاً لـ لويس الرابع عشر . وأسهمت علائق آل « روهان » ، الذين شغلوا مركز ستراسبورغ الاسقفي ابا عن جد ، بالامراء اساقفة ماينس وسبير ، اسهاماً كبيراً في انتشار الفن الفرنسي . فان دار ستراسبورغ الاسقفية ، وهي الرائعة التي حققها « روبري دي كوت » ، غالباً ما كانت نموذجاً للقصور الالمانية . وعن طريق الازراس اتصلت رينانيا الالمانية بالفن الفرنسي . فيتضح من ثم ان الفرنسيين كانوا في كل مكان ، لرسامين ونقاشين ومهندسين وضباطاً ومهذبين وصحافيين وممثلين وقرآشات وطهاة فحسب ،

بل بنشأين ورد أمين وبستانيين وحداثيين وصناعيين يدويين منسبين الى كل المهن ايضاً في
البلدين الجنوبيين المقتقرين الى اليد العاملة ، اسبانيا واطاليا .

الروح الاقطاعية وقد سهل المبادلات بين الدول المختلفة رواسب الروح الاقطاعية التي ما
زالت قوية عند الاشراف الريفيين . فما كان مسلماً به آنذاك ان من
حق الضابط اختيار سيده والبحث عن عمل عند ملك غير ملكه وامتشاق السلاح إذا اقتضى الأمر ،
بضد بلاده ، شرط أن لا يكون ملكه ، الذي يعتبر الاقطاعي الاول ، أو الاقطاعي السيد ،
في وجه هذا الضابط ، يقود جيشه شخصياً . لذلك كان الأجانب من الضباط والجنود كثيراً ،
في كل جيش . فالامير « دانهالت - داستو » كان في خدمة ملك فرنسا قبل أن يساعد فردريك
غليوم الأول على اعادة تنظيم الجيش البروسي . وكان الأمير « اوجين دي سافوا » قد عرض
خدماته على لويس الرابع عشر ، وحين استخف به هذا الأخير ، دخل في خدمة الامبراطور ،
ولكنه أسهم بعد ذلك في إدخال الفنون والروح الفرنسية الى النمسا . وان المارشال
« دي ساكس » ، الذي كان ابن زنى للملك بولونيا اوغست الثاني ، قد دخل في خدمة لويس
الرابع عشر .

الوطنية الشائنة ولكن نزعة جديدة عرفت بالوطنية الشائنة كانت أكثر فعالية ايضاً .
جاءت هذه النزعة نتيجة لنظريات الفلاسفة الفرنسيين . نظر هؤلاء الى
الجنس البشري كما الى وحدة . ان للبشر كلهم حقوقاً واحدة وطاقاً على السير في مدارج الرقي
نفسها . ليس هنالك من شعب مختار ومن عنصر متفوق ، لا بل ان الاختلافات العنصرية
والقومية ليست ذات شأن . « الطبيعة اعطت كل انسان العالم موطناً وكافة البشر مواطنين » .
نظر القائلون بالوطنية الشائنة الى حب الوطن كما الى رأي مقبول قبل التحقيق . لذلك هزل
فيهم الشعور القومي . فقد كتب فولتير : « كان من الواجب ان يكون ملك بروسيا سيدي
والشعب الانكليزي مواطني » ، وقد هنا فردريك الثاني بانتصاره على الفرنسيين في روسباخ .
وتوصل الفلاسفة فترة من الزمن الى اقناع كافة مثقفي اوروبا بهذه النظرية . فجاهر فردريك
الثاني باحتقاره اللغة والأدب الالمانيين ، ونعت رعاياه بالايروكوا . وأعلن الالمانى شيلر :
« اكتب كموطن عالمي . فقدت وطني منذ زمن بعيد لاستبداله بالعالم الفسيح » . وأسدى هذه
النصيحة الى أحد مواطنيه : « لا تسعوا وراء تكوين امة بل اکتفوا بأن تكونوا بشراً » .
وايد غوته هذه الآراء . وصرح لسنغ بانه لا يفقه معنى حب الوطن . ومن جهة اخرى ، إذا
كان اختلاف الاخلاق والعادات والاسن ابعده من اليوم الى حد بعيد ، فإن الانتقال من بلاد
الى اخرى لم يخضع لما يخضع له اليوم في الدول العصرية القوية التي كلفت الأفراد واهزت
الفوارق بين الالمان والفرنسيين ، والاسبان والاطالين . فنجم عن ذلك سهولة كبرى في
الاغتراب وتبني اخلاق الأمة المسيطرة وآرائها وميولها ، ترسخ الوطنية الشائنة ، التي
كانت مصدرأ لها ، وتنمي الروح الاوروبية .

وما زاد في اظهار اوربا وكنها اقتربت من الاتحاد ، ما قام في كل
 الاستبداد المستنير مكان من نظم مماثلة ، اوحتها ، كما بدا ذلك ، مؤلفات الفلاسفة ،
 وتزايد عددها تزايداً مطرداً بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن ، بعد «دائرة المعارف» ،
 حركة عامة تعرف بالاستبداد المستنير . ان الملوك ، او «المستبددين المستنيرين» ، اعتمدوا
 انفسهم خدام دولهم الاولين وارادوا تجديدها وتجديداً جذرياً باسم العقل . همضوا على رءسهم
 اصلاحات «مقولة» : بعض المساواة في الضرائب بغية زيادة مواردهم ، والتناهي المطل في
 ادارة الولايات والمدن بغية ضمان طاعة الرعايا بسهولة ، وبعض التسوية السياسية والاجتماعية
 للحد من توسع الارستوقراطيات ، والتساهل الديني بغية استخدام كافة رعاياهم بحسب كفاءاتهم ،
 وادارة اقتصادية تميزت بالحلب المفرط للربح ، تخفف من وطأتها الحرمان التي تبدو ضرورية
 للانتاج . ورافق كل ذلك قاموس فلسفي . أطلق الملوك على انفسهم صفات «الفضلاء» ،
 و«الكرماء» و«المواطنين» و«الوطنيين» و«الشفوقين» ، وتكلموا عن سعادة الجنس
 البشري ، واحبوا الطبيعة ، وذرفوا الدموع ، ونبغوا خصومهم بالمستبددين : هذا هو منذ
 ذلك التاريخ ، التصنع البياني الذي اشتهر به العهد الجمهوري ، ولكنهم لم يستندوا من وراء
 عملهم هذا سوى ارضاء الفلاسفة محركي الرأي العام الاوروبي الاقرباء . وقد نبغ المستبدون
 المستنيرون في ما سعوا اليه ، اذ ان الفلاسفة قد اتخذوا بالظواهر ادينام التناق والملاطفة ،
 فقام فولتير بالدعارة لفرديريك الثاني وديدرو لكاترين . لم يروا أن الملوك لم يفتاروا في برنامج
 «دائرة المعارف» سوى النقاط التي تعود عليهم بالفائدة ؛ او بالأحرى ان في ما أقدم عليه
 «المستبدون المستنيرون» ، وهو خلو من كل جديد جديد ، تدابير اتفقت وبعض نقاط برنامج
 دائرة المعارف ؛ لم يروا أن هدف الملوك المحصر في تحقيق عظمة دولهم بغية السيطرة
 والغزو والتقسيم ، وان كل هذه «الفلسفة» ليست سوى فتنة سخادة ، وان رسيدة اوربا
 سراب خائب .

تنوع أوروبا

الدول المختلفة

ان العادات والنظم المتماثلة والمتشابهة قد حجبت في الواقع فوارق عميقة. فالطوائف البشرية الممدودة ، التي انتشرت هنا وهناك وكونت بفضل اتحادها « جمهورية عظيمة من العقول المستنيرة » (فولتير ، ١٧٦٧) ، قد برزت فوق جماهير مختلفة اختلافاً كلياً. ويرد ذلك إلى أن دول أوروبا الكثيرة كانت آنذاك في مراحل تطور تباعد بينها فروق كبيرة جداً . فمن الشرق الى الغرب ، كان المراقب يعود قروناً الى الوراء ويمتاز الزمن كما يمتاز المسافات .

احتفظت أوروبا بمميزات القرون الوسطى التي لن تزول إلا في القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاحتفاظ تباينت درجاته . فأوروبا كانت زراعية قبل أي شيء آخر ، يسيطر عليها النظام السيدي وبعض الارستوقراطيات المقارية القوية التي كانت تحمد من السلطة الملكية حداً متفاوتاً . في كل مكان تقريباً ، كانت الأرض مقسمة املاكاً كبرى هي الممتلكات الوراثية لارستوقراطية اسياذ يؤلفون هراً منظماً من الفدادين والاقطاعيين ينتهي في القمة بالملك ، الاقطاعي الأكبر . وكان هؤلاء الاسياذ يحتفظون لأنفسهم بقسم من الاملاك يستثمرونه بواسطة الملتزمين أو كما حدث ذلك غالباً في الشرق ايضاً ، بتسخير فلاحهم الآخرين ، وكانوا يسهلون ما تبقى من أراضيهم انصبه صغيرة الى مزارعين غالباً ما يكونون احراراً في الغرب ، وفدادين الى الشرق من نهر الإيلب . كان هؤلاء الاخيرة يزرعون انصبتهم لأنفسهم ، بينما كان باستطاعة الاحرار ، شرط شراء موافقة السيد بالمال ، توريث وحتى يبيع حقهم في زرعها . وكانوا ملتزمين أمام السيد بالعمل في قصره والأراضي التي احتفظ بها ، وهو عمل دعي « التسخير » ، غالباً ما استعيب عنه في الغرب ببلغ من المال ، وبأتاوات مختلفة عينية ونقدية ، اسهاماً منهم في تأمين حاجات السيد واعتراضاً بحقوقه السامية . هذه كانت الحقوق الاقطاعية . وكانت الغابات والمياه والبراحات ممتلكات مشاعية سمح السيد للفلاحين أن يأخذوا منها ، بشروط معينة ، الاخشاب والقشور والعسل البري والكلأ وفراش الدراجن ويسوموا فيها مواشيهم . واحتفظ السيد لنفسه بالقضاء على الحيوانات المضرة ، أي بالقنص . ومارس حيال الفلاحين ، بأشكال مختلفة ، سلطات قضائية

وبوليسية مع مراعاة سلطات الملك مراعاة تختلف باختلاف الدول . واذا ما توسعت بعض القرى والمدن في املاك السيد ، ألزم سكانها أيضاً بواجبات إقطاعية وخضعوا لسلطته القضائية . ولكن الاتحاد والاتراء وحق تشييد الاسوار أتاح للمدن أن تتحرر كلياً أو جزئياً . *

إن هذه الارستوقراطيات ، التي جمعتها من جهة ثانية الروابط العائلية والروابط الوثيقة بين الحامي والحامي وبين صاحب الاخاذة والسيد ، كانت مستأثرة من ثم بسلطة كبرى ، أقله محلية . فالواقع هو أن الملك ، وان اعترف له بسلطة مطلقة ، لم يمارس السلطة الفعلية التي تمارسها حكوماتنا الحالية ، حتى في فرنسا مثال الملكيات . فهو لم يصطدم بحقوق الارستوقراطية العقارية فحسب ، بل كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار حريات وامتيازات وحقوقاً فازت بها بقوة الاتحاد وضمنتها بامضاء الملك هيئات منظمة عديدة ، أعني بها الجمعيات المعدة لحماية الأفراد : البلديات ، التعاونيات المهنية ، الجامعات ، الكنيسة ، وحياناً ، كما في فرنسا واسبانيا مثلاً ، هيئات الموظفين الذين يمتلكون وظائفهم . أجل غالباً ما نافست هذه الهيئات الارستوقراطيات العقارية ، ولكنها اتحدت معها احياناً للدفاع عن « الحريات » المشتركة ضد قوة الملوك المتعاطفة .

وتوجب على هؤلاء كذلك احترام حريات وامتيازات ولايات دولهم المختلفة . الوحدة مفقودة في كل مكان ، بدرجات مختلفة . لم يتحرر الناس في أي مكان من مفاهيم الذرون الوسطى التي كان الملك بموجبها مالك المملكة سيداً أعلى يمتلك أراضي ملكية . وسع الملوك ممتلكاتهم بالزواج والارث ، وباختيار السكان احياناً ، وبالقوة أيضاً . ولكنهم غالباً ما تركوا للولايات الهتة اخلاقها وعاداتها ونظمها الخاصة . واذا الفت بعض الدول ، ولا سيما فرنسا ، أمماً حقيقية ، فان الامة لم تكن كاملة في أي مكان : لقد أدى واجب الخضوع الى رئيس واحد ، كما هو طبيعي ، الى قيام بعض النظم المشتركة ، ولكن التنوع ما زال كبيراً في كل دولة ، كما أن عمل الملك اعاقته هذه الفوارق وحد منه الاستقلال الذاتي الممنوح بتفاوت لكل ولاية من الولايات .

وتباين مدى السلطة الملكية والنظم المشتركة تبايناً كبيراً بحسب الدول . وانما يبدو ، على العموم ، انه كان كبيراً في البلدان التي تمكن الملوك فيها من أن يوقفوا في وجه الاسباد طبقة جديدة هي طبقة البورجوازيين ، من تجار وصناعيين . ان هذه الطبقة ، التي لم تنزل من الوجود قط ، والتي تزايدت تزايداً كبيراً منذ زمن بعيد ، قد نمت نمواً سريعاً وهاماً جديداً منذ الاكتشافات الكبرى في اواخر القرن الخامس عشر وتوسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . كان هؤلاء البورجوازيون ، الذين اكتسبوا ثروة وعلماً ، قوة اجتماعية كبرى ، وقد لعبوا ، بفضل الاموال الطائلة التي استطاعوا وضعها بتصرف الدولة والمصنوعات التي تمكنوا من توفيرها للملك ، دوراً لا يتناسب وعددهم ، لا بل لا يتناسب ، في الإرجح ، واهمية ثروتهم الحقيقية اذا ما قيست بثروة البلاد كلها . حمام الملوك ، لا بل حمام بعضهم بتدخل الدولة المنظم في الحياة الاقتصادية الذي أطلق عليه اسم الروح التجارية . فان هنري السابع وهنري الثامن و « اليزابت تودور » في

انكلترا القرن السادس عشر ، وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر في فرنسا القرن السابع عشر ، كانوا مستبدين مستنيرين حقيقيين قبل أن يحدد المعنى اللفظي لهذه الكلمات. ولكن البورجوازيين ما ان اصبحوا اقوياء حتى حاولوا بدورهم الحد من السلطة الملكية بالاتفاق مع ارسوقراطية مستضعفة بانت أقل خطراً عليهم .

يبدو التفاوت في نمو البورجوازية بحسب الدول اهم واقع في تاريخ هذه الدول خلال القرن الثامن عشر . ففي الشمال الغربي من اوروبا الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة لتيارات التجارة العالمية الكبرى ، رأت انكلترا ، البورجوازية المنتصرة في ثورة السنة ١٦٨٨ ، توسع سلطتها وتأثيرها ، ورأت دول تجارية كهولندا ، ومدن المانيا الشمالية ، قيام جمهوريات بورجوازية قديمة جداً . وفي فرنسا ، التي كانت أقل تطوراً ، هزت القرن كله الصراعات بين الارستوقراطية والبورجوازية والملك . وفي اوروبا الوسطى والجنوبية التي لم تتأثر كثيراً بالتجارة الاوقيانوسية الكبرى ، حاول « المستبدون المستنيريون » انهاء بورجوازية رأسمالية لمضاعفة قوة دولهم . أما في اوروبا الشرقية التي ما زالت في قرونها الوسطى ، فاما كانت السيطرة للارستوقراطية كما حدث في بولونيا ، واما استهدفت جهود الملك ، الملاك الاول في الدولة ، ضمان قيادته الفعلية لأرسوقراطية تحمل لها عن كافة الفوائد الاجتماعية ، كما حدث في روسيا .

اوربا الغربية

الملكة المتحدة . سيطرت التجارة البحرية على حياة انكلترا كلها، منذ ان وضعت الاكتشافات الاوقيانوسية الكبرى انكلترا في طريق التيارات التجارية الرئيسية ، ومنذ ان استطاعت الافادة من الرياح الجنوبية الشرقية التي وجهت إليها السفن الشراعية الكبرى ، تمازمت تجارتها تمازماً عجبياً حتى غدت منذ مطلع القرن الثامن عشر التجارة الاولى في العالم . كانت تجارة ايداع وتخزين : ينزل الانكليز في موانئهم منتوجات ما وراء البحار لاعادة توزيعها في اوروبا ، ومنتوجات البحر المتوسط لمقاومتها بمنتوجات البلطيك وبالعكس . وكانت تجارة نقل ايضاً : حل الانكليز باطراد محل الهولنديين وأمنوا نقل البضائع لحساب تجار الدول الاخرى . وكانت تجارة تصدير اخيراً تتناول ، بالاضافة الى المصنوعات ، الحنطة ، ولكن اقل فأقل ، والفحم المعدني ، « الهند السوداء » ، اللذين صدرا الى اوروبا الشمالية الغربية . وقد قدر بعضهم ان الانكليز استأثروا في اواخر القرن بتسعة اعشار المحمول الاوربي .

اعتمدت الدولة التعاليم الاقتصادية التوجيهية : وجهت الاقتصاد خدمة لصلوح الجميع . على البلاد ان تكفي نفسها بنفسها ، وتبتاع القليل وتشترى الكثير ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ ان الميزان التجاري ، الذي ترجح فيه كفة الصادرات على كفة الواردات ، ووفرة المعادن الثمينة ، هما دليلاً الازدهار . الدولة تعمل بقوانينها وانظمتها وسياستها . فوثيقة الملاحه (١٦٥١) تحتفظ للسفن الانكليزية بتجارة ما وراء الاوقيانوسات ، وتحظر على السفن الاوروبية ان تنقل

الى انكلترا بضائع غير بضائع البلدان التي تنتسب هي إليها ، وتحمي رسوم جمركية مرتفعة الصناعة الانكليزية التي نظمت . الدولة تعلن الحرب وتعقد الصلح وفاقاً لحاجات التجارة : الانتصارات على فرنسا انما هي انتصارات تجارية بواسطة المدفع . زد على ذلك ان معاهدتي أوترخت في السنة ١٧١٣ ومعاهدة باريس في السنة ١٧٦٣ قد كرس تهيمنة انكلترا البحرية والتجارية .

بدلت هذه التجارة كل شيء . ارتفع عدد السكان ، الذي اصبح في اسكتلندا وبريطانيا العظمى بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في السنة ١٧٠٠ ، و ٩ ملايين نسمة حوالي السنة ١٧٨٩ . ونمت بورجوازية غنية من رجال المال والتجار ومجهزي المراكب . لم تتكون فيهم روح الطبقة بعد : فحلهم هو ان يكتسبوا الاملاك الكبرى وينظر إليهم كما الى اعضاء الارستوقراطية العقارية . ولكن صوالحهم دفعتهم اخيراً الى القيام بعمل مشترك في الساعات الحاسمة . وبعد السنة ١٧٦٣ ، احدثت التجارة ثورة صناعية ضمت « قباطنة الصناعة » الى بورجوازية التجار وافضت الى نشأة طبقة من الكادحين .

أدت الانطلاقة التجارية والثورة الصناعية الى تطوير الاملاك الانكليزية الكبرى . افترقت الصناعة الى المزيد من الصوف ، والمدن النامية الى مزيد من الحنطة واللحوم . زاد طلب المنتوجات الزراعية وارتفعت قيمتها ، فرغب البورجوازيون ، اصحاب الاملاك السيدية ، بحسب عاداتهم ، في الافادة منها اكبر افادة . لم ينظر النبلاء من جهتهم الى النشاطات المفيدة نظرة الارستوقراطية الفرنسية . فهو احد كبار اعضاء طبقة النبلاء العقاريين ، اللورد «توشند» ، من استموى الزراعة ، فكان ان معظم الاشراف الريفيين اخذوا ، حوالي السنة ١٧٦٠ ، يستثمرون اراضيهم بأنفسهم . ولكن نظام الزراعة ، نظام «الحقول المكشوفة والمستطيلة» (Openfield) ، لم يكن موافقاً للزراعة المنتجة والعملية . فالحقول لم تكن مقفلة . وكان كل مزارع وراثي (Freeholder) يعتبر كالك للارض ويتصرف بعدة عقارات موزعة هنا وهناك محافظاً على حقوق السيد السامية . ويقتضي الزرع في الوقت نفسه ، وبالطريقة نفسها ، وهذا يتنافى والتقدم . أراد الاسباد صيانة اراضيهم كي يستطيعوا تغيير موعد الزرع ، وأرادوا استبدال طريقة الزرع كي يستطيعوا تأصيل المواشي . حولوا اراضيهم الى آراض مقفلة . استحصلوا من البرلمان على اجازة بتصوين الاراضي وجمعها كي يجعلوا منها انصبه يستلم كلاً منها مزارع واحد ، وصونوا الاراضي المشاعية نفسها . ولكن ذلك أدى بالمزارع الحر الى الاقتتار احياناً ، إذ أنه يستلم اراضي اقل جودة ويضطر الى تحمل نفقات التصوين ، ويحرم حق رعاية مواشيه في الحقول بعد الحصاد وحق الاستفادة من الاراضي المشاعية ، ويمعز عن مزاحمة كبار الملاكين بمنتجاته بسبب افتقاره الى المال والمعرفة لاعتماد الطرائق الجديدة . فيضطر الى بيع ارضه من السيد والآنحدار الى منزلة العامل الزراعي ، أو الذهاب في أغلب الاحيان الى المدينة حيث يصبح

عاملاً ، أو صناعياً أحياناً إذا حالفه الحظ . فما كانت الصناعة لتنمو لولا اليد العاملة التي وفرتها الحقول المغفلة . وهكذا غدا الغني أكثر غنى والفقير أكثر فقراً . والارستوقراطية اخذت تنسج على منوال البورجوارية . انشغلت بالانتاج والبيع واستثمرت المناجم كما استثمرت الارض . فقد انصرف الدوق « دي بردجوتز » بعد السنة ١٧٦٠ الى تشييد الاقنية لنقل الفحم المعدني ، ولكن اخوة الابكار في العائلة الكبرى قد انصرفوا من جهة ثانية ، بسبب البكورية الصارمة ، اكثر فأكثر الى التجارة والمال . وهكذا خفت تدريجياً حدة التضاد بين الاشراف والبورجوازية .

هاجت التجارة المجتمع هياجاً شديداً . فان الاثراء السريع الذي حققه اناس ، حتى من كبار الاسباد ، ما زالوا ريفيين افظاظاً ، والذي جاء في اعقاب حرب وراثية عرش اسبانيا الطويلة القاسية ، قد اسهم في فساد الاخلاق : ادمان الفقراء والاغنياء على المسكر ؛ فجور ؛ ميل الى المشاهد الشرسة وحتى الاليمة (ملائمة ، معارك الديكة) ؛ اعتماد الكذب والنميمة والرشوة ، والعنف والشغب عند الحاجة في الحياة السياسية ؛ لابل فقدان الشعور القومي في وقت من الاوقات « اني مستعد للدفع ، اذا وصل الفرنسيون ، اما اذا توجب علي القتال ، فخير لي ان يرمي الشيطان من الحياة ا » . وبصورة غير مباشرة ، سببت التجارة ، كردة فعل امام بؤس الطبقة الكادحة ، وفنور الكنيسة الانغليكانية ، التي كانت مناصبها محط انظار ابناء النبلاء من غير الابكار ، حركات فكرية واخلاقية كثيرة : الميثودية ، الانجيلية ، الميل الى محبة البشر . وانما القى (وسلي) غظة لأول مرة في الهواء الطلق امام المعدنين الغاليين . فكان ان هذه الحركات الكريمة كلها قد جددت انكلاترا تدريجياً منذ السنة ١٧٤٠ ، وبمشت القوى الادبية ، كالاهتمام بالقومية والعدالة والانسانية ، ولكنها ادت للبورجوازية خدمة بينة هي حمل الكادحين على الصبر والانتظار . وكان للتجارة اثرها حتى في العلوم والفنون . فهم البورجوازيون المثقفون والمتفرغون بعض التفرغ من قادوا الحركة العلمية . ويفسر الاثراء من جهته اقبال المجتمع الانكليزي على شراء منتجات الرسامين والنقاشين الفرنسيين ، كما يفسر اخيراً ، بعد انقضاء فترة تدريبية ، قيام مدرسة اصيلة للرسم الانكليزي .

وهيمنت التجارة كذلك ، بواسطة المجتمع الذي خلقته ، على الحياة الادارية والسياسية . كانت الادارة المحلية في ايدي الاغنياء . الملك يعين الموظفين المحليين من بين كبار الملاكين . فكان في كل كونتية قائمقام يقود مجندي الملاكين ، ومأمور احكام مدينة ينفذ احكام القضاء ، وقضاة صلح يختارون من لائحة ملاكين ينظمها القائمقام ، وتسند اليهم امور القضاء والاسعاف العام والرسوم المحلية . ولكن « الامن » في ذلك العهد كان يشتمل على كل ما نطلق عليه اليوم اسم الادارة . لذلك كانت الحياة المحلية كلها خاضعة للأثرياء ، وما انفك البورجوازيون ، من بين هؤلاء ، يزدادون عدداً كلما اكتسبوا املاكاً جديدة ، ومنذ السنة ١٧٦٠ ، انضم اليهم الـ « نواب » ، اي موظفو شركة الهند الذين جمعوا ثروات طائلة .

الفت انكلاترا ، سياسياً ، ملكية دستورية ، مع ملك ومجلسين . ولكن هذين المجلسين

لا يزالان سوى الاغنياء . يتألف مجلس اللوردات من اسيايد عظماء ، لوردات بالوراثة ، ومن اساقفة ورؤساء اساقفة ينحدر جلمهم من الارستوقراطية ، ومن لوردات يحق للملك ان يعينهم على هواه من بين الانكليز الذين ادوا خدمات جليلة للبلاد ويختارهم من بين الاغنياء . ويتألف مجلس العموم من مندوبين تنتخبهم المسندون او القرى الكبرى ، والارياق او الكونتيات ، بحسب دخلها او اعفائها ؛ يجب ان يكون المقارع من اهل اليسار . بيد ان الاغنياء وحدهم هم من ينتخبون عملياً . وكيف يجوز ، في ظل الانتخاب العلفي ، ان لا يصوت الناخب المرشح السيد الكبير ، مالك كافة بيوت القرية الصغرى والقادر من ثم على الانتقام ؟ كيف يجوز عدم ارضاء السيد الكبير ، مالك معظم اراضي القرية ، الذي يجمع بين النفوذ السياسي وممارسة المظالم الهائلة التي تتبع له تضييق سبل الحياة على المنتخبين المعصاة ؟ اصف الى ذلك من جهة اخرى ان اثار الحياة الانقطاعية لم تندرس كلها . فهناك هائلات كثيرة من المزارعين الاحرار ما زالت مغلصة في تقايرها في سبيل سيدهم واهلها . ثم ان الرشوة ممكنة اخيراً . فعدد المنتخبين ليس مرتفعاً ، وقد تدنى في بعض الامكنة بفعل ضائقة المزارعين الاحرار ، كما حدث بعدد سكان بعض القرى الى دورته في القرون الوسطى . ليس هنالك بعد سوى ٧ ناخبين او ٥ او ٢ . ولكن هؤلاء ما زالوا ينتخبون العدد نفسه من المندوبين . وجلي انه من السهل جداً شراء هذه القرى الفاسدة . وجلي كذلك ان باستطاعة البورجوازيين الاغنياء ان يصبحوا مندوبين . فيتضح من ثم ان انكلترا الارستوقراطية هي اولينارضية .

لا ينتخب مندوبو مجلس العموم لحل المسائل السياسية ، بل لتأمين صوالح الفئات الهللية ، والصوالح المادية ونفوذ العائلات . وغالباً ما يقوم الابكار بنشاط سياسي بغية الحصول لاختوتهم على الاسلقيات ، او قيادات السفن ، او مراتب في الجيش ، او مراكز حكام في المستعمرات . وغالباً ما يقومون بهذا النشاط كذلك سعياً منهم وراء المجد والشهرة . الأحزاب المختلفة غريبية يضم فئات غير واضحة الاهداف . في السنة ١٧١٤ ، رغب الـ « طوري » في ان يتمكن الملك من ان يجمع فعلياً ، وان يختار ويمزل الوزراء كما يطيب له . ورغبوا خصوصاً في أن يترجع على المرشح احد اُنسال سلالة ستوارت : فهم أشبه بالـ « جاكوبيين » . اما الـ « دوينغ » ، وهم ينسبون الى كبريات عائلات عهد الثورة ، فقد رغبوا في رجحان نفوذ مجلس العموم ، السيد في اقالة الوزراء واختيارهم على السواء . ثم ما لبثت هذه الفوارق ان زالت بين الـ « دوينغ » والطوري ولم يبعد بينهم سوى المسألة الجاكووية وحدها تقريباً . وجدير بالذكر ان هذين الطرفين ما اتفقا ايشكلاً أكثر من تلك المجلس . فإن تلك المندوبين تقريباً لم ينسبوا الى اي حزب . وانتخب الثالث الأخير ابدأ الى جانب الحكومة . كانت الأحزاب في الواقع تجمعات مؤقتة من المندوبين المطامعين في المراكز حول رئيس يعتبرونه قادراً على ايصالهم الى ما يتوقون اليه . ولذات كافة الميزان الدستوري غير قابل الى جهة مجلس العموم او الى جهة الملك وفقاً للطرفين والاشخاص .

كانت الغلبة للويغ حتى السنة ١٧٦٠. فقد اقصى آل ستيوارت عن العرش لأن الويغ اخذوا عليهم السمي وراء السلطة المطلقة ، وقد ساند الطوري هؤلاء ، وان بتردد ورجوع متكرر الى الوراء ، حقدأ منهم على الكاثوليكية . اختار الانكليز ملكاً عليهم منتخب هانوفر ، ابن حفيد جاك الاول ، جورج الاول (١٧١٤ - ١٧٢٧) . استند هذا الاخير ، وابنه جورج الثاني (١٧٢٧ - ١٧٦٠) ، الى الويغ لان الطوري كانوا متهمين بتعلقهم بآل ستيوارت . زد على ذلك من جهة ثانية ان هذين الملكين بقيا المانيين ، مشغولين بمتخضيتها في الدرجة الاولى ، وجاهلين الانكليزية ، ومتغيبين عن انكلترا في اكثر الاحيان ، فاقدين كل سلطة بسبب ادمانها على المسكر . وبسبب دسائس عشيقاتها . اضطرا الى اختيار وزرائها من بين الاكثرية ، اي الويغ ، وافساح المجال واسعاً امامهم لممارسة الحكم : فما كانا ليحضرا حتى مجلس الوزراء . ولكنها حافظا على بعض النفوذ . كان على رئيس مجلس الوزراء ، إذا اراد الابقاء على اكريته ، لا ان يدفع اموالاً للممثلين اثناء الاقتراعات الحاسمة فحسب ، بل ان يستحصل على مراكز لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم ولعملائهم الانتخابيين . فالملك كان يعين ويمزل ضباطاً كثيرين في وظائف المالية والجيش والاسطول . لذلك بات لزاماً على رئيس مجلس الوزراء ان يوثق علاقته بالملك واكثرية البرلمان على السواء . وقد لجأ رئيس مجلس الوزراء الى رشو الملك عند الاقتضاء بحمل الاكثرية على اقرار زيادة المخصصات الملكية واقرار الرواتب والمهور لعائلته وللمقربين اليه . كان كل شيء مرتكزاً الى المصلحة الشخصية . وقد عرف « والبول » (١٧٢١ - ١٧٤٢) خير معرفة كيف يعتمد هذه الطريقة ويمارس الحكم بارضاء عدد من كبار اعضاء البرلمان وزينهم الكثيرين . وهي هذه الرشوة ما حاربها « وليام بيت » . كان راغباً في وزارة قومية تتألف من رجال يمثلون كافة النزعات ولا يهتمون الا بالمصلحة العامة . احدثت الحرب ضد فرنسا تياراً فكرياً عاماً اعطاه ، منذ السنة ١٧٥٦ حتى السنة ١٧٦١ ، دور رئيس مجلس الوزراء وشبه دور الدكتاتور المفروض على احزاب الأمة . ولكن ما أن تحقق النصر حتى أقاله جورج الثالث . كان هذا الاخير ، وهو حفيد جورج الثاني ، انكليزياً عاش حياة لا لومة عليها ونظر الى مسؤولياته بمجد واقدام واراد ضمان الحقوق الملكية . فتوصل ، باعتماده الرشوة بدوره ، الى فرض وزارة اختارها هو وجعل على رأسها اللورد « نورث » منذ السنة ١٧٧٠ حتى السنة ١٧٨٢ ، وحاول ان يحكم حكماً ملكياً مطلقاً . اضطر لقبول استقالة اللورد « نورث » في السنة ١٧٨٢ ، ولكنه توصل بالرشوة الى تأمين اكثرية من الطوري وفرض في السنة ١٧٨٤ وزيره « بيت » الثاني ، ابن وليام بيت .

يتضح من ثم ان التجارة سيطرت على الحياة السياسية كلها . فالمسائل الكبرى التي نوقشت في مجلس العموم ومجلس اللوردات مسائل قروض وضرائب ورسوم جركية . امن « والبول » الازدهار التجاري . وإذا ما بدت سياسته السلبية وكانها تعرضه للخطر ، ارغمه مجلس العموم على محاربة اسبانيا وفرنسا ثم على الاستقالة . وهم رجال المال ، والتجار ، وسكان مرفأ لندن ،

مركز الحكومة ، العائشين من حركة المرفأ والمتاهبين ابدأ للشعب ، من فرضوا « بيت » الاول لاعلان الحرب على فرنسا منافسة الانكليز في المستعمرات . اعطى « بيت » الاول صيغة السياسة الخارجية الانكليزية : « السياسة البريطانية هي التجارة الانكليزية » . فاخفاق السياسة الجبركية في اميركا وفقدان المستعمرات وبعض اسواقها مما تسببا في رحيل اللورد «نورث» . وهي خبرة « بيت » الثاني في حقلي المال والاقتصاد ما فرضه على مجلس غير واضح الاتجاهات . واذا بقي مجلس العموم قوة اديبة تقف في رجه غيرهما دون ان تسيطر على السلطة التنفيذية ، واذا بقي الوزراء خداماً للملك ، فمرد ذلك الى ان النظام السائد قد عمل لمصلحة الاوليفارشين .

تؤلف الاقاليم المتحدة جمهورية اتحادية تضم سبعة اقاليم لعبت البورجوازية
 الاقاليم المتحدة فيها دوراً كبيراً بسبب تجارة التخزين والنقل البحرية . وهي في دور المحطات كلي لان مزاجمة الانكليز والفرنسيين تقضي على تجارتها التي لا تحافظ على نشاطها الا في الهند الشرقية . ويبرز المحطات التجارة انقساماتها الداخلية . ينحصر النشاط كله في امستردام . اما المدن البحرية الاخرى واقاليم الداخل الزراعية ، المتحادة ، فتحارب سياستها التجارية وتطالب باقصاء اوليفارشيتها البورجوازية والعودة الى القيادة العسكرية لصالح اسرة اورانج ، حليفة ملوك انكلترا . وفي الخارج اصبحت الاقاليم المتحدة اعجز من ان تمد للمعارك اساطيل كبرى وجيوشاً قوية . زد على ذلك ان هزال القوة وورود شطر كبير من الدخول الهولندية من الاموال الموظفة في انكلترا والخوف ايضاً من اقدام الفرنسيين على احتلال المناطق المنخفضة قد ابقتها في تحالف انكليزي اشبه بالاقطاعية . في السنة ١٧٨٧ ، اسقط الانكليز ، بالاتفاق مع البروسيين ، الحزب الجمهوري البورجوازي ، صديق فرنسا ، واعادوا نظام القيادة العسكرية .

حافظت فرنسا على طابعها الزراعي اكثر من انكلترا . فالارض فيها توفر ، فرنسا اكثر منها في انكلترا ، معظم الموارد ، والاملاك العقارية ، ولا سيما املاك النبلاء ، تفرض مركز المرء في المجتمع . تضم الارستوقراطية العقارية الامراء الملكيين وكبار الاشراف من دوقه ومرائيز يمشون في البلاط وباريس اجمالاً ، واحياناً في املاكهم حيث ينفردون ، ورؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديرة المرموقين ، ومتوسطي وصغار النبلاء في الاقاليم ، والضباط الملكيين . الامراء والمعلماء مستأثرون ابدأ . يأخذون على الملك المطلق انه لا يترك لهم اي دور سياسي ، وعلى الملك الذي يجمع السلطات بنظام المركزية انه مجرمهم بواسطة وكلائه من كل ادارة اقليمية ومحلية ولا يترك لهم سوى صلاحيات عقارية . يقضون اوقاتهم في المطالبة بالحرية ، اي بتولي الارستوقراطية حكم فرنسا . ويشاطروهم صغار النبلاء آراءهم في ادارة الاقاليم ، وينضمون اليهم للاعتراض على كافة محارلات الملك لاختضاع طبقة الاشراف هذه لأعباء اميرية ؛ ولكنهم يقاومون امتثثار كبار النبلاء ، انساب الملك ، بالوظائف الشرفية والسلطات .

سواد النبلاء في نزاع دائم مع الطبقات الاخرى. فهم يدافعون عن انفسهم ضد البورجوازيين . كلما ازداد شأن هؤلاء ، نادى النبلاء بامتياز نسبيهم . الاسقفيات وقف على ابناء العائلات النبيلة من غير الابكار ؛ ومن المحال البحث عن بوسويه آخر . بذلت بعض الجهود منذ السنة ١٧٥٧ للاحتفاظ للنبلاء بمراكز الضباط ، وفي السنة ١٧٨١ ، حددت درجات النبيل المفروضة لشغل هذه المراكز بأربع درجات . ويقام النبلاء الفلاحين ايضاً . صفار النبلاء ، من جهة ثانية ، فقراء لا يلبثون ان يفقدوا اموالهم في الجيش حيث يحاربون ببسالة . يحتفظ هؤلاء النبلاء حتى النهاية باحترام دورهم العسكري . فان الاسعار التي ترتفع باطراد ، لا سيما منذ السنة ١٧٦٠ ، في حال ان الواجبات الاقطاعية قد حددت منذ زمن بعيد بمبالغ نقدية ثابتة ، ترغمهم على البحث عن مداخيل اخرى ، فيخالفون الاعراف بتعاطيهم التجارة والصناعة وحتى زراعة ارض تستلزم اكثر من اربعة محارث . لذلك نراهم يحاولون ، لا سيما في الثلث الاخير من القرن ، استثمار حقوقهم الاقطاعية جهـد المستطاع . ويبحث لهم بعض خبراء النظام الاقطاعي ، في سجلات قيد حقوق هذا النظام ، عن الحقوق المنسية . فتثقل من ثم وطأة النظام الاقطاعي . ويقوم بعمل مماثل متوسطو النبلاء وكبارهم ، ولكنهم يحاولون بالاضافة الى ذلك حرمان الفلاحين من الحقوق المكتسبة والاستئثار بالغايات التي غدت نادرة الوجود كبيرة القيمة ، وبالبراحات ، ليجعلوا منها اراضي زراعية ومراعي . وقد دفعهم الى ذلك ، بعد السنة ١٧٦٠ ، نفوذ القائلين بان الزراعة هي المصدر الوحيد للثروة . وعقد بعضهم مع الجماعات القروية اتفاقات ملازمة او استقرار تسمح لها بتسييج اثني الاملاك العامة ، او اتفاقات اختيار تؤمن لها ثلث هذه الاملاك . بيد ان حركة التسييج كانت محدودة . فبقيت فرنسا بلاد استثمار لصفار الفلاحين . وهكذا تعرض النبلاء ، في اواخر القرن ، لحقد الفلاحين المتعاطم .

ولكن النبلاء ، في نضالهم ضد الملك الذي كانوا يريدون استعادة السلطة منه ، اهتموا في مؤلفات الفلاسفة : نظرية العقد ، ونظرية الحقوق الطبيعية ، ونظرية القائلين بان الزراعة هي مصدر الثروة ، الى البراهين التي كانوا يفتقرون اليها ؛ فوعى النبلاء حينئذ واقتنعوا بانهم على حق . وقد ساند نبلاء الجندية ، في هذا النضال ، نبلاء القانون والشرع ، مالكو الخدمات او الوظائف العامة الرئيسية التي ما زال الملك يبيعها ، ولا سيما ضباط المحاكم العليا او المجالس التي غالباً ما كانت وظائف اعضائها وراثية او بيعت من عدد محدود من العائلات نفسها . الف اعضاء هذه المجالس عالمياً مقفلاً ، او طبقة خاصة . احتقروا نبلاء الجندية الذين احتقروم بدورهم ايضاً . ولكنهم لم يكونوا دون نبلاء القانون والشرع تمسكاً بامتيازاتهم ، ولا سيما الاميرية منها ، فكانوا على غرارهم اسبداً عقارين ، وارتبطوا بهم بالمصاهرات واحترف بعضهم الجندية ، فقامت بينهم مصالح مشتركة كثيرة . ادعوا لنفسهم الحق بدور موجه في الدولة وبرقابة القرارات الملكية ، فعارضوا بعناد كل محاولة لاصلاح الملكية .

من هاتين الطبقتين انطلقت ضد شخص الملك اعنف الانتقادات ، وأقذر الافتراءات ، بوحى من الدوق « دورليان » والامير « دي كونتي » ، والدوق « دانغين » .

وفي وجه هذه الطبقات نمت البورجوازية التجارية . افادت من جهود كبار « المستعدين المستعدين » في القرن السابع عشر : هنري الرابع ، لويس الثالث عشر ، لويس الرابع عشر . في أوائل العهد دفعت محاولة « لو » الأعمال التجارية الى الامام . انتقل مجموع التجارة الخارجية من ٢١٥ مليون ليرة في السنة ١٧١٦ (١٧٢ مع أوروبا ، و ٤٣ مع الدول الأخرى) ، الى ٤٣٠ مليون ليرة في السنة ١٧٤٠ (٣٠٦ و ١٢٤) والى ٦١٦ مليوناً في السنة ١٧٥٦ (٤١٢ و ٢٠٤) . ثم دبّ النشاط مرّة أخرى بعد انكسارات حرب السنوات السبع . ففي السنة ١٧٧٧ بلغت الصادرات ٢٥٩ مليون ليرة والواردات ٢٠٧ ملايين ؛ وفي السنة ١٧٨٩ ، بلغت الصادرات ٣٥٤ مليون ليرة والواردات ٣٠١ . وكانت اعظم التجارات كسبا التجارة البحرية التي استخدمت اكثر من ٣٥٠٠ سفينة ، بينما لم يبق منها سفينة واحدة تقريبا في السنة ١٧١٣ . بلغت مرافئ « سان مالو » و « لوريان » و « روان » و « له هافر » و « نانت » و « لاروشيل » و « بوردو » و « مرسيليا » اوج ازدهارها . وكانت خير عناصر هذه التجارة المحاصيل الاستعمارية ، ولا سيما سكر « سان - دومنغ » وعرق سكرها ، والنخاسة . وقد أتاحت رؤوس الأموال المكثسة تجميع الصناعات التجاري حول المرافئ ، الصناعات القطنية حول روان ، والصناعات الكتانية حول المرافئ البريطانية ، والصناعات الصوفية حول مرسيليا « وسيت » . وأنشأ مجهزو المراكب والتجار ، في بوردو ونانت ، معامل التقطير والتصفية ، كما انشأوا في كافة أنحاء المملكة مصانع الفولاذ والورق واستثمروا مناجم الفحم الحجري : فكانوا في اواخر القرن منطلق المحاولات الاولى لاختراع الآلات واستخدامها وتجميع الصناعات . ولكن بعض النبلاء ساروا على خطاهم ووظفوا رؤوس الأموال في أعمالهم التجارية وتقاوضوا الفوائد من مناجم الحديد والفحم الحجري ومصانع الفولاذ . فملك الماركيز « دي سولاج » مثلا اسهما كثيرة من مناجم « كارمو » . اخذ المجتمع يتخلق بأخلاق البورجوازية . وتسربت الروح البورجوازية الى الادب والفن وشطر من النبلاء . منذ السنة ١٧٥٠ ، غدا اللباس اسود اللون ، فأخذ الناس لا يميزون بين النبيل والبورجوازي . وفي عهد لويس السادس عشر استلمح النبلاء الاقلاص عن حمل السيف واستبداله بمصا بورجوازية وتحلّى بعض النبلاء عن الجمّة المستعارة واكتفوا بشمورهم . وتظاهر بعضهم بعبادات بسيطة ، و « باخلاق رقيقة » : فحرص الامير على أن يقدم الاميرة ، زوجته ، الى فرقة بقوله : « يا بني ، هذه هي امرأتي » .

اراد البورجوازيون الحرية لعمالهم التجارية ، والغاء امتيازات الفسب ، والاشراك في سن القوانين ، ورقابة الميزانية والسياسة الملكية ، ولكنهم أرادوا الابقاء على كثير من الحقوق السيدية والاراضي المسيجة لان العديد منهم قد اشتروا الاقطاعات . وقد أدت الحكومة الملكية خدمات جلي للبورجوازيين . فان دائرة التجارة ، التي تأسست في السنة ١٧٢٢ ، قد وضعت

البيانات الاحصائية ووفرت للتجار المعلومات والتوجيهات وساعدت المشاريع . وتولى مجلس التجارة الارشاد والتوجيه ، فخفضت شيئاً فشيئاً ، بالاتراحات والتراجمات ، حدة العراقل وقساوة الانظمة . وتسهلت المواصلات ؛ فانشئت دائرة الجسور والطرقات في عهد الرصاية ، ونظمت اعمال التسخير الملكي لأجل الطرقات في السنة ١٧٣٨ وشقت طرقات كثيرة وخفضت رسوم المرور ؛ واطلقت تكررأ ، في السنوات ١٧٦٣ و ١٧٧٠ و ١٧٧٤ و ١٧٨٧ ، حرية تجارة الحبوب التي كان مقدراً لها ان تزيد الانتاج بفعل يقين التاجر من البيع بسعر مفر ، فجاءت كذلك تدبيراً مشجعاً للفلاحين الملاكين . وبعد السنة ١٧٥٠ ، اقدمت الادارة الملكية ، تحت تأثير القائلين بأن الزراعة مصدر الثروة ، على تلطيف انظمة الصناعة . فأجازت انتاج الكتانيات المصورة والملونة (١٧٥٩) ، وألغت منها بعض البنود ، ولم تطبق البنود الاخرى الا ببصيرة وفطنة . لا بل ان « تورغو » قد استصدر قانوناً في السنة ١٧٧٦ بالغاء تعاونيات الحرف ومحاكمها الخاصة التي كانت تميمق تأسيس مشاريع جديدة واعتماد طرائق جديدة . ومنذ السنة ١٧٧٩ استمرت التجارب لاشراك الأعيان في الادارة بواسطة الجمعيات الاقليمية .

ولكن الحكومة لم تذهب الى ابعد من ذلك . فما لبثت التعاونيات ان اعيدت . وفي السنة ١٧٨٦ عقدت مع الانكليز معاهدة تجارية مضرّة بصالح البلاد اذ انها أقرت تخفيض الرسوم الجمركية على المصنوعات الانكليزية ، وهي دون المصنوعات الفرنسية كلفة الى حد بعيد ، الى ١٢٪ ، فنجم عنها غزو المصنوعات الانكليزية لفرنسا ، وأزمة خطيرة . ولم يمنح البورجوازيون سوى القليل من الاسهام في الشؤون المحلية والاقليمية والوطنية ، فاستمروا مستائين من وضعهم .

ان الحكومة الملكية لم تتكيف التكيف اللازم بسبب افتقارها الى القادة . ففي السنة ١٧١٥ ، مست الحاجة الى وصاية ، اذ ان الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٧٤) كان في سن الخامسة . ترك الحكم للدوق « دورليان » ، الوصي ، حتى بلوغه الشرعي في السنة ١٧٢٢ ، ثم حتى وفاة الدوق في السنة ١٧٢٣ ، ثم للدوق « دي بوربون » ، احد الامراء الملكيين ، حتى السنة ١٧٢٦ ، وأخيراً لمهذب الكردينال « دي فلوري » منذ السنة ١٧٢٦ حتى السنة ١٧٤٣ . فأعلن حينذاك ، وقد بلغ الثالثة والثلاثين ، عن تصميمه على تولي الحكم بنفسه . ولكنه لم يقو على ذلك . فان هذا الملك ، الجميل ، الذكي ، المثقف ، الكريم ، البعيد كل البعد عن المسخ الذي ارتكب « ميشليه » خطأ جسيماً برسمه ، تميز بالوجل والحشية خلقاً وتربية . افتقر طيلة حياته الى الحزم والثبات اللازمين . فسيطرت عليه عائلته وخليلاته (السيدة « دي فنتيميل » ، والدوقة « دي شاتورو » منذ السنة ١٧٤١ حتى السنة ١٧٤٤ ، والماركيزة « دي بومبادور » منذ السنة ١٧٤٤ ، والكونتية « دي باري » منذ السنة ١٧٦٩) ووزراؤه وزمر دستاسيهم . كما ان حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٢) ، السليم القلب ، القفال الماهر ، الأب الصالح ، محب الشعب ، البورجوازي المتربع على العرش ، قد اشتهر كذلك

بضعف ارادته . فقد رأى كلاهما الخير ولكنها لم يفعلاه .

كان بمقدور الملكية أن تبقى ملكية مطلقة باقدامها على الاصلاحات : الفناء امتيازات الارستوقراطية الاميرية ، وصول الجميع الى جميع الوظائف ، إقرار حرية اقتصادية معتدلة حتى لا يقع العمال وفقراء الفلاحين في قبضة الاثرياء ، توحيد ملكة اقامت فيها الجمارك الداخلية ، والمقاييس والنقود المتباينة ، والمعادات والاعراف المتعددة في الولايات ، العراييل في طريق الحياة القومية ولا سيما في طريق الحياة الاقتصادية . ولكنها لم تفعل . واذا هي سمت رقعة الوطن بضم « اللورين » (١٧٦٦) والحصول على « كورسكا » (١٧٦٨) ، فقد حافظت اللورين على جماركها من جهة المملكة واستمرت في الاتجار بحرية مع الامبراطورية المقدسة .

كان من الواجب تحطيم الارستوقراطيات . ولكن الملكين اعوزتها الارادة ابدأ للنهوض بهذا العمل . برهنست ارستوقراطية الامراء والدوقية عن عجزها في الحكم . استبدل الدوق « دورليان » ، الوصي ، وزراء لويس الرابع عشر البورجوازيين بمجالس تضم كبار النبلاء ، رغبة منه في ارضائهما . ولكن سرعان ما اتضح عجزهم . ومنذ السنة ١٧١٨ مست الحاجة الى اعادة الوزراء . ولكن كبار النبلاء شكلوا خطراً دائماً بواسطة دسائسهم في البلاط ، وبواسطة زبئهم ، وبواسطة اتفاقهم مع المجالس .

كانت هذه المجالس سبباً في اخفاق كافة محاولات الاصلاحات . في السنة ١٧١٥ أعاد الدوق « دورليان » لما حق النصح والانذار مقابل قرار يجعل منه سيد مجلس الوصاية ، على الرغم من وصية لويس الرابع عشر . منذ ذلك التاريخ بات بمكنة مجلس باريس مرة أخرى تأجيل تسجيل المراسم الملكية الى ما لاحد له . وقد بلغ من ازعاجه أن حدث الوصي من حقه في الانذار والنصح في السنة ١٧١٨ . ولكن هذا الحق أعيد بكامله في عهد لاحق ، فأتاح بصورة عامة على الرغم من تعطيله أو الحد منه احياناً ، معارضة المجالس معارضة دائمة للاصلاحات المالية . كم من مرة حاولت الحكومة الملكية التوصل إلى اسهام كافة رعاياها بنسبة دخلهم . وكانت محاولتها الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات المتزايدة في دولة تتسع ادارتها يوماً بعد يوم ، في حال أن ارتفاع الاسعار قد انقص الموارد بزيادة النفقات إذ انه يحد من الاستهلاك ، وبالتالي من مدخول الضرائب غير المباشرة التي تتناول الشعب كله . ولكن المجالس ، يساندها الامراء والاساقفة ونبلاء الولايات ، وكلهم من ذوي الامتيازات ، قد قاومت ، بكل قواها ، الارادة الملكية . كانت تستثير السكان برفض التسجيل ، والنصح والانذار ، وتأثيرها المباشر على الفلاحين ، وتثير الشعب في صفوف الطبقات الدنيا التي ما كانت لتدرك ما تفعل . سببت فشل ضريبة الجزء من خمسين على دخول الممتلكات العقارية (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ، وضريبة العشر (١٧٣٣ - ١٧٣٦) ، (١٧٤٠ - ١٧٤٩) التي جبيت اثناء الحروب ولكنها افسدت فلم تجب إلا من الفقراء ، وضريبة الجزء من عشرين المرقتبة باسم « ماكو دارنوفيل » (١٧٤٩ - ١٧٥٤) ، والاعانة العامة التي اقترحها « سيلويت » (١٧٥٩) والاعانة المقارية التي اقترحها « كالون » (١٧٨٧) . وحالت بمقاومتها

المتوقعة دون تقديم «ثورغو» مشروعه الخاص بالاعانة المقارية. وكان الرأي العام الى جانبها لأنها اتقنت الادلاء بالبيانات الاخاذة : ان رعايا الملك « اناس احرار وليسوا عبيدا » ، و « حاربت طوفان الضرائب » ؛ وساندت كل مقاومي السياسة الملكية ، فساندت الجنسينيين مثلاً على اليسوعيين الذين الغيت جمعيتهم في السنة ١٧٦٤ . ولكنها لم تفكر الا بامتيازات النبلاء ، امتيازاتها ، وبالامتيازات التي ترفمها فوق الجماهير ، وبصالحها الخاصة ، لا بل طالبت بتأليف هيئة مع كافة المجالس في المملكة ، وبحق الاشتراك في السلطة التشريعية ومقاومة الارادة الملكية . فقد ساند مجلس بريطانيا الجمعية الاقليمية المعروفة باسم « مجلس طبقات بريطانيا » على الحاصم الراغب في شق الطرقات لأن الطرقات تدخل في صلاحية المجلس ، الذي لا يقوم بأي عمل .

نفى الملك دوريا مجلس باريس ثم استدعاه ثانية . وأخيراً الفى المستشار « موبو » ، في السنة ١٧٧١ ، وظائف القاضي واستبدل اعضاء مجلس القضاء بقضاة ماجورين . ولكن لويس السادس عشر ، لسوء الحظ ، أعاد المجالس في اواخر السنة ١٧٧٤ محاولاً بذلك تهدئة الخواطر . إلا أن مجلس باريس تمسك بالشرائع الاساسية للملكية ، وحقوق المجالس والاتفاقات المعقودة مع الولايات ، وضرورة اقتراح مجلس الطبقات على الضرائب ، فعمل الملك المجلس وفككه ونقل تسجيل المراسم الى محكمة عليا تضم خدام الملك المختص .

بدأت الثورة حينذاك بثورة ذوي الامتيازات . فقام اعضاء المجالس ، حلفاء النبلاء ، باثارة السكان في كافة المدن التي قامت فيها المجالس ، في « غرينوبل » و « رين » . وكان من مجلس الطبقات الاقليمي في مقاطعة «دوفينه» ، المجتمع في «فيزيل» ، أن رفض دفع الضرائب . فاضطر الملك الى دعوة مجلس الطبقات للاجتماع في اول ايار من السنة ١٧٨٩ .

ولكن الأمة انقسمت آنذاك شطرين . فطالب الامراء الملكيون والأعيان بدعوة تجري بحسب النظم القديمة واقتراح يجري وفاقاً للترتيب التالي : الاكليروس ، النبلاء ، ممثلو الشعب ، الذي يضمن الاكثرية لذوي الامتيازات . وطالب البورجوازيون ، الذين أسسوا « حزباً قومياً » وجمعوا كلمتهم في كل مدينة ، بجمعية وطنية ، وبمضاعفة عدد ممثلي الشعب والاقتراح الشخصي الذي يضمن لهم الاكثرية . فلم يوافق الملك إلا على مضاعفة العدد في شهر كانون الأول من السنة ١٧٨٨ .

وقد برز نشاط طبقات اخرى . لقد حدث ما يشبه ثورة الطبقة الكادحة . فان معاهدة السنة ١٧٨٦ ، سبب البطالة ، وبحول حصائد السنة ١٧٨٧ والسنة ١٧٨٨ قد زادا في ارتفاع الاسعار ؛ فبات الحزب الذي كان يمتص ٥٠٪ من موازنة العامل ، يمتص منها ٨٠٪ . ارتفع عدد المتسولين والمتشردين . انفجر فجأة حقد عارم على السيد ، والغني ، والموظف . فحدثت اعمال شغب ، وهوجمت القصور ، وهوجم البورجوازيون والاشراف الريفيون واضعوا اليد على الجيوب .

في ٢٧ نيسان من السنة ١٧٨٩ ، نهب مصنع « ريفيون » للورث المليون القائم في ضاحية « سانت انطون » ، لإحدى ضواحي باريس . كانت ردة فعل الحكومة ضعيفة : فالوكلام فقدوا الاعتبار والجيش فقد الانتظام .

جرت انتخابات مجلس الطبقات في السنة ١٧٨٩ باقتراع شبه عام ، وبالترتيب . وضع المنتخبون « دفاتر شكاوى » ضمنوها امانيم : دستور ، الحرية الفردية ، التساهل ، مساواة الحقوق ، اجتماع مجلس الطبقات دوريا للتصويت على الضريبة ، اللامركزية ، جمعيات اقليمية وبلدية ينتخبها الملاكون في الدرجة الاولى ، احترام الاعفاءات والحريات في الاقاليم ، السلطة التنفيذية للملك ، السلطة التشريعية للملك والأمة . وهكذا ارتضى البورجوازيون بقسم كبير من برنامج ذوي الامتيازات بسبب عجز الملك عن تسلم دفعة الاصلاحات .

اوروبا الجنوبية

اسبانيا
إن اسبانيا ، التي ما زال الاخطاط مخيماً عليها في السنة ١٧١٥ ، ما زالت دولة حطم الملوك فيها سلطة الاسباد السياسية دون أن يفعلوا في اخراج البلاد من القرون الوسطى . انتهى النظام الى التعجبر في قوانين واعراف وانظمة لا يحصى لها عد . كان دور اسبانيا في اوروبا دور بلاد حديثة اقتصادياً تصدر الى انكلترا وفرنسا ودول الشمال الغربي صوف اغنامها ومعادنها وذهب وفضة مستمراتها ، وتستورد منها بالمبادلة المصنوعات التي تفتقر إليها .

لم يكن ممكناً ان تصدر الاصلاحات إلا عن الملك ، المطلق مبدئياً ، الاقوى من الشرائع . وقد تم ذلك على يد الملوك البوربونيين ، الفرنسي فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وابنيه فردينان السادس (١٧٣٥ - ١٧٥٩) ، ولا سيما شارل الثالث الذي اعتلى العرش منذ السنة ١٧٥٩ ، بعد ان تربع على عرش نابولي طيلة عشرين سنة ، اجرى خلالها اصلاحات عديدة ، وقد تميز بذهنه الثاقب والعمل . فأدخلوا افكار الفرنسيين وطرائق كبار المستبدين المستنيرين من الفرنسيين في القرن السابع عشر .

اقام الملوك ملكية ادارية على غرار الملكية الفرنسية . اخضعوا مجالسهم لسلطة مجلسين رئيسيين : مجلس الهند ، ومجلس قشتالة حيث فرضوا سلطتهم بواسطة وزراء كانوا احياناً من النبلاء المتشبعين بالفكر الفرنسية ، كالكونت « دارندا » مثلاً (١٧٦٦ - ١٧٧٣) ، ولا سيما من البورجوازيين ، كالإيطالي « البروني » ، و« باتينيو » ، (١٧٢٦ - ٣٦) ، و« خوسيه مونينو » ، الذي اصبح كونت « فلوريدا بلانكا » وتزايد نفوذه منذ السنة ١٧٦٢ ، و« كيمومانيس » . تولى تنفيذ أوامره في كل ولاية وكيبل اسندت إليه ، كما في فرنسا ، شؤون الاموال والادارة العامة ، وضابط عام يقود الجيش ، ومحكمة تؤمن العدل ، يعجز الواحد منهم عن العمل دون الآخرين ، ويراقب بعضهم بعضاً .

اخضعت الهيئات المنظمة القليلة التي كان بمقدورها ان تقاوم الارادة الملكية . فمحكمة التفتيش التي ابقى عليها قد اكرهت على الخضوع للحكومة . وضمن الملك لنفسه تعيين الاساقفة طيلة ثمانية اشهر في السنة (١٧٥٣) ثم طيلة السنة . ألقيت جمعية اليسوعيين في السنة ١٧٦٧ بتهمة انتوائها قتل الملك ، وخصوصاً بتهمة نشر المبادئ المضادة للحق الملكي ، وهو شارل الثالث الذي استحصل من البابا على الغائتها في كافة البلدان (١٧٧٣) .

حاول الملوك جاهدين تنمية التجارة والصناعة باعتماد كولبيرية حقيقية : مصانع ملكية ، استدعاء اختصاصيين اجانب ، مساندة المصانع الخاصة بمساعدات مالية وحماية جمركية ، احداث شركات تجارية ، ومنذ السنة ١٧٦٥ تأسيس جمعيات اقتصادية ووطنية لاعادة العمل الى سابق عزته ، شق الطرق وإنشاء الاقنية ، حماية المزارعين الذين ما عاد الملاكون ليرفعوا يدهم عن الاملاك دون اسباب جوهرية (١٧٦٨) وحماية صغار الملاكين الذين استحصلوا ، ضد مالكي الاغنام المتنقلة ، على حق تصوين اراضيهم . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان استفاقت مبادهة الاسبانيين من سبائها وان طالبت الجمعيات الاقتصادية منذ السنة ١٧٧٠ بمزيد من الحرية : ألغت الحكومة ، بعد السنة ١٧٧٥ ، الجمارك الداخلية واحتمكار « قادس » للتجارة وفتحت باب تجارة المستعمرات لـ ١٣ مرفأ اسبانياً . وعلى الرغم من أن اسبانيا ما زالت محتاجة اقتصادياً للدول الاخرى ، فقد قامت فيها مصانع جوخ وحرير وقطن في كل مكان . ومنذ السنة ١٧٧٩ توقف طلب الاجواخ والحرائر والقبعات من فرنسا . وفي السنة ١٧٨٨ ارسلت اسبانيا الى الهند بضائع اسبانية تجاوز حجمها ما ارسلته من المصنوعات الاجنبية . ارتفع سكانها من ٥ الى ١٠ ملايين . اعيد انشاء الاسطول والجيش على انها افتقرا الى التدريب .

تطلب كل ذلك اموالاً ضخمة . اختلت الميزانية . ألغى شارل الثالث كثيراً من التزامات الضرائب وزاد من دخل الضريبة باسناد جبايتها الى الموظفين . ولكنه لم يتمكن من اخضاع النبلاء والاكليريكيين للضريبة . اكثر من الضرائب ، واختبر امكانات مصرف « سان - شارل » الذي اخفق كما اخفق مصرف « لو » . في السنة ١٧٨٩ تخبطت اسبانيا في ازمة بلغت ذروتها ، قبل ان يكتمل تطورها .

ان البرتغال التي لعبت دور الوسيط بين مستعمرات اوروبا كادت تفقد هذا الدور
البرتغال
بفعل مزاحمة الدول الاخرى . وكادت صادراتها الخفيفة (خور ، واخشاب البرازيل) تنحصر في أسواق انكلترا . لم تستفد فيما مضى من تجارتها لتنشئ صناعة في اراضيها ولتجدد زراعتها . بقي نظامها الاقتصادي والاجتماعي شبيهاً به في القرون الوسطى . في عهد الملك الحازم ، خوسيه الاول (١٧٥٠ - ١٧٧٠) ، تمكن مصلح قوي الشكيمة ، هو « كفالهو » ، الذي لقب بالمرکيز « دي بومبال » منذ السنة ١٧٦٩ ، من تحطيم سلطة محكمة التفتيش التي ما عادت لتقدر على احراق المراطقة دون موافقة الحكومة ، ومن تحرير المهددين (١٧٥١) ،

وطرد اليسوعيين الذين يقاومون سياسته ، بشبهة تدبير المؤامرات (١٧٥٩) ، وفتح ابواب الوظائف العامة لكافة البرتغاليين دون استثناء ، وتأسيس المدارس وادخال العلوم الى الجامعات ، وانشاء المصانع ، واتمام التجارة ، وبناء اسطول ، واعادة تنظيم الجيش ، وتشييد الحصون . اجل لم توصل الملكة « ماريا » الاولى عمله ، ولكنها لم تهدمه .

في هاتين البلادين يذكرنا جهد الحكومة بالجهد الفرنسي في القرن السابق . واذا كانت فرنسا متخلفة قرناً عن انكلترا ، فان اسبانيا والبرتغال كانتا متخلفتين ما يناهز القرن عن فرنسا .

اما ايطاليا ، « العبارة الجغرافية » المقسمة الى عدة دول ، فما زالت تعاني من ايطاليا الاكتشافات الكبرى ومن توسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . تضائل شأن المدن البحرية النسبي تضائلاً كبيراً . واذا ما استثنينا مرفأ ليفورنو الحر في توسكانا ، نرى كافة هذه المدن تتأخر بفعل منافسة الانكليز والفرنسيين والنمساويين الاقتصادية ، وافتقار البلاد الى المناطق الصناعية ، وعادات البطالة والانفاق المألوفة ابان ازدهارها العظيم . جنوى والبندقية ، التجاريتان ، كانتا جمهوريتين . ولكن الارستوقراطية البندقية ، التي كانت من قبل بورجوازية الماديات ، قد هجرت التجارة ، وغدت البندقية في الدرجة الأولى مكان اجل اعياد أوروبا . فتكررت على لسان ملوك فولتير هذه الجملة : « وقصدت البندقية لأقضي فيها ايام المرفح » .

كانت الدول الأخرى بلداناً ريفية ، ملكيات يترك فيها الامراء للارستوقراطيين لاسلطة اجتماعية كبرى فحسب ، كما في فرنسا ، بل قسطاً كبيراً من الحكم الاقليمي والمحلي ايضاً . كان هؤلاء النبلاء على جانب كبير من الكسل وغالباً ما انغمسوا في اللذات . تأخر نمو المدن وتدنى عدد البورجوازيين الذين كانوا فقراء وعديمي التأثير . وفي كل مكان كان الفلاحون متخلفين وبؤساء . نزع الامراء الى السلطة المطلقة ، وغالباً ما كانوا « مستبدين مستكبرين » . وانما يجب هنا ان نلفت الانتباه الى بعض الفروق .

فحكومة الدول البابوية الشوقراطية لم تكثرت بالمسائل المادية . فتميزت دول البابا بأسوأ ادارة وكانت اشد دول شبه الجزيرة بؤساً .

وفي مملكة نابولي ، حاول البوربونيتان ، شارل (١٧٣٩ - ١٧٥٩) ، ثم فرديناند ، القيام ببعض الاصلاحات مع الوزير « نانوتشي » ، ومهدا السبيل لالغاء جمعية اليسوعيين (١٧٧٣) ، وحرارياً نفوذ « فداثي » « ألفونس دي ليغوري » (« اللاهوت الادي » ، ١٧٥٣) الذين ناهضوا العلم والمكتبات ، والغبيا الفدادية والارواقف ، ووفرا المساعدات المالية للمصانع ، وفرضوا الضريبة على ممتلكات الكنيسة ، ولكنها عجزا عن فرض الضريبة على النبلاء فبقيت البلاد منقطاه باملاك واسعة يسمي العناية بها شركاه ثقلت عليهم رطاة اعمال التسخير والحقوق السيدية الأخرى .

وفي توسكانا ، أتاحت سياسة اكثر حربية ، والغاء التعاريفات ، والاجازات المؤقتة بتصدير

الحبوب ، وتجهيف بعض المستنقعات ، تكديس الثروات وتأسيس المشاريع التجارية وارتقاب النهوض من السبات .

وفي لومبارديا الفى النمساويون تلزم الضرائب الثقيل الرطاة على المكلف واعتمدوا الحماية المباشرة ، ومسحوا الأراضي ، وخفضوا الرسوم الجمركية وجعلوا من ميلانو سوق مقايضة ، مشجعين بذلك محبة بورجوازية صغرى يتزعمها « بيترو فراتي » .

وفي هاينن البلادين سُخف من وطأة الحقوق السيدية وانضمت للضريبة كافة الاراضي تقريباً بما فيها اراضي النبلاء وأراضي الكنيسة .

اما المملكة الساردية فكانت أعظم الدول الايطالية قوة وتقدماً . فالفلاحون كانوا فيها احراراً . ونظم الملك فيها استرجاع الحقوق الاقطاعية بأثامها (١٧٧١) . أقام النبلاء في ممتلكاتهم وحسنوا الزراعة ، فتقدمت الزراعة لصالح المساقاة . تجمعت الاراضي في أيدي الرأسماليين الزراعيين من الملاكين أو كبار المساقين . انمى الملك شبكة الطرق ، وحاول ان يجعل من مملكته الوسيط التجاري بين فرنسا وايطاليا ، وبين ايطاليا وسويسرا . اعتمدت هذه المملكة الاقتصاد ، فكان لديها جيش مؤلف من ٣٠ . ٠٠٠ رجل ، وكان ينتظرها مستقبل عظيم . فترى على العموم ان ملوكاً يتمتمون بمزيد من السلطة المطلقة يدفعون بايطاليا الى الامام ، ولكن البورجوازية ما زالت مفعودة .

أوروبا الوسطى

كان « الجسم الملهيقي » اتحاداً غير متجانس يضم ١٣ ولاية ذات سيادة تفار على سويسرا استقلالها ، وقد تقسمت عن طريق المعتد الى ولايات كاثوليكية وولايات بروتستانتية . كان التنظيم جمهورياً . في المدن النامية عند نقاط المرور المؤدية الى مجازات جبال الألب ، عاشت بورجوازية على بعض القعر ، ولكنها كانت أعظم قوة الى حد بعيد من سكان المناطق المنبسطة ، فكانت بمثابة اشراف استفظوا لأنفسهم بالحقوق السياسية والفوائد الاجتماعية . كانت الخلافات مستمرة بين الولايات ، وبين المدن والارياف في داخل الولايات .

البلدان الجرمانية والدانوبية
كلما توغلنا في داخل أوروبا الوسطى ، انطبع في نفوسنا انسا
تعود بالتاريخ الى الوراء وتدخل ابعاد فأبعد في القرون الوسطى .
كانت هذه الدول في معظمها بلدانا ريفية ، ضئيلة الانتاج ، خاضعة لنظام سيدي ثقيل الرطاة جداً .
الى الغرب من نهر الالب ، كانت الفدادية قد زالت من بعض الاماكن أو تلطفت بعض الشيء ،
ولكنها ما زالت على مرارتها الى الشرق من النهر حيث ندر ان تجد فلاحاً حراً . استمرت
الارستوقراطية في فرض اعمال التسخير التي لم تترك لهطلوبين لها الوقت اللازم لزراعة حقولهم ،
وجباية الضرائب المحولة حق الانتخاب والاثارات الباهظة ، واستنار الاحتكارات الرابحة ،
كلافران ، والمطاحن ، والماصر ، واحقاق الحق والمحافظة على الامن . فهي لم تمارس هذه

الصلاحيات اكثر منها في فرنسا فحسب ، ولم تستأثر عملياً بكل الادارة الاقليمية فحسب ، كما حدث ذلك غالباً في اسبانيا واطاليا ، بل احتفظ الملوك للنبله بكافة مراكز الجيش وكافة مراكز الادارة ايضاً . اجل لقد انتمى بعض الوزراء الى الطبقات الدنيا ، لاسيما في اواخر القرن ، ولكن الارستوقراطية احتفظت بكل شيء بصورة عامة .

بقيت الطبقات الاجتماعية متميزة جداً ، ومتباعدة جداً . فعلى نقيض انكلترا حيث اختلقت الطبقات اكثر فاكثر على الرغم من كل شيء ، وعلى نقيض فرنسا حيث حدثت الظاهرة نفسها في النصف الثاني من القرن ، نرى النبلاء والبورجوازيين والصناعيين اليبديين والفلاحين يمشون بعيدين بعضهم عن بعض ونرى كل طبقة تحتقر من دونها ؛ فالمراتب حفوظ عليها والمسافات ابقي عليها .

ارتضى الملوك بالحصول على طاعة النبلاء والاستئثار بمخدماتهم . استخدموا التقنيات الاقتصادية والسياسية التي توصلت اليها الدول الغربية المتطورة (انكلترا وفرنسا) رغبة منهم في ارساخ سلطتهم ، فاحدثوا بذلك ، كما باستخدام تماهير الفلاسفة ، انطباعاً بان دولهم دول عصرية تتقدم دول الغرب نفسها ، بينما لم يقطعوا في الواقع ، آنذاك ، سوى مراحل ما زالت بعيدة كل البعد عما بلغه الغرب .

ما تزال هنا امام تفتت اقطاعي واسع النطاق . فالامبراطورية المقدسة الامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، التي لا تطابق حدودها حدود المانيا ، « العبارة الجغرافية » ، ليست سوى ظاهر فحسب . ان الامبراطور ، رئيس سلالة هسبورغ ، هو مبدئياً خليفة شارلمان واوغسطوس . ولكنه انتُخب ، في السنة ١٧٦٣ ، على يد تسعة منتخبين: منتخبي بوهيميا وساكس وبراندبورغ وهانوفر وبافاريا والبالاينا وثلاثة كنسين هم رؤساء اساقفة ماينس وتريف وكولونيا . اكرهه الانتخاب على اعطاء الامراء ضمانات ، وتكفل التدخل الاجنبي بعمل ما تبقى : فعجز الامبراطور عن ان يحمل من الامبراطورية دولة . كرسست معاهدات وستفاليا ، كبداً من مبادئ الحق الدولي ، سيادة امراء الامبراطورية التي آلت الى اتحاد على بعض الاسترخاء . وحدثت من سلطة الامبراطورية جمعية مركزها « راتسبون » تتولى امور الادارة وتعلن الحرب او تعقد الصلح وتوقع المعاهدات . اصف الى ذلك من جهة اخرى انها كانت مؤلفة من ثلاث هيئات تضم ممثلي المنتخبين والامراء والمدن المتضاربي المصالح والمادمي الثقة بالامبراطور ، فلم تأت عملاً مجدياً حقاً . اصف الى ذلك ايضاً ان المانيا ، وهي الشطر الامم من الامبراطورية المقدسة ، كانت تضم ٣٤٣ تقسيماً اقليمياً يدخل في عدادها ٣٠ دولة و امارات ، ومدن امبراطورية حرة ، واملاك واسعة لفرسان الامبراطورية الخاضعين مباشرة للامبراطور . وضمت ضفة الرين اليسرى وحدها ١١٧ دولة صغرى تتأثر كلها تأثراً قوياً بالنفوذ الفرنسي .

حاول كافة الملوك اقتناء اثر « اليزابت » في انكلترا خلال القرن السادس عشر،
 واثر لويس الرابع عشر في فرنسا خلال القرن السابع عشر . سعوا لان يجعلوا
 من امارتهم دولة مطلقة ، مركزية ، بيروقراطية ؛ وان ينمو طاقاتها بالغناء الامتيازات
 والمساواة الضريبية والروح التجارية كما قال بها « وليم سيسيل ، و « كولبير » . فنخلقت الدولة
 الصناعة خلقاً وساعدت بذلك على قيام طبقة بورجوازية . في الممدن الامبراطورية الاحدى
 والحسين ، نهضت البورجوازية واثرت واحداثت تيارات تجارية جديدة ، وكلفت بالمعرفة
 والجمال فبعثت نشاطاً فكرياً عظيماً ، ولعلها فعلت كل ذلك بتاثير مما كان يجري في الدول
 المجاورة . وغدت فرانكفورت ومانهم وليبزيغ ومبورغ مراكز فن وابحاث ، على غرار
 عواصم الملوك الصغرى التي كانت اضعف من ان يلعب مجدها الا بنصرة الآداب والفن ، كـ « فيار »
 و « غونا » و « ايننا » .

لقب الامبراطور مجرد رتبة ، ولم يكن بعض آل هبسبورغ اقوياء الا
 آل هبسبورغ بامتلاكاتهم كشارل السادس حتى السنة ١٧٤٠ ، وماري - تيريز ابنته
 (١٧٤٠ - ١٧٨٠) ، وجوزف الثاني حفيده ، الذي اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة
 ١٧٦٤ ، واشركته امه في الحكم ، وكان سيد املاك آل هبسبورغ منذ السنة ١٧٨٠ حتى
 السنة ١٧٩٠ . سليل هبسبورغ ارشيدوق النمسا وملك بوهيميا وملك هنغاريا . اراضيه تضاهي
 اراضي ملك فرنسا ، ولعلها تعادلها سكاناً ، ولكن موارده دون موارد ملك فرنسا بخمس مرات ،
 ولم يكن مطاعاً . مازالت اراضي آل هبسبورغ وكأنها في القرون الوسطى ، مقسمة الى قطع
 كبرى وصغرى ، وموزعة بين بحر الشمال والسهل الروسي وبين المانيا الوسطى من جهة ،
 وسهل البو والادرياتيك من جهة ثانية . العلائق بين الاجزاء المختلفة بطيئة وصعبة ، والشعوب
 من نمساويين وهنغارين ورومانيين وايطاليين وتشيكيين وسلوفينيين ، وفلنك و«فالون » ،
 متباينة اخلاقاً ولغة ومعتمداً ويجهل بعضها البعض . يرتبط كل منها بآل هبسبورغ بمقد مختلف
 خاص ، تتمتع كلها بالاستقلال الاداري ، ومجالس طبقاتها الاقليمية ، اي جمعيات النبلاء
 ورجال الكنيسة ، تدافع عن حريات البلدان وامتيازاتها ولا تهتم في الدرجة الاولى الا بدفع
 حد ادنى من الضرائب . تتولى هذه الشعوب بنفسها تعيين رجال ادارتها من بين النبلاء الذين
 يقبضون على زمام السلطة ، الا في الممدن التي تعين البورجوازيات لادارتها قضاء منتخبين .
 هنالك مؤسسات هبسبورغية كثيرة : ثلاثة مجالس في فيينا للسياسة العامة والمالية والتجارة
 والحرب ؛ وثلاث مستشاريات لبوهيميا وهنغاريا والدول الوراثية (النمسا وملحقاتها) ؛
 ومجلسان للفلاندر وايطاليا . ولكنها كلها شبه مقيدة امام التقاليد والعادات المحلية الخاصة .

ارت شارل السادس ، الذي لم يقدر حق قدره ، قد أمن لآل هبسبورغ ، في الدرجة
 الاولى ، امتناع تجزؤ اراضيهم . لم يرزق واخوه البكر اولاداً ذكوراً . فاقر الامر الصادر عن
 الامبراطور والمجلس (١٧١٣) ، في حال عدم وجود وريث ذكر ، حق الوراثة لأنسالة من

الاناث ذون انسال اخيه البكر . وقد اثبت في مستهل هذه الوثيقة امتناع تجزؤ دوله . وتوصل الى اعتراف بملكات آل هبسبورغ المختلفة بها كقانون دولة ، بينما لم يعترف بوراثة الاناث في بوهيميا ودوقية ميلانو ، وربما في النمسا نفسها . فكانت عقداً جديداً يبعد مخاطر التفكك ، استمر العمل به حتى السنة ١٩١٩ .

في سبيل ايجاد موارد جديدة للملكية ، لجأ الى طريقة شركات الاحتكار : شركة « اوستند » للآحجار مع الهند والصين التي اخفقت بفعل عداء الانكليز والهولنديين ، وشركة موانئ الشرق الأدنى في تريستا .

الا انه لم يتمكن من ان يفعل اكثر من ذلك بسبب نزق الهنغارين وفقدان النفوذ الذي مني به في اعقاب حروب خابرة .

اما ماري - تيريز فقد حاولت مجدداً بعمارة المستشار « كونيتر » وابنه جوزف ، تحقيق مشاريع الاصلاح ، لا سيما بعد حربي وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع اذ توقفت ، بتخليها عن سيليزيا ، الى الخؤول دون تفكك ممتلكاتها وفقدان لقبها الامبراطوري . كانت سمينة وقصيرة ، لطيفة وتقيية ، يحبها رعاياها ويحترمونها ويلقبونها بـ « ام الوطن » ، وكانت ذكية وواقعية تقدر المقاومات المحتملة حق قدرها ، فارادت اجراء التغييرات ببطء وصمت . قوت المركزية . فاوجدت فوق المؤسسات القائمة مجلس شورى يتخذ كافة المقررات . وقد نفذ هذه المقررات مباشرة ، في بعض الولايات ، موظفون تابعون للتاج . نادراً ما دعت للاجتماع مجلس ممثلي هنغاريا ومجلس الطبقات . عملت بالروح التجارية . وحظرت استيراد المصنوعات وتصدير الخامات وهجرة اليد العاملة ، رغبة منها في خلق صناعة بالقوة . واقامت في املاكها نفسها ملاكين صفاراً انكبوا على عمل الزراعة بمزيد من النشاط والعناية ، ولكن الاسياد لم يحذوا حذوها . واقرت الخدمة العسكرية ، الا انها اقتصرت على الفلاحين وفي الدول الوراثة . لم تستطع اصلاح الادارة المالية . حققت بعض الشيء في حقل التساهل الديني : فمنذ السنة ١٧٧٤ ، لم يعد سكان هنغاريا من غير الكاثوليك مجبرين على السير في التطوافات ، او على استدعاء كاهن كاثوليكي للمرضى . ولكنها هدفت لان تقيم كنيسة متساوية اكثر منها رومانية : فمنذ السنة ١٧٦٧ ، ما كان اي منشور بابوي ليدخل الدول النمساوية بدون اجازة ملكية . اصلحت التعليم . بيد ان كل ما حققته ما زال جزئياً .

كان ابنها جوزف الثاني ، الزاهد المتوج ، مبرهنناً منسقاً منطقياً لا يقيم وزناً لمشاعر الشعوب . اوجد تسلسلاً في التقسيمات الادارية تداخلت فيه وحدات تاريخية مختلفة ، رغبة منه في صهر الشعوب : الولايات المقسمة الى دوائر . كان حكام الولايات ووكلاؤها وضباط الدوائر يتولون اعمال الادارة على حساب موظفي الدولة . وجب أن يكولوا خريجي جامعات (١٧٨٧) : فدخل صفار النبلاء والبورجوازيون مكاتب الادارة ، ولكن المراكز العليا بقيت وفقاً على

كبار النبلاء فرضت الألمانية على كافة الشعوب لغة رسمية للإدارة والمدارس الثانوية والاكليزيكيات (١٧٨٤ - ١٧٨٦) .

في السنة ١٧٨١ اصدر براءة تساهل اقامت المساواة بين الكاثوليك واللوثيريين والكلفينيين والأرثوذكس . بقي اليهود خاضعين لنظام خاص . ولكنه اصل تحقيق حلم كنيسة قومية مستقلة عن روما ، فانقلب تساهله تصلباً ضد الكاثوليك الذين نفتص ضائهم بتأسيس اكليزيكيات رسمية يهمل فيها اللاهوت ، ومنع كتب اللاهوت (١٧٨٤) ، وحظر زيارة الأماكن المقدسة والتطوافات ، وإقفال أديرة كثيرة باعتبارها غير مفيدة ، بينما يرى الكاثوليكي أن الرهبان التاملين أنفع البشر طرا بصلواتهم . علمن نصف الأديرة واستولى على ممتلكاتها (١٧٨٦ - ١٧٨٨) .

أبقى على كثير من النظام التجاري والروح التجارية ، ولكنه تجمه شطر الحرية التجارية : معاهدة تجارية مع روسيا ، إلغاء الاحتكارات التجارية ، حرية تجارة الحبوب في الداخل ، حرية تأسيس مصنع أو حانوت (١٧٨٢) . حرر الفلاحين وجعل منهم ملاكين ورائيين لاراضيهم مقابل ضريبة تخول حق الانتخاب . الفى الاحتكارات السيدية ، وأبدل أعمال التسخير بأقوات نقدية (١٧٨٣ - ١٧٨٨) . وزع أملاكه وممتلكات الأديرة مزارع كبرى لزمها تزيماً .

مسح الأراضي رغبة منه في تحقيق المساواة أمام الضريبة (١٧٨٩) ، وعمّ هنغاريا بالخدمة العسكرية، وأجرى تبادلاً جزئياً في السكان بين الألمان والهنغاريين رغبة منه في صهر الشعوب . ولكنه تمجّل في الجواز عمله ، فساء كافة رعاياه بالخدمة العسكرية ، والكاثوليك بسياسته الديلية ، والنبلاء بتدابيره الاجتماعية ، والفلاحين المحررين الذين ثاروا واستباحوا السلب والنهب . فمئذ السنة ١٧٨٨ هبت عاصفة من الاعتراضات والثورات التي كان أخطرها في المناطق المنخفضة حيث التحمّد ضد الامبراطور كاثوليك « فان - دير - نوت » التقليديون وبروتستانت « فونك » الأحرار . فتوجب التخلي عن معظم الإصلاحات ، باستثناء حرية الفلاحين .

على نقيض ذلك ، أحرز آل هوهنزولرن في بروسيا نجاحاً تاماً . ولاغرو ، آل « هوهنزولرن » فان ممتلكاتهم ، وإن كانت قطعاً متناثرة بين بولونيا والرين ، كانت كلها تقريباً في سهول المانيا الشمالية المأهولة بالجرمانيين في الغرب ، وبالجرمانيين وبعض السلافيين في الشرق ، ولكن هؤلاء السلافيين المتأخرين حضارياً وصناعياً طبعوا دونما صعوبة بطابع الملوك . أضف إلى ذلك أن فردريك الثاني قد تمتع بسلطة الأبطال الظافرين التي أعوزت النمساويين .

ان فردريك غليوم الأول ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ - ١٧٤٠) الجبار ذا القامة الفائقة الطول ، المرض للسكنتة ، وذا الأعصاب المهيبة ابدأ بالافراط من التبغ والمشروبات الكحولية والأطعمة الأزوتية ، مثار رعدة عائلته ورعاياه ، قد أعد آلة حرب الفتوحات ، صناعة بروسيا القومية . ازدرى بالأدب والفلسفة ، « الهوام » ، فأحب الواقع وأراد « تحقيق جديد » كل

سنة . قام بعمل مرهق ، إذ اطلع بنفسه على كل شيء ، باعتباره الخادم الأول لـ « جلالة الدولة » . وفرض على الجميع الطاعة السلبية دونما براهين . دفع لموظفيه رواتب محترمة وأوجب عليهم العمل والنظام ، واستخدمهم في تأسيس دولة ، ووطن البروسيين في كليف والكليفين في بروسيا . رفع عدد السكان بتأسيس المستعمرات ، فاجتذب الأجانب من هولنديين وفرنسيين ، ووفر لهم الأدوات والحيوانات والبذار ، فانشأ مئات القرى . بلغ عدد سكان المملكة ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة . حاول تنمية الصناعة بالروح التجارية فحظر تصدير الصوف كي يحتفظ به للناويل . واعتمد اقتصاداً مدروساً اتاح له تنمية الجيش . أقر مبدأ الخدمة العسكرية الشاملة . وفر الأثراف الريفيون ، خريجو الأكاديمية العسكرية المؤسسة في برلين في السنة ١٧٧٢ ، ضباطاً للجيش تميزوا بشجاعة لا تقزع . كان لكل فرقة معسكرها ، وكانت تضم جنودها من قضاء واحد ، فتقوي الرابطة الاقطاعية النظام العسكري . كانت بروسيا معسكراً واسع الأطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش : الفلاحون ينضمون اليه ، أو يؤمنون له الغذاء ، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلمونه ، والأثراف يقودونه .

أما فردريك الثاني ، ابنه ، القصير الغامة ، والنعيف البنية ، ذو الأنف الحناد والشفنتين القاطعتين ، المكار والقاسي ، والكلف بالمجد ، فقد أحب الادب والفلسفة وكان كاتباً موهوباً . ساءت العلاقة زمنًا طويلاً بينه وبين والده الذي خشي أن يمسى ابنه « مركزاً صغيراً » ، ولكنه رأى آراء ابيه الاساسية نفسها ا يجب أن تستهدف الادارة الداخلية قوة الجيش المتزايدة ، ويجب على الجيش أن يحقق الفتح ؛ والفتح يتيح إنماء قوة الدولة لتحقيق فتوحات جديدة . منذ السنة ١٧٤٠ حتى السنة ١٧٦٣ ، انشغل فردريك في الدرجة الاولى بالحرب ضد النمسا والاستيلاء على سيليزيا . في السنة ١٧٦٣ ، تدنى عدد السكان ، بعد الحروب الى أربعة اخبامه ، وعم الحراب ، وارتفعت الاسعار ، وساد البؤس والفجور والفساد والفضوى .

أرسل فردريك الى المناطق المكشحة ، ثم الى البلدان البولونية المفتوحة فلاحين آتين من الدول الالمانية الاخرى ، ولا سيما من مكلنبورغ والبلدان الصوابية ، ومالا وبذاراً وأغذية وجياداً ، ونظم القروض مقابل رهونات عقارية . في السنة ١٧٧٤ صدرت بروسيا قمحاً بقيمة مليوني « تالر » سنويًا .

حظر تصدير الصوف واستيراد عدد كبير من المواد البذخية ، وفرض رسوماً جركسية مرتفعة ، وأعطى مساعدات مالية للمشاريع ومنح احتكارات ، ولكنه ما أن استطاع الى ذلك سبيلاً حتى أقر منح الحرية رغبة منه في تشجيع الانتاج عن طريق المنافسة . تقدمت الصناعات كلها : فأدخلت مصانع صفائح الحديد والأجواخ والليشاني والمعمل ٣٠ مليون تالر في السنة . وصلت أقمشة بين الفستول والإيلب ، ونقلت ١٣٠٠ سفينة بروسية الاقمشة والاجواخ والاشخاب والحنطة . وفي السنة ١٧٨٥ ، وقع فردريك معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة .

أما الفرنسي « دي لوناى » فقد نظم الجمارك ، والضرائب غير المباشرة على الخبز واللحم والجمعة والخنزير والمشروبات الروحية والبضائع الأجنبية والمصنوعات البديعية ، التي يدفعها الجميع دون أن يشعروا بها : وأوجد « دي لوناى » احتكارات رسمية . فكانت خزانة الحرب مملوءة بالأموال .

اعتمد فردريك التساهل واستقبل اليسوعيين انفسهم لتولي أمر التعليم . نظم المدرسة الابتدائية والتعليم الثانوي العملي واكاديمية برلين .

تعاضم جيشه بالتجنيد ، الاجباري غالباً ، وقياده نبلاء يتخرجون من المدارس العسكرية ويتدربون في مناورات الربيع والخريف ، وُزود بمدفعية كافية ، واحتتمى بخطوط من التحصينات على غرار فرنسا .

أعد توحيد القوانين في الدولة البروسية ، ولكن مجموعة القوانين العامة لم تظهر إلا في عهد خلفه .

أما النتائج فتوجز برقم بليغ : في السنة ١٧٨٦ بلغ عدد سكان المملكة ستة ملايين نسمة . ولكن اللوحة لم تكن جمالا كلها . فقد حدث تقهر اخلاقي . وقد قال العالم « جورج فورستر » عن البريليين : « ان حب الالفة والذوق الرفيع في الملاذ يستحيلان عندهم شهوانية وفجوراً ، لا بل نها ، اذا صح التعبير ؛ كما أن حرية الفكر ومحبة الانوار تستحيلان باحبة وقحة ... النساء عواهر بصورة عامة » . وكان هذا الرأي رأي العديد من المسافرين . كانت بمكنة المال أن يصنع كل شيء . وقد حدد ميرابو بروسيا بقوله : « تتانة قبل بلوغ كمال النمو » .

بيد أن المملكة كلها خضعت للملك ودفعت له كل ما سمحت به طاقتها ، وكان الجيش أقوى جيوش أوروبا ، ولم يستطع رد فعل فردريك - غليوم الثاني ، المتطرف في التقوى ، زهزة العمل المحقق زهزة تذكر .

أوروبا الشمالية

كانت الدانمارك مؤلفة من اجزاء متشتتة ايضاً : « جتلند » ، الجزر ، نروج ،
الدانمارك و « اولدنبورغ » في الجنوب التي قبضت في السنة ١٧٦٧ بدوقية « شلسفيغ » و « هولشتاين » . مركز الدولة هو المضائق . المرافئ عديدة ومزدهرة ، والتجارة البحرية ناشطة . قامت في وجه النبلاء الريفيين بورجوازية تجارية توصلت الى تحقيق نفوذ كبير . وأدت علائق البلاد العديدة الى نشر الآراء الالمانية والانكليزية والفرنسية فيها .

كان الملوك فردريك الرابع (١٦٩٩ - ١٧٣٠) وكريستيان السادس (١٧٣٠ - ١٧٤٦) وفردريك الخامس (١٧٤٦ - ١٧٦٦) مع وزيره « برنستورف » منذ السنة ١٧٥١ ،

وكريستيان السابع (١٧٦٦ - ١٨٠٨) الذي احتفظ بـ «برنستورف» وأخذ الطبيب «سترونسي» مستبدين مستنيرين حقيقيين ، ولا سيما الأخيرين منهم . لا شك في أنهم لجحوا في أن ينتزعوا كل سلطة سياسية من الأرستوقراطية باقامة طبقة في وجه أخرى . ولكنهم لم يتوقفوا الى الغاء الفدائية وإعلان حرية الفلاحين مع ابقائهم خاضعين للحقوق الاقطاعية ، إلا في السنة ١٧٨٧ وبعد محاولات فاشلة كثيرة . إلا أن بعض كبار الملاكين رفعوا عن كاهل فلاحهم أعمال التسخير منذ السنة ١٧٥٠ وجعلوا منهم مزارعين . ونهج الملوكة سياسة تجارية . ائتمت الحماية الصناعة ، وتأسست بعض الشركات ، كالشركة الآسيوية في السنة ١٧٣٢ ، وشركة الهند الغربية وغينيا في السنة ١٧٣٣ ، وفتح مصرف كوبنهاغن ابوابه في السنة ١٧٣٦ . وأحدث كريستيان السادس وفرديريك الخامس مدارس واكاديميات ومؤسسات علمية . إلا أن النبلاء لم يفقدوا قوتهم . ففي السنة ١٧٧٢ قاموا بعمل مفاجيء وأكروهوا الملك على إدانة «سترونسي» وتخريب الاصلاحات مخرباً مؤقتاً . فتجانبت بلادان مختلفتان ، وجه مجري فاشط بورجوازي ، وداخل ارستوقراطي ريفي ، ولم تبرز نتائج نمو البلاد الاولى في البلاد الثانية الا بكل بطء .

ان السويد التي جعلت في فترة من الزمن بحيرة سويدية من البلطيك ، والتي السويد ما زالت لها ممتلكاتها الهامة من جهة البلطيك الاخرى قد عرفت تطوراً أوسع وأعمق بفعل التجارة البحرية الكبرى . وفرت مناجم الحديد الممتاز ، والغابات الكبرى ، وأراضي سكانيا الغنية بالقمح ، المواد اللازمة للتصدير . وقد استثمر هذه المناجم والغابات والأراضي النبلاء وطبقة من البورجوازيين الاثرياء ، فأدى ذلك الى تقريب المسافات بين هؤلاء وأولئك . وكان الفلاحون احراراً وميسورين .

الا ان النبلاء والبورجوازيين والاكليروس اللوثري المنتسب الى البورجوازية ، قد استأوا من تضخم النقد وتقهقر التجارة والاقتطاع من الثروات لتخفيف ديون الحرب ، فأرادوا تحديد السلطة الملكية التي باتت مطلقة في عهد شارل الثاني عشر . كان الفلاحون راضين عن السلطة المطلقة ، ولكن الحروب الطويلة وعمليات التجنيد المستمرة جعلت البلاد تقفر شيئاً فشيئاً من السكان واقتطعت الحقوق الى من يعنى بها؛ وكانت هذه الطبقة مستضعفة ، وما كان مستواها الثقافي المتدني ليسمح لها بلعب دور سياسي . استفادت الطبقات الثلاث الاخرى من تأرجح حق ورائة العرش . بعد وفاة شارل الثاني عشر في السنة ١٧١٨ التأمّت الجمعية ، المؤلفة من ممثلي الطبقات الاربع ، وانتخبّت ملكة على العرش شقيقة شارل الثانية ، « اولريك - اليولور » دون أن تقيم وزناً لحقوق ابناء شقيقته البكر ، ولكن الملكة اضطرت بالمقابلة الى القبول بدستور السنة ١٧١٩ . غدت السويد جمهورية وملكها رئيساً . قررت الجمعية القوانين بأكثرية ثلاث طبقات من اصل اربع ، وعينت لجنة سرية تضم ٥٠ نبيلاً : ٢٥ اكليريكياً و ٢٥ بورجوازيًا ، وتمارس السلطة التنفيذية ؛ وتقدم المرشح لمجلس يعينه الملك يتولى السلطة التنفيذية بين دورة

واخرى ؛ وكان على الملك ان يرضخ للاكثرية وكان صوته بمثابة صوتين فحسب .

برهنت هذه الحكومة عن عجزها بسبب تصارع الاحزاب . فالنبلاء ، متوسطوم وصغارهم ، اضطروا ، بعد ان افقرتهم الحروب ، الى طلب الوظائف العامة التي ارتفع عددها في « عصر الحرية » ، لا سيما وان نبلاء السويد بيروقراطيون . وفي سبيل الحصول على الوظائف والتدرج في سلمها استزلم النبلاء لبعض كبار الاسياد الذين يتنازعون النفوذ والسلطة . وكي يتمكن هؤلاء من نقد زينهم المتزايدين ، دخلوا في خدمة الاجانب من روس وانكليز وفرنسيين . فلتشيع حزب « القلائس » ، لانكلترا ، ثم لروسيا منذ السنة ١٧٦٣ . وتشيع حزب « القبعات » لفرنسا . وكان من ملامه هذا الوضع ان وقعت كاترين الثانية وفرديريك الثاني ، في السنة ١٧٦٣ ، اتفاقا سرىا للبقاء على الدستور السويدي الذي يلاشي السلطة الملكية ويخلد للفوضى ، وضمنا الدستور « للقلائس » .

بلغ الوضع درجة من الخطورة مكنت الملك غوستاف الثالث ، عند توليه العرش في السنة ١٧٧٢ ، من القيام بانقلاب ساندته الشعب والجنود وفرض دستور جديد . اعتماد حق اختيار وزرائه ، واقصر مجلس الشيوخ على دور استشاري والمجلس على دور الاشتراك في اقرار الضرائب واعلان الحروب . تصرف غوستاف الثالث ، الذي سلخ سنوات طويلة من حياته في فرنسا ، تصرف المستبد المستنير . الفى الاعذبة ، واطلق حرية الممتدق للمهاجرين الاجانب ، واعلن حرية تجارة الحبوب ، ووسع التعليم الابتدائي ، وشجع الكتاب والفنانين ، وأسس الاكاديمية السويدية ، وبنى اسطولا حروبيا ، ونظم الجيش تنظيماً جديداً . بات النفوذ الفرنسي مسيطراً . ولكن ثقل وطأة ضرائب هيج الشعب ، كما هيجته الاحسانات التي اغدقها على النبلاء دون ان يفوز بانضمامهم اليه . فالنبلاء ، الذين حركهم ذهب كاترين الثانية ، قد اوقفوا الجيش السويدي ، في ضراوة الحرب الروسية ، بثورة تستهدف استعادة دستور السنة ١٧١٩ . استنجد غوستاف الثالث بوطنية الطبقات الاخرى الثلاث واستخدم القوة وبقي السيد المطاع . الا ان بعض النبلاء طعنوه بخنجر في السنة ١٧٩٢ خلال حفلة راقصة كان المدعوون اليها متنكرين بلباس مستعارة .

أوروبا الشرقية

كانت بولونيا ، وهي جزء من سهل واسع الاطراف ، لاحدود طبيعية له ، بولونيا
مشرع الابواب امام الغزوات ، دولة مهددة بالزوال . فكانت بمثابة خطأ تاريخي واستمراراً لمهود ولتى زمانها ، ودولة تذكّر ، بنواح كثيرة ، بفرنسا الكابيتيين الاولين ، لا تجمعها وحدة وطنية . من اصل ١١ مليوناً من السكان ، يؤلف البولونيون النصف ، والروس الثلث في المناطق الشرقية ؛ اما السدس الباقي فيتألف من ألمان وليتوانيين ويهود وأرمن . ولا تجمعها وحدة دينية ؛ فنصف السكان كاثوليك ، والثلث ارثوذكس ، والباقي

بروتستانت ويهود. وهي بلاد تكاد تكون ريفية كلها . فالمدن ، وهي صغيرة جداً (٦ الى ٧ ٪ من السكان) لا تضم سوى بعض التجار اليهود وعدد قليل من البورجوازيين . ٧٢ ٪ من السكان فلاحون فداديون تسيطر عليهم ٢٠ الى ٣٠ الف عائلة من صغار النبلاء الفقراء جداً في اغلب الاحيان والتابعين لحوالي عشرين عائلة من كبار الملاكين النبلاء .

تحكم الدولة جمعية مؤلفة من مجلس شيوخ يعينه الملك ، ومجلس قصادا يلتخبه النبلاء . غدت المملكة انتخابية . لذلك لم يتمتع الملك بأية سلطة . ولم تتمتع الجمعية كذلك بأية سلطة ، لان الاجماع ضروري حتى تصبح قراراتها نافذة . تمتع كل نبيل بحق النقض الحر ، اي بحق الاعتراض بفردته على تنفيذ قرار او قانون ، وهو اعظم حرية يمكن ان يحلم بها الانسان . ولكن هذه « الحرية المذهبة » وضعت البلاد في الفوضى وجعلت منها العوبة الأجنبية . حين يتعذر اتخاذ أي قرار ، « تحطم » الجمعية او « تمزق » . يلتف كل حزب حول زعمائه من كبار النبلاء الملاكين ويؤلف « اتحاداً لا سلطة شرعية له » . هي القوة وحدها ما يحسم الخلافات بين الاتحادات المتخاصمة ، وذلك بالاستنجد بالاجنبي .

استفاد كبار النبلاء الملاكين من المخطاط الملكية لاثقال اعمال التسخير والموجبات الاقطاعية . ورغبة منهم في شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ، افقروا المدن والبورجوازيين بفتح ابواب البلاد على مصراعها أمام البضائع الأجنبية ، وبتحديد الاسعار .

قاوم النبلاء ، كبارهم وصغارهم ، كل اصلاح . انتخبوا ملوكاً من بين الاجانب . الساكسونيان اوغست الثاني (١٦٩٧ - ١٧٣٣) واوغست الثالث (١٧٣٣ - ١٧٦٥) دحرا ستانلاس لكزنسكي ، مرشح الحزب القومي ، وافقرا الملوك ، وخفضا الجيش الى ١٠٠٠٠ رجل ، وصقرا خزائن الاسلحة ، ولاشيا المدفعية ، وفاوضا الدول الأجنبية ، ففارض الـ « قيصر تورسكي » الروس ، والـ « بوتوكي » الفرنسيين والنمساويين . الأرثوذكس استدعوا الروس ، والبروتستانت استدعوا البروسيين . اتفق الروس والبروسيون والنمساويون والفرنسيون على ابقاء الفوضى و « تمزيق » الجمعيات بمقتضى صوالهم . وانتهى الامر بالروس اخيراً الى ابداء رأيهم في كافة القضايا وممارسة شبه حماية .

الا ان الدروس الجديدة ، التي بثها اليسوعيون ، ايقظت بعض النبلاء وبعض بورجوازيي المدن من سباتهم . في السنة ١٧٦٤ ، اقلح الـ « قيصر تورسكي » ، بمساندة جيش روسي ، في لإنجاح مرشح كاترين الثانية ، ستانلاس بونيا توفسكي . ولكنها خدعة ، لان ستانلاس كان وطنياً بولونياً ، والقيصر تورسكي الفوا حق « النقض الحر » وعينوا لجاناً تنفيذية لمعاونة الوزراء الممينين مدى الحياة . عند ذلك ، اي في السنة ١٧٦٧ ، تدخلت الجيوش الروسية بحجة حماية الأرثوذكس . اعاد « ربنين » ، السفير الروسي ، حق « النقض الحر » ، تلك « الجوهرة » ، ووضع الدستور تحت الضمانة الروسية . عبثاً قاوم اتحاد « بار » طيلة اربع سنوات . في السنة

١٧٧٢ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا الاول، فاقتطعت كل منها اجزاء كبرى، واحتلت جيوش الدول الثلاث البلاد التي حكها في الواقع السفير الروسي، « ستا كلبرغ » .

حاول البولونيون حينذاك ان ينهضوا ويثبتوا وجودهم . اعدوا تأليف الجيش ونظموا ادارة الاموال تنظيمًا جديدًا ، واستبدلوا اعمال التسخير والاثاوات العينية بضرائب تخول حق الانتخاب وبأغاوات نقدية ، واقرروا نظامًا تعليميًا قوميًا . واراد عدد من المصلحين الوطنيين إلغاء حق « النقض الحر » ، والملكية الوراثة ، والبعض لمحورير الفداديين ، والجميع جيشًا مؤلفًا من ١٠٠ ٠٠٠ رجل . كان هذا برنامج جمية السنة ١٧٨٨ الكبرى . تحالفت مع بروسيا التي فازت بجلاء الروس عن بولونيا ، لاسيا وقد انشغلوا آنذاك بمحاربة الاتراك والسويديين . ولكن ما حصل لم يكن سوى استراحة .

ضمت الامبراطورية العثمانية الواسعة الاطراف ، آنذاك ، افريقيا الشمالية وآسيا
ترشيا الصغرى ، فلا يجوز من ثم اعتبارها دولة اوربية الا لانها ضمت كذلك شبه جزيرة البلقان وشواطئ البحر الأسود الشمالية . كانت امبراطورية ثيوقراطية اسلامية ينحدر فيها السلطان من سلالة النبي ^(١) محمد ويجمع في شخصه كافة السلطات . ويفوض بسلطته العليا الى باشات في الولايات . يرئس هؤلاء ضباط اترك يمتلكون اراضي واسعة تأمينًا لمعيشتهم ومكافأة على الخدمات التي ادوها فيها مضى للجيش . فكان النظام نظامًا اقطاعيًا لجيش يعسكر في المناطق الزراعية بصورة خاصة . ويأتي بعد الباشاوات والضباط المسلمون العرب او الاوروبيون الذين يزاولون الزراعة او التجارة . اما المسيحيون من الفلاشين وصرب وبلغاريين ، فقطيع يخضع للجزية ؛ وهم وحدهم من يدفع الضريبة مبدئيًا .

في هذا النظام ، كان كل شيء متوقفًا على قيمة الرئيس . والحال كان السلاطين يعيشون مختلفين في حرمهم ، جهلة ومتخثرين ، ومنقطمين الى المسكر والفجور . وكان رؤساء وزراءهم مدينين بمركزهم للدسائس فحسب ، ولا يلبثون ان يشوروا قبل ان يتمكنوا من الحجاز عمل حاسم . اما جمعية الانكشارية الدينية العسكرية ، المغمورة بالاحسانات والمراتب السنية ، فلم تعد سوى مجموعة مناصب يتقاضى اصحابها الرواتب دون خدمة ، تشتري بالمال وتنتقل من الاب الى الابن ، ويدافع عنها بالثورة ضد كل اصلاح . لذلك كان الباشاوات يستقلون ، ويلزمون الضرائب ويجمعون ثروات طائلة . وكان الضباط يتصرفون كذلك تصرف الاسياد المستقلين . وكان ملتزمو الضرائب والجنود يسلبون المسيحيين والمسلمين على السواء بعلم وموافقة الباشاوات . فكانت الجزيرة العربية وسوريا ومصر وتونس والجزائر والمغرب خارجة عمليًا عن سلطة السلطان . ولم يحافظ السلاطين في اوربا نفسها على سلطتهم الا باسلام البلاد اليونانيين الذين كانوا موجودين في كل مكان وقد اثروا بالتجارة والحرف وتمتعوا بالنفوذ الديني عن طريق

(١) كذا في النص . والحقيقة التاريخية هي انتقال الخلافة من العباسيين في مصر الى السلطان العثماني سليم الاول بعد فتحه للقاهرة ١٥١٧ .

بطريك القسطنطينية ، وحركتهم فكرة اعادة الامبراطورية البيزنطية . جعل السلطان منهم حكام الامارات فتصرفوا فيها تصرف المستبدين . وكان البطريرك يعين الكهننة اليونانيين في كل مكان . تفككت الامبراطورية العثمانية إذ باتت دون وحدة اقليمية ودون وحدة وطنية ودون ادارة منتظمة ، اي دون اي من مقومات الدولة ، فتعرضت لشتى الضربات .

روسيا
ما زالت روسيا ، في السنة ١٧٥١ ، مجتمعاً أشبه بمجتمعات القرون الوسطى . كانت متمسكة بطوايح شرقية دانت بها لموقعها الجغرافي ، ولكنها كانت خاضعة لتنظيم وادارة حققها الغرب منذ قرون ، وتمر بمراحل سبق للدول الاخرى ان عرفتها . بلغ سكانها ١٣ مليون نسمة منهم ٩٠ ٪ من الفلاحين ، و ٧ ٪ من النبلاء ، و ٣ ٪ من اهل المدن . ما زالت البلاد في مرحلة الاقتصاد العقاري « المقلد » . اجل هنالك فلاحون احرار كثيرون ، ولا سيما في الشمال حيث الاراضي اقل خصباً . ولكن العدد الاكبر فداديون في الاملاك السيدية . يتبع معظم الاسياد بين ١٠٠ و ٥٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض كبار الاسياد اكثر من ١٠٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض صغار النبلاء اقل من ١٠٠ فدادي . كل ملك سيدي ينتج كل ما هو ضروري للسيد والفداديين ، بما في ذلك المصنوعات الكثيرة . المدن قرى كبيرة تبيع من الاملاك السيدية المصنوعات المعدنية والبدخية . التجارة الداخلية تمارس على نطاق ضيق في الاسواق الدورية بنوع خاص وتعيقها الجمارك الاقليمية . اما التجارة الخارجية ، المتوسطة الحجم ، فتجارة نقل بضائع بين اوروبا وآسيا ، تجارة تصدير الحامات ، القنب والكتان والحديد والخشب ، واستيراد المصنوعات ، الحرائر والاقمشة الهندية والاصواف ، وكلها في يد الاجانب على كل حال .

القيصر هو مالك روسيا السامي (المالك الرئيسي في الواقع) ، وصورة الاله الآب ، وخليفة الاباطرة البيزنطيين ، والقائد الاعلى في الحروب ، وحامي البلاد . وهو يتمتع بالاضافة الى هذه الالقب بسلطة مطلقة ، انه حاكم مطلق . سمي القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) ، الجبار العنيف ، وراء المجد عن طريق الفتوحات . اقتضى له من ثم جيش واسطول وموارد مالية وادارة . اصالح الدولة شيئاً فشيئاً بأن اقتبس عن الدول الغربية افكاراً وأنظمة طبقها على روسيا فأضفى بذلك ظاهراً عصبياً على وقائع اكثر قدماً . ولكن الحالة الاجتماعية فرضت عليه استخدام الارستوقراطية وارضاءها . افتتح قسمة السلطة والفوائد الاجتماعية هذه بين الملك المطلق والارستوقراطيين ، التي تميز روسيا خلال القرن الثامن عشر . النبلاء ملزمون جميعهم بالخدمة العامة الاجبارية في الادارة والجيش ، وكل أولئك الذين خدموا بطرس قد رفقوا الى طبقة النبلاء واعتبروا كما لو كانوا نبلاء قدامى . في السنة ١٧٢٢ شخص كل منهم بمرتبة وفاقاً لخدماتهم . وهكذا صهر بطرس في بوتقة واحدة طبقة النبلاء القديمة وطبقة النبلاء الجديدة . الرجال الثقة يختارون من بين النبلاء الذين يخدمون في الحرس الامبراطوري ؛ هؤلاء هم « الأوفياء » ، « المتفانون » ، أدوات القيصر . منح القيصر هؤلاء النبلاء كل سلطة على الفلاحين . فأحراراً كان

هؤلاء أم فداديين، فهم لا يستطيعون الاعتماد عن النبيل بدون اذنه (١٧١٨) . وأسند القيصر الى النبلاء الادارة المحلية: النبيل يجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين، والنبلاء المحليون ينتخبون مفوضي المناطق الاقليميين (١٧١٨) .

تمكن بطرس بفضل ذلك من تنظيم حكم مركزي ، على غرار الحكم السويدي ، مع مجلس شيوخ يضم ٩ اداريين اختصاصيين يصدر الاوامر في غياب القيصر؛ وهيئات من النبلاء المتوسطين المرتبطين بمجلس الشيوخ بمثابة وزراء ؛ و ٨ حكومات يرئس كلا منها حاكم خاص ؛ وقسمت الحكومات الى ولايات يقوم في كل منها مفوض اقليمي ، كما قسمت الولايات الى اقصية والاقضية الى نواح . وتمكن من اخضاع الكنيسة الارثوذكسية باستبدال البطريرك بسينوودوس مقدس يراقبه وكيل عام ثقة ، ومن استيفاء بعض مداخل الاديرة . كما تمكن من بناء اسطول وتنظيم جيش عصري دائم واقرار الضريبة الشخصية في السنة ١٧٢٠ على غرار ضريبة الاعناق الفرنسية، واعتماد الروح التجارية ، وتوزيع الاحتكارات والاعانات المالية وتسليف القروض دون فائدة وفرض أنظمة على الصناعة، وحماية الصناعة برسوم جركية مرتفعة، وإيجاد صناعة معدنية لحاجات الحرب لاسيا في جبال الـ « اورال » ، ورؤية ٩٨ مصنعا تعمل بانتظام ، قبيل موته ، وتسرح لروسيا بتصدير الحديد الى انكلترا .

اصطدم عمله بمقاومة عنيفة : فقد بدت كل هذه الجدة متنافية والمعتقد الارثوذكسي وصادرة عن المسيح الدجال . ولكن عيب النظام انقذ عمله : فلم يكن هنالك حق وراثي . كان القيصر يعين خليفته (١٧٢٢) . أما في الواقع فالعرش لم يكن « لا وراثيا ولا انتخابيا » ، بل تملكيا . فهم جنود الحرس وضباطه من اجلسوا على العرش المدعي الذي يختارونه . بيد أنهم كانوا يلتسبون جلهم الى طبقة النبلاء الجديدة ، ويرتجون كل شيء من سلطة القيصر العليا ، ففرضوا من ثم احترام السلطة المطلقة على أنسال طبقة نبلاء « البويتار » القديمة الراغبين في الحد من السلطة الامبراطورية . وهذا ما فعلوه حبال كاترين الأولى (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ، و بطرس الثاني (١٧٢٧ - ١٧٣٠) ، وانسا ايفانوفنا (١٧٣٠ - ١٧٤٠) ، وايفان السادس (١٧٤٠ - ١٧٤١) ، واليزابيت بتروفنا (١٧٤١ - ١٧٦٢) ، و بطرس الثالث (١٧٦٢) ، وكاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) الحادة المزاج على غير تسرع ، الالمانية « الروسية اكثر من كل امبراطورة اخرى » ، الخليفة الحقيقية لبطرس الاكبر .

لم تحل روسيا من النفوذ الاجنبي ، النفوذ الجرمني في عهد آنا ايفانوفنا التي قربت إليها الالمان ، والنفوذ الفرنسي ، في عهد اليزابيت التي نسجت على منوال فرساي وارغمت بطانتها على التشبه بنبلاء الفرنسيين ، وفي عهد كاترين الثانية التي شغقت بقراءة فولتير ومونتسكيو وواضعي دائرة المعارف ، وراسلت السيدة « جوفرين » وفولتير وديسرو ، وأضافت هذا الاخير و« مرسيه دي لا ريفيير » و« فالكونيه » ، ونحلت مونتسكيو في تعليماتها الى جمعية

النواب في السنة ١٧٦٧ ، وان طبعت ما نقلته عنه بطابع روسي ، وثقلت من الفلاسفة ، دعائها عن غير قصد ، السذج جداً عندما يقتضي ذلك صالحهم ، لقبى « سميراميس الشمال » و « مينرفا الروسية » . وإنما اذا برهنت اليزابيت المغناجعة وكارين الكاتبة عن ذوق حقيقي ، فان الرغبة في المعاق بالدول المتقدمة الاخرى واثبات ما تستطيعه روسيا واحتلال المركز الاول بين الملوك الاوروبيين ، لم تكن غريبة عن تحقيق ما تحقق ، على ان سلوك هذه الطريق لم يلبس قط الواقع الروسي . فالجميع واصلوا السير في الاتجاهات التي عينها بطرس الاكبر .

فضل النبلاء تفضيلاً مطرداً على حساب الفلاحين . في السنة ١٧٨٥ ، كان التطور قد اكتمل . ايد قانون النبلاء اعفاهم من الخدمة الاجبارية ، والضريبة ؛ منحهم حرية التصرف بأموالهم وأولام حق تأسيس المصانع والمشاغل ، والاتجار بالمحمل بمحاصيل املاكهم الزراعية وتصدير كافة منتوجاتهم الى الخارج .

تسلموا من القياصرة والقيصرات ، مكافأة لهم على خدماتهم ، اراضي واسعة جداً امسى فلاحوها الاحرار عبيداً وفدادين تابعين لهم ؛ وكان امتلاك هؤلاء وفقاً عليهم ، باستثناء الفترة الفاصلة بين السنة ١٧٢١ والسنة ١٧٨٢ ، اذ استفاد من حق الامتلاك هذا التجار المتعاطون صناعة استخراج المعادن ، رغبة في تليط هذه الصناعة ؛ تولوا بأنفسهم تدوين اسمائهم في لوائح خاصة ، وللمجرد التسجيل في اللائحة قيمة شرعية ؛ يضاف إلى ذلك ان كل فلاح حر ملزم باختيار سيده . كان من حق النبلاء ابعاد فدادينهم المذنبين الى سيديريا . خفض معدل الضرائب التي يدفعها فدادينهم كي يتاح لهم زيادة اثارهم السيدية . ضوعفت ايام اعمال التسخير ، فأصبحت ستة عوضاً عن ثلاثة ؛ ولم يبق للفلاح سوى يوم الاحد لحرثه حقله . حظر على الفدادين التزويج بدون اذن السيد . عائلاتهم عرضة ابدأ للتشتيت ، الرجال بيعوا قطعاناً . فلا عجب من ثم إذا كانت ثوراتهم مستمرة وإذا ما انضم فداديو املاك الفولنسا وفداديو المصانع وفلاحو الدولة المسجلون في المصانع ، باعداد كبرى ، الى قوزاق « بوغاتشيف » (١٧٧٣ - ١٧٧٤) .

توقفت عن تجار المدن ، وهم اقل ثروة منهم في الغرب ، مساعدات الحكومة المالية ، فصادفوا الصعوبات في تأمين اليد العاملة اللازمة . استحال عليهم مقاومة مزاحمة الملاكين العقاريين الذين اسسوا المعامل (٩٨٤ في السنة ١٧٦٢) واستحصلوا على احتكارات تجارية . سلفت النبلاء رؤوس الاموال مصارف تأسست لخدمتهم منذ السنة ١٧٥٤ . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان تمكنت كارين ، بعد السنة ١٧٦٠ ، من اطلاق حرية المنافسة ، ومن إلغاء كافة القوانين الصناعية . كان هنالك ٣١٦١ معملاً في السنة ١٧٩٦ ، ولكن اعظمها امية عاد للنبلاء ، فتدمر التجار .

أدت جهود الدولة الى انشاء منطقة صناعية عظيمة في الاورال (مناجم الحديد والنحاس ومصانع تنقيتها ومعالجتها) . منذ السنة ١٧٥٠ ، تخلت الدولة عن بعض مشاريعها ، ولا سيما للنبلاء . واسس بعض النبلاء والتجار المثرين ، في بشكيريا ، مشاريع خاصة رأسمالية ضخمة .

كانت المشاريع رابحة على الرغم من المسافات ومن تقنية متأخرة ، بفضل الفداية وعمل فلاحي الدولة الازامي . وفرت معامل الاورال مصنوعات نصف جاهزة لكافة أنحاء روسيا واسهمت بنسبة الثلثين في صادرات الحديد الروسية الضخمة ، مستفيدة من الحروب الأوروبية والأثرية الانكليزية . استمر التقدم بعد السنة ١٧٦٢ ، ولكنه كان تقدماً بطيئاً : فالسوق الداخلية قد سدت حاجتها ، والأسعار ارتفعت ، والاضطرابات الاجتماعية برزت هنا وهناك ، وثورة بوغانشيف خلفت وراءها الخراب ، وانكلترا حسنت تقنياتها وتحلصت شيئاً فشيئاً من حاجتها الى الحديد السويدي والروسي .

على الرغم من تقدم هذه الصناعات المعدنية والحياكية في جوار سان - بطرسبورغ وفي منطقة موسكو ، ومن سدها حاجة السوق الداخلية وتصديرها الاقشعة الى جانب الحديد ، بقيت روسيا في الدرجة الاولى ، مصدرة للخامات ومستوردة للمصنوعات . وقد اضافت كميات ضخمة من الحنطة الى صادراتها منذ فتوحاتها على حساب الاتراك .

اكمل العمل الاداري بارساخ المركزية وتقسيم العمل . اسندت السياسة الى مجلس وزراء . وبعد تجارب وترددات كثيرة اصبحت هذه المؤسسة نهائية في السنة ١٧٦٨ اذ استبدلت الهيئات بالوزارات . احتفظ مجلس الشيوخ بالادارة العليا . أُعدت من سلطة الحكومات وجمعت عدة حكومات في نيابة . تمتع النائب الامبراطوري بسلطة مطلقة ولم يخضع الالمجلس الشيوخ الذي هو احد اعضائه . وأقر تقسيم العمل في الحكومات ايضاً : ففصل بين القضاء والمالية والادارة واسند كل منها الى مجالس وغرف . فكان الحكم في روسيا استبداداً تحققت بتضحية الطبقات الاخرى على مذبح الارستوقراطية .

بلغ عدد السكان ١٩ مليوناً في السنة ١٧٦٢ ، و ٢٩ مليوناً في السنة ١٧٩٦ ، فتجاوز سكان فرنسا ، للمرة الاولى ، في أواخر القرن . تعاظم نفوذ الامبراطور تعاظماً كبيراً ، وتمكنت كاترين الثانية من مواصلة عمل بطرس الاكبر ، والنهوض بحروب فتح مثمرة ، والدخول الى حرم السياسة الأوروبية الكبرى .

ويتضح من ثم ان هذه الدول الأوروبية كلها بلغت مراحل تطور اشد اختلافاً من ان يمكن قيام اتحاد فدرالي على قدم مساواة . وما كانت وحدة أوروبا لتصبح ممكنة الا على يد دولة تلتصر على الدول الاخرى فتضمها اليها او تجعلها تابعة لها . ولكن عهد محاولات التنظيم الأوروبي هذه يبدو وكأنه عهد ولى الى غير رجعة .

تنوع أوروبا المنافسات بين الدول

في السنة ١٧١٥ ، أي في اعقاب « حرب المائة سنة الثانية » بين الانكليز والفرنسيين ، التي دامت في الواقع منذ السنة ١٦٨٨ حتى السنة ١٧١٥ ، كانت انكلترا قد توفقت الى احراز النصر . خضعت السياسة الأوروبية لداعي المصلحة العليا الذي لا ينظر الى الاخلاق بل الى صالح الدول ، فاستندت الى التوازن الذي تحقق لمصلحة انكلترا في معاهدات أوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) . اقتضى التوازن الأوروبي ان لا تصبح اية دولة من القوة بحيث تهدد استقلال الدول الاخرى . وليس هذا المذهب بالمذهب الجديد . فقد قال به الفرنسيون والانكليز . وهو يفسر السياسة الانكليزية في البر الأوروبي منذ نهاية حرب المائة سنة ، والصراع الطويل بين العائلة المالكة الفرنسية والعائلة المالكة النمساوية منذ السنة ١٥٩٥ . حوالي السنة ١٦٨٨ طرأ عليه بعض التبدل . فقد برزت إذ ذاك نجاحات الرأسمالية التجارية . وباتت التجارة البحرية الكبرى ، التي توفر الوسائل المالية ، مرتكز القوة قبل الأرض والسكان ، حين لم يكن نظام المجتمعات لبيح لاية دولة تمبئة كافة مواردها وكافة رعاياها . كانت الدول قد تحاربت من اجل طرق التجارة ، والمستعمرات ، والعلاقات بالامبراطوريات المستقلة الكبرى في ما وراء البحار . بات السعي وراء التوازن الأوروبي محاولة تستهدف منح أية دولة من ان تضمن لنفسها ، بانتصارها في أوروبا ، المستعمرات الهامة والنقاط الاستراتيجية الرئيسية . دخلت فرنسا والنمسا في نزاع رهيب كان آخر احداثه حرب وراثة عرش اسبانيا ، ولكن انكلترا هي من وجهت هذا النزاع وافادت منه . حاربت لويس الرابع عشر باسم حرية الشعوب وسيادتها ، وحين بدا لها ان لويس الرابع عشر قد زال خطره ، تخلت عن حلفائها وارغمتهم على المفاوضة . وفي السنة ١٧١٣ ابقت على التوازن في البر الأوروبي وضمت لنفسها من ثم الهيمنة البحرية والتجارية ، أي التفوق الشامل .

قسمت المعاهدات البر الأوروبي دولاً تتوازن توازناً كافياً لمنع تفوق احداها على الدول الاخرى ، ولارغامها جميعاً ، في حساب الانكليز ، على طلب تحكيم انكلترا . فان فرنسا التي

حصرت داخل الحدود التي عينتها لها معاهدة « ريسويك » ، قد فقدت الامل في أن تضم إليها اسبانيا في يوم من الايام ، إذ أن ملك اسبانيا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، قد تخلى نهائياً عن تاج فرنسا . وفقدت فرنسا بالفعل نفسه الامل في أن تتمكن يوماً من ان تستثمر بحرية الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية الواسعة الاطراف التي كانت تجارتها ، شأن كافة الامبراطوريات التجارية حينذاك ، وفقاً على الدولة المستعمرة . ولكن فرنسا قد فقدت في الحال ايضاً الشركة الفرنسية الاسبانية التي اسسها لويس الرابع عشر في قادس بموافقة فيليب الخامس ، للتجارة مع الامبراطورية الاسبانية واستيراد اليد العاملة السوداء .

تقسمت وراثة عرش اسبانيا بين فيليب الخامس الذي احتفظ باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وبين شارل السادس امبراطور النمسا الذي تسلم المناطق المنخفضة (بلجيكا الحالية تقريباً) ، بالإضافة الى منطقة ميلانو ، والمواقع التوسكانية المحصنة ، وناپولي ، وسردينيا ، في ايطاليا . وهكذا تجزأت امبراطورية شارل الخامس نهائياً ، وتقسم شاطئ البحر الشمالي ، على بعض المسافة من « بادى كاليه » ، بين عاهلين عدوين ، لويس الرابع عشر وشارل السادس ، كما تقسمت مسالك البحر المتوسط بين خصمين ، شارل السادس وفيليب الخامس .

ورغبة في تأخير تحرك الجيوش في حال نشوب نزاع بين آل بوربون وآل هابسبورغ ، وفي افساح المجال لتدخل الانكليز ، اقامت المعاهدات بينهم « حواجز » أي خطوطاً من المدن المحصنة اسند الدفاع عنها الى حاميات من دولة ثالثة ، ودولاً قطائل تقصل بينهم : حاجز الفنلندر في المناطق المنخفضة الذي يحتله الهولنديون ، حاجز نوشاتيل وفالنجين الذي يحتله البروسيون ، وقطائل مملكة سافوا وبييمون وسارديليا ، والبالاتينا (التابعة لدوق بافاريا) ، ومنتخبية كولونيا . وكانت الدول القطائل والدول الموجبة بحماية الحواجز اضعف من أن لا يحتاج الى عضد الانكليز ، لا بل من ان لا يحتاج معظمها الى مساعداتهم المالية . فتوفرت لانكلترا من ثم وسيلة للتدخل الدائم باسم حماية الضعفاء .

وضمن الانكليز لانفسهم رقابة الطرق البحرية الرئيسية والتفوق التجاري . راقبوا في المتوسط منفذ جبل طارق باحتلالهم جبل طارق ، ومسلك صقلية باحتلالهم مينورك وتباين صوالح العائلة المالكة في سافوا والعائلة المالكة في النمسا . وحصلت شركتهم التركيبية ، في ايطاليا وموانئ الشرق الادنى ، على فوائد حرم منها الفرنسيون . وفي البلطيك هزمت السويد شر هزيمة أمام تحالف الروس والبروسيين والدانماركيين ، وتعرضت البحيرة السويدية لان تغدو بحيرة روسية ، وهدد الروس المضائق الدانماركية . ولكن ملك انكلترا هو منتخب هانوفر ايضاً ، وهانوفر تعمل لحساب انكلترا وحسابها على السواء . قاوم بطرس الاكبر ، وارسل جيوشاً الى الدانمارك المحاربة ضد السويد وحلها على المطالبة بانسحاب الجيوش الروسية الحليفة الخطرة من كوبنهاغن ، وساند الدانماركيين في هولستين على الدوق « دي غوتورب » خطيب ابنة القيصر ، ونبلاء مكلمهبورغ على دوقهم ، ابن شقيق القيصر ، وفاوض فردريك غليوم ملك

بروسيا وأبعده عن التحالف الروسي ، وأعفى البضائع الانكليزية من الرسوم الجمركية ، واستحصل من الدانمارك على تخفيض الرسوم المستوفاة من السفن الانكليزية التي تجتاز مضيق « سوند » . فحقق الانكليز التفوق التجاري في البطلبك .

وحققوا الغلبة في الأوقيانوسات . منذ السنة ١٧-٣ ، الفت معاهدة « ميتون » المعقودة مع البرتغال ، مقابل تخفيض الرسوم الجمركية على الحمور البرتغالية على حساب الحمور الفرنسية ، الرسوم المفروضة على الاصواف الانكليزية وأعطت الانكليز حقاً مائماً في عماطي التجارة في البرازيل . فقدت لشبونة عملياً مستودعاً ، وميناء تموين ، وقاعدة عمليات للانكليز . اضطر الفرنسيون لأن يتخلوا لهم ، في اميركا ، عن خليج هودسون ، وبالتالي عن تفوقهم في تجارة الفراء ، وعن اكاديا والأرض الجديدة ومياهما الفنية بالأسمك ، وفي جزر الانتيل ، عن سان كريستوف وانتاجها من السكر .

لا بل اسدف الانكليز ابواب الامبراطورية الاسبانية نفسها . في اسبانيا خفضت الرسوم الجمركية على ملسوجاتهم الصوفية ، وأتاح لهم شرط الدولة المفضلة المطالبة بكل فائدة جمركية يعطيها ملك اسبانيا البوربوني نسيبه ملك فرنسا . وفي الامبراطورية الاسبانية استحصل الانكليز على احتكار استيراد العبيد السود اللازمين للمغارس والمناجم وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات مرة في السنة ، الى بعض المرافئ الاسبانية في اميركا الجنوبية .

وقد بلغ من مهارة صيغة هذه المساهمات لضمان تفوق الانكليز الاقتصادي والسياسي ، ان استوحيت انكلترا مبادئها في السنة ١٨١٥ والسنة ١٩١٩ . ولكنها لم تضمن السلم . فقد ارتكزت الى الحسد والارتياب المتبادلين بين حكومات يراقب بعضها البعض ، مستمدة ابدأ لامشاق السلاح . كانت هذه المبادئ تطبيقاً لمبدأ « فرق تسد » ، فلم ترض احداً .

لم ترض الانكليز انفسهم . فقد أخذ تجارهم على الحكومة ، ببعض المرارة ، انها لم تذل فرنسا ، العدو الدائم ، اذلاً تماماً ، ولم تستول على كافة ممتلكاتها في اميركا ، وفي الانتيل بنوع خاص ، ولم تفتح ابواب الامبراطورية الاسبانية على مصراعها أمام تجارتهم . وهي هذه الاهداف التي اقتربوا منها تدريجياً في السنوات ١٧٦٣ ، و ١٨١٥ ، و ١٨٢٤ . وخشي جورج الاول ابدأ أن يساند ملوك اوروبا آل ستوارت المخلوعين من العرش عليه .

لم يعترف فيليب الخامس ملك اسبانيا ، في قرارة نفسه ، بصحة التوقيع الذي ذيل به ، مكرها ، تنازله عن عرش فرنسا . ولم يرض كذلك بضياح الاقاليم الايطالية ، والتخلي عن السيطرة الاسبانية على حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد حملته على وقوف هذا الموقف زوجته الثانية ، « اليزابت فارنيز » ، التي كانت تريد امارات لابنائها في ايطاليا ، والتي عينت ، في رئاسة مجلس الوزراء ، « البروني » ، الايطالي المحب وطنه ، الراغب رغبة صادقة في طرد النمساويين وتحقيق الوحدة الايطالية .

ولم يقتنع شارل السادس اقتناعاً تاماً بالتنازل عن عرش اسبانيا . فقد كان راعياً ، للتعويض عن هذه الخسارة ، في الحصول على اراض واسعة حول حوض المتوسط الغربي على الأقل : أي على صقلية ، ودوقية مانتو ، بالإضافة الى اراضيه ، والحماية على كاتالونيا الاسبانية بعد تقسيمها . كما كان راعياً في احياء القوة النمساوية بتنمية صناعتها ، وبفتح منفذ لها الى البحر ، وانهاض تريستا والموانئ الايطالية ، وتأسيس شركات تجارية . أقلق بذلك هولندا وانكلترا ، كما أقلقها بمشاريع توسعية في البلقان ، على حساب الامبراطورية التركية ، وفي الامبراطورية على حساب بافاريا والدول الجنوبية التي كان آخذاً في استعادة نفوذه عليها . فجاء اندفاعه في هذه الاتجاهات الثلاثة تهديداً للتوازن الاوروبي .

كان ممكناً جداً لروسيا التي اندفعت ، مع بطرس الاكبر ، نحو كافة طرق التجارة ، في اوروبا كما في آسيا ، ان تصطدم بالنمساويين ، بصدد الامبراطورية التركية والبلقان ، وبالانكليز والسويديين والدانماركيين والهانوفرين والبروسيين بصدد البلطيك والمضائق الدانماركية .

قام الانقسام من ثم بين الدول الكبرى الهامة ، وهو هذا الانقسام ما كرس قوة الانكليز . كان هؤلاء اسطول قوي ، ولكن جيشهم البري اقتصر الى القوة اللازمة ، بسبب موقفهم الحذر من الملك . اعتمدوا اضعاف السلطة التنفيذية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهي سياسة ممكنة في جزيرة تحيط بها بحار كأداء تسمح برؤية من يقصدها ويقرب منها . ولكنهم كانوا بأمرس الحاجة ، في البر الاوروبي ، الى الجيوش التي افتقروا اليها (كان جيش هانوفر صغيراً جداً) ، والى حلفاء يهتدون اليهم بتقسيم الاوروبيين . الى هذا ترد السياسة الفرنسية التي أوصى بها لويس الرابع عشر سفراءه بين السنة ١٧١٣ والسنة ١٧١٥ : ازالة حذر الدول الاوروبية من فرنسا ؛ اقتناعها بأن فرنسا لا تهدف الى اية هيمنة ، وكانت هذه المهمة ضرورية جداً اذ ان السياسيين كانوا يخشون من اجتياح الجيوش الفرنسية لاوروبا ويعتبرون ان ايقاف الفتوحات عند اليرين مخطط املته الحكيم على ملك فرنسا ؛ لعب دور المستشار والوسيط ؛ اقتناع كافة الحكومات بأن الانقسام فيما بينها وخوفها من فرنسا يميلان منها ضحايا الانكليز ؛ حملها على القبول بتنازلات متبادلة واتفاقات تعقد بحرية ؛ ومن ثم اصلاح ذات البين بين دول اوروبا الكبرى وحرمان الانكليز من كل سانحة للتدخل وإثارة الخلافات بين الدول البرية ؛ وبذلك تحقيق توازن حقيقي وحرية حقيقية .

الا ان خلفاء الملك العظيم لم يقدرُوا هذه السياسة حق قدرها . فكان القرن الثامن عشر عهد اضطرابات ونزاعات ، أقصر امداً وأقل خطورة منها في العهد السابق ، وأما أكثر وقوعاً .

مميزات السياسة الخارجية
في القرن الثامن عشر

ارتدى الصراع بين الدول طابع « السياسة العائلية » . ففي العائلات في الواقع من كونت الدول وأوجدت سياسات الامم الراهنة . الامم والدول تتجسد في شخص الملك . وافضت

الاعراف الاقطاعية، وواصر النسب، والمصاهرات، والوراثات، الى ايلاء عائلات الملوك حقوقاً على اراض لا حصر لها. هذه الحقوق ممتعة الابطال والتنازلات عنها باطلة. والملك الذي يرغب في التوسع، لمصلحته او مصلحة رعاياه، او في الحؤول دون توسع ملك آخر، لا يعدم وسيلة في اثبات حقه على الارض المطموع بها او المتنازع عليها. وغالباً ما تتخذ الصراعات بين الدول شكل نزاعات على وراثة عرش . .

النزاعات تستوحي المصلحة العليا او مذهب «السلامة العامة»: العواطف والتفضيلات والصدقات والاحقاد، يجب ان تتخفي كلها امام مصلحة الدولة العليا القاضية بالتوسع والاستيلاء على اقاليم غنية بالسكان والموارد، والحؤول دون توسع الآخرين الذي يشكل تهديداً لازدهارها ووجودها. الاخلاق هي مصلحة الدولة. روح السياسة موضوعية كلها. السياسة علم مستخلص من احداث التاريخ، عبوس وقاس، وقاطع كالاداة الفولاذية.

الصراع مستمر. يتخذ الشكل الدبلوماسي اولاً. الدبلوماسيون فئة من الرجال الطيبين المهرة، ولكنهم قادرين على كل شيء. يتميزون بسهر دائم؛ كل شيء قد ينقلب خطراً، وكل فرصة يجب ان تنتهز؛ المصادفة لا تضر الا بالضعفاء ولا تقيس سوى الاقوياء: على الدولة ان تكون في حالة تأهب دائم، على غرار ابن المجتمع الذين يمش بين المسايقين وذوي الاخلاق الشرسة. هذه هي حال دول اوربا اليوم اكثر من اي يوم مضى اذ ان المفاوضات ليجت سوى مشادة دائمة بين أناس لا أخلاق لهم، مجترئين في الاخذ وطهاعين ابدأ (المركيز دارجنسون).

المكر عادة متعارفة والطرائق معوجة. يحاول الدبلوماسيون إفساد حكم الخصم بايقاظ اهوائه، اهواء الجسد او هوى المال. اعطاء الملك خلية واعطاء الامبراطورة او الملكة عشيقاً عادتان رائجتان. فان سفير فرنسا، لاشيتاردي، قد اصبح، لصالح الخدمة، عشيقاً للقيصرة اليزابت؛ وقد أوفدت الحكومة الفرنسية البارون «دي بروتوي» مكلفة اياه مهمة اشباع شهوات امبراطورة المستقبل كاترين الثانية. وطلبت ماري - تيريز من ابنتها ماري انطوانيت، زوجة ولي عهد فرنسا البالغة من العمر ١٧ سنة ملاطفة السيدة «دي باري» حتى تحمل هذه الاخيرة لويس الخامس عشر على الاعتراف بتقسيم بولونيا. وقبض الوزير الفرنسي «ديبوا» ٦٠٠.٠٠٠ جنيه سترليني من الحكومة الانكليزية. وعينت فرنسا راتباً شهرياً للوزير النمساوي «توغوت» منذ السنة ١٧٦٨. وكانت مجامع السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة تبيع انفسها بمن يدفع لها افضل سعر. في السنة ١٧٦٣ كلف مجمع السويد فرنسا ١٤٠٠.٠٠٠ جنيه سترليني، وفي السنة ١٧٦٦، كلفها مجمع بولونيا ١٨٣٠.٠٠٠ جنيه سترليني.

الدبلوماسيون يسكون بالرسائل. يبتاعونها من البُرد. يختار برد ثقات: فيخطفون وتنازع الرسائل منهم ثم يفتك بهم قطاعو طرق مصنّمون. الرسائل تكتب بأرقام اصطلاحية

ولكن هنالك اختصاصيين يفكرون رموزها. توصل بلاط فيينا الى فك رموز السفارة الفرنسية ورموز رسائل لويس الخامس عشر السرية . وكان فرديريك الثاني فخوراً جداً بأرقامه الاصطلاحية : ولكن عملاء لويس الخامس عشر في باريس كشفوا سرها .

التدخل بالديبلوماسية والمال في سياسة الجار الداخلية عادة متعارفة ايضاً . وقد توفرت في الدول الجمهورية النزعات ، كالسويد وبولونيا ، فوائده خاصة بفعل نشاط الاحزاب . امد الملوك بالمال ، في الدولة المجاورة ، احزاب الحرية التي تضعف الدولة . حرضت الدول جماعات العصاة واثارت الحروب الاهلية وحمت الثائرين . كانت السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة والمستعمرات الانكليزية في اميركا ، قبل فرنسا ، مناطق مباركة لمثل هذه المناورات . كان الملوك المخلوعون من العرش ، والتائهون ، والمعدمون ، اكثر من ان يحصوا . فاض الملوك الآخرون مقتصبيهم وجلادهم . المصالح تتقدم تضامن الملوك ، ويزول احترام الملوك .

المعاهدات تنقض وفاقاً لمصلحة الدول . « في السياسة والمصالح ، لاشأن للاعتراف والمعاهدات ؟ هي القوة او المصلحة ما يعمل المعاهدات ؟ وهي القوة او المصلحة ما يلاشيها . » ويضيف الالماني في كتابه (النظم السياسية : « في السياسة يجب نقض الآراء النظرية التي يكونها عامة الشعب حول العدالة والانصاف والاعتدال وسلامة النية والفضائل الأخرى المعزوة للامم الأخرى ولقاداتها . كل شيء يؤول في النهاية الى القوة . »

ان اخلاق الذئاب هذه تعود الى الحرب بمعناها الحصري ، الحروب بالاسلحة . كل حرب تعتبر عادلة منذ ان تجملها مصلحة الدولة العمليا ضرورية . ولا عجب من ثم ان تلجأ الدول الى الحرب الوقائية . فالانكليز الذين حكمت سيادة البحار في صدرهم قبل اي شيء آخر ، اعطوا المثل على ذلك بهجمات ، دون اعلان حرب ، على سفن الاعضاء ، وبالاستيلاء على السفن التجارية وملاحيقها ، دون سابق انذار ، في ايام السلم . وقام البروسيون في البر بنجيز الهجمات المفاجئة لاقفاء ضربات محتمة يكيلها لهم اعداء محتملون ، كان اشهرها هجوم السنة ١٧٥٦ الذي ضرب به المثل وبات اجتهاداً قانونياً .

في الحملات العسكرية تسود الهجمة القصوى الملائق بين اركان الجيوش المؤلفة من الانشرف ، ولكن الحرب فظيعة وقاسية . تميش الجيوش في البلاد وتسحق المقاومات بالارهاب . تصادر كل شيء ، حتى ما غلامته في الكنائس ، لتغذية خزانة الحرب . تفرض الرسوم على السكان وتدمر مساكن من لا يدفعون المغروض عليهم ، وتحرق المدن والقرى التي ترفض الضرائب المضروبة عليها . يرافق الجيوش حشد طفيلي من التجار والبغايا الذين يشتركون مع الجنود في السلب والاعتصاب واشعال النيران . النساء والاطفال يقتلون اذا ما قاوموا اجتياح منازلهم . وقد دون الكونت (دي سان - جرمان) عند وصوله الى المانيا هذه الملاحظة : « البلاد يمها الخراب والدمار في دائرة يبلغ شعاعها ٣٠ فرسخاً ، كما لو ان النار قد اجتاحتها . »

السكان المشتبه بهم يطردون ، وسكان القرى التي اطلقت منها النيران على الجيوش يشنقون .
 الرهائن تكون مسؤولة عن وفاء الحاميات . في السنة ١٧٤٤ ، انذر النمساويون سكان اللورين
 بالتسليم : المقاومون سوف يشنقون « بعد إكراههم على قطع انوفهم وآذانهم بأيديهم » . ودرج
 فردريك الثاني على تقتيل الاسرى أو تجنيدهم بالقوة . في السنة ١٧٥٧ ، كان الروس في «ميسل» :
 لم يشاهد الناس ما شاهدوا منذ غزوة الهون ؛ السكان يشنقون بعد قطع انوفهم وآذانهم ، وتنتزع
 سيقانهم ، وتبقر بطونهم وتشق قلوبهم » . في السنة ١٧٨٨ ، وبعد الاستيلاء على « اوتشاكوف » ،
 « بلغ من ضراوة الجنود الروس ، بعد انقضاء يومين على هجومهم ، انهم اذا ما وجدوا اطفالا
 أتراكاً محتبئين في مكان مظلم ما ... اخذوهم وقذفوا بهم في الهواء وتلقوهم على رؤوس حراهم » .
 تلقى الحرب بمعاهدات يقرر فيها انتقال المالك والامارات والدوقيات من سلالة الى اخرى
 دون استطلاع رأي السكان ودون اكرامات بما يكون رأيهم في هذا الانتقال . هذا ما يعرف
 بـ « تقايض البشر » . ويجب القول من جهة ثانية ان المشاعر القومية ، في معظم الحالات ،
 كانت اضعف منها في ايامنا . وكان السكان ، في عهد اسياهم الجدد ، يحتفظون بمعاداتهم
 وامتيازاتهم وبعض حرياتهم . ولكن هذا لا يصح في كافة الحالات . ففي السنة ١٧٧٢
 صادر فردريك الثاني من الاقاليم البولونية التي استولى عليها قطعاناً من البولونيات بغية
 اعمار بومانيا المفتقرة الى النساء . اما البولونيون فقد منعوا الهجرة في قطاعهم وبلصوا
 السكان دون رحمة .
 « القوة هي القانون الاعلى » .

في السنة ١٧١٥ ، لم ينتهز الوصي ، الدوق « دورليان » ،
 القبول بمعاهدات اوترخت وراستات
 الظروف المؤاتية لمواصلة السياسة التي عينها لويس الرابع
 عشر . جعلته اطباعه الشخصية يعمل مصالح المملكة ، بدافع
 من مربيه القديم « ديبوا » الذي عينه وزيراً . كان لويس الخامس عشر ضعيف البنية . إذا توفاه
 الله ، فان عمه فيليب الخامس سيطالب بالتاج على الرغم من تنازله ، كما سيطلب به الدوق
 دورليان ايضاً . اراد الوصي ان يضمن لنفسه مساندة الرأي العام الفرنسي على فيليب الخامس .
 والحال كان الرأي العام الفرنسي معادياً جداً للنمسا وعاجزاً عن ادراك مقاصد لويس الرابع
 عشر التي لم يكن بالامكان التداول بها علناً . قبل الوصي من ثم بالعون الذي عرضه عليه
 الانكليز في حال نشوب نزاع بينه وبين فيليب الخامس . وبالمقابل تحالف معهم ؛ وساند
 جهودهم التقسيمية ؛ ووفر لهم ذاك الجيش البري الذي كانوا مفتقرين اليه . وحين حدثت
 ازمة « لو » المالية في فرنسا برهن خليفنا « ديبوا » ، « بوربون » و « فلوري » ، عن عجزهما
 الطويل الامد عن انتهاج سياسة مستقلة . وقد ساعدت الدبلوماسية والجيوش الفرنسية
 الدبلوماسيين والبحارة الانكليز ، خلال سلسلة من الازمات والحروب حتى السنة ١٧٣١ ، على
 الابقاء على معاهدتي اوترخت . لم تتقدم اية دولة تقدماً يمكنها من تهديد الهيمنة الانكليزية ،

فبقي البر الاوروي في حالة انقسام مرضية .

في الشمال قسم إرث السويد ، حليفة فرنسا القديمة ، بين دول كانت ثلاث منها صديقات لبريطانيا . بموجب معاهدتي ستوكهولم (١٧١٩-١٧٢١) تخلت السويد عن «برين» و «فردن» لهانوفر التي غدت قوة بحرية ، وعن ستين وبومرانيا الامامية لروسيا ، وعن نصيبها من رسوم المرور في السوند وعن شلسفيغ للدانمارك ، بينما تخلت الدانمارك عن سترالسوت و «روغن» و «ويسار» . فكان ذلك نهاية «البحيرة السويدية» واقامة حدود اكثر اتفاقا والجغرافية، والمحطاطا نهائيا للسويد الآخذة بالانظمة الجمهورية. اما روسيا عدوة انكلترا ، فقد استحصلت من السويد ، في معاهدة «نيستات» (١٧٢١) ، على ليفونيا ، واستونيا ، وانفريا ، وجزء من كاريليا ، ومقاطعة من فنلندا مع «فيبورغ» . فاستحصلت بذلك على اراض واسعة على ساحل البلطيك ، المحور التجاري الهام ، واصبحت دولة بحرية بعض الشيء . ولكن عداء الدول السابقة ، التي كان يساندها الانكليز ، قد حرما امكانية الاندفاع نحو المضائق الدانماركية والبحر الطليق ، فاضطرت لان تصرف النظر عن ذلك تدريجيا .

في الجنوب استحصل شارل السادس على صقلية مقابل تنازله عن سردينيا ، وانتزع من الاتراك سهول «تسفار» وجزءا من فالاشيا، وبوسنيا ، وصربيا مع بلغراد (معاهدة باساروفيتز ١٧١٨) ، والاعتراف بوثيقة وراثة العرش التي ترسخ وحدة دوله . ولكنه انتهى الى التنازل نهائيا عن اسبانيا والهند ، وحل شركة اوستند التي كانت تشكل تهديدا للتجارة البريطانية والتجارة الهولندية ، والاعتراف بمدعيات آل فارنيز في ايطاليا التي منعه من أن يجعل من ممتلكاته الايطالية كلا ذا توسع اقتصادي غير محدود (معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١) . أما فيليب الخامس ، الذي اضطر الى إقصاء «البروني» منذ السنة ١٧١٩ ، فقد انتهى الى التنازل جديدا عن عرش فرنسا وعن الأقاليم التي استولى عليها شارل السادس ، والتسليم للانكليز بجبل طارق والامتيازات التجارية التي منحوها في اوترخت مقابل تخصيص «دون كارلوس» ، الابن البكر لزوجته الثانية ، بدوقية «بارم» .

ولكن الانكليز فقدوا بعد السنة ١٧٣١ مركزهم الأول في اوروبا . اطمأنوا
نهوض فرنسا
١٧٣١ - ١٧٤٠ الى قوتهم وانشغلوا بمنازعاتهم الداخلية ضد «البول» ، فلم يبالوا بالبر
الاوروي في الوقت الذي حرر فيه تقويم الوضع المالي الكردينال «فلوري»
من سياسة لم تخفف عليه مساوئها .

حاول فلوري ساوك الطريق التي عينها لويس الرابع عشر . اعترض سبيله حزب «شوفلين» أمين سر الدولة للشؤون الخارجية الذي كان يقول بسياسة العداء التقليدية للنمسا ، التي لم يمد لها ما يبررها آنذاك ، بمدد أن زال خطر آل هابسبورغ عن فرنسا ، والتي باتت سياسة مضرّة اذ ان انقسامات البر الاوروي توفر للانكليز الحلفاء وظروف التدخل . بيد ان الغلبة كانت

لانصار السياسة التقليدية عند انفجار أزمة وراثه عرش بولونيا . في السنة ١٧٣٣ توفي اوغست الثاني ، وكان التاج انتخابياً . تقدم مرشحان ، منتخب ساكس « اوغست الثالث » ، ابن شقيق الامبراطور ومحميه ، وستانسلاس لكزنسكي حمي لويس الخامس عشر وملك بولونيا السابق المخلوع من العرش . انتخب ستانسلاس في ايلول بفضل المال الفرنسي . ولكنه كان رئيساً للحزب الوطني الراغب في اصلاح بولونيا وجعلها دولة . لم تقبل به روسيا والنمسا بأي ثمن . دخلت الجيوش النمساوية الروسية بولونيا وطردت ستانسلاس وحملت الناخبين على انتخاب اوغست الثالث .

كان ذلك إهانة لاويدس الخامس عشر . ومن جهة ثانية كان الناس في فرساي راغبين في أن تكون ملكة فرنسا ابنة ملك . اضيف الى ذلك أن الواجب كان يقضي بمحاولة انهاض بولونيا التي كانت تؤلف مع السويد وتركيا كتلة الدول الشرقية التي تضرب دول الوسط من الورا ، لا سيما وأن الحكومة الفرنسية قد رفضت التحالف مع روسيا . اقنع شوفلين الملك بضرورة اعلان الحرب ، ولم يجرؤ فلوري على الاعتراض . ولكنه خاض حرباً قصيرة الأمد .

لم يغز المناطق المنخفضة النمساوية حتى لا يلقى الانكليز والهولنديين . لم يرض هؤلاء يوماً بأن يروا فرنسا ، المنافسة البحرية ، تتوسع على شواطئ بحر الشمال وتستقر خصوصاً في « انفرس » التي قد تتخلص ، اذا ما آلت الى ايدي دولة كبرى ، من عبوديات معاهدة وستفاليا وتصبح مستودع تجارة اوروبا الوسطى وشمالى فرنسا ومزاحة لندن وامستردام . وكان وجود الفرنسيين في بلجيكا يعني قيام الحرب بينهم وبين الانكليز . اكتفى فلوري بضرب النمساويين في ممتلكاتهم الايطالية . تحالف مع دوق سافوا ، ملك سردينيا ، الذي تحلى لفرنسا عن « سافوا » ، الفرنسية اللسان والمعدات ، التي يفصلها حاجز الالب عن البييمون ، مقابل حصوله على منطقة ميلانو (وهي سياسة سيمتدها كافر و نابليون الثالث) . اما الحليف الآخر فكان ملك اسبانيا الذي كان يريد لابنه « دون كارلوس » منطقة ايطالية اعظم شأنًا من بارم . انتصر الفرنسيون وحلفاؤهم دونما صعوبة (١٧٣٤) وتم الاستيلاء على منطقة ميلانو .

ولكن فلوري بادر اذ ذاك الى التفاوض للحيلولة دون اي تدخل انكليزي . وقعت معاهدة صلح تمهيدية في ايلول من السنة ١٧٣٥ ما لبثت ان تحولت الى معاهدة صلح نهائية في السنة ١٧٣٨ . ثم فقد شوفلين الحظوة في السنة ١٧٣٧ . وتنازل ستانسلاس لكزنسكي عن بولونيا ولكنه احتفظ بلقب الملك واعطي دوقية اللورين وكوتية بار . كان طبيعياً عند بماته ان تعود الدوقية والكونتية الى ورثته ، اي الى ملك فرنسا ، فلتسد الثلمة المفتوحة في الحدود الشمالية الشرقية وتؤمن الموصلات مع الازراس وتعود مقاطعة فرنسية اللسان والمعدات الى الوحدة الفرنسية . امسى الضم فعلياً في السنة ١٧٦٦ . تحلى شارل السادس عن « نوفاري » ملك سردينيا الذي احتفظ بالسافوا حين لم يحصل على مقاطعة ميلانو . وتحلى الامبراطور عن

نابولي وصقلية (مملكة الصقليتين) لدون كارلوس . واعطى هذا الاخير بارم وتوسكانا اللتين كان متوقعا ان تؤولا اليه للدوق « فرنسوا دي لورين » ، زوج ماري - تيريز ، ابنة شارل السادس ، المرفوعة يده عن دوقيته . وفي ذلك خير مثل على مقايضة البشر .

في السنة التالية ، انقذت فرنسا صديقتها التقليدية ، تركيا ، وانزلت بالنمساويين والروس هزيمة ابقت على التوازن الأوروبي . منذ السنة ١٧٣٦ ، كان الروس ، الذين ما فتحوا يبحثون عن منفذ الى البحر الاسود ، في حرب ضد تركيا . كانوا قد استولوا على « ازوف » والقرم . ومنذ السنة ١٧٣٧ ، كان النمساويون ، حلفاء الروس ، قد غزوا البلقان . شجذ السفير الفرنسي ، « فيلتوف » ، عزائم الاتراك ، وزودهم بنصائحه . بفضل كسر الاتراك النمساويين . ففرض فيلتوف حينذاك وساطته ، وفي معاهدة بلغراد (١٧٣٩) اعاد الامبراطور للاتراك صربيا وفالاشيا . اضطر الروس الى التراجع . فأظهر السلطان امتنانه لفيلتوف بتجديده امتيازات فرنسا الدبلوماسية والتجارية في الامبراطورية التركية (١٧٤٠) .

في السنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد استعادت سيرها الى الامام . فقد احرزت حديثا نجاحا اقليميا كبيرا ، هو الاول منذ ريسويك . ووطدت تحالفها مع اسبانيا وتركيا والسويد ، واخذت توجه السياسة الأوروبية . وتقدمت صناعتها وتجارتها كل صناعة وتجارة في العالم وغزت مصنوعاتها انكلترا نفسها . وقفوق تجارها على الانكليز في الانتسل والهند وموانئ الشرق الادنى حيث اوقع الجواخون الفرنسيون ، حتى قبل تجديد الامتيازات ، هزيمة تجارية نكراء بالانكليز وكادوا يقضون هناك على تجارة الاجواخ الانكليزية . تقدم الفرنسيون في والدي الميسيسي واقفلوا داخل البلاد في وجه المستعمرين البريطانيين . وأسست شركة الهند الفرنسية باطراد اسواقا جديدة كثيرة . وأعاد الاسبانيون من جهتهم تنظيم اساطيلهم وطمعوا في منع الانكليز من الاستمرار ، دون خجل ، في مخالفة بنود معاهدة اوترخت بتلاعهم بالسفن المسموح بدخولها الى مستعمراتهم حتى تنقل فوق ما هو متفق عليه ، ويشتمى الاساليب الملتوية المعتمدة في عمليات التهريب المطلق العنان . استيقظ الانكليز وانلبهوا فجأة لان كل شيء يحدث كما لو لم يكونوا منتصرين ، او كما لو لم يكن هنالك معاهدة اوترخت . فهم لم يفقدوا هيمنتهم البرية فحسب بل كانوا سائرين في طريق فقدان هيمنتهم البحرية والتجارية . فقرروا اللجوء الى الحرب .

في تشرين الاول من السنة ١٧٣٩ قاموا باعمالهم العدوانية
الحروب البرية والبحرية الكبرى
الاولى ضد اسبانيا . ولم يفهم ان فرنسا ستنتجر الى الحرب
(١٧٤٠ - ١٧٦٣)
رغبة منها في النار لنفسها من معاهدتي اوترخت . وبالفعل
انطلق اسطولان فرنسيان ، في شهر آب من السنة ١٧٤٠ ، لمساعدة الاسطول الاسباني .
فبدأ بذلك الصراع الحاسم من اجل التفوق البحري والاستعماري ، اي من اجل الهيمنة السياسية .

كانت قوة الاسطول الفرنسي كافية لان ترتقب النتيجة بثقة واطمئنان . وكان مقدراً لفرنسا ان تصبغ في طليعة الدول ولمدة طويلة . وانما كان لزاماً ان تستطيع تكريس قواها للحرب في البحر والمستعمرات ، اي ان لا تتركه على خوض الحرب في البر الاوروي .

ولكن الامبراطور شارل السادس توفي في ٢٠ تشرين الاول من السنة ١٧٤٠ ، فاقتضت وراثة عرش النمسا . ترك الامبراطور خلفاً له ابنة في الثالثة والعشرين من سنها ، ماري-تيريز ، مع جيش غير منظم وخزانة فارغة . رأى كافة ملوك اوربا الفرصة سانحة لكي يقتطعوا لهم بعض المناطق من اراضي آل هابسبورغ . نسوا كلهم انهم ضمنوا وثيقة وراثة العرش النمساوي ووعدوا بمساعدة ماري-تيريز على اعتلائه . ونظروا كلهم الى المعاهدات الحاملة توافقهم نظرهم الى اوراق رثة حقيرة ، طالب منتخب بافاريا شارل - البير بالارث كاملاً . وطالب كل من ملك اسبانيا ، وملك سردينيا ، وملك بروسيا فردريك الثاني بنصيب من الارث . كان فردريك الثاني قد ورث عن والده جيشاً مختاراً ، والحكمة الفائلة بان لا قيمة للامير في العالم الا بسيفه ، ورسالة توسيع الاراضي البروسية ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وجمع الاقسام الثلاثة التي تتألف منها ممتلكات آل هوهنزولرن . وكان طامعاً في حينه بسيليزيا ، الولاية الغنية التي سيؤمن له امتلاكها تجارة الاودر الاعلى ، ويحمي براندنبورغ من التعديت النمساوية ويتيح له انهاء كل تهديد ممكن بهجوم مفاجيء على بوهيميا . كان لآل هوهنزولرن حقوق على سيليزيا تخلوا عنها بموجب معاهدات ، ولكن فردريك الثاني ما كان ليقم وزناً للمهد ، فاحتل الولاية (كانون الاول ١٧٤٠ - نيسان ١٧٤١) .

لم تكن فرنسا مهددة ، وكان باستطاعتها البقاء بعيدة عن النزاع . اجل كان الملك قد وقع وثيقة وراثة العرش وكان عليه ان يحترم توقيعه . ولكن الحزب المحافظ ، وعلى رأسه المارشال « دي بيل ليل » ، اعتقد بان الوقت قد آن للتخلص نهائياً من النمسا ، ولم يعر المسائل البحرية والاستعمارية أهمية تذكر . وما كان كبار الاسباد الفرنسيين آنذاك ، على نقيض الانكليز ، ليعنوا عناية كبرى بالمشاريع التجارية . ولم تكن العاصمة الفرنسية ، فرساي ، والمدينة الرئيسية المحاورة ، باريس ، مدينتين يعول سكانها في معيشتهم على التجارة البحرية ؛ فكان من الصعوبة بكان تهيج الرأي العام وإثارة الفتن فيها من اجل الانتيل او السنغال . ولم يبرهن التجار الفرنسيون أنفسهم عن مثل ما برهن عنه الانكليز من عناد عنيف ، ولم يرغبوا ، على غرارهم ، في حرب ضروس تنتهي بظفر طرف وهزيمة آخر ؛ عندما اعلنت القطيعة بين فرنسا وانكلترا في السنة ١٧٤٣ ، اقترحت شركة الهند الفرنسية على الشركة الانكليزية البقاء خارج نزاعات الحكومات ومواصلة الاعمال التجارية ، ولم تقرر الاشتراك في الحرب الا بعد أن رفض الانكليز اقتراحها . كان فلوري آنذاك قد طعن في السن ؛ فاضطر للموافقة على تولي « بيل ليل » انتزاع التاج الامبراطوري من آل هابسبورغ . حين هزم هؤلاء أمام فردريك ، مهد بيل ليل السبيل لقيام معاهدة تحالف بين ملك اسبانيا ومنتخب بافاريا (ايار ١٧٤١) ،

وعقد تحالفاً مع بروسيا (حزيران) وفاز بانضمام منتخبي الساكس . وقد تم الاتفاق بين المتحالفين على ان يستولي منتخبي بافاريا على التاج الامبراطوري وبوهيميا وراين ملك اسبانيا الثاني ، دون فيليب ، على بعض الاقاليم الايطالية ؛ وفردريك على سيليزيا ؛ بينما تكتفي فرنسا باذلال النمسا . احتلت الجيوش الفرنسية بوهيميا ، فاعلن منتخبي بافاريا ملكاً عليها ، ثم انتخب امبراطوراً باسم شارل السابع (تشرين الثاني ١٧٤١ - كانون الاول ١٧٤٢) .

بيد ان « بيل ليل » اخطأ في انه لم يحاول الاجهاز على فيينا ، فطالت الحرب وتمكن الانكليز من التدخل وفتح جبهة ثانية . في شهر شباط من السنة ١٧٤٢ نزل جورج الثاني الى البر الاوروبي وتسلم قيادة جيش من المرتزقة . عقد الانكليز والنمساويون والساكسونيون حلف « وورمز » واتفقوا على انتزاع الازراس والوريين من الفرنسيين وقدموا لماري - تيريز المال الذي كانت مفتقرة اليه . وتوفقت ماري - تيريز ، بوعد ملك اسبانيا بشرط من مقاطعة ميلانو ، وبتخليها عن سيليزيا لفردريك الثاني الذي ادار ظهره لحلفائه على الرغم من تمهيداته الصريحة (معاهدة برسلو ، ١٧٤٢) ، الى تفكيك التحالف وتاليف تحالف آخر على فرنسا التي ما لبثت ان واجهت تهديد حدودها (١٧٤٣) . واخيراً ، في السنة ١٧٤٥ ، بعد وفاة شارل السابع ، تنازل ابنه عن الامبراطورية لمصلحة زوج ماري - تيريز الذي انتخب امبراطوراً باسم فرنسوا الأول . باتت القضية أشبه بمبارزة بين العائلة المالكة النمساوية والعائلة المالكة الفرنسية التي تحالف معها فردريك الثاني المضطرب البال مرة أخرى في السنة ١٧٤٤ ، ولكنه تخلى عنها مرة أخرى ايضاً في السنة ١٧٤٥ حين ايدت ماري - تيريز تنازلها له عن سيليزيا في معاهدة « درسدن » . تحولت الجيوش الفرنسية ، في اعقاب ذلك ، عن الحرب الاستعمارية التي لم يلمع نجمها فيها حتى ذلك الحين . في السنة ١٧٤٥ استولت على لويسبورغ في كندا ، ولكنها فقدت مدراس في الهند في السنة التالية . ولا ريب في ان الفرنسيين كانوا احرزوا نجاحاً حاسماً لو ان كافة القوى الفرنسية تحولت شطر البحر . في البر الأوروبي صمدت فرنسا امام التحالف صموداً مشرفاً . في السنة ١٧٤٨ توفقت الى صون أكثر حدودها هشاشة ، اي الحدود الشمالية الحالية من الحواجز الطبيعية ، والمفتوحة عند مر « الموز » و « السامبر » و « الواز » ؛ كانت قد استولت على المناطق المنخفضة النمساوية (انتصار « فونتنوا » ، ١٧٤٥) والسافوا وكوتية نيس . قبات من ثم بمكنتها ان تفرض على اعدائها المنهوكين صلحاً مجدياً . ولكن لويس الخامس عشر تخلى في معاهدة « اكس - لا - شابيل » (تشرين الاول ١٧٤٨) عن كل شيء ، المناطق المنخفضة ، وسافوا ، ونيس . ووافق لويس الخامس عشر بتخليه هذا على ضمان سيليزيا لفردريك الثاني واعطاء ملك سردينيا قسماً من مقاطعة ميلانو حتى نهر « تسينو » ، واعطاء دون فيليب بارم وبلينازس .

انذهلت اوروبا باجمها من هذا الاعتدال الذي سخرت منه واعتبرته ناجماً عن ضعف عقل وضعف جنان . واغتاظ الفرنسيون من الملك . إلا ان هذا الصلح لم يكن شراً كله بالنسبة

لفرنسا اذ انها انقصت اراضي النمسا ، وأوثقت الروابط باسبانيا ، ووسعت دولا ثانوية . كانت متفقة وإحدى السياسات الفرنسية التي تؤثر التوارن وتجميع الدول الصغرى حول فرنسا ضد العظماء على السمي وراه التوسعات الشخصية . ولكنها انطوت على عيب جوهرى . فان لويس الخامس عشر الصادق في مسالته ، واغخلص في محبته المسيحية وشعوره الانساني ، والتعب بالاضافة الى ذلك من الحرب ، قد تفاضل عن مقاصد الانكليز والنمساويين . تعامى عن "أن شيئاً لم يسو" في البحر والمستعمرات ، وأن شيئاً لم يسو" بين النمسا وبروسيا ، وان الصلح ليس سوى مهادنة ، وأن حرباً أخرى لن تلبث أن تندلع ، وانه من الأهمية بمكان بالنسبة لفرنسا ، ما دامت الحرب محتومة ، أن تكون موجودة على قمم جبال الألب في سافوا وفي سواحل بحر الشمال حتى انفرنس .

كانت الحرب الجديدة، المعروفة بحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣)، نتيجة المنازعات بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الانكليز في اميركا من اجل الاستيلاء على وادي « اوهايو ». استعد لها الانكليز باهتام . في شهر حزيران من السنة ١٧٥٥ ، وبدون اشهار حرب ، بدأوا عدوانهم بعمل قرصنة . فان السفن الحربية البريطانية قد استولت في الموانئ الانكليزية أو في عرض البحر على ثلاث ناقلات جيوش في طريقها الى كندا واكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و ٨٠٠٠ بحار . فعهرم الفرنسيون بذلك ، منذ البدء خيرة ملاحهم المدربين .

كان الانكليز بحاجة الى حليف وجيش لاجل حماية هانوفر، المملوكة الشخصية للملك انكلترا ورقبة الجسر للتجارة البريطانية في الشمال، وللاجل تحويل القوات الفرنسية شطر البر الاوروي . لم يعد بإمكانهم الاعتماد على النمسا التي عرضت المناطق المنخفضة على فرنسا في حربها الانتقامية ضد بروسيا ، فرفضت فرنسا العرض كي لا تتخلى عن فردريك الثاني ، ولكنهم وجدوا هذا الاخير قلقاً ، ومرتاعاً من تحالف انكليزي روسي ، وراعياً في المساعدات المالية الانكليزية ، فنكث التحالف الفرنسي وعقد مع انكلترا اتفاقاً وستمنستر (كانون الثاني ١٧٥٦) . فاستنطق الفرنسيون هذا ووقعوا مع النمسا معاهدة فرساي (أول أيار ١٧٥٦) . تقربت النمسا في الوقت نفسه من الامراء الالمان ومن الساكس وروسيا . شعر فردريك الثاني بالخطر المدام : فصمم على القيام بعمل يشل جيوش اعدائه قبل ان ينهوا استعداداتهم ، وانقض على الساكس (آب ١ٷ٥٦) . احرز النصر ، ولكن صمود الساكسونيين اتاح للنمساويين جمع قوام . ولما كانت ابنة منتخب الساكس متزوجة من وريث عرش فرنسا ، استشاط لويس الخامس عشر غيظاً وعقد مع النمسا معاهدة فرساي الثانية (ايار ١٧٥٧) التي تعهد فيها بتقديم ١٤٠٠٠٠ رجل ومبلغ ٣٠ مليوناً اسهاماً منه في حرب المانيا . وهكذا انقلبت المحالفات واشتركت فرنسا في حروب برية حولتها عن مصالحها الحقيقية ، أي عن حرب المستعمرات التي كانت هي الحرب الحقيقية .

اعتقدت الحكومة الفرنسية بأن العمليات البرية لن تطول ، وبأنها ستستطيع بعد انتهائها

من الارتداد بقواها على الانكليز وحدهم . في السنة ١٧٥٧ اخشل الفرنسيون فعلاً هانوفر ثم طوقوا الجيش الانكليزي الهانوفري وارغموه في ايلول على الاستسلام في « كلوستر سفن » وحصلوا منه على تعهد بأن لا يحمل السلاح حتى نهاية الحرب . وتحرك جيش فرنسي الماني لمهاجمة فردريك الثاني الذي كان يواجه خطر النمساويين في الجنوب ، والروس في الشرق ، والسويديين في الشمال . ولكن فردريك تمكن من المناورة بين اعدائه ، فسحق الجيش الفرنسي الالماني في « روسباخ » (٥ تشرين الثاني ١٧٥٧) ، والجيش النمساوي في « لوتن » (٥ كانون الاول) . ونكت الجيش الانكليزي الهانوفري عهده ، فاشترك في الحرب مرة اخرى ضد الفرنسيين . ومنذ ذلك التاريخ طال الحرب وتمازت . فالجيوش الفرنسية التي قادها ضباط حذائق على غير سداد في الرأي قسم التحاسد بينهم ، قد اوقفت ، على الرغم من بعض الانتصارات الجزئية ، بين الرين والفيزير بفعل مقاومة الجيش الانكليزي الهانوفري ، ولم تتمكن من مهاجمة فردريك الثاني من الغرب . خف العبء بذلك عن هذا الاخير ، فواجه الروس والنمساويين . انزلت به هزائم نكراء ، وفي السنة ١٧٥٩ ، بلغ كشافه اعدائه مشارف برلين . ولكنه برهن عن عناد فائق ، وحال احتراز الروس والنمساويين وعجزهم عن توحيد جهودهم دون اقدامهم على كبل الضربة القاضية . وفي السنة ١٧٦٢ توفيت القيصرية اليزابيت وتولى العرش بطرس الثالث الخلف للملك بروسيا ، فبقي النمساويون وحدهم .

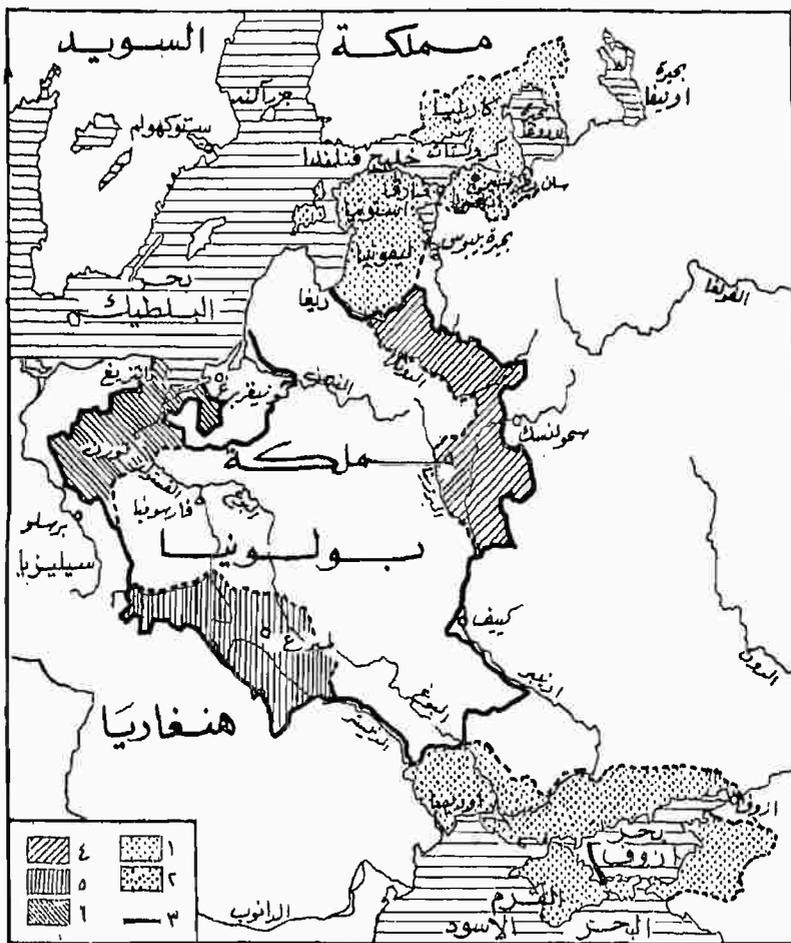
منعت هذه الحرب الفرنسيين من التفرغ لاساطيلهم ومستعمراتهم . امدوا الهند ب ١٧ رجلاً وكندا ب ٣٢٨ رجلاً بينما كان الانكليز ، بتحريض من « وليم بيت » ، يواصلون تمييز اساطيلهم ويرسلون الى اميركا حتى ٦٠٠٠٠ رجل . استولوا على كندا باستيلائهم على « كيبك » (١٧٥٩) « وموريل » (١٧٦٠) ، وعلى الهند باستيلائهم على بونديشيري (١٧٦١) . وجاء دخول اسبانيا الحرب الى جانب فرنسا متأخراً جداً ولم يسفر سوى عن نتيجة واحدة هي ائاحة فرصة احتلال فلوريدا للانكليز . اضطر الفرنسيون لتوقيع معاهدة باريس مع الانكليز في ١٠ شباط من السنة ١٧٦٣ . تخلوا لهم عن كندا ووادي « اوهايو » وضة الميسيسيبي اليسرى وعدد من جزر الانتيل . تنازلوا من كل مدعى سياسي بالهند حيث احتفظوا بخمس مدن دكت اسوارها وسحبت حامياتها . تخلوا عن اسواقهم التجارية في السنغال باستثناء جزيرة « غوريا » . وتنازل لويس الخامس عشر ، بالاضافة الى ذلك ، عن ضفة الميسيسيبي اليمنى أو لوزيانا للاسبانيين بغية إعاضتهم من فقدان فلوريدا . ولكن فرنسا احتفظت ، على الرغم من مقاومة العديد من الانكليز ، بمصائد الاسماك في الارض الجديدة ، التي كانت بمثابة مدرسة جلد وتدريب لبحارتها ، ويجزيرتي « سان بيير وميكلون » و « جزر السكر » ، « مارتينيك » و « غوادلوب » و « سانت لوسي » و « سان دومنغ » وذلك بفضل الملك جورج الثالث المتسرع في استهلال سياسته الشخصية والتخلص من استبداد « بيت » الذي كان يفضل انتظار محق فرنسا لتوقيع معاهدة الصلح . استاء الانكليز واعتقدوا بوجود القيام بجهود جديد ، ولكنهم على الرغم من كل ذلك

حقوقاً امكانات تقدم غير محدودة بتحقيقهم الهيمنة البحرية والتجارية والاستعمارية .
 أما ماري - تيريز ، التي امتست وحدها في الميدان ، فقد وقعت مع فرديريك الثاني صلح
 « هوبرتسبورغ » (١٥ شباط ١٧٦٣) . احتفظ هذا الأخير بسيليزيا وتمتع بنفوذ عظيم في
 المانيا وفي اوروبا . غير انه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يكن سوى ملك دولة صغرى يحيم
 عليها الخراب . وخرجت النمسا ضعيفة وخاسرة اقليمياً من هذه الهزيمة الجديدة . أما المسيطر
 الحقيقي على اوروبا الشرقية والوسطى فهو روسيا ذات الموارد المتزايدة ، التي اهتمت الى
 رجل هو القيصر كاترين الثانية .

ارتقاء الروس والبروسيين
 (١٧٦٣ - ١٧٨٩)
 وانتعاش الانكليز عن البر الاوروي . انشغل الانكليز بشؤون تنظيم
 امبراطوريتهم . صادفوا صعوبات كبرى في مستعمراتهم الاميركية
 بنوع خاص . وأدرك الفرنسيون خطأهم . كرسوا قواهم لمحاربة انكلترا ، واخذ الوزير
 شوازلو يعد العدة للانتقام . وكان الانتقام ممكناً في بلاد غنية جدا تفوق دول اوروبا الاخرى
 سكاناً ولم تتأثر كثيراً بحروب خيضت كلها خارج ارض الوطن . اعاد شوازلو انشاء
 الاسطول والجيش وابتاع من الهنوديين جزيرة كورسيكا التي كانت مطعم الانكليز لانها تتيح
 السيطرة على الساحل الفرنسي المتوسطي (١٧٦٨) .

في هذه الظروف خلا الجو في اوروبا الشرقية لروسيا التي تلحقت نهائياً عن مشاريع بطرس
 الأكبر في آسيا . فكان من ثم باستطاعتها استعادة سيرها شطر الغرب . عند وفاة ملك بولونيا
 اوغست الثالث (١٧٦٣) ، اتفقت كاترين وفرديريك الثاني على منع كل اصلاح في بولونيا ،
 وضمان العرش لمشيقيها ستانلاس بونياتوفسكي (ايلول ١٧٦٤) بتهديد من الجيوش الروسية ،
 وفرض حماية روسية على البولنديين بحجة تأمين حريات الجمهورية البولونية (١٧٦٧) . ثار
 الوطنيون البولونيون ، وتوقف شوازلو ، املا منه في انقاذهم ، الى اقتناع الاتراك بدخول الحرب
 ضد روسيا . ولكن الانحطاط التركي كان آخذاً في التعاضم . خسر الاتراك آزوف والقرم
 والولايات الرومانية ودمر اسطولهم في « تشسيمي » (١٧٧٠) . خشي فرديريك الثاني اذ ذاك
 من رؤية الروس والنمساويين يعززون قوامهم في البلقان أو يتقابلون في حرب قد ينجر هو اليها .
 فاقترح على كاترين وماري - تيريز تقسيم بولونيا الذي أقر في سان بطرسبورغ في ٢٥ تموز من السنة
 ١٧٧٢ . « باسم الثالوث الأقدس » ... وخوفاً من تفكك الدولة البولونية تفككاً كلياً ...
 استولت ماري - تيريز ، التي « ما انفكت تبكي وتأخذ » ، على غاليسيا وسكانها البالغين
 ٧٠٠.٠٠٠ نسمة ؛ واستولى فرديريك على بروسيا البولونية وسكانها البالغين ٧٠٠.٠٠٠ نسمة
 فقط ، باستثناء داننزيغ ، ولكنه حقق الاتصال بذلك بين بروسيا وبراندنبورغ ؛ واستولت
 كاترين على جزء من ليتوانيا يبلغ سكانه ١٦٠٠.٠٠٠ نسمة . فاضطرت الجمعية البولونية ، التي
 حاصرتها الجيوش الحليفة ، الى التسليم بالمعاهدة والتعهد بعدم تعديل الدستور . وقد ألف
 الشركاء المتواطئون الثلاثة ، بغية الحفاظ على مكاسبهم ، حلفاً ثلاثياً ناصب فرنسا العداء في

عهدي الثورة والامبراطورية ، وكان نواة الحلف المقدس بعد السنة ١٨١٥ ، ودام حتى اواخر القرن التاسع عشر .
بوساطة النمسا ، وقع الروس مع الاتراك معاهدة « فينارجي » (١٧٧٤) . لم تحتفظ



الشكل ٢ . الفتحوات الروسية وتقسيم بولونيا الأول .
١ - فتحوات بطرس الأكبر ، ٢ . فتحوات كاترين الثانية ، ٣ - حدود مملكة بولونيا في السنة ١٧٧٢
تقسيم بولونيا الأولى في السنة ١٧٧٢ - ٤ الفتحوات الروسية ، ٥ الفتحوات النمساوية ، ٦ الفتحوات الروسية

روسيا الاب « آزوف » ، ولكن استقلال « القرم » قد أعلن رسمياً ، وحقق للروس ، بصورة خاصة ، توجيه الانذارات الى السلطان خدمة للكنيسة اليونانية أو للسكان الارثوذكس في الولايات الرومانية . فظهروا من ثم بمظهر حماة الشعوب المسيحية الارثوذكسية في البلقان وتوفر لهم امكان التدخل الدائم في الشؤون البلقانية ، مما سيدسهل مشاريعهم باتجاه القسطنطينية والمضائق . إن اعمال الدول الثلاث في بولونيا حولت نظام التوازن الى « نظام تقاسم » . فهي لم تقض

لمعري على نظام التوازن ، اذ كان على الدول الكبرى أن تتساوى فيما بينها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ولكنها سلمت بحقها في تقاسم الدول الصغرى والدول الضعيفة اذا قضت مصلحتها بذلك . فتكرس بذلك مبدأ الاستخفاف بحقوق الدول ، الذي سيؤدي الى تقسيم اوروبا بين بعض الدول الكبرى المتجاورة ، المتباينة المصالح تباينا مباشراً ، التي ستمسي خلافاتها اكثر تكرراً وأشد خطورة منها في أي عهد مضى . فلاحت في الافق بوادر الحرب الدائمة وخراب اوروبا .

دب الذعر في هذه الاثناء الى السويد وتركيا والبنديقية وكافة دول اوروبا الضعيفة التي ارتعدت هلعاً بانتظار المبعض يوجه اليها . ولكن فرنسا عملت على استبقاء نظام التوازن القديم . فبمساعدة الملك لويس السادس عشر ، حاول « فرجين » الذي اشترك في الحكم منذ السنة ١٧٧٤ حتى ١٧٨٧ ، منع توسع الدول ، وضبطها في نطاق النظام بالتوفيق بينها أو بإثارة الخلافات بينها عند الاقتضاء ، والمحافظة على الدول الصغرى يجمعها حول فرنسا . فكان ذلك تمشياً على سياسة لويس الرابع عشر الاخيرة التي سينتهجها تاليران ولويس - فيليب بدورها ايضا . رفض فرجين عروض النمسا المغربية في المناطق المنخفضة ومصر . فأفلح باستخدام منافس النمسا الجديد ، فردريك الثاني ، في منع جوزف الثاني أولاً وثانياً من احتلال بافاريا (١٧٧٩ و ١٧٨٤) ؛ ووضع حداً سريعاً لمشروع تمساوي روسي يستهدف تجزئة الامبراطورية العثمانية (١٧٨١ - ٨٣) واقصر المكاسب الروسية على القرم دون أن يحصل الامبراطور على شيء . حقق بذلك السلم في البر الاوروبي الذي اتاح له محاربة الانكليز في البحر (١٧٧٨ - ١٧٨٣) ، والاسهام في تحرير المستعمرات الانكليزية الاميركية ، والانتقام جزئياً في معاهدة فرساي (٣ ايلول ١٧٨٣) ، من معاهدة باريس المذلة ، بتجريد انكلترا من أهم مستعمراتها . اضطر الانكليز الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، والتخلي لها عن داخل البلاد حتى الميسيسيبي ، واعادة مينورك وفلوريدا لاسبانيا والسفال و « تاباكو » لفرنسا مع اطلاق الحرية لها بتحسين دنكرك .

استعادت فرنسا بذلك اعتبارها وثقوذها وامن اوروبا . ولكن هذه النجاحات لم تدم طويلاً . فقد شلتها في السنة ١٧٨٧ الازمة المالية وثورة الارستوقراطية . اضطرت فرنسا لترك ملك بروسيا الجديد ، فردريك غليوم الأول ، يمد سلطة القائد العسكري وينظم حلفاً ثلاثياً بروسيا وهولندياً وانكليزياً (١٧٨٧) . اعتبرت كاترين وجوزف الثاني الفرصة سانحة لمهاجمة الاتراك (١٧٨٨) . ولكن الانكليز والبروسيين حملوا ملك السويد غوستاف الثالث على مهاجمة الروس . وحمل فردريك غليوم الأول البولونيين على اصلاح دستورهم ورفض الحماية الروسية . وحرض الهنغاريين والبلجيكيين على الثورة على جوزف الثاني . ولا عجب في ذلك فقد أدى قرارى فرنسا الى انفلات الاطماع . في السنة ١٧٨٩ ، كانت اوروبا متخبطة في ازمة شاملة . وكان اتحاد الدول أبعد منه في أي وقت مضى .

الفصل الرابع

تنوع أوروبا

انطلاق أويقظة العصيان القومية

لم تكن وحدة أوروبا الفكرية سوى صنيع طوائف يسيرة من البشر ، الكتاب ، والعلماء ، وبطائن الملوك . ولكن الروح القومية رأت النور منذ زمن بعيد عند كافة الشعوب . على انها تفاوتت نمواً : ولعل الانكليز والفرنسيين وحدهم الفوا قوميات ، بمعنى هذا التعبير الحقيقي ، اي جماعات بشر مرتبطين بأرض كنفوها وكيفتهم وعالمين بتضامن ، ومصالح مشتركة ، وعادات خصوصاً ، واخلاق ، وأساليب حياة وتفكير ، ومثل أعلى ، اكثر تشابهاً فيما بينهم ، على الرغم مما لا يزال بينهم من اختلافات ، منها بين أية جماعة من البشر المجاورين . الا ان شعوباً اخرى توصلت هي ايضاً الى الوعي القومي توصلاً متباين الجلاء والقوة ، ومختلطاً وضعيفاً احياناً . كانت هنالك وطنية اسبانية حققها الصراع الطويل ضد المسلمين ، ووطنية ايطالية حققتها الغزوات الكثيرة التي عرفتها البلاد وعززتها ذكريات روما ، ووطنية بولونية تأيدت بمقاومة البولونيين للروس والجرمانيين ، ووطنية روسيا اتمتها المسيحية الارثوذكسية التي جعلت الروس ينظرون الى كافة الشعوب نظراً الى هراطقة وبرابرة ، والى روسيا نظراً الى البلاد المقدسة ، الصادقة ، العادلة ، المحبوبة من الله بالذات ؛ وحتى وطنية المانية ايضا . واتضح اكثر فأكثر وعي الاختلافات الجماعية ، واقعية كانت أم خاطئة : « يقال ان الفرنسيين مهذبون وحذائق وكرماء ، ولكنهم متسرعون ومتقلبون ؛ وان الالمان صادقون ومجتهدون ، ولكنهم ثقلاء وسكيريون ؛ وان الايطاليين لطفاء ونباه وعذاب الكلام ، ولكنهم حساد وخونة ؛ وان الاسبانيين متكتمون وفطن ، ولكنهم متحذلقون و متمسكون تمسكاً مفرطاً بالشكليات ؛ وان الانكليز شجعان حتى التهور ، ولكنهم متكبرون ومستخفون و متمجرفون حتى المساواة » .

نمت الروح القومية نمواً كبيراً خلال القرن بفعل سياسة الملوك الذين اخضعوا ولاياتهم المختلفة لعادات مطردة التماثل ، وتنازعوا سياسياً واقتصادياً فأوجدوا بذلك في شعوبهم شعور التضامن والحقد على مصدر الأذى من الجيران ، سواء كانت هذه الأذى مزاحمة ام جيشاً .

وتمت كذلك بفعل التقدم الفكري واتخذت هنا شكل ردة الفعل ضد النفوذ الفرنسي ، موحد أوروبا . كل المثقفين في كل البلدان تتلمذوا على فرنسا . وفرت الروح الكلاسيكية لهذه الاخيرة تقدماً كبيراً وتفوقاً عظيماً . امست فرنسا استاذ أوروبا في المنطق والبيان والجدل . منها تعلم الاوروبيون التفكير وتكوين الافكار وترتيبها والتوسع فيها والربط بينها واستخلاص النتائج المقبولة منها . تزود جميعهم بهذه الكلاسيكية التي يقتصر نتاج اعظم العبقريات بدونها على المقاصد والتخطيطات والوعود والتأليف المرتجلة ، التي تفتقر كلها الى التفتح الكامل . الا ان هذه السيطرة الفرنسية التي رضي بها الكتاب الفرنسيون في البدء باعجاب وامتنان قد ثقلت عليهم ، بعد مرحلة التقليد الطويلة التي يجب ان يمر بها كل تلميذ ، اي بعد السنة ١٧٦٠ ، حين اعتبروا انهم امسوا اسياد تفكيرهم وتعبيرهم . وعوا قوتهم الخاصة وذكاهم الخاص ، وفرت اثرتهم القومية من السيطرة الفرنسية . ألهمهم كبرياؤهم المكثوم ، فانصرفوا ، رغبة منهم في التحرر ، الى نقد الآراء الفرنسية نقداً قاسياً ولاذعاً ، وجائراً في اغلب الاحيان . وقد زاد في عنف هذا النقد انه صدر على العموم في كل بلاد عن اناس منحدرين من تلك البورجوازيات النامية التي كانت اقل تأثراً من الالسياد بالعادات المجتمعية المستوردة من فرنسا وبجياة « الصالونات » التي سمعت كافة الارستوقراطيات وراء تقليدها والتي باتت اسلوباً اوروبياً مشتركاً . انبثق نقدهم عن شعور تعاضل اثناء ردة الفعل المموسة ضد جفاف واضعي دائرة المعارف واثناء ذبوع شهرة روسو فاتخذ طابع الهجوم على مذهب العقليين الفرنسي والكلاسيكية الفرنسية وشيوعية الوطنية الفرنسية . وقد تكلم كل منهم باسم مشاعر قوميته الخاصة ، فتزعزت الوحدة الاوروبية الطالعة .

فاجأ الهجوم الفرنسيين في حالة مقاومة ضعيفة . فالروح الكلاسيكية كانت سائرة في طريق الانحطاط . رأيناها في القرن السابع عشر تصميماً على الكمال وجهاداً يستهدف التوصل بوضوح وجلاء اما الى ادراك الأفكار المتداخلة المتشابكة واما الى ادراك عالم مبهم وصاحب من المشاعر المضطربة ، وجهاداً للتعبير عن هذا الادراك اصدق وأشجى تعبير ، وهذا لا ينقص ثروات الحياة الداخلية ، بل يظهرها علانية تخضع للانسان الذي يستفيد منها . اما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد باتت هذه الروح متمسكة اكثر فأكثر بالشكليات ، وأصبحت مجموع انظمة صارمة تقيّد ، وضوابط تشل ، لا بل افتقرت اللفظة نفسها وأصبحت ضيقة ووجلة ومقتصرة على تعابير عامة او صيغ جاهزة في اغلب الاحيان ، اي انها اصبحت اشد به علم جبر يلزم الشاعر بالتعريض في الكلام ، لا جهداً جباراً في سبيل التوصل الى انبجاس الحياة . والواقع ان انحطاط الكلاسيكية هذا هو نقيض الروح الكلاسيكية . هو ما هوجم بعنف ، وبحق في اغلب الاحيان ، ولكنه اختلط بالكلاسيكية التي لم يكن سوى صورتها الهزلية . وقد امله العديد من الفرنسيين انفسهم . ان عهد الرومنطيقية ابتدأ منذ روسو .

زد على ذلك من جهة أخرى ان روح شيوعية الوطنية ، والاقتناع بأن البشر متساوون

كلهم ، والاعتقاد بوحدة الجنس البشري ، وهي تفرض كلها الوطنية ، اذا احسن فهمها ، بدلاً من التناكر لها ، كما اثبت ذلك الفلاسفة الوضعيون ، قد اضعفت الشعور القومي عند أرفع الفرنسيين ثقافة . الا انها لم تقض عليه في احد منهم ، وقد افاقت الروح الوطنية من غفلتها عند الكثيرين في الملمات الجسام . خلال حرب السنوات السبع ، تبرع مجهزو المراكب وتجار المرافئ بسفن قدموها للملك مساهمة منهم في الحرب ضد الانكليز . وتأثر الفرنسيون تأثراً عميقاً بالانكسارات الخارجية . في السنة ١٧٦٥ مثلت مسرحية « حصار كاليه » مؤلفها « دي بلوا » ، فبكت الجماهير وصغبت ، وامتدحت هذه الرواية البطولية من روايات الصراع القديم ضد انكلترا . ولكن الفلاسفة انحزوا بناء نظرياتهم في حب السلم وشوعية الوطنية في احلك مراحل حرب السنوات السبع ، وانجزوها بسرعة كلية ودون استطلاع كاف (اذ توجب عليهم ، في سبيل النجاح ، الاعاضة من التعليم القديم بتعليم جديد مبني على العاطفة والميل والادعاء في الوقت نفسه بأنه صادر عن العقل دون سواء) . لم يدافع الفرنسيون المستضعفون بقوة عن مراكزهم ، كما لم يصمدوا صموداً قوياً امام غزوة الآداب الاجنبية ، الانكليزية منها ولا سيما الالمانية . منذ السنة ١٧٥٠ ، نشر « غريم » في « ماركور فرنسا » ، بمساعدة ديدور ، رسائل في الأدب الألماني ، وفي السنة ١٧٦٦ ، نشر « هردير » قصائد ألمانية مختارة ، كما نشر في السنة ١٧٦٨ ترجمة « الأغاني البلدية » للسويسري « جسنر » ، وبين السنة ١٧٨١ والسنة ١٧٨٤ ، « تاريخ الفن عند الأقدمين » لـ « ونكلن » . اخذت « النفوس السريعة التأثر » بالطابع البلدي والبطريكي الذي يتميز به الشعر الألماني . استوحى « الأغاني البلدية » « دليل » ومؤلف الامثال « فلوريان » ، و « برناردن دي سان - بير » في كتابه « بول وفرجين » . وأحدثت ترجمة « فرتر » لغوته في السنة ١٧٧٧ تغييراً عميقاً في الحس . فاستوحيت منها « دلفين » ، لمدام « دي ستال » و « ادولف » لـ « بنجامين كونستان » ، و « رنيه » لـ « شاتوبريان » ، و « جوسلين » لـ « لامارتين » . وجاء التأثير الانكليزي ابعداً عمقا أيضاً . فعلى الرغم من استمرار شطر من الفرنسيين في كراهيتهم للانكليز بدافع من وطنيتهم ، استسلمت فرنسا لانكلترا والمجرف في تيار استهواء كل ما هو انكليزي . وقد سلك هذه الطريق امراء العائلة المالكة انفسهم ، من امثال الكونت « دارتوا » ، والدوق « دي شارتر » . وغزت فرنسا حوالي السنة ١٧٧٠ حفلات الشاي ولعبة ال « وست » ، وسباقات الخيل وفرسان السباق والسترة الطويلة المشقوقة الذيل . واستمعوا عن الصالونات شيئاً فشيئاً بنواد تدنت فيها آداب المجاملة مفسحة المجال للهجة الاجتماعات العامة : كل يتكلم بصوت عال ، ويصفي قليلاً ، ويعبر عن مزاجه في صوته ونظراته . وتسربت الى اللانة كلمات انكليزية كثيرة . وانتشرت الحدائق الرومنطيقية على الطريقة الانكليزية في « ارمونفيل » و « باغاتيل » (١٧٧٧) و « بارك مونسو » و « بتي - تريانون » (١٧٧٨) . وقام الفرنسيون بالدعاوة للكتب الانكليزية بتراجمهم . واستقبل الاجانب النتاج الانكليزي خير استقبال لانه يساعدهم على خلق نير فرنسا الفكري .

والواقع هو ان الانكليز كانوا السابقين الى الحقمد بازدرء على الفرنسيين والتشكر للطرائق الفرنسية والذوق الفرنسي . وقد درجوا على القول: « ان تجارتنا ومصانمنا توجب علينا وقوف هذا الموقف » . اخذوا على الفرنسيين تهذيبهم الذي يفقدهم كل شخصية ويسيء الى اخلاصهم . انتقدوا اطعمتهم غير المغذية . اخذوا على اللغة الفرنسية انها لغة بطانة بينارأوا في اللغة الانكليزية لغة اناس احرار تتميز بمزيد من القوة والرجولية . ازدرءوا بالشعر الفرنسي ، والمسرح الفرنسي اسيرالنظم الصناعية والاستبدادية . فهم قالوا بأدب رومنتيقي في الدرجة الاولى . رجعوا الى التقليد والآثار القومية ، الى لغة اكثر تجيزاً ، واكثر اصالة انكليزية ساكسونية ، وأقرب الى اللغة الشعبية ؛ الى الشعر الغنائي الفردي ، الى الايقاعات الشعرية الشبيهة بايقاع الاغاني القديمة والقصائد الاسطورية الشعبية . ادخلوا عناصر جديدة : العبادة الكلفة بالطبيعة ، والمشاهد الليلية ، والمقضة ، والجبلية ، هوى الحس والخيال ، القلق الكوني والديني وحتى القول بالوهية الكون . مهدت « ليالي » « يانغ » المتوفي في السنة ١٧٦٥ ، و « مراثي » « توماس غراي » ، المتوفي في السنة ١٧٧١ ، السبيل أمام هذا التيار الذي برز في مؤلفات « كوبر » ، اول منشدي بحيرات « كبرلند » ، وقصائد « بيرنز » (١٧٥٩ - ١٧٩٦) السكتلندية ، ومكر السكتلندي « ماكفرسون » ، الذي زعم انه اكلشف اناشيد الشاعر القديم « أوسيان » ، والذي تميز بمواطف بسيطة وعنيفة وعرف شهرة فائقة . وعرفت انكلترا هندسة عمارة الحدائق التي تميزت بشلالات الماء والمسالك المتعرجة والاطلال الصناعية ، التي تتعارض كلها والحدائق الفرنسية ؛ كما عرفت المغروشات البلاذرية . وكان لها مدرستها في الرسم التي رأت النور في السنة ١٧٥٠ مع اكاديميتها الملكية التي تأسست في السنة ١٧٦٨ ، وهي تعكس روح تجارها العملية . نجح الرسامون اما في نقد المجتمع واللوحات الاخلاقية والنقمية ، ك « هوغارت » (١٦٩٧ - ١٧٦٤) ، واما في رسم صور اشخاص المجتمع الارستوقراطي ك « رينولدز » (١٧٢٣ - ١٧٩٢) ، و « غينسبورو » (١٧٢٧ - ١٨٨٨) ، و « رومني » (١٧٣٤ - ١٨٠٢) ، و « لورنس » (١٧١٩ - ١٨١٣) ، الذي استهل عمله الفني في السنة ١٧٩٠ بصورة الأنسة « فارن » . وأما النقاش الانكليزية باللون الاسود أو بالتنقيط ، وهي مختلفة عن التقنية الباريسية ، فقد اسهمت في امتداد أثر هذه الفنون الى النمسا والسويد وروسيا .

أما في المانيا ، فما زال هنالك شعور غامض تقديسه ذكريات مجيدة وغير واضحة تركتها الغزوات الجرمانية والامبراطورية المقدسة . وتمكن هذا الشعور بالغيرة من الفرنسيين وعدم الثقة بهم والحقدهم عليهم . استعانت ماري - تيريز وفرديريك الثاني كل بدوره ، على الفرنسيين به الوطن الالمانى العزيز . ايقظت « روسباخ » الروح القومية وألبت الانصار في كل مكان حول فرديريك الثاني ، وغالباً ما دفعت المصلحة الآنية بالامراء الالمانيين الى التحالف مع الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يضمرون في علمهم هذا حقدأ خفياً ، ورغبة دفينة في ابعاد فرنسا عن الرين ، وامل اكمال بهزيمة فرنسية وبتجزئة فرنسا . والحال ، تمزقت مشاعر العداء لفرنسا ، في الثلث الاخير من

القرن ، ينمو ادب الماني ارسخ آراء مشتركة مناهضة لفرنسا وكوئت الامة الالمانية . اعلن « هردر » واصدقاؤه ان اللغة الفرنسية منافية للاخلاق ، ولغة صالونات ، مرنة ، مغرية ، تساعد على المداهنة باسم التهذيب واللباقات ؛ وانها لغة الخيانة والقطيعة بين المتحابين . أما اللغة الالمانية فلا تصلح إلا للتعبير عن الحقيقة . أدى كل ذلك الى تأخر اللغة الفرنسية . فعند وفاة فردريك الثاني (١٧٨٦) ، سارت اكااديمية برلين في تقاريرها ومحاضر جلساتها بين اللغة الالمانية واللغة الفرنسية ، ونقح غوته « وصف رحلته الى ايطاليا » بابدال كافة المفردات الاجنبية المصدر بما يعادها في اللغة الالمانية . وجمل الكتاب اللغة بالكلمات والتعابير الشعبية . وهاجم الالمان « دلسنغ » في « فن وضع مسرحيات همبورغ » ، و « هردر » في بعض مؤلفاته ، الادب الفرنسي ، الجرد والصنعي البساطة ، ولا سيما المسرح الذي تقيده قواعد تناقض الطبيعة ، والذي تعتمد فيه لغة صناعية ، ليست لغة البشر . وأبان لسنغ المضادة بين راسين ، الذي لم يدرك صدقه ولم يعر فيه الحياة ، وبين « شكسبير » و « سوفوكل » . وأعلن هردر نهاية عهد الادب الفرنسي وصرح بأن المستقبل للادب الالمني . وهاجم الالمان الفن الفرنسي . فلم يميز ونكلمن و « منغز » ، لغاية في النفس ، بين الفن الفرنسي والفن التزييني المتبدل ، واعتراضا على الاكثار من النقوش العادمة الاهمية في هندسة العمارة ، وانتقدا الحديقة الفرنسية بسبب انتظامها الذي نعتاه بالممل ، ومخالفة الطبيعة باخضاعها لفكرة ، ونقما على الرسم الفرنسي الذي اتهماه بأنه خلو من الفكر والماطفة ، واطريا الرجوع الى فن العصور القديمة . ولكنها جعلت الفن الفرنسي مسؤولاً عن افراط الفن التزييني الايطالي أو الالمني المتبدل رغبة منهما في افقاده هالة الاعتبار التي تحيط به ، مهما كان الثمن . وأطرى المان آخرون الفن القوطي الذي اعتقدوا بهويته الالمانية . فقد هتف غوته بسذاجة امام كاتدرائية ستراسبورغ : « هذا فن الماني لا نرى له نظيراً في فرنسا » . وكان عليه قبل التصريح بذلك ان يقوم بنزهة في المنطقة الباريسية ، مهد هذا الفن الذي دعي بالقوطي اصطلاحاً . وحارب الالمان الفكر الفرنسي . اعتبروا الفرنسيين اكثر سطحية والانكليز اكثر شوانية وسعياً وراء الرخاء من أن يصبحوا فلاسفة . وقد ارتأوا ان الالمان وحدهم قادرون على استنباط الفكر بما يتوفر لهم من عقل واتزان وميل الى البحث وبذل الجهد . وفي رأيهم ان واضعي دائرة المعارف قد طلعوا بالحماقات احياناً . فالمرء مشدود الى وطنه بكافة مصالحه ، يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ولكنه اكثر شداً إليه بأجداده وتربيته ومنافعه وتملكاته وكل كيانه : انه مدين له بكل شيء . على الالمان ان يرقضوا تقليد الفرنسيين ويكونوا الماناً فقط .

وتباهى الاسبانيون ، بلسان الأب « فيخو » ، بأن لغتهم رنانة وموسيقية ومرنة اكثر من اللغة الفرنسية . ودافع اليسوعيون الاسبانيون المطرودون انفسهم دفاعاً حاراً عن الشرف القومي . وفي السنة ١٧٨٣ ، نشر الأب « فرنسكو دي ماسدن » تاريخاً نقدياً لاسبانيا احصى فيه امجاد بلاده وجهد في تقديم الدليل على انها مدينة بها لفضائلها الخاصة لا للاجنبي . وتميز

سواد الاسبانيين باحتقار الأجانب وبالأمانة الراسخة للملك والمعتمد القديم والوطن .
وكان للايطاليين لغتهم ومؤرخوهم وشعراؤهم القوميون وشعورهم بوحدة المنشأ ووحدة
الطباع ووحدة الشرائع المدنية . وكانوا تواقين الى قيام اتحاد ايطالي . اخذوا يعارضون على
تلقب الايطالي غير الميلاني بالغريب في ميلانو : اذ ان الايطالي في وطنه حينما وجد في ايطاليا .
اخذوا على اللغة الفرنسية قلة مفرداتها وافتقارها الى الايقاع والموسيقى والروح الشعرية . حلم
« فيكو » بايطاليا متجددة . وحاول « موراتوري » و « ديننا » انهاء الوعي القومي بالتاريخ .
وفي قصائد ومسرحيات تستوحى الوطنية الرومانية القديمة ، دعا « ألفييري » ايطاليا الى النهضة
في ساحات الوعى . كتبت كاترين الثانية في السنة ١٧٨٠ : « ان ايطاليا تلتظر وترجي » . لم
تعد اليقظة حلماً .

أما اشرف روسيا فقد تلهوا بتلاوة جمل بالفرنسية دون أن يتكلموا اللغة الفرنسية .
واعتبروا الآراء الفرنسية مُلححاً ونكاثاً ، فلم تؤثر فيهم تأثيراً يذكر . وبقي الروس روساً
يحتقرون الاجني .

فاذا ما حافظت اللغة والفكر الفرنسيان على تفوقها في السنة ١٧٨٩ ، فان هذا التفوق قد
تجاوز القمة والمحد في طريق الهبوط . ولكن هذا الفكر وهذه اللغة هما ما اعطى اوروبا
وحدتها الوحيدة . فكانت الغلبة للتنوع في النتيجة . وفقد الأمل تدريجياً بقيام وحدة اوروبية .
وضمف بهذا فقدان ، حق قبل أن تحقق دول اوروبا اقصى توسعها في العالم ، الامل بسيطرة
اوروبية دائمة على العالم اجمع ، وربما الامل بنشر لواء الحضارة الاوروبية في كافة انحاء العالم .

١٧- مَنظَرٌ حَدَاثِقٌ بِأَعَايِلِ







١٩- تراكيبية يكدون طخامهم

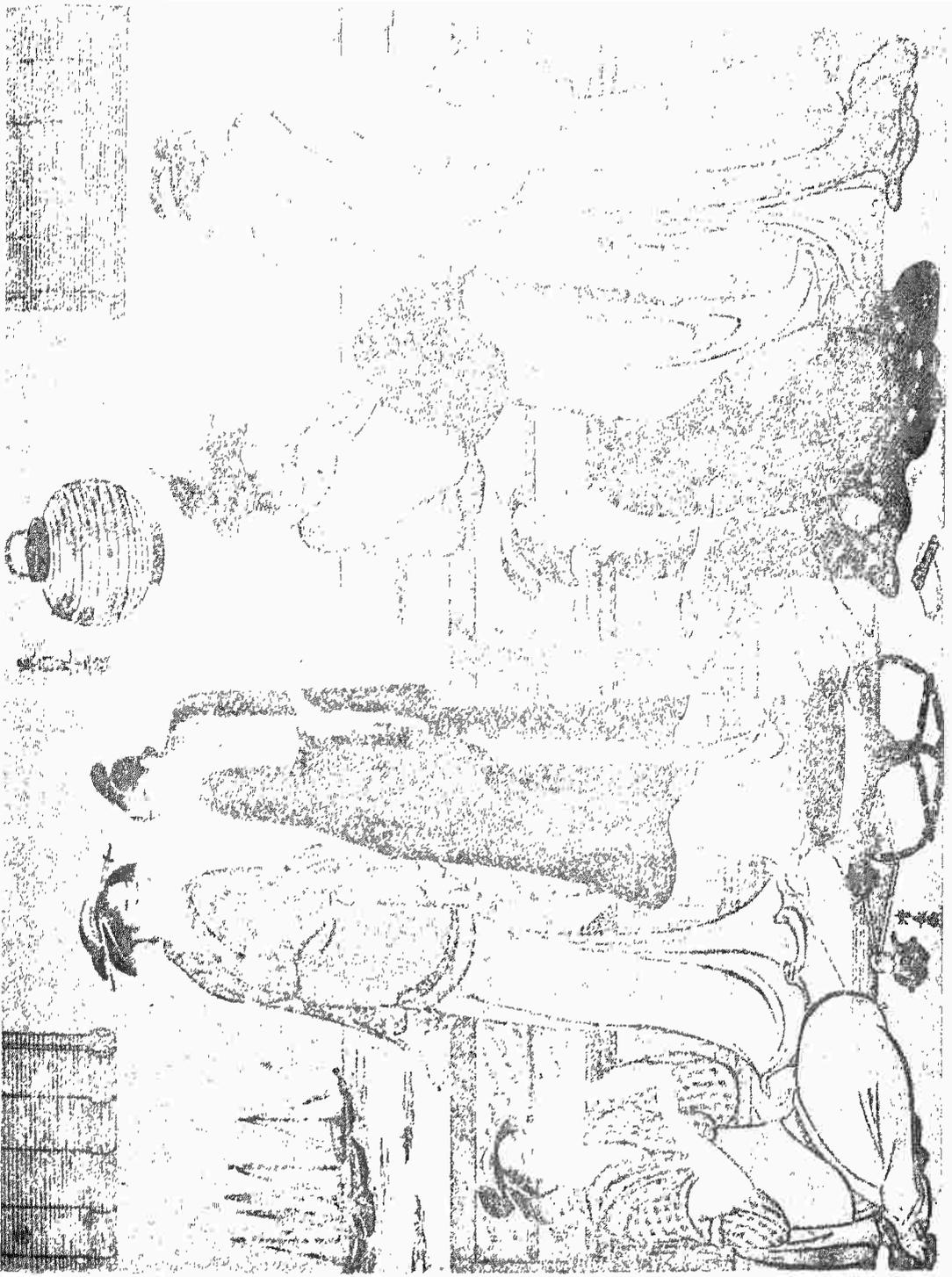


٢- منظر جزيرة "ايلانتيا"











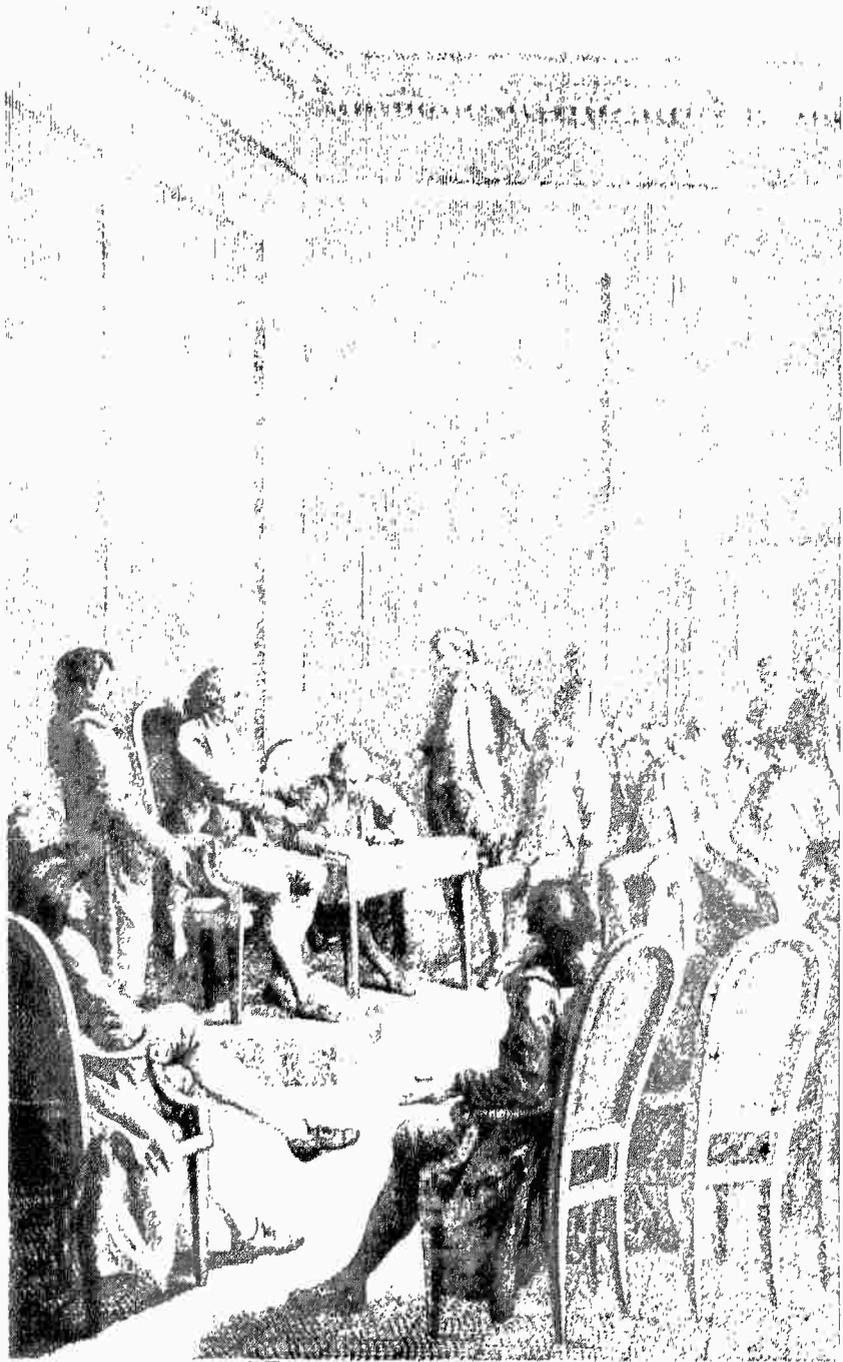
٢٥- وصول طليعة عملاء الأثارة الى قصر



٢٦- النخاسة في المرتينيك



٧٧- فساء ايدتون في كارولينا الشماليه يا تلين على الامتتاع
عن احقساء الشاي حتى انقاذ بلا دهن !



٢٨- جمعية الكونغرس الاميركي الاول



٢٩- نزهة عند أسوار باريس



٢٠- عميد الحيثية مدينة باريس على نهرا لتسين عام ١٧٢٩



٢١- هي التويلري مع بناء الجمعية ومبنى العتوبيين



٣٢- مشهد احد الشوارع : منشأ الاناسييد

حضارة الانوار وحضارات ما وراء المحيطات

انتشار الحضارة الأوروبية بعد ان تم للاوروبيين الاستبحار بامسور الفلسفة الطبيعية ، وتوفرت لهم خير الوسائل العملية (١) ، انصرفوا لاستكشاف عوالم جديدة وراحو يوغلون عميقاً في المعروف منها لديهم : وقاموا بفتوحات واتصلوا بشعوب جديدة وزادوا كثيراً من معارفهم ، فانتشرت الحضارة الأوروبية في هذه البلدان والاقطار التي شغلها الاوروبيون ، وراح جانب محترم من ابناء هذه البلدان ما زال مع ذلك ضعيفاً جداً اذا ما قارناه بالسواد الاعظم من سكان تلك الاصقاع ، يقبس ، ما وسمته الحيلة ، الافكار الأوروبية .

لا بد من ان نلاحظ ، بدء ذي بدو ، هذا الفارق الكبير بين حضارة الشعوب والاقوام القاطنين ما وراء المحيطات ، وبين حضارة الاوروبيين . فقد وجد هؤلاء امامهم اجناساً بشرية من مستويات حضارية مختلفة : هؤلاء من العصر الحجري ، وأولئك من يعملون في رعي الماشية ، جميعهم من العقلية الميبية او على النظام اللاهوتي ، اي انهم كانوا يعملون ، على تفاوت بينهم في مستوى النضج العقلي الذي بلغوه ، الظواهر الطبيعية التي وقعوا تحت تأثيرها ويردونها الى ارادات شبيهة بارادة الانسان ، انما من عيار اقوى وادهى ، ومن قدرات افعل ، كالارواح والأبالسة والآلهة . وكان من المتوجب على هؤلاء الاقوام ان ينتقلوا سريعاً من المذهب الحيوي الذي يقول بوجود الارواح في الحيوان ، ومن الشرك الذي يهيمون في ضلالاته ليصلوا تدريجياً الى عقيدة التوحيد ، اي الى طور التجريد والميتافيزيقا . وهو طور يحارل فيه الانسان تفسير كل شيء برده الى هذه السكائنات الجبارة ، كالطبيعة مثلا ، لينتقلوا منه الى الدور الوضعي او العلمي ، وهو ما يميز فلسفات الاوروبيين او بطبع تفكيرهم ، في القرن الثامن عشر ، هذه الافكار التي تأرجحت بين هذه الادواز الثلاثة التي بلغ اليها الانسان ، اذ ذلك ، مع تغليب العنصر الميتافيزيقي او الوضعي .

(١) راجع الكتاب الاول والثاني

ومن جهة اخرى ، فالسواد الاكبر من الاوروبيين الذين خرجوا من اوربا للعمل في البلدان الواقعة عبر المحيطات والميش فيها طلباً للرزق ، انما هدفوا في الدرجة الاولى ، للعمل في مجالات التجارة . فالفكرة الرئيسية التي سيطرت على هذه الجماعات وعلى الحكومات والهياث الرسمية انما كانت الحصول على المال والاثراء السريع . ويرى البعض ان العصر سجل شيئاً من التأخر في هذا المضمار بالنسبة للمصور السابقة . فمُنذ القرن السادس عشر ، قام الاسبان فعلاً بمحاولات ملحوظة ، وجهود مبذورة رموا منها الى رفع الهنود المحرفي مراتب السلم الاجتماعي . وفي القرن السابع عشر ، تجنّد الوزير ريشليو وتلميذه ككولبير ، لعملية تمدين ابناء البلاد الاصليين ، واسعة النطاق ، ولانشاء فرنسا الجديدة في العالم الجديد . اما في القرن الثامن عشر ، فقد شالت الروح البورجوازية ، واستبدت في النفوس ، روح الكسب والاثراء على غيرها من المشاعر الإنسانية الرفيعة . فلنُصنع لما يقوله الكتاب الفلاسفة الذين عبروا احسن تعبير عن احساس الطبقة البورجوازية ومشاعرها، أمثال مونتسكيو وفولتير والكتّاب الموسوعيين خصوصاً سياسة الاستثمار واعداء الداعين اليه، هذا الاستعمار ، مولّد الحروب ، والباعث على الاغتراب والهجرة ، والمضني للمعمرين ، مع انهم كانوا ، من جهة اخرى ، من أشد الداعين الى المزدروعات الاستثمارية ولا سيما الاستوائية منها لانها تمد المستثمرين بالمواد والمحاصيل الزراعية التي هم بأمر الحاجة لها والتي في سبيلها اجازوا الرق وابعوا الاسترقاق ، كما ابعوا طرد العروق والاجناس الوطنية الواقعة حصر عثرة في طريق المستعمرين والحد من حرية العمل عندها ، والقول ببدا « الحكر » هذا المبدأ الذي يمحصر حق التجارة في المستعمرات بالدولة الأم . ولهذا الاعتبار ، أثرت الدول والحكومات ان تترك حرية العمل والتصرف في هذا المجال للشركات التجارية ذات الامتياز التي تعرف كيف تستثمر ، على الوجه الاكمل ، المرافق التجارية ممثلة بهذه الوكالات التي نثرها على السواحل البحرية ، عبر البحار او في هذه الجزر المعروفة بخصبها ووفرة انتاجها وتنوع محاصيلها ، بدلاً من استثمار التاج نفسه لها ، وبدلاً من تدوين مساحات شاسعة عبر البحار في حروب لا نهاية لها ولا حد . فالاوروبيون الذين يقبلون على الاغتراب هم على الغالب بحارة وقدامى المحاربين وتجّار يفتقرون ، اصلاً ، لثقافة معرفة ، عرفوا بنشاط عارم وجاشت نفوسهم بالاحاسيس الغنيمة ، وحب الكسب والرغبة الشديدة في الاثراء السريع بجميع الوسائل الممكنة . ولذا نظر اليهم سكان البلاد الأصليون نظرة ملؤها الرعب والكراهة وربت فيهم سوء الظن وحملتهم على التحرز من كل اوروبي . اما اقوام آسيا ، ولا سيما من قام منهم في أرجاء آسيا الموسمية والذين عُرف عنهم تمسكهم الشديد بتربة آباءهم وارض آلهتهم واجدادهم ، فقد عاشوا ضمن اطر ثابتة قوامها هذه الاسر الكبيرة التي تشربت روح النظام وتشبعت من روح الاعتدال واستقرت عندها نَظْمٌ داخلية ثابتة ، اصيلة ، فقد نظروا الى الاوروبيين نظرهم الى برابرة اخشوشنت طباعهم على استعداد للتخلي عن اسمي المثل والمبث باقدس الحرمات في سبيل إشباع جشعهم وتحقيق

اطماعهم الاشعبية . وقد رأى فيهم الصينيون ... ان هؤلاء البرابرة هم بالاحرى وحوش ضارية ، لا تحسن معاملتهم معاملة ائام متمدينين . فمعاملتهم وفقاً لناموس العقل ولتقتضيات الحبحى مجلبة للخزي والعار . وقد ادرك الملوك قديماً هذه الحقيقة ولم يستعملوا في وجه هؤلاء البرابرة سوى العنف والحيلة . فليس من اسلوب آخر يعتمد عليه في التعامل معهم .

والاوروبيون الوحيدون الذين تقدموا من ابناء البلاد الاصليين بفكرة تزويدهم بخير ما لديهم واعطاهم فكرة عن العالم والكون اساسها المحبة التي تستطيع وحدها ان تؤمن للناس ، في هذا العالم ، السعادة ، وفي تلك الحياة الابدية ... كانوا المرسلين الكاثوليك . فقد تولى البابا ادارة هذه الارسلالات بواسطة مجتمع انتشار الايمان الذي كان بمثابة وزارة الارسلالات الكاثوليكية . فكان هذا الجمع ، يرسل الى البلدان التي يركز فيها بالانجيل ، قصاداً رسوليين وابناء الرهبانيات الدينية ، ولا سيما من بين اليسوعيين والدومنيكيين والفرنسيسكان والكرمليين والاغوسطونيين ، وجمعية المرسلين في الخارج ، والآباء اللعازريين . الا ان عددهم كان قليلاً جداً . فلم يتجاوز عدد المرسلين اليسوعيين العاملين في الارسلالات الدينية ٣٥٠٠ راهب في العالم كله ، وقل من هذا العدد ، عدد المرسلين الآخرين . وجمعية المرسلين في الخارج لم يتم لها اكثر من ٥٠ مرسلوا عملوا معاً في بلدان الشرق الاقصى . وقد خسرت هذه الارسلالات من فعاليتها وقوة تأثيرها بالنظر لما قام بين المرسلين من اختلاف حاد حول منهجية العمل وطريقة الاسلوب ومن جدل ونقاش ضار حول طريقة الآباء اليسوعيين في حمل الرسالة الدينية (معركة الطقوس) ، وهذه المناقشات الحادة التي شجرت بعنف بين هؤلاء الرهبان والمرسلين على اختلاف رهبانياتهم وجنسياتهم ، ولا سيما من جراء تكالب الملوك على مناهضة اليسوعيين ومحاربتهم بكل الوسائل لديهم ، منذ عام ١٧٥٨ ، مما ادى الى الغاء هذه الرهبانية عام ١٧٧٣ ، فادى بالتالي الى القضاء تقريباً على كل النشاط الرسولي في العالم . وفي سنة ١٧٨٩ ، كان عدد المرسلين العاملين في حقول الرسالات قد هبط الى ٣٠٠ مرسل لا غير وقد خلخل عملهم الديني ، تدخل التجار والحكومات التي تدعي المسيحية ، ومن جهة اخرى ، سوء ظن اسباب البلاد هؤلاء المرسلين ، اذ نظروا اليهم نظرتهم الى جواسيس يعملون عيوناً على البلاد واهلها ، بل اعتبروهم طاغوراً خامساً يعد العدة ويهيئ الاسباب للغزو وافتح مسلح . لهذه الاسباب ولغيرها مما لا مجال لذكره هنا ، كان عمل المرسلين في البلاد التي عملوا فيها ، اشبه ما يكون مساً سطحياً اكثر منه توغلاً او تغللاً . والاعرب من هذا كله وادهم ما في الامر هو ان تكون هذه الرسالات سجلت اكثر من ارتدادات فردية ، فقد توصلت الى تأسيس مجتمعات مسيحية لها حياتها ونشاطها الزاخر وعوامل بقائها وديمومتها .

الفصل الأول

الاكتشافات الأوروبية في القرن الثامن عشر

في مطلع القرن الثامن عشر كانت مساحات شاسعة في جميع اطراف العالم لا تزال بعد مجهولة مغلقة، منها مثلاً المحيط الهادي والاصقاع القطبية وبجبال افريقيا والقسم الشمالي والشرقي الشمالي من القسارة الآسيوية ، والشمال الغربي من القارة الاميركية واجزاء واسعة في اميركا الجنوبية . هنالك شعوب وأقوام وطنيون تعرفوا إلى مساحات واسعة وتوصلوا أحياناً إلى وضع خرائط ومصورات جغرافية . إلا أن معلوماتهم هذه لم تكن من الذبوع والشمول بحيث تصبح في متناول كل شخص في كل زمان وفي كل مكان ، لافتقارها أساساً لعلامات مادية ومعالم واضحة الحدود ولحاجتها إلى وسائل حسابية دائمة ، ولافتقارها لعلم الفلك والرياضيات الفلكية . فقد كانت بالأحرى ، مسائل روتينية تحفظ بالزواطة والمراس في هذه الاسفار والرحلات تحت اشرف مرشد مجرب ودليل محنتك . فالأوروبيون وحدهم كان في مقدورهم ، بفضل ما توفر لهم من علماء الفلك وبفضل ماتم لهم من عدة وأدوات ، أن يحددوا ، بالدقة المطلوبة ، الاكتشافات الجغرافية التي حققوها وأن يثيروا إليها بواسطة الاحداثيات الجغرافية وغيره من وسائل التعمين والتحديد .

كانت الاكتشافات البحرية ، حتى عام ١٧٦٣ قليلة العدد ، إذ كان الاوروبيون في الغرب منهمكين عنها بالاعمال التجارية . وهذه الحركة الاستكشافية التي لم تتميز على العموم بالنشاط ، تنازلت الكشف عن مناطق تقع في اليابسة أو في البحر ، فالرحلات الرئيسية هي التي قام بها الروس فحملتهم إلى أقصى أطراف سيبيريا . فقد بلغ القوزاق ، في القرن السابع عشر ، مشارف المحيط الهادي ولكن كان عليهم أن يأتوا بالدليل القاطع على ان آسيا لم تكن لتتصل فعلاً بأميركا . وقد اخذ القيصر بطرس الأكبر عام ١٧٢٠ ، بهذه المغامرات الجغرافية وهذه الحركة الاستكشافية ، رغبة منه في السيطرة على هذه الاصقاع النائية ، ومجاعة للغرب في ميدان الكشف العلمي . فقد حالف الحظ البحار الدانماركي بهرينغ ، في الكشف عن المضيق الذي يحمل اسمه ، منذ عام ١٧٢٠ ، ثم راح يستكشف تباعاً سواحل اميركا الغربية انطلاقاً من قمة جبل سانت ايلي فعلم على الجزر اللوشيانية الملتثة بحباتها كحبات سبعة طوبولة ، وتوفي في إحدى

جزر بحر بهرينغ الواقعة بين الجزر الالوشيانية وشبه جزيرة كمتشكا ، سنة ١٧٤١. وتمكن أحد نوابه ومساعديه النشيطين من الكشف عن بحر او كوتسك ، عام ١٧٣٣ ، كما استكشف أرخبيل الكوريل ، وبلغ مشارف اليابان . أما على اليابسة ، فقد بلغت بعض فرق الجيش حوض مجرى نهر «الإيانا» عام ١٧٣٣ ، كما استكشفوا بواسطة زلاجات تجرها الكلاب ، شطآن المتجمد الشمالي ، كما قام «لايتيف» بين (١٧٣٦ - ١٧٤٠) وبروتشيتشف ، عام (١٧٣٥ - ١٧٣٦) بمغامرات بهذا الصدد . واخيراً بلغ تشيليو سكين عام ١٧٤٢ ، الطرف الشمالي لآسيا إذ ادرك الرأس الذي يحمل اليوم اسمه . وقد أثبتت هذه الكشوف الجغرافية المهمة ان القارتين منفصلتان تماماً الواحدة عن الاخرى وأن كل واحدة منهما تحفي ضمن حدودها مناطق شاسعة يتحتم الكشف عنها . وقد بقيت تقارير بهرينغ مدفونة بين المحفوظات الامبراطورية ليس من يفيد منها ولا من ينتفع بما فيها من المعلومات المفصلة حتى اواخر القرن الثامن عشر بعد ان كشف العالم الجغرافي « كوكس » والعالم الطبيعي بلاس عن اهميتها العلمية .

في اميركا الشمالية ، استمر أفراد اسرة «لافيراندرى» الفرنسية تحت رعاية بوهارنيه حاكم كندا العام وحمايته ، في بحثهم عن الفراء ، ورغبة منهم في الوصول الى «بحر الغرب» ، رأوا أن يكرسوا كل نشاطهم باحثين منقبين محددين المسالك باتجاه الشمال الغربي ، فاستكشفوا في خلال ٢٠ سنة السباسب والسهول الكندية كما ان بيير وفرنسوا لافيراندرى بلغا ، في غرة كانون الثاني ١٧٤٣ ، السلسلة المعروفة بالجبال الصخرية .

ووضع الكاهنان الفرنسيان فوييه وفريزيه كشوفاً وخرائط لاميركا الجنوبية مفيدة للغاية . وقام بالعمل ذاته المستكشف الاسباني كيروغا في ما يتعلق بالاصقاع النائية الى اقصى الجنوب المعروفة باراضي ماجيلان .

اما المحيط الهادي ، فقد شاهد رحلات استكشافية عديدة ، منها الرحلات البحرية التي قام بها بين ١٧١٤ - ١٧١٨ ، البحار الفرنسي لابارينه لوجنتيل والبحار الالماني الاصل « روجيفين » من مدينة مكلنبورغ اذ قام في هذا المحيط ، برحلات لحساب البلاد الواطئة ، عام ١٧٢٢ ، استكشف معها جزيرة الفصح ، وجزر بوموتو وساموا ، والرحالة الانكليزي أنسون (١٧٣٩ - ١٧٤٣) الذي احتجز ، في المياه الاسبانية سفينة عليها مجموعة من الخرائط والمصورات الجغرافية ، فكانت لقطعة موفقة للغاية إذ اعتاد الاسبان والبرتغاليون من قبل ، أن يبقوا سرّاً ويخفوا عن اعين الناس ، سر الاكتشافات البحرية التي وفقوا إليها لمحافظة منهم على طرق مواصلاتهم التجارية . وقد سهل نشر هذه الوثائق الهامة وإذاعتها على الملأ ، مهمة الاستكشافات الجغرافية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

لم تلبث حركة الاستكشافات الجغرافية التي توقف نشاطها اثناء الحروب التي وقعت في منتصف القرن - ان استأنفت اعمالها العلمية بعد عام ١٧٦٣ . فقد جاب هيرن وماكنزي ،

بطائح شمال كندا . فبلغ الأخير منها ، عام ١٧٨٩ ، دلتا النهر الذي يحمل اسمه في هذه المنطقة . اما الاكتشافات الداوية فهي تلك التي قام بتنظيمها واعداد اسبابها الحكومتان الفرنسية والانكليزية ، في سبيل الوصول الى القارة الاوسترالية (او الجنوبية) التي صافتها العلماء ، منذ بطليموس ، يفترضون وجودها مقابل هذه الكشوف القائمة في الشمال . وقد زاد الفضول العلمي بين الناس وحسب الاطلاع ، كما ينوه بذلك السكاتب والمؤرخ الفرنسي شارل دي بروس ، في كتابه الموسوم : « تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي الاوسترالية » (١٧٥٦) ، اذ يقول : « يجب الا نعلق أهمية كبرى على الفوائد التي تنجم عن هذه المغامرات ، فهي ستظهر ، ولا شك ، فيما بعد . علينا ان نفكر الآن بالناحية الجغرافية ، وبهذا الفضول العلمي الناجم عن الكشف وما سيضيفه الى العالم المعروف من اراض جديدة ، كانت بالامس مجهولة لدينا ، كما ستمكننا من التعرف على اقوام جديدة » . وقد عمل جون كالندر (J. Callender) من جهته على نشر مثل هذه الأفكار ، في انكلترا ، مبرأ عن امانيه واماني الجبيع بان يقول هذا النشاط كله فيساعد على نشر المسيحية بين سكان البلاد الأصليين . وقد وضع الملوك ، في هذه القرارات التي اتخذوها ، نصب أعينهم ، شغف الناس بالعلم واقبالهم على حياته . فقد اوصى الملك لويس السادس عشر ، امراء البحر الفرنسيين ، إذا ما اتفق لهم والتفوا بالبحار الانكليزية كوك الذي يحاول مد العالم المعروف ، خلال حرب اميركا ، ان ياملوه معاملة الند للند ، كصديق ورفيق لهم . ولما كان الهيام بالعلم من الامور التي استحككت بالعقول واستبدت بالقلوب ، وتهددت الامال العريضة على اكتشاف اصقاع جديدة ، حصر من الحكام على ان يحافظوا كرامتهم ويصون عندهم ماء الوجه . واخيراً ، كما يجب ان تكون والمره التي هذه القارة الجنوبية في نظر الفرنسيين ، ليموضوا بمشورم عليها ، عن الحيف الذي نزل بهم من جراء خسارتهم الهند ، كما هم الانكليز ان يحافظوا ، من جهتهم ، على السبق الذي حققوه في الميدان التجاري .

وقد اخذوا يمدون الحملات الاستكشافية بنسب الدقة ويبتشوا لها الاسباب الكفيلة بالنجاح . فبدلاً من التعويل على الاقارب والروايات المتواترة ، راح قادة الحملات وربابتهس يتردون بمعلومات دقيقة وضما لعيف من العلماء المدققين بعد ان لغتوا انظارهم الى المراقيل والصعوبات التي تملأ سبيلهم ، وطريقة مواجهه حلها بالتي هي احسن ، والاهداف التي يجب ان يضمنوها نصب أعينهم من هذه المامرات العلمية . وقد اصطحبوا معهم فريقاً مجرباً ، حنكته التجارب من هؤلاء العلماء ، بينهم علماء الفلك والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي وأمدتهم يادهم ما استلبط العلم من عدة وأدوات ووثائق هي غاية في الدقة والضغط . وعند رجوعهم الى اوطانهم كانوا يحرصون على اذاعة ما تم لهم من معلومات جديدة ليبيد منها من يرغب فيها .

اعتمد قباطنة البحار بالأسرى ، سفناً صغيرة الحجم سقتها بين ٣٠٠ - ٤٠٠ برميل وذلك تعادياً منهم لأخطار الجنوب في الرمل أو الجنوح الى الشواطئ او الغرق . وحرصوا على ان

تكون سفنهم هذه متينة قوية ، أردفوها بعدد من فوارب النجدة ، كما حرصوا من جهة اخرى ، على تأمين أسباب الصحة واختزان مييدات الحفر ، وموتونها بالجمعة والشوكروت ، وهكذا حاولوا خفض نسبة الوفيات . ففي حملته الثانية التي استمرت ثلاث سنوات ، لم يخسر كوك سوى ببحار واحد ، وبسبب المرض .

وانخذت احتياطات شديدة اثناء الرحلة . فقد كانت البعثة تتألف جهد المستطاع ، من سفينتين تسييران على بعد مدى الصوت ، الواحدة من الاخرى . وكانت تكثر فيها اعمال الرصد الجوي ، كما تكثر عمليات تحديد المواقع وسبر الاغوار على اعماق مختلفة . فمتدما تلوح في الافق معالم ارض ما ، مها دقت او رقت ، كانت السفن تسيير الهويناء متمهلة في سيرها الوئيد فتقوم بعض القوارب بعملية استكشاف سواحل الجزيرة البادية للعيان . وكان التحفظ والحيطه القاعدة المتبعة مع أبناء البلاد ، اذ العرف المتبع هو ان تسيير السفينة الهويناء الى ان يحين الظرف المناسب لمبادرة السكان الوطنيين واستمالتهم عن طريق هدايا صغيرة والتتكب عن كل عنف او شدة في علاقاتهم معهم .

وبفضل هذه التدابير الحكيمة واجراءات اللين لم تقع سوى كارثة واحدة هي التي راح ضحيتها الرحالة الفرنسي لابيروز الذي قتل عام ١٧٨٥ على يد بدائيي جزيرة فانيكورور .

وفي عام ١٧٦٦ ، ابجرت بمثنان على فارق بسيط الواحدة من الاخرى ، تألفت الاولى وهي انكليزية ، من البحار واليس و كارترت ، كما تألفت الثانية من البحار الفرنسي بوغانفيل . فلم يعتم البحاران الانكليزيان ان افترقا فانفصلا إثر إعصار أهوج عبث بها إثر اجتيازهما مضيق ماجلان بقليل . فقد انجحه واليس صوب جزيرة بوموتو ، واكتشف عام ١٧٦٧ ، جزيرة تاهيتي التي فتلته بسحرها وغادرها والدموع ملء عينيه ، ومنها بلغ جزيرة ساموا وارخبيل الاصدقاء ، كما اكتشف جزر الماريان . اما كارترت ، فقد امر بمحاذاة جزيرة بتكيرن الصغيرة ومنها افضى الى جزيرة سانت كروي ، وعرج على جزر سلون واستكشف جزيرة إرلندا الجديدة . واتضح من هذه الرحلات ان جزيرة بريطانيا الجديدة انما تتألف من جزيرتين : اما نتائج هاتين الرحلتين فلم يحد من التوفيق الذي صادفها سوى عدم كفاءة الإعداد الذي رافقها . وقد اضيفت بواسطتها اسما جديدة على خريطة المحيط الهادي . اما بوغانفيل ، فقد انطلق وبصحبه احد علماء الفلك ، وآخر من علماء الطبيعة وتحت تصرفه عدد من الساعات الدقيقة التي تقيس الثواني . ففي عام ١٧٦٨ ، حدد موقع جزيرة بوموتو ، واستكشف ، هو الآخر ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وسهاها سيتر الجديدة . واستكشف جزر ساموا وجزر السيكلاك الكبرى التي اطلق عليها كوك ، فيما بعد اسم هبريد الجديدة ، وجزيرة لويزياد وغينيه الجديدة ، وعاد عن طريق جاوا وجزيرة فرنسا . فكانت رحلته هذه اول رحلة جاءت غاية في الدقة العلمية جرى فيها تحديد خطوط الطول . وفي سنة ١٧٧١ ،

نشر بوغانفيل رحلته بعنوان : «رحلة حول العالم» لغيت عند ظهورها رواجاً جنونياً أوحث اموراً لديدرو ولهردر .

ولكن هؤلاء البحارة الذين سيطرت عليهم فصحرة المستعمرات الحارة التي ذُلف بجبالاً تجارياً هاماً ، انجسوا ، بعد ان داروا حول اميركا الجنوبية نحو الشمال الغربي ، الى ما وراء خط الجدي ، ثم داروا فجأة باتجاه الغرب ، محتفظين بجمل نشاطهم للشمال . وقد جاءت رحلاتهم هذه بفوائد جمة الا انها ركزت دون حل ، مشكلة كبيرة استأثرت بافكار الناس ووساوسهم . هل يوجد يابري قارة اوسترالية جنوبية ؟ وهذه الارض التي اكتشفها تسان ، في القرن السابع عشر (زيلاندا الجديدة) لم تكن هي نفسها هولندا الجديدة ؟ (ساحل اوستراليا الغربي) وهذه الاخيرة هل هي سلباً ام ايجاباً ، غيلية الجديدة . كل هذه الأسئلة كان على الرحالة الانكليزي كوك ان يجيب عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

قررت الاميرالية البريطانية ان توفد الى جزيرة تاهيتي ، بعض علماء الفلك ليقوموا عليها ، عام ١٧٦٩ ، بأرصاد جوية ترمي الى درس وقوع اقتران الزهرة والشمس ، بغية لتحديد المسافة بين الزهرة والارض . واختارت الاميرالية قائداً للبعثة جيمس كوك ، وهو اختصاراً في محله صائد ترحيباً حاراً . فقد كان كوك بحساراً بدمه . ولد عام ١٧٢٩ من آب كان يعمل خادماً على المهرات ومن أم هي ابنة احد المزارعين . عمل في صباه صانعاً متمرناً في مدينة صغيرة تقع على الساحل . مال للحياة البحرية منذ صغره فتطوع بحاراً متمرناً على احدى السفن العاملة في شحن اللصم ، وفي سنة ١٧٥٥ ، عمل لوقتاً في البحرية الملكية ولمع اسمه في حملة استكشاف لمصب نهر سان لوران ، اتاحت للاسطول البريطاني التصعيد في النهج المذكور واحتلال مدينة كوبيك . ولذا عهدت اليه في السنوات الأربع التالية مهمة استكشاف سواحل كاديا (ايكوسيا الجديدة) وجزيرة الارض الجديدة ، وشبه جزيرة لابرادور . ووضع لهذه الأماكن والمواقع خريطة امتازت بالدقة بقيت عماد الخرائط التي وضعت فيها بعد هذه المناطق . وهكذا فقد كانت تمت له الدربة الكافية لرسم الخرائط الجغرافية والمائية ، كما تفرس بالارصاد الفلكية واجادها . وقد عرف بانظروائه على نفسه وبفلة محالطته للبحارة ، كما انه امتسار ببناء عديده جعلت منه بحاراً ممتازاً وأولته قدرة ظاهرة على التنظيم ، كما تعرف بروح الانسانية السمحاء وبمحبته على البحارة والاهتمام بذويهم وتأمين أسباب الصحة والرفاهية لهم . ولذا فقد كان في مكنه ان يمول عليهم وان يطلب منهم الكثير .

عهدت اليه عام ١٧٦٨ ، مهمة البحث عن القارة الاوسترالية حتى الدرجة ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وان يقوم ببحث دقيق بهذا الصدد ، فان لم ينجح ، عليه الاستيقاق من المنطقة الواقعة الى الشرق من زيلاندا الجديدة ، فراح يستمد لرحلته هذه ويهيئ لها أسباب النجاح ، وفي هذا السبيل اخذ يجمع المعلومات التي توفرها له الرحلات البحرية السالفة . فقد كان يدرف تماماً خريطة المحيط الهادي العامة التي تم رسمها عام ١٧٥٦ والتي اشار فيها روبرت دي فوغوندي

الى موقع مضيق توريس الذي أهمل امره منذ عام ١٦٥٧ وهو موقع جغرافي اشارت إليه ونوهت به الخرائط السرية الاسبانية . ولم يكن ليجهل بالطبع في هذا المضيق التخطيط المقترض وجوده في الخريطة المنسوب وضما الى «دال رابل» والذي عرف بوجوده عند استيلائه عام ١٧٦٢ على مدينة مانيلا هذه الخريطة التي لم يشأ ان يفسرها كاملة . فقد رفض سفينة حربية واختار له مركباً من ناقلات الفحم هو الاندرفر ، وهو مركب بطيء الحركة ، إنما قوي متين يتسع لوسق وافر ويتحمل رحلة طويلة شاقة . واصطحب معه العالم الفلكي غرين والعالم النباتي ، الاسوجي الاصل سولاندر ، والعالم الطبيعي بنكس . انطلق عام ١٧٦٨ وقام بمهمة العملية الفلكية في تاهيتي (نيسان حزيران ١٧٦٩) ثم اتجه غرباً صوب خط العرض ٤٠ دون ان يثر على القارة الاوسترالية لاسباب لها ما يبرها . ودخل في السابع من تشرين الاول ١٧٦٩ الى ساحل زيلاندا الجديدة الشمالي ، ثم قام بمرحلة التفاف كاملة ولاحظ ان هذه الارض تتألف من جزيرتين يفصل بينهما مضيق يعرف بهذا الاسم ، ووضع خريطة مفصلة لهذه السواحل ، ثم اتجه فيما بعد ، الى جزيرة هولندا الجديدة ، ووصل الى الساحل الشرقي وقام بعملية استكشاف دقيقة امتدت من رأس إيفرارد إلى رأس يورك ، اتسعت ١٦٠ ميلاً ، دعاها مقاطعة غال الجديدة الجنوبية ، ونزل الى البئر في ٢٨ نيسان ١٧٧٠ على صعيد مرتفع ملتف الاشجار كثير العشب ، شجع بنكس على تسميته : خليج بوتني . وهكذا تمت له احسن صورة للمكان الذي ارتفعت فيه ، فيما بعد مدينة سدني ، ثم جاء باتافيا عن طريق مضيق توريس ، فاستكشفه من جديد بصورة ادق . وفي عام ١٧٧١ عاد الى اوروبا حيث كان لرحلته وقع كبير .

وقد سلم بأن القارة الاوسترالية قد تقع الى الشمال او الى الجنوب من الطريق التي سلكها . وعاد اللورد سندويلش ، لورد الاميرالية ، فأرسل كوك في رحلة ثانية فانطلق يوم ١٣ تموز ١٧٧٢ ، فبلغ جون الملكة شارلوت في زيلاندا الجديدة . ومن هذه النقطة كان بإمكانه ان يقوم بمركات استكشافية الى الشمال او الى الجنوب ، ليعود اليها عندما يشاء ، ليتيح لبحارته بعض الراحة والاستجمام من وعناء الاسفار والرحلات التي يقومون بها متعرضين تارة لزمهرير البرد القارص في المياه القطبية ، وطوراً لحرارة القبط اللاهب في المناطق الاستوائية . فتحرى كل زاوية من المحيط وقطع في ٢٨ شهراً ٨٠ الف كيلومتر في المحيط الهادي ، واعترضت سيره جبال الجليد الطافية عند الدرجة ٧٠ والدقيقة ١٠ من خط العرض الجنوبي ، في كلون الثاني ١٧٧٤ ، وبلغ في الشمال ، جزيرة تاهيتي وجزر الماركيز وجزر الهيريد الجديدة ، واستكشف كاليدونيا الجديدة وجزيرة نورفولك ، واثبت ، بقوة احتمال غريبة وبالذليل القاطع انه ليس من قارة جنوبية .

عهد اليه مهمة ثالثة للبحث عن ممر مائي يصل المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي عبر الدائرة القطبية وهو الممر المعروف بالممر الشمالي الغربي . فشرع عن ساعده ليقوم برحلة ثالثة عام ١٧٧٦ ، فاكشف عام ١٧٧٨ ، ارخبيل سندويلش (هاواي) واستكشف بحر بيرينغ والمضيق المعروف

بهذا الاسم ، وصرف النظر عن المر الشمالي الغربي الذي لم يصبح تحقيقه ممكناً ، انما بصعوبة كلية ، بعد ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فيه في السنوات الاخيرة . وهذا البحار الذي كان دوماً مثلاً يحتذى من اللطف والايناس ولين الجانب مع ابناء البلاد الاصليين وجد حثفه ومينته المقعجة في اصطدام دام مع سكان جزيرة سندويتش عام ١٧٧٩ .

فقد خلف كوك خرائط تثير الازعاج لما اتصفت به من دقة لا تختلف عنها الخرائط الفرنسية ولم تكن بحاجة قط الا لبعض إضافات طفيفة .

فقد كان من نصيب الرحالة الفرنسي لا بيروز ان يقوم بهذه المهمة . سافر بأمر الملك لويس السادس عشر ، فقادر مرفأ بريست عام ١٧٨٥ وبصحبه كوكبة من العلماء البارزين . فأثبت عام ١٧٨٦ انه ليس من ارض مهمة تقع الى الشرق من ارخبيل بوموتو وجزر الماركيز وصحح موقع ارخبيل سندويتش لجهة خطوط الطول . ثم وضع رسماً دقيقاً لسواحل اميركا بين الدرجة ٦٠ والدرجة ٣٧ من خط العرض الشمالي ابتداء من جبل سانت ايلى حتى مونتيريز في الجنوب ، راسماً الخرائط ودارساً النباتات البحرية والقارية . وفي تشرين الثاني اخذ له بعض الراحة في هاكاو ، ثم أجه عام ١٧٨٧ ليستكشف سواحل المحيط الهادي الشمالية الغربية ، التي فات كوك استكشافها ، ووضع خريطة لسواحل منشوريا وأثبت ان سخالين هي جزيرة (آب ١٧٨٨) ومن هناك اخذ باجتياز المحيط من الشمال الى الجنوب بين ابعده نقطتين بلغها وليس الى الغرب ، و كوك الى الشرق ، ووصل الى اوستراليا ، وصادف في كانون الثاني ١٧٨٩ ، في خليج بوتني عمارة انكليزية . ومنذ ذلك الحين انقطعت اخباره . فقد عُثر على بعض حطام سفنه ، عام ١٨٣٧ ، على مقربة من جزيرة فانكورو .

وهكذا وُضعت الخطوط الكبرى لخريطة المحيط الهادي ، كما قضي تماماً على اسطورة القارة الجنوبية الكبرى ، وظهر ان القسم الجنوبي من كرتنا الارضية يتكون من مياه المحيطات واتضح ان مياه البحر تغطي ثلثي مساحة صكرتنا الارضية ، كما ان الأرض التي اكتشفت في الاوقيانوس الهادي وسعت بصورة مدهشة معلوماتنا عن الجنس البشري في مختلف مستوياته الحضارية .

الفصل الثاني

أوقيانيا

آمن الأوروبيون بوحدة الجنس البشري الروحية وبسوء الحالة الطبيعية التي تُوجد فيها ، فازدادوا اهتماماً بأقوام أوقيانيا البدائيين. وراح بوغانفيل وكوك يدرسانهم عن كثب ويراقبان سلوكهم وتصرفاتهم بكل عناية . فالأخوان نوستر اللذان سافرا في الرحلة الثالثة التي قام بها كوك ، وضعا مع العالم الفرنسي بوفون اصول علم الانواع البشرية وتصنيفها، اي علم الاثنولوجيا أو علم السلالات البشرية .

ظن الأوروبيون لأول وهلة انهم أمام عروق بدائية تعود طبائعها الى بدء البشرية بمد أن وجدوا ان كل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد عند طبائع العصر الحجري ، وان ما لديهم من عدة وادوات هو اقرب الى ما عرفه الانسان منها في عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن الامر يتعلق فعلاً بالبدائيين أكثر منه بأقوام خضعت طويلاً لعوامل التطور والارتقاء عرف بعضها نوعاً من الحضارات العليا ، فكانوا في مرحلة التقهر والارتكاس عند وصول الأوروبيين اليهم .

والظاهر أن كل هذه الاقوام تعود اصولها الاولى الى العروق البشرية في آسيا الجنوبية ، عُلبت على أمرها فنجلت عن اوطانها مترسمة سير قواطع الطير في هجراتها الموسمية حتى اذا ما حطت رحالها في بعض الاصقاع المحدودة الانتاج والضيقة المحاصيل لانعزالها باكراً عن الاقطار المأهولة في القارات الاخرى، افتقرت في حياتها المعاشية ونظام غذائها للخضروات والثدييات^(١)، كما ان ضيق الرقعة التي هبطوا فيها جعلتهم وجهاً لوجه أمام صعوبات كآداء نجم معظمها عن تضخم عدد السكان وندرة المواد الغذائية. فاشتبكت هذه الاقوام فيما بينها في حروب موصولة بمحاولة ايجاد حل لمشكلاتها الحادة : في الإجهاض وواد الاولاد أو قتلهم ، وفي أكل بعضهم البعض بمد أن عضهم الجوع . والى مثل هذا الوضع كالوا انتهوا عندما أطل عليهم الأوروبيون من بعيد. وقد ارتعدت فرائص المستعمرين من احتمال ازدياد عدد السكان وتضخمه ، فراحوا يجلء اختيارهم يعملون على الحد من المواليد عندهم . فليس بغريب الا تتطور حضارتهم عكسياً وأن

(١) - لم يعرفوا في مواطنهم الجديدة هذه غير الخلد والايوسوم والمنفايش

ثمود القهقري . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هذا النكوص والتقهقر والمواسل المؤثرة الاخرى كالتهجين ، صح القول ان اوقيانيا انما هي « متحف للمروق البشرية » .
والاقوام الوحيدة التي يمكن وصفها بحق بانها اقوام بدائية هي اقوام التسمانيين والاورستاليين الذين كانوا في اسفل دركات الجلس البشري وأحطها على الاطلاق .

كان التسمانيون في الدرك الاسفل بين الجلس البشري . فبعد أن استقر هؤلاء القوم في جزيرتهم في عهد كان اجتياز مضيق باس ، يهون على اصغر بحار وأقلمم خبيرة أو درية بالاسفار ، اي ما يزالون في الطور الاوسط من الدور البليستوسيني ، قبل ذوبان الجليد الذي أدى الى الارتفاع منسوب مياه المحيطات وجعل عرض المضيق المذكور خمسة اضعافه ، فقد عاشوا في شبه عزلة تامة جعلت حضارتهم تأسن فتضمحل فتجف فتموت . فقد عثر العلماء فيها على نحو ٥٠٠٠ من العرق شبه الزنجي شعرهم مفلقل والحنك ضخيم نافر والمجمجمة مفلطحة هاربة والحواجب شديدة التقوس ، ألفتوا اقرب حلقات الانسان السفلى الى القردة . وقد اتخذ الحيف شكل اسفل السفينة فاصبح هذا الشكل من أهم الخصائص القردية المميزة . اما الادوات التي كانت تحت تصرفهم فقد جعلتهم في مصاف أدنى دركات انسان العصر الحجري القديم في غربي اوربا . فقد جهلوا اللباس وأنكروا الاقامة والسكنى في المنازل ، وتقيأوا الشجر العريض الورق واعتاشوا من بعض النباتات وعلى ما تصل اليه ايديهم من قنص وصيد دون الاستعانة بكلب صيد . اما نظامهم الاجتماعي فبدائي للغاية يوالون زعماء آنيين يختارونهم لامد معين . قالوا ببقاء النفس بعد الموت ورهبوا جانب الموتى ، وبدت عليهم معالم ديانة عرفت بعض التسماني يُشتم منها القول بالتوحيد ، وعبدوا الهأ أعلى غاصت علاقته بالسما والظواهر الطبيعية وبهتت . فزال كل اثر لهم ، في القرن الماضي .

وعلى دركة أعلى قليلاً نجد بين الاورستاليين اقواماً كانوا بمستوى الطور المعروف بطور *Moustter* في العصر الحجري القديم في اوربا ، وهم عرق مزيج من عناصر على شيء من المحاكاة بشبه الاوروبي وشبه الزنجي ، من بشرة سمراء يكسوها شمركت كثيف وحواجب مقوسة ، وجبين هارب الى الوراء ، ونبوء الحنكين ، والشفاه الغليظة ، والانف الافطس الضخم . لهم دماغ ادنى وزناً بكثير وأقل تلافيف من دماغ رجل العرق الابيض .

ومع ان لباسهم مختصر فقد عرفوا كيف يبنون لهم اكواخاً من الاغصان والحشائش كما توصلوا الى استنباط النار بالاحتكاك السريع الشديد بواسطة مثقب في لوح خشب ، اسلحتهم من الحجارة المشطاة ، بينها البونيان من حجر المرّو بشكل بُجاج الكف المضمومة . وبينها الرمح من العصر الحجري الحديث ، والمزراق و *Boomerang* المشهور الا انهم جهلوا تماماً استعمال القوس والسهاب كما جهلوا صناعة الفخار . اما غذاؤهم فقد تكوّن من الخضروات وبعض الصيد والليزاق والحلزون الذي يعيش في المياه الحلوة ، والديدان والحردون والطير والكنفور و غيره من ذوات الاكياس مثل *Opposum* وبعض انواع النعام ، وقدرة على اللحاق بالكنفور والنفور ، يعدون

وراءه بالسرعة التي يعدونها . وكانت لهم حاسة شم شديدة بحيث يتبينون معالم الطريدة من استرواح رائحة التراب .

أما وضعهم الاجتماعي فكان على بدائية من التنظيم ، اذ كان للقبيلة زعمائها الدائمون هم الشيوخ فيها ، وقد اعتمدوا التزاوج من الأبعاد ، لكل قبيلة مجالها الحيوي وهو يتميز عن مجال القبائل الأخرى . وهكذا يكاد المرء يرى بينهم شيئاً من معالم الحق الدولي .

أما عقائدهم الدينية فقد كانت على شيء من التطور . فالاعتقاد ببقاء الأرواح كان عاماً . واعتقدوا بأن في مكنته نفوس الموتى ان تتجسد من جديد . وقد آثار مرأى هؤلاء الأوروبيين الخارجين اليهم من عرض البحار بأجسامهم البضة وحيونهم البراقة بفضل ما هم عليه من تطور جهازهم العصبي ، الملح في نفوسهم فنظروا اليهم نظرهم الى اشباح أو خيالات . وقد ألفوا أكرام الموتى بإقامة سلسلة من الطقوس الدينية تخليداً لذكراهم ، حتى ان بعض هذه القبائل كانت تمحصر على أكل اجسام الموتى احتفاظاً منها لما فيها من مبدأ الحياة . وكانت لهم محرقاتهم الطوطمية التي تمثل الخبز المشترك يحتفلون بتكريمها بطقوس فيها الكثير من مظاهر التعظيم والسحر . وقد قال بعضهم بوجود إله خالد استحق الخلود في السماء بعد ان عاش على الأرض ، وبإستطاعة المطلعين منهم على الأسرار ، الالتحاق به والانضمام اليه بعد الوفاة . وكانت هذه الاقوام متمكنة من أمور السحر ، ضالمة بأسراره . ولكي يرقى الفتيان الى درجة الرجال ويصبحوا بالتالي صالحين للزواج والممارسة بعض الوظائف الاجتماعية العليا ، عليهم ان يخضعوا لفترة من التلقين المعقد يضم في جملة ما يضمه من امتحان ، قلع احد الاسنان القواطع من الفك الأعلى ، واقتبال الختان وتقديم بعض الرسوم وبعض الاقاصيص الخرافية التي لم تكن المرأة لتخضع لها .

أما الاقوام الأخرى فكانت على مستويات ارفع قليلاً كما يظهر . فباستثناء اقوام البابوس الذين تميزوا بأنف أمتى ، محدودب كالمقار يجعل منهم بحق عرقاً اصيلاً لوحدهم ، يبدو من دراسة اللهجات التي كانوا يتكلمونها ومن بعض العادات والاعراف الحسية التي كانوا عليها ، كهذه الزوارق المتخذة من جذوع الشجر المجوفة المجهزة بهزاز ان هؤلاء الاقوام ، شاركوا ، بالرغم مما بينهم من مفارقات جسيمة ملحوظة ، بحضارة اوقبالية واحدة كما انهم يعودون جميعاً الى محد واحد . والراجح انهم خرجوا كلهم من ماليزيا وانساحوا الى الشرق ، في ارجاء المحيط الهادي ، وقد يكون بعضها بلغ مشارف اميركا ، كما أم بعضهم مطارح الى الغرب من كمبوديا ، والى سيلان ومدغشقر (كالهوفاس) على سواحل افريقيا الشرقية . فقد تكون هجرتهم وقمت بين القرنين الثاني والخامس للميلاد ، حتى بلغت موجة الاغتراب هذه مداها الاكبر بين ٩٠٠ - ١٣٥٠ للميلاد ، ثم خفت بينهم النزعة وضعف عندهم الميل الى الارتحال عبر البحار .

أما الميلانيزيون^(١) فقد كانوا على وضع حضاري يذكرنا باوضاع العصر الحجري الحديث

(١) - في جزر بيسارك وسلون ولوريزاد وست كروز ، وهبريد الجديدة وكاليفورنيا الجديدة ولويالتي وفيجي وغينيا الجديدة .

المتطور . فقد كانوا أكثر تطوراً جسيماً : قليلي الشعر في الوجه ، مستقيمي الأنف ، قلما تفوست حواجبهم ، وكانوا أكثر تقنناً في حلبيهم وزينتهم . نساؤهم مكثرات من الرشم ، على شوّه في الرأس وفي البدية ، تلوين الشعر أر صبغه بالمعز ، وعقود واساور من الاسنان أو من الاصداف ، وريش وزهور في الشعر .

كانت ادواتهم المنزلية على شيء من العناية والاتقان : فؤوسهم من الحجر المصقول ، وسكاكينهم من الصدف ، ومبارد من خراشف السمك ومخارز من الذهب وغير ذلك من الاسلحة المختلفة ، بينها القوس والمقلاع . فقد كانوا رجال بحر مجريين ، حذقوا صنع القوارب الكبيرة وفن قيادتها كما كانوا مزارعين ماهرين ، يعزقون التربة بهماً واحدة ويزرعون البطاطا الصينية والتارو . عرفوا ضرباً من العملة أو النقد المتخذ من الارياش والاسنان يتكالبون على الربح كما عرف بعضهم ان يجمع لروات عن طريق الذئب بفائدة مائة بالمائة .

اما مجتمعم لمجتمع اساسه الأم . فالخسال هو القيم على ابن الاخت . والرجال يأسسون وينامون في باحة البلدة ، يعيش الجلسان الرجل والمرأة في شبه انفصال ، والزواج يتم بالشراء ، كما ان الأغنياء منهم مارسوا تعدد الزوجات .

اما وضعهم السيامي فكان على شيء من الديموقراطية ، تلمب فيه الجمييات السرية درراً بارزاً ، وللغنياء بينهم شأن بارز لقدرتهم على البذل بسخاء واقامة الحفلات وبلوغ المراسكز العليا . فكانت هذه الجمييات السرية تزرع الهلع في قلوب من لم يدخل في عضويتها ، فيزرع تحت الضرب والغرامات الفادحة حتى الموت .

اما اعتقاداتهم الدينية فقد كانت متأصلة إلا انها في مستوى ادنى مما كان عليه الاقوام الذين اتينا على درهم والتي كانت ادنى مستوى حضارياً . فقد اعتقدوا بالمانا ، هذه الفضية او السجبة الفاتحة الطييمة ، المتوارثة . فالصياد لا يكون ماهراً إلا اذا تمت له المانا . وشرط النجاح في الحياة ان تتم للمرء المانا . وباستطاعة السحر والسحر ان يؤمنوها لمن يرغب فيها . وبهذه مظاهر هذه المانا لا تخلو من الخطر على صاحبها ، واذ ذلك يتدخل التابو المحرم ، يستنزلونه على الاشخاص والاشياء والاماكن التي يسكنها المانا او يقيم فيها . فقد آمنوا بوجود الارواح في الحيوانات والحجارة والاشجار والانساعي ، انما لم يشركوا بالله الأعلى ، كما لم يقولوا بتعدد الآلهة ، وآمنوا بحياة النفوس بعد الموت . يقومون بصلوات طقسية ويقدمون القرابين والذبايح وينشدون الاثنيده المسجمة الملقاة وينقشون في الخشب صورة الجدد الأول الذي يجيب في شخص بنيه وذرايه .

اما الميكرونيزيون^(١) فقد كانوا شديدي الشبه بالميلانيزيين ، انما على شيء ارفع فقد كانوا بحارة ماهرين . وقام التجار منهم باسفار طويلة على قوارب مجهزة بهزاز ، مستخدمين في هذا

(١) - جزر الماريان وبالاو والكارولين ومارشال وجلبوت .

السييل خرائط صنعت من قضبان البمبو او الخيزران . قام بينهم طبقة من الاشراف واخرى من الارقاء . وكان زعماءهم يميزون العطاء للبحارة الذين يتميزون بالخبرة وطول الباع . وكان بعض سكان هذه الجزر عرفوا خلال ادوار التطور التي مروا بها الشرك . وقالوا بعدة آلهة على رأسهم كبير الالهة .

وفي قمة السلم الاجتماعي قام البولينييزيون^(١) هذا الفرع الثاني من اشباه الاوروبيين ، بينهم عناصر من اشباه الزوج واشباه المثل ، فارعي القامة ، مع ملامح اوروبية وأنف مستدق ، شعر املس ناعم واللون حنطبي . اما السمع فأرقّ مما عليه الاوروبيون ، بينما حاستا الشم والذوق عندهم مختلفان .

ومم بجارة لا يجارون يستطيعون ان يجوبوا مساحات شاسعة يبلغ مداها ٢٥٠٠ كيلومتر دون ان يرسوا في مكان . وكان في مقدورهم ان يحددوا مواقعهم او نقطة وجودهم في عرض المحيط بواسطة القرع المثقوب . وعرف سكان ساموا وتنغا قوارب مزدوجة بلغ طولها ٣٠ متراً تستطيع نقل ١٤٠ راكباً . ولكل جزيرة عمارتها الخاصة من القوارب . وقد احصى كوك ٣٣٠ قارباً في تاهيتي وحدها بعد ان قدر سكانها بـ ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

اما ادواتهم فكانت من ادوات العصر الحجري المصقول وبعض هذه الادوات قيد الاستعمال لدى اقوام الماوريس في زيلاندا الجديدة ، بدت وكأنها من المعدن . والذين يدور لنا ان جدورهم عرفوا المعدن وصناعة الفخار . ومهما يكن ، فقد أصبحت هذه الفنون نسبياً منسياً لدى البولينييزيين عند قدوم الاوروبيين اليهم . ومن الثابت ان ادواتهم هذه انما كانت من جنس ارفع واحسن مما كانت عليه في القرن الثامن عشر .

اما ملابسهم فقد اتخذوها من الكتان في زيلاندا الجديدة . وانقطع السكان في الجزر الحارة عن صناعة النسيج التي عرفها اسلافهم ليتخذوا بديلاً عنها صناعة لحاء الشجر يصنعون منه الفساتين المزركشة والكشاكش والمثلثات والمربعات . تزينوا بالريش اللهاج والاوراق الرحيمة الشكل ، كما اتقنوا ، الى حد بعيد ، صناعة الوشم .

اما منازلهم فقد قامت ، في الغالب على ، مصاطب من الحجر فُرشت أرضيتها بالحصر وتناوح طول بعضها ، في جزر الماركيز ، بين ٢٠ و ١٠٠ متر ، ووجدوا بين مفروشاتها كتلة لصدّ الناموس وابماده . وشيّد الماوريس قلاعاً اتسع بعضها لبضعة آلاف أحاطوها بالحنادق والدرابزونات والشرفات المرتفعة الصالحة للدفاع .

وقد بلغ من تطور هؤلاء الأقوام ان قام فيما بينهم ، امرات ضمت الواحدة بضع مئات بين افرادها ، كانت تشبه الى حد بعيد ما عرفه الرومان من امر « الرّبع » (Gens) او

(١) - موطنهم جزر ساموا والماركيز وتواموتو وتنغا وتوبواي وفيجي وزيلاندا الجديدة وهواي .

التي لم يجدوا فيها ما كانوا يتوقعونه عند هبوطهم اليها . ففي سنة ١٧٧٢ ، استولى القبطان كروزيه ، على زيلاندا الجديدة ، بعد ان دعاها باسم « فرنسا الاوسترالية » . الا انه لم يقيم فيها اي مشروع استثنائي . ولعل اول مشروع من هذا النوع هو المشروع الذي نهض به الانكليز في اوستراليا . ومنذ سنة ١٧٧٦ ، حالت حرب الاستقلال الاميركية دون استمرار الانكليز ارسال المجرمين المحكوم عليهم بالسجن الى فرجيليا . وفي سنة ١٧٨٦ ، قرر الحاكم الانكليزي ، إنشاء مستعمرة إصلاحية في خليج بُتني . وعلى الاثر وصل القبطان فيليب بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٧٨٨ ، ينقل في عمارته ٧١٧ من المساجين ، بينهم ١٨٨ امرأة بحراسة ١٩١ من جنود البحرية و ١٨ ضابطاً ، ومعهم ثور و ٥ بقرات وكبش و ٢٩ نعجة ، فكانوا اول من رحل من الاوروبيين الى هذه المنطقة ، فالفوا بذلك النواة المتواضعة للشعب الاوسترالي .

وراح الاوقيانيون القهري واخذوا مريعاً بالاضمحلال تدريجياً في القرن التالي ، إثر اتصالهم بالاوروبيين .

فهل كان من المقدر المحتوم ان يكون لهم مثل هذا المصير ؟ فالجواب على هذا السؤال ليس من اليسير . فقد رأينا اقوام الصيادين والقتالين هنا ، كما في اميركا ، وفي اي محل آخر اتصلوا معه بمحضارات اسمى وأرقى تلقينا من التي عرفوها ، اخذ عددهم بالتناقص تدريجياً ، كما تخلخت اعرافهم وعاداتهم دون ان يقتبموا لهم حضارة أرفع . ووقع لهم ذات الشيء عند اتصالهم بالصينيين والاوروبيين ومع ذلك فقد دل هؤلاء الاقوام عن قوة ملاحظة غريبة وقوة تفكير بارزتين حتى في هذه الموضوعات والافكار التي تبدو لهم غريبة . فقد ظنوا مثلاً ان العلاقات الجنسية لم تكن لتسبب وحدها الحمل ، بل ان مجرد مرور الزوجة بالقرب من كهف معين او من شجرة موصوفة تسكنها ارواح الجدود ينتقل في الحال اليها احد هذه الارواح وتجنسد فيها . وهذا الاعتقاد المنطوق نتج عن تفكير سليم . لا تكاد الفتاة الاوسترالية تبلغ حتى تتزوج . وكان للرجال عادة عدة زوجات ونساء . وقد رأوا على ضوء اختباراتهم الجنسية الطويلة ان العلاقات الجنسية التي كانوا يقيمونها مع نساءهم لم تكن لتنهطي دوماً نتائجها وتوارها مع الجميع اذ تبقى المعاشرة الجنسية عند بعضهم بلا نتيجة او ثمرة . فما الذي يعنيه يا ترى مثل هذا الوضع ؟ فهو يعني ان العلاقات الجنسية في الزواج ، كانت تمهد او توطئ للحبل على ان تقترن العملية بشيء آخر يتم الحمل معها . فالعلاقات الجنسية كانت شرطاً اساسياً ولكنه شرط غير واف بالغرض حتماً ، وهو تفكير صحيح من وجهة نظرهم .

فهل يا ترى ، عدم وجود مبرر لدى هؤلاء الاقوام ، او عدم وجود ما يرتاحون اليه لدى الاوروبيين ، منعهم من الاتصال بالحضارة الاوروبية والامتزاج بها ؟ فالحياة اليومية لدى الاوروبيين قامت على جملة من ضرورات العيش ولزومياته الضاغطة بيننا حياة الاوستراليين اليومية كانت حياة حرة ، هينة ، ناعمة ، لا أمر فيها ولا ضغط . الا ان يحدث مثلاً شيء

طارىء ، مفاجيء يكدر عليهم صفاء الميش الهني كما لو وقعت ، مثلا سنة جفاف او مواسم
عجفاء . وادهى ما كانوا يخشونه السحر وافعال السحرة . فطبيعة الحياة لدى الاوروبيين لم
تكن تسبب لهم سوى الملل والسأم والاشمزاز . فاذا ما ارادوا ان يحافظوا على اعرافهم ،
ويستمروا عليها في عشرة موصولة مع الاوروبيين ، لامتنع عليهم ذلك وتمذر ، لأن الاوروبي
ايضا حمل ، ايضا هبط في بيثة غريبة ، ألحق فيها البلبلة وزرع التشويش وقضى على ما فيها
من سائمة وحيوانات تؤلف غذاء مستساغاً هند هؤلاء الاقوام ، كما ان وجوده يجلب لهم امراضاً
وهللاً لم يكونوا ليعرفوها من قبل .

آسيا

كانت آسيا تعاني فترة صعبة من الاضطراب . فقد توابع تاريخها آنذاك - وسيبقى هذا الوضع قائماً بعض الوقت - مع هذا المراك الذي قام سجالاً ، بين اهل المدر واهل الحضرم ، او بين البادية والمدينة . فقد تألفت رقعتها الشاسعة من سهول وواحات ذات مناخ محرق لاهب ، كبلاد ما بين النهرين ، وسهول الهندوس والغانج وسهول نهري اليانغ - تسي والهوانغ - هو ، هذه السهول التي كانت مهداً لحضارات زراعية مشرقة ، حفت بها سباب ومجاري آخذة بالجذب والجفاف تدريجياً ، تمور باقوام من الشعوب المرحلة ، يذرعون في ظعنهم مئة او يسرة ، جيئة وذهاباً ، بلاد فارس والتركستان والتبت ومنغوليا ، شهدت من حين الى آخر ، غزوات دورية ماحقة ، قوامها اقوام من الرعاة اعتادوا ان يعيشوا فساداً في المقاطعات الدائرية . وكان هؤلاء البدو في وضع زري ، ابدأ عرضة للجوع يقومون في سبيل الميش وسد حاجاتهم ، ببعض الاعمال التجارية يتبادلون مع سكان المقاطعات الدائرية ، في ايران والهند والصين ، بعض نتائجهم الزراعي ، ويقفون مشدوهين لما تقع عليهم عيونهم من غنى وثراء ، يتسقطون ما فيها من شوائب وعورات ومن مكان الضعف والوهن : فتقع ابصارهم على شعوب ارزحتها الحرارة الشديدة والرطوبة ، كما تقع عيونهم على امراء وملوك ترهلوا وماعوا لما هم عليه من عيش رخي وبلذخ سخي او رفق مخلخل - قفشا بينهم التسري والقصف واقذع الرذائل . واذ ذاك ينهض زعيم مقتول المضل من بين زعماء هذه القبائل البدوية الضاربة في قلب الصحراء ، ويفرض سيطرته على القبائل الاخرى التي تشدها وشائج القرى او صلات الرحم ، ويخضعها لسلطانه ويقودها للفتح بعد ان تكون تفتحت شهوتها الجائعة واحتاجت ، وجاشت فيها الرغائب والاثرة ويستولي على السهول الدائرية الخصبة ، ويكفي ان يحالفه النصر مرة واحدة حتى تهوى الامبراطورية المتداعية للسقوط ويملن نفسه « ملك الملوك » في بلاد فارس ، او امبراطوراً في الهند او في الصين . ثم يأخذ ، والنشاط ملء برديه ، والحاس يتملى بين الضلوع ، ينفخ روحاً جديد في الامبراطورية المهلهلة ويبعث فيها نهضة صادقة . ولن يلبث ابنه الذي لا يزال الدم البدوي يجري حاراً في عروقه ، والذي عرف ان يجمع في شخصه الشجاعة والحكمة بفضل ما تم له من تربية سياسية محكمة ، ان ينهض بالدولة الى الارجح .

الا ان اثر الاقاليم ، وحياء البلاط المرفهة ، وقتل الوقت وإضاعته في اللهو والعبث وعشرة نسائية في الحريم لا تلبث ان تترك فعلها المحلل واثرها المخلخل . ولن يمضي القليل حتى يسي حفة الملك الفاتح ملوكاً قعدة لا يأتون شيئاً . فاذا بالسلطة تنتهي من حيث لا يدرون ، الى ايدي من يترصدها باشتهاء ، من هؤلاء البرابرة الطارئين الطامعين .

فالى مثل هذه الصورة التي رسمنا للواقع المؤسف انتهت آسيا في القرن الثامن عشر . ففي ايران اخذت الدولة الصفوية بالانحدار والتدهور بعد ان استحكمت فيها الفوضى وأصلت منها الجذور . اما في الهند ، فامبراطورية المغول تتداعى للسقوط تحت عنف الصدمات الصاعدة تنهال عليها من الخارج ، وردة الفعل الهندوسية من الداخل ، مما مهد السبيل لتدخل الاوروبيين الذين كانوا يتربصون لها ويرنون اليها باشتهاء . اما الصين فقد استطاعت ان تحافظ على مستوى رفيع تحت حكم اباطرة السلالة المنشوكية . هي السلالة التي تجاوزت شمسها السميت وبدت تميل نحو المغرب . اما اليابان فزاهما ماضية في عزلتها و منطوية على نفسها لا تنثني ولا تلتين ، وهي عزلة تسببت في انحلال المجتمع الياباني وتفسخه . فقد اخذ الاوروبيون يوسعون من علاقاتهم مع آسيا ، كما اخذوا بضمها تباعاً : الروس برأ ، من الشمال ، والانكليز والفرنسيون وغيرهم ، بجرأ من الجنوب والشرق .

بلاد فارس والهند

في مطلع القرن الثامن عشر ، اخذت إيران ، في عهد الدولة الصفوية ، يساورها بلاد فارس شكٌ ممضٌ ، في ذهاب هيبتها وانتقاص سلطاتها . فقد عرفت هذه الدولة كيف تجمل من إيران ، في القرن السابع عشر دولة زاهية مزدهرة ، إذ استطاعت ان تعيد الى البلاد المجد الذي عرفته في عهد الدولة الساسانية . كذلك اخذت الدولة باسباب التجدد تقتبس من الاختراعات الأوروبية . الا ان الدولة لم تلبث ان اخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد . وكان آخر ملك من ملوكها هو الشاه تآماسب الثاني ، ملك البلاد في مطلع القرن الثامن عشر ، فكان ملكاً مستبدأ فاسد الاخلاق فظ الطباع قضى على الكثيرين من أمراء الاسرة المالكة وأغضب أعضاء قبيلته الخاصة التي كانت عماد جيشه وتمد البلاد بالمزارعين . فليس من عجب والحالة هذه ان ينظر البدو في فلواتهم ، والبرابرة في معاقلمهم الجبلية ، في الخارج ، الى هذه الدولة نظرة اشتها يتربصون بها الشدائد والمصاعب ، بعد أن رأوا عوامل الانحلال تزداد فيها قتلاً ، فانقضوا عليها واستباحوا باحتها .

وكان الأفغان أول من بادر بينهم الى شق عصا الطاعة ، بعد ان كانوا غلبوا على امرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ، ودخلوا في طاعته . فالأفغان والفرس من معتد واحد . فقد عرفوا ان يحافظوا في جبالهم على فرديتهم المميزة بفضل هذه الوديان العميقة التي عصمتهم وهذه

المجازات والمعارب التي سهلت لهم الاتصال ببعضهم البعض . وهم مسلمون سننون جاشت حفيظتهم بالكره والبغض للفرس ، وهم على التشيع . والافغان من سكان الجبال ومن انصاف البدو ، اخشوشنت طبائهم وتعاطوا تربية الماشية يظعنون بها وفقاً لفصول السنة . احتقروا في الايرانيين حياة الحضرة ، وهؤلاء المزارعين المترفين الذين تفسخت أخلاقهم بالدنيا من الاعمال التي يأتونها كما ازدروا فيهم هؤلاء التجار الخطفة الجشعين . وفي سنة ١٧١٠ ، أعلنت قبيلة غلجيس احدى هذه القبائل الضاربة في قندهار ، العصيان وراحت تزيل من طريقها الحاميات الفارسية المرابطة في البلاد الواحدة بعد الاخرى ، داعية الافغان الى الانتفاض وعلان الثورة والتحرر من ربة الفرس . وراح أمير غلجيس هو الامير محمود يهاجم بلاد فارس الى ان قهر الفرس ودخل اصفهان منتصراً في ٢٢ تشرين الاول ١٧٢٢ ، وأعلن نفسه ملكاً . فما كان من الشاه ثاماسب الثاني ان فر ونجا بنفسه والتجأ الى مقاطعة مازندران ، وهي ولاية معروفة بغاباتها الكثيفة وبما فيها من بطائح وغياض ومستنقعات .

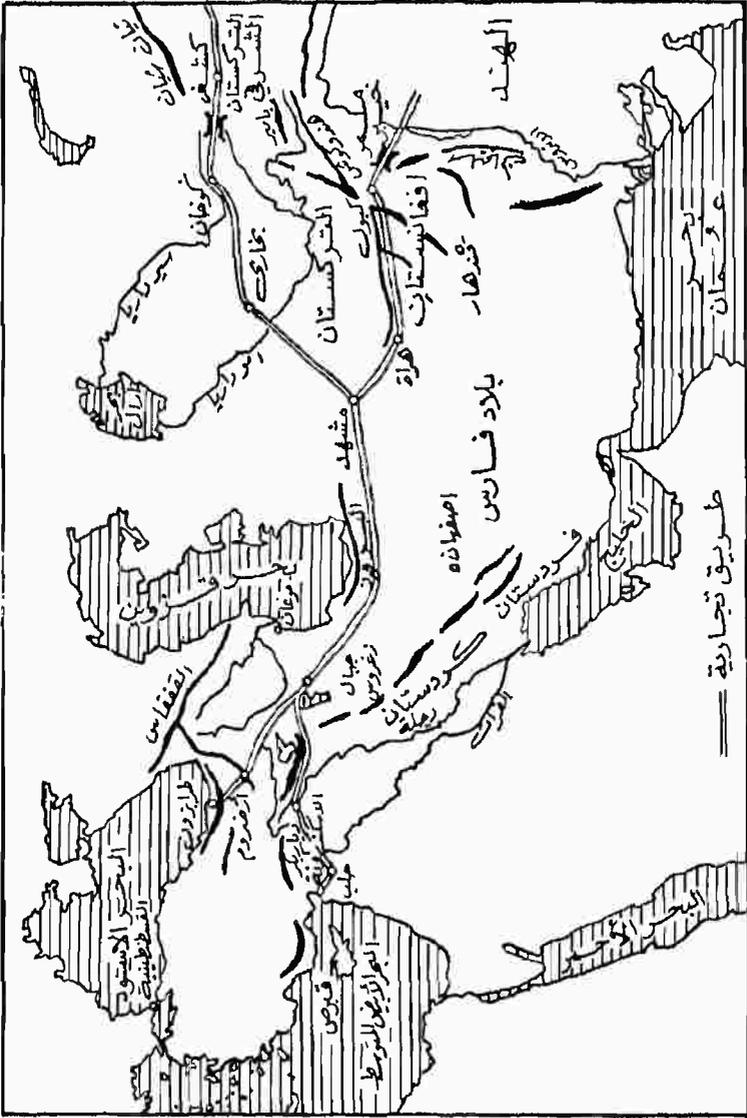
وإذ ذاك أخذت قبائل البدو والدول المجاورة لبلاد فارس تنقض عليها من كل صوب . فراح التركمان بقيادة أمير 'بجاري يغزون خراسان . والروس الذين كانوا يرون بأنظارهم من معاقلمهم في استراكان الى الطرُق التجارية بين الهند واروپا ، عبر كابل وهرات ، ومشهد وطهران وتبريز ، لتتجه منها شمالاً ، الى ارضروم وطرايزونه ، وجنوباً الى ديار بكر وحلب والاسكندرون ، لم يعمتوا ان احتلوا تبعاً داربنت عام ١٧٢٢ ، وباكوع عام ١٧٢٣ ، واطلقت معاهدة بطرسبورغ التي عقدها مع إيران ، يدمم باحتلال ضفة بحر قزوين الجنوبية وداغستان وشروان وغيلان ومازندران واستراباد . واغتتم الاتراك العثمانيون من جهتهم هذه الفرصة الساححة لينأروا لأنفسهم مما لحق بهم في الماضي من خسف ، فاحتلوا أرمينيا والعراق واذربيجان ، وراح الامير اشرف ، وريث الامير محمود وخليفته الذي ربطته بالعثمانيين وحدة الايمان المشترك يتقرب من العثمانيين فاعترف بالفتوحات التركية وأعلن ولاءه للسلطان في القسطنطينية رغبة منه حمل اللقب الملكي الذي اعترف له به السلطان (خريطة ٣) وتمهد له باستئصال شأفة الشيعة من البلاد ، هذه الطائفة التي أعطت بلاد فارس فرديتها المميزة ، بحيث ان كل شيء كان يدل على ان هذه الامبراطورية القديمة العهد اشرفت على نهايتها .

الا انها وجدت خلاصها على يد زعيم بدوي ، تركي العرق والمهتد . كان يعيش عند أطراف خراسان ، يدعى نادر شاه الذي أصبح بعد سلسلة متصلة الحلقات من اعمال اللصوصية والقتل والتشيع والمخاتلات ، زعيماً لقبيلة أفشر التركمانية واستطاع كألوف العادة ، ان يتغلب على إحدى القبائل ويفرض عليها سلطته ، كما عرف ان يكتسب بعوارفه السخية الانصار والمريدين ، وقبل في خدمته كل رجال الحرب الذين يرغبون في الغامرات ، وتمكن من اخضاع البطون والافخاذ التي تمت الى قبيلته افشر التركية بوشائج النسب . اغتتم بين ١٧٢٢ - ١٧٢٦ مناسبة انهيار دولة فارس فبسط سيطرته على ولاية خراسان وبرهن عن مقدرة وحسن تدبير

عندما أعلن ولاه للشاه تاماسب ، وبذلك أصبح محط آمال الفرس ومناط رجائهم . وإذ كان على جانب عظيم من الخزم والنشاط في بلاد عصفت بها الاهواء والمطامع وأصبح معها العرش متأرجحاً ، فقد أخذ بتنظيم الجيش وفرض النظام واحترام هيبة القانون ، وتغكس من التغلب على الافغان وأعاد الشاه تاماسب الى عاصمته مكرماً ، عام ١٧٣٠ .

غير ان الشاه والفرس كانوا يتوقعون منه ان يعيد الامبراطورية الفارسية الى سابق مجدها وسالف عزها . فالشاه يجب ان يكون غازياً فاتحاً . وكان الفرس متشبعين منذ نعومة اظفارهم ، من نصوص كتاب الملوك او الشاهنامه للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له عند الفرس ما للاباذة والاوزيسة من منزلة عند الاغريق . فاستقر في خلدنهم ان امتهم هي من اعرق أمم الأرض طراً ومن أقدمها على الاطلاق وبناتها تملو الأمم الاخرى قدراً وسمواً وشأناً ، وان الله كتب لها السيطرة وقدر لها السلطان على سائر أمم الارض . ولذا كان من الواجب إشباع هذه الامالي الوطنية وتحقيق الاهداف القومية التي جاشت في صدورهم . ومن جهة ثانية ، فالتجار الذين كانوا يؤدون خدمات 'جلستي للملك بما يسلفونه من الدراهم ، كانوا يتوقعون منه ان يعيد الى البلاد امنها الضائع لتصبح طرق المواصلات آمنة والاسواق سليمة ، حرة ، وبذلك تعود البلاد الى ما كانت عليه ، الطريق السلطاني الذي يربط شعوب آسيا بدول اوروبا ، كما تربط الشرق بالغرب . ثم كان على الشاه ان ينهض بالحرب بحيث يؤمن للمملكة الموارد اللازمة التي كانت الضرائب المفروضة على البلاد تقصر عن تأمينها ، فلا يلبث ان يرتفع فيها صوت التاجر منادياً بالويل والثبور وعظائم الامور اذا ما تأذت مصالحه قليلاً ، وحيث يسهل على البدوي التوارى والتخفي كما يسهل على الفلاح مبارحة ارضه بيسر اذا ما تعرض للضنط . ثم كان لا بد لهذا الملك ولقمة قصره ان يُشبع عن طريق الغزو مطامع اشياعه واتباعه ويحقق ما يرغب فيه افراد اسرته وعشيرته ومحاربيه . ولذا بادر نادر شاه للجهاد ، فاسترجع خراسان من الافغان كما استعاد منهم ولاية هراة . واجبر الاتراك على التخلي عن العراق والانسحاب من اذربيجان وأريوان وقرص وما استولوا عليه من قلاع في القفقاس . وبموجب معاهدة القسطنطينية المعقودة عام ١٧٣٧ ، عادت الى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل ، كما ان المعاهدة المذكورة ضمنت لها الاشراف على ارمينيا الشرقية . وبسط حمايتها على بلاد الكرج . وفي عام ١٧٣٤ ، اضطر الروس ، لقلة حامياتهم ، لاختلاء الاراضي الشاسعة التي وقعت بايديهم في شمالي ايران ، عام ١٧٢٣ . وفي غرة شباط ١٧٣٦ ، تمكن نادر شاه من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية ونودي به ملكاً ، في احتفال مهيب في سهول موغان ، اشترك فيه زعماء الشعب وممثلوه بحضور قواد الجيش وعدد كبير من الضباط . فجهاء اعتلاؤه المرش توتويماً لهذا العمل المجيد الذي قام به بمد اعاد الى البلاد اجماعها الغابرة وانقذها من قبضة الافغان والاتراك والروس .

واذ كان آخر ملك الملوك عند الايرانيين فقد استطاع ان يوسع سيادة ايران في كل الاتجاهات ونشر الأمن على الطرق التجارية الكبرى التي تمر عبر بلاد فارس . فنقل عاصمة ملكه الى مدينة



خريطة ٣ - المركز التجاري الكبير في العميم

مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود الامبراطورية ويصونها من عبث البدو الرحل في التركستان . وشيد على رأس احدى قمم علاء - داغ ، قلعة نادرشاه المشهورة تحيط بها الوديان العميقة ، لا يُرقى اليها الا من معبرين ضيقين لا يزيد عرض الواحد منها على بضعة امتار ، واتجه عام ١٧٣٧ على رأس جيشه وهاجم الافغانستان التي تضم خير المعابر والمجازات الموصلة الى الهند ضيق خيبر ، والتركستان ، وفيها مضيق حاجي كاك ومضيق تدجن ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابل واخضع لسultanه كل القبائل ، فانفتحت امامه مداخل الهند . فاقنع من حملته هذه على الهند بعملية نهب وسلب على نطاق واسع . وفي سنة ١٧٣٧ اجتاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور على رأس جيش ضم اكثر من ٤٠ الف محارب ، وكسر شرس انكسار ، في كرنال ، جيش المغول الذي تألف من ٢٠٠.٠٠٠ محارب بقيادة السلطان محمود ، ودخل مدينة دلهي واستولى فيها على ٧٥٠ مليوناً وبذلك اتيح له ان يسقط عن الايرانيين الرسوم المترتبة عليهم لمدة ثلاث سنوات . ثم اعاد الحكم في الهند الى السلطان محمود . وباتجاه الصين ، هاجم التركستان ، عام ١٧٤٠ ، ولقن القبائل درساً بليغاً ، واجبر خان بخارى على دفع جزية فادحة واستبدل خان خيفا بأخر ممن اعترفوا بالولاء له .

ثم فكر بادخال الحضارة الأوروبية الى ايران بعد ان خيم السلام على ربوعها . وجاءت حركته الاصلاحية شبيهة الى حد بعيد بالعمل التنظيمي الذي قام به القيصر بطرس الاكبر في روسيا ، بعد ان تهيأت له اسباب النجاح . افلم تكن ايران آرية الاصل والعرق وتمثل في القارة الآسيوية التي تسحق الانسان بضخامتها واتساعها ، شيئاً من الانضباطية والاعتدال ؟ فالحضارة الايرانية ، مع كونها آسيوية في صميمها ، تعارض ، من حيث طبيعتها ، المسرحية الآسيوية بما تمتاز به من اعتدال في الحكمة واتزان في الانسانية وبما لها من قابلية تكاد تكون فرنسية ساعدتها على صهر العناصر المختلفة وصبها وافراغها في قالب اصيل . الا ان الزمن لم يمهل نادرشاه اذ وجد حثفه مقتولاً ، عام ١٧٤٧ .

فما كاد يتوارى عن مسرح السياسة في بلاد فارس حتى دب الفساد في الامبراطورية الفارسية . صحيح ان ليس بين خلفائه من يصح مقارنته به ، كما ان اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه ان يسهل مهمة هؤلاء الملوك . فإيران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات . فمقاطعاتها الجنوبية والغربية ، امثال كرمان وفارس ولورستان وكرديستان ، يقطنها اقوام ايرانيون في الصميم ويتحسسون عميقاً امجاد الحضارة الفارسية القديمة ، مع العلم ان بعض هذه الولايات اندمجت فيها وانضمت اليها عروق جديدة كالعرب في اللورستان ، وبعض عناصر العرق الاصفر في الكرديستان . اما الشمال فتألف سواده من العرق الاصفر المغولي والتتار والترك ، اذ ان جانباً كبيراً من الطائفتين والفزاة الفاتحين والاقوام الرحالة استقر في هذا المجال الضيق الذي تحف به الصحارى الممتدة رقعته المتناسكة من السنغال غرباً حتى نهر العامور شرقاً ، فتحتل قلب قارات ثلاث ، على نصف الطريق من

أوروبا الغربية ومن شطآن أوروبا الشرقية ، وهي مناطق تصلح كثيراً بسببها الشاسعة ، للكر والفرو والحركات الفرسان الخيالة ونقلاتهم .

وهكذا بدت إيران خليطاً او مزيجاً من القبائل والاقوام . فقد اقتصر حكم ورثة نادرشاه على خراسان وعرفوا ان يحتفظوا بها متخذين من مدينة مشهد عاصمة لهم . وتمكن الافغان من استعادة استقلالهم ، والاتراك القرغز معظمهم قبائل بدوية من رعاة وقوافل ، والذين منهم خرج معظم قواد الدولة الصفوية ، ألفوا جماعات عسكرية سيطروا بها على الولايات الواقعة الى الشمال او الممتدة من ارمينيا الى افغانستان ، من حواضرهم الكبرى اصفهان واستراباد وقندهار ثاروا على السلطة وتمكنوا بالفعل من اعلان استقلالهم . واخيراً في الجنوب ، والى الغرب قليلاً ، حاول زعماء قبائل البختيار والزند إقامة سلطة الايرانيين على الامبراطورية الفارسية . فقامت في البلاد دولة وطنية ، قومية هي دولة الزند ، استطاع رئيسها كريم خان (١٧٥٠ - ١٧٧٩) ان ينتزع من يد القرغز الاتراك ، مدينة اصفهان واذربيجان والمازندران . وهكذا حقق وحدة إيران الغربية الممتدة من شواطئ بحر قزوين ، حتى مشارف الخليج الفارسي وجعل من مدينة شيراز عاصمة ملكه ، وعمل على تجميلها وشيد فيها مبنى تحليداً للذكري حافظ وسعدى ، اكبر واشهر شعراء الفرس طراً .

وعند وفاته ، راح آغا محمود وهو من قاجار الترك ، يعيد بين صحبه واتباعه ، قصة نادر شاه ، فأخضع لسيطرته الاتراك القاجار ، وهم بفتح بلاد فارس . فانتزع ، عام ١٧٩٥ ، من يد الزند ، مدينتي اصفهان وشيراز ، واستطاع عام ١٧٨١ ، ان يحل الروس على الانسحاب من مازندران بعد أن كانوا احتلواها . ومنذ سنة ١٧٨٥ ، بلغ قوزاق الامبراطورة كاترين الثانية ، مقاطعة القوقاز حيث راح امير الكرج يقدم خضوعه للامبراطورة ، كما قدم لها املاكه الواسعة الممتدة حتى نهر الاراكس ، من ضمنها ثلاث قلاع هي تبليس وأريوان وكوتاي . وفي سنة ١٧٩٥ ، انقض عليه الشاه محمود فجأة وكسره شر كسرة ، وقام بمقتلة بين المسيحيين ، ثم اتجه شطر الجانب الآخر من الامبراطورية ، ينتزع من ابن نادر شاه ، ولاية خراسان فاستطاع بعد هذه الفتوحات الضخمة ان يعلن نفسه ملكاً ويتوج ذاته « ملك الملوك » ولم يلبث ان جاءت جيوش الروس فتتقم لنفسها من المذابح الهائلة التي جعلت من تبليس مسرحاً لها ، ودخلت بلاد الكرج والداغستان وشيرون ، واجتازت نهر الاراكس ، وضربت خيامها في سهل موخان . واسرع السلطان آغا محمود يدافع عن مداخل البلاد وثغورها ، فلاقى حتفه مقتولاً ، عام ١٧٩٧ ، فكان موته إيذاناً بحروب طويلة مع الروس ، انتهت باستقرار الروس نهائياً الى الجنوب من بحر قزوين .

آل امر إيران في هذه الغضون إلى ايدي قبيلة تركية أمنت لنفسها السيطرة على البلاد بسلسلة من الغزوات والمذابح سمّرت الخوف في قلوب الاهلين ثم راحت تستغل البلاد وتستثمر

مرافقها على ايشع صورة . الا انها كانت اعجز من ان تُعيد الى البلاد وحدتها . وفي سنة ١٧٩٥ ، انفصلت عنها افغانستان وبلوشستان وغربي العراق . كذلك عجزت عن ان تثنى لها وحدة قومية اذ استقبلها سكان العراق وفارس وكرمان بالازدرآء ، والاستخفاف . كذلك كانت اعجز من ان توطن دعائم الحضارة من البلاد بعد ان زعزعت منها الاركان حرب جرت على البلاد ، خلال قرن من الزمن ، الحراب والدمار . فمنذ عهد نادر شاه نفسه ، بدت اعراض المحطاط ادبي قوية . فالآثار الفكرية والادبية التي تعود لهذه العهد ، تتسم ، على الاجمال ، بالغلو والاطناب والثروة . فقد عرفت بعض الفنون ان تحافظ ، الى حد ما ، على شيء من الازدهار الذي سجلته من قبل . فصناعة السجاد بقيت مزدهرة ناشطة حتى اواخر القرن . وفنون التحلية والوشى ، بقيت ضمن حدود المعقول والاتزان ، محافظة على ما عُرف عنها من بساطة ومن منهجية روعيت فيها بدقة ، اسس النظام ، ومبادئ الإيقاع والانسجام التي ميزت الفنون الأوروبية كما امتازت بوفرة نماذجها الشرقية ، وبهذه الرشاقة التي تطبع الطراز المعروف بطراز لويس الخامس عشر ، كما امتازت بزركشة الالوان في اتساق وانسجام ، على انساب مقدورة ، تتناوح فيها الالوان بين الفاتح والناصع والفاقع انسجاماً من جانب هؤلاء الفنانين مع التقاليد والاعراف الآرية التي اعتمدت طويلاً في هذه البلاد . ولكن ما ان يطل القرن التاسع عشر بفرقه حتى تطل معه بوادر الانحطاط ، في كل مرافق البلاد . وهو المحطاط « يطالعك في الطرقات والمباني ، وسير العلوم والجيش والادارة ، ليشمل كل ما طلعت به بلاد فارس ، في عهد الدولة الصفوية - بلاد فارس هذه الفنية والصناعية ممثلة بشيراز واصفهان التي اثارت الاعجاب في نفوس الأوروبيين . كل ذلك المحدر وهوى الى الحضيض في عهد اراك طهران » .

تكون الهند عالماً بذاته ، تعزله عن باقي اجزاء القارة الآسيوية ، سلاسل ضخمة الهند من الجبال الشاهقة ، عالم له خصائص حضارية مميزة ، استمدتها بما تناوح عليه من الارياح الموسمية الفصلية ، والديانة البراهمانية والنظام الطبقي الذي ساد تلك البلاد ، كما استمدتها من الاسلام الذي بسط سرادقه على سهول نهري الهندوس والقانج . فاذا ما ضربنا صفحاً عما بين الهندوس والمسلمين من فقرة وشحناء ، وضغينة وبغضاء ، فقد نشأ عن اختلاف المناطق الطبيعية وتباين الأحداث التاريخية ، عدد من التقاليد والاعراف والمعادن والاخلاق المتباينة .

كذلك نشأ فيها مجتمعات بشرية متباينة كانت عماداً لدول وتكأة لدويلات عديدة . وهذا السور الجبلي المحيط بالهند ، يقف مارداً لا يلين ولا يثنى الا في الشمال الغربي عند « ابواب افغانستان » التي تتكون من مجازات خيبر وبيغر وخوجاك وغفاجا ، هذه المنافذ بالذات التي تدافعت عبرها ، هادرة مزججة ، هذه الموجات الغازية من البدو الرحل التي استباححت الهند دون ان تبدل منها او تغيّر من حالها .

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان المغول تحت حكم المغول الأكبر اورنكزيب ، يسيطرون على الجانب الأكبر من شمالي الهند ، والشطر الشمالي من الدكن ، كما ان القسم الجنوبي منه اعترف بالولاء لهم . فقد كانوا في تنظيمهم ونظامهم اشبه بجيش اقام مضاربه وسط بلد ثم فتحه عنوة . وتألف الجزء الذي خضع مباشرة للمغول من إيلات *Soubabies* ، وتقسّم كل إيالة الى عدد من المقاطعات *Nababies* يتولى الادارة في الاولى : سوباب ، وفي الثانية : ناباب ، يُتخذون من بين كبار الموظفين . بيدم السلطة الادارية والعسكرية يختارهم السلطان من بين عملائه المخلصين . ومن بين من اخلصوا له الخدمة والطاعة ، تحت إمرتهم قوة عسكرية للمحافظة على الأمن والنظام في الولايات ، ولتأمين جباية الضرائب وايصالها سالمة مضمونة الى خزائن السلطان . ولكل واحد من هؤلاء الحكام ، وكلاء عهد اليهم السهر على استتباب الأمن ، كما لكل واحد منهم عدد من الجند توزعوا بين القرى والحشود الكبرى في المنطقة . وقام في هذه الولايات بالذات ، امرأه هندو اعترفوا بالولاء للسلطان ، كأمرأه راجبوت مثلاً ، لم يكتفوا ليرجموا في شؤونهم وأمورهم ، للحكام المحليين او الاقليميين ، بل ارتبطوا في علاقتهم العامة ، بالسلطان مباشرة ، يدفعون له رأساً ، الموائد والرسوم المتوجبة عليهم كما ربطوا انفسهم تجاهه بحق الولاء والطاعة . وعلى مثل هذا الوضع كان الامراء التابعين في الجنوب . شد الامراء بعضاً الى بعض ، وشائج وثيقة من الولاء ، بينما غامت فكرة الدولة عندهم واستدق مفهومها . فاذا ما فشا التراخي في السلطة وفي صاحبها ، واذا ما استمر السوباب والناباب في وظائفهم طويلاً ، قد يستحيل نظام الحكم عندهم الى شيء اشبه ما يكون بنظام الفدانة أو النظام الاقطاعي ، فيفضي الأمر الى سلسلة متعددة الحلقات من الرؤساء والتابع ، فيحولون مقاطعاتهم الى إقطاعات خاصة . وهذا ما حصل خلال القرن الثامن عشر . وهكذا نرى ان كل الطبقة العسكرية هي عيال على الضرائب المترتبة على الفلاحين والمزارعين والتجار .

ان ضآلة عدد المغول لدى وصولهم الى الهند ، وطبيعة الحضارة التي كانوا عليها دعتمهم للاعتصام بالتساهل ولأخذ الناس باللين . فقد راحوا يستمعون بكل من أنسوا فيهم الرغبة بالتعاون معهم ، دون ان يبالوا كثيراً بفوارق العرف والدين . وهكذا عمل في الادارة ، تحت اشرافهم ، فرس وافغان وهندوس وراجبوت ، كما استخدموا ، في الجيش ، إقطاعيين مشهوراً لهم بفتون الحرب ، وفرساناً ماهرين . كذلك اقتبسوا الكثير من مختلف الحضارات التي قامت في الهند ، كما جعلوا من اللغة الهندستانية لغة الادارة ، وسادت اللغة الفارسية في البلاط الامبراطوري الذي اصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي الايراني في الهند . تميزت سياستهم باللين ، وحكمهم بالعدل والنصفة تجاه الفلاحين والهنود . وقد حاولوا جاهدين ان يتعاونوا باخلاص مع ابناء البلاد الوطنيين ، فحافظوا بذلك ، على استمرار الحضارة الهندية ، كما ابقوا المجتمعات الهندية على وضعها الطبقي الاجتماعي . وهكذا بدا وضع الفاتحين اشبه ما يكون كالزبد يطفو على سطح البحر .

فإذا ما استطاع اورنكزيب ان يوسع من مدى فتوحاته ، فقد عرض للخطر سيادة المغول على البلاد . عُرف عنه تمسكه الشديد باهداب الدين وبتعصبه المقيت ، وباحتراره وازدراؤه لكل ما هو غير مسلم . ولذا راح يكثر من اعمال المطاردة والسخررة يزرع تحتها رعاياه . وابتعد عن وظائف الدولة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، الحكام الهندوس ، والشيعية من الموظفين وأحلّ محلهم موظفين سنّة . وحدثته نفسه بحمل الهنود على الاسلام بالقوة ، كما اصلى الهندوكيين اضطهاداً عنيفاً يفرض عليهم ضرائب خاصة هي الجزية . وحوّل معابدهم الى مساجد وأخذ بتعذيب رؤسائهم الدينيين . فلم تلبث سياسته هذه ان اثارت بين الهنود ردة فعل اهاجتهم ضد المغول . كذلك تفرّج بسياسته الهوجاء ، اشد الاتباع ولاء له حتى الراجبوت انفسهم الذين عرفوا بشدة بأسهم ، كما ان المراكز التي كانوا يحتلونها في هذه المقاطعات الخاضعة للاسلام والتي كانت تقضي بسالكها الى « ابواب افغانستان » جعلت منهم عناصر لا يُستغنى عنهم . فقد انتقض عليه الشيخ والمهرات . وبعد موته ، عام ١٧٠٧ ، تراخت قبضة سلاطين المغول على الهند واصبحت سيطرتهم عليها رخوة هشّة ، وبقيت امبراطوريتهم قائمة بالاسم فقط . وقد استمر كيار الموظفين يميلون عندهم الالغاب التي حملوها من قبل معلنين ولاءهم للمغول الكبير ، اما في الواقع فقد كانوا مستقلين . وكان من جراء الحروب التي نشبت فيما بينهم بغية الاستئثار بالسلطة ان جعلت ادارتهم خواء ، جوفاء ، وحكهم سلسلة من الاجراءات لا طائل تحتها . فلم يلبث ان أطل البدو من وراء الحدود ، لينقضوا كالشهاب الخاطف على الامارات الهندية يعملون فيها نبياً وسلياً قبل ان تقوم بردة فعل . فلا عجب ان تعود هذه الانقسامات الداخلية بالخير على الاوروبيين الذين كانوا يقربصون بها الدوائر ، فساعدتهم على فتح الهند واستعمارها .

ولم تلبث شدة المنافسة بين المطالبين بالعرش ان أدت الى المحلال السلطة في البلاد . وقام اولاد اورنكزيب الثلاثة يتنازعون فيما بينهم اطراف العرش ، ويقتتلون في سبيل تأمين صيرورته الى كل واحد منهم . وقد تم الامر نهائياً لابنه البكر بهادر ، واحتفظ بالسلطة حتى عام ١٧١٢ . وقام ابناؤه الاربعة ، من بعده ، بتجاذبون خلافة ابيهم فيما بينهم ، مما أدى الى قتل ثلاثة منهم ، فعاد الأمر لاصغرهم سنّاً ، المدعو ياهندر الذي اصبح المغول الاكبر فحكم البلاد سنة ١٧١٢ - ١٧١٣ ، الا ان ابن اخيه المدعو فاروق شير ، شق عصا الطاعة على عمه وتمكن من هزيمته وأمر بجنقه . ثم اعتلى العرش ، وقول الحكم من سنة ١٧١٣ الى ١٧١٩ ، وانتهى الامر معه الى المصير ذاته ، على يد الهندوس الثائرين الذين نادوا بتابعاً ، ببعض ذراري اورنكزيب ، سلاطين على الهند ، فحصد الموت وراحوا قريسة للدسائس والثورات والمؤامرات الى ان انتهى الامر الى واحد منهم يدعى السلطان محمود ، الذي كان حكمه بين ١٧١٩ - ١٧٤٨ ، اشبه ما يكون بحكم الظل . وخلفه في الحكم ، في الظروف ذاتها ، السلطان احمد (١٧٤٨ - ١٧٥٤) ، وعلمجير الثاني (١٧٥٤ - ١٧٥٩) وعلم الثاني (١٧٥٩ - ١٨٠٦) فقد كانوا جميعاً ، باستثناء علمجير الذي سقط وهو ييامه ، باطرة ظل ، وألعوبة بيد الاحزاب المتخاصمة ، يوزعون

الالقب والفرامانات ، ذات اليمين وذات الشمال ، مهم الوحيد لباس الامر الواقع لباس الشرعية ، والتاج ينتقل من هامة الى اخرى ، وفقاً لميزان القوى والمزايدة في الثمن .

ولما كان هؤلاء المتنازعون على العرش ، والمطالبون بحق الخلافة بحاجة لمن يشد من أزرهم . فقد راحوا يستنجدون نصره الجماعات الهندية ، ولا سيما الراجبوت منهم والسيخ والمهراث ، الذين تمكنوا من تأسيس ممالك وطنية ، جاء طلوغها تعبيراً بليفاً لهذه الحركة الرجعية التي قام بها الهندوس ضد حكم المغول .

وقد ألف الراجبوت ، باسكراً ، من الامارات التي تمتعت بشبه استقلال ، اتحاداً عاماً واطل عهد محررهم الفعلي عندما راح الراجا عجيت - ينغ ، نائب ملك احمد آباد - يسترجع عام ١٧٢٠ ابنته التي كانت تحت السلطان فاروق شير ، وحملها على انتزاع لباسها الاسلامي ، وطرده وصيفاتها المسلمات . فكان بذلك اول راجا في الهند يسترجع ابنته بعد زواجها من ملك مسلم . الا ان الامراء الراجبوت كانوا على اختلاف عظيم وانشقاق بالغ فيما بينهم بحيث قصروا عن القيام بالدور الحاسم الذي اهلتهم له بسالة فرسانهم وموقعهم الجغرافي .

فبعد ان اصلى اورنكزيب السيخ اضطهاداً حامياً ، حسن وضعهم بعد ان آل الامر الى بهادر الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني ، وادخل في خدمته مرشدهم وزعيمهم الديني غويند . الا انه اقتضى لهم اكثر من نصف قرن من الجهاد المرير والحروب الموصولة ، لتأمين سلامة مؤسساتهم في حوض نهر الهندوس . وقد تم لهم ذلك بواسطة عقيدتهم الدينية التي غدت فيهم مكارم الاخلاق وبمشت فيهم الحماسة والنشاط . فقد كوتوا طائفة ظهرت بوادرها في القرن الخامس عشر ، تألفت من عناصر هندية متمدة الجذور والفروع . فقد عزفوا عن الشرك وعن عبادة الاصنام ، كما ضربوا عرض الحائط ، بالطقوس الدينية والفروق الطبقيه ، فتألب حولهم جماهير كثيفة من الهندوس ، من كل الطبقات الاجتماعية ولا سيما من طبقة المنبوذين ، فقالوا بوحداية الله ، كما قالوا بالقدرية ، مما زادم حماسة ونشاطاً اثناء المعارك التي خاضوها ، وفرضوا ، في الحين ذاته ، بذل الجهد الشخصي ، وعمل البر ، وعجبة الله والقريب كشرط اساسي للخلاص . ومن وصاياهم الا يديروا ظهورهم للعدو وان يمتنعوا عن تعاطي المسكرات والمخدرات ، وايبح لهم اكل اللحوم مما امن لهم قوة بدنية لم يتوفر مثلها في غيرهم من الهنود الذين يعيشون على البقول والخضراوات . وهكذا فقد جعل الايمان من هذا اللين من الهنود الذين لا يعترفون بنظام الطبقات امة اعطت البلاد خير ما لديها من جنود . . وانتهى بهم الامر الى استرجاع البنجاب ، كما تمكنوا ، عام ١٧٦٤ من احتلال مدينة لاهور .

أما المهراث ، فقد ألفوا ، في الاصل عرقاً جبلياً من قبيلة الغات الغربيين فشكّلوا فرقة من الحيلة ، اشتهرت ببسالتها وبسرعة حركاتها بحيث كانت تنقض على العدو على حين غرة منه فتززع الخوف والرعب في النفوس . فقد أعلنوا الثورة في القرن السابع عشر وانضم الى

بذلك لهم الوسائل المالية اللازمة لانشاء جيش قوي ، كما تمت لهم سلطة شرعية كانت ستاراً لهم ومبرراً للقيام بهذه الاستباحات واعمال السلب والنهب التي قاموا بها في هذا القسم الشمالي من الدكن . وبعد ان اصيب الراجا شاو بالجنون ، من جراء وقوعه في *Zenana* اورنكزيب ، أثر رسوفه في الاسر أصبح هو وخلفاؤه من بعده ، خاملاً ، كسولاً ، قعدة . فقد صار الامر الى سدنة البلاط : البايشوى الذين تولوا زعامة المهرات وتوجيههم ، واستمروا في مناصبهم مشرفين على إقطاعاتهم في بونا حيث أسسوا سلالة ملكية . فأقطعوا ضباط جيش المهرات المناطق والاقالم ومجموعة القرى والداكر ، وفوضوا اليهم جباية الضرائب والرسوم . وهكذا تحول حكم المهرات تدريجياً الى نظام إقطاعي . فقد نال اول امراء البايشوى ، من سلاطين المغول عام ١٧٢٧ ، حق جباية الضرائب في هذه الدول والامارات الواقعة الى الجنوب من الدكن (ميسور ، وترافنكور ، والكرناتيك) ، وفي الولايات الست الاخرى الواقعة في الشمال . وقد بسط ثاني امراء البايشوى هواجي الراجي - داو (١٧٢٠) سلطانه حتى حدود الانهر : تشامبول والجوما والغانج ، ووزع هذه الاراضي الجديدة التي دوخها ، إقطاعات بين بيوتات المهرات الاربعة الكبيرة : فنال الهلكار ، مالوى الجنوبية وجعلوا من اندور عاصمة لهم ؛ ونال الندهيار مالوى الشمالية وعاصمتها غوالبور . ونال البهوسلا بيار مع نغبور عاصمة لها ، كما نال الغويكوار قسماً من الفوجيرات وعاصمتها بارودا . وهكذا امتد حلف المهرات حتى مشارف دلهي ، وفي عهد الثالث من امراء البايشوى ، المدعو بالاجى داو (١٧٤٠ - ١٧٦١) ، استمر المهرات في هجومهم وغزواتهم في جميع الجهات . ولم يفشلوا الا مع الفرنسيين ، فاضطروا للاعتراف لهم بالتابعة والولاء (١٧٥١) . غير ان الانشقاقات التي شجرت بين امراء المهرات وبينهم وبين امراء البايشوى ، ألحقت الوهن بالحلف الذي كانوا توصلوا الى انشائه . فلم يكونوا ليوحدا فيما بينهم ويستجمعوا قواهم الا عندما يرون انفسهم امام خطر مداهم يتهددم من جانب المغول .

والهندوس مدينون بالنجاحات التي حققوها ، لهذه الانقسامات التي اقامت المسلمين في الهند بعضهم على بعض وفرقتهم . فقد تمت الغلبة لفاروقشير ، بفضل مناصرة شقيقين من السياد (من سلالة النبي العربي) ، سليلي اسرة شيعية استوطنت منذ بضعة قرون مقاطعة دواب *Doab* ، كانت تفخر باصلها الهندستاني : احدهما حسين علي ، نائب حاكم بئنا ، الذي آلت اليه رئاسة الوزارة ، والثاني عبدالله خان ، نائب حاكم الله اباد القائد العام فيها . كان تحت امرتهم عدد من الانصار ورجال الحرب . فقد نهجا سياسة قومية هندستانية ، وعينا في المراكز الحساسة الهامة بعض المسكرين من انصارهما . وإذ رأى فاروقشير انهم على جانب من القوة راح يناصر المغول . واذا ذلك جمعوا صفوفهم ولوا انصارهم ونادوا باسقاط فاروقشير وخلصوه وعينوا مكانه محمداً واخذوا بتوجيهه .

ضاق نبلاء المغول وأشرافهم صدرأ مما لحقهم من خسف وأصابهم من اهانة ومذلة ، فاحتاجوا

وأعلنوا الثورة. وتمكن نظام الملك سوإدار مالوى من التغلب على الشقيقين وتمكن من انقاذ الامبراطور عام ١٧٢٠. وكان من نتائج هذه الردة المغولية ان افضت الى تفسخ جديد في الامبراطورية المغولية وتخلخلها. واذ اتضح لنظام الملك ان الامر خرج من يد الامبراطور الذي اصبحت سلطته واهية ، اقتطع لنفسه (١٧٢٢ - ١٧٢٤) امارة في الدكن وأسس فيها دولة وراثية ، اقامت صورياً ، الولاء للمغول الكبير . وسار على هذا النهج ايضاً ، في نيابة أوده الملكية ، سودوت خان ، هذه النيابة التي وقفها عليه السلطان محمود ، مكافأة له على خدماته . وعلى هذا النحو قس ايضاً نيابة البنغال وبيهار واوريسا التي انفصلت عن الامبراطورية وأعلنت استقلالها . ولم يبق للمغول الكبير من سلطة فعالية الا في مدينة دلهي وضواحيها .

اما المهرات الذين كانوا في سبيل بسط سيطرتهم على الهند اجمع ، فقد اصطدموا في تقدمهم وتوسعهم بالدول الاسلامية ، ولا سيما بالنظام ، واخذوا يطالبون بفرض الرسوم والضرائب على ممتلكاتهم . ومع ان النظام فشل في حروبه ضد المهرات (١٧٢٩ - ١٧٣٦) فقد نال مع ذلك ، وعداً بالآي يدخل المهرات الى ممتلكاته . وقد تعهد من جهته بالآي يسبب لهم ابي ازعاج ، ولا أية مضايقة في متابعتهم فتوحاتهم باتجاه الشمال وباستثناء غزواتهم في هذه الناحية . وقام المهرات بعدة غزوات امتدت الى مشارف البنغال ، واجبرت بهار واوريسا على دفع جزية لهم ، وكذلك كان شأن راجا ميسور . ووجه بلاجي راو غزواته باتجاه الراجبوت والبنجاب والاورده واستولى على مدينة باسن بعد ان طرد البرتغاليين منها ، وهدد غوا بالمصير ذاته ، وقام بغزوة على الممتلكات الفرنسية الا انها باءت بالفشل . وقد بدا ان مغازي المهرات ستتناول الهند في جميع اطرافها فركب لهم والغم نبلاء المغول ، كما ان القلق دب بين التجار والفلاحين الهنود . وهكذا تعطل في البلاد النظام الاجتماعي المعمول به وبارت التجارة وأرهمق الفلاحون . وقام خليفة نظام الملك ، هو النظام سلبات - يونغ بجهود طيبة في هذا المجال واستعان بفرقة السيباي التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي بوسي الموفد من قبل المعتمد الفرنسي دوبليكس . وقد انكسر بلاجي - راو ، عام ١٧٥١ ، الا ان الفرنسيين اضطروا للانسحاب عندما اشتدت منافسة الانكليز لهم ، وغلب سلبات يونغ على أمره واضطر للدخول في مفاوضات مع الانكليز انتهت بالتخلي عن بعض ممتلكاته . واستأنف خليفته نظام علي الجهاد ، الا ان الفرنسيين تخلوا عنه عند نشوب حرب السبع سنوات. بعد ان عرف المهرات كيف يستفيدون من تفوق جنود فرقة دي بوسي ، فأعادوا تنظيم جيشهم ، وقوّوا من شأن فرقة المشاة والمدفعية عندهم بتزويدها بمدافع شبيهة بما كان لدى الفرنسيين . وهكذا غلب نظام على أمره وتوزعت ممتلكاته بدأً .

هذه الحروب المتصلة الحلقات بين الهندوس والمغول وما اتاحت من نهب وسلب واستباحات عرضت الامبراطورية المغولية لغزوات جديدة بعد ان طمع بها الطامعون . فبعد ان عامل امبراطور المغول ، شاه المعجم نادر شاه ، بازدراء وعجرفة ، راح هذا الاخير يهاجمه عام ١٧٣٩ .

فوجد الشاه في منطقة كابل وبشاور نواب ملك عاجزين دانوا بوظائفهم المحسوبة ، كما وجد الحاميات في غاية الاهمال ، والقبائل التي عهد اليها الانذار بالخطر والاستنفار والحد من تقدم الغزاة ، تتدمر وتتأفف غير راضية لعدم قبضها مرتباتها . فدخل الهند وكسر السلطان محمود واستولى على دهلي وقام بنهب البلاد بصورة منتظمة ، وحمل معه عرش المغول الكبير ، ثم غادر البلاد وقفل راجعاً فجأة بعد ان اوصى السكان بطاعة الامبراطور والامتثال لوامره بعد ان اوسعه نهياً وسلباً . وقد قام الافغان بقيادة احد عبدلي يغزون الهند مراراً ، بعد ذلك ، سنة ١٧٤٨ ، الا انه تمكن من ايقافهم واخراجهم من البلاد ، ومن غزوها سنة ١٧٥٢ فتمكنوا من احتلال البنجاب وتعيين نائب ملك مغولي فيه ليس له من السلطة سوى الاسم ، وفي سنة ١٧٥٦ استولوا على دهلي ، واخيراً سنة ١٧٥٩ . وقام الهنود هذه المرة بكرة عامة اشترك فيها المهرات والسيخ ، الا ان الانشقاقات الحادة نشبت بينهم وهم يواجهون عدواً مشتركاً . فقد تخلف عن القدوم بهوسلا من بيرار ، ونائب ملك بوده التزم موقفاً معادياً من المهرات . كما انسحبت جماعات اخرى من المواقع المخصصة لها في تمبته الجيش . ولم يعرف المهرات ان يستفيدوا كما يجب ، من مدفعاتهم ومن الفرق العاملة لديهم والمعبئة على نظام التمبته الفرنسي ، عدا عن الفرق التي لم تأت شيئاً يذكر والتي لم تعرف ان تنسق حركاتها وتنقلاتها في اثناء المعركة لتأتي منسجمة مع حركات الفرسق المختلفة . وفي معركة بانبيوت التي وقعت في ٧ كانون الثاني ١٧٦١ ، انهزم المهرات شر هزيمة امام مناورات الخيالة الافغان الضخمة ومجباتها العنيفة المتكررة .

ومعركة بانبيوت والهزيمة النكراء التي الحقها بالمهرات ، وضعت حداً في القرن الثامن عشر للحلم المسول الذي راودهم بان يروا الهند حرة مستقلة . فقد قُت في عضد المهرات بعد معركة بانبيوت الطاحنة التي خسروا فيها ٢٠٠،٠٠٠ جندي من خيرة رجالهم ومعظم قوادهم وزعمائهم بقطع النظر عن النساء والاطفال . ومنذ ذلك الحين اصبحوا اعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متاسكة الاطراف لتتف بنجاح ضد هجمات البدو ، هذا اذ سلمنا جدلاً انه جال في خاطرهم مثل هذا الحلم ، وأوتوا مثل هذه القدرة . اما الدول الهندية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب ، مهيضة الجناح . وكذلك قس الدول الاجنبية كلافغان الذين لم يبرهنوا الا عن مقدرة فائقة على الغزو والنهب والسلب ؛ ويران التي راحت فريسة حروب اهلية ، داخلية ؛ وقبائل التركستان والمغول التي لم تلبث ان راحت فريسة هجوم الصينيين بعد ان تمت لهم مدفعية من الطراز الاوروبي . ومن جهة أخرى ، فالتطور الذي عرفه حلف السيخ وتمركزه في مدينة لاهور ألف حاجزاً قوياً في وجه الغزوات التي كان يقوم بها الافغان ، كما وقف حاجزاً دون تعديات شذاذ الآفاق في التركستان والمعجم الذين كانوا يمدون الامبراطورية المغولية بمجاهتها من قواد الحرب ورجال السياسة . وهكذا سار الامبراطور والامبراطورية المغولية على طريق الانحلال والانهيار ، ولم يعد في مكنة أحد ان يعيد الى الهند وحدتها بعد ان اصبح تاريخها سلسلة

متصلة الحلقات من الفوضى والاشتبكات الدامية . فعم البؤس البلاد وخيم عليها الضيق ، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم ، قبل كل شيء على سواعدهم والاعتصام بالحيطة . اذ لم يعد المرء يهتم قبل كل شيء الا بما يؤمن له أورد العيش وما فيه أمنه وسلامته ، لا يلوي على شيء وفقد كل ثقة بالناس . وبارت الارض وما عليها من زرع وخصر ، لفقدان الطمانينة ولاشتداد المجاعة في البلاد . وتعرضت المواصلات لمخاطر كثيرة واصبح المسافرون عرضة لفتك النمرة والغيلة ، وشلت حركة التجارة في البلاد . فالقرى اقفرت من ساكنيها ، والمدن غادرها اهلها ، وتداعت للخراب الهياكل والمساجد في مقاطعات كثيرة . فتدخل الاوروبيين وحدهم في القرن الثامن عشر ، سيساعد على إعادة النظام واستقرار الأمن تدريجياً في البلاد ويفتح امامها ابواب التطور .

بذل الاكليروس مجهوداً طيباً في حقل التبشير بالمسيحية في الهند ، ولا سيما في ممتلكات البرتغاليين ومراكزهم الرئيسية امثال غوا وديو ودامان ، كما عمل في هذا المجال ، مجال الرسالة بعض ابناء الرهبانيات الكبرى . قام في وجه الرسالة عقبات كأداء كثيرة . فالمسيحية قالت وعلمت بمبدأ المساواة ، وهو مبدأ يتعارض كلياً ونظام الطبقات المعمول به في الهند . فالروح هبّ حينئذ يشاء والله لا يأخذ قط بالوجوه . فكيف يالف البراهمان او يقبلون فكرة تناول القرىبان من يد كاهن هو من طبقة المنبوذين ؟ فمجرد تصور الاحتمال تدنيس له وتلطخ لطهارته ، ومجرد التفكير به يجعل فرائضه ترتعد فرقا وجزعاً ، كما ان مجرد اعتناقه للمسيحية يخلف فيه عوجاً او شوهاً لكيانه ويسبب له عذابات مبرحة . فالهندي الذي اعتنق المسيحية وارتماها له عقيدة ودستوراً ، لم يعد يجوز له الخضوع للمراسم والامثال للطقوس الدينية التي كان عليه ان يأخذ بها ويخضع لها وهو على الهندوكية ، وكذلك قل عن الخرافات والطقوس الصنمية . وافراد الطبقة الذين انفصل عنهم وانقطع عن شراكتهم لا يستطيعون بعد ان يحافظوا على هذه الرشايق والروابط التي شدتهم بعضاً الى بعض من قبل ، بعد ان اصبح المنتصر ، في نظرم ، رجساً ، نجساً ، كما امتنع على هذا المنتصر الدخول في أية طبقة اجتماعية اخرى . ولذا فهو يجد نفسه مفصولاً او مقطوعاً عن كل طبقة ، معزولاً عن جميع الناس ، مشرداً ، مرذولاً ، ضائعاً في متاهة الحياة .

ومن جهة ثانية ، فالمسيحية هي نفي من الاساس ، لهذه الصورة التي رسمتها كتب الهندوس القديمة للكون ، والتي قالت بها الهندوكية وعلمت ، والتي تمور بها وتلهج اناشيد الهندوس وزبورهم . فالصعوبة الكبرى لم تقم في القول بتعدد الآلهة ولا بالقول بالمذهب الروحي في الحيوانات . فهي تكن في هذه الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة الهندوكية بعد أن تلقت البراهمانية بالآثار البوذية ، كالمطلق والكائن غير المتناهي ، والخالد ، وكلها افكار آخذة ابدأ في تطور دائم . وهذا الكائن المطلق يبدو للناس انبثاقاً متصللاً من الاشكال والذات المتغيرة ، ممثلة في هذه الكواكب والاشياء والنسبات والحيوانات والناس والآلهة انفسهم ، وهي صور واشكال ليست في الواقع سوى خيالات ومظاهر غرارة لهذا الكائن

المطلق لا وجود ولا حقيقة لها في غير ذاتها . هذا القول يفضي بصاحبه الى الحلولية .
 فالاشياء كلها اجزاء من المطلق ، من الكائن الاسمي . وهذا القول بالذات يصدّم المسيحية في
 العمم ويبطل العقيدة المسيحية ويملاّ نفس المسيحي رعباً وظلاماً . وبالفعل ، فع ان الايمان
 بيسوع المسيح هو بعزل عن كل فلسفة او مذهب فلسفي ، فقد راح علماء اللاهوت يستمينون ببعض
 السمفات التاريخية ليفسروا كلام الله ، ابي الكتاب المقدس لتقريب مفهومه من مدارك الناس ،
 مستعينين على ذلك ببعض الاصطلاحات والتعابير والتراكيب التي وردت على السنة فلاسفة
 الأغرقي كإفلاطون ، ولا سيما ارسطاطاليس ، ثم توسعوا فيها واكملوها . فالعقيدة المسيحية
 اتضحت وتبلورت وتركزت على اساس من هذه المصطلحات الفلسفية التي تقول اساساً بأن
 للاشياء المحسوسة جوهرها الفرد ، هذه الصورة المتعددة التي تعطي المادة شكلها وكيانها وصيغتها
 وطبيعتها المميزة . فالكون وجود واقعي . فالعالم الخارجي ، قائم موجود . وهذا القول يحمل
 العقيدة المسيحية بوجود اله شخصي ، جوهر روحي ، حقيقي متميز اصلاً وجوهرأ عن العالم ،
 الاساس الركين للايمان بالسيد المسيح . ففي نظر هندي مثقف كما يجب ، فالمسيح ليس سوى
 مظهر من مظاهر الكائن الاكبر التي لا عد لها ولا حصر . فاعتناقه المسيحية والقول بمقاتلتها ،
 يكون عنده بالفعل ، انقلاباً جذرياً ، كلياً ، لا فكاره ومكنوناته ويقبلها رأساً على عقب
 وظهرأ لبطن .

هذه الصعوبات وغيرها كثير لم تحل دون حصول ارتدادات بين الهندوس واعتناقهم
 النصرانية ، انما هي ارتدادات اقل بكثير مما تمنته محبة المرسلين وسعت غيرتهم الملتبهة الى
 تحقيقه ، وقد ناقوا لو يستطيعون ارتداد كل الهندوس . فقد قام الآباء اليسوعيون ، في القرن
 السابع عشر بمجهود جبار ليؤقنوا بين المسيحية وبين فكرة الهندوس ونظامهم الاجتماعي .
 فقد حافظوا على مظاهر طقوس هندية كثيرة ، ووضعوا اناشيد وأماديع دينية تحاكي من حيث
 شكلها ومحتواها ، الاناشيد والتراتيل الهندوكية القديمة بحيث لا يستطيع التمييز بينها الا من
 أوتي بُعد النظر وصدق الخبر ودقة البصر . وقد اقتبسوا كثيراً من حكمة الهنود وادخلوها حكم
 المسيحية ، وراعوا ، ما امكن ، مفارقات الطبقات الهندية . فاليسوعي الذي تلبس مظاهر
 البراهمان ازدرى بأخيه اليسوعي المتدثر باسمال المنبوذين وضرب كسحاً عنه . فاذا ما تحتم على
 يسوعي مثلاً ان يحمل القران الاقدس لمسيحيين من طبقة ادنى ، كان عليه ان يناولهم القران
 على رأس قضيب او ان يتركه على عتبة منزل المسيحي . وهذه «الطقوس الملائرية» ، سببت
 الشكوك لعدد كبير من المرسلين وحركت فيهم الغضب والحقد . فقد اصدر البابا ، منذ عام
 ١٧٠٤ براءة رسولية يشجبها باعتبارها مغايرة للروح والآداب المسيحية . وفي عام ١٧٤٥ جاءت
 البراءة البابوية *Sollicitudo omnium* تؤيد الحكم السابق وتثبته . فلا عجب ان تحف من جراء
 ذلك حركة الارتدادات . ومع ذلك ، فقد بلغ عدد المسيحيين في الهند ، عام ١٧٥٦ ، نحو
 من المليون . الا ان الملوك اخذوا بحاربة اليسوعيين . ففي سنة ١٧٥٧ ، أمر بمبال باعتقال

١٥٧ مرسلًا يسوعياً في الهند وإبعادهم الى لشبونة . وفي سنة ١٧٥٨ ، صدر امر يمنع الآباء اليسوعيين من القيام برسالتهم في المستعمرات البرتغالية ، فاضطر بضع مئات من الرهبان والمرسلين الى مغادرة تلك المقاطعات ، والعودة من حيث أتوا . وفي سنة ١٧٦٤ ، جاء دور المستعمرات الفرنسية . وفي نهاية المطاف اصدر البابا عام ١٧٧٣ ، مرسوماً بالغاء الرهينة اليسوعية ، مع العلم ان الحروب المتصلة وفساد الاخلاق والآداب الآخذ بالانتشار لم يكن ليسانع كثيراً على نشر ديانة تقوم على البذل بالنفس والتجرد والمحبة ، والتي تجعل من طهارة القلب الشرط الاساسي لاقتبال كلمة الله ، والى هذا ، راح المسلمون والهندوس انفسهم يضطهدون المسيحيين . ففي خلال حروب ميسور (١٧٦٦ - ١٧٩٩) قتل تيبو - صاحب ، اكثر من ١٠٠،٠٠٠ مسيحي او جعلهم يرسفون أرقاء في العبودية . والهولنديون الذين كالوا على البروتستانتية ، اخذوا ، هم ايضاً ، يضطهدون الكاثوليك ، في جزيرة سيلان ، ويطردون المرسلين العاملين فيها او يأمرؤن بقتلهم . ففي سنة ١٨٠٠ ، لم يكن عدد المسيحيين في الهند ليزيد على ٥٠٠ الف . ثلثاهم قام في المستعمرات البرتغالية القديمة ، يقوم على خدمتهم الروحية اكليروس وطني ، بينما الباقيون منهم هم مشتتون في جميع ارجاء الهند وسيلان ، على خدمتهم مرسلون كبوشيون وكرمليون ومرسلون تابعون للرساليات الاجنبية . وهكذا فشلت حركة الارتدادات كلها فشلت تماماً حركة فرنجية الهند وتمثلها الحركة العلمية الاوروبية .

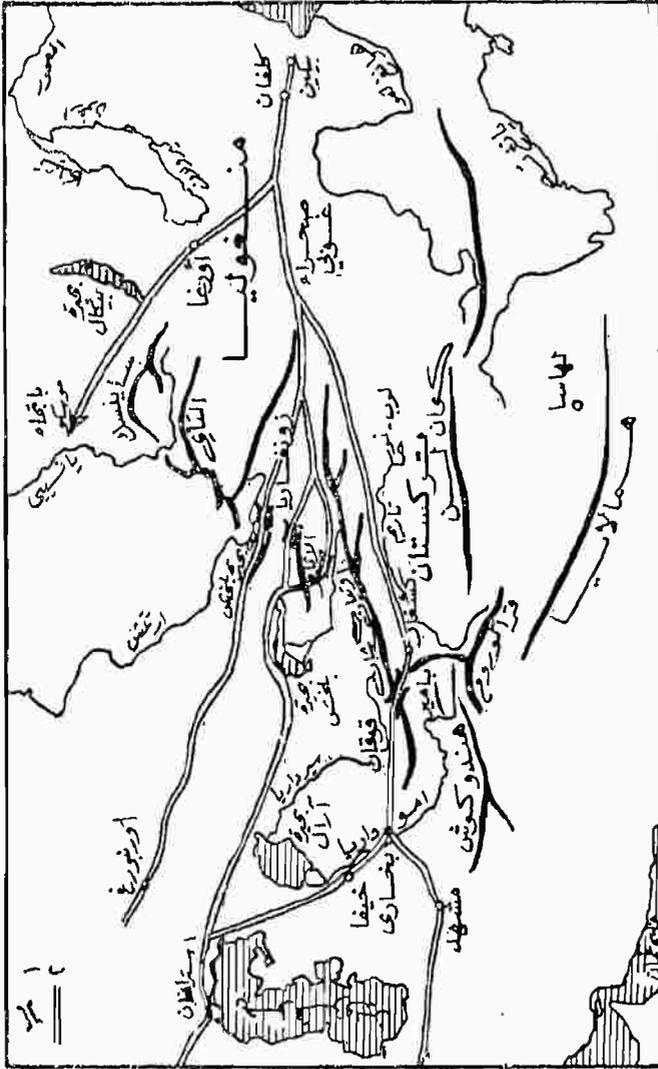
وقد نجح الاوروبيون في مجال آخر ، خارجي المظهر ، سطحي المنظر ، هو بدء استبعادهم الهنود واستثمارهم لمراقى الهند . ففي ، مطلع القرن الثامن عشر نشط للعمل في الهند شركتان تجاريتان احدهما فرنسية والاخرى انكليزية . لكل واحدة منها مجلس ادارة اعضاؤه من بين كبار حملة الاسهم فيها . فالشركة الانكليزية تتولى هي نفسها ، ادارة اعمالها ، بينما كان يتولى ادارة الشركة الفرنسية مدير يعينه الملك نفسه وتخضع اعمالها لمراقبة مفتشين ماليين . وعلى المدير ان يتقيد بتعليمات الحكومة الفرنسية وتوجيهاتها . وكان مجلس الادارة يتمثل في الهند بجاك عام يتولى مهام الادارة ويقوم بتوجيه وكلاء الشركة وممثليها في المقاطعات . وقد نالت كلتا الشركتين من المغول الكبير ، إمتيازات تحوّلها تأسيس وكالات تجارية لها . فأنشأ الانكليز لهم وكالات هامة في مدراس وكلكتوفا وبمباي وصورات ، كما أنشأ الفرنسيون وكالات لهم في بنديشري وشندرنافور . واشتدت المنافسة بين الشركتين اشتداداً قوياً اذ ان تصدير البضائع الهندية الى أوروبا (منسوجات القطن والموسلين والحرائر والشاي والبن والفلفل الخ) كان يعود على التجار بأرباح طائلة تصل احياناً الى ١٠٠٪ الا انه منذ ١٧٣٠ ، كان معظم حملة الأسهم في الشركة الفرنسية من ذوي الارياد المحدود الدخل . كما ان مديري الشركة هم موظفون لا مهمهم كثيراً لمجحت اعمال الشركة التجارية الموضوععة تحت اشرافهم او ازدهرت مشاريعها او لم تتجعج .

تمكنت الشركة الفرنسية من النهوض بأمورها التجارية بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بشكل يثير

الاعجاب . فبينما اعمال الشركة الانكليزية كانت تعاني الركود والجمود ، فقد اعتمد الحاكم الفرنسي العام «ل نوار» ، مبدأ التجار في الهند ومع الهند ، بالنظر لهذه الفوارق العظيمة التي باعدت بين مختلف اجزاء البلاد والمباد فيها ، اي ان الشركة استخدمت كوسيط في اشباع مطالب شعوب الهند وتلبية حاجاتها . فاستطاعت الحصول على امتيازات جديدة من المغول الكبير ، منها مدينة ماهيه (١٧٢١) و ياناون (١٧٢٣) . فقد بدا واضحا للحاكم الفرنسي العام دوماس (١٧٣٥ - ١٧٤١) ، وهو يشاهد عن كثب تفسخ امبراطورية المغول وقتاؤها ، ان الاستمرار في الاعمال التجارية بنجاح يقتضى له قوة مسلحة تفرض حولها الهيبة والاحترام وتدعم المفاوضات التي تقيمها الشركة مع مختلف الامراء الذين يحققون استقلالهم التام . فلم يغفل في تقديره ما للعرف من اهمية (كما انه لم يلتصق بوصفه مستعمرا مطلقا جيدا على ما للأوضاع المتحكمة) من قيمته ، وادرك جيدا ان الهنود سيكونون غيرهم بعد ان يتعرفوا الى النظام الأوروبي المدهش ويستمرئوا مميزات وحسناته . فشكل طوابير وطنية اتخذ افرادها من بين فرقة السيباي المعروفين ببرودة دمهم ورباطة جأشهم ، حتى اذا مسلحوا بالبنادق الجديدة والمدفعية الخفيفة ، قاموا بالمعجزات المدهشات اذا ما قيسوا بغيرهم من الهنود الذين يتألف سلاحهم من بنادق قديمة ومدافع ثقيلة والدروع المزودة وغير ذلك من الاسلحة . وأنشأ له علاقات مع بعض الامراء كثنائب كرناتيك ، ولم يتردد قط عن الاعتراف لهم بالتبعية والولاء . وتمهد له ، لقاء ثلاثة امتيازات جديدة للتجار ، بدفع بعض الرسوم كما قدم له مراسم الطاعة مع فرقته السيباي . وهكذا نال من احد الراجات امتياز كاريكال عام ١٧٣٩ . وبرهن عن مشاعر انسانية كريمة في علاقاته مع ابناء البلاد ، وأظهر احتراماً لمبادياتهم وعاداتهم وطقوسهم الوطنية . ولم يهمل قط امر مفاوضة المغول الكبير الذي انعم عليه بلقب ناباب ، وهو لقب ينتقل الى الابناء بالوراثة . وهكذا اصبح من توابع الامبراطور مباشرة ، وأصبح له في الممتلكات الفرنسية سلطة أكبر على ابناء البلاد ، كما علا شأنه وارتفعت منزلته في نظر جميع الهنود ولا سيما في نظر الملوك والرؤساء وأصبح يتعامل معهم كالند للند .

وسار على نهجه وسنته خليفته في الحاكمة دويليكس (١٧٤٦ - ١٧٥٤) الذي كان يعرف الهند معرفة عميقة وتزوج من احدي الخلاصات احسنت التكلم بعدة لهجات هندية . إلا ان حرب خلافة النمسا^(١) اضطرته للتوقف في نهجه والصمود في وجه الشركة الانكليزية . واستطاع بمساعدة عمارة لابوردونيه الذي كان حاكماً على جزيرة فرنسا ، ان يتحكم بطرق المواصلات بين الهند والصين ، واستولى على مدينة مدراس (١٧٤٦) وقد تردد قليلاً بين ان يهدم المدينة من الاساس وبين الاحتفاظ بها . الا انه رضي باعادتها الى الانكليز لقاء فدية عالية دُفعت له . الا ان هذا النبيل الفخور الذي ارهقته المفاوضات مع جلف عنيد تنازل عن الهند . ودويليكس نفسه

(١) - انظر المجلد الثالث ، الفصل الثالث .

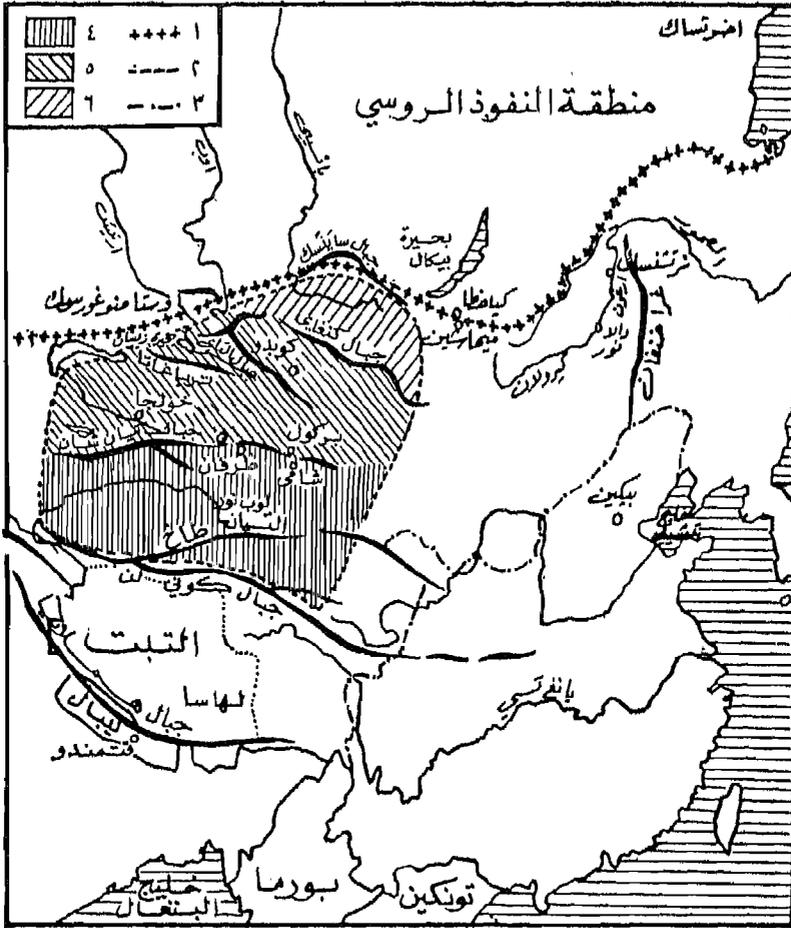


خريطة - ١ - طرق آسيا الوسطى
 ١ - الممرات الرئيسية ٢ - طرق القوافل .

انثنى عن متابعة فتح المراكز التجارية الانكليزية . ومع انه لم تصله أية امدادات جديدة من الحكومة الفرنسية الغارقة في حروبها في القارة ، فقد احتفظ بمدراس وتمكن عام ١٧٤٨ من صد هجوم بحري قامت به عمارة حربية انكليزية اوفدتها حكومة الانكليز لتعزيز مركز الشركة الانكليزية التي لم تغفل قط عن حربيها الاساسية ضد بُنديشري . وجاءت معاهدة أكس لا شابل تعيد الأمور في الهند الى وضعها السابق : فعادت مدراس الى ايدي الانكليز . وقد تمتع دوبليكس بنفوذ عظيم وشهرة واسعة في الهند حتى ان المغول الكبير بمث يهنئه على البسالة والشجاعة التي ابداهما .

وخطر لدوبليكس ، آنذاك ، ان يجعل من الشركة الفرنسية سلطنة هندية ، وذلك محافظة منه على ما لها من امتيازات تجارية عريضة وتأميناً لموارد ورسوم ثابتة . فقد اراد ان ينحو نحو التوابع الاخرين الذين يعترفون بالولاء للامبراطور ، وينشئ للشركة ملكة مستقلة مع الاستمرار على ولائه للامبراطور والاعتراف بسلطته الاسمية . فتدخل في المشكلات والنزاعات التي لم يكن لخلافة الامبراطور بد من اثارها وبعتها ورجح النصر والفوز النهائي للمطالب بالخلافة من انصاره . وهكذا اصبح ناباب كرناتيك من توابع الشركة الفرنسية ، كما ان نائب باب الدكن قبيل بجمايته وتنازل له عن مقاطعة السركار (١٧٤٩ - ١٧٥١) . وقد استنفر المهرات جيوشهم وقوام لتأييد مطالبهم للسيطرة على الدكن كاملاً وتوافدوا باعداد كبيرة ، إلا انهم 'كسروا شر انكسار ، وهي نتائج أمكن له الوصول اليها بقبضة من الجند ، بينهم ٣٠٠ من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ من السيباي مع كتيبة من المدفعية بقيادة المريكز دي بومي ، هذا الزعيم المدهش الذي يعرف كيف يبعث الحماسة والنشاط في قلوب رجاله ، والذي ارسله دوبليكس فعرف كيف يستولي على جميع اطراف الدكن وألحق الهزيمة بجيش المهرات الذي تجاوز ١٠٠،٠٠٠ محارب ، معظمهم من الفرسان .

ادرك احد الموظفين الانكليز في الشركة الهندية الشرقية الانكليزية ، يدعى روبرت كليف ، بعد فترة من الزمن ، ان السبيل الوحيد للصمود تجارياً ، في وجه الفرنسيين ، هو انتهاج السياسة التي ينتهجونها ، فقرر السير على خطتهم والنسج على منوالهم . فتاريخ الهند في هذه الحقبة ، يرى في الشركتين المذكورتين المتنافستين ، تابعين من توابع المغول الكبير الآخذ بالانحطاط والانحلال ، يحاول كل منها الاستئثار بأكبر قسم من تركته . فبعد ان تلقى كليف إمدادات قوية من لندن ، تشكلت من جنود انكليز ومن مدفعية ، تمكن من دحر ناباب كرناتيك (١٧٥١) ، وتغلب في معركة تريشينا بالي ، على الضابط الفرنسي لو Law ابن شقيق الاقتصادي المشهور بهذا الاسم ، الذي كان يتولى قيادة فرقة من فرق دوبليكس (١٧٥٢) . اضطر دوبليكس لطلب امدادات جديدة من الشركة . غير ان الشركة الفرنسية تفتقر للمال ، منذ عهد لو ، لتنهض باعمالها وتحقق مشاريعها ، وهي مشاريع لم تكن ثمارها يوماً دانية القطوف . وكانت الحكومة الفرنسية راغبة في السلام وتسمى صادقة اليه . فاستبدلت



- فريضة - ٧. توقيع الصين في آسيا الوسطى
١. الحدود التقريبية لمناطق نفوذ كل من روسيا والصين - ٢. الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ ايلوتس - ٣. الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الصين الخاصة
 ٤. فتوحات الصين عام ١٧١٥ - ٥. فتوحات الصين بين ١٧٣٤ - ١٧٤٠
 ٦. فتوحات الصين عام ١٧٥٥.

دوبليكس ، بحاكم آخر يدعى غودهو الذي سارع فوقع ، عام ١٧٥٤ ، معاهدة مع الانكليز ، من شروطها ان تتخلى الشركتان عما تنعم به من القاب وطينية ، والتنازل عما لها من حمايات والتخلى عن كل الامتيازات التي اعترف لها بها خارج مراكزها التجارية . فكانت صفقة المغبون في اقدس حقوقه واعزها ، اذ لم يكن للانكليز غير مراكز تجارية في البلاد بينما الامتيازات التي نالتها الشركة الفرنسية ، والسلطة الواسعة التي تمتعت بها ، امتدت فوق رقعة من ارض الهند تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسا ، وكانت تعد من السكان ١٣٠ مليون نسمة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنازلات لم يكن مندوحة من الحرب بين الشركتين والبلدين .

فبينما اخذ الفرنسيون بشن هجوم على المانيا ، راح كليف يهاجم البنغال ، المعروف نابابها بعدائه للانكليز ، وباستيلائه على مدينة كلكتوتا ، وحشره ١٤٥ انكليزيا في سجن ضيق لا يدخله الهواء ، يعرف بالتاريخ باسم : « الوكر الاسود » حيث قضى ١٢٦ منهم اختناقاً بعد ان عاوا آلاماً مبرحة . استرجع كليف مدينة كلكتوتا واستولى على شندرناغور ، وهزم سوباب بلاس شر هزيمة (١٧٧٥) ورفع الى العرش سوباباً اختاره هو ، رضي بحماية الشركة الانكليزية . واذا ذلك ، حدثته نفسه بمهاجمة الفرنسيين مباشرة . وقد ارسلت الحكومة الفرنسية ، عام ١٧٥٨ ، حاكماً عاماً ومديراً للشركة هو لالي - تولندال ، ومعه ٣٠٠٠ جندي فرنسي . غير ان الحاكم الجديد الذي كان يجهل جهلاً مطبقاً امور الهند وشؤونها ، اظهر احتقاراً كبيراً لهذه البلاد وللهند ، اذ راح يلقبهم : « بالصعاليك السود » ، وكان سلوكه في الهند سلسلة من الاغلاط والمساوىء . واستدعى بوسي اليه بحجة ان فرنسا لا يهتمها كثيراً ان ينازع الابن الاصغر اخاه الاكبر السيادة على الدكن ، كما انها لا تهتم قط بهذه المنازعات التي تقوم بين راجاوات الهند وناباباتها . ولما ايقن سوباب الدكن ان الفرنسيين سيتخلون عنه طلب حماية الانكليز الذين انصرفوا لمشاغلمهم في اماكن اخرى . فقلّب على امره امام المهرات ، وهكذا فقدت فرنسا اهم انصارها . وراح لالي - تولندال يثير بسوء تصرفه وبمنغفه سكان البلاد . وانقطع عنه المدد لانشغال فرنسا بحرب المانيا . وبعد ان حوصر في مدينة بونديشيري هو و ٧٠٠ من رجاله على يد الجيش الانكليزي الذي تألف من ٢٢ الف محارب يشد ازهم اسطول بريطاني ضم ١٤ سفينة حربية بقي يقاوم عبثاً خمسة اشهر واضطر للاستسلام في كانون الثاني ١٧٦١ . وقد اعادت معاهدة باريس للشركة الفرنسية مراكزها التجارية الخمسة في الهند على شرط ان تزيل من الاساس ما قام عليها من حصون وقلاع ، وان تبقى عزلاء من كل حامية وان تتخلى عن كل نزعة سياسية وبمباراة اوضح عن اهداف تجارية عليا . وهكذا هبطت موارد الشركة بسرعة والمحلت عام ١٧٧٠ .

وهكذا لم تعد الشركة الفرنسية لتثير اي قلق او اي ازعاج للانكليز في الوقت الذي اخذ الضعف يدب الى المهرات ، اقوى سلطة هندية ، اذ ذلك ، بعد انكسارهم الميت في معركة بانيبوت ، فحال الحسف الذي اصيبوا به دون قيامهم بأي مجهود يذكر في البنغال . وبالرغم من

هذا كله ، لم يتمكن الانكليز من احتلال الهند كلها بعد ان ادرك كليف جيداً انه من الارق للمصلحة الانكليزية ان يوطد نفوذه ويرسخ سلطته في هذه الممتلكات التي تقع تحت اشرافه بدلاً من السعي للتوسع باضافة مقاطعات جديدة الى ممتلكات الشركة . واوصى بان يقتصر عمل الفتح والحرب على ما لا مندوحة عنه او ما لا بد منه . وهكذا بقيت قائمة مُطليّة على الوجود دويلات هندية جديدة كانت على شيء من القوة والشأن في المجالين السياسي والحربي ، وجدت في بعض الضباط الفرنسيين خير معاون لها . هؤلاء الضباط قد سبق لهم وعملوا من قبل في خدمة الشركة الفرنسية في الهند ، بينهم الضابط لو ، والكونت موادافر والفارس دي كريسي وميدوك ودرينباك ، والاماني رينهارد سمير ، ثم انضم اليهم بعد ان وضعت حرب السنوات السبع اوزارها ، مغامرون شباب اكثرهم من الفرنسيين ، وغيرهم ايطاليون وفلمنكيون وهولنديون وكونت دي بواني من مقاطعة السافوي . وراح امراء الهند يتخاطفون الضباط الفرنسيين ، فاستخدمهم فآبأ ارده عام ١٧٦١ ، الا ان جيشه انكسر امام قواد كليف قبل ان يتمكن هؤلاء الضباط من اعادة تنظيم صفوفهم . وراح بعض هؤلاء الضباط يعمل في خدمة الامبراطور المغولي علم الثاني فكلوا عوناً له في كثير من المارك التي انتصر فيها . كما راح البعض الآخر يعمل في خدمة المهارات مادافا سندهيا (١٧٣٠ - ١٧٩٤) وهو احد الراجاوات الذين نجوا من معركة بانبيوت ، الذي استطاع ، بفضل مساندة هؤلاء الضباط ولا سيما بفضل موازنة الكونت دي بواني ، ان يقتطع له في الشال الغربي من الهند اماراة توازي مساحتها مساحة فرنسا والمانيا مجتمعين ، واعاد سلطة الامبراطور عام ١٧٨٩ ، وحطم غزوة قام بها الافغان ، عام ١٧٩٠ . واخيراً نرى عدداً من هؤلاء الضباط في خدمة سلطان ميسور ، تحت حكم حيدر علي وتيبو - صاحب ، من اشد خصوم الانكليز ومن اعدائهم اللدء في الهند . وكان هؤلاء الضباط موضوع تقدير الجميع لما امتازوا به من روح الانضباط الذي عرفوا ان يفرضوه على الهنود . فبعد ان حذقوا التغلب على مشاعرهم الاولية بفضل التدريب الذي خضعوا له ، والتحكّم بأحاسيسهم ، اخذوا يقومون بصورة آلية ، وبانضباط كلي ، تحت وابل من القذائف النارية بمحركات ومناورات يكررونها الوف المرات في مأمن من المؤثرات العارضة متحررين تماماً من القوضى والملع الذي تستسلم له الجماهير الملتاعة التي لم يتيسر لها التدريب على التحكّم بعنان النفس في الاوقات العصيبة . وهكذا ارتدت الفرق الوطنية قوة تأثير شديدة ، كما ارتدت صلابة لم تكن لها من قبل ، دون ان تبلغ مع ذلك القوة والصلابة التي تميزت بها الفرق الاوروبية . وقد حمل هؤلاء الضباط معهم معرفة استخدام الاسلحة الجديدة وهي معرفة زادت كثيراً من فعاليتها . كذلك قاموا بتشكيلات وتعبئات ومناورات جهلها الهنود من قبل . وقد دشّن الكونت دي بواني ، ضد الافغان في الهند نوعاً من التعبئة الجديدة تعرف : « بالربعات الجوفاء » ، تبنها بونابرت ولونغتن فيما بعد . فالافغان ، هؤلاء الفرسان الذين كانوا يحاربون بروح القرن الثالث عشر مدججين بالاسلحة ، والذين كانوا يقضون

طوال الليل في معاقرة الخمر ، وكانوا في النهاية يدورون ويدورون عبثاً حول هذه المربعات التي كانت تقذفهم حمم النار والموت ، ثم تنتهي المعركة بالفوز المرجح بهجوم السلاح الأبيض ، بعد ان يكون قائدهم الأزهم تناول العشاء وتجديد نشاطهم بالنوم ليلاً . وقد اتقن هؤلاء الضباط روح الانضباط وفن التعبئة ، فوضعوا المبادئ الاساسية لكل تمبئة منهجية وحددوا قواعدها الثابتة ، وهي اسس وقواعد عمل الانكليز فيما بعد ، على تطويرها . وقد اتصف عدد كبير من هؤلاء الضباط بطيب القلب ، مما جعل افراد الفرق الوطنية ، على الامتثال لهم والتفاني في خدمتهم ، بخلاف الزعماء الوطنيين الذين كان الفساد اخذ منهم كل ما أخذ وغلبت عليهم اطماعهم الاشعبية . وكان الجنود يفضلون السقوط في مراكزهم ، في ساحة الوغى بعد ان يروا ضباطهم ييئندلون في الصفوف الامامية ، وهم يقودونهم للحرب . وقد كان قبر احد هؤلاء الضباط البواسل ، الضابط الفرنسي ميشال ريمون ، موضوع تكريم جميع الجنود الشباب ينجون اليه كرمز للبطولة والفروسية حتى مطلع القرن العشرين . وبقي رعايا الراجا مادهانبا سندھيا يذكرون بأسف ، وهم تحت حكم الانكليز وسلطانهم ، الروح الانسانية التي تميز بها الضباط الفرنسيون في ادارتهم الفرق الحربية التي أمروا عليها . وهكذا عملت التقنية الاوروبية والروح الاوروبية كثيراً على تجديد القوى الهندية ، كما فعلت فعلها في تأخير نجاح تطور الانكليز في الهند .

ومع ذلك فقد حقق الانكليز نجاحات كبيرة . فقد نال كليف ، بين ١٧٦٥ - ١٧٦٧ من المغول الكبير ، مهمة السهر على الأمن وجباية الرسوم والضرائب في البنغال والبيهار على ان يرسل قسماً منها الى دلهي . وهكذا اصبحت الشركة الانكليزية قانوناً وشرعاً ، الموظف الامبراطوري الاول في هذه المقاطعات . اما في الواقع فقد كانت بالفعل صاحبة السلطة فيها . ولم يلبث كليف ان فرض حمايته على ناباب اوده ، وعلى راجا بيناريس .

الا ان مال الهنود من العنف والسنط والعنت من قبل عملاء الشركة الانكليزية والارتكابات الكثيرة التي استهدفوا لها من قبل الانكليز الذين عرفوا بنطرسيتهم وعنجهيتهم ، حفزم الى اعلان الثورة . ان البنخ الشرقي والامية الانتخابية التي تمتع بها هؤلاء «الناباب» الانكليز ، عند رجوعهم الى بلادهم ، زرعت الشكوك في قلوب الانكليز . وبعد ان ثبتت جريمة الارتكابات على كليف وضع حداً لحياته بالانتحار . ان سيطرة شركة خاصة على مساحات شاسعة شكلت بحد ذاتها حادثاً هاماً للغاية . ولذا راح البرلمان الانكليزي يضع ، عام ١٧٧٣ ، قانون التنظيم الذي اوجب المزيد من الاشراف من قبل الحكومة ، على الشركة . وبذلك ابتداء مشروع اخضاع الامبراطورية البريطانية لتفتيش أدق من قبل التاج . وهكذا وضعت كل ممتلكات الشركة تحت مراقبة حاكم عام هو الجنرال وورن هاستنغز الذي جاء تعيينه من قبل البرلمان ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يقرر شيئاً بدون الرجوع الى مجلس اعلى ، اعضاؤه معينون من قبل البرلمان . وكان على مدراء الشركة في لندن ، ان يطلعوا الوزراء على جميع مراسلاتهم .

وقامت في كلكوتا محكمة عدل ، من صلاحياتها حق الرفض لكل قرارات الشركة .

غير ان الحاكم وورن هاستنغز (١٧٧٤ - ١٧٨٥) الذي كان طاغية ، شديد البأس ، لا ضمير له ولا وجدان ، راح يستثمر ، دونما خجل او وجل ، امراء الهند ويمتصرم اعتصاراً . كان الناس في الهند يحملون حقداً عميقاً على الانكليز ، كما انهم سخطوا على ادارتهم وسلطتهم فيها . وعمل وورن على خلع راجا بيناريس وضم ممتلكاته . الا انه باه بالفشل امام سلاطين ميسور : حيدر علي وابنه تيبو - صاحب ، اذ وضع الانكليز امام اكبر خطر واجههم ، بين ١٧٨٠ - ١٧٨٣ ، ابان حرب استقلال اميركا . فقد كان سبق لحيدر علي ان عقد حلفاً مع فرنسا ، فأسعفته ببعض الامدادات . فهاجم جيش ميسور بقيادة ضباط فرنسيين مقاطعة كرناتيك ، في حزيران ١٧٨٠ ، ودحر الانكليز ، وأسر عدداً كبيراً من ضباطهم الذين دانوا بخلاصهم من موت عثم لتدخل الضباط الفرنسيين . وفي البحر تغلب النبيل الفرنسي دي سوفرين ، خمس مرات على الانكليز (١٧٨٢ - ١٧٨٣) في خمسة انتصارات متتالية ، امها وادعاها للفخر النصر البحري في معركة غوندلور (حزيران ١٧٨٣) . وكان الانكليز يفكرون جيداً باخلاء مقاطعة كرناتيك والانسحاب منها ، عندما تم عقد معاهدة فرساي التي اعادت السلام الى ربوع الهند ، واضطر تيبو - صاحب الذي خلف أباه ، عام ١٧٨٢ ، الى توقيع معاهدة متخالور مع الانكليز (١٧٨٤ آذار) ، بعد ان رأى نفسه منزلاً ، فأعادت المعاهدة الامور الى ما كانت عليه من وضع سابق .

فقد بلغ من تجاوزات هاستنغز لواجباته وكثرة مخالفاته المتكررة للقانون وارتقاع صوت الهند بالشكوى المريرة عالياً والتذمر بما لحق بها من حيف ، ان اضطرت الحكومة البريطانية لاستدعائه وإحالة على المحاكمة . فقانون الهند الصادر ، عام ١٧٨٤ ، ترك للشركة حق تعيين الحاكم العام ، مع الحق للملك بعزله ، وانشاء مجلس تفتيش ترك للملك أمر تعيينه ، مركزه لندن ، كما أوجب هذا القانون ، على الشركة ، توجيه نسخة الى المجلس المذكور من جميع مراسلاتها .

وهكذا نرى الانكليز ، عام ١٧٨٩ يقيمون في الهند بشكل غريب تحت ستار شركة تجارية خاصة ، تابعة ، من جهة ، للمفول الكبير ، فاعتبرت عنده بمثابة موظف كبير ، كما كانت من جهة أخرى ، تابعة لرعوية ملك انكلترا ، يشرف عليها عن كئيب ، يناصرها ويشد من ازرها في ما رمت اليه من تهديم الامبراطورية المغولية وانهائها تدريجياً . وكان فتح البلاد أبعد من ان يتم ، اذ كان لا يزال في الهند ممالك مستقلة ، مهيبية الجانب ، منها مملكة السيخ في مادهايا سندھيا ، ومملكة ميسور . وكان الانكليز ، لما ابده من العجرفة والعشع ، وبما اظهوره من ضروب العنف والعتى والقسوة ، موضوع كره الجميع ، في كل مكان ، بحيث كان الكل يتوقع انفجاراً عاماً في البلاد .

الشرق الاقصى

سكن جبالها المحرجة اقوام يعناشون من القنص والصيد والقطاف وشهدت الهند الصيلية احواض الانهر الحصبة التي تجري فيها ماجريبات الاحداث. فقد اقتبس شعب المونز الذين جاؤوا البلاد من الشمال ، الحضارة الهندية وأسسو على مجاري نهرى الايراوادي والسيانغ مملكة بيغو . ترك المناخ وغنى التربة وخصبها اثره المخلخل في هذه الاقوام ، فاستسلموا للدعة والكسل واصبحوا ، بالتالى عرضة لهجمات البورمانين الذين هبطوا من اعالي جبال هالايا واستوطنوا البقاع المحيطة بأعالي نهر الايراوادي وأخذوا يستمرئون الحضارة الهندية . وحوالى عام ١٧٥٠ ، تمت السيطرة نهائياً للبورمانين . وفي سكرة النصر الذي حققوه خرجوا من حدودهم الطبيعية وفتحوا بلاد سيام واستولوا عنوة على العاصمة أيوثيا (١٧٦٧) وحملوا معهم كأسرى حرب ، جانباً كبيراً من الشعب السيامي ، وشتوا المسيحيين أيدي سبا أو أبعدهم خارج البلاد .

وقد تمكن شعب من اقوام «الثاني» جاء من مقاطعة يو - نان من ان ينشئ له دولة في سيام احتلت في توسعها ، حوض نهر مي - نام . وكان خط مقسم المياه السطلي نحو الشرق والسهول المشوشبة ، يتيح لهم القيام من وقت الى آخر ، بغزوات على الكبودجيين المسترهلين وعلى الامارات ثاي في مقاطعة اللاوس المنعزلة في بعض الاحواض النهرية الحصبة ، بعد ان ابعدت دولة السيام من الوجود ، عام ١٧٦٩ ، ثم عادت وتملت فيها الحياة من جديد اثر ثورة الفاجانك عام ١٧٦٩ التي جعلت من مدينة بنكوك ، عاصمة لها واستطاعت ان تعيد البورمانين من حيث أتوا وردتهم ضمن حدودهم الطبيعية وابعدت من البلاد ، المرسلين النصارى ، واستأنفت سلسلة من الغزوات المدوخة باتجاه الشرق ، فتأخذ من الارقاء ما تحتاج اليه الارض من يد عاملة لاهياء موات الاراضي البور .

اما في الشرق ، فكانت دلنا نهر سنغ - كوي او التونكين ، والسهول الساحلية الصغيرة ، ودلنا نهر الميكونغ والكوشنمين ، منذ بضعة قرون ، عرضة لموجات من الغزاة هم الاناميون مستهدفين النيل من الحضارة الصيلية . فقد تمكن هؤلاء الفلاحون الاشداء من طرد الكبودجيين الذين ألفوا طبقة ارسوقراطية ، كسولة سيطرت على شعب من أسرى الحرب صار امرهم الى العبودية والرق . فبلغوا ، عام ١٧٥٣ مدينة ميتو . وكانت مملكة الاناميين تقيم ، ولو اسمياً ، الولاء للملك «لاي» هؤلاء الملوك الكسالى المترفون في مدينة هانوي ، كما اعترفوا بالتابعية للصين . واذ كانت مملكتهم محصورة في رقعة ضيقة من الارض ، فقد انقسموا ، في الواقع ، بين اسرتين من سدنة البلاط هما : «الرينه» في هانوي «والنغوين» في مدينة هويه . وقامت بين سدنة البلاط وبين الامراء الاناميين حروب متصلة ، كثيراً ما كان المسيحيون فيها عرضة للاعتصار والسخرة كما استهدف المرسلون انفسهم للمذابات والاضطهادات والطرده . «غلب نغوين - انه على امره»

فالتجأ الى احد المرسلين ، هو المطران أدران : بينيو دي بيهان الذي غادر البلاد وجاء فرنسا لانذاراً بالملك لويس السادس عشر (١٧٨٧) . وللحال ارسل الملك بعض الضباط ، ومدفعية وبعض المهندسين ، مقابل التنازل له عن خليج توران وارخبيل بولو - كوندور . واذ ذاك استطاع نغويين-انه ان يستولي ، هام (١٧٨٨) ، على مدينة سايقوت وشرع بفتح مقاطعة الانام .

وقعت الانسولاند تحت سيطرة سلاطين الملايو الذين كانوا على الاسلام . الا ان الانسولاند الشركة الهولندية للهند الشرقية كانت لها الأولوية في هذه الاصقاع النائية وتحرص حرصاً شديداً على ابعاد الاوروبيين منها . وتمثلت اهم ممتلكات هذه الشركة في جاوا المشهورة بانتاجها الضخم للبهارات والتبلة والحريز . كذلك سيطرت الشركة على مدينة بتافيا (٥٠ الف نسمة) وما حولها من الضواحي والارياض (٢٠٠ الف نسمة) وعلى السواحل الشرقية الشمالية بما فيها سمارانغ وجزيرة مادورا (مليون و ٦٠٠ الف نسمة) . أما ما تبقى من هذه البلاد ، فقد شكل مهالك اعلنت ولاءها للشركة ، وقام بينها سلسلة من الحروب ادت الى ايهانها فالحلها . اما المناطق الأخرى ، فقد حاولت الشركة ان تبسط سيطرتها عليها لتجعل في حوز حريز ، مضيق مالقا ، وابعاد كل من يمكن ان ترى فيه مزاجاً لها او منافساً لتجارها والاقتصاد من القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في جزر ريو وسليس . واقامت لها حامية في مدينة مالقا ووضعت تحت ادارتها مدينتا بندا وامبوان ، وحمت سواحل صومطرة الغربية ، وسلطان بالمبانغ ، وضربت نطاقاً محكماً حول بورنيو من الامتيازات التجارية التي نالتها في هذه الجزيرة ، واحتلت في جزيرة سليس ، ماكسار ، وحرقت ، بعضاً على بعض ، الامراء المحليين .

ولم يكن للشركة الهولندية سوى عدد ضئيل من الجند ، كما لم تملك عمارة حربية ، تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه الممتلكات الشاسعة . وفي سنة ١٧٧٢ ، انتزعت منها الشركة الانكليزية للهند الشرقية بضعة مراكز في صومطرة . وفي سنة ١٧٨٠ ، كان القرصان الهولنديون سبباً مباشراً لنشوب الحرب بين هولندا وانكلترا ، فانزمت الهولنديون واضطروا للتخلي عن ناغابام للانكليز واعترفوا لهم بحق الاتجار بحرية مطلقة ، في مياه الارخبيلات العديدة (معاهدة باريس ، ٢٠ مايو ١٧٨٤) .

خرجت الشركة الهولندية في الحرب ترزح تحت وطأة الديون ، لاهية لها ولا شأن . وقد تنمر عليها الامراء المحليون ، كما راح المعمرون يتحررون من محسوبيتهم للشركة ومن ولائهم لها ، مظهرين دوماً الاستعداد لاعلان الثورة . وما ان اطلت سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الشركة على وشك فقدان كل ممتلكاتها .

عاشت الصين ، في القرن الثامن عشر ، في ظل الاسرة الامبراطورية المنشوكية ،
الصين فكان عهدا من ازهر عصور الصين وازهاها ، عبر التاريخ . المحدر اباطرة
هذه السلالة من ذراري امراء القبائل الرحل التي تمكنت من ان تنتزع الصين من اسرة المنغ ،
وذلك خلال هذه الحقبة الواقعة بين ١٦٤٠ - ١٦٥١ ، وقد برهنوا عن رأي حرس ورحابة
صدر كما حافظوا بكل احترام ، على عادات البلاد واعرافها القومية ، حيث تنعم التقاليد بكل
رعاية ومنزلة ، مع الاحتراز الاتقف هذه الاعراف حائلا دون تطورهم فاقبلوا ، ما وسعتهم
الحيلة ، على الاخذ باسباب الاختراعات الاوروبية . فلا يزال الامبراطور كانغ - هي نصف
بدوي ، جنديا لا يكل ولا يمل ، وصيادا ماهرا مال بكليته للصيد والقنص ، لا يستقر في مكان ،
متنقلا بين اطراف الامبراطورية النائية ، مواجهها بروح واقعية احداث الدهر وصروفه ،
ذو تفكير نير ، وقضاء اتصف بالسرعة وصدق العزيمة . وفي كانون الاول ١٧٢٢ ، خلفه على
اريكه الحكم ابنه الرابع ، الامبراطور لونغ - تشانغ . فقد كان جنديا له من العمر ١٥ سنة ،
كثير الظنون ، شديد القسوة ، رصين ، مجتهد ، متفان في القيام بواجباته . وفي سنة ١٧٣٥ ،
ارتقى العرش كيان - لونغ ابن الامبراطور يونغ - تشانغ ، وهو شاب له من العمر ٢٤ سنة .
وقد راح هذا الصيني ، البدوي الاصل يملأ البلاط حياة ونشاطا ومرحا ، قلما غادر عاصمته
الامبراطورية ، يفرغ ايامه بين نسائه وخصيائه ، ثقيف ، ذواقة ، وعالم طلمة . قرض الشعر
ووضع عددا من المعاجم والفهارس . ومع ذلك عرف ان يحافظ على قواه البدنية وعلى نشاطه الزاخر .
فاذا لم يقم هو نفسه بحروب ، فقد كان سياسيا عنككا واداريا لبقا قديرا ، شابه جده بنظره
الثاقب ونظرياته السياسية الجريئة ، واستطاع بفضل ما تم له من صلابة في الرأي من ان يملك
حتى سنة ١٧٩٦ .

تابع هؤلاء الاباطرة اعمالهم الحربية وفتوحاتهم ، الى الجنوب من نهر اليانغ - تسي ،
وتوفق الى احتلال التائي عشرة ولاية التي تتألف منها الصين الحقيقية . ففي سنة ١٧٧٤ ، تم له
إخضاع قبائل مياو - تسي الوطنية التي كانت تقطن المناطق الجبلية في تسو - تشوان
وكواي - تشاو . وغزو الصين الذي شرع به الصينيون منذ عهد اور الكلدانيين وبابل ،
أوفى على نهايته . ولم يبق لهؤلاء الرعاة الا ان يعمروا السهول بالسكان وان يستثمروا البلاد
الجبلية ، واستغلال ما فيها من خيرات الارض .

تابع كيان - لونغ سياسته المعادية لكبار الملاكين واصحاب الاراضي والاطيان العريضة .
وهي اراض اعطيت للامراء ولرجال البلاط ول كبار الموظفين مكافأة لهم ، كانت معفاة
من الضرائب والسخرة . وقد صادر الامبراطور جانبا كبيرا من هذه الاملاك ووزعها بين
فلاحين استحالوا بذلك من صفار الملاكين . والمزارعون الذين يستغلون ، ابا عن جد ، اراضيهم ،
منذ بضعة اجيال ، بلا انقطاع ، اعتبروا مالكيين شرعا لوجه الارض او اديمها ، بينما بطن
الارض او داخلها يبقى من حق المالك الاصيل . وهكذا حق للمزارع ان يشترى او ان يبيع

ما يملك من وجه الأرض، له الملكية العينية بينما تبقى للمالك الأصلي، الملكية الذاتية. وهكذا طلع في الصين نظام ديمقراطي، زراعي رسخت اصوله. وبذلك يكون تصرف الإباطرة المنشركيين أقرب الى تصرف طغاة دكتاتوريين اخذوا جانب الشعب، واعتمدوا في حكمهم وادارتهم على تأييد الجماهير الشعبية عندما راحوا يقلمون اظافر الارستوقراطية وكبار الاغنياء في عهد المنغ. وتجلى تحمس وضع الفلاحين، في ازدياد الثراء وتكاثر عدد الاثرياء. وبلغ عدد سكان الصين، عام ١٦٦١، حوالي ١٠٥ ملايين نسمة، فاذا به يرتفع، عام ١٧٦٦، الى ١٨٢ مليوناً. وهكذا قويت يد الدولة واشتد منها الساعد.

في هذه الصين العامرة المزدهرة، ازدهرت الفنون ولا سيما ما مالا منها ذوق سكان البلاط والنوادي الادبية، كالشعر الخفيف الرشيق، والخزفيات، وهندسة المنازل والحدائق، وهي فنون تدخل البهجة والبشر الى النفوس ولا سيما نفوس الغزاة بعد ان يتذوقوها ويهموا بها. اما فنون الرسم والنقش والتحلية فقد اخذت، بعكس ذلك، بالانحطاط.

نظم شعراء الصين في مواضيع ورموز اتخذوا منها ستاراً يستترون وراءها، جاءت آية في الروعة كما جاءت منظوماتهم روائح تملأ القلب هزة والنفوس بشراً. وقد بلغ فن الخزفيات، وهو اهم فنون الصين اذ ذلك، أوجه ووصل الى الذروة من الاتقان في عهد الامبراطور كنج - هي. فبعد ان يُمرث الصلصال جيداً ويعجن عجناً مسبقاً يلين معها ويستجيب توضع العجينة في القالب وتدار بعناية كلية، فترتدي، اذ ذلك، اشكالاً وصوراً تشع نعومة واناقة، ثم تصقل بعناية كبيرة وتطلى بالمينا النقي اللامع ذي الالوان القوية الصارخة. والآنية من كل حلي وزينة، تبدو وكأنها قشرة الدراق او احمر الحديد او دم الثور، والقرمز المرجاني والبنفسجي الباذنجاني والاسود الفاحم المشع، او زرقاء، خضراء، صفراء. اما الآنية المعدة للتحلية والتطرية فتبدو زرقتها على ارضية بيضاء، او على الوان متنوعة فوق ارضية خضراء شفاقة. وفي عهد الامبراطور يونغ - تشانغ، حل محل الارضية الخضراء، ارضية قرنفلية متلألئة بالوان زاهية من القرمزي، الى الابيض، الى السمنجوني، الى الاصفر الليموني، او الازرق الفاقع والاصفر الكبريتي، والاصفر الخردلي، والاحمر الارجواني، تتناوح فيها الألوان بين الناعم والمهف، في اتساق وانسجام يأخذ بجامع القلب. والصور المرسومة كثيراً ما استوحاها الفنان من منظومات قدامى الشعراء، فجاءت على شكل رسائح والنواط او رسوم المشجرات المتشابكة، والخيزران المتعاقد وهفاف الغيوم، وعود الصليب، والفراش وذقاق الطير والمصافير والسيدة الهيفاء ذات الوجه المشرق الصبوح. ولم يلبث كيان - يونغ ان اضاف الى هذا كله التحلية المعروفة عندهم: « بذات الالف زهرة ». وهذه الآنية ذات المظهر الأثري والالوان المهففة والانوار المتلألئة الشفاقة، والاشخاص ذوي القدود الهيفاء كسارية العلم، تتشئ رقة ونعومة وقذوب غنجاً ودلالاً تذكرونا، ولو من بعيد، بفن الرسام الفرنسي واطو. « هذا هو طراز لويس الخامس عشر الصيني ». ولكن بعد عام ١٧٥٠، يشكو القوام

والهندام قلة العناية ويأخذ بالتحول والمخاطب ليسارع في تردّيه اثناء القرن التاسع عشر ، بينما يشتد الطلب عليه في اوروبا ، كما ان الصناعة اخذت تشكو ، هي الأخرى ، السرعة والتعجّل .

وسمّل الاباطرة الثلاثة على ترميم ما عُرف في بكين « بالمدينة الحمراء الممنوعة » وهو الاسم الذي اطلق على المقر الامبراطوري . كانت النيران التهمته ، عند سقوط سلالة منغ ، عام ١٦٤٤ . فراحوا يلشّون ، في ضاحية المدينة ، الى الشمال الغربي من بكين ، عن طريق الآباء اليسوعيين « فرساي الصين » ، وهو صرح منيف ، ضم عدداً كبيراً من القصور الفخمة الجميلة تحيط بها الجنان الخضراء والحدائق الغناء ، في تناغ موصول من الفنون الأوروبية والصفية ، على اتم ما يكون الانسجام والمناغاة . والظاهر يدل على ان الروح تختلف عن روح فرساي ، اذ ان التنوع وحرية الطهيعة هما على نطاق ضيق ، وبذرق رهيف واثق من نفسه . اختار الآباء اليسوعيين من بين هذه النواشز الجميلة الحلوة ما ينسجم تماماً مع مطلب الروح الانسانية . فقد خلقوا مناظر ومشاهد رائعة بمد عمليات حسابية ومعادلات وتطبيقات غاية في الدقة والتعميد ، من هذه الاشياء البارعة الجمال التي تنطق عالياً بانتصار العقل وتذيع التعجّل والتسامي .

ومع هذا ، فالفن الصيني العظيم كان ولتى عهده ، وانقضى في القرن الثامن عشر ، فلم يبق سوى فنون محلية ترفيحية . فإلام يجب ان نرد هذا التغير والتبدل يا ترى ؟ إلى حوادث الغلبة والفتح ودخول روح جديدة على البلاد بدخول المنشو الى الصين ، وكلها تغييرات وتحولات تمت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الاباطرة المنشو في سبيل تمثّلهم الحضارة الصينية ؟

واستأنف الاباطرة المنشو ، في القرن الثامن عشر الأخذ بسياسة صيلية قديمة طالما اعتمدها اباطرة الصين ، الا وهي بسط سيطرتهم على آسيا الوسطى . يحف بالصين سباسب وصحاري شاسعة كانت طرقاً موصلة الى الصين اكثر منها عوائق وحواجز تحول دونها ، تمور فيها اقوام من البدو ، في حركة دائمة هم دوماً على استعداد للغزو والنهب والسلب والاستباحة عند أقل بادرة ضعف أو وهن لدى الجيران . وكان يخترق هذه الصحاري الطرق البرية التي ربطت الصين بآسيا الوسطى والغرب والتي ما زالت تدرج عليها قوافل التجار والرحالة بالرغم من سهولة الاعتماد على المواصلات البحرية ، حاملة بضائع واصنافاً خفيفة الحمل غالية الثمن . من هذه الطرق ، طريق موسكو - بكين ، عبر بحيرة بيكال واورغا ، او بالأحرى ، عبر نهر ارتلش وبحيرة زيسان الواقعة بين جبال ألثاي وطريفاتاي ؛ منها كذلك الطريق التي تمر الى الشمال من الجبال الساوية (تيان - شان) بين طريفاتاي وبين آلا - تاو ، عبر دزونغاري وبحيرة بلخاش ، باتجاه مدينة استراخان في روسيا ، وهي افضل هذه الطرق واعرضها وتأتي على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، كثيرة المشب والكلأ يردّها وادي نهر الإيلي الواقع بين آلا - تاو وبين تيان - شان ، انما تقع تحت رحمة قبائل بدوية نهابة سلاّبة ؛ ومنها الطريق التي تمر الى الجنوب من الجبال الساوية وهي اكثرها طروقاً واعتماداً لدى المسافرين عبر

التركستان الشرقي وكشغار وواحات التركستان الغربي : فوكان وبخارى تم تتجه منها : اما شمالاً الى خيوى واستراكخان ، واما ، وهو الغالب ، الى مشهد وبلاد فارس والبحر المتوسط . فحسن التدبير ، والاهتمام بالتجارة وتأمين وسائلها ، جعلت الاباطرة يهتمون دوماً بهذه الشبكة من الطرقات الدولية .

وقد حالفهم النجاح في مهمتهم هذه . فقد كان الجفاف الطابع المميز لهذه الاقطار كما كانت سكانها قليلي العدد . فالقبائل البدوية انقسمت على بعضها البعض . فلم يكن باستطاعتها ان تعمل على اهل الحضرة من سكان الواحات المتناثرة عند اقدام سفوح سلاسل الجبال . ولم يستفد البدو من الحروب الاهلية التي نشبت في الصين ، بعد ان كانت سيبلهم الوحيد للفوز كانهما ببعض الفئتم . ومن ناحية اخرى ، فقد كانت للاباطرة المنشو مدفعية حديثة صيها لهم اليسوعيون في بكين .

وقد كان بالامكان ان ينهض مزاحون لهم من بين اقوام الروس القاطنين ارجاء سيبيريا والذين كانوا يتحكمون ، في الجنوب ، بالطرق التجارية والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى المياه الدافئة . فقد كانوا يتضرسون ، كل يوم ، بمساوى مرفأ أوخوتسك ، لصعوبة الوصول اليه بعد ان غمره الجليد والثلج بضعة اشهر في السنة ، والذي كان يربطه بمدينة ياكوتسك طريق *Yakoutsk* برية طويلة للغاية ، صعبة المسلك ، قل من طرقها . فقد كانوا بحاجة الى طريق نهر العامور . الا ان قوام ، في القرن الثامن عشر كانت متمركزة في الغرب ، وليس تحت تصرفهم في آسيا الوسطى سوى بعض الفرق الضعيفة التي تألفت من بعض المعمرين ومن بعض الجنود . فلم يقوموا ، في عهد بطرس الاكبر ، بأي مجهود مسلح واكتفوا من حيث اتصالهم بالصين ، بتحسين علاقاتهم معها عن طريق البعثات والسفارات الدبلوماسية . وكانت العلاقات بين البلدين تنظمها شروط معاهدة نرتشنسك (١٦٨٩) اذ احتفظ الصينيون بموجبها ، بكل حوض نهر العامور وحالوا بذلك دون وصول الروس الى منشوريا ، هذا المر المنبسط الذي يتألف من سهول خصبة تمتد من النهر المذكور حتى مشارف الصين ، في الشمال . ونال الروس ، في المقابل ، حرية الاتجار مع الصين الامر الذي مكن لقوافل التجار الروس الوصول الى بكين . وفي سنة ١٧٢٩ ، نال الروس بموجب معاهدة *Kiakhta* تصحيحاً جزئياً في الحدود ، والسماح لهم بانشاء كنيسة ارثوذكسية في بكين حيث اقامت جالية روسية صغيرة . غير ان سفريات القوافل وتنقلاتها خضعت لبعض الاجراءات ، والمبادلات التجارية اشترط فيها ان تتم عند اطراف منغوليا ، في *كياخطا* وميمتشين . وكان من جراء هذه التضييق ان ادت منافستهم هذه الى شل حركة القوافل الى بكين ، وهي قوافل توقفت الحكومة الروسية عن متابعة إرسالها . وهكذا آمن الصينيون على حدودهم من الشمال .

وقام الى الغرب من نهر العامور حاجز بين الروس والصينيين قوامه اقوام رعاة . وكان الصيادون القادمون من اورغنتهاي *Ourgangkhai* والعاملون بين نهري الشلكا والايانسي ،

يدفعون رسوما عن صيدهم السمور لكل من الصين ولروسيا . ومنذ انكسارهم الصارخ عند بحيرة زيسان *Zaisan* ، عام ١٧٢٠ ، انقطع الروس عن اعتماد ممرات دزونغاري وكشغاري . وآخر حصن لهم على نهر إرتلش ، كان حصن أوستكا مينوغورسك . ومنذ ذبح البعثة الروسية التي خرجت من استر كخان لاحتلال خيوى عام ١٧١٧ ، باتجاه التركستان الغربي ، لم يتجاوز الروس ، شمالاً شواطئ بحيرة بلخش ، وبالنادر جداً منطقة الفولغا . فكان يكفهم ان يشجعوا القوافل التجارية بتخفيضهم الرسوم المفروضة على الصفقات التجارية ٥ ٪ وباعفاءات يعطونها للقوافل المرسلّة من قبل كبار رؤساء القبائل . ولم يلق الصينيون ، من جهتهم اية صعوبة تحد من حركتهم التجارية .

وكان الامبراطور هانغ - هي ، في مطلع القرن الثامن عشر فرض الامن وسط السلام على الحدود الغربية . فهزم غول الغرب عام ١٦٩٧ . اما مغول الشرق او الكلكخاز ، فقد اعترفوا بالولاء لحان الملشو وهو تتاري مثلهم . اما في التيبت الواقع تحت حكم لاهوتي رهباني ، فقد كان سبق لكائغ - هي ونصب عليه الدالاي - لاما الذي كان موالياً له .

غير ان هذه النتائج التي توصل اليها كانت واهية ، وبقيت ممرات آسيا الوسطى بعيدة عن إشراف الصينيين وسيطرتهم . فمن جبال سآينسك *Suiansk* حتى جبال كوان - لُنْ شكُتل المغول الغربيون او الإيلوث *Elouthes* امبراطورية لهم سيطرت على الطرق التي تسلكها القوافل الضاربة في تلك الارزاء ، وبعد ان سيطروا على الحركة التجارية في آسيا الوسطى ، شرهت نفوسهم للسيطرة على التيبت وعلى منغوليا الشرقية . وقد يكون خطّر لهم ان يستخلصوا الصين نفسها من قبضة ابناء عمومته المملشو .

ولذا قاموا في القرن الثامن عشر ، بمدة هجمات احدث كل واحدة منها ردة عند الصينيين . وكانوا في كل هجوم يقومون به يتهقرون الى ان زالت امبراطوريتهم . فقد امتنع الروس عن شد ازرهم . واستخدم الصينيون ضدهم وحدات من فرسان الكلكخاس ، وحيانا اخوة لهم منشقين عنهم من الايلوث لا يقولون عنهم سرعة في حركة تنقلاتهم ، وقوة صبر واحتمال وطول معاناة . واستعملوا الاسلوب التقليدي الابدي الذي طالما ركنا اليه الا وهو استعمال الحضر ضد البدو . فانشأوا عند بعض النقاط الحساسة الواقعة على طريقهم مدناً حصنوها بالقللاع ، واقاموا فيها جوالي عسكرية صينية . وقام الجنود يعمرون الارض ويحيون ازاض مواثضية الرقعة ، يسهل الدفاع عنها . وانشأوا مراكز توين فاضت بالمواد الغذائية والاعلاف للدواب ، يستطيعون معها القيام بغزوات طويلة . وراحوا يعيثون فساداً وينهبون الموارد الطبيعية القليلة المبعثرة التي كان الايلوث يعولون عليها . فما لبث الايلوث ان اشتدت بهم الحاجة الى المواد الغذائية وعلف الدواب والخيل والجمال ، فاضطروا ، والحالة هذه ، للمهادنة والتزام جادة السلام . وعندما كانوا يعددون لحمل السلاح ويستأنفون اعمالهم الحربية ، كانت قوى الحاميات تحول دون استعادتهم الاراضي التي خسروها .

وفي سنة ١٧١٧ ، قام قبدان ، احد زعماء الايلوث ، بهجوم على التيبث لم يلبث ان اتسع بحيث راح يهدد يوان وسوتشوين . فانتزها هانغ - هي سالحة مؤاتية ليقوم بطرد الايلوث خارج التركستان الغربي ، وبذلك يؤمن للصينيين ، السيطرة على الطرق الرئيسية باتجاه الغرب . ثم راح ينشئ له جوالي عسكرية عند المر الذي يؤدي من تيان - شان الى بركول وخامي و طرفان وارومتشي . كذلك اعاد النفوذ الصيني الى التيبث .

وقامت قبائل الايلوث بغزوات متكررة ، بعد عام ١٧٣١ ، حلت الامبراطور يونغ - تشانغ الى طردهم ودفعهم الى الشمال من جبال الالتي ، ليؤمن للصينيين ممرات دزونغاري ومعابرها . وفي سنة ١٧٣٤ ، نرى الصينيين ، في اولياسوتاي وكيدو على ضفاف نهر إرتكش . وأجبر الامبراطور كيانغ - لونغ ، الايلوث ، عام ١٧٤٠ ، الا يتجاوزوا جبال الالتي ، الى الجنوب .

ولم يمض وقت طويل حتى تم له اخضاعهم واعترفوا له بالتبعية ، على اثر الخسومات والانشقاقات التي ثارت بين النازعين للاستئثار بالسلطة ، مما حمل عدداً من امراء الايلوث الذين باءت محاولتهم بالفشل ، على الالتجاء الى الصين ، ومعهم الكثيرون من اتباعهم وانصارهم ، فقدموا طاعتهم وولاهم للامبراطور كيان - لونغ ، مقابل المراعي التي وضعها تحت تصرفهم والحماية التي نعموا بها خلال حكمه . وقد بدت فرصة سالحة للامبراطور ، فجهز فرقة انضمت اليها وحدات من الإيلوث ، قامت بفتح وتدوين المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال الالتي . وهكذا انفصمت عرى الوحدة بين اقوام الايلوث فانقسموا الى اربع قبائل لكل منها خاناتها المتميزة يجري تعيينهم من قبل حاكم صيني عام يمثل الامبراطور ، استقر بعد ذلك ، الى الجنوب في مدينة خولدجا الواقعة على نهر «إيلي» ، في نقطة مركزية ، بحيث يتاح له مراقبة كل المرات والمداخل (١٧٥٥) .

الا ان القضاء قضاء تاماً على الايلوث لم يتأخر أجله . فقد قام احد زعمائهم وهو امير من امراء العائلة المالكة ، يدعى اموريانا ، ان حمل اثر الفشل الذي مني به ، البدو المستقلين على الانتقاض والثورة ضد الصينيين ومحاربتهم . ولما طلب اليه القدوم الى بكين ليؤدي حساباً عما زرعه يداه ، فرّ ولجأ بنفسه ، نحو بحيرة إرتكش ، وجمع حوله ٤٠٠٠ من الانصار ، وفتك بأفراد الحامية المرافقة للمقيم الصيني ، التي تألفت من ٥٠٠ صيني . فكان ذلك اطلاق العنان لثورة لاهبة ضد الصينيين . الا ان الايلوث انهزموا شر هزيمة عند نهر الاميل ، سنة ١٧٥٧ ، اوقعت فيهم مذابح دامية . ففر امورسانا مع ٢٠ الفاً من رجاله وأنصاره والتجأ الى الروس . اما الباقون فقد جرى ابعادهم الى حدود كان - سو ، وضمت الاراضي التي كانت تابعة من قبل للايلوث الى الامبراطورية الصينية . فامتدت حدود الصين حتى بحيرة بلخاش . وعين على الاراضي الجديدة حاكمين صينيين ، قام احدهما في كبدو كما قام الثاني في خولدجا . واعد اعمار

البلاد وتأهيلها بالسكان بأقوام الكازاك هم مزارعون مسلمون من الكشغار، ومعمرون عسكريون من المشو، ثم جاء عام ١٧٧١، بأقوام جدد من التورغوت. وهكذا أصبح التركستان الشرقي ولاية صينية، تشكلت منها ولاية سنكيانغ العسكرية.

ان القضاء التام على الامبراطورية الايلوث سجل الذروة في نفوذ الامبراطور كيان - لونغ في آسيا الوسطى. فقبائل البدو في التركستان الغربي: كالكرغس في القبيلة الذهبية الكبرى (١٧٥٨) والقبيلة الذهبية الصغرى (١٧٦٢) وخانات بخارى وخوكان وطشقند واندجان، قدموا ولاءهم للامبراطور، وبذلك بلغت سلطته مشارف بحر قزوين. وقد كان من بعد شهرته، وشدة بأسه وقوة سطوته ان خرجت قبائل تورغوت المغول عن طاعتها وولائها للروس. فهاهنا الف اسيرة من هذه القبائل، كانت تقيم مضاربها على ضفة الفولغا اليمنى، كانت القيصر نفسه يقوم بتعيين خاناتها ويقدم للروس قوات اضافية مساعدة اشتهرت بشجاعتها في الحرب. فبعد ان تبينوا الخطر الذي تعرضوا له من قبل الحاميات والمستعمرين الذين اخذوا بمطاردتهم، وبعد الاهانات التي كالمها الروس لهم ومظاهر الاحتقار والسخرية التي الحقوها بهم، نفر السواد الاكبر من هذه الاسر التي تجاوز عددها ٧٠ الف اسيرة، وفرّوا نحو الشرق، بعد ان فرشوا قارعة الطريق يحث الموتى. الا انهم وصلوا نهر ايلي والتمسوا من الامبراطور حق اللجوء (١٧٧١) وقبولهم في الامبراطورية. فسارع الامبراطور وأمدهم بما يلزم من البسة وأغذية واقامهم في المراعي التي كانت من قبل للايلوث، وانعم على عدد من كبار زعمائهم باللقاب شرفية صينية. وهكذا جاء شعب جديد، يقدم طوعاً واختياراً، ولاءه للامبراطور ويد الامبراطورية الصينية بقوة اضافية جديدة، يأخذ على نفسه الدفاع عن حدودها الشرقية.

اما في الجنوب الغربي، وفي الجنوب، فالحدود الصينية كانت في حزر حريز. وفي سنة ١٧٩١، جاء الغوركاس وهم اقوام هنود يسكنون التيبال يحاولون السطو على اديار التيب، طمعاً بما فيها من خيرات، واجتازوا جبال همالايا فتصدى لهم جيش صيني الحق بهم الخسف وهزمهم مراراً، ودفعمهم الى الوراء حتى بلغ عاصمتهم كتمندو واضطروهم لاعلان ولائهم للصين (١٧٩٢). واحتل الصينيون، بالجماء بومانيا، عام ١٧٦٥، المر الرئيسي والتجها نحو عاصمة البلاد، عام ١٧٦٧، الا ان محاولتهم هذه اصبحت بالفشل. ومع ذلك قدم ملك بومانيا، عام ١٧٩٠، ولاءه للصين وأصبح منذ ذلك الحين من اتباع الامبراطور.

وازداد امبراطور الصين نفوذاً على نفوذ بوضمه البوذية تحت رعايته وجعلها الديانة الرئيسية لهذه الرقعة من الارض الممتدة من سور الصين الى بحر قزوين. وأخذ على نفسه الدفاع عن سلطة الدالاي لاما الدينية في التيب ضد تعديتات الزعماء العلمانيين وضد الثورات التي قام بها التيبتيون الوطنيون وضد اطماع الدول المجاورة، بينما وضع تحت اشرافه المباشرة عملية انتخاب الدالاي لاما، وراح يراقب سياسته عن كثب.

وفي سنة ١٧٢٠، أتاح استرداد التيب من يد الإيلوث، للامبراطور هانغ - هي ان يجعل

منها حماية صينية . فعين عليها مندوبين ساميين اقاموا مع حامية صينية في مدينة لاهسا
(لتتقدم النصح ، للدالاي لاما .

وراح الوزير الاول التيبتي يقوم في منتصف القرن الثامن عشر بدسائس تهدف لطرد
الصينيين من البلاد ، مما حمل المفوضين الامبراطوريين على تصفيته والتخلص منه . وعلى الاثر
ثار الشعب في العاصمة لاهسا من جديد ، عام ١٧٧١ ، مما ادى الى التشدد في امور الحماية واعطي
المفوضان الصينيان الحق بمراقبة كل اعمال الدالاي لاما ، كما اعترف لها بحق الاشراف على عملية
انتخابه ، كما كان صوتها مرجحاً في الهيئة الانتخابية . وكان على المنتخب ان ينال من
الامبراطور فرماناً بانتخابه يمدد مجلس الطقوس في بكين ويحظى بمصادقة الامبراطور ليصبح
الانتخاب قانونياً . ان اخضاع الدالاي لاما ، للامبراطور وضع تحت تصرف هذا الاخير ،
ما للاكليروس البوذي من نفوذ قوي . كما ان مراسم التكريم والتبجيل التي احاطت بالامبراطور
كيان - لونغ الدالاي لاما بها ، امنت للاسرة المنشوية ولاء كل الاقوام الذين اعتنقوا البوذية
في آسيا الوسطى .

وهكذا نرى سلطة الامبراطور تمتد ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على كل آسيا الوسطى
وتنتهي عند حدود السيادة الروسية والانكليزية ، كما انها تحمكت بطرق المواصلات التجارية
التي سيطرت على منافذ الصين وابوابها . وهكذا حققت الاسرة المنشوية الاحلام التي طالما راودت
خواطر الصين الوطنية .

اما علاقات الصين مع الاوروبيين ، من ناحية الغرب فلم تكن شيئاً يذكر على الاجمال ،
بينما علاقاتها معهم في الشرق كانت انشط بكثير ، وكان لها نتائج اكبر واهم وهي علاقات
سلبية تجارية ودينية ، اذ كانت الصين هدف جميع الاوروبيين العاملين في آسيا . والاشياء
المدمثة التي قام بها اليسويون واثارت دهشة الاباطرة المنشو واعجابهم اعطت هؤلاء الاباطرة
فكرة صحيحة عن القوة التي توليها العلوم والتكنولوجيا ، كما جعلتهم يوجسون شراً من احتمال
قيام هؤلاء الاوروبيين بمحاولة ازالة جيوش في الصين واخذهم لها على حين غرة من وراء ،
فيحاولون بذلك دون الاعمال الحربية التي قام بها الصينيون في آسيا الوسطى ، وربما افضت الى
خلخلة سلطاتهم وقضت على سيطرتهم . وقد ازدادت هواجسهم ، وزادت خواطرهم قلقاً
للاخبار التي جاءتهم من الهند عن الانتصارات الاسطورية التي حققها في الهند ، كل من دي بوسي
وكليف . والخوف الذي اعترى الصينيين من احتمال غزو الاوروبيين للصين ، يفسر لنا الى حد
بميد ، حذر الاباطرة المتزايد من المرسلين والمبشرين الذين كلوا ينالون من الصينيين المرتدين ،
كل ما يرغبون في الحصول عليه . الا ان بعد الصين ، كان يوجب على الاوروبيين انشاء عدد
كبير من الاسكفة ، ومستودعات على طول الطرق البحرية الموصلة اليها . فالعمليات التي
كانت الهند مسرحاً لها ، في البدء ، اتبعت مثل هذه الخطة وسارت على مثل هذا النهج .
وقد رأى الاوروبيون انفسهم غارقين في عدد كبير من المشروعات والاعمال يناقسون بعضهم

بعضاً . فقد قام فيما بينهم نقاط احتكاك وتصادم في كل مكان من العالم . وهكذا وجدت الدول الأوروبية نفسها في شغل شاغل من امورها لتفكر جدياً بهجاة امبراطورية متحدة ، هي في ابان ازدهارها حرص الاباء اليسوعيون على احاطتها بهالة من العظمة في ما وضعوا عنها من رسائل وابحاث وتقارير . وهكذا تقدم الأوروبيون من الصين كأصحاب التماس واستطاع الاباطرة المنشو ان يحافظوا على ملء حرياتهم ، في جميع اعمالهم العسكرية ، في آسيا الوسطى بينما لم يفتحوا ثغورهم البحرية في الشرق للاروبيين الا بالقدر الذي رأوه مناسباً .

واستقطبت الحركة التجارية في الصين عدداً كبيراً من الأوروبيين . فالبلاد بما لها من غنى ، وبما فيها من كثرة السكان ألّفت ، في نظرهم زبوناً مرغوباً فيه جداً ، وكانت منتوجاتها العديدة : كالحرير واللاك ، والخزف والشاي مواداً اشتد الطلب عليها في أوروبا ، كما ألّفت تسويقها عملية تجارية رابحة . فقد ساعد النقد وسهولة السيولة على القيام بمضاربات مالية رابحة اذ ان نسبة الفضة الى الذهب كانت بنسبة ١ - ١٠ في الصين ، بينما هي بنسبة ١ - ١٥ في أوروبا . وهكذا وفد عليها الانكليز والهولنديون والفرنسيون فاقبلن معهم عملات من الفضة حصلوا عليها من اميركا الاسبانية ، عن طريق التهريب ، فيبدلونها في الصين بمسلة ذهبية ، ثم يبادلون هذا الذهب ، لدى عودتهم الى أوروبا ، ضد البضائع والسلع (او ضد عملات من الفضة) فيحققون ارباحاً كبيرة .

والثغور الصينية التي 'سمح للاروبيين الإقامة فيها كانت قليلة جداً ، كما لم يكن يُسمح للتجار الأوروبيين مغادرة هذه المدن والتغلغل الى داخل البلاد . واذ كانوا يرون فيهم خطراً على سلامة البلاد ، فكلوا يحصرونهم في احياء او حارات خاصة ويضعونهم تحت المراقبة . فقد كان للبرتغاليين امتياز مكاو الذين جعلوا منه مرفأً دولياً . وكانوا دوماً يدعون مجاناً ، ان لهم الحق بارغام السفن الأوروبية على الرسو فيها . وقال الاسبانيون امتيازات في بعض المرافئ الساحلية ، في فوكيان وأموي وفو - تشيو ، واحتلوا لفترة قصيرة فورموزا ، الا ان الصينيين عادوا واسترجعوا عام ١٧٤٢ . وبعثاً طلب الانكليز الإقامة في أنوي او في نانغ - بو . وقد وجدت الحكومة الصينية انه من الافضل لها بكثير جعل مدينة كنتون قاعدة للتجار مع العالم الخارجي ، ومن سنة ١٧٠٢ - ١٧٢٠ ، اعطى الامبراطور هانغ - هي ، تاجراً صينياً من تجار كنتون ، احتكار المعاملات التجارية مع التجار الاجانب . وكان بهذا التدبير لم يكن كافياً ، فراح الامبراطور المذكور ينشئ عام ١٧٢٠ الـ *Hong* او نقابة التجار الصينيين اصحاب الامتيازات ، وهي مؤسسة تجارية ضمت التجار الهانئين ، وعددهم عشرة ، هم من كبار التجار في البلاد ، برئاسة رئيس الجمارك البحرية . وفي سنة ١٧٧١ ، انفى الامبراطور كيان - لونغ هذه النقابة (*Hong*) وراح التجار الذين كانوا اعضاء فيها يتابعون اعمالهم التجارية ، بصورة فردية وبذلك حافظوا على الاحتكار . وكانت هذه الطريقة مؤقتية جداً للامبراطور اذ تزيد كثيراً من دخله . ولكي يكون التاجر تاجراً هانياً ، كان عليه ان يدفع للامبراطور

مبلغاً ضخماً، كما راحوا بدورهم يفرضون على السفن الأجنبية أن تدفع للامبراطور رسماً اميرياً يتناسب وحجم السفينة . كل ذلك كان من شأنه ان يضاعف اعتماده المالي ، اذ كثيراً ما استهدف التجار الهانويون ، من قبل الامبراطور ، لعملية تسليف واسعة اجبارية، يضطرون معها الى استلاف مبالغ طائلة من التجار الاجانب . كذلك سهل هذا التدبير مراقبة الاجانب المقيمين في مدينة ككتون ، حيث كان لكل امة حي او حارة خاصة (Loge) ، وهو كناية عن خان كبير يجري تأجيره من قبل التجار الهانويين . وكان التجار الهانويون الذين يتمتعون بالاحتكار ، في المقابل ، يحددون الاسعار حسبما يرغبون ، فينظمون بذلك حركة دخول البضائع الاجنبية الى الصين ، فيثيرون بالتالي المنافسة الحادة بين التجار الاجانب ، ويؤمنون لانفسهم ارباحاً ضخمة جداً . ولم يكن للروس الحق بالاقامة في ككتون . بينما اعطي هذا الحق لنمساويين وبروسيين ودانماركيين واسوجيين واسبان . والجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية كان بيد الانكليز والهولنديين والفرنسيين . ففي ٢٩ ايلول ١٧٦٥ ، في وقت كانت فيه تجارة الفرنسيين قد اخذت بالانحطاط ، وجد في مرفأ ككتون ٣٤ سفينة منها ٢١ انكليزية و٤ هولندية و٤ فرنسية و٣ أسوجية و٣ دانماركية . وفي سنة ١٧٨٤ ، دخل الحلبة التجارية منافس جديد خطير في شخص الولايات المتحدة الاميركية . وفي هذه السنة بالذات ، قامت السفينة « امبراطورة الصين » بأول رحلة لها بين فيلادلفيا وككتون وعادت بربح بلغ ٢٥٪ . وفي سنة ١٧٨٦ ، قام في ككتون لجنة تجارية اميركية . واحتكر الاميركيون الاتجار بالفراء في جنوب الصين . وفي سنة ١٧٩٠ ، دخل مرفأ ككتون ٤٠ سفينة اميركية قدمت من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا .

وقد اجيز للكهننة الكاثوليك وجدهم تقريباً الدخول الى الصين . وشهد القرن الثامن عشر نهاية عملية بديعة تمت على نطاق واسع : فالكنيسة التي حملت ، في القرن الماضي بان تكسب الصين وتدخلها في النصرانية ، رأت آمالها واحلامها تذهب هباء . وبذلك ، 'فقد كل امل بادخال الحضارة الاوروبية الى الصين .

ففي عام ١٧١٥ ، كانت الكنيسة في الصين تتألف من اساقفة برتغاليين في كل من بكين وشنكين ومكاو ، يمددون في امورهم الهامة الى مرجعهم الاعلى رئيس اساقفة غوا . وكان البابا اعترف للبرتغال بحق رعاية الكنيسة في الصين . ومن بين الامتيازات التي تتمتع بها ، تبليغ القرارات والمراسيم الكنسية الخاصة بالشرق الاقصى . وهكذا برز الاساقفة البرتغاليون كمثلين لرئيس الكنيسة كما برزوا رؤساء لجميع رجال الاكليروس . ولذا لم يقبل البرتغال ، في الصين ، سوى مبشرين برتغاليين او خاضعين للسلطات البرتغالية .

على المرسلين الاعترفوا بغير سلطة الخبر الاعظم ممثلة بجمع انتشار الايمان ، يمثله نواب رسوليون لهم سلطات الاساقفة . والتف اليسوعيون العدد الاكبر من المرسلين قام لهم في بكين نفسها رسالتان : رسالة برتغالية ورسالة فرنسية ارسلها الملك لويس الرابع عشر وتعيش على

مساعدات فرنسية . كذلك نشط اليسوعيون للتبشير في عدد كبير من الولايات الصينية . ويليه من حيث العدد : الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكان الاسبان الذين جعلوا من الفيليبين قاعدتهم الكبرى ، وحمّلوا باعداد كبيرة ، في عدد من الولايات الصينية ، ولا سيما في فو-كيان . وكان مرسلو جمعية المرسلين في الخارج التي يقوم مركزها في باريس ، وجمعية الآباء اللعازارين ، اقل عدداً من غيرهم من الرهبانيات التبشيرية . وقد استطاعوا ان يكسبوا للمسيحية ٣٠٠٠٠٠ صيني ، بينهم عدد محترم من كبار الموظفين ، يعمل افراد منهم بجمية الامبراطور . والفوا مجتمعات وطنية مسيحية يقوم على خدمتهم الروحية رهبان صينيون . كانت هذه النتائج ضئيلة جداً اذا ما قيست بضخامة سكان الصين ، الا انها كانت بالفعل عظيمة اذا ما قيست بعدد المبشرين والمرسلين المحدود ، وبالصعوبات التي اكتنفت عملهم التبشيري . وبالرغم من العراقيل والمصاعب التي اعترضتهم ، فقد بعثوا في النفوس آمالاً واسعة .

كان اليسوعيون هم أول من حمل امبراطور الصين على الوقوف موقفاً متساهلاً تجاه الديانة المسيحية . وبفضل ما تتمتعوا به من نفوذ عريض في البلاط ، استطاع المبشرون متابعة عملهم الرسولي في الولايات . وبفضل ما تم لهم من العلم الاوروبي والتكنولوجيا . فقد امسوا ، لا غنى عنهم كرياضيين وعلماء فلك ، فكانوا اعضاء في الديوان الفلكي الامبراطوري ورسامي خرائط ، وميكانيكيين ، ومهندسين واطباء ، وبرزوا في أعين الناس كمترجمين ودبلوماسيين . وسيطروا بهم من مقعدة فائقة كفلاسفة وادباء من حملة الثقافة العليا ، واصبح لهم حكمة مسموعة لدى الموظفين الذين ينزلون المعرفة وحملة العلم منزلة رفيعة ، وعرفوا ان يكسبوا لهم ، الكثير من الاصدقاء ومن قادري فضلهم بفضل ما ظهر من طيب احاديثهم وبفضل ما جادوا به من هدايا وخرائط جغرافية وساعات وادوات رياضية وكتب علمية . وعرفوا ان يشبعوا الفضول العلمي في الاباطرة . وكان يملو للامبراطور هانغ - هي ان يقتل الوقت بالتحدث اليهم فاستطاع بذلك ان يحصل على مبادئ العلوم الغربية ، كما تم له الاطلاع على العادات الاجتماعية والسياسية المرعية لدى الغربيين . وقد هبط نفوذ اليسوعيين وتأثيرهم في عهد الاباطرة يونغ تشانغ - وكيان - لونغ بسبب الجدل العنيف الذي أثارته الطقوس وفتح الهند . الا انهم حافظوا على مكانتهم العالية كقنصيين وتقنيين . فالآليات كانت معبود كيان - لونغ ، وقد صنع له الاخ تيبول ، عام ١٧٥٤ ، اسداً يتحرك من تلقاء ذاته ، كما ان الاب سيجسموند زاده اعجاباً على اعجاب بصنعه إنساناً يتحرك مع حركات الساعة . وفي سنة ١٧٥٢ ، صنعوا بمناسبة العيد التذكري الستين لولادة الامبراطور ، تمثالاً يتحرك ويلقي خطبة تقريظ بينما تماثيل اخرى تفرح الصنوج ، وتعين اوزة بمنقودها الساعة على حافة الجوض . وهكذا ، فالعلوم والتكنولوجيا مهدت السيل امام انتشار الدين المسيحي .

وقد ساهم الآباء اليسوعيون كثيراً في تيسير سبل الأخذ بالمعتقدات المسيحية والعمل بها عن طريق تفسيرهم للمعتقدات و « الطقوس الصينية » . آمن الصينيون بخلود نفوس الجودود وادوا

لهم عبادات من التكريم ، في ولائم جنازية وفي ادعية خاصة . واعتقدوا ان بفضل هذه العبادة كانت هذه النفوس تعيش سعيدة وتصدق النعم على ذرارها ، وبدونها كانت بائسة ، تعيسة وإذ ذلك تنتقم لذاتها بمساوىء لا حد لها ولا حصر . وكان المثقفون منهم يؤدون عبادة لروح كونفوشيوس . وكان الصينيون يمدون قوى الطبيعة التي رأوا فيها ارواحاً لها قوة هائلة . انما امر البت بعبادتها ترك للحكام في الولايات . والفرد لم يكن له من تأثير عليها الا بالسحر . واخيراً هنالك اله سامر ، اعلى ، هو السماء او السيد المطلق ، ها تشانغ - تي ، عبادته متروكة للامبراطور وحده ، الرئيس الاعلى للدين الذي يستمطر على البلاد اجمع بركات الله في الاعالي .

وعملية تنصير الصيني يشترط فيها عدم تحميل الصيني تغييرات قاسية تبدل جذرياً من عاداته واعرافه ، بحيث لا تسبب عملية تنصيره تنقيصاً له يجعل عيشه في المحيط الوثني الذي يجد نفسه فيه ممتعاً لا بل مستحلاً . هذه كانت مشكلة الهند ايضاً . ففي سبيل تخفيف الصدمة في نفس الصيني ، راح الآباء اليسوعيون يرون في الـ *Le Tien* او الشانغ - تي ، اله المسيحيين الشخصي . فالنصوص الصينية ، والحق يقال كانت غامضة في ذاتها اذ انها تصور لنا *La Tien* تارة كإله شخصي ، كلي القدرة ، كلي المعرفة ، مشيب ، مجازي الكلال على اعمالهم ، ويصورونه طوراً الهياً غير متميز عن الهبولى او المادة العامة . وقد عرف اليسوعيون ان يستفيدوا من هذا الغموض بحيث يساعدهم على تقديم الايضاحات اللازمة للتحديد والتعيين . وقد استعملوا هذا اللفظ بالذات للدلالة على الله الأب وعلى السيد المسيح . اما عبادة الجدد فقد ألفت مشكلة اساسية . فالمنتصر الجديد لم يكن له بد من المشاركة بهذه العبادة ، والا تعرض للطرده من الجماعة واصبح بالتالي منبوذاً منها او مقطوعاً من المجتمع الصيني ، وبذلك يستهدف لاحكام القانون . فقد شجب الآباء اليسوعيون هذه العبادة ذاتها . الا انهم سمحوا للمنتصر ان يشارك بها على اعتبار منه بانها مجرد فعل احترام للجدد ، على ان يحمل تحت ثيابه او يضع على الطاولة صليباً او صورة تقوية يرتفع بعقله وقلبه من صلواته اليه . ومنذ ١٧٠٠ ، ظنوا انهم يستطيعون ان يروا بفضل تصريح من الامبراطور هانغ - هي في هذه العبادة ، احتفالاً مدنياً لا غير . فلا غبار بالتالي على المؤمنين من حضورها والمشاركة بها دون ان يחדش ذلك ضمائرهم او وجدانهم .

وقد لقيت هذه الشروح والتفسيرات شجباً عنيفاً من قبل الكهنة بقيادة الدومنيكيين والفرنسيسكان . فقد قام بين المرسلين مناقشات وجدل هي بعض ما قام منها بين الرهبانيات والجنسيات . اما الدوافع فقد كانت دينية قبل كل شيء . فقد رأى خصوم اليسوعيين في الاله *Le Tien* عنصراً شاملاً غير متناه هو والهبولى سواء . فالصينيون ، والحالة هذه هم حلوليون ، وثنيون ، مشركون ، كما راح الدومنيكيون يملون . فتسمية الله بـ *Le Tien* او *Chang-ti* تكون تجديدياً على الله كما فيه حمل للصينيين على ارتكاب خطيئة ممتة . امسا الطقوس فهي في نظرهم عبادة ارواح الجدد ، وبالتالي شيء من الصنمية او عبادة الاصنام ، وهو شيء فظيخ

في نظر المسيحيين . فالموقف الذي اجازه اليسوعيون للمتتصرين كان من شأنه ان يجعل باقي الصينيين يعتقدون ان الكنيسة الكاثوليكية تجيز هذه العبادة ، مع ان جوازها يعرض النفوس للهلاك الابدني . كان لا بد من ملاحظة هذه المفارقات والإعراض عن هذه الاساليب البشرية والجهر بالحقيقة مها قست وآلمت ، والتمويل على الصلاة وعلى الصلاة وحدها ، وعلى التقوى والمحبة ، والنعمة الالهية ، وعلى شفاعة السيد المسيح واستحقاقاته غير المتناهية في فتح الصين امام المسيحية .

فبعد ان درس الكرسي الرسولي القضية من جميع وجوها ، شجب البابا الآباء اليسوعيين ، واصدر عام ١٧١٥ براءة *Ex illa die* التي حظرت استعمال الكلمات *Chant-ti* و *Tion* مرادفتين لكلمة الله ، كما حظرت مراسم العبادة والتكريم التي تقام لكنفوشيوس وللجودود، واجاز الاشتراك بالحفلات المدنية العرفية ، ان مثل هذا الحكم حمل في ثناياه القضاء المبرم على الارشادات التبشيرية في الصين . وامام تحذيرات اليسوعيين والامور التي اثاروها ، ارسل البابا القاصد الرسولي ميزاباربا (١٧٢٠ - ١٧٢١) ليحصل من الامبراطور هانغ - هي على السماح للصينيين المسيحيين باعتماد التشريع الكنسي . واذا كان الامبراطور برماً جداً من هذا الجسد الديني والمناقشات الحادة التي استمرت ردهاً طويلاً ، رفض رفضاً باتاً النزول عند طلب القاصد الرسولي ولو تعرض لثورة عامة ، مردداً ما كان سبق له واعلان ، عام ١٧٠٠ ، بانه لا فرق قط بين الفكرة التي يقيمها الصينيون والمسيحيون لله ، وبان الطقوس ليست سوى مراسم تذكارية لا غير . فاذا كان ذلك تفكير هانغ - هي ، فمعظم الصينيين لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا من هذا التفكير ، وما للامبراطور من سلطة على آرائهم الشخصية . وقفل ميزاباربا راجعاً بعد ان ترك ثماني « جوازات » ، كانت في ذاتها بالفعل نقضاً لاحكام البراءة البابوية . فالبابا لم يمر هذا التدبير الذي اتخذته بمثله الاهتمام الكافي ، وفي سنة ١٧٤٢ ، اصدر البابا بندكتوس الرابع عشر ، البراءة *Ex quo Singulari* التي حرمت الجوازات المذكورة واقرت احكام البراءة .

لم يأمر هانغ - هي باضطهاد المسيحيين . اما الامبراطور يونغ - تشانغ فقد اخذ يحترق الهازقين بعبادة الجودود كما راح يسخر من العاملين على نشر عقيدة الثالوث الاقدس ، هذه العقيدة التي تصدم العقل في الصميم . ولم يطل الامر على كبار الموظفين في البلاط حتى ادركوا ان الامبراطور لم يعد يأخذ تحت حمايته المسيحيين . وفي سنة ١٧٢٣ ، شجب مون - آن - بان الذي كان نائباً للامبراطور في فو - كيان ، المسيحية واصدر امره لجميع المرسلين العاملين في الولاية المذكورة بالانسحاب منها واللجوء الى مدينة مكار . فكان ذلك إيذاناً بابتداء الاضطهاد وامتداده الى الولايات الاخرى . فهدمت الكنائس ، او جرت مصادرتها من قبل الحكومة وحولت الى مستشفيات ومستودعات او مدارس ، وتعرض الكهنة في الشوارع لهوانة والتحقير ،

وزج بالمسيحيين في السجون واوسعوا تعذيباً . وراح مكتب الطقوس يشجب المسيحية في كل أنحاء الصين . وافر الامبراطور يونغ - تشانغ هذه الاجراءات كما اقر هذا الشجب وصادق عليه عام ١٧٢٤ ، وامر باخراج المرسلين من جميع اطراف البلاد وسوقهم الى كتون ليجري تسفيرهم الى اوروبا . واجيز لعشرين يسوعياً بالبقاء في بكين ، باعتبارهم فنيين اوروبيين . وقد خطر ليونغ - تشانغ طردهم منها عام ١٧٣٣ . لم يُعرف الامبراطور كيان - لونغ بعدائه للمسيحية ، الا انه كان يخشى مشاعر الجماهير ، كما انه كان يتوقع هجوماً من الاجانب على البلاد . وفي سنة ١٧٧١ ، شجب المسيحية من جديد ليس باعتبارها ديانة باطلة او رديئة ، بل باعتبارها مخالفة لقوانين البلاد .

وعاد المرسلون سراً وخفية الى الصين متنكرين بلباس الصينيين ، يقودهم مرتدّون مسيحيون ، ممرضين حياتهم لخطر الموت . فكانوا عرضة للتوقيف والسجن ، ويوتقون بشكل لا يستطيعون معه الوقوف او الجلوس ، ويجري خنقهم في السجن ثم تجتز رؤوسهم . وقد تعرضوا لاتهامات مشينة واتهموم بفعل المنكر مع عذارى مسيحيات ، كما اتهموا بقتل الاولاد ، ودس مواد سامة مؤذية للشعب . واستهدف كثيرون من المعمدين للجلد والضرب والتعذيب ، وبيعوا في اسواق النخاسة عبيداً أرقاء . فلا عجب ان يحدد عدد منهم دينهم الجديد ، كما ان بعضهم تصرف تصرف الابطال والشهداء الابرار .

الا ان الضربة القاصمة للرساليات في الصين جاءت بالأحرى ، من اضطهاد الحكومات للرهبنة اليسوعية منذ عام ١٧٥٨ . وعلى الأخص من الغاء الرهبنة اليسوعية ، عام ١٧٧٣ : وفي سنة ١٧٨٤ ، حل الآباء للعازاريون رسمياً محل الآباء اليسوعيين ، في بكين . ولم يبق سوى بعض رهبان لم يلبثوا ان توفوا الواحد بعد الآخر . ومن اصل ٣٠٠٠٠٠٠ مسيحي كانوا في الصين ، عام ١٧٨٩ ، لم يبق سوى ١٨٧٠٠٠ استمروا على ايمانهم بفضل الرهبان الوطنيين وبعض المرسلين المتخفين .

وراح البعض يتساءلون ما اذا لم يكن من الافضل للباباوات ان يجيزوا « الطقوس الصينية » باعتبار ان التفسير الذي اعطاه اليسوعيون للاله الاسمي ولعبادة الجدود ، قد يكون غزا ، مع الوقت ، عقول الصينيين ، مما كان من شأنه ان يؤدي مثل هذا التدبير الى تنصير الصين برمتها مع اقطار آسيا الوسطى . وهذا الاحتمال كان يقابله ، في الوقت ذاته احتمال آخر هو ان يجعل المسيحيون الصينيون من الله بحسب المفهوم المسيحي له ، الهاً حلولياً . كما كان جعلهم يمدون ، بالفعل ، ارواح الجدود . وهكذا تحتلط المسيحية لتذوب في هذه الطقوس مع مذاهب التفكير الصيني ، لا سيما اذا ما أخذنا بعين الاعتبار وأدركنا جيداً الجهود البائسة التي بذلها الآباء اليسوعيون الذين كانوا يؤلفون ، الفرقة الأمامية للمرسلين المناضلين ، وهم يعملون على صعيد مترجرج ، خطر ، بذلوا الى اقصى حد ممكن الجهود الكريمة التي قاموا بها . فبقني من هذا كله ان الـ *Tien* ليس هو بالله الذي يملأ التوراة وان عبادة الجدود هي من صميم الصنمية والشرك .

وبما لا شك فيه قط ان فشل المسيحية في الصين يكون فشلاً في محاولة « فرنجية » تلك البلاد واخذها باسباب الحضارة الأوروبية . كانت الصين متحجرة في عاداتها واعرافها وعقائدها التي سارت عليها منذ بضعة آلاف من السنين ولا سيما عبادتها للجدود ، واقصار احترامها على الماضي وعلى طقوسها الدينية . وكان على الصيني ان يحترم ، طوال حياته ، اصغر الحركات والسكنات ويتقيد باتفه العبادات والحركات الطقسية ، بدقة كلية ، والا تعرض لمساويء عديدة . فكل جديد يأتيه او يقوم به ، في هذا المجال ، يكون مخالفة منه للطقوس المرعية ، كما يكون انتقاضاً لحكمة الجدود ، وخروجاً على تعاليمهم . وهكذا لم يكن من الممكن قط ادخال أي اصلاح او القيام بأي تجديد . فالخروج بالصين من نطاق هذه الطقوس او إلحاق أي تغيير او تعديل او تفسير يغير من معناها انها يعني التسليم بحدوث تغييرات جديدة وفتح الباب على مصراعيه امام التطور . وهكذا قضى على الصين أن تأسن عاداتها ، وان تبقى عند هذا المستوى الذي بلغت اليه الحضارة الرومانية . ولم يكن هذا الوضع ليتعارض مع ظهور اخلاقية عالية ومع اكبر الفضائل واروعها . الا انه كان يتعارض ، في الصميم ، مع طاقتها الكبرى على التحكم كقوة كبرى يقوى الطبيعة . وهكذا اخذ ميزان القوى ونسبة الفوارق يتسع بين الصين واروبا او بين الشرق والغرب .

فلم يستفد الصينيون بالفعل كثيراً من اتصالاتهم مع الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد حمل اليهم الآباء اليسوعيون نتائج محققة ، مكتسبة نزلت عند اباطرة الصين منزلة عالية ، انما جهل رعاياهم كيف يطبقونها ويفيدون منها ، وبالتالي لم يفقهوا ، ما تحمله بين ثناياها من طاقات وما تخفيه في طياتها من امكانات . فعلى قيد خطوات من اليسوعيين الذين كانوا يعملون ، في ارسادهم العلمية ، على المجهر وعلم المثلثات وفرضيات كوبرنيكوس ونيوتن ، استمر علماء الفلك الصينيون يستعملون المزاويل الشمسية ويعتمدون نظرية السماء الجامدة او الصلبة . وبعثاً عليهم الرسامون اليسوعيون وجوب ، مراعاة الابعاد ووجوب الاعتماد على الانوار والظلال . فقد استمر الفنانون الصينيون على جهلهم لهذه المبادئ والضرب بها عرض الحائط ، كما استمروا على إضفاء النور على رسومهم الفنية من كلا الجانبين . اخذ الفنانون الصينيون بتقليد الحزف الاوروبي ونسخ الرسوم والنقوش البادية على مصنوعات سان كلو وخزفيات لويس الخامس عشر ، كما قلدوا تقليداً حرفياً موضوعات وصور اوروبية ، وذلك تلبية منهم لطلبات تقدم بها بعض الغربيين ، اذ راح احد العلماء الصينيين يرى في علم الجبر بمثابة او تطوراً لطريقة علمية صينية قديمة . وموجز الكلام بقيت الصين مجالاً مغلقاً وحقلًا موصداً في وجه الفكر الاوروبي .

اما الاوروبيون فقد اظهروا شديد اعجابهم بحكل ما هو صيني . وقد استطاع المرسلون ولا سيما الآباء اليسوعيون من بينهم ان يضموا بالابحاث العلمية التي عقدوها حول الصين اساس علم الصينيات *Sinologie* فرسموا لنا صورة شاملة عن الحضارة الصينية بهذه الرسائل التقوية الغربية التي

وضعتها الارساليات الاجنبية ، خلال هذا القرن . وكتاب « وصف الصين » الذي وضعه الأب دي هالد مزداناً بأول خريطة عامة للصين (١٧٣٥) والذي تمت ترجمته الى الانكليزية والالمانية فور صدوره بالفرنسية ، كان موضوع وحي وإلهام لعدد كبير من فلاسفة العصر . وفي اواخر القرن ، طلع علينا كتاب « مذكرات حول الصينيين المرسلين في بكين » وهو كتاب عظيم الشأن مليء بالعلم والفوائد الجملة ، « يؤلف معيناً لا ينضب . وكثيراً ما جاء مونتسكيو على بحث امور الصين في كتابه المعروف : « روح الشرائع » . وفولتير نفسه كثيراً ما استشهد بحكمة الصينيين في « قاموس الفلسفة » ووضع لنا : « يتم الصين » وهي مسرحية ناجحة . وعقد ديدرو بحثاً مستفيضاً عن « فلسفة الصينيين » في موسوعته المشهورة . وروسو نفسه استمد من الصين الدليل الرئيسي الذي أيد فيه خطابه الاول .

وكان استشهاد الفلاسفة بالصين واتخاذهم بعض تعاليمها تأكيداً لنظرياتهم اكثر منه سعيًا لتفهم الصين . فقد اتخذوا من هذه الادلة التي استمدوها من ادب الصين وفلسفتها براهن لتأييد تعاليمهم ونظرياتهم واقوالهم بما يتعلق بالديانة الطبيعية ، لا اهتماماً منهم بتوضيح جوهر الله وصدقاته او تقريب العناية الالهية للفهم ؛ بل تأكيداً منهم « لاستبدادهم الغير » ، اذ ارحوا يتوهمون انهم امام بلاد يحكمها حكماً استبدادياً امبراطور فيلسوف وعصبة من العلماء الحكماء . وقد خيل لعلماء الاقتصاد ، اذ ذلك ، ان يتخذوا من وضع الصين ، تأكيداً لنظرياتهم الاقتصادية ، اذ تصوروا الصين او بالأحرى صوروها امبراطورية زراعية قائمة وفقاً للمبادئ التي يقولون بها ، وانها تحكم وفقاً لنواميس الطبيعة ، وهذا الكمال الامثل والاسمى الذي رأوه في الصين كان له تأثير بعيد على نشر فكرة الشعوبية في العالم .

وبفضل الهدايا التي قدمها اليسوعيون للموظفين الصينيين ونقل المصنوعات الصينية الى اوروبا ، أُطلِّق لقب مهروس على كل مظاهر الفن الصيني . وهذا المهوس للصنائع الصينية رسخ في الناس ذوق المستهجن ، وراح امراء العائلة المالكة يسعون لتكوين مجموعات لهم من الخزفيات الصينية ، منهم الفنان « كويل » وجوليين نصير الرسام واطو . وقد اوصى الاوروبيون على خزفيات صينية ، وتلقت مدام بومبادور من كيانغ - سي طاقماً كاملاً من الخزف الصيني يحمل شاراتها المعلقة . وهناك نفوس تقية حرصت ان تحمل خزفياتها صور القديس اغناطيوس دي لويولا ، وفرنساو كسافيه وحماد السيد المسيح ، والصليب ورسوم قيامة السيد المسيح تاهضاً بمجد من القبر . ورغب آخرون الى فنانين مشهورين امثال دلفت في هولندا ، وشانتلي في فرنسا ، بتقليد الخزف الصيني .

واستوحى الفنانون من الخزف الصيني ومن هذه الألواح الفنية الملشورة في الكتاب الموسوم : « وضع الصين الحالي » الذي نشره الاب بوفيه ، عام ١٧٩٧ ، موضوعات عديدة لوشيمم وتحليتهم . كما استوحوا منها تحفاً فنية صغيرة (Chinoiseries) ودمى هزلية (Stingeries) . لها الرسام واطو نحوها في زركشته وتحليته ديوان الملك الخاص في قصر الـ Muette ، كما ان الرسام هويه رسم عجلات

ومحففات وحلى كثيرة للصالونات ، وغرفاً للطعام على هذا النحو ، وغرفة زينة قصر دي روهان (١٧٤٥ - ١٧٥٠) . والى هذا المنشأ او الينبوع الفني يجب ان نرد الدمى الهزلية التي تزين قصر شانتلي . كذلك عالج بوشيه وناثيه موضوعات صينية لمحامية في المرح والدعابة . كذلك ظهرت أقمشة تحمل رسوماً صينية . فزيه الاطلس الصيني اخذ في الظهور ، عام ١٧٣٢ ، والنسيج القطني الاصفر من طراز النسيج المعروف بننكين ، والنسيج الحريري الموشى من طراز بكين ، عرفت رواجاً عظيماً . وقد طبع أوبركف في مدينة 'بجوي' ، عام ١٦٧٠ ، اول نسيج يحمل رسوماً صينية هزلية .

والمقاعد والطاولات طلي كثير منها بالطلاء الصيني ، ككتيب لويس الخامس عشر ، هذا المكتب بالذات الذي كتب عليه الملك لويس السادس عشر وصيته ، وهو مسجون في سجن التميل . كذلك ، 'صنعت السكاكين وفتحاً للطراز الصيني' ، كما تحلت مقابضها برسوم قرودة صينية .

وكان الانكليز اول من قلد الحدائق الصينية في كيو . ومن تصميم الحديقة الصينية انبثقت الحديقة الرومنطيقية . كذلك ظهر في كيو وشانتلو اول ما ظهر ، طراز المابد الصينية ذات القباب . وكل حديقة كان يقبها امير كبير او مالي ثري امام قصره ، ارتفعت فيها سرادقات صينية ، منها في بلدة باغاتيل للكونت أرتوى ، وفي شانتلي وسانت جيمس ، على الطريق الممتد بين غابة بولوني ولويي ، وفي اماكن اخرى .

وبعد عام ١٧٦٠ ، اخذت أذواق الناس تتوق لانماذج من الفن القديم ، كما استبدت بأذواقهم النظريات الفنية التي طلع بها جان جاك روسو ، وكلها تعارض الى حد بعيد ، التنظيم الاجتماعي الشديد ، في الصين ، حيث لا قيمة للفرد ولا شأن له فجاء رواج هذا الذوق وانتشاره بين الناس يخفف تدريجياً من تأثير الفن الصيني الذي تأصل عميقاً في نفوس القوم ، اذ ذاك .

ففي اواخر القرن الثامن عشر ، بدت الصين واوربا غريبتين تماماً الواحدة عن الاخرى . فالاخوة الانسانية التي راودت النفوس ودغدغت المشاعر برهة من الزمن ترى حلمها يتطاير هباءً منثوراً ويتوارى عن الانظار . وهذه الصين التي اصبحت عزلاء من السلاح لاقتنارها للتكنولوجيا الاوروبية ، دانت باستقلالها وبالنجاحات التي حققتها ، لهذه الانقسامات والمشاحنات والمنافسات التي اقامت الدول الاوروبية بعضاً على بعض فذهبت جهودهم سدى . وعندما توارى الامبراطور كيان - لونغ عن العرش ، عام ١٧٩٦ ، تاركاً الحكم بيد خليفة خشن اخلاقه وماعت بعد معاشرته النساء في الحريم ، بدا مستقبل الصين قائماً مظلماً .

اليابان بقيت اليابان في عزلة شبه تامة في جزرها المتناثرة ، ومحسباً منها لغزو محتمل تقوم به اوربا يحافز من المرسلين والمبشرين ، حظرت اليابان الكرازة بالمسيحية والتبشير بها ، منذ سنة ١٦١٦ ، ولم يُعرف ان يابانياً واحداً غادر اليابان الى الخارج ، منذ سنة

١٦٣٧ . فكل محاولة من هذا النوع كانت تعرض صاحبها للموت الاكيد ، كما انه اشترط في بناء السفن ألا يتعدى حجمها الأقصى ٢٥ طناً . فلم يكن يسمح لغير الهولنديين من بين الاوروبيين باستيراد البضائع الاوروبية الى وكالتهم التجارية في جزيرة دشيا الواقعة عند مدخل خليج تاغازاكي ، بعد ان يتعرضوا للكثير من ألوان الازعاجات والمضايقات التعسفية . وكانت بعض القوارب اليابانية تستورد من الصين ، بعض المواد والاصناف التي تقتضيها حياة البلخ . فاليابان كانت موصدة الابواب ، مغلقة النوافذ .

وقد وجد سدنة البلاط من آل توكوغاؤوا في هذه المزمة وفي هذا الاغلاق مدعاة للطمأنينة ، اذ كان يفوت على كبار الاقطاعيين الذين غلبوا على امرهم امكانية الاعتداع على عون او نصرة من الخارج . فالبيكادو او الامبراطور كان يقبع في قصره في كيوتو ، لا يأتي عملاً . وكان يحيط بسدنة البلاط من آل توكوغاؤوا او الشوغون ، في عاصمتهم يادو (توكيو) ، حاشية ألتمت بلاطاً زاهياً ، حكموا البلاد باسم الامبراطور وجمعوا في قبضة ايديهم ملء السلطة الفعلية ، يتصرفون بالجانب الاكبر من التوابع المرتبطين بهم بالولاء : من اشراف وبارونات ومساموراي وفرسان . هنالك ١٥٠ اسرة من نبلاء الفوداي *Fudai* اصحاب الامتيازات تتوارث ، أبا عن جد الوظائف العامة في البلاد ، مكافأة لها ، في شخص جددوها ، لمناصرتهم توكوغاؤوا والوقوف الى جانبهم ، واخلصهم لهم الخدمة . وكان في وسع التوكوغاؤوا ان يعتمدوا الى حد بعيد ، على ولاء ٥٠٠٠ فارس من الفرسان *Bannet* ، وعلى ١٥٠٠٠ من رجال الحرب المدسجين بالسلاح . وقد أبعد عن الحكم هؤلاء النبلاء من بطون توزاما الذين سبق لاجدادهم ان وقفوا موقفاً معادياً من توكوغاؤوا ، الا انهم كانوا ينعمون باستقلالهم الاداري في اقطاعاتهم الواسعة ، هذه الاقطاعات التي لم يكن للشوغون ان يتدخل بأمورها مباشرة طالما ان الامن مستتب وليس ما يعكر الطمأنينة والاستقرار . وكان لبعض هذه الأسر كالشيدازو والداوا والمايدا اطيان طائفة يعمل في تابعيتهم عدد كبير من النبلاء والساموراي بحيث تؤلف الواحدة قوة مهيبة الجانب .

وكان النبلاء والساموراي يؤلفون طبقة عسكرية . الا ان معظم افراد هذه الطبقة لم يكونوا ليعملوا شيئاً يذكر ، اذ كان محظوراً عليهم ، باسم الشوغون ، ان يقوموا بأي نشاط غير النشاط العسكري والدرس . وكان يؤمن أود معيشتهم طبقة بائسة من المزارعين والفلاحين ، ترزح تحت عوائد ورسوم من الارز تفرضها عليهم طبقة النبلاء ، لا يبقى لهم بعد تادية ما يترتب عليهم تقديمه ، ما يسد رمقهم او يكاد . وقد قامت في المدن نقابات من اصحاب الحرف والتجار (*Chentins*) تؤمن للبلاط وللسكان الريف المصنوعات التي هم بحاجة اليها في معابهم .

وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي بالتفسيخ والانحلال للمزلة التي كانت فيها اليابان . وكان عدد السكان قد ارتفع كثيراً في ايام السلم ، اذ تراوح سنة ١٧٢٦ ، بين ٢٨ - ٣٠ مليون نسمة

وهو رقم وقف عند هذا الحد دون ان يتعداه حتى سنة ١٨٥٠ ، بعد ان ادرك الانتاج ، في البلاد ، حد الكفاية . فاليابان بلاد جبلية الطابع ، لا يستثمر المزارعون منها سوى سبع مساحتها ، واليابانيون كالصينيين لم يكونوا يحسنون سوى استغلال السهول واستثمارها . وكان يخشى ان يتجاوز السكان بعيداً طاقة البلاد الانتاجية ، اذ ان الجفاف والمجاس المطر طويلا او وفرته احياناً ، من شأنه ان يسبب المجاعة في البلاد التي كثيراً ما قاست من هول المجاعة بين ١٧٠٢ - ١٧٩١ ، فضرست باثنتي عشرة سنة من السنين العجاف ، زادها إيلاماً وشدة ، الرسوم الجركية في الداخل التي كانت تحول دون انتقال الارز من الاقضية التي ترتع ببجوبة الى تلك التي تعاني من الجوع ويتضور اهلها منه . وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تجر وراءها الوبئة والثورات وتتسبب في حرب الفلاحين وفي خراب رجال الحرب ولذا راحوا يهبطون المدن طلباً للرزق . وكان لا بد من شراء الارز من الخارج فيقايضون به المواد المصنوعة في البلاد . ولكن أنى ذلك والقوانين المرعية تحول دونه ؟

والسبب الآخر هو سلوك طائفة الشونين وتصرفاتهم . فقد قام هؤلاء التجار وسيطاً بين النبلاء والتجار الهولنديين في دشيا ، وبين الفلاحين والصناعيين . فكانوا يحددون اسعار الحاجيات على هوام : يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً ، وبذلك يتسديون بخراب هؤلاء واولئك على السواء . وهكذا راحوا يؤلفون ، شيئاً فشيئاً ، طبقة جديدة من البورجوازيين الرأسماليين ، يشترون من النبلاء أقطانهم كما يشترون ألقاب الساموراي . فالشيء الوحيد الذي يحدد من مضارباتهم ويضع حداً لتعسفاتهم وتحكمهم هو سياسة تبيع الاستيراد الحر وتطلق المنافسة بين التجار .

والفلاحون الذين ارزحتهم الضرائب والرسوم المفروضة وارتفاع اسعار الحاجيات المصنوعة ، وبخس ثمن الارز الذي يبيعونه ، اخذوا يهجرون الريف للمدن ويدخلون في خدمة المنازل ، او يهيئون على وجوههم . وبعد ان تقفر مقاطعات برمتها من السكان تعجز عن دفع ما يترتب عليها من رسوم . والفلاحون الذين يبقون في منازلهم يعجزون عن تربية اولادهم ، ولذا راحوا يقتلون اطفالهم او تعمل النساء على الاجهاض بالرغم من القانون . ولكي يؤمن اصحاب الارض الايدي العاملة الاخذة بالتناقص ، راحوا يشترون اولاداً ناشئين بعد ان يجرى خطفهم من المدن على يد افس مختصين مدبرين على ذلك . وهؤلاء النبلاء الذين كانوا يمشون في البلاط او يملكون اخاذات صغيرة لا تقي بأودهم لم يلبثوا ان اصبحوا مدينين لدى التجار . وكانوا يستمرون على هذا النهج من الحياة بعد ان ينشئوا في املاكهم صناعات للحياكة ، وبتخفيض كمية الارز المخصصة لرجال الحرب التابعين لهم . وكان بعضهم يضطر ، بعد ان يفرقوا في الدين ، لبيع املاكهم من هؤلاء التجار .

وكان عدد كبير من رجال الحرب يذهبون فريسة الفاقة والموز ، فيفقدون كل شعور

بالكرامة التي يحملون ، كما يفقدون كل حس بنبل المحتد الذي ينحدرون منه فيتخففون من عبء بعض بنينهم بالتخلص منهم . وكانوا يعفون من خدمتهم لهم الاتباع الذين توارثهم ابا عن جد ، لقاء بعض المال يدفعونه لهم نقداً . وكثيراً ما تبناوا ابناء بورجوازيين اغنياء يعطونهم اسماءهم وينقلون اليهم الامتيازات التي ينعمون بها ، مقابل مبلغ محترم من المال ، ثم يهجرون اسيادهم ويهبطون الى المدينة ويصبحون ساموراي مشردين بعضهم ينصرف للتجارة بينما يصبح معظمهم من شذاذ الآفاق ، او ممثلين مسرحيين او مغنين او قطاعي طرق .

وكانت الطبقات الاجتماعية تتداخل فيما بينها وتتشابك بصورة يصعب حلها . ففي مجتمع يبدو مستقبله غامضاً ويسارع كل افراده للتمتع بمباهج الحياة ولذاذاتها ، فالمضاربون الذين حالقهم الحظ وبسم لهم القدر ، والمشردون المغمورون بين الجماهير الذين يسمون للكسب من كل جوارحهم : هؤلاء عن طريق ثروة هبطت عليهم من حيث لا يدرون ، واولئك عن طريق غنيمة باردة او صيدة من غير صائد ، او لينعموا بسلمحة بسمت لهم بين الاشواك ، كل ذلك التآفة مادة استفادات منها باثمات اللذة في هذه الاحياء الخاصة القائمة في المدن الكبرى المكتظة بالسكان . فدور البغاء اصبحت مؤسسات رسمية معترف بها . والفن الوطني او القومي نفسه تنزى بهذا « الزيد الطافي فوق المجتمع » . فالنو *No* ، هذا الفن الغنائي الذي يور بالمزمية والذي تكفيه المحبة الشاردة دون الايماء المغربية ، قد المحط امام الدراما الشمبية الصاخبة العاتية . فالصورة الخشبية ، *Estante* اكبر فنون اليابان وبرزها طراً ، تبرز لنا ، حتى درجة الراهق ، مشاهد حياة البغايا ، وما هن عليه من بذخ صارخ ، ومواقفهن المصطنعة التي توحى لنا هذا الاحتشام الكاذب والحقر الحيبي ، وهذه العاطفة المشبوبة المنكوشة او المتحفظة . فهارونوبو (١٧١٨ - ١٧٨٠) الذي كان اول من اخترع الطباعة المتعددة الألوان الكاملة ، واوتومارو (١٧٥٣ - ١٨٠٦) لم يصورا لنا غير البغايا . وتسيونوبو (١٧١١ - ١٧٨٥) وكيومتسو (١٧٣٥ - ١٧٨٥) وكيولورا (١٧٣٨ - ١٧٦٥) وكوريوساي ، وكيونوغا (١٧٤٢ - ١٨١٥) الذي بلغ فن الاستامب على يدهم الذروة ، صوروا بالأكثر بغايا . وهكذا أخذ الفن يروج لتذوق هذه اللذائذ التي تحرك الشهوات وتهيج الاعصاب ، وتسهم في افساد الاخلاق والآداب ، فتزيد من آلام المجتمع واوصابه .

وقد أسقط في ايدي الشوغون يانوبو (١٧٠٩ - ١٧١٣) ويوشيمون ، وجيناري ، ولم يستطيعوا شيئاً امام هذا الوضع المستعكم الحلقات . فقد حاولوا معالجة الاعراض والظواهر دون البحث عن اسباب المرض الحقيقية ، وحاولوا ان يزيدوا من نفوذ الكونفوشية ، سياج الاخلاق الحميدة والمدافعة الأولى في البلاد عن الانضباط وحسن النظام . واتخذوا مستشارين لهم فلاسفة وحكماء متممقين في الكونفوشية امثال هاراي هاكوسيكى (١٦٥٦ - ١٧٢٦) ومورو كيوسو (١٦٥٨ - ١٧٣٤) ، ومتسودايرا سادانوبو (منذ عام ١٧٨٦) . بذل هؤلاء المستشارون جهوداً طيبة لاصدار القرارات الرادعة ، ضد حب المال وسطوته ، وضد المحطاط

الاخلاق بين طبقة الساموراي (١٧١٠) وضد المزارعين الذين هجروا الارض واوجبوا عليهم الرجوع اليها والعمل فيها ، ومنع الفلاحين من هجر اراضيهم (عددهم وافر جداً) ، والحد من البذخ والاسراف وتحديد الايام التي يسمح لهم فيها بتناول الارز ، واجبار النساء على ترتيب زينتهن بانفسهن ، وانشاء جوائز ومكافآت لمن يحافظن على طهارتهن او تقواهن ، والالفاء الدرري لديون الساموراي . كل هذه الاجراءات والتدابير الاحترازية لم تحدث اية تحسين ، وبقيت دونما اثر . وكان الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . واستبدت المجاعة بالبلاد على اثر الجفاف والفيضانات التي نزلت بالبلاد بين ١٧٨٣-١٧٨٨ . فالهر والفار قنص طيب يرغب فيه جيداً . وراح اليابانيون يأكلون جيف الموتى ، ويجهزون على المحتضرين ، ويكبسون لحم الادميين ليحتفظوا به اطول مدة ممكنة . وقد امتنعت السلطات عن ملاحقة السرقة والمتسبين بالحرائق .

كل هذه الامور نفصت عيش النبلاء والساموراي وانباء التجار المثقفين ، بعد ان هالهم ما رأوه من قدرة الاوروبيين وسطوهم وبعد تأثيرهم . وقد اخذ الهولنديون يستوردون الساعات والمجاهر والفانوس السحري ، وقنينة ليدن ، وميزان الحرارة وميزان ثقل الجو وقد سمح الشوغون مورو كيوسو ، باستيراد الكتب الاجنبية باستثناء الكتب التي تبحث في الدين المسيحي . ووضع احد الكونفوشييين يعمل موظفاً رسمياً اسمه اوكي يوزو عام ١٧٤٥ ، لحساب الحكومة ، معجماً هولندياً يابانياً . وقام بعض الخاصة امثال ريوتاكو وسوجيتا يتعلمان اللغة الهولندية ، واشاروا عام ١٧٧١ ، كتاباً في علم التشريح يضم الواحاً علمية واقتنعوا عن طريق علم التشريح بأن الحق الى جانب الاوروبيين ضد الصينيين . وعملوا عام ١٧٧٤ ، على نشر الكتاب الالف الذكر مترجماً الى اليابانية . وقد ادخل سوجيتا ، بعد ذلك ، طريقة العالم النبائي (لينييه) . وقد بقي روتاكو يبحث حتى اجله الاخير (١٧٨١) ليكون له فكرة عن وضع اوروا . وقام هيروغا جنائي (١٧٣٢ - ١٧٧٩) بابحاث حول النباتات الطبية ، وصنع اجهزة كهربائية وأصبح تاريخ اوروا وجغرافيتها ، موضوع اهتمام الجميع . واستقر في خلد الجميع ان ليس باستطاعة اليابان قط الصمود في وجه هجوم يقوم به الاوروبيون ضدها . وراح سيهاي هاباشي ينبه الناس الى الخطر الكائن على اليابان من تقدم الروس ، ومن مجاورتهم لهم ، وبراظه بأنه الخطر الذي يهدد القومية اليابانية بأسوأ مصير . وراح الشباب يلتف حول هؤلاء الرجال بعد ان قلقت خواطرم وناقوا جداً الى ان قستورد بلادهم العلوم والادارة وسياسة الغرب ، كذلك اخذ الجميع يكره حكم لوكوغاؤوا وادارتهم . فالشك الذي قوبل به نظام حكم الشوغون والكونفوشية الرسمية حمل بعض الفلاسفة اليابانيين على نبش مدونات تاريخ اليابان القديم ودرسها . واخذوا يعمون ، اكثر فأكثر ، مدى القول بأن الامبراطور هو ابن الشمس الاله الأسمى والأعلى . وراحوا يعلنون على رؤوس الاشهاد بأن الشوغون هو مرسل بسيط من قبل العرش وان الولاء للعرش هو اسمى بكثير ، وفوق الولاء لسيد إقطاعي . وفي الوقت ذاته كشف اليابانيون

عن قوة جديدة في نظريات الفيلسوف الصيني القديم وانغ - يانغ - منغ وتعاليمه (او - يوماي) وهذا الفيلسوف الكونفوشي المشق يوحى بتهذيب الشخصية عن طريق التمعن بالحقائق الداخلية ، فحسبها وترويض النفس عليها . ويشجع الاعتماد على ظاهر الكلمات المكتوبة . فساعد بذلك اليابانيين على تحرير ذواتهم من نير تقاليد التوكوغاؤوا . وطلع من بين تلاميذه عدد كبير من دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر .

راحت انظار المستائين من ادارة التوكوغاؤوا وحكمهم ، والواقفين الى جانب الميكادو تتجه ، اكثر فأكثر الى بعض كبار النبلاء من امثال توزاما ومساتسوما والموري والتوزا والهيزن الذين عرفوا ان يبقوا بعيداً عن مؤثرات البلاط، ان يقتصدوا وان يستثمروا إقطاعاتهم على الوجه الامثل وينظموها وحدات مستقلة اقتصادياً . فأوجدوا بعض الصناعات لهم وللمزارعين العاملين في خدمتهم ، وأولوا التجارة اهتمامهم الاكبر وراحوا يدافعون عن رجالهم ويمحونهم من جشع التجار المرابين ، ويحافظون على هذه المناقب الاجتماعية القديمة ويمتصمون بها . واذ كانوا حذقوا فن القيادة باعتبارهم زعماء القوم ، وبرهنوا عن كفاءة ادارية عظيمة وراحوا ينتظرون هدهد الوقت المناسب والفرصة المؤاتية .

فمنذ اواخر القرن الثامن عشر اخذت تنهياً في اليابان ، هذه الحركة الكبرى التي ادت الى ثورة ١٨٦٨ ، كما ادت الى بعث اليابان وطلوع نهضتها الحديثة .

افريقيا

كانت افريقيا تعيش في عزلة شبه مغلقة . فقد قام في الشمال من هذه القارة مجتمعات اسلامية ، امتدت حلقاتها من البحر الاحمر حتى شواطئ المحيط الاطلسي ، اولت ولامها السلطنة العثمانية . وانعزلت مثلها عن آسيا محاولة دفع الكفرة عنها . وفي ما عدا ذلك ، حواجز تألفت من شواطئ قليلة التقاطيع بيئتها واطية ، منخفضة ، رملية هنا ، او تغطاها المستنقعات والغياض ، هنالك ، ونواتئ طبيعية تبرز على الخط الدائري . ومساحات شاسعة تفتريها الاحراج والغابات والغدران والرمال المحرقة ، واقوام من الزنج فزعة ، ألف بعضها القسوة والفظاظة ، والبعض الآخر حربي الطابع من أكسلة لحم البشر تعمل فيه فكرة الاستعمار التجاري والاستغلال ، بحيث ان كل شيء كان يحول ، في هذه القارة المترامية الاطراف ، دون التوغل والانسياح في ارجائها . قلما ابتعد الاوروبيون في القرن الثامن عشر عن بعض المراكز التجارية التي نثروا حباتها على الساحل الافريقي . اذ ان البرتغاليين الذين كانوا تسربوا الى بعض المناطق الداخلية ، واوغلوا فيها ، خلال القرون الماضية ، والذين احتفظوا لانفسهم بسرية الاكتشافات الجغرافية والبشرية التي توصلوا اليها عبر الاجيال ، قطعاً منهم لاثارة الشهوات واهاجة الرغائب بين المنافسين ، والذين لم يكن يهمهم غير التجارة وتأمين الارباج الطائلة ، كانوا قد تناسوا بعض ما تم لهم من علم ومعرفة عن هذه البلدان . وكان يشار الى داخل هذه القارة ، في أدق المصورات الجغرافية التي تعود لتلك الحقب التاريخية ، بلون ابيض او بخطوط تشير الى حدود اعتبارية فيبدو منها وكان نهر النيجر مثلاً ، يخرج من بحيرة تشاد ليتصل سيره فيما بعد بالنغال ، كما تبدو بحيرة تشاد وكأنها احدى منابع النيل ، وكان عدة انهر قوية تجتاز الصحراء الكبرى في اتجاهات عديدة ، كما يبرز حيناً فيل شارد يهيم على وجهه فوق الربي والتلال . والحضارات القائمة في هذه الاقطار ، الجاهلة لاصول الكتابة في ادنى صورها ، والمعجزة عن الاحتفاظ بمدونات البدائية ، تكون السواد الاكبر مما تقع عليه العين من انماط متعابرة ، باستثناء بعض المعلومات التي توفرت على جمعها المراكز الاوروبية القائمة على الشواطئ الافريقية . فالمستندات الوحيدة المتوفرة ، تألف من هذه الابحاث والكتب التي وضعها الكتاب العرب ، حول افريقيا الشمالية ، وحول بلاد الزنج التي قامت بينها وبين العرب والبربر ، بعض الملائق عبر التاريخ .

هذه الحضارات الافريقية تراها كلها آخذة بالانحطاط في القرن الثامن عشر .
 مصر فالبلدان الافريقية الواقعة الى الشمال تشارك السلطنة العثمانية ، المحطاطها
 وتقهقرها . وعند النقطة التي تلتقي فيها آسيا بافريقيا ، في هذه الزاوية التي يتلاقى عندها العالم
 الشرقي بعالم البحر الابيض المتوسط ، تقوم مصر ، التي نظرت اليها القسطنطينية نظرتها الى
 ولاية من ولاياتها . وكان السلطان العثماني يعين عليها والياً او باشا يستبدله بغيره مع انتهاء
 العام . ويأتمر بامر الوالى ٢٤ نائباً يحمل كل واحد منهم لقب بك ، لهم ٣٧ وكيلا ، وتحت امره
 الوالى خمسة طوابير من الخيالة ، بينهم ثلاثة من الصباحيين واثنان من المشاة ، وواحد من
 الانكشارية ، وواحد من العُزب ، يقوم على امرتها آغاوات او زعماء ، ولكل آغاً نائب .
 على الباشا ان يؤمن النظام في البلاد ، وان يقيم العدل بالسواء بين الرعية ، كما يترتب عليه جباية
 الرسوم والضرائب ، على اشكالها : كضريبة الاملاك ، وضريبة الاعناق المفروضة على الذميين
 من نصارى ويهود . فاذا كانت الرسوم المفروضة عيناً على الاطيان والاراضي التي يردفها النيل
 بالخصب والثراء تؤمن دخلاً طيباً ، فالجمارك من جهتها ، امنت هي الاخرى ، مردوداً عالياً .
 فقد كانت السفن العربية ترد السويس ومرقاً القصير قادمة من صورات ، في الهند محملة بالموسلين
 والاقمشة الهندية والقهوة العربية ، كما كانت تصل اسبوط قادمة من دارفور ، ناقلة العاج وقرن
 وحيد القرن ، وخشب الابنوس وريش النعام ، بينما كانت الاسكندرية تستقبل الاجواخ
 والخرداوات المختلفة تصدرها الى مرسليليا وليغورنو . فايها وقع منك النظر في هذه المدن
 والموانئ ، رأيت سوقاً للرق والعبيد يؤتى بهم من السودان ، او سوقاً آخر للارقاء البيض
 يؤتى بهم من القوقاس وكان من مألوف المادة ان يرسل الوالى الى الاستانة ، كل سنة ٠٠٠ ٠٠٠
 قرش من الخراج ، وعددأ من الجند .

اخذت هذه الولاية تعيش في شبه عزلة بعد ان راحت فريسة المحلال النظام الاقطاعي ،
 حيث غامت كل سلطة للسلطان فيها . وراح البيكوات المماليك فيها يعملون على شراء ارقاء
 من البيض ، يعملون لهم منهم فرسانا عرفوا بالمماليك الذين شدتهم الى اسيادهم ، رابطة الولاء
 والاخلاص أو ما يشبه رابطة البنوة . وقد جرت العادة في البلاد على ان ينعم اقوى البيكوات
 بلقب بك ، على احد مماليكه المصطفى فلا يعم هذا الاخير حتى يسارع بدوره الى شراء ارقاء له من
 بلاد الكرج او من بلاد الشركس يقيم له منهم مماليك يقومون على خدمته . يختار من بينهم كالمعتاد
 بيكوات ، وهكذا نرى ان جبهة من العبيد والارقاء يتولون اكبر الوظائف الادارية واهمها في البلاد .

واخذ الجند بدورهم يختارون هم انفسهم ، آغواتهم لمدة سنة ، حتى اذا ما انتقضت انضم
 الاغا الخارج الى مجلس الآغوات الذي يقوم على ادارة الفرقة ويختار اعضاءها .

ولم يلبث هؤلاء الجند ان استقلوا عن سلطة الباشا لا يعرفون رئيساً لهم غير زعيمهم ،
 فيأخذون بابتزاز الفلاحين وامتصاص التجار . وكان الباشا يبيعهم او يضع تحت تصرفهم ضياعاً
 بكاملها يستغلونها حتى ان بعض البيكوات تم له من ٢٠٠ الى ٤٠٠ عزية او مزرعة ، اذ كان

يحتفظ في كل ضيعة من هذه الضياع بعزبة يكل امر العناية بها لفلاحين ومزارعين يسخرم لهذا العمل . وكان يفرض عليهم الرسوم ، والضرائب على الاراضي والاملاك ، يمهّد بجبايتها الى مأمورين يختارهم من بين موظفين نصارى من الاقباط ، حذقوا اسرار مسح الاراضي كما حذقوا القضايا المالية . وكان يحتفظ بقسم من هذه الرسوم ويرسل الباقي للوالي . وكان باستطاعة هؤلاء الاغوات والمماليك ان يوصوا ، شرعاً باملاكهم لاولادهم . فبعد ان الف المماليك جيشاً مرابطاً في البلاد يستغلها كما يشاء ، راحوا بوصفهم ورثة هذ القبائل البدوية التي تم الفتح على يدها ، يردون عن البلاد هجرات البدو في عهدهم .

وكان الباشوات والاعوات يتجادون اطراف السلطة فبا بينهم ، يستخدمون في سبيل الاستئثار بها الدسائس والمؤامرات والاشتبكات الدامية ولا يتورعون قط عن القتل طمعاً بالخناسر او السم المدسوس . وقد يشره طاغية جبار من بينهم للسلطة ويحاول فرض سطوته على الجميع . من اشهر هؤلاء البيكوات علي بك (١٧٥٥ - ١٧٧٢) احد هؤلاء المماليك الذين سبقوا محمد علي الى الاستئثار بالحكم ، والذي ادرك ما عليه الاوروبيون من قوة البأس والشكيمة ، فحاول ان يحصل من فرنسا ما هو بحاجة اليه من المدافع ، كما حاول ان يفرض سيطرته على السودان الى الجنوب من مصر ، وعلى سوريا والحجاز ويؤمن لخصر استقلالها الناجز ، كما اقتطع منذ عام ١٧٦٨ ، عن استقبال اي باشا ترسله الاسنانة ، وامتنع عن ارسال الخراج اليها ، وضرب العملة باسمه . وبعد ان اخذ يدس لرفاقه ويعاملهم بكل قسوة مات مكروهاً من الجميع الا من افراد الشعب الذي امن له ، بالحديد والدم والنار ، النظام والمدل . وقد كانت البلاد في معظم الاحوال ترسف في الفوضى الخزية ، بالرغم من محاولة فاشلة قام بها الاتراك لاعادة سيطرة السلطان على البلاد من جديد (١٨٨٢ - ١٧٨٩) .

والعدد الضئيل من الاوروبيين الذين سكنوا مصر ، اذ ذاك ، كان يمثل بعض البيوتات التجارية معظمهم من الفرنسيين الذين لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين ، يأتون مصر باذن خاص من غرفة تجارة مرسيليا ، فالفروا من بينهم «أمة» لها منظماتها وهيأتها الرسمية يرأسها قنصل . وكان القنصل موظفاً يجرى تعيينه من قبل الملك ، يساعده ترجمان خاص تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تأسست في باريس ، عام ١٧٢١ ، وقامت ضمن كلية لويس الكبير ، فيها . وقد كانت بعضهم امثال «له غران» الذي كان استاذاً لسلفستردى سياسي ، وكاردون وديجون من كبار علماء المشرقيات الذين ساهموا باغناء المكتبة الملكية بما اهدوها من كتب ومخطوطات شرقية ، تركية وعربية . وقد فال الفرنسيون تخفيضاً لرسوم الجمرك عن بعض السلع التي يستوردونها بمعدل تراوح بين ٣٠٪ و٣٠٪ على الاجواخ الجديدة ، منافسة منهم للاجواخ الانكليزية . وفي سنة ١٧٥٢ ، مات آخر تاجر انكليزي في مصر ، كما ألغيت القنصلية الانكليزية فيها .

ولم يكن يسمح للاوروبيين بالاقامة . وكان عليهم ان ينزلوا ارضاً عن صهوة جيادهم

عند مصادقتهم مرور الأغا او الوالي في الطريق ، وكثيراً ما كانوا عرضة للاهاتات والضرب وابتزاز المال .

ان انشاء امبراطورية في الهند جعل اهمية خاصة لطريق السويس وهي طريق اخصر بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح . الا ان البحر الاحمر الذي تقوم على سواحه الشرقية مدن الاسلام المقدسة كان محظوراً دخوله على الكفار . الا ان الضعف الذي اعترى السلطنة العثمانية سهل الاتصال مباشرة مع سيد مصر الموقت . ففي سنة ١٧٧٥ ، قال وورن هاستنغز ، الترخيص للسفن الانكليزية بالدخول الى مرفأ السويس . وفي سنة ١٧٨٦ عاد الانكليز فانشأوا لهم قنصلية في القاهرة ، ومنذ ذلك الحين اخذ الضباط الانكليز والموظفون والتجار منهم يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند ، عبر الصحراء والاسكندرية والبحر الابيض المتوسط ، والعكس بالعكس . ونال الفرنسيون مثل هذه الامتيازات ، عام ١٧٨٥ .

هذه البلاد الغنية ، مصر ، التي تعود التجارة فيها باريح مغرية على الفاعين بها والتي تقع وسطاً بين عالمين وكانت في ولايتها تابعة لسلطان ضعيف مستضعف ، كانت تثير الرغائب والمجازفات في قلوب من يرون اليها باشتهاء . فقد رأى شوازل في احتلال فرنسا لمصر ، خير عوض لها عن خسارتها وفقدانها لكل من كندا والهند ، فراح سنة ١٧٨٤ يشرح في شائتله وبين افكاره وآراءه ويؤيد نظرياته امام تاليران الذي كان وزيراً للخارجية ، في حكومة الديركتوار . وعرضت قضية احتلال مصر عدة مرات لفرجين . وانشأت الامبراطورة كاترين الثانية قنصلية لها في الاسكندرية لتدفع بالبيكاوات والاعنوت الى التحرر من ربة السلطان بوضع انفسهم تحت حمايتها . وستلمب مصر ، عما قريب ، دوراً رئيسياً في المسألة الشرقية .

كلما اوغل المرء سيراً باتجاه الغرب كلما شعر بضعف الولاء وضعف تابعة شعوبها تونس لتركيا . فقد سبق وقام في تونس دولة جديدة عقب منسادة الاعنوت منها بالحسين باي عليها (١٧١٠) وتوارث الحكم والخلافة بعده ابناءؤه . واغتنم سكان الجزائر حدوث أزمة حكم في البلاد ، فاستولوا على تونس وفرضوا على الباي ضريبة فادحة (١٧٥٦) ، الا انه تمكن ، عام ١٧٩٠ ، من الغاء علاقات الولاء والتابعة التي شدته لداي الجزائر . واثرى هؤلاء الحكام بفضل الاحتكارات التجارية التي انشأوها . وقد اثار ادعاءاتهم الجمانية وتمديدات القراصنة الذين خرجوا عن طاعتهم ، صعوبات مع الاوروبيين كسكان البندقية والاسبان والفرنسيين (تدخل الاسطول الفرنسي في الـ *Goulette* ، عام ١٧٨٤/١٧٨٥) ونال الفرنسيون من علي بك (١٧٥٩ - ١٧٨٢) امتيازاً خولهم احتكار صيد المرجان وإنشاء وكالة تجارية لهم في بنزرت ، واربعة مراكز تجارية اخرى حول رأس عنابة *Cap Bon* ووزت الحركة التجارية الفرنسية في عهد خلفه الباي حموده (١٧٨٢ - ١٨١٤) نشاطات كل البلدان الاخرى .

الجزائر
 كانت الجزائر خاضعة لحكم الداوي الذي يجري انتخابه عادةً ، من قبل ضباط فرقة الإنكشارية . فمن اصل ٣٠ داياً تعاقبوا على حكم البلاد ، بين ١٦٧١ - ١٨١٨ ، جاء ١٤ حاكماً منهم الى الحكم إثر انقلابات عسكرية كانت تؤدي الى قتل الحاكم العام . ولعل اكثر الصناعات رواجاً في الجزائر واوفرها رفنداً ودخلاً هي القرصنة اذ يقوم القرصان بمهاجمة السفن التجارية واخذ من وما فيها من انس ومال ، والاعتداء على المسيحيين الساكنين على السواحل البحرية . الا ان تطور صناعة السفن واساطيل الحربية لدى الاوروبيين ، خلال هذا القرن ، والرحلات التفتيشية التي اخذت تقوم بها هذه الاساطيل ، حدثت كثيراً من هجمات القرصان . دخل الداوي في مفاوضات مع الدول الاوروبية التي رضيت تفادياً منها لتعديت القرصان ، ان تدفع له ، رسماً سنوياً معيناً بشرط ان تكون في مأمن من هجماتهم وتعدياتهم ومضايقاتهم ، وما عتّم ان اعمل هؤلاء القرصان مهنة لم تتعد لتندرت على القائميين بها مدخولاً طيباً . وهكذا هبطت قوة الاسطول الجزائري من ٢٤ سفينة عام ١٧٢٤ ، الى ١٠ سفن عام ١٧٨٨ . كذلك ضعف النشاط الزراعي فيها وتردّت الاعمال الزراعية من جراء الجفاف الذي لحق بالبلاد ، وبإيه الطاعون الذي تعرضت له ، كما ان تجارة الاستيراد التي كانت الشركة الفرنسية الافريقية تلعب فيها دوراً بارزاً تقوم به فروعها الثلاثة في لآكال وعنابة وكولو ، قد انحطت هي ايضاً .

وقدر اح الداوي يشدد ، اكثر فأكثر على استثمار مرافق البلاد ، اذ عهد بالادارة في الملحقات الى بيكوات اترك لفساء رسوم طائلة يفرضها عليهم فيحملون اليه الضرائب الجبابة كل ثلاث سنوات . وكانت إيالة الجزائر تقسم ادارياً الى عدة اقسية ، يعهد بامور الادارة فيها الى موظفين من الترك . وكان الحكام الاداريون يصدرن تعليماتهم لرؤساء القبائل وشيوخها الذين كانوا يتحكمون بدورهم ، بالقرى او الدوار . وتُركت للقبائل الحرية بالحفاظة على عاداتها وتقاليدها المرعية ، اذ كل ما اراده الداوي منهم هو دفع الضرائب والرسوم المترتبة . اما قبائل الخزن فكانت تتمتع بالاعفاء من الضرائب وتعمل على تحصيلها من القبائل الموالية . ولم تكن سلطة الداوي الفعلية لتتعدى سدس مساحة البلاد . وكانت جمهوريات القبيل والقبائل الرحل التي تسكن المرتفعات والجنوب ، والامارات العسكرية امثال توفغورت ، او الديلية ، كمين مهدي مثلاً ، لم يشدها الى الداوي سوى وشائج غامضة من التبعية والولاء ، تضعف دوماً مع الانقلابات والانتفاضات .

واسبانيا التي اضطرت لاخلء وهران والمرسى الكبير أمداً من الزمن ، عادت الى احتلالها ، عام ١٧٣٢ . غير ان الاسبان فشلوا في انشاء قاعدة قوية لهم ، وكانوا يعملون بالاحرى ، على وطنهم الأم ، لتأمين اسباب عيشهم . وفي سنة ١٧٩٠ ، حدثت هزة ارضية هدمت مدينة وهران بما حمل الاسبان على التخلي عن هذه القاعدة للداوي .

المغرب
كان السلطان الشريف في المغرب يتمتع عملياً باستقلاله التام عن السلطنة العثمانية .
ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان حكم السلطان مولاي اسماعيل ، هذا
الطاغية المستبد ذي المزاج الناري ، يمتد فوق سلطنة واسعة الأرجاء ، شملت المغرب والسودان .
كان السودان يقدم للسلطان ما هو بحاجة اليه من قوة عسكرية فيمّده بجيش من الزنج
قوامه ١٥٠،٠٠٠ جندي يخلصون له الخدمة والولاء . وكان هؤلاء الجنود ، في الغالب ، متزوجين
من زنجيات ، حتى اذا ما الحين ، شبت ابناؤهم الذكور في نخبات التدريب وانخرطوا فيما بعد ،
في صفوف الجيش . اما الاناث فيلثان على الاعمال المنزلية ثم يتزوجن . وقام في الاماكن
الستراتيجية قسبة يحيط بها سوران ترتفع فيها المستودعات والمساجد وحامية للدفاع عنها .
ومن مدينة مكناس ، كان الشريف مولاي اسماعيل يفرض احترامه وطاعته على البلاد اجمع ،
بعد ان ازل في قلوب الناس الخوف والرعدة ببطشه واعمال السلب والنهب والابتزاز . فلم
يترك للانكليز سوى مدينة طنجة ، وللبرتغاليين سوى موزاغان ، وللاسبان سوى مدينتي
سبتا ومليل .

واشتهر السلطان مولاي اسماعيل ببعده النظر ، وعمل على التخفيف من حماس الذين عرفوا
بتمسبهم الديني ، وهم فرقة من القرصان يقومون بنشاطاتهم على السواحل البحرية . ويعملون
على مطاردة المسيحيين وتمذيبهم . فوضع حداً لاعمال القرصنة التي انقطع بها القرصان في
صالح وتطوان . وكان من جراء ذلك ، ان نشطت الحركة التجارية وزادت واردات السلطان ،
بعد ان فرض على الصادرات والوارد رسوماً بلغت ١٠٪ ، واصبحت مدن صالح وتطوان وصافي
واغادير ، مرافئ تجارية ناشطة . واحتلت مدينة فاس من هذه الامبراطورية القلب . وكان
البرتغاليون يقدون على مدينة قادس طلباً للدودة القرمزية والزنجفر من الاسبان ، والاجواخ
والاصداف من الغينه التي كانوا يستعملونها نقوداً ويستوردها الانكليز مع الاقمشة ، يتلقون
التوابل والاسلحة والاعتدة الحربية من الهولنديين ، والشب والكبريت من ايطاليا ، والحرير
والقطن والزئبق والافيون من بلدان الشرق الادنى ، ويحملون كل هذه الاصناف الى السواحل ،
حيث كان المسلمون واليهود يتهاقون على شرائها لمقايضتها مع العرب والسودانيين لقاء مسحوق
الذهب والفيل وريش النعام والعاج من السودان ، والتمر من الواحات وقد احتل الانكليز في
هذه التجارة المرتبة الاولى .

وبعد وفاة مولاي اسماعيل ، أخذ أولاده من نسائه العديداً ، يتجادون الخلافة كل من
جبهته ، في هذه الفترة الواقعة بين ١٧٢٧ - ١٧٥٧ . وقد تصرف الجنود الزنج تصرف المستبد .
يرفعون الشرفاء الى الحكم ويخلمونهم كما يحلو لهم . واغتتم زعماء القبائل هذا الوضع لاعلان
المصيان والثورة . فأهمل المتصاربة مصير السودان واسقطوه من اهتمامهم فوقع في الفوضى
وراح يتخبط فيها .

استطاع مولاي محمد (١٧٥٧ - ١٩٧٠) ان يعيد الامن والهدوء الى البلاد . الا انه

تغلى نهائياً عن السودان وارغم البرتغاليين على الانسحاب من مازاغان ، عام ١٧٦٩ ، الا انه باه بالفشل امام مليلا . فبعد ان اعطى الدانيارك احتكار الاتجار مع مدينة اسفي وأغادير (١٧٥١) عقد مع فرنسا معاهدة تجارية عاملها معاملة الدولة الاكثر رعاية . وقام منذ ذاك في مدينة الرباط ، قنصل فرنسي ، كما جاء وسكن البلاد عدد من الفرنسيين . وأسس السلطان مدينة موغادور وجعل منها اكبر اسواق المغرب على الاطلاق ، كما اقام احتكاراً للملح . وهكذا عرف المغرب الازدهار دون ان يعيد الى الوجود ، الامبراطورية الافريقية ، مع بقاء البلاد في وضع لا يختلف كثيراً عن وضعها في الاجيال الوسطى .

افريقيا السوداء كانت افريقيا السوداء التي ألفت سوقاً كبيرة للرق والنخاسة آخذة في مجموعها بالانحطاط والقهقرى وهي تقاسي الامرّين من الاتجار بالرقى . وقد راح تجار الرق من العرب ، يتجهون شمالاً وشرقاً سائقين امامهم سوق النعاج ، سحائب لا تنقطع من الارقاء بالتجاه مدينة مراکش وطرابلس ، او بالتجاه اسبوط والمالك الاسلامية في الصومال وسلطنة زنجبار ، ومنها يُنقلون للعمل في الزراعة او في الجيش ، او في حريم السلاطين والامراء ، في افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى . اما تجار النخاسة من الاوروبيين فكانوا ينشطون للعمل الى الغرب من القارة الافريقية ، انطلاقاً من موريتانيا حتى الكونغو في رقعة شاسعة طولها ٣٥٠٠ كيلومتر . وكانت النخاسة أم وجوه النشاط التجاري في هذه الوكالات التجارية الفرنسية القائمة في سان لويس وبودور وغوريا وكازامانس والبريدا بعد ان تتموت بالرقى من السنغال ومن المراكز الانكليزية في غمبيا وسيراليون والشاطيء الذهبي . اما خير ارقاء الزنج الذين عُرفوا بقوتهم البدنية وحسن طاعتهم فقد كان يؤتى بهم من جزيرة فرناندو بو الاسبانية ومن الوكالات التجارية الدانياركية والهولندية ، في منطقة خليج بنين *Bénin* التي ألفت سوقاً طيبة وان كانت محاصيلها وسطى ، واخيراً من الوكالات التجارية البرتغالية المعديدة ، في سان بول دي لواندا ، وسان فيليب دي بنغويلا ، على الساحل الغربي ، ومن لورنسو ماركيز وصوفالا ، وكويليان وموزمبيق على الساحل الشرقي .

واستعمل تجار النخاسة طريقتين : الكتيبة الفزازية والشراء . فالاولى كانت الطريقة التي عول عليها التجار العرب في زنجبار ، اذ كانوا يفاجئون بكتيبة من الجنود حسنة التسليح يصطحبونها معهم ، القرى على حين غرة ويذبحون فيها كل من يحاول المقاومة او يسبب لهم ازعاجاً ما ، ويستاقون السكان صفوفاً لا نهاية لها ، عبيداً وارقاء . فيلاق عدد كبير منهم حتفهم في الطريق . وكان الهلع يسمر الخوف في قلوب السكان حتى من كان منهم في مناطق البحيرات الافريقية ، ويتعرض الريف لعملية منظمة من السلب والنهب ، ويروح الزنوج فريسة البؤس والخوف ويدب التفسخ والانحلال في المجتمعات الزنجية . ونهج الطريقة نفسها الخلاسيون البرتغاليون *Pombeiros* الذين عرفوا بالقسوة والفظاظة وفساد الاخلاق محتدين حذو التجار

العرب . اما الطريقة الثانية ، وهي التي اعتمدها بالاكثر الاوروبيون ، واحيانا تجار النحاسية من العرب ، فقامت على شراء الارقاء من بعض الزعماء على اساس من المفاوضات تستدعي احيانا ستة اشهر من المفاوضات والمداولات . كان من نتائجها بيع اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ اسير زنجي ، في السنة .

وقد تركت تجارة الرق اثرها البعيد ، داخل القارة الافريقية . هنالك زعماء كثيرون اشملوا الحرب ونفذوا في اوارها ، تأمينا لحاجتهم من الارقاء . وقد راح العرب والاوروبيون على السواء ، يجرضون الملوك والامراء والزعماء المحليين بعضهم على بعض فيقتتلون فيذهب الفريق المغلوب على امره اسرى يقودونهم الى الموانئ الساحلية ، في صفوف طويلة . ولذا قامت الحرب بينهم باستمرار ، والى الرق عند اصحابه عملية اختيار بالمعكوس . فينقل النحاسون بعيدا من افريقيا السوداء ، الفتيان الاشداء يعملون في الزراعة ، والزنجيات الجيلات للاخصاب والنسل ، والاولاد الصغار للعمل والخدمة في المنازل . وهكذا كانت افريقيا تفقد خير سكانها وتزف دونما انقطاع ، دمها المتجدد . والذين يستبقون في مجاهل الارض يمشون تحت رحمة شريعة الغاب ، حيث الحق للقوي ، وحيث يطلع الصباح عن مصير مجهول ، وعن غد يطوح بهم الى البراري ، او يعرض مقتنياتهم لغزو لا يرحم من السلب والنهب ، ومنازلهم للحريق والابادة ، فيجدون انفسهم مشردين تارصدهم يد الموت ، واحيانا اذا ما اسعف الحظ وافتر القدر عن بسمة الرضى ، امام مقصف ينقطع اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر حتى اذا ما خمر هؤلاء واولئك ، راحوا فريسة عملية فتح لا تبقي ولا تذر .

اما الى اقصى الجنوب في القارة السوداء ، فالشركة الهولندية لم تكترث بمدينة الراس الا باعتبارها الاسكلة الرئيسية على طريق الهند . هنالك مزارعون هولنديون انضم اليهم بعض اللاجئين من بروتستانت الفرنسيين ، جكوا عن بلادهم هربا من الاضطهاد الديني رأوا اعمالهم الزراعية في السهول الطيبة التربة تجود وتزدهر ، اربى عددهم على ٢٠ ٠٠٠ . فمن عاش منهم على مقربة من الساحل جاء عيشهم رغيدا على النمط الاوروبي . اما الذين نهضوا منهم للعمل في مشاريع استثمارية داخل البلاد ، فقد عاشوا عيش الآباء الاقدمين . فقد كانوا كلفنيين متعصبين ، يطالعون باستمرار الكتاب المقدس ، ويعتقدون اعتقادا لا يتزحزح ، باسطورة تفوق الجنس الابيض ، وشرعية الرق وقانونيته بعد ان اقرته اسفار العهد القديم ، كما اعتقدوا يقينا ان الله افاء عليهم بارض افريقيا شريطة ان يمتثروا منها الزنوج المشركين كما فعل اليهود باعداء دينهم من عبدة الاصنام ، وتحت تصرفهم يعمل في خدمتهم ٢٠٠ الف من الزنج العبيد ، يطاردونهم احيانا مطاردة الصياد لطريدته الهاربة اللب ، ويتمقبون فارين من وجهم ، اقوام البوشيان والهوتنتو ، الى آخر حدود الارض المأهولة المتصلة بمنطقة الكلاهاري ، ثم يمدون للحرب ضد الاحلاف العسكرية التي شكلها الاقوام الرعاة كالزولو والمتابلية ، والكفار والبسوتو الذين

عرفوا بنشاطهم وعنادهم . واول مستعمرة انشأها البيض من الاوروبيين ، عرفت بسفيها المسعور للقضاء على سكان البلاد الاصليين .

حاول الاباء اليسوعيون ، في المستعمرات البرتغالية ، ان يكسبوا الزوج للمسيحية فيضعونهم تحت حمايتهم . فقد حاولوا ، هم انفسهم ، ان ينشئوا لهم مزرعات ناجحة ، وان يؤلفوا للزنج ديناً مبسطاً يأثف مع تفكير الاطفال وذهنيتهم . الا انه صدر ، عام ١٧٥٨ ، الامر بطرد اليسوعيين من جميع الملكات التابعة للملك البرتغال . هؤلاء الزنج الذين اعتنقوا من عهد قريب مسيحية مبسطة ، لم يلبثوا ان عادوا الى وثنيتهم الاولى ليغرقوا من جديد في الخرافات واعمال السحر والسحرة .

جلب العرب معهم الى سباسب افريقيا وسوها الرحبة الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى ومن ليبيا ، والسودان ، الاسلام والزي العربي في اللباس ، أقله لزعماء القوم ، وفن البناء العربي ممثلاً في المساجد ، كما حملوا اليهم المبادئ الاسلامية التي قام عليها التنظيم السيامي والاجتماعي . وقد انتشر الاسلام بين بعض القبائل الكبرى ولا سيما بين التي تعيش منها على تربية الماشية والظعن . وبمعكس هؤلاء بقي سكان الريف على وثنيتهم يؤمنون بوحدة الأرواح العاقلة في الحيوان . وكان من تأثير اعتناق القوم للاسلام ان اخذوا يختارون لهم زعيماً او شيخاً للقبيلة ، كما اخذوا يخضعون لقانون واحد ولشريعة مشتركة . وألفت عدة قبائل من ذاتها مملكة قد تكون سلطنة او امارة ، على شاكلة الدول التي قامت في الاجيال الوسطى . وكان من جراء ذلك ان زاد القوم تمسكاً بالاخلاق والآداب ، كما ازدادوا حركة ونشاطاً وكثيراً ما طلب الى المؤمنين الجهد الاشتراك بالجهاد او الحرب المقدسة ، اشد الفرائض الاسلامية وقماً عليهم واقسامها طراً ، وساد بينهم تعدد الزوجات ، وهو وضع خول عدداً من انصاف الاخوة ، المطالبة بحق الوراثة ، الامر الذي سبب المحلل عدة سلالات ، كما ادى الى وقوع عدة حروب اهلية بحيث حق لنا ان نتساءل اذا كان الدين ادى بالفعل الى رفع مستوى الزوج ام لا . واستمرت حركة نشر الاسلام طوال القرن الثامن عشر . فبعد ان اخذ اقوام النوكولور بالاسلام راحوا يفرضونه على قبائل «البوله» التي كانت تؤمن بالغيبية ويازمونهم الاخذ بمؤسستهم ونظمهم ، كانشاء مجلس الاختيارية ورئيس منتخب لمدة سنتين يكون في الوقت ذاته كاهن القبيلة ، وقائدها في الجهاد والقاضي فيها ، وألف البوله عام ١٧٢٠ ، مملكة ثيوقراطية في مقاطعة الفوفا-جالون ، كما الفوا لهم عام ١٧٧٠ ، مملكة اخرى في الفوفا-تورو . واذ كانوا شعباً ذا اخلاق راعوية شديدة ، محافظين حتى حدود القسوة على الاخلاق ، فلم يلبثوا ان عرفوا بعصبيتهم المتشددة ، اشداء في الحروب . واستمروا على هذا الوضع بينما اخذ السودان بالتحلل والتفكك .

وراح السودان يتأثر ، الى حد بعيد بمجوات الغرب . فمملكة السنغاي التي قامت عند

عطفة نهر النيجر ، وجدت نفسها ، في مطلع القرن الثامن عشر ، تحت حماية المملكة الشريفة المغربية ، يحكمها ملك ينتخب من بين ابناء الاسرة الملكية القائمة في مدينة تمبوكتو . وكان يقوم الى جانبه ، باشا مغربي يعينه السلطان ويمهد اليه بالإدارة المدنية . وكان قاضي تمبوكتو يتولى قيادة الجيش العليا ، كما تولى القضاة المساعدون قيادة الحمامات الغربية المرابطة في مدن ميمبا وغاوا وديانتا وتندرينا وكولامي . وقسمت المملكة إدارياً الى اربع نيات توزعت كل واحدة الى عدة ولايات . وكان الباشا يختار نواب الملك الاربعة كما يختار الحكام من بين ابناء الطبقة الارستوقراطية الزنجية . وهناك امراء توابع ، من بينهم امراء الطوارق والفولبا والجوليمند ، والبربر القادمين من جنوبي المغرب ، يستمدون سلطتهم من الباشا ، يعملون في جيش المرتزقة على تخوم المملكة . اما حضارتهم فعلى شيء من الازدهار ، والمدن عديدة مكتظة بالسكان . والحرف اليدوية ناشطة والتجار بالحاجيات الثمينة رائجة على اكتاف المدن والاسواق التجارية ، وعرفت الزراعة ان تقيده من بعض الاشغال الفنية كحفر الآبار والاقنية والترح للضرورة ، كما ان المدن كانت مراكز للنشاط الفكري غصت بالادباء والعلماء المسلمين الذين ألفوا تربة صالحة انبتت عدداً كبيراً من الشيوخ والعلماء والادباء والفقهاء ، وعلماء الكلام والاطباء .

بعد وفاة مولاي السلطان اسماعيل (١٧٢٧) واثناء هذه الاضطرابات الدامية التي نشبت في المغرب ، وجد الجيش المغربي في السودان نفسه سيداً مطلقاً على البلاد . وما لبث ان أُلّف هذا الجيش وذاري الجند ، طبقة عسكرية عُرفت بجشعها وفظاظتها وشراستها . وتمكن قضائهم من تأليف امارات خاصة بهم عرفت ، عندما تتفق فيما بينها ، ان تفرض تعيين الباشا الذي ترضى عنه ، لذلك كثيراً ما آل الامر فيما بينها الى الحرب والاقتيال . وراح الطوارق والجوليمندن ، بعد ان نعموا بالمزيد من الحرية عند تهجر المغرب ، يفتنمونها فرصة سالحة لغزو مقاطعات الشمال ، بينما راح الامراء والملوك الوثنيون ، في الجنوب يحذون حذوهم هم ايضاً . وفي اواخر القرن الثامن عشر تمكن الطوارق والجوليمند من الاستيلاء على تمبوكتو وانزلوا الدمار بمدينتي ميمبا وغاوا ، وزرعوا الخراب في هذه البقاع الواقعة عند عطفة نهر النيجر . فأدت هذه الحروب الى مذابح هائلة بين السكان ودمرت المزروعات ودمت الآبار والشرع القائمة ، وعرضت البلاد لهجمات شديدة ، فافقرت الطرق من سالكها ، فهانت التجارة وبارت الكارات ، كما خفت الحركة الفكرية في المدن بعد ان اصبحت بالانحطاط .

وقد تعرض غرب السنغال لغزوات المفاربة . اما مقاطعة البورلو الواقعة في الشمال والتي اعتنق اهلها الاسلام ، فقد استكان ملوكها واخلوا وضعف بالتالي صمودهم في وجه الطوارق الغزاة ، وفي وجه الغزوات التي شنّها عليهم ملوك الدول الوثنية ، في الجنوب ، فأقفرت مقاطعة البورلو من سكانها . وهذه المدن التي اعتنق اهلها الاسلام ، امثال باغرمي وعوادات ودارفور ، والتي كانت بمعزل من الغزوات التي قامت بها الدول الكبرى الغازية ، فقد تمتعت

بفترات طويلة من الازدهار ، استغللت فيها الى اقصى حد ، شبكة الطرقات وقنوات الري والارعة ، فازدهرت فيها الفنون التشكيلية والآداب وعلم الكلام . وقد تخلل هذه القرون وقوع ثورات وحوادث قتل وحروب دامية بين مختلف السلالات الملكية انطلقت فيها الاطباع والفرائز البشرية من عقابها ، فجاءت بأعمال من القسوة والوحشية زرعت البلاد خراباً ودماراً .

وراحت جاليات من العرب تتغلغل شرقاً بالرغم من اعتراض جبال الحبشة المسيحية لسيروها الى الامام ، بالرغم مما قام بينها من انقسامات وعصبيات حزبية ، فاستأثرت بالمراعي الحصبة القائمة عند عويدياني ، حيث اختلطت ذرايرهم بذراري سكان البلاد الاصليين وتمازجت معاً فتألفت قبائل الشواس الذين كانوا رعاة ثم استحالوا حضراً بعد ما ابتلوا به من اوبئة وافدة فتاكا صابت ماشيتهم فمحققتها ، وبعد الحروب الدامية التي ارغمتهم على التراص فيما بينهم ، فأخذوا يتعاطون الزراعة .

والى الجنوب من عطفة نهر النيجر قامت اقشوام الموسيس الذين انزلوا عن العرب والبربر لبعدهم ولبثوا على الوثنية . واستمروا قائمين في المنطقة بعد ان ألفوا من بينهم ، مملكتين قويتين تركزتا حول واغادوغو .

اما هذه المساحات التي افترشتها الغابات الظليلة ، فقد استوطنها قوم من حضر الزنج احترفوا الزراعة وقالوا بوجود الارواح العاقلة في الحيوان . ففي هذه المنطقة التي تغطيها الانهر ومصباتها العريضة ، والغياض والمستنقعات والاحراج البكر التي تقف حائلاً دون التواصل والتمازج ، فقد راحت تشأر من القبائل الضاربة في مجالها . لكل منها لهجتها الخاصة وعاداتها واعراقها . ويكفي ان تتمرى ارض من غاباتها لتعرضها لانجباس المطر ، حتى يروح الزنج يكوئون لهم فيها مملكة فيلتفون حول مليك يكون لهم ، في الوقت ذاته ، حاكماً مستبداً ورئيس احبار ، كله استعداد ، الأخذ هو واتباعه ، بالوثنية وتمدد الآلهة ، ثم تحاول التوسع وتشرب بأعناقها الى السيطرة بعيداً . وفي القرن الثامن عشر ، انقسمت امبراطورية الماندينغ الى عدد لا يحصى من الامارات . واستطاعت مقاطعة الداوموي ، اذ ذلك ، ان تحقق استقلالها على حساب مملكة أندر *Andre* ، وتؤمن للبلاد وحدتها ، خلال هذا القرن . واستمرت قبائل أشنقي الجربية في توسعها وتمدها الى الشرق والغرب معاً . ومع ان عهد ازدهار دولة « البنين » *Bénins* قد مضى وانقضى ، فقد عرفت ، مع ذلك ، ان تحافظ على حضارتها الاصلية كما تشهد على ذلك صنائع الشهبان والعاج التي خلفتها ، وهي مصنوعات اقل جمالاً فنياً من سابقتها ، مع ما لها من قيمة عالية .

وظهر في اواخر القرن ديلان على حدوث تمييز او تبديل ظاهر في موقف الاوروبيين ، فقد قام السكوتلاندي جيمس بروس ، بين ١٧٦٩ - ١٧٧٣ ، بمد ان استهدف لهاطر تشيب لهولها الولدان - باستكشاف مجاهل الحبشة والنيل الأزرق وبلاد النوبة . فنشر عام ١٧٨٨ ، وصف رحلته هذه ، فكان لها وقع كبير في انكلترا . وفي هذه السنة بالذات ،

تأسست في لندن ، الجمعية الأفريقية ووضعت نصب عليها القيام باستكشافات منهجية . ومن جهة ثانية استطاع فريتق من أرقام الزنج النجاة بأنفسهم من اميركا ، والقدوم ، بأعداد كبيرة ، الى انكلترا حيث وجدوا انفسهم في حرز حرين اذ لم تكن الشرائع الانكليزية ولا طائفة الكويكر وعلى رأسها ويلبرفورس ، تعترف بشرعية الرق . فسمح لهم بالرجوع الى بلادهم الاصلية . وعلى يدهم قامت مدينة فريتون ، في سيراليون ، كملاذ لهم ولكل الزنج الارقاء الذين ينجون بأنفسهم من افريقيا . فعاش هؤلاء الارقاء القدامى فيها بين الفوضى واعمال العنف . وهكذا طلعت علينا حركة واسعة المدى من الرحلات والرسالات كشفت للناس عن موارد غنية في افريقيا ، فرتت اليها انظار الدول والمغامرين مما ادى الى اقتسام الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر .

الأنوار والمجتمعات الأوروبية في أميركا

لبث العالم القديم شبه بمنزل عن الحضارة الأوروبية ، بالرغم من وقوع أوروبا على مسافة قريبة جداً من القارة الأفريقية وهي امتداد أو استطالة لآسيا. ففي العالم الجديد وحده ، استطاع الأوروبيون ان يؤلفوا ، عبر البحار ، مجتمعات جديدة . فقد ارتفعت لهم حضارة مشتركة امتدت اطرافها من بطرسبورغ حتى مدينة كويبيك في كندا وحتى أورليان الجديدة ، في أميركا ، ومن البندقية حتى مدينة بونس ايرس . وهكذا بدأ المحيط الاطلسي أداة وصل وربط أكثر منه حاجزاً أو حائلاً .

ومرد هذا الوضع يعود الى ان السفر ببحراً هو ايسر اخذاً من الاسفار برأ ، كما ان أوروبا هي اقرب ببحراً الى أميركا منها الى آسيا ، مع انها متصلة بها جغرافياً . فالقوارق الجغرافية بين أوروبا وأميركا ، وهذا الامتداد الذي لا ينتهي ، وهذا الاستواء في المناطق ، وقوة العناصر الماحقة للانسان المستضعف التي لم تكن لتبذ القوارق القائمة بين أوروبا من جهة ، وبين أفريقيا وأميركا من جهة اخرى ، قام بديلاً منها وعوضاً عنها ، ما ترى ونشهد من سهولة النفاذ والتغلغل في القارة الاميركية ، ومن امتداد طبيعة المناخ في هذه المرتفعات والاصعدة المرتفعة الملائمة للانسان الابيض . ومن ذلك ايضاً هو ان الأوروبيين لم يصادفوا ، في اي مكان من أميركا ما اعترضهم في آسيا من كثافة السكان ومن امبراطوريات قوية ذات حول وطول ، بل وجدوا انفسهم امام اقوام قليلة العدد ، مشتتة على مستوى مادي متدن جداً ، وان الامبراطوريات الاكثر تطوراً التي وجدوها احياناً امامهم ، في المكسيك او في البيرو ، كانت تقنياً ادنى بكثير مما تم منها للاروبيين ، كما وجدوا امامهم قبضة من المتحكمين المسيطرين ، رعاياهم واتباعهم على اتم استعداد للثورة ضدهم وشق عصا الطاعة عليهم ، وزحزحة النير الذي رزحوا تحته طويلاً .

وهذه المجتمعات الأوروبية التي قامت في العالم الجديد ، خلال القرن الثامن عشر ، اخذت بدورها تتطور بسرعة فائقة وتستبدل مرافقها المهلهلة بالجديد ، وهو تطور ظهر في تزايد

موصول لعدد السكان ، وفي مختلف مظاهر النشاطات والثروة والحياة الفكرية . واكتسب السكان فيها عادات واعرافاً ومصالح اختلفت كلياً عما تم من امثالها لسكان البلدان الام . وهبت على هؤلاء الاقوام روح قومية جديدة ، فأخذت المجتمعات البشرية تتململ وتتهرب من وضع الاستعباد والاستعمار والاستثمار الذي أريد لها فأقصرت عليه ، والذي روعيت فيه ، قبل كل شيء ، مصلحة الوطن الأم لا غير . فرفضت بعد ان عاد اليها وعيها الاجتماعي والسياسي ، بشم وباه ، ان تدار شؤونها من الخارج ، كما رفضت الخضوع والتسليم لنظرية اقتصادية نفعية ولنظام اقتصادي اعتباري حائل اساسه الاستثناءات ، يقوم على الميثاق الاستعماري ، والذي يفرض على المستعمرات إقصاء تجارتها على الوطن الأم او حصرها في نطاق المستعمرات الاخرى ، وان تقصر انتاجها الزراعي والصناعي على ما يسد حاجة البلد الأم . هنالك نزعة شاملة تتغلغل بين هذه البلدان تدفعها للتحرر ونيل الاستقلال . وهذه النزعة تقوى او تضعف بنسبة درجة التطور الذي بلغته المستعمرة ، والقوة التي تمت لها مع وجوب مراعاة العديد من المستويات والمفارقات .

أميركا البرتغالية

وضع البرازيل في مستهل القرن
يمثل البرازيل احد هذه البلدان الاميركية المستعمرة التي كان
فيه الوقوف في وجه الوطن الام ، والرغبة في التحرر منه
والاستقلال عنه اقل مما استمر من امثال هذه المشاعر ، وادنى مما اعربت عنه الرغبات الماثلة في
البلدان الاخرى . فقد تطور البرازيل دونما خضخضة او رجرجة ، فما ان مالت شمس القرن
الى المغرب حتى رأيناه على استعداد ليسير سيرته الشخصية دون اي رغبة فيه بفرض مثل
هذا الحل بالقوة ، حتى انه لم يفكر قط في مثل هذا الامر جدياً .

ومع ذلك ، فالبرازيل لا كيان له ولا وجود الا لمصلحة الوطن الام . فالبرتغال احتفظ
لنفسه باستثمار خيرات هذه البلاد الغنية والاستثمار بمواردها الطائلة ، فحظر على التجار
الاجانب الدخول الى البلاد . فاذا ما شذ عن القاعدة وخرج عن الصدد ، عام ١٧٠٣ بمعامدة
'مثنون التي عقدها مع انكلترا واعترف لها بحرية الاتجار مع البرازيل ، فلأمر واحد هو
رغبته في تصريف نبيذه في المملكة المتحدة ، وليجد فيها نصيراً له وحامياً ، وتوفيراً منه
للمواد الصباغية التي تحتاج اليها هذه المستعمرة . فمصالحته الخاصة هي الهادي له في الامر
والسير لخطاه ، ومنها يستوحي احكامه ويستلهم مواقفه . فالوكالة التجارية الانكليزية في
لشبونة ، هي التي تشحن البضائع الانكليزية ، والسفن التي ترسلها البرتغال ، كل سنة ، الى البرازيل
هي التي تجلب الى مرفأ لندن ، محاصيل البرازيل ونتاجه لتخزنها في عنابرها ، وتعود فيما بعد
لتوزعها مينة ويسرة ، حسب مقتضيات الحال واستبداد الاسعار بالاسواق .

كانت الزراعة في مستهل العصر المرفق الرئيسي في اقتصاديات البرازيل . وكان البرتغال
يلتظر ان تصله منه المحاصيل التي تعطياها المستعمرة . فهو يحظر عليها زراعة الكرمة وشجيرة
الزيتون والتوت . وكان على المعمرين ان يشتروا ، باعلى الاسعار ، من البرتغال ، النبيذ والزيت
والحرير والملح وخشب الصباغة الذي يخضع لاحتكار الدولة . ويمهد ملك البرتغال بحق
الاحتكار هذا ، لمن يدفع خير الاسعار . ولذا كان ارتفاع سعر الملح يجعل من صيد السمك عملية
راكدة مينة . وسكر القصب يجب شحنه للبرتغال غير مصفى ولا مكرر ، بحيث يجبري

تكريره هناك . واكبر قدر من التبغ يحتفظ به لمعامل التبغ في الدولة البرتغالية ، وعلى المعمرين ان يتنازلوا للبرتغاليين عن الارباح التي يحققها توزيع التبغ ومعالجته الفنية . وكل المزدروعات تخضع لضريبة كنسية تبلغ العشر ، تجبى باسم الملك الذي يحتفظ لنفسه بقسم منها .

والبرتغال الذي يحتفظ لنفسه بالارباح الناجمة عن عمليات الاستثمار احتفظ لنفسه ايضا بحق ادارة البلاد وحكمها على هواه . فالمجالس الملكية في لشبونة ، وعمليا ، الملك ووزراؤه هم الذين يعينون بالفعل ، منذ عام ١٧٢٠ ، نائب الملك ، ورئيس القباطنة ، والقباطنة الماديين ، والقضاة في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات . ورئيس قبطان هو الذي يعين ، بدوره ، صغار الموظفين . وبالإشتراك مع القباطنة الماديين يعين اعضاء المجالس البلدية المفروض فيهم ان ينتخبوا انتخاباً .

وهذا النظام الذي فرض على البرازيل الخضوع التام للبرتغال والذي اوجب عليه وضع جميع مصالحه في خدمة البلاد الام ، عمل به المعمرون عن رضى وقبول وطيب خاطر ، لأنه كان شكلياً او صورياً اكثر منه حقيقياً واقعياً . كان الموظفون لا يستمرون طويلاً في وظائفهم فالهيئات الوحيدة القائمة لم تكن سوى الغرف البلدية وهي تتألف من سكان البلاد . وكثت على الموظفين ان يرجعوا الى هذه الهيئات في الكثير من امور الادارة . وبالفعل ، سكتيراً ما كانت المجالس البلدية هي التي تقضي او تقضي في الأمر حق في القضايا والشؤون البعيدة عن الإدارة البلدية . وكان من حق هذه الهيئات ان تعين رئيس الادارة اذا ما تلكأت الحكومة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولما كان هؤلاء الموظفون كثيراً ما يرون في الوظائف التي تمهد اليهم ، فرصة لاستغلال الصلاحيات التي عهد بها اليهم ولا يهتمهم من الامر الا ان يثروا من اخصر الطرق ، فكثيراً ما تركوا لهذه المجالس البلدية حرية التصرف . ان عدداً كبيراً من رؤساء القباطنة لم يكونوا موظفين بالمعنى المعروف ، اذ كانوا ينظرون الى وظيفتهم كإنعام يهود بها عليهم الملك . والوامر القطعية والتعليقات الاستبدادية الصادرة عن الحكومة البرتغالية ، كثيراً ما جرى تطبيقها ، عند ابلاغها ، بتساهل كلي ، ناهيك عن ان هذه المجتمعات البشرية كانت مشتتة ، متباعدة والمسافات شاسعة بين الواحدة منها والاخرى ، والمواصلات بطيئة للغاية . ولذا كان كبار الملاكين والموظفون المحليون يتصرفون على هواهم ، دونما رقيب او حسيب .

فالمعمرون وذراريهم في المستعمرات ، كان بينهم عدد كبير من الاولاد المنفيين والمبعدين والحارجين على القالون من سكان جزر الاسور والماديرا ، فسيطر عليهم الخمول ورسفوا في الجهل والجهالة ولم تجش نفوسهم بأي رسيس من الرغائب التي تتطلب الاشباع ويقتضي اشباعها الاتفاق . فقد ضعفت فيهم الميول وخف عندهم الاستعداد او القابلية للعمل ، فلم يهتموا من قريب او من بعيد ، ولا اعتنوا قط بما يؤمن او يؤول الى الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وما

برموا يوماً من نظام الاستثناءات الذي خضعوا له وعاشوا فيه . دفعهم الى مثل هذا الوضع خفوت نشاط الحياة الاقتصادية وضعفها التي لم تُبثر فيهم اي مزع للرجبة ، ولم تحرك فيهم اية شهوة للربح . فالانتاج كان محدوداً لا يزيد على حاجة اليد العاملة بعد ان قل فيها عدد السكان في البلاد . وقد استحال عدد كبير من الهنود فيها الى أرققاء يعملون باستمرار في المزارع او في المناجم . الا ان الآباء اليسوعيين عرفوا ان يجتذبوا اليهم عدداً كبيراً من هؤلاء الأرققاء ولا سيما من بين الهنود وانزلوهم قري ودساكر في ظل حكم ثيوقراطي شيوعي . وقد بقي عدد منهم حراً يتمتع باستقلاله في هذه المناطق والمرتفعات الجبلية ، او في حوض نهر الامازون . ولذا كان لا بد من الاستعانة بالزنج لتأمين ما يلزم من يد وقوى عاملة في زراعة قصب السكر ، في مناطق برنبورك وبيهيما وبراهايا . الا ان عددهم لم يكن ليسد حاجة البلاد ، وهكذا بقيت مشكلة اليد العاملة فيها مشكلة مستعصية الحل . والمعال الاحرار من اصل برتغالي كانوا ينتجون بالقدر الذي يفي بحاجاتهم ويسد عوزهم ، اذ لم يكن ليساورهم اي امل بأن يصبحوا يوماً من صغار الملاكين ، على قلتهم . وكان رؤساء القباطنة يتولون ، هم انفسهم ، توزيع الاراضي الشاغرة ، فانشأوا في البلاد ، بهذه الطريقة ، اطيافاً شاسعة الأرجاء . فقسد توزعت اراضي مقاطعة براهايا بين ٤ من كبار الملاكين ، وحددت مساحة الممتلكات ، في مقاطعة بيوهي ، بـ ١١٤٤٠٠ هكتار . وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يقتني ما يشاء من الاقطان ، مساحة الواحد منها ١١٤٤٠٠ هكتار . ولعل معمرأ بسيطاً تألفت املاكه من ٥٠ هكتار ، واليسوعي من ٣٠ هكتار . وكان الممرور يرفضون رفضاً باتاً ان تقسم املاكهم لثلاث يتعذر عليهم تنويع زراعاتهم وتبديلها كلما اقتضت الارض . وكان وضع المهاجرين القادمين ، والمعتمدين وضع المرابعين والمزارعين في بلادهم الأصلية .

كذلك اشتدت حاجة البلاد كثيراً الى رؤوس اموال . فقد تمكن الانكليز من سحب مقادير كبيرة من نقد البلاد عن طريق بيعهم الاهلين الحاجيات المصنوعة . وكانت الثقليات لجمد جانباً كبيراً من رؤوس الاموال . فعدد البغال والبقالين اللذين للنقل في الغابات الاستوائية ، والمربات والثيران الممددة للجسر ، والسواقين ، والاكثارين في السهول والسياسب المرتفعة ، والعتالين الهنود ، او العملة الذين يعملون في جر السفن عند المساقط والشلالات النهرية ، وبطء المواصلات الصعبة التي تستغرق شهوراً للوصول بالملاحة النهرية ، الى ماتو غروسو ، عبر نهر تاباغوس وامازونيا ، كل هذه النشاطات والاعمال كانت تضطر الملتزمين والمتمهدين الى عمليات تسليف باهظة . ولم يكن المال يتوفر للقيام بمشروعات زراعية او صناعية اخرى .

وهذا الشعب البرازيلي ، لم يخامر به يوماً اي شعور بالحاجة لاستبدال النظام السياسي المعمول به في البلاد ، ولا الى النظام الاقتصادي ، اذ عُرف عن البرازيليين ، الامتثال والطاعة . فقد عُرف عنهم حبهم للظهور . الا انهم كانوا يقنعون بمركز ثانوي من هذه المراكز التي كانت تُعطى عادة للعواليد من البرتغاليين في تلك البلاد . وكان باستطاعة الاغنياء من ابناء هذه الطبقة بلوغ

اعلى المراتب وأرفع الوظائف التي كان يحتفظ بها لإجمالاً ، للبرتغاليين من أبناء الوطن الام ، وهي وظائف تولي من يقوم بها او من يضطلع بمسؤوليتها شرف المتمد . ولم يكن الخلاسيون يشعرون بأي احتقار نحوهم او بأي إنتقاص من شأنهم . والفوارق الاجتماعية عندهم لم تنهض على اختلاف اللون او البشرة ، اذ كان باستطاعة الملونين ان يتالوا الوظائف العامة كالخلاسين ، مثلاً بمثل ، بعد ان اتصفوا بالنشاط والإقدام ، فألقوا نسبة محترمة بين الطبقة الوسطى . ولم يقم ما يسبب النفور بينهم او يبعث فيهم التذمر من المجتمع الذي عاشوا فيه .

اما الوحدة البرازيلية ، وحدة الشعب ، فقد عرفت اوضاع مخاض صعب . فكانت لكل منطقة او مقاطعة كبيرة من مناطق البلاد ومقاطعاتها الرئيسية ، حياتها الخاصة التي تتمركز حول ما قام فيها من موانئ ومرافئ ناشطة ، تتجه بعلاقاتها الى لشبونة اكثر منها الى المقاطعات المجاورة ، ولكل قبطانية او ولاية ، عملتها الخاصة ونقدها الخاص . وكانت قبطانية مارنهاو ، تصدر ، عبر مرفأ بارا ، ما تنتجه من خشب للصناعة كما تصدر انتاجها من الالينوس لاوروبا . واعتادت مدن باراهيا وبرغمبوك وبيتا ، ان ترسل برأ ، سيراً على الأقدام ، ما تنتجه من قصب السكر والتبغ واللحوم ، وجلود الابقار المستوحشة من المناطق الداخلية الى الساحل . وقام حول ريو دي جانيرو وسان-باولو ، كما قام حول كوريتيتيا وباراناغو ، حركة تعمير واحياء زراعي اخذت تلتشط وتقوى باستمرار . اما البلاد ، في الداخل ، فقد كانت فارغة تقريباً ، والعزلة الاقتصادية تتضاعف بعزلة ادارية . وقد اعتادت لشبونة ان تتصل مباشرة برؤساء القباطنة دون المرور ادارياً بنائب الملك .

وهكذا نرى كيف ان السكان كانوا يتحملون راضين قانعين ، سيادة كانت من اليسير عليهم ان يزحزحوها ، وان يتحرروا منها بأيسر السبل . فالموظفون البرتغاليون ، قلة هم ، وافراد الجيش البرتغالي لم يكونوا راضين عن مرتباتهم التي لم تكن لتُدفع لهم بانتظام ، كما برموا من قلة العناية بهم ، ناهيك ان عددهم كان اقل بكثير من افراد الميليشيا المحلية .

اخذ البرازيل يزداد ، تدريجياً ، غنىً وسكاناً ووحدة . فقد كانت تطور البلاد الى عهد ميبال اشتدت جداً ، قبل سنة ١٧٥٠ ، حركة السفن الانكليزية التي تعمل في التهريب ضمن الامبراطورية الاسبانية ، اذ كان جانب كبير من نشاط هذه الحركة ، يمر عبر البرازيل ، باتجاه ريو دي لابلاتا ، في الجنوب ، او باتجاه بوليفيا والبيرو ، الى الغرب ، او باتجاه فنزويلا عبر نهر الريو نغرو والكاسيكويار الى الشمال . وحركة التجارة والتهريب هذه وفرت لتمهدي النقل البري ، الاموال اللازمة لقيامهم بمشروعات واشغال جديدة ، كما انها بعثت النشاط في العلاقات بين مختلف المناطق البرازيلية .

ومن جهة اخرى ، شاءت الاقدار ، عام ١٧٠٠ ، ان يعثر البولسيون ، وهم عرق توالد في البرازيل من تزاوج المنفيين والهنديين ، عرف بالنشاط العارم وروح المغامرة والاعتكال على النفس ،

على مناجم الذهب ، في هذه المناطق الواقعة في حوض نهر الأورو بريشو ، وبلو هوريز وثته ، وإلى الجنوب من سان - باولو ، كما قبض لهم ، ان يعثروا ، منذ عام ١٧٢٥ ، على الماس ، عند مجرى نهر سان فرنسيسكو ، وفي المنطقة المعروفة عندهم بمنطقة الماس *Diamantina* . وقد تخلى ملك البرتغال عن استثمار مناجم الذهب لبعض الخاصة ، لقاء رسم معين يتناسب وعدد العمال العاملين في استخراجها من المناجم . أما استثمار الماس الذي سار على النهج ذاته ، في بدء الأمر ، فقد أصبح ، بعد عام ١٧٤٠ ، احتكاراً حكومياً تولته الدولة مباشرة ، وذلك تفادياً منها لاغراق الاسواق بهذا الحجر الكريم والمحافظة من جهة ثانية على اسعاره العالية في العالم . وفي سنة ١٧١٤ ، أصبحت منطقة المناجم هذه ، قاعدة لقبطانية عامة ، عُرفت باسم « ميناس جيريس . فقد أدى استثمار المناجم ، بالطبع الى تعمير الارض وإحياء الاملاك الواقعة على مقربة منها ، في الداخل ، امثال : فتو غروسو وغويار . ولم تلبث هذه المناطق ان أصبحت فيما بعد ، مراكز نشطت فيها تربية الماشية ، لتأمين حاجة المعدنين من المواد الغذائية ، كما قامت فيها اسواق تجارية ، منها سوق كويابا (١٧١٨) ، وغويار (١٧٢٢) ، ومدينة ريودي جانيرو التي كانت ترد اليها محاصيل الذهب والماس ، كما كانت تردها الادوات الصناعية اللازمة للعمل في المناجم ، فلم تقم ان بزت مدينة بيبا بنشاطها . وهكذا أدى اكتشاف مناجم الذهب والماس الى توفير رؤوس الاموال اللازمة لاستثمارها والى ايجاد مناطق اقتصادية جديدة ، كما ادى الى تنشيط التبادل التجاري بين مختلف مناطق البرازيل ، وزادها ارتباطاً بعضها ببعض ، وشدت بالتالي من وحدتها .

وكان من بعض نتائج هذا الوضع ان ارتفع عدد السكان في البلاد ، وطراً بالتالي ، تغيير على طبيعة تركيبهم الاثنوغرافي . فأخذ البولسيون بمطاردة الهنود حتى في منطقة الامازون لتأمين اليد العاملة في المناجم . الا انهم اصطدموا ، في منطقة بارانيا ، بمعارضة اليسوعيين لهم ، الذين اخذوا يقاومون بالقوة ، الحملات العسكرية التي اخذ البولسيون بتنظيمها تأميناً لحاجتهم ، وبذلك استطاع الآباء اليسوعيون ، ان ينقذوا الهنود من الرق الذين استهدفوا له ، كما حافظوا عليهم من الفناء المهتم ، اذ كان الهنود يتعرضون للموت باكراً ، اذ لم تكن اجسامهم الضعيفة ، لتتحمل عياء المناجم واعمالها الشاقة المضنية . ولذا كان لا بد لهؤلاء البولسيين من استيراد الزنوج ، باعداد كبيرة من المستعمرات البرتغالية في افريقيا . فألف سوقهم وشحنهم مجرى لم ينقطع سيله حتى اواخر القرن . ولما كانت الحكومة البرتغالية مهتمة بتطوير الزراعة في البرازيل ، فقد حرصت على نقل عدد كبير من الفلاحين ، من جزر الاسور وماديرا ، نزولاً منها عند طلب حكام القبطنيات ، شريطة ان يوفر لهم السكن والعمل عند وصولهم .

قام الوزير بيبال ، بين ١٧٥٠ - ١٧٧٧ ، بمجهود اصلاحي ، عمرياني
عمل بيبال الاصلاحى
كبير في البرازيل وفي البرتغال ايضاً . فحاول بوصفه « دكتوراً

مستنبراً ، ان يخضع البرازيل لتوجيهات الملك مباشرة . فاجرى تغييراً جذرياً في وضع القباطنة العامين وذلك يجعلهم موظفين رسميين . كذلك اعطى الموظفين حق البقاء في الخدمة الفعلية الى ما لا حد له ، كما مكنتهم من ان يتمتعوا ، عن طريق خبراتهم الواسعة لامور البلاد وطبائع العباد واعرافهم ، بكل حرية ، بالسلطات والصلاحيات التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات اللازمة ، كما انه اقصر مهمة المجالس البلدية على الامور البلدية ، ليس إلا .

واذ كان بمبال من كبار الداعين للتطور الاقتصادي في البرتغال ، فقد راح يحاول ، دون ان يس بسوء ، منطوق المعاهدات والمواثيق الدولية السارية المفعول ، الحلول محل الانكليز ، بالتجار مع البرازيل . فاخذ ، في هذا السبيل ، بتنشيط الصناعة في البرتغال . فحظر على سكان البرازيل ان ينشئوا ، على ارضهم ، الصناعات التي تقوم مثلها في البرتغال . الا انه ترك لهم فقط حرية صنع المنسوجات الخشنة المتخذة من الكتان او القطن والتي يحتاج اليها الزوج والهنود والطبقات الشعبية السفلى . وحاول جاهداً ، ان يهيء للبرازيل ، الاخذ باسباب التطوير والانماء الاقتصادي عن طريق إنشاء شركات برتغالية رأسمالية قوية ، بمساعدة الدولة . فانشأ من ذلك شركات تجارية تتمتع باحتكارات خاصة ، منها شركة بارا التي رأت النور عام ١٧٦٥ ، وشركة مارنباو ، عام ١٧٦٩ ، وشركة برنمبوك وبرايبيا . واخذت شركة بارا تقوم باعمال لها واسعة في منطقة كانت لا تزال متخلفة جداً ، وتفتقر كلياً لوسائل العمل ، ومع ذلك حققت نتائج ممتازة . فاستوردت العبيد من زنج افريقيا ، اذ لم تتوفر للطبقات الفقيرة ، تأمينهم من قبل ، واوجدت سوقاً لتنفيق وتصريف المحاصيل الطبيعية التي تدرها بسخاء منطقة الامازون والتي أهمل امرها لعدم وجود من يهتم بها . وضاعفت مقاطعة ماتوغروسو وغوياز تصدير انتاجها من الماشية الى منطقة الامازون ، وارغمت الممرين على التخلي لها عن محاصيل السكر بسعر ادنى من السعر الذي له في السوق الحرة ، كما الزمتهم بشراء حاجياتهم باثمان غالية . وراح بمبال يعوض عليهم هذه الخسارة عن طريق تشجيعه زراعة النيلة ، وذلك باعفاها من الرسوم لمدة عشر سنوات ، والارز لمدة عشرين سنة .

كذلك حاول ان يزيد من انتاج المناجم التابعة للتاج . فعرض ، منذ عام ١٧٥١ ، دفع رسم مقداره ٢٠٪ على الذهب ، فبجاءت هذه الزيادة في وقت كان الانتاج قد اخذ بالهبوط . ولكي يحول دون حركة تهريب الماس ويخفف من نتائجه وذيولها ، استبدل نظام المهدة او التأجير بنظام الاحتكار ، وابتعد عن المنطقة الغنية بالماس ، كل من لا يعمل في المناجم . ويبدو ان نظام الاحتكار لم يأت بنتائج افضل من نظام التأجير والتأجير .

وبعد ان اقتنع بمبال بالمساوية التي يجرها الرق على الهنود ، اصدر عام ١٧٥٥ ، امره بتحريرهم وعتقهم . فاصطدم هنا بمعارضة اليسوعيين الذين لم يكونوا مقتنعين قط ، بمقدرة الهنود على تدبير امورهم بانفسهم ، وكانوا من ناحية اخرى ، يرغبون في ابقاء من يعملون منهم في الاراساليات الدينية والتبشيرية ، تحت اشرافهم مباشرة . وكان بمبال على اختلاف شديد مع

تلك الرهينة بمناسبة حركة القرصنة والتهريب التي كانت تقوم بها السفن البريطانية . وكان الانكليز راغبين جداً بتفادي كل اختلاف او مشاحنة مع الاسبان في منطقة الريبو دي لابلاتا، لاستخدامهم في حركة التهريب الواسعة التي يقومون بها ، عن طريق باراناغوا المفضية في نهاية المطاف ، الى مدينة اسنسيون ، ومنها عبر اودية بلسكومايو وفيرميخو ، الى بوليفيا ، فراحوا عام ١٧٥٠ ، يمرضون البرتغال ، على ان يقوم بعملية مبادلة مع الاسبان ، فيتنازل لهم عن مقاطعة سكرمنتو (اورغواي) لقاء املاك الارساليات اليسوعية الواقعة بين نهري الاورغواي والباراغواي . واليسوعيون الذين كانوا تمكنوا من ربط ارسالياتهم في الشرق بارسالياتهم في الغرب بعد ان تم لهم انشاء مركزي ساوستانسلاس وساوواكيم ، والذين كانوا يتولون الاشراف التام على دولة ثيوقراطية امتدت اطرافها من الاورغواي حتى جبال الاندس ، والذين كانوا يرغبون في ابقاء الهنود يعيدين عن كل اتصال بالبيض لأثرهم المخلخل للاخلاق ، راحوا يقارمون بشدة هذه الاجراءات . وتمكن ببال ، عام ١٧٥٤ - ١٧٥٥ من تحطيم مقاومتهم بالقوة ، مستعيناً على ذلك بالبوليسيين . ثم اصدر امره عام ١٧٥٩ ، بطرد اليسوعيين من البرازيل . ولم يلبث الهنود ان عادوا سريعاً الى وثنيتهم الاولى ، بعد ان فقدوا كل شعور بحريتهم ، اذ كان لا بد لهم ، وهم في مثل هذا الدرك السحيق من التخلف ، ان يعهد بادارتهم ، الى حكام مدنيين ، علانيين ، يتوجب عليهم تسليفهم بعض المال ليتغلبوا على مصاعب الحياة ، فجعلتهم ديونهم هذه التي رزحوا تحتها ، في وضع مادي عصيب لا يجحدون لهم منه مخرجاً ، اما هنود بارا ومارنباو ، فأكثروا ان يعملوا فحّة احراراً باجر اعلى .

اما مشاكل الحدود بين البرازيل واسبانيا ، فقد حلت بموجب معاهدة سانت الدفونش المعقودة عام ١٧٧٧ ، وبمعاهدة البرادو التي وقعها الطرفان ، عام ١٧٧٨ . فتنازل البرتغال عن مقاطعاته الجنوبية الواقعة على ريبو دي لابلاتا ، مقابل الاراضي الواقعة الى الشرق من الباراغواي ، والشرق من البيرو والغويان حتى مشارف الريبو نغرو . وكان من نتائج هذه الاتفاقات انشاء طريق جديدة تسلكه السفن القائمة بالتهريب (*Interlope*) قامت عليها ، عام ١٧٧٤ مدينة كورنبا ، وتسهيلات اوسع في الاتجاهات التي كانت تعتمدها حركة التهريب النهرية من قبل . وهكذا تأسست مدينة طبانتغا ، على نهر الامازون ، عام ١٧٨٠ .

وقد أتيح للوزير ببال ان يحدث حركة تطويرية عادت بالخير واليمن ، ووفرت رأس المال واليد العاملة ، وزادت من الانتاج وتقوية الملاقات بين مختلف المقاطعات ، ولكن بعد ان دفع ثمن ذلك غالباً من الاستثناءات الاضافية .

على إثر اعتقال ببال مهام الوزارة ، ألغيت بعد عام ١٧٧٧ ، كل حركة التطور بعد ببال الشركات التي كان اسسها بعد ان جاءت بأطيب النتائج . فاستمرت مقاطعات الشمال تنعم بالازدهار الذي عرفت ان تؤمنه لها شركة بارا . واخذ عدد من القباطنة العامين يهتمون بمصالح رعاياهم وتأمين الازدهار للمقاطعات التي يشرفون عليها ادارياً ،

بعد ان اتيح لها القيام بمثل هذا العمل الطيب المهدي . فبقطع النظر عن هذه الزراعات التي كانت موضوع اهتمامهم منذ عهد بعيد كقصب السكر والتبغ ، فقد بذلوا جهوداً طيبة لتطوير الحديثة منها كالنيلة والارز والبن والقطن والكاكاو ، كما ازداد كذلك ، تصدير الجلود . وبذلك اصبحت الزراعة اهم مرافق البلاد ، فأمنت لها الرفاه بعد ان هبط انتاج المناجم من المعادن الثمينة ، لنفاذ الطبقات السطحية ، مما ادى الى تأخر مدينة اورو بريتو بحيث امست في اواخر القرن قرية متواضعة لا شأن لها . وهذا الازدهار الاقتصادي ادى بدوره الى مضاعفة عدد السكان بين ١٧٧٦ - ١٨٠٦ .

فبعد ان اصبحت البلاد اوفر سكاناً ، واكثر غنى واشد تماسكاً ووحدة ، اخذت تشعر ، اكثر فاكثراً ، بمساوية نظام الاستثناءات الذي تعيش في ظله ، بعد ان شدد بمبال من قبضة البلاد الام في ادارتها لها . واخذ الشعب يتوق بلاء جوارحه الى حرية اوسع في التجارة والصناعة والزراعة . كما انه تاق أن يرى انشاء البلاد يحكمون انفسهم بأنفسهم . وانتشرت افكار « الفلاسفة » التي نادى بها الكتاب الفرنسيون بين ذراري البرتغاليين الذين توالدوا في البرازيل وتناسلوا بعد ان تم لهم المزيد من الثراء والعلم والقبس من الآراء التقدمية ، كما ان مثل الولايات المتحدة الاميركية حركة رغائبهم نحو الاستقلال . فبدت على الناس أعراض التدمر والقلق . فقد كانت الأمة البرازيلية في سبيلها الى التكون والبروز والانفصال عن البرتغال وكانت تنتظر الفرصة المؤاتية والسانحة المعارضة . الا انه بالنظر لإدارة البرتغال السمحاء ، على الاجمال ، لم تلشب في البرازيل ، أزمة حادة كما شهدنا في غير مكان من اميركا الجنوبية .

أميركا الاسبانية

كان التطور الذي أخذت أميركا الاسبانية بأسبابه ، شبيهاً من وجوه عدة بذلك التطور الذي نهجت عليه البرازيل مع فاروق وحيد هو ان الشعور الوطني او القومي برز فيها اشد ، كما ان أزمة الاستقلال أخذت تستخدم فيها ، منذ عام ١٧٨٩ ، إذ ان الدولة الاسبانية التي تم لها من القوة والبطش ما لم يتم بعضه للبرتغال ، استطاعت ان تطبق ، بشكل اشد وأبرز ، مبادئ « الميثاق الاستعماري » ، ولان نفوس فريق محترم في الامبراطورية الاسبانية ، جاشت بمشاعر واحاسيس نحو الملونين فاعتمدوا تجاههم سياسة من الاستثناءات والتمييز الطبقي بلغ من عنفها وحدتها ما لم تصل الى بعضه نفوس البرتغاليين .

الوضع العام بعد معاهدة اوترخت
كان ملك اسبانيا يعتبر نفسه عام ١٧١٤ ، ملكاً مطلقاً على امبراطورية تسكنها شعوب واقوام هم ادنى منزلة ومرتبة من الاسبان في البلد الأم ، 'يتم استثمارها واستغلالها بما فيه مصلحة الملك والشعب الاسباني .

فهذه الامبراطورية التي قامت في الهند الغربية ، كانت 'تُحكّم وتدار من اسبانيا مباشرة ، وباسم الملك ونيابة عنه ، على يد مجلس الهند . والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، يقوم على تنفيذها والتقيدها بكل دقة : نائبان للملك ، يقيم احدهما في اسبانيا الجديدة ، مركزه مدينة مكسيكو ، كما يقيم الثاني في مدينة ليا ، عاصمة البيرو ، يجري تعيينها من قبل الملك نفسه ، ويتمتعان بجميع الصلاحيات والسلطات التي له . ويعمل تحت ادارتها قبطانان عامان ، يقيم احدهما في غواتيمالا ، ويقم الآخر في سانت دومنغو ، واليه يرجع حكام كوبا وبورتوريكو وقلوريدا . ويصدر نائباً للملك اوامرهما مباشرة لحكام الولايات الواقعة ضمن نياتتها ، والتي لا يقوم على رأس ادارتها قبطان عام . ويتولى الادارة المحلية في المجتمعات غير الوطنية ، مجالس بلدية (*Cabildos*) ، 'ينتخب اعضاؤها انتخاباً ، من حيث المبدأ ، مع ان وظائفهم تبقى عرضة للساومات ، فيزداد عددها لتزداد بالتالي مداخيل الملك ، وان لم يكن لها بالفعل أي سلطة ، يؤمن المدالة ، في الدرجة الاولى ، قضاة مختصون . اما في الدرجات الثانية والثالثة ،

فمحلون يجلسون للقضاء . للسكان الوطنيين الحرية بالمحافظة على عاداتهم واعرافهم القومية ، شريطة ألا تتعارض مع وصايا الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها ، تحت مراقبة فريق من بني دينهم يقضون فيما بينهم في القضايا المدنية والجزائية ، لهم السلطة لتشغيلهم لقاء اجر معين ، ويقومون بالفعل وسطاء بينهم وبين البيض في كل ما يتعلق بامورهم . فالحكام المحلفون والقضاة ، كل هؤلاء يجري تعيينهم مباشرة من قبل ملك اسبانيا . وفي حال غيابه ، من قبل نائب الملك . اما صفار القضاة ، فيتولى تعيينهم الحكام بحيث يشعر الجميع ، حتي في المجالس البلدية ، بسلطة الملك المطلقة .

واستغلال الامبراطورية واستثمارها هي من شؤون اسبانيا الخاصة وحدها فيحظر على هذه الامبراطورية أن تنتج اي صنف تنتج مثله اسبانيا . واثبت البيرو بصعوبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها ، وزرع الكرم في اراضيها المعتدلة ، شريطة الا تصدر اي شيء من انتاج هذين الصنفين ، الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية الاسبانية التي تتمون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم . وحظر على الامبراطورية كذلك ان تصنع اي شيء يصنع مثله في اسبانيا . فلاسبانيا وحدها الحق بشراء جميع منتوجات الامبراطورية ، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج اليه من امور المعيشة . فاذا ما تعذر على اسبانيا ان تزودها بما تحتاج اليه ، او ان تستهلك هي نفسها منتوجات امبراطوريتها ، قامت اسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها . فغرفة تجارة اشبيلية التي انتقلت ، عام ١٧١٨ ، الى مدينة قادس ، لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ ، تحدد هي نفسها ، كمية الشحن الممد مثلاً للهند الغربية ، كما تحدد منها الاسعار ، وعدد السفن التي تقوم بنقل الوسق والمشحونات . هنالك اساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادس المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع اجزاء الامبراطورية الاسبانية في اميركا ، باتجاه مرفأ بورنوبلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الاصناف المشحونة ، ثم تباع البضاعة في الاسواق التجارية ، وهي اسواق تستمر قائمة مدة اربعين يوماً ، ومنها تنقل برأ الى جميع اطراف الامبراطورية . كذلك تشحن من هذه الموانئ جميع محاصيل بلدان الامبراطورية . والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة ، بين الامبراطورية الاسبانية وبين بلاد المنشأ ، هي تجارة الرقيق التي ألقت احتكاراً انكليزياً (*Asiento*) وذلك منذ عام ١٧١٣ . فللانكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من افريقيا الى بونس ايرس وقرطاجنة وبورتوبلو ، اختصاراً للوقت وللمسافات ، واستمجالاً للعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة السريعة المعطب من اخطار ومهلك .

وهذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء والذي فرض على الامبراطورية فاضطرت للزول عنده والاخذ به ، فألزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدنٍ منخفض ، حال ، الى حد بعيد ، دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها . ففيه كل المساويء التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي ، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما

تحتاج اليه البلاد من رؤوس الاموال واليد العاملة . فاسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر ، يسلبون الامبراطورية ، ما لديهم من معادن ثمينة ، فيقل النقد من التداول ، وتتأخر حركة البيع والشراء . ان تأمين كل ما يحتاج اليه العمال العاملون في الغابات بالتزيم ، وبطء حركة النقل ، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الاموال التي لا بد منها لتأمين هذه المتوجبات ، يلتهم رؤوس الاموال الزهيدة التي يمكن توفرها (مع العلم انه يقتضي ٣ اشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس ايرس وسلطا ، كما يقتضي لقطعها ١٢٦٠٠٠ رأس بقر ، و ٦٠٠ مركبة او عربة) . واعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من اليد العاملة . ان ثلث سكان كولمبيا ونصف البونغا في لاوز وبوليفيا هم من البغالين . وهذه البلاد الكاثوليكية ، على طريقتها الخاصة ، تعد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى . فلا عجب ان تفتقر افتقاراً شديداً لليد العاملة .

حاولت الدولة الاسبانية ان تحافظ ، جهدها ، على استمرار بعض الافكار التقليدية حية بين رعايا امبراطوريتها في اميركا . فالجامعات التي قامت في كل من مكسيكو وليا وسلتا فيه في بوغوتا ، وقرطبة وشركاس وغواتيمالا وكوزكو وسان دومنغو ، ضمت فروعاً واقساماً لتعليم اللاهوت والفلسفة الكلاسيكية والحقوق والطب ، والآداب الرفيعة والرياضيات . فجامعة ليا ، مثلاً ، تدرس لغة الكويستوا ، كما ان جامعة مكسيكو تدرس لغة الازتيك والاقوامي . كثيرة هي في البلاد ، المدارس الابتدائية والثانوية التي يقوم على ادارتها العديد من الرهبان والراهبات . اما الكتب فنادرة الوجود غالبية الثمن . فليس من مطبعة بعد ، في غير مكسيكو وليا . والحكومة تراقب الطباعة ودورها عن كثب ولا تبيح الدخول الى الامبراطورية ، لاي من الكتب او المطبوعات التي توجس منها شراً على الاخلاق او العقائد او الآداب ، كما تحظر دخول الكتب ذات النزعة المتحررة . ويساعد الحكومة في مراقبتها هذه ديوان التفتيش الذي سجل بين الكتب المنوع دخولها الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية ٥٤٢٠ كتاباً . وهكذا نرى الاميركيين يخدمون لنوع جديد من الوصاية الشديدة والرقابة الصارمة .

ليس من عجب قط ان ترتفع ، بعد هذا ، الاصوات بالتذمر والشكوى معربة عن عدم رضاها . ويرى موالييد الاوروبيين في المستعمرات من ذراري المعمرين الاسبان ، انهم يضحى بهم يستخاه فيذهبون ضحية اسبانيا ، فاهيك عن ان كل الوظائف الرئيسية هي بأيدي من هم من موالييد اسبانيا . والشاذ لادر جيداً ، حتى ان الشؤون المحلية لا تخضع هي نفسها لمراقبتهم . فالموالييد البيض في المستعمرات يتحسدون عميقاً الفوارق الطبقيية التي تتمثل بها نفوس الاسبان : فهم يحتقرون الخلاسين بعد ان تكاثروا عددهم في البلاد ويعرضون عنهم باستعلاء وازدراء . وهؤلاء الخلاسيون يزدرون المهجناء من هؤلاء الموالييد الذين بالنظر لما فيهم من الدم الابيض ، خيستل اليهم انهم فوق الهندود براحل . وكثيراً ما شعر الهندي بمرارة المغلوب على امره فيستغله غالب عليج لا يربطه به اية صلة . فمن منهم كان في ارض جاد بها ملك اسبانيا لاسباني ما ، كان عليه ان يقوم بما يفرضه عليه سيد الارض الجديد من اعمال وأشغال لغام اجر يعينه له ، فيعمل

في المناجم والحقول او المزارع . ويحق للقضاة ان يفرضوا عليهم العمل ، بالشروط ذاتها ، في الطرقات والمباني العامة . فالقوانين الحكومية الخاصة بالهنود تعتبر ممتازة . ولكن في هذه البلاد النائية ، تعجز الحكومة المركزية السقي تفصلها مسافات شاسعة ، عن تنفيذ ما تتخذه من قرارات . فالهنود الذين تفرض عليهم اعمال شاقة ينوؤون تحتها ، والذين يذهبون ضحية معاملات مؤذية تلحق بهم الحيف والضرر من حيث المرتبات التي تجري عليهم والغذاء الذي يعطى لهم ، والذين يستهدفون لالوان الابتزاز والاستثمار البشع ، كل هؤلاء تجيش نفوسهم بالحد والبغضاء نحو اسيادهم . ويأتي دون الهنود مرتبة ، الارقاء من الزنج الذين لا يزال الكثيرون بينهم يتنفسون ، وليس من يرحم او يسمع ، للحرى التي كانوا يتمتعون بها من عهد قريب ، قبل ان يصيرهم حظهم الماثر والقدر الفاشم الى ما اصارهم اليه من نكد العيش . وفي الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي يأتي «الزنبو» ، هؤلاء الخلاسيون من الزوج والهنود ، الذين كانوا موضوع هزه الجميع واحتقارهم ، والذين كانوا يُسَخَّرُونَ للقيام بأقسى الاعمال واحقر الاشغال باجور سيئة جداً .

وهذا النظام الطبقي الذي وصفنا ، كان من شأنه ان يثير الاحقاد والضغائن ويغذي الحفائظ بأشنع واقذع الذكريات . فمنذ مطلع القرن الثامن عشر ، هب على الامبراطورية الاسبانية ، بعكس الامبراطورية البرتغالية ، ريج صرصر من الثورة تغطي بين الضلوع ، وأخذ الناس يتطلعون بلهفة وشوق الى الاستقلال .

كان توسع الامبراطورية الاسبانية ، حتى عهد الملك شارل الثالث ،
 الامبراطورية الاسبانية
 بين ١٧١٣ - ١٧٩٥
 يتجه نحو الشمال ، وذلك بفضل الارساليات الكاثوليكية ، على
 الاخص . فقد انشأ الآباء اليسوعيون ، في كاليفورنيا القديمة ، قري لهم
 ودساكر تنازلوا عنها ، فيما بعد ، للآباء الدومنيكيين . كذلك عمل الآباء الفرنسيين من
 جهتهم ، على تطوير كاليفورنيا الجديدة ، اذ ساعدوا على توطين الهنود كما ادخلوا على البلاد
 زراعة الاشجار المثمرة والبقول والخضروات المعروفة في أوروبا . وأنشأ المرسلون لهم مراكز
 يشعرون منها الى اريزونا ، وخلال ١٧٢٠-١٧٢٢ ، وضعت اسبانيا يدها على مقاطعة تكساس
 حتى مشارف النهر الاحمر ، تحوطاً من المشروعات الفرنسية حول لويزيانا . وحاول الاسبان
 الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين ، حتى نهر ريودي لابلاتا ، فأسسوا ، عام ١٧٢٦ ،
 مدينة مونتفيديو .

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان كما ازداد الغنى واليسر بين الناس .
 وقد أقصرت التجارة مع الامبراطورية على بعض المرافئ منها في المكسيك مثلاً فيراكروز .
 ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل ، عن طريق خلايا ، الى المناطق الجبلية ، واكايولكو التي
 كان يصلها كل سنة ، سفينة مانيللا بحملة منتوجات ومحاصيل آسيا الشرقية . اما في اميركا الجنوبية

فأهم هذه المرافىء ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميتو وليما ، متبعة في سيرها الى الامام ، وادي مغدليتا وكوكا ، مارة بمسدن : مادلين وسنتا فيه بوغوتا وبوبويان ، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبر برزخ بناما، الى مدينة بناما، لتحملها من جديد سفن باتجاه ليما. ومن ليما كانت تنقل على ظهر البغال باتجاه بوليفيا والشيلي وساطها، ومنها تحمل على عربات نقل ، الى التوكومان وقرطبة وبونس ايرس. وكان من المحظور وصول اية بضاعة الى بونس ايرس رأساً باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن ارقاء الزوج ، والسفينة البريطانية المرخص لها ، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بونس ايرس . وعلى طول هذا الخط التجاري الشاسع المسافات ، نشأت تباعاً الاستثمارات الحرجية والمزروعات ، يفتديها بما يلزم من المال ، متمهدو النقل الذين اثروا . وقد توفرت لهم اليد العاملة اذ ان عدداً كبيراً من الزوج سهل لهم الدخول الى الاراضي الدافئة ، في كولومبيا وفنزويلا ، كما نشأت اسواق تجارية ضمت كل ما يلزم للتمون والانتاج .

والى هذا النشاط يجب ان نضيف عمليات التهريب الواسعة التي قامت بها سفن القرصنة *Interlope* ، اذ كان يتم على يد عمليات التهريب الواسعة هذه حركة واسعة من الاستيراد والتصدير لعدد كبير من مختلف البضائع والسلع . وهذه التجارة غير المشروعة التي كان ينهض بها تجار الرق وقباطنة السفن المجاورة التي كان وسقها يتجاوز دوماً الخسائنة برميل المرخص بها في المعاهدات والمواثيق المبرمة ، وذلك بفضل توسيع صابورة السفينة فوق خط العموم وعمليات تحشية الالواح والحواجز . وبين القائمين بعمليات التهريب هذه ، التجار غير المرتبطين بمعد اتفاق من كانوا يستخدمون اللوانىء والطرق البرازيلية ، وجزيرة الثالث ونهر الاورينوك وشواطئ خليج المكسيك . وقد استخدم الانكليز في هوندوراس وساحل الموسكيتوس ، الترخيص المغطى لهم من الاسبان ، ليقطعوا خشب الصباج الذي يتوفر كثيراً في تلك المنطقة . ومن بينهم كذلك المعمرون في جايكا الذين قاموا ، بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بانشاء وكالات تجارية لهم ، عند مصب النهر الاسود *Rio Negro* وقد قام الاسبان بذلك هذه الوكالات وهدمها . وفي كل مرة كان المعمرون يعيدون بناءها ، وقد بلغ القائمون باعمال التهريب الهضاب المرتفعات الجبلية وتحالفوا مع هنود موسكيتوس ، واقاموا عليهم نوعاً من الحماية ، واخذوا يصدرون نحو جايكا ولندن ونيويورك ، خشب البقم والكافور والنيلة وسكر القصب والتبغ ، وقد سولت لهم النفس الوصول الى سواحل المحيط الهادي ليفتحوا لهم باتجاه اميركا الجنوبية ، طرقاً جديدة يعتمدونها المهربون في تجارتهم الراجحة . وفي هذا السبيل ، وتأميناً لسيطرتهم على الطرقات التي تمر ببرزخ بناما ، اقمتموا ، انكلترا ، عام ١٧٤٠ ، على توجيه الاميرال فرنون ضد بورتوبلوتو وقرطاجنة ، والاميرال انسون ، الى سواحل البيرو . وفي سنة ١٧٤٣ ، راح تريبوتي حاكم جايكا الانكليزي ، بشجيع من لندن ، بحشد المعمرين في هوندوراس وسلحهم ، وبلغ حكام نيكاراغوس وغواتيمالا ، بسط الحماية الانكليزية على المنطقة . الا ان الفشل الذي اصيب



خريطة ٨ - طرق حواصل مدينتي الامبراطورية الاسبانية في اميركا الجنوبية، الطرق الرسمية
 ١ - السفن والنقل من بناما - ٢ - النقل على البغال - ٣ - النقل النهري
 الطرق التي تبعتها المهيمنون: ٤ - الانكليز - ٥ - الفرنسيون المهيمنون عام ١٧٣٤

به الاميرال فرنون امام قرطاجنة ، ومعاهدة اكس لا شاييل التي حافظت على الوضع الراهن ، من جهة اخرى ، حملت الانكليز على ان يقترحوا عقد المعاهدة الاسبانية البرتغالية ، عام ١٧٥٠ ، ليفتحوا امامهم طريقاً جديداً . وراحوا من جهة ثانية يطالبون بمنحهم حق احتكار الاتجار مع الامبراطورية الاسبانية مقابل تخليهم عن تجارة النخاسة والرق التي اصبحت ادعى للخسارة منها للربح .

وقام بتجارة التهريب هذه ، على نطاق واسع ، عدد من الفرنسيين والهولنديين فسادت عليهم بارباح طائلة ، فاتخذوا من جزائر بحر الكرايبي او الانتيل قاعدة لهم ومستودعاً لبضائعهم فقاموا بمنافسة الانكليز ومزاحمتهم مزاحمة قاسية .

وتجارة التهريب التي سببت نقصاً كبيراً في واردات مرفأ قادس حيث كان يسيطر التجار الفرنسيون ، عادت بالحسف على اسبانيا ، كما حركت الضغائن والاحقاد .

ولقد كانت معاضدة الحكومة الانكليزية لتجارة التهريب ومناصرتها للقائمين بها ، من هذه الاسباب التي دعت الى هذه الحروب التي نشبت بين الانكليز والاسبان ، عام ١٧٣٩-١٧٤٨ ، و ١٧٦٢-١٧٦٣ ، وتلك الحروب التي قامت بينهم وبين الفرنسيين ، عام ١٧٤٢-١٧٤٨ ، و ١٧٥٦-١٧٦٣ ، فاذا ما عادت حركة التهريب هذه بارباح طائلة على المهربين الأجانب فقد أمتت ، من جهة ثانية ، للاهلين من سكان الامبراطورية الاسبانية ، ارباحاً اطيب من التي تعود عليهم من التجارة العادية ، اذ شحذت فيهم الحماس والرغبة على مضاعفة الانتاج وسهلت لهم الوسائل المالية والبشرية .

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً . وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تركزت المناجم وتضاعف انتاجها بعد ان كان اخذ يتقهقر تقهقراً ملحوظاً في القرن السابع عشر ، وأمدت اوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد ، وساعدت في رفع الاسعار ، فكان ذلك سبباً لظهور هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها ، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل والمواد الغذائية في اميركا ، ولا سيما في هذه المناطق « المعتدلة » ، أو « الباردة » في جبال الاندس . فازدهرت زراعة الذرة والشعير والقمح والزيتون والكرمة ، بعد ان ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن اسباب الرزق . وراح المعمرون وذراري الاسبان المولودون في اميركا يستخدمون المبيد من الزنج لاحياء المزيد من الأرض ولانشاء زراعات جديدة ، من قصب السكر والتبغ والفانيلا والكافور والبن ، في الاراضي السهلية الدافئة ، في كل من البيرو وكولمبيا وفنزويلا والغويان والمكسيك وجزر الانتيل . وراح الخلاسيون والهنود يستثمرون الغابات بحشاً منهم عن خشب الصباغ وخشب الابنوس ، ولحاء شجر الكينا ، منذ عام ١٧٥٠ ، وزراعة الماتيه . كذلك عرفت تربية الماشية رواجاً كبيراً توفيراً لحيوانات الجر والنقل اكثر منه للحم والجلود . واخذت البيرو تستورد اكثر من

١٠٠ الف بغل من التوكومان والشيلي . وكان يباع في كل سنة يقام فيها معرض مالطا ، اكثر من ٦٠ الف بغل جرى تطبيعها وتدريبها وقد قام في السهول المشوشة المحيطة بنهر الاورينوك ومرتفعات غرناطة الجديدة والاناهايوك والمكسيك الجديدة ، على مقربة من الاستنارات الزراعية والمعدنية ، مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية . اما في هذه السباسب والسهول التي تثنأى بعيداً عن هذه المشروعات الاستثنائية ، فقد تركت قطعان الماشية تعيش فيها نصف متوحشة او برية ، يسهر على حراستها اقوام من الخلاسيين والهنود ، يعملون على وشمها واقتيادها بمشقة الى الاسواق القائمة في خلايا وتوكومان وسلطا ، بقصد بيعها .

كذلك اخذت الحياة الفكرية بالظهور والتفتح ، على اثر سماح السلطات المعنية في المكسيك ، باصدار جريدة ودورية اخرى بعنوان *Mercure Volant* تعطي قراءها اخباراً عن اوروبا ، وتلشر في حقوقها ابحاثاً ومقالات حول العلوم الطبيعية والفيزياء . ويجب التنويه هنا بفضل حركة التهريب التي ساعدت على نشر الافكار الجديدة بين مواليد الاوروبيين وذرائعهم في المستعمرات بعد ان تغلفت بينهم المؤلفات الفرنسية .

ان ازدياد عدد السكان ونشاط حركة الاعمال ، والرغبة في منع حركة التهريب ومراقبة الانتاج ، والررد على التهديد الانكليزي والصمود في وجهه ، كل ذلك وما اليه ادى الى انشاء تقسيمات جغرافية جديدة والاكثر من الموظفين . ففي سنة ١٧١٧ ، انشئت لتعود الى الوجود من جديد بعد إلغائها ، عام ١٧٣٣ ، نيابة للملك في غرناطة الجديدة (كوايبيا وفزويلا) ، كما انشئت ، عام ١٧٤٢ ، قبطانية عامة في فزويلا .

هذا اللشد في المراقبة وزيادة احكامها اخذ يحد من التطور الذي اخذت البلاد باسبابه ، كما صدم ، في الصميم ، شعورها بالحرية والاستقلال ، وساعد كثيراً في اذكاء اسباب النفرة والتذمر في الداخل ، مما ادى بالتالي الى حركات تمرد في اماكن كثيرة ، منها الحركة البلدية التي قام بها طلاب المدارس في الباراغواي ، عام ١٧٢١ ، والثورة التي قام بها الاسبان وذرائع المعمرين الاوروبيين في البيرو (١٧٤١) ، وفي المكسيك (١٧٤٢) ، والثورة الشعبية التي قام بها الخلاسيون والهنود في وجه كبار الملاكين في فزويلا ، عام ١٧٤٩ . كذلك ثار اليسوعيون في الباراغواي عندما وقّعت الحكومة الاسبانية ، عام ١٧٥٠ ، المعاهدة التي عقدتها مع البرتغال وتنازلت لها فيها عن الممتلكات التي قامت فيها ارسالياتهم في الباراغواي ، مما اضطر الآباء اليسوعيون معه لمغادرة تلك المقاطعات والجلء عنها ، مما سهل للانكليز الذين كانوا وراء عقد هذه المعاهدة ، الدخول بحرية الى البرازيل ومنها الى مقاطعة شاكو ، باتجاه المناطق الجبلية في بوليفيا والبيرو . وبذلك سلسلت عندهم وسائل التهريب وهددت باسوأ المساوىء الهنود الذين تركوا وشأنهم . ورفض اليسوعيون الانصياع ، واخذوا يتحصنون في ارسالياتهم للصمود في وجه الاسبان والبرتغاليين معاً وطردهم اذا امكن ، فاضطر هؤلاء الى مجابهة حرب شونها ضددم . وكانت الحرب في هذه الفترة قائمة على قدم وساق في الشيلي ضد الأروكان الذين كانوا

انشأوا لهم دولة مستقلة ، ناصبتهم العداة .

عهد شارل الثالث
في عهد الملك شارل الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨) وقعت معظم التطورات
الجذرية وتمت النجاحات التي سجلتها الامبراطورية الاسبانية ، اذ ذلك .
فقد عرف ملك اسبانيا ان يحافظ على المبادئ الاساسية التي نهض عليها الاستعمار الاسباني .
الا انه تفهم تماماً الموجبات التي تقضي بمخلق مصالح وبعث روح مشاركة بين اسبانيا واوروبا
والتمكين لها في النفوس .

فقد حالفه النجاح في محاولاته توسيع حدود الامبراطورية الاسبانية ، والدفاع عما تم لها
من وضع اقتصادي ممتاز ضد الانكليز . ففي ٢ كانون الثاني ١٧٦٢ ، دخل الحرب الى جانب
الفرنسيين ضد الانكليز ، فجرت عليه الحرب الحسائر والهزائم ، اذ احتل الانكليز مدينة
لاهافانا ، واستولوا على ١١ سفينة اسبانية كانت راسية في خليجها وغنموا من الاسلاب ما يزيد
قيمته على ٣ ملايين غرش ، وبذلك اصبح في مكنتهم مهاجمة فيراكروز والكر على قرطاجنة
دون ان يلقوا مقاومة تذكر من قبل الاسبان . وبتاريخ ٢٣ ايلول من السنة نفسها ، استولت
عمارة انكليزية على مدينة مانيل في الفيلبين هذا المرفأ الاسباني الكبير في المحيط الهادي .
وبموجب الصلح الذي عقد عام ١٧٦٣ ، اضطرت اسبانيا للتنازل لانكلترا عن واحدة من
اثنين : اما بورتوريكو او فلوريدا ، فتخلت لهم عن الثانية بعد ان احدث بها الخطر الانكليزي
اثر تحلي الفرنسيين للانكليز عن ضفة ميسيبي اليسرى . كذلك اضطر شارل الثالث للتنازل
لهم عما له من حقوق الصيد في ضواحي جزيرة الارض الجديدة وارباضها التي كانت بمثابة دار
تدريب للبحارة الاسبان . كذلك اعترف لهم بحق قطع خشب الصباغة في هوندوراس مما
اتاح لهم المزيد من الفرص للقيام بمظاهرات باتجاه المحيط الهادي . الا ان الاسبان استرجعوا
لاهافانا وكوبا . وبعد ان تحلى الانكليز عن تجارة العبيد تنازلوا عن مطالبتهم الاحتفاظ بحق
احتكارهم الاتجار في الامبراطورية الاسبانية . فهل ادى ذلك ، ياترى ، الى التخفيف من تجارة
التهرب التي كانوا يقومون بها ؟ وتعويضاً لاسبانيا عن تنازلها للانكليز عن فلوريدا ، تنازلوا
لها بدورهم عن ضفة الميسيبي اليمنى . وفي حرب الاستقلال الاميركية ، تدخل شارل الثالث
يوصفه حليفاً لفرنسا في الحرب ضد انكلترا ، وذلك من سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ . واوجبت
معاهدة باريس على الانكليز ، ارجاع فلوريدا للاسبان .

وسجل الاسبان لهم انتصارات ضد البرتغاليين . كان سيبالوس حاكم بونس ايرس استولى
عام ١٧٦٢ ، على المستعمرة البرتغالية سكرمنتو ، فجاءت معاهدة باريس توقف تنفيذ العملية .
واستأنف سيبالوس ، عام ١٧٧٦ ، المغامرة واستولى على سكرمنتو من جديد ، واقام فوقها
الحصون والقلاع . واذ كان الانكليز غارقين في الحرب ضد مستعمراتهم الاميركية في اميركا
الشالية لم يستطيعوا مساندة البرتغال وشد ازرها فاضطر هؤلاء بموجب معاهدي سان ألفونس

(١٧٧٧) والبرادو (١٧٧٨) للتخلي نهائياً عن مقاطعة سكرمنتو لاسبانيا ، وثالت اسبانيا وحدها حق الملاحة في نهر ريودي لابلاتا والاورغواي .
وفي سنة ١٧٧٦ ، جرى تعيين الحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والاسبانية ، في سان دومنيك .

واستمر ٣٦ راهباً من الرهبان الفرنسيين في توسيعهم على ساحل المحيط الهادي وانشاءهم القرى والداكر والمزارع . من انشاءاتهم تلك ، سان بلام ، ومونتيري ، وسان فرنسيسكو ، وجعلوا من هذه المراكز الجديدة قواعد لتنظيم حملات ورحلات باتجاه خليج توكا الذي استكشفه خوان بيريس ، والذي كان مركزاً هاماً للتجار بفراء كلب الماء . وهناك التقى الاسبان بتجار من الانكليز والروس والاميركان . واسس الانكليز لهم في توكا ، شركة حاولت ، عام ١٧٨٩ ، الاستيلاء على الخليج المعروف بهذا الاسم . الا ان الاسبان تمكنوا من صدوم وردمهم خاصتين .

وهكذا امتدت حدود الامبراطورية الاسبانية في كل اتجاه وعرف الاسبان كيف يناضلون دونها ويردوا عنها تعديات جيرانهم .

وعرف شارل الثالث ، بوصفه « طاغية مستنيراً » ان يشدد من قبضته الادارية على الامبراطورية . فطبق ، عام ١٧٦٨ ، على الهند الغربية ، النظام الفرنسي الذي ادخله الملك فيليب الخامس ، على اسبانيا ، بتعيينه نظاراً او قهارمة مرتبطين رأساً بنائب الملك ، جاؤوا مرتبة ، فوق القباطنة العاملين وفوق الحكام العامين . كان عددهم كبيراً ، اذ قام منهم ١٢ في المكسيك ، و ٨ في البيرو ، و ٧ في لابلاتا ، فكانوا اكثر اهلية لادارة مقاطعة اصغر مساحة . وتمتع هؤلاء النظار بصلاحيات واسعة : مالية واقتصادية وعسكرية وفي مجال الامن العام . فتمكنوا من القضاء على مساوئ كثيرة في الادارة ، وحموا ، على الاخص ، الهنود ضد تعديات صفار الحكام الاسبان والمتزعمين . فالاصطدامات التي قامت بينهم وبين الانكليز ، والبرتغاليين ، والخوف الذي يمثه في نفوسهم ، مثل الولايات المتحدة الاميركية العميق الاثر ، والتغييرات الاقتصادية ، كل ذلك سبب ، عام ١٧٧٨ ، انشاء نيابة ملك جديدة ، في لابلاتا كانت عاصمتها بونس ايرس ، كما أدت الى انشاء قبطانية عامة في الشيلي . كل هذا جاء جيلاً انما زاد الادارة مركزية وشدد من المراقبة الادارية .

وشجع شارل الثالث الحياة الفكرية لتأتي وفقاً لما كانت عليه في البلد الأم . فأنشأ جامعات جديدة : في سنثياغو الشيلي ولاهفانا وكيثو . وأدخل على الجامعات القديمة تدريس علوم جديدة ، فأخذوا يدرسون في جامعة مكسيكو علم الهيئة وعلم النبات ، وعلم المعادن والكيمياء . وقام في مكسيكو معهد خاص بتعليم علم المناجم ، وحديقة للحيوانات والنبات أسسها غلفيز وزير الهند الغربية . وسمح عام ١٧٧٧ ، بادخال الطباعة الى غرناطة الجديدة ،

والى بونس ايرس عام ١٧٧٩ . وصدر في مكسيكو الـ *Le Journal Littéraire* عام ١٧٦٨ ، كما ظهر فيها عام ١٧٨٨ الغازيت الادبية . وصدر في اماكن كثيرة جرائد عديدة . الا ان ديوان التفتيش ووزارة الهند اوصدنا بشدة ابواب الامبراطورية ، امام الكتب الاجنبية .

الا ان الاسس الاقتصادية التي قامت عليها سياسة البلاد الاساسية بقيت مرعية الجانب . فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة والقاعدة الركينة لكل سياسة . فالشاغل الاكبر هو ان تصبح اسبانيا بمد تجددها وبعثها خير زبون للامبراطورية تصديراً واستيراداً^(١) . فتهي وحدها دون سواها ، تمد الامبراطورية بالمواد الصناعية وبيعض المواد الغذائية . فقد حرّم شارل الثالث العرق المستخرج من نبات الـ *Agave* ، الذي كان ينافس العرق الاسباني المصنوع من العنب . واستمر مرفأ فادس وحده المرفأ الذي يتولى تصدير الحبوب و مواد غذائية اخرى ، كل سنة ، الى الامبراطورية التي كان بإمكانها الاستغناء عنها . وبقيت التجارة محصورة بيد الاسبان دون سواهم . وفي سنة ١٧٧٨ ، انتهى اجل العقد المعطى للشركة الانكليزية التي تتعاطى تجارة الرق *Asiento* فرأى الملك شارل الثالث ، في حرب الاستقلال الاميركية ، فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة لاسبانيا ، واجبر البرتغال على التنازل له عن جزر فرناندو - بو وانوبون ، على سواحل افريقيا الغربية ، باعتبارهما مركزاً لتجارة الرق الاسود . وفي سنة ١٧٨٠ ، رفض مشروعاً فرنسياً بإنشاء ترعة او قناة تربط ما بين نهر سان خوان وبحيرة نيكاراغوى ، وبذلك كان تم ربط خليج المكسيك بالحيط الهادي ، فتختصر المسافة بين اوروبا وآسيا الوسطى ، مبرراً رفضه من خوفه ان يؤدي فتح هذا الطريق الجديد الى اشتداد تجارة التهريب ودخول التيارات الفكرية الاجنبية الى الامبراطورية الاسبانية .

فبالاضافة الى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في اسبانيا ، وحؤولاً دون قيام ابناء المستعمرات الاسبانية باحتذاء حذو الاميركيين في طلب الانفصال وانتزاع الاستقلال ، راح الملك شارل الثالث ، عام ١٧٧٨ ، يمطي حرية الاتجار بين اسبانيا والامبراطورية لـ ١٣ مرفأ اسبانيا ولـ ٢٤ مرفأ في اميركا ، من بينها بونس ايرس . وقد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق ، فاحتفظ لمرفأ فيراكروز وحده ، باحتكار التجارة ، الا انه لم يسمح له باستيراد اكثر من ٦٠٠٠ برميل من مختلف البضائع والسلع ، في السنة كلها . الا ان المكسيك عرف بدوره ان يتمتع ، سنة ١٧٨٦ بحرية اكبر أدت الى مضاعفة علاقاته بين اسبانيا والامبراطورية ، وهي حرية لم تحدث ابي تبدل في صلب نظام الاستثناءات المعمول به . ومع ذلك فقد حققت ازدهاراً عظيماً . فقد بلغ ما صدرته اسبانيا ، عام ١٧٧٨ ، الى الامبراطورية ، ما قيمته ٢٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، وما صدرته من البضائع الاجنبية ، بلغت قيمته ٤٨ مليون ريال . فقد شحنت عام ١٧٨٨ ما قيمته ١٥٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، و ١٤٢ مليون ريال من

(١) - راجع الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

البضائع الأجنبية. وباعت أميركا الإسبانية من اسبانيا بما قيمته ٥٠٠ مليون ريال^(١). وهكذا اخذت اسبانيا تصدر وتستهلك اكثر من الماضي ، مما أدى الى إثراء مواليد الاسبان في المستعمرات ، واكتظاظ المدن بالسكان وازدياد حركة العمران فيها . وهكذا نرى ان عهد الملك شارل الثالث المستبد المطلق ، عاد بالخير العميم على بلاد الهند الغربية .

ومع ذلك فالتعلم والتذمر ازدادا حدة. فقد بعث الأثراء ونماء الازدهار الشعور في النفوس بالحاجة الى الاستقلال كما ايقظ فيهم الوعي والشعور بالقيمة الذاتية فتملكهم الشعور الشديد بالحرية والتحرر الذي يعود عليهم بالمزيد من المسانم والمكاسب . وبالرغم من التدابير الزجرية والاجراءات الاحتياطية المتخذة ، فقد راحت الافكار والمبادئ الجديدة التي نادى بها الفلاسفة الفرنسيون تتغلغل بين سكان المستعمرات الاسبانية ، وتهريب الكتب وتسريبها سرأ وانتقالها بين الناس كان على اشده . وعمل مريون فرنسيون على ادخال المبادئ التي نادى بها روسو واصحاب دائرة المعارف الفرنسية .

وقد قصد عدد كبير من الشباب في المكسيك وفرنسا الجديدة ولا بلاتا ، اوروبا ولا سيبا فرنسا يتشربون الافكار والآراء الجديدة المسيطرة على اجواء باريس ، كما راح يستلشق هذا الجو المشبع بكل جديد من الافكار والنظريات التقدمية ، كثيرون ممن هبطوا باريس من الخارج ، ومواليد الاسبان في أميركا اقبوا بعمش ، على تعلم الفرنسية والاستبحار في آدابها ، برغبة وتوق ابن منها رغبة الشباب الاوروبي . ولم تر في مكان ما من التعليقات والشروح على «روح الشرائع» لونتسكيو الذي منه استمد الاميركيون مبادئ دستورهم الجديد ، مثل ما قام منها في الولايات والمستعمرات الاسبانية التي كانت اكثر اوساط العالم طراً اعجاباً به ولا سيبا الشباب الاميركي الذين اطلعوا على تاريخهم الوطني من مطالعتهم وقراءتهم كتاب « تاريخ الفلسفة » الذي وضعه رينال . وقد خلف روسو وراءه تلاميذ تميزوا بالنشاط والحس فكثروا خيراً بين النشء الجديد ، وهذه الجمعيات الادبية والثقافية التي رأت النور في جميع المدن الكبيرة القائمة في المستعمرات الاسبانية ، كان اعضاؤها وغيرهم من المتحمسين يقرؤون ويروون عن نهر قلوبهم ، المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية .

ان مثل الولايات المتحدة والتشبه بها عمر النفوس بالأمل . فقد تغلغلت الافكار الجديدة بين الطبقات العليا في البلاد وبين رجال الادارة والضباط حتى اخذ بها واحتضنها دون برناردو اوهجنز ، ابن حاكم الشيلي . ورؤساء الاكليروس والمرسلون كلهم أخذوا بمثل الولايات المتحدة حتى ان الخوارة العاملين في خدمة مواليد الاسبان الروحية في المستعمرات كانوا من بين دعاة الانفصال .

ويبدو ان الاسبان المولودين في المستعمرات الاميركية عرفوا وحدهم ان يفيدوا على الوجه الصحيح من نماء الغنى والثروة في البلاد ومن التطور الفكري الذي اخذت باسبابه . فالجامعات كانت وقفاً عليهم . والمليون هالتهم الفروق التي اخذت تساعد بينهم وبين البيض . فالكهنة الخلاسيون ، كثيراً ما جاشت نفوسهم بفكرة التحرر ، وكثيراً ما حرضوا اخوتهم في الدم على المطالبة بالحرية . وبالرغم من سهر نواب الملك والنظار والمفتشين العاملين تحت امرتهم استمر صفار رجال القضاة في المدن في استغلال الهنود على ابشع وجه ، بالرغم مما يرضون تحته من

(١) يجب ان تأخذ بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار .

الضرائب الباهظة والرسوم القاسمة . وهكذا نرى ان طبقات الشعب الدنيا حكائت على اثم استمداد للسير في ركاب الثورة اذا قام من ينادي بها ويرفع لواءها ضد الاسبان وضد ذرارهم في البلاد .

كان عدد سكان اميركا الاسبانية يتراوح ، اذ ذاك ، بين ١٦ - ١٨ مليوناً اي بزيادة ٦ - ٨ ملايين اكثر من البلد الام ، بينهم ٣ ملايين من المرق الابيض ، معظمهم من الاسبان المتوالدين في البلاد ، ممن زودتهم الحكومة بالسلاح وشدت من ازرمهم بالليشيا دفاعاً عنهم وعن المستعمرة . ولكن عدد البيض ضاع بين الهنود الذين زاد عددهم على ٨ ملايين ، اصف الى ذلك ٥ ملايين من الخلاسين و ٧٨٠٠٠٠٠ من الزنج .

ففي سنة ١٧٨٣ ، رفع الكونت داراندا الى الملك شارل الثالث ، مذكرة بين له فيها الصعوبة التي يقتضيها الحفاظ على المستعمرات الاسبانية ، واقترح عليه بالآل تحفظ اسبانيا بغير كوبا وبورتوريكو وبقطر آخر في اليابسة . اما ما تبقى من هذه المستعمرات الشاسعة الاربعاء فيلشاً فيه ثلاث ممالك : واحدة منها في المكسيك ، والثانية في البيرو ، والثالثة في داخل البلاد ، على ان يعهد بالملك فيها لثلاثة من امراء العائلة المالكة يقيمون الولاء للملك اسبانيا بوصفه امبراطوراً ، ويبقون مرتبطين باسبانيا تشدها اليهم وشائج وروابط التبعية والولاء ، وهذه العلاقات التجارية والمصالح المادية ، وموائيق هجومية ودفاعية ، تقوم بين الطرفين . اما شارل الثالث فقد ضرب بهذا الاقتراح عرض الحائط واطرحه جانبا .

الا ان ربح الثورة عاد يعصف بالبلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، اذا ما ضربنا صفحا عن الثورة المشتعلة بين اقوام الأروكان في الشيلي . من لَسَفَحَات هذا الريح الصرصر ، الثورة اللامبة التي قام بها ، في البيرو ، زعيم الإنكا : توباك-أمارو ، آخر سلالة «ابناء الشمس» الذي عرف ان يستغل الاحقاد والضغائن المعتملة في قلب الشعب لهذه الابتزازات الدنايا التي تعرض لها من قِبَل صغار القضاة . الا ان هذه الانتفاضة الثورية انتهت بتقطيع اوصاله ارباً في مدينة كوزكو (١٧٨١ - ١٧٨٣) . ومنها الثورة التي قام بها الاسبان وذرارهم في سنتا فيه بوغوتا (١٧٨١) ، وفي الشيلي بقيادة فرنسيين هما برنيه وغراموزيه ، والحركات المدائية التي قام بها المواطن الفنزويلي فرنسيسكو دي ميراندا ، المولود في كراكاس ، عام ١٧٥٠ ، والذي خدم ضابطاً في الجيش الاسباني وتعلم على اصحاب الموسوعة الفرنسية وعلى البنائين الاحرار ، فقام برحلات الى الولايات المتحدة الاميركية ، والى انكلترا (١٧٨٠) وبروسيا (١٧٨٥) وروسيا (١٧٨٧) وراح يفاوض رجال السياسة من الاميركيين والانكليز ؛ ويستأنس برأي ملك بروسيا ، ويستشير امبراطورة روسيا كاترين الثانية ، مستمزجاً رأيهم ، محاولاً ان يكسب عطفهم على حركة التحرر التي تقوم بها المستعمرات الاسبانية في اميركا ، قبل ان يأتي الى فرنسا وينخرط في جيش الشوار ، تمهيداً لمحاولته النفخ في بوق الثورة في اميركا الاسبانية .

في هذا الجو العابق بروح الثورة ، رأى النور ، عام ١٧٧٨ ، سان - مارتن الذي كان ابوه عقيداً في الجيش الاسباني وحاكماً اسبانياً ، والمحرم المعتيد للشيلي والبيرو . كذلك ، ولد عام ١٧٨٣ ، من اسرة ثرية ومن ذراري الاسبان ومواليدهم في اميركا ، بوليفار .

وفي سنة ١٧٨٩ ، غدت لا تسمع الناس يقولون لك : « انا اسباني » بل « انا اميركي » . وهكذا طلعت على البلاد حركة التحرر ، واطلت عليها سحائب الثورة مزججة . فالردة التي قام بها شارل الرابع ، وفتح الفرنسيين لاسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر ، ألهب الهشم فتطارت الشظايا تحرق الاخضر واليابس .

الجزر

بين « جزر » البحر الكاريبي او جزر الانتيل الفرنسية والانكليزية اكثر من نقطة تشابه . فهي ، في نظر كل من البلد الام ، مستعمرات نموذجية ، هذه المستعمرات التي تمد الوطن الام بما يحتاج اليه ، في الاساس ، والتي لا يتوفر فيها شيء مما تنتجه البلد الام . فزروعات التبغ والنييلة ، ولا سيما قصب السكر ، والبن تتسع فيها باطراد وتستوعب اعداداً اكبر من زوج افريقيا الارقاء . وهذه المحاصيل والغلال هي محور حركة تجارية تعود على اصحابها والقائمين بها بالريح الوافر : تجارة انكليزية مثلثة الاضلاع ، فليفربول تشحن الى غينيا والغينية الخرداوات الحديدية والانسجة لتصبح فيها موضوع مقايضة بالزئوج الذين يمسحون بدورهم مادة المقايضة مقابل السكر والروم والتبغ واللبس والقطن ، وكلها مواد تطلبها اوربا وتصدر اليها . وعلى مثل هذا تجري في الجزر الفرنسية حركة تجارية تزفد سان - مالو ونانت ولاروشيل وبوردو وتجعل من فرنسا الند المنافس لانكلترا . وهكذا تؤلف هذه الجزر منطقة قوامها العرقية . فالزراعة تمنع اسبابها ويستحيل الاخذ بها ما لم يتوفر لها ما يازم من اليد العاملة ، يؤمنها رقيق من الزئج ، لا ينقطع معينه . « زئوج وما يحتاجون اليه من مواد غذائية ، هذا هو قوام الاقتصاد » في هذه الجزر . هنالك ارستوقراطية مؤنثة قوامها اصحاب المزروعات تؤلف الطبقة ، العليا في البلاد ، تسمح للزئجي بالزواج من بيضاء ، وتقصيه عن الوظائف العامة وعن المراتب المسلكية في الميشيا ، وتحظر على الزئج ارتداء ازياء البيض ، وتضن عليهم بالتعليم ، وتعزلهم عن المؤمنين في الكنائس وينظر الكاثوليك شراً الى العضو منهم في الكنيسة الكاثوليكية التي تقول بالاخوة الانسانية .

تردى الجزر الانكليزية منها في وضع حرج يهدد بأورخم العواقب الحياة في الامبراطورية البريطانية ، كما رأى فيه كثيرون تهديداً للسلام في اوربا . فقد ازداد استهلاك السكر كثيراً ، في اوربا ، منذ عام ١٧١٣ . فليس من عجب قط ان يصبح قصب السكر محور النشاط الزراعي في جزر الانتيل . الا ان انهاك التربة واعياءها ، في الجزء البريطاني من هذه الجزر ، والضرورة لاستعمال المزيد بالتالي ، من العبيد والمخصبات الكيماوية تسببت في رفع الاسعار

والسكفة بصورة فادحة . اما في جزر الانتيل الفرنسية فقد كان الوضع على عكس ما هو عليه في الجزر الانكليزية تماماً ، اذ ان الارض فيها لم يجر استثمارها الا بعد استثمار الانكليز لجزرهم بزم طويل ، ولذا بقيت التربة فيها مستريحة وغنية كما ان الزنوج فيها عملوا بشكل افضل وكان الانتاج بالتالي اقل كلفة ، ولذا استطاع المزارعون الفرنسيون ان يبيعوا محاصيلهم من السكر بسعر ٤٠٪ افضل . ومنذ عام ١٧٢٨ ، اخذ السكر الفرنسي يزحزح من طريقه السكر الانكليزي ، في اي مكان عرضا للبيع معاً في اوروبا . وبما هو أنكى من ذلك واحز وقعا في نفس الانكليز ، هو ان المعمرين الانكليز في انكلترا-الجديدة راحوا يتسوقون عصير الدبس والروم من جزر الانتيل الفرنسية ، ويصدرون اليها ، بالمقابل ، الحبوب واللحوم ، ومواد البناء والسفن . فالانتيل البريطانية افتقرت لكل شيء واضطر المعمرون الانكليز ان يدفعوا للأميركيين الشماليين عن محاصيلهم الزراعية ، نقداً وعداً ، كما اضطروا لمضاعفة حركة التهريب في ارجاء الامبراطورية الاسبانية ، فكان ذلك سبباً في إطلاق شرارة الحرب ، عام ١٧٣٩ . فالانتيل الفرنسية رفلت بالبحبوحة وانخفضت فيها اسعار الحاجيات الضرورية وتمكن الفرنسيون من تخفيض سعر السكر فيها ، بحيث ان التجار الانكليز في الانتيل الانكليزية راحوا يشترون ، بالتهريب ، السكر الفرنسي لارساله الى لندن ، حتى ان انكلترا نفسها تم للسكر الفرنسي غزوها بعد ان كانت سوقاً محفوظة ، مبدئياً ، للسكر الانكليزي . واذ ذاك تحرك المزارعون الانكليز ، وكانوا من اصحاب النفوذ في بريطانيا . وبفضل ما كانوا عليه من بسطة العيش والغنى والنفوذ ، كثيراً ما كان يجري انتخابهم اعضاء ، في مجلس العموم البريطاني ، حيث كانوا يحاولون إفساد الضائير . واذ كانوا ، في نظر الانكليز ، معمرين نموذجيين ، ورؤسنا ومصدرين لامندوحة عن خدماتهم ، فقد كان الرأي العام دوماً على استعداد لمناصرتهم والاستماع بعطف الى مطالبهم . فطالبوا بمنع التجار بين انكلترا-الجديدة وجزر الانتيل الفرنسية . ان الاستجابة لهذا المطلب والاخذ به ، كان من شأنه ان يلحق الفوضى في النظام التجاري الانكليزي ، وذلك لاضطرار المعمرين الانكليز في انكلترا الجديدة للتجار مع جزر الانتيل ، وذلك ليستطيعوا تسديد اثمان مشترياتهم من البلد الام : وقد نال المزارعون قانون عام ١٧٣٣ الذي فرض رسوماً عالية على العصير ودبس القصب الغريب الانتاج المستورد من البر الاميركي ، كما حلوا المجلس على إقرار القانون الآخر الصادر عام ١٧٣٩ ، الذي اجاز لهم بالرغم من المبادئ الاساسية للاقتصاد التجاري ، نقل السكر، رأساً الى اوروبا . الا ان الاميركيين من سكان انكلترا الجديدة ، كانوا بحاجة الى كل جزر الانتيل كسوق طبيعية لهم اذ كانت تضم مجتمعة من السكان ما يوازي عدد سكان اميركا الشمالية . فقد كانوا بحاجة للحرية التجارية التامة او ضم جزر الانتيل الفرنسية .

ولذا اصبحت هذه الجزر فريسة عراك هائل تمثل في هذا التصادم الدائم الذي قام بين المعمرين والقراصنة والمهربين من كلا الدولتين المتنافستين ، كما راحت فريسة المطامع الدولية ، اذ ان « هذه الجزر » والنشاط التجاري الذي تقوم به كانت سبباً من هذه الاسباب لهذا العراك

الجبار بين الفرنسيين والانكليز ، مثلاً بأوضح مجاليد ، بحرب خلافة النمسا وحرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأميركي . فقد اعتبر الفرنسيون معاهدة ١٧٦٣ ، نصراً كبيراً لهم ، اذ بالرغم من تنازلهم عمالهم من حقوق عينية على جزر تباغو وسانت كروا وغرناطة وغرينادين وسان فذسان ، استطاعوا ان يحتفظوا ببحير زبنهم من جزائر الانتيل ، كما عرفوا ان يحتفظوا بجزيرة غوريه الصغيرة في عرض السنغال وجعلها قاعدة لتجارة الرق عندهم . وقد شعر الانكليز بمرارة الخيبة المحرقة ، وجاشت نفوسهم بالحقد ضد الوزير «بوت» احد وزراء الملك جورج الثالث ، لفشله في المفاوضات . ونزولاً عند مطلب الرأي العام وارتياحاً منه للدور الذي تلعبه المستعمرات ، راح الملك لويس السادس عشر الذي تغلب على الانكليز ، يطالب عام ١٧٨٣ ، في معاهدة فرساي ، باستزجاج ما كان له من حقوق على تباغو وسانت لوسي ، والمراكز التجارية التي كانت لفرنسا في السنغال .

كانت «الجزر» تخضع مبدئياً لنظام الميثاق الاستعماري ، الا ان الفنى الذي رتب فيه المزارعون ، والأهمية المتزايدة السقي كانت لمزدرعاتهم في المجال التجاري ، ارغمت الدول على القبول بمدة تنازلات . فالجزر الانكليزية نعمت بهيات تمثيلية . اما الفرنسية منها في الانتيل فقد قامت فيها مجالس راحت تتافع عن مصالح المزارعين الذين كانوا موضوع رعاية الحكام ايضاً . وكان المعمرون يتذمرون من المراقيل السقي تقف حائلاً دون نشاطهم الجهم ، ولا سيما الفرنسيون ، وظهر بينهم حوالي عام ١٨٠٩ ، تيار قوي يطالب البلد الام ، بالاستقلال الاداري ، حتى ان بعض الفرنسيين منهم ذهبوا للطالبة بالانفصال .

الفصل الرابع

أميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية حتى عام ١٧٦٣

وجد المغمرون الفرنسيون والانكليز انفسهم ، في اميركا الشمالية ، وسط البلاد وسكانها خضم من الغابات البكر والاحراج الظليلة تفتش رقعة من الارض تساوي ربع مساحة اوروبا . فقد حاول البيض إعمار بعض القطاعات منها وهزق الارض واحياها . فعلى مقربة من سيف البحر ، لم يعد يوجد ما يذكر بوجود الغابات في المنطقة ، سوى واحات حرجية ، تقوم هنا وهناك . اما في المدى الأبعد ، فالانفراجات الحرجية ، كانت تدق وتسترق بحيث تبدو وكأنها رقاغ غرباء او صفراء في بحر متموج من الخضرة السندسية . فعلى مقربة من نهر الميسسي ، خلفت الحرائق الهائلة الأكل التي اضرها الهنود وراهم ، صحارى شاسعة تكسوها الاعشاب الظليلة ، لتترك بعد حين المجال لسباسب لا حد لها تمتد مدى البصر . وباستثناء بعض المغامرين من رجال الكشف ، وبعض تجار الفراء ، كانت عملية الاستعمار والاستغلال تقوم على استثمار بعض الاحراج لما فيها من خشب للبناء او للسفن .

في هذه الغلوات عاشت اقوام الهنود من عرق مغولي ، صفر الجلد نافرو الوجنات ، سود الشعر على نعومة عند الملمس . عددهم قليل لا يتجاوز ٤٠٠ الف كما هو مرجح بالنظر لنمط العيش الذي كانوا عليه يتأرجحون بين نصف بدائة ونصف حضر ، يعولون على نظام زراعي ، قوامه زراعة الذرة وقطاف الثمار البرية ، وصيد الوعول والغزلان وريم الفلا ، والمز البري . وفي سبيل القنص والصيد كانوا يتخلون ، في فصلي الربيع والخريف عن قراهم الخشبية ليعيشوا تحت الخيام . نظامهم الاجتماعي فوضي ، اذ كانوا يؤلفون احلافاً جذورها واحدة تتوزع الى قبائل تجمعا العصبية . ولكل قبيلة مجلس اختيارية يضم رؤساء القبيلة وقواد الحرب . وقد الفت قبائل الايروكوا الضاربة الى الشرق من بحيرات ايريه واونتاريو مع قبائل الكريك في الاباما ، المحادات فيما بينها ، ملاطها الضام مجلس من الساشم Sachems ، الا انه لم يكن للاتحاد اي وسيلة للضغط على القبيلة ولا للقبيلة اي تأثير على الحلف ، ولا للحلف اي تأثير على الافراد . وكان في مقدور اي هندي ان يقوم مع زمرة من اصدقائه بعمليات غزو وسلب ، وهي

عمليات كثيرة ما اضطرتهم اليها وحلّتهم عليها قلة الدراية وعدم المداراة . والمعاهدات كثيرة ما انتهكت . وكانت الحرب قائمة باستمرار بين الهنود وبين الاوروبيين .

فقد كانت حروبهم ضد الاوروبيين تنتهي بالفشل والهزيمة فيضطرون للتراجع والانسحاب . فقد ثقفوا استعمال الاسلحة النارية الا انهم لم يستمرئوا قط ما تم للبيض من تقنية زراعية . وقد عرف البيض كيف يستغلون رقعة صغيرة من الارض تسهل عليهم حمايتها والدفاع عنها ويحصلون منها محصولاً طيباً من المواد الغذائية تكفيهم مؤونة السنة بكاملها . اما الهنود فكانوا يحتاجون الى اراضٍ شاسعة تسرح فيها الماشية المعدة للذبيح . وكل تقادم او تطور يحقده الاوروبيون كان يجر معه القضاء على القنص والصيد مما يضطر الهنود معه للانكفاء والتراجع الى الوراثة فتادياً منهم لغائلة الموت جوعاً . وكان الهنود المتحدون فيما بينهم يستغلون ما بين الهنود من انقسامات ، فيقيمونهم بعضاً على بعض . ومن سوء حظ الهنود ان يكون العنصر الانكولوجي سكوتي هو العنصر الغلاب في اميركا الشمالية . فالفرنسيون عاملوا الهنود بالحسن ، وحاولوا تفهمهم والتفاهم معهم ، وتربيتهم وتمثيلهم . وقد سن الاسبان قوانين ترمي للحفاظ عليهم . اما الانكولوجيون فقد كانوا هنا ، كما في كل محل آخر ، عرقين بالفطرة ان لم يكونوا من حيث المبدأ . فقد حملوا كرهاً شديداً لسكان البلاد الاصليين ونزعوا دوماً للقضاء عليهم . واذا كانوا على البروتستانتية فقد راحوا يبررون تصرفهم هذا منهم وسلوكهم وفقاً لنصوص التوراة وآيات الكتاب المقدس : فالفلة قد اقطعهم هذه الارض . ولذا تربت عليهم ان يعاملوا سكان البلاد الاصليين كما عامل المبرانيون الكنعانيين في فلسطين .

تألفت المستعمرات الفرنسية في اميركا الشمالية ، قبل كل شيء ، من المستعمرات الفرنسية
فرنسا الجديدة التي تشكلت اصلاً ، من كندا . وقد اقتطعت منها معاهدة اوتريخت ، قسماً كبيراً ضم اكاديا وجزيرة الارض الجديدة وخليج هدسون . وهكذا اقتصرت فرنسا الجديدة على العناصر الثلاثة التالية : امها وادي نهر سانت لوران الذي يكتظ بالسكان بسرعة كبيرة عن طريق التوالد والهجرة ، اذ ارتفع عددهم من ١٩٤٠٠٠ نسمة ، عام ١٧١٤ ، الى ٦٦٤٠٠٠ ، عام ١٧٦٣ . وقد ألفوا من بينهم اشبه ما يكون بـ « قرية » جبارة اعتمدت في معاشها على الزراعة وتربية الماشية . ولم يزد عدد السكان في مدينة كويبيك ، اذ ذلك ، على ٨٠٠٠ نسمة ، كما ان عدد سكان مونتريال بلغ ، في ذلك الحين ٤٥٠٠ نسمة . ثم يأتي ما سلم من اجزاء اكاديا القديمة : جزيرة سان - جان ، وجزيرة رأس بریطانيا يعمل فيها من ١٠ - ١٢ الف معمر ، واخيراً عدد من الارشاليات التي يشرف عليها اليسوعيون وبعض المراكز التابعة لتجار الفراء ، وُفقوا في اختيار مواقعها عند نقاط العبور والمخاضات بحيث اصبحت اليوم مدناً كبيرة عامرة ، منها فرونتناك وليفارا وديترويت وصولت - سانت - ماري وماكينياك ، ولاوانت (دولوث) .

ولم يكن اهتمام فرنسا كبيراً بهذه البلدان ذات المحاصيل والمنتجات الطبيعية الشبيهة

بالحاصل الفرنسية من وجوه عدة ، باستثناء القراء منها . ولم يكن ليرسو في مرفأ كوبيك اكثر من ٣٠ سفينة طوال السنة بكاملها . وكان يمضي وقت طويل على الموظفين والجنود العاملين في هذه المستعمرة قبل ان يعودوا الى الوطن الأم . وكان عدد كبير بينهم يتزوج ويشترى له بعض الاراضي يعمل في احياؤها واستثمارها . والسلطات الادارية كانت تحاول ، وهي في عزلتها ، الوصول حيباً الى قيام وضع من التفاهم بينها وبين السكان حيث ران على الجميع جو من التفاهم والمشاركة ، يشد من ازهم كونهم جميعاً على الدين الكاثوليكي المتأصل منهم بفضل كهنة غيورين . وعلى هذا النحو ، نعمت فرنسا الجديدة بشيء من الاستقلال الاداري . وكان الحكام يتدسون عالياً بما أنسوا بينهم من المحبة رائدة جميع السكان ، كما كانوا يشنون على ما هم عليه من دماعة الاخلاق ونمط العيش الرضي ، وكثرة المواليد في العائلة ، والقناعة وما هم عليه من طيب استعداد للتعاون ومن نشاط لا يعرف الملل .

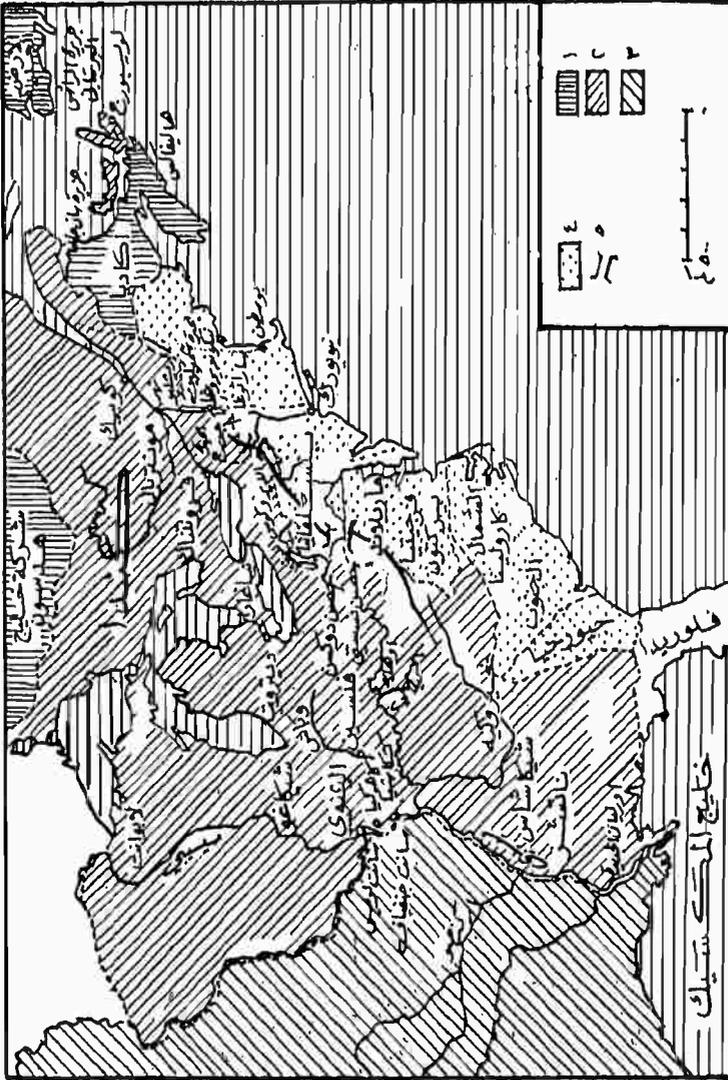
اما في حوض نهر المسيسي ، فقد كانت مقاطعة ألينبوي او البلاد العليا مرتبطة ، منذ عام ١٧١٧ ، بمقاطعة لويزيانا التي كان يدير احوالها ، في بداية الأمر ، شركات تجارية ، ثم لم تلبث ان اصبحت ، منذ عام ١٧٣٣ ، مستعمرة ملكية . وقد تم استكشاف هذه البلاد ويُدعى باستثمارها على يد مرسلين وتجار هبطوا اليها من كندا . ولم يبق فيها سوى بعض قرى معزولة ، قليلة السكان ، منها شيكاغو وحصن سان لويس (بيوريا) وكاهوكيا وكسكاسيا وسانت جنيفياف واورليان الجديدة (١٧١٨) . وقد تألف عدد السكان في مقاطعة ألينبوي من ٤٠٠ من البيض ، ومن بضع مئات من ارقاء الزنج . وعدت لويزيانا ٢٥٠٠ من البيض ، و ٤٥٠٠ من الزنج العبيد . فالى جانب تجارة القراء ، كانت مقاطعة ألينبوي تغل للقمح لتموين مقاطعة لويزيانا التي كانت تعطي بدورها الحشب والماشية والقطران الذي يصدّر لجزر الايتيل ، والأرز والنيبة والتبغ يصدر للوطن الام . وكانت الحكومة الملكية والرأي العام يملقان اهمية كبيرة على مقاطعة لويزيانا التي كانت تفتقر جذرياً للمعمرين . وهكذا نرى ان الممتلكات الفرنسية ، في اميركا الشمالية ، ألفت لوحدها ، امبراطورية واسعة الاطراف ، قليلة السكان .

شابهت المستعمرات الانكليزية ، المستعمرات الفرنسية من حيث تباعدها عن بعضها البعض وبما جاشت به من نزعة نحو الاستقلال الاداري . الا انها تميزت عنها بعدد اكبر من السكان ، وبإنتاج أوفر وبمركبة تجارية انشط بكثير ، وبالديانة الغالبة على الاهلين وهي البروتستانتية . غذت هذه المستعمرات حركة من الهجرة الواسعة . فقد بلغ عدد سكان هذه المستعمرات عام ١٧٠٠ نحواً من ٢٥٥٠٠٠٠ نسمة ، ارتفع عددهم ، عام ١٧٦٣ ، الى ١٦٦٤٠٠٠٠ نسمة . فقد تكاثر عدد الزنج العبيد في الجنوب لتأمين اليد العاملة للمزروعات . اما في الشمال ، فقد كان عددهم قليلاً ، حيث عملوا على الاخص في الاعمال المنزلية .

تنوعت هذه المستعمرات كثيراً فيما بينها . فقد كانت كل واحدة تنوع المستعمرات الانكليزية منها مستقلة تماماً عن الأخرى ، وتقف الواحدة من الثانية موقف اللامبالاة ، ان لم نقل موقفاً معادياً . وكان بعضها يرفض شد أزر البعض الآخر في حالة قيام حرب ، وتفرض الواحدة رسوماً جمركية في وجه تجارة الأخرى . وكان يباعد أحياناً بين الواحدة والأخرى مسافات شاسعة وصعوبة المواصلات مما يمرض الركاب والمسافرين للمخاطر . فالمسافة بين مقاطعة ماين ، في الشمال وجيورجيا في الجنوب ، تبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر ، أي المسافة القائمة بين باريس ومدريد . فالطرق والكباري والبحيرات كانت نادرة ، وكان التقدم الى الامام يتم ببطء كلي على هذه المرات الضيقة والشعاب القائمة بين الغابات الظليلة ، حيث لا معالم غير ضربة فأس على جذوع الشجر ، يرى المسافر نفسه مهدداً بمخطر الضياع أو الفرق في النهر أو البحيرة ، أو التفتت في المستنقعات . ان خبر اعلان استقلال الولايات المتحدة ، عام ١٧٧٦ اقتضى له ٢٩ يوماً ليصل من فيلادلفيا الى شارلستن ، وهي ذات المسافة التي يقطعها المسافر بين فيلادلفيا وباريس .

واختلفت بما باعد بينها من فوارق طبيعية وانماط المعيشة وغير ذلك من المنافع والمصالح والمشارب والتقاليد والاعراف . فالجنوب الذي تألف من مقاطعات ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ، ثم من جيورجيا ، فيما بعد ، بلغ عدد سكانه ، عام ١٧٠٠ ، نحو ١٠٨٠٠٠٠ ، فاذا بهذا العدد يرتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٧٣٥٠٠٠٠ ، بينهم ٢٨١٠٠٠٠ من الزوج ، وتوزع على الاجمال ، الى ممتلكات واسعة بلغت أحياناً ٢٠٠٠ هكتار في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، كما بلغت إحدى هذه الممتلكات ، في فرجينيا ٧٠٠٠٠٠ هكتار . اما زراعتهم فقامت على اساس تجاري ضمت : التبغ في ماريلاند وفرجينيا ، والأرز والنييلة في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، والتبغ والأرز وتربية الماشية والحشب في كارولينا الشمالية . وتصرف المزارعون تصرف الاسباد المستبدين في مزروعاتهم ، كانت تحت امرتهم قوة من الميليشيا ويقضون بين الناس كحكام صلح ، وبصوتون على مشاريع القوانين كنواب . فقد كانوا اجمالاً على جانب لائق من الثقافة ، من خريجي الجامعات الانكليزية ، فأنشأوا لهم في منازلهم مكاتب عامرة .

اما في الشمال او انكلترا الجديدة (نيوهامشير ، ماستشوستس - ماين وروود ايلاندو كونكتيكيت) الذي عد ٩٤٠٠٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ ثم ارتفع هذا العدد ، عام ١٧٦٣ ، الى ٧٩٥٠٠٠٠ نسمة بينهم ١٧٠٠٠٠ من الزوج ، عام ١٧٦٣ ، فقد قامت فيه مجتمعات صغيرة ضمت كل منها عدداً من صغار الملاكين . فقد عوتوا في معاشهم على زراعات مختلفة كالذرة والقمح والخضروات وحدائق التفاح وتربية الماشية . وقد تمهدوا بشرفهم الا يشتروا اية كمية من الخارج ، مها صغرت . حلهم فقر التربة عندهم على الاخذ بأسباب الصناعة والتجارة فتوزعت نشاطاتهم بين السفن المعدة للتصدير الى انكلترا ناقلة اليها الحشب والسلك ، واللحوم المقددة ، نقل المواد



خريطة ٩ - الفرنسيون والإنكليز في أمريكا الشمالية
 ١ - ممتلكات تحلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧١٤ ، ٢ - ممتلكات تحلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧٦٣ ، ٣ - ممتلكات تحلت عنها فرنسا لاسبانيا عام ١٧٦٣ ، ٤ - مستعمرات انكليزية ، ٥ - ممرات ومواصلات بين الشرق والغرب .

المصنوعة في انكلترا ، الى جزر الانتيل ، واستيراد عصير الدبس وثقالة القصب من هذه الجزر ومن المقاطعات الجنوبية ، فيخضعونه لعمليات تخمير معقدة لصنع مشروب الروم الذي تجري مبادلتة في الغينية بالزنج الذين يباعون عبيداً أرقساء في الجنوب وفي الانتيل . وكان معظم السكان في هذه المقاطعة على مذهب البيورتن المغالين في العقيدة والمتعصبين ، الذين عُرف عنهم انهم لا يصنعون اجتماعهم نهار السبت لثلاثتختمر يوم الاحد . اما التعليم عندهم فكان الزامياً بحيث يستطيع المرء قراءة التوراة ، مع ان عدداً كبيراً يكاد لا يعرف ان يوقع امضاءه . ومع ذلك ، فقد قامت جامعة لهم ، في هارفرد (١٦٣٦) ، وبمسد ذلك جامعة اخرى في يال . وكان الجدل السياسي ضارباً أظنابه بين الجامعات ، والقساوسة يجيشون بينهم بأفكار راديكالية ، هذه الافكار التي قال بها وعلم كل من لوك ومونتسكيو وبلاكستون الذين قام لهم في وسط الجماعة تلاميذ ومريدون نشيطون . وكانت مدينة بوسطن التي بلغ عدد سكانها اذ ذاك ، ٢٠،٤٠٠ نسمة ، مركزاً فكرياً وثقافياً هاماً .

اما القسم الأوسط من هذه المستعمرات ، فقد تألف من نيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا وديلاوير . وبلغ عدد السكان في هذه المقاطعات ٥٣٤،٠٠٠ عام ١٧٠٠ وهو عدد ارتفع عام ١٧٦٣ الى ٤١٠،٠٠٠ ، بينهم ٢٩،٠٠٠ من الزوج . وقد حاز الملاكون بملكات من جميع المقاييس كما ان السكان كانوا خليطاً من جميع الشعوب والمذاهب ، حيث ألف الانكليز أقلية نعمت بالتسامح الديني . اما المدن الرئيسية في هذه المنطقة فأهمها نيويورك حيث كانت تسرح الخنازير وتمرح ، وفيلادلفيا التي كانت أكبر مدينة اذ ذاك ، في اميركا الشمالية والتي امتازت بشوارعها وانتظام مساكنها . وهذه المنطقة التي نشطت فيها الصناعات الخشبية واشتهرت بمحاصيل الحبوب ولا سيما القمح والطحين وتنظيم رحلات قوافل السفن باتجاه جزر الانتيل وأوروبا الجنوبية ، ازدهرت فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

جمعت بين هذه المستعمرات مصالح مشتركة متماثلة ، فقد وحدة هذه المستعمرات تشابهت من وجهة وحدة الرأي العام بحيث استطاعت الصمود في وجه الحكومة الانكليزية فيما بينها . فقد تنوعت اوضاعها وتوزعت الى ثلاثة اشكال او ثلاثة اوضاع استثمارية مختلفة ، هي : مستعمرات ملكية ، ومستعمرات اقطاعية لبعض كبار الملاكين (ماريلاند وبنسلفانيا) ، ومستعمرات اعترفت براءات ملكية خاصة بملكية بعض الشركات لها (كونكتيكت ورود-ايلاند) ، وعاشت كلها في ظل نظام تمثيلي بورجوازي ، اذ كانت تنتخب لها هيئات من ممثلين يقومون بالتصويت والاقتراع على مشاريع القوانين المرروضة . واحتفظت كل منها بحق الانتخاب للملاكين الموسرين من تتوفر فيهم شروط دينية خاصة . اما عدد الناخبين فيها فكان يتراوح بين ٨ - ٩ ٪ حتى ان عددهم في ماستشوستس وكونكتيكت لم يكن ليتجاوز ٢ ٪ وهناك مجلس اعلى مشترك مكلف بالتصويت على مشاريع القوانين لدى القراءة الثانية ، وحاكم عام يسهر على تنفيذ هذه القوانين بعد اقرارها .

تمركزت القضايا السياسية في مقاطعتي كونكتيكت وروود-ايلاند حول استياء الذين حُرموا من حق التصويت وحردهم . تمتعت هذه المستعمرات باستقلالها الاداري الواسع : فمثلو الشعب يقرعون بكل حرية ، على مشاريع القوانين ، ويختارون مجالسهم الخاصة وحاكمهم . اما في ماريلاند وبنسلفانيا فالمشكلة تمركزت حول المجلس والحاكم اللذين كان يقوم باختيارها وتميينها ، اصحاب الاملاك اذ ان القوانين لم تكن خاضعة لحق الفيتو . اما في المستعمرات الملكية الهان ، فالمعمرون كانوا في نزاع دائم مع المجلس والحاكم والملك . فالحاكم كان له حق الفيتو او حق رفض القوانين ، وفي حال اقراره لها ، لم تكن قابلة للتنفيذ الا بعد مصادقة المجلس الخاص لها . فالمعمرون يعتبرون انفسهم انهم اخبر الناس بنوع القوانين التي تصلح لهم ، فكانوا يفرضون ارادتهم على الحاكم ، بتهديدهم له الامتناع عن فرض الرسوم والضرائب التي يستدعيها الدفاع والادارة او اقرار الرسوم التي تتعلق بمرتبته ، مع ان معدل القوانين التي كان يلغونها لم يكن يتعدى ٥٠٪ . ولذا اخذوا يطالبون بالغاء كل حق بالمراقبة ، والتمتع بحقوق السلطة التشريعية كاملة .

ومن جهة ثانية فقد أخضعت هذه المستعمرات لنظام الاستثناءات . فأخذ مكتب الزراعة والتجارة على عاتقه تحديد نمط الحياة الاقتصادية بتوجيهاته وارشاداته التي تسهل فيما بعد قرارات واحكاماً يصدرها الوزير او مجلس الملك . ان عدداً كبيراً من محاصيل المستعمرات لم يكن يسمح بتصديره الا لانكلترا او الى مستعمرات انكليزية أخرى ، وعلى المعمرين الذين يتسوقون من مستعمرة انكليزية ان يدفعوا رسماً اضافياً هو رسم الاستيراد ، والا كالت عليهم ان يذهبوا من نيويورك الى لندن ليحصلوا على أرز ولاية كارولينا . وقد أستثنى من هذا التدبير ارز كارولينا منذ سنة ١٧٣٠ ، اذ أبيع تصديره رأساً الى البرتغال أو الى اسبانيا . ولا يُسمح باستيراد أية بضاعة او سلعة اجنبية الى المستعمرات ما لم تُشحن الى احد موانئه اذكلترا ثم تُشحن من جديد الى المستعمرة المستوردة . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون جديد فرض على دبس القصب الاجنبي وثقالته رسوماً مائة أو رادعة بينما استيراد القصب من جزر الانتيل لم يكن يفي بالحاجة ، فلا بد والحالة هذه ، من الاعتماد على دبس وعصير جزر الانتيل الفرنسية لصنع مشروب الروم ، الذي كان بمثابة النقد اللازم للمقايضة في اسواق النخاسة . والصناعات على اختلافها اخذت تتطور في الاقسام الوسطى والشالية من البلاد ، منها صناعة النسيج والحياكة ، وقبعات الكستور والحديد الخام ، وكلها مواد استطاعت ، منذ عام ١٧٥١ ، ان تدخل الى انكلترا ، بينما تصدير الغزول والانسجة والقبعات كان محظوراً . وحظر القانون الصادر عام ١٧٥٠ ، على المستعمرات انشاء اي معمل او مصنع للتصفيح او اي مسبك او اي معمل حدادة او معمل نشارة . « فاذا ما خطر لاميركا ان تصنع على ارضها مسباراً واحداً لكانت انكلترا تشعرها في الحال وتتدخل في الأمر بكل ثقلها وبطشها . ولذا كان الاميركيون في غاية الاستياء من هذه التدابير التعسفية ، ولا سيما من كان منهم في الوسط او في الشمال لان

الامر يعينهم مباشرة . فقد كانوا مستائين اكثر منهم متضررين ، لان بعد اعلان هذا المبدأ عالياً ، وتأكيد وجوب التقيد به كانت الحكومة البريطانية كثيراً ما تفض النظر عن المخالفات ، وعن اعمال التهريب التي نشطت في هذا المجال . وقد حرصت على الأخص ، ان يفيد المعمرون ، على نطاق واسع ، من النظام الاقتصادي البريطاني ، هذا النظام الذي هدف الى افراغ الامبراطورية الانكليزية في وحدة تكفي نفسها بنفسها ، اذ كان يترتب على كل عضو او جزء من اعضاء هذه الامبراطورية وأجزائها ان يعطي او ينتج ما هو مهمته بالأكثر لانتاجه . وكانت الدولة تدفع مكافآت لرجال الصناعة عن كثير من الاصناف التي يصنعونها او يصدرونها الى المستعمرات . وكان سعرها يخفض المستهلكين فيها . فألف هذا التدبير مجد ذاته ، عملية تسليم واعتبر بمثابة توفير رأس مال . وهكذا كانت منتوجات المستعمرات موضوع احتكار في الاسواق التجارية البريطانية . فالمستهلك الانكليزي كان ملازماً بتدخين التبغ الاميركي واستهلاك السكر الذي تلتجه المستعمرات ، وان يستعمل القير او الزفت الذي تصدره ، وكان يدفع غالباً اثمان هذه السلع لعدم وجود منافس لها . فقانون الملاحة كان في مصلحة بناء السفن في انكلترا الجديدة اكثر منه لبناء السفن في انكلترا ، مع انهم كانوا يبتاعون الخشب فيها بأسعار مرتفعة . فالتقييدات التي نص عليها قانون عام ١٧٥٠ جاءت مقابل السماح بادخال عتلات الحديد الاميركي الى البلاد معفاة من كل رسم ، بينما الحديد الاسويجي كانت تفرض عليه رسوم عالية منقورة . ولذا فهيجان الرأي العام الاميركي وتذمره ليس ما يبرره او يزيكه . فقد قام على اساس من عدم تفهم الامور على وجهها الصحيح وعلى جانب كبير من حب الذات والاعتداد القومي والفردية الشخصية .

وهذه المشكلات السياسية والقضايا الاقتصادية التي نشبت بين انكلترا ومستعمراتها الاميركية طبعها نزعة ظاهرة تركزت حول تأمين وحدة المستعمرات ، كما حملت في طياتها وبين ثناياها بذور الانفصال عنها . وزادت هذه الامور حدة خلال القرن مع التطور الاقتصادي الذي اخذت المستعمرات باسبابه ، ومع النجاح العظيم الذي حققته في الداخل ، والصمود في وجه الفرنسيين في هذا النزاع الحاد الذي نشب بين الجانبين المتجاورين .

أهلت المستعمرات الاميركية بسرعة وتعمرت بالسكان ، قبل عام ١٧٦٣ ، وذلك بفضل ما اتمال عليها من سيل لا ينقطع من المهاجرين الاوروبيين بعد ان اجتذبتهم اخبار الازدهار المادي الذي ينعم به الاهلوت ، واغرام رخص ثمن الاراضي وقلة تكاليف الحياة ، وارتفاع اجور العمال ، وسهولة الانضمام الى الطائفة الدينية التي يرغب بالانضواء اليها من قال بمقاتلتها . فقد جاؤوا باعداد قليلة من انكلترا نفسها ، وباعداد أضخم من مقاطعة الاولستر اثر نزوح السكوتلانديين من ابناء الكنيسة المشيخية ، وتركهم البلاد بعد استفحال ازمة اللسيج الحادة التي نشبت اثر صدور القوانين الخاصة بحماية التجارة . كذلك جاءت اعداد كثيفة من المانيا الريفانية حيث

حركة الاسكان في
المستعمرات حتى سنة ١٧٦٣

جعلت الاضطرابات الدينية ، والحروب والنظام الاقطاعي المسيطر على البلاد ، الحياة صعبة قاسية ، والعيش عسيراً في وجه عدد كبير من الفلاحين . وقامت في نواح عديدة مكاتب تجنيس تمهدت الى دعاة جهزتهم ببيانات جذابة ، مغرية ، حركت في قلوب الناس الشوق الى الاغتراب والهجرة . الا انه كان لا بد للراغبين في الزواج والسفر ان تتوفر لهم نفقات الطريق ورأس مال صغير يساعدهم على السكن والاستقرار بعد وصولهم سالمين الى حيث يقصدون . فالفقراء المدممون منهم وقّعوا تمهيدات اشترطت عليهم شروطاً معينة قبلوا بها وتمهدوا بالنزول عند مقتضياتها . فكان قبطان السفينة التي تنقلهم يودعهم عند وصولهم الى الشواطئ الاميركية ، في نزل خاص ، فيأتي المعمر الراغب في الحصول على اليد العاملة ويدفع للقبطان مبلغاً من المال يزيد مرتين او ثلاث مرات على تكاليف السفر ، ثمناً للعامل الذي وقع عليه الاختيار . فكان هذا يتم له بالعمل في خدمته ثلاث او خمس سنوات ، يتلقى عند انتهاء اجل العقد من رب العمل ، الالبسة والادوات والعدد اللازمة وحيوانات الجر ومبلغاً من المال بحيث يتمكن من ان يعمل لحسابه الخاص معتمداً على نفسه ونشاطه . وهكذا ، بالرغم من رحلة شاقة تستغرق بضعة اسابيع او عدة اشهر ، يعتبر المسافر نفسه محظوظاً ، الى حد بعيد اذا لم تقع عينه في النهار على اكثر من جثتين او ثلاث يذف بها البحارة الى اليم ، ممن يموتون على ظهر السفينة ، اثناء الرحلة لكثرة ما كانت تنص به من الركاب . اضاف الى هذا السيل الجارف ، عدداً من المبعدين او المنفيين يجري ابعادهم الى المستعمرات ، بلغ عددهم ٥٠ الفاً بين ١٧١٧ - ١٧٧٩ ، حكم عليهم بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ، بينهم بعض رجال السياسة الذين رؤي التخلص من مضايقاتهم ، وبعض المحكوم عليهم ينجح من قبل القضاء الذي كان يأخذ الناس بالشدّة ، فاذا بهم بعد لأي من الزمن يصبحون من اقوام المواطنين واصلحهم اخلاقاً ونشاطاً للعمل في البلاد .

وعند انتهاء اجل عقود هؤلاء النازحين عن ديارهم ، والتحرر من ارتباطاتهم ، كان كثيرون منهم يتجهون غرباً سعيماً وراء اراضٍ حرة تباع لهم بانخفاض الاسعار او يستملكونها بمجرد وضع اليد ، يسرون في خطى تجار الغراء . ومعظم هؤلاء الرواد من السكوتلانديين ، يبنون لهم اكواخاً من جذوع الشجر ، يمزقون الارض ويحيونها ثم يزرعونها فاهجين في عيشهم نهج الهنود يقتاتون من بعض نتاج الارض مما يزرعون او مما يقعون عليه من صيد او قنص ، ثم لا يلبثون ان يتخلوا عن ارضهم لراغب فيها طارىء ، وينزحون هم الى ابعد ، باتجاه الغرب . وكثيراً ما حل محلهم أسر ومعمرون احسن عدة وعتاداً ، معظمهم من الالمان ، فلا تغم ان ترتفع في الارض الحدائق والمغروسات وتلشأ فيها المزارع ، وتأخذ رقاع الغابات بالتقلص والضمور حتى تصبح معالمها واحة أو جزيرة في السهل المنبسط على مدى البصر . وعندما تعترض سيرهم مساقط المياه والشلالات يتحول هؤلاء الرواد الى بنسلفانيا ويتغلبون بين ثناياها وهبطون اودية الابالاش ويقيمون لهم المنازل في رؤوس الوديان في فرجينيا او كارولينا . وهكذا قامت انشاءات على

الأراضي المرتفعة كما قام منها العديد على السواحل ، في هذا الغرب الديو قراطي ، حيث الرجل الموفور الكرامة الذي يتمتع بالشهرة الواسعة والجاه العريض ، هو من يقطع بفأسه أكثر من غيره من الأشجار في سبيل « احياء الأرض وتعميرها » ، والذي كان في مقدوره ان يسلم جلد رأس عدد من الهنود ، بمكس المنطقة الشرقية التي كانت بورجوازية .

فمنذ سنة ١٧٣٠ راح المزارعون على سواحل فرجينيا من عائلات لي Lee وواشنطن ينشؤون لهم شركة واستحصلوا على ارض مساحتها ٢٠٠،٠٠٠ ايكر (٨٠،٤٠٠٠ هكتار) في وادي اومايو ، لتوطين بعض المعمرين هنالك . وفي سنة ١٧٤٩ ، وعدت سلطات فرجينيا شركة اخرى باسم شركة : لويال لاند ، بان تضع تحت تصرفها اراضي مساحتها ٨٠٠،٠٠٠ ايكر (٣٢٣٠٠٠ هكتار) تقع الى الغرب من جبال أليغاني .

في هذه الحركة من التوسع والانتشار يقوم بها تجار الفراء والرواد المستكشفون واصحاب رؤوس الاموال ، اصطدم هؤلاء بالهنود والاسبان والفرنسيين . فقد قام بينهم وبين الهنود صراع دائم كانت معه المستعمرات تقدم مكافأة لمن يأتي برأس هندي . ووقعت بالفعل حروب دامية كالتي اصطلى بناها اقوام تشيروكي في جيورجيا او تلك التي وقعت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، سنة ١٧٥٩ و ١٧٦١ . ونال جيمس أوغلتورب ، عام ١٧٣٢ امتيازاً بإنشاء مستعمرة له في جيورجيا الى الجنوب من سفانا مزاحمة منه لاسبان في فلوريدا ، مما أدى الى سلسلة من الغزوات والاصطدامات بينهم وبين الاميركيين اضطر معها الاسبان للتنازل عن فلوريدا للانكليز ، عام ١٧٦٣ . ولكن النزاع الطويل هو الذي قام بين الانكليز وبين الفرنسيين .

ضربت المستعمرات الفرنسية نطاقاً محكماً حول المستعمرات النزاع بين الفرنسيين والانكليز ، واصبح الفرنسيون ، بعد عام ١٧١٥ ، في وضع يسيطرون معه على تجارة الفراء . فالتجار والمعمرون الانكليز هم الذين باشروا الحرب اولاً ثم جروا اليها الهنود واخيراً ارغموا الحكومات على الدخول فيها والانغماس في ميدانها على غير رضى منها تقريباً .

بالرغم من معاهدة اوترينخت احتفظ الفرنسيون بتفوقهم في تجارة الفراء ، بفضل رحاليهم وروادهم المستكشفين . فالرحلات التي قام بها فيرنديري ، باتجاه الشمال الغربي ، اتاحت له الاتصال المباشر بالقبائل التي تقوم بعملية الصيد وتمكنوا من تحويل تجارة الفراء نحو مونتريال . والرحلات الاستكشافية التي قام بها سان - دنيس ، بين ١٧١٤ - ١٧١٧ ، فاجتاز معها مقاطعة التكنساس وبلغ منها نهر الريبو غرانده ، والرحلات الاخرى التي قام بها لاهارب ، فصعدت بعيداً في النهر الاحمر (١٧١٩ - ١٧٢٠) والاركنسو (١٧٢٢) ، وهذه الرحلات الاخرى التي قام بها بورمون ، لم تكن من استكشاف الكنساس (١٧٢٣) ، وعمليات الاستكشاف التي قام بها الأخوة ماليه اللذان انطلقا من نهر ميسوري واجتازا نهر اسكا والكنساس والكولورادو (١٧٣٩) ، كل

هذه الرحلات وعمليات الاستكشاف الواسعة النطاق التي رافقتها ، ساعدت على ازدهار تجارة الفراء في اورليان الجديدة . وبفضل تفوق المواصلات البرية ، تم السبق للتجار الفرنسيين على التجار الاميركيين في ألباني ونيويورك ، مع ان هؤلاء كانوا يحصلون على البضائع الانكليزية بشروط ٥٠٪ افضل ويستخدمون نهر الهدسون الذي كان حراً من الجليد طوال السنة . ومن جهة اخرى ، وبالرغم من البند الخامس عشر من معاهدة اوترخت التي اعطت الجنسية الانكليزية لاقوام الايروكوا ، انتشر الكنديون في المقاطعات الواقعة الى الجنوب من بحيرات اونتاريو وايريه وسان - لوران ، باتجاه خط مقسم المياه بين البحيرات الكبرى والمحيط الاطلسي . وقد اصطدم الرواد البروتستانت القادمون من انكلترا الجديدة في تقدمهم ، بالكنديين الكاثوليك ، فنظروا اليهم نظرة المبرانيين الى العمالقة والمدانين المستوحيين عندهم للذبح والافناء ، كالفنود مثلا بمثل .

ولذا نشبت الحرب بين الجانبين واحتدمت بينهم بالرغم من رغبة الحكومتين بالمحافظة على السلام . ونال التجار الانكليز ، عام ١٧٢٧ ، من قبائل الايروكوا ، السماح لهم بانشاء حصن في أوسويغو على بحيرة اونتاريو ، ومنه اخذوا ينطلقون غرباً ويشمون عن طريق الراهابو . ولكي يوقفهم الفرنسيون عند حدهم ويحولوا دون تقدمهم ، راح الفرنسيون يبنون حصن فنسين على نهر الواباش ، كما راح تجار نيويورك وبنسلفانيا ، ينقلون عن طريق الايروكوا ، الاسلحة الى اقوام الينار في مقاطعة الفسكنسين والالينوى وحرصوم على الحرب ضد الفرنسيين ، وهي حرب استمرت حتى سنة ١٧٣٠ . وتقدم تجار كارولينا حتى الاركنسو ، وحرصوا عام ١٧٢٩ ، قبائل الناتشز على الثورة ضد الفرنسيين . كذلك عملوا على تسليح اقوام شيكاشا وعلى تنظيمهم وتدريبهم ، ثم دفعوا بهم ، عام ١٧٣٦ ، الى مهاجمة القوافل الفرنسية التي كانت تسير ونهر المسيسيبي .

واثناء حرب خلافة النمسا ، احتل التطوعة الانكليز ، في انكلترا الجديدة ، مدينة لويسبورغ (١٧٤٥) التي اعادتها الحكومة الانكليزية ، الى الفرنسيين مقابل مدينة مدراس ، في الهند ، مما اثار حفيظة سكان بوسطن واحتجاجاتهم . وكان الانكليز خلال الحرب مسيطرين على البحار ، فلم يصل الفرنسيين سوى النزر النزر من البضائع ، كما ان اسعار الحاجيات والسلع على اختلافها ارتفعت كثيراً بحيث بلغت ١٥٠٪ ، واستطاع تجار بنسلفانيا ان يكسبوا ، الى جانبهم ، القبائل الهندية وان يؤسسوا لهم مدينة لفتاون ، الى الجنوب من بتسبورغ ، وحصن بيكاولاتي ، الى الجنوب الغربي من بحيرة ايريه اللذين اصبحا مركزين هامين للتجارة في تلك النواحي .

فالصلح الذي عقده عام ١٧٤٨ ، في اكس لا شابيل ، لم يغير شيئاً ولم يوقف شيئاً . وحافظ التجار الانكليز على مواقفهم . واستمر آل واشنطن وآل لي Lee ، في محاولاتهم ومشاريهم

الاستثمارية لوادي الأواهيو ، وراح انكلوسكسون هالفكس التي انشئت عام ١٧٤٠ مهاجرون درنما نتيجة ، سكان اكاديا، عام ١٧٥٠ . وبتحريض من حاكم بوسطن راح الممرورون الانكليز ، في انكلترا الجديدة ، يتقدمون من خط مقسم المياه حيث اصطدموا بخطوط الدفاع الكندية وراحوا يتحصنون في مراكزهم الامامية .

وقد اوجس الحاكم الفرنسي في كندا السيد لاغارسونير خيفة من ان تقطع اتصالات فرنسا الجديدة مع مقاطعة لويزيانا . فجرد حملة فرنسية استرجعت الأواهيو، ودكت عام ١٧٥٢ ، حصن بيكاولاني . وراح خلفه الحاكم دو كسن ينشئ خطاً من القلاع والحصون ، تأميناً لوصول كندا بالأواهيو . وفي سنة ١٧٥٣ ، دفع الممرورون في فرجينيا ، الحاكم على انشاء حصن لهم في الموقع الذي تقوم عليه مدينة بتسبورغ ، عند تشعب نهر الأواهيو للملقب : «الباب الى الغرب» . فاستولى عليه الكنديون ودكوه الى الارض وبنوا مكانه حصناً كبيراً باسم دو كسن واذ ذلك ، نفذ حاكم فرجينيا كتيبة من المشاة بقيادة احد كبار المساهمين بشركة الأواهيو ، هو جورج واشنطن . وفي ظروف غامضة ، مبهمة ، وقع قتيلاً قائد الكتيبة الفرنسية جومونفيل الذي كان متوجهاً بصفته مندوباً ممثلاً لحكومته . واضطر واشنطنون للالتجاء الى قلعة ارثيل بناها ما عرفت باسم « الحصن المرتجل » ، واستطاع الفرنسيون من ارغامه على الاستسلام بعد ذلك بقليل في ٢٠ تموز ١٧٥٤ .

اجتمع ممثلو الممرورين الانكليز في مدينة الباني ، في شهر حزيران ، الا انهم لم يتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم . ولذا قرروا الاتصال بالبلد الام . وفي تلك الاثناء انهزم الجيش الانكليزي وجيش الميليشيا التابع لفرجينيا ، شر هزيمة امام حصن دو كسن ، وفي ٩ تموز ١٧٥٥ ، وبفضل هذا النصر عاد الهنود الى تحالفهم مع الفرنسيين . وراح جيش فرنسي يسير باتجاه الباني ونيويورك ، متبعاً في سيره الوادي الجليدي التكويني الكبير الذي يسير فيه مجرى نهر ريشليو ، والذي تقع فيه بحيرة تشامبلين وجورج ، الا انه انهزم عند بحيرة جورج ونجح من جهة ثانية ، الهجوم الذي شننه ميليشيا بوسطن على اكاديا . وحدث من جراء ذلك ان تم ابعاد سبعة آلاف من سكان اكاديا الكاثوليك ، وبذلك حيل بين الابناء والديهم ، والازواج وزوجاتهم ، كما تعرضت النساء للضرب العنيف وماتت تحت الضرب عدد منهن . ومن اصل هؤلاء الآلاف السبعة قضى اربعة منهم فريسة البؤس والعناء وتمكن ثلاثة آلاف آخرون من الافلات والفرار والنجاة بانفسهم ، واستهدف بعضهم لسليخ جلدة رؤوسهم اذا ما شاء نكد طالعمهم وحظهم العار ان يعموا من جديد في قبضة الانكليز . واحرقت القرى والساكن ليزيدوا من شقاء الفارين وهلمهم . وصودرت املاكهم واراضيتهم ووزعت بين ممرورين اميركيين . « وهكذا راح هذا للشعب الشهيد فريسة قوة طاغية اظهرت من الغلظة والظاعة وعدم الحياء ما لا يختلف بشيء عما تعرضت به اوروبا وراحت فريسة له في تلك الآونة» .

ومع هذا كله ، كانت فرنسا وانكلترا لا تزالان رسمياً بحالة سلم . الا ان مهاجمة الاميرال

الانكليزي بوسكوين ، في حزيران ١٧٥٥ ، بدون سابق اعلان حرب ، لغافلة من السفن الفرنسية ، في طريقها الى كندا ، ثم مهاجمة كل السفن الفرنسية ، في تشرين الثاني ، افضى الى حرب مكشوفة بين الدولتين ، في كانون الثاني ١٧٥٦ . واذ كانت الحكومة الفرنسية منهكة في الحرب القائمة اذ ذاك ، على القارة الاوروبية ، المعروفة بحرب السنوات السبع ، فقد املت شؤون كندا . وعندما راح مندوب فرنسي كندا يطلب ، عام ١٧٥٩ ، امدادات ليقوي من موقفهم الصعب في الحرب ، رد عليه وزير المستعمرات قائلاً : « عندما تكون النار عند ابواب منزلك ، يا سيدي ، فلا يعود من الجائز التفكير بالاصطبلات » . اما التفكير الانكليزي فكان على عكس ذلك تماماً . اذ تصبغ حرب المستعمرات في نظرهم ، هي الساحة الاولى والجال الرئيسي لها ، وتسمي مشروعاً قومياً وصليبية مقدسة .

ومع ذلك ، وصل في شهر مايو ١٧٥٦ ، القائد الجديد للقوات الفرنسية ، هو المركيز دي مونكالم الذي عُرف بروحه المرحه ، وبعُد تفكيره ، ونشاطه وشجاعته ، وعرف بالتسعة آلاف من الجيش النظامي الفرنسي ويقبضة من جنود الميشيا وبعض الهنود ، ان ينظم صفوفه وان يصمد في وجه القوات الانكليزية التي كانت تفوق قواته كثيراً ، والتي كانت تتلقى الامدادات باستمرار اذ وصلها ١٢٠٠٠ عام ١٧٥٧ ، و ١٤٠٠٠ عام ١٧٥٨ ، و ٩٠٠٠ عام ١٧٥٩ ، عدا عن جيش الميشيا العامل في المستعمرات الانكليزية الذي يزيد على مجموع هذه القوى بكثير . فراح مونكالم يؤمن ، قبل كل شيء ، سلامة وادي الاواهيو ، باستيلائه على حصن اوسوينغو ، في آب ١٧٥٦ . وفي سنة ١٧٥٧ ، امن طريق مونتريال باستيلائه على حصن وليم - هنري الواقع عند بحيرة جورج . وفي سنة ١٧٥٨ ، راح الانكليز يستغلون تفوقهم العددي الساحق ، فبادروا للهجوم من ثلاث نقاط ، في وقت واحد . فقد فشل سيرم رأساً ضد مونتريال ، اذ استطاع مونكالم ، بقوات ٦ مرات اقل ، ان يلحق بهم الهزيمة الى الجنوب من بحيرة تشمبلين ، عند حصن تيكونديروغا . الا انهم استولوا على حصن فرونتناك وحصن دو كسن وبذلك تمكنوا من فصل كندا عن مقاطعة لوزيانا ، كما فصلوها تقريباً عن فرنسا الجديدة باستيلائهم على لويسبورغ . واخذت قوى الجيش الفرنسي بالتناقص والانخفاض . وفي سنة ١٧٥٩ ، قام الانكليز بهجوم مركز على كوبيك ومونتريال ، مستخدمين لانجساحه بحيرة اونتاريو ونهر ريشليو ومصب نهر سان لوران . فالطواوير المهاجمة من الجنوب اخفقت في تحقيق اهدافها بالرغم من احتلالها حصون تريكوندوغا ونياغارا . والمهارة الانكليزية في سان لوران ، فشلت هي الاخرى ، في بدء الامر ، في مهاجمتها لخطوط الدفاع القائمة الى الجنوب من كوبيك . الا ان القائد البريطاني وولف المعروف بعناده ، قام بمناورة جريئة رائمة ، اذ نقل قوة انكليزية عبر النهر ، كما انزل قوات اخرى الى الشمال من المدينة ، ودار في ١٣ ايلول قتال عنيف بين الفريقين ، قتل فيه كل من القائدين : وولف ومونكالم ، الا ان الانكليز بقوا مسيطرين على الوضع . وهكذا اضطرت كوبيك للاستسلام في ١٨ ايلول ١٧٥٩ . وتمكن

الشفاليه دي لفيس من الصومود سنة ثانية ، وانتصر في نيسان عام ١٧٦٠ ، على الانكليز عند ابواب سكوبيك . الا ان الامدادات لم تصله من فرنسا ، فراحت ثلاثة جيوش انكليزية ، تضرب الحصار حول مونتريال ، فاضطرت المدينة للاستسلام في ايلول ١٧٦٠ ، لحاجة المدافعين للاعتدة الحربية والمؤن والقوى اللازمة لتابعة الحرب . وبموجب معاهدة باريس ، في ١٠ شباط ١٧٦٣ ، اضطرت فرنسا الى ان تتخلى لانكلترا عن كندا وعن وادي الاوهايو و الضفة المسيسي اليسرى . وهكذا زالت الامبراطورية الفرنسية في اميركا الشالية من الوجود ، وراح المعمرون الانكليز يستسلمون في الخيال للاحلام المسولة امام غنى هذه المجالات الشاسعة الغنية بواردها التي انفتحت آفاقها امامهم .

الفصل الخامس

استقلال المستعمرات الانكليزية في أميركا

(١٧٦٣-١٧٨٣)

ما كادت عشرون سنة تمر على انتصار انكلترا على فرنسا واثراؤها ممتلكاتها الشعب الاميركي في شمالي اميركا ، حتى كانت المستعمرات الانكليزية قد انفصلت عن انكلترا واستقلت عنها تماما . لم يأت هذا الاستقلال قط وليد ارادة رغبت فيه وهيات له الأسباب . ان عدداً كبيراً من المعمرين في اميركا بقوا على تعلقهم بالوطن الأم . وعندما كان يخطر لبعضهم الذهاب الى انكلترا ، كانوا يقولون انهم ذاهبون الى « بلادهم » ، وأثناء الثورة الاميركية ، وبالرغم من الاصطدامات العنيفة التي قام بها كلا الجانبين بقي هنالك ما لا يقل عن ثلث السكان يحتفظون بولائهم للانكليز ، كما بقي على الحياد ، في هذا المصطرع ، ثلث أخسر ، ولم يبق في الميدان سوى ثلث « الوطنيين » الذين قرروا ، في اللحظة الأخيرة ، والأسف يحز في نفوسهم ، والغصة في حلوهم ، القيام بالخطوة الحاسمة .

الا ان المعمرين كانوا قد استحالوا ، دون ان يشعر أحد من الناس ، ولا هم تبينوا في مطلع الأمر ، كيف انهم أصبحوا ، شعباً جديداً هو الشعب الاميركي . فقد برزوا من هذا المزيج او الانصهار الذي تم بين المهاجرين والسكان ، وكلهم من اصل انكلوسكسوني ، دون ان تم لهم السيطرة على كل شيء . فقد كان ثلثا سكان بنسلفانيا من السكوتلانديين نزحوا من مقاطعة الولاير في ايرلندا الشمالية ومن الالمان . أما الجنوب ، فكانه جبهة سكانه في الداخل اجانب . وتخلت هؤلاء الناس ، في مثل هذا المحيط والبيئة الجديدين ، باخلاق وعادات جديدة ، وتمت لهم اعراف واحدة مشتركة فيها بينهم . ولغتهم الانكليزية ، احتفظت ببعض التماير والمصطلحات القديمة ، وبعض التراكيب التي عفا اثرها لدى الانكليز ، واقتبسوا عن الهنود وعن المهاجرين الجدد ، اوضاعاً ومسميات وكلمات جديدة . فتطلعت نفوسهم الى روح المغامرة وهاموا بالجديد من كل شيء . وهذا المجتمع الجديد الذي طلعموا به كان أكثر ديموقراطية ، في مجموعه مما هو عليه المجتمع البريطاني المعروف بروح المحافظة . فباستعارة أي متطوع في الجيش أو أي متطوع خدم فيه ان يثري وان يرتفع ويرقى الى المراتب الأولى . فالغرب منه كان أكثر اخذاً بالمعقلانية من

الشرق ، حتى ان المزارعين في الجنوب تشرىوا بتعاليم لوك ومونتسكيو وبكارييا والموسوعين الفرنسيين . فقد احتفظوا بهذه الروح الثورية التي جاشت بها انكلترا ، حيناً ، الا ان جذوتها خمدت في الوطن الأم ، فيما بعد وخفت ريحها . ومن جهة ثانية ، فالكنيسة التي كانت توصي بالطاعة والامتثال للملك اقتصر اثرها على الجنوب وعلى نيويورك ، أما في ما عدا ، فالأمر كان بيد المشايقين . ومع نظريات العقيد [الاجتماعي] رفرقت فوق النفوس ، في كل مكان ، روح من سوء الظن والريبة نحو السلطة ، والرغبة في تحديها والصمود في وجهها .

وامتنع التفاهم بين الانكليز والاميركيين . فالانكليز كانوا يزدرون : « رعابانا في اميركا » . ودار في خلد العسكريين منهم واستقر في يقينهم ان المعمرين أكثر من جنبنا بحيث يستطيعون الصمود ، وانهم سيفرون زرافات ووحداناً لدى أول لقاء بهم أو اصطدام معهم . وكان صموئيل جونسن (١٧٠٩ - ١٧٨١) اكتب كتاب الانكليز وأبعدم شهرة في هذه الحقبة يردد : « نحن أمام عرق من ذراري من حُكم عليهم بالأشغال الشاقة ، يا سيدي » . بالطبع لم يكن هذا الكلام وما أشبه مما يطيب للاميركيين سماعه او مما يشتم آذانهم ، عندما يأتون لانكلترا ، فيتبرم كبرياؤهم من مثل هذه الآراء فيهم . وقد هالهم ما هي عليه الطبقة العليا في انكلترا من قسوخ الأخلاق ومن قشاة روح التشكك وحب التمتع بلذات ، وفساد الطباع وشيوع ذلك فيما بينهم بالرغم من « وشلي » ومن نزعتهم القديمة الى السيطرة والحكم المطلق .

كان من المتوقع على الحكومة البريطانية ان تستعمل معهم الكثير من الدراية والمداورة واللين . وكأنه حلالها ان تصدم باستمرار مصالح الاميركيين وتثير مشاعرهم ، وبذلك جعلتهم يعون ، أكثر فأكثر ، ما يباعد بينهم وبين انكلترا ، ويدركون ، أكثر فأكثر ما يوحد بينهم ، فساعدت بذلك على ان تجعل منهم أمة مترابطة مترابطة .

روح السيطرة البريطانية والمقاومة
مثل الانكليز بانتصاراتهم الداوية فراحوا يطبقون ، الى اقصى حد ، بعد عام ١٧٦٣ ، النظرية الاقتصادية القديمة التي قامت على الاستثناءات . فهم تصوروا الامبراطورية البريطانية بمجموعة من البلدان والأقاليم والشعوب والأمم يحيد بينها كل انكليزي ما يشبع اطباعه ويروي غليله على ان تبقى هذه المجموعة تحت حكم بريطانيا وسيطرتها مباشرة لأنها سبب هذا الازدهار المشترك الذي ينعم به الجميع . وهذه الطريقة في التفكير تنسجم الانسجام كله مع ما جاش به الملك جورج الثالث من نزعات استبدادية تصفية ، هذه النزعات التي دان بها للتربية التي تلقاها وخضع لها والتي قد تكون جاءت على مثل ما اراده « الطغاة المستنيرون » . فبعد عقد معاهدة باريس ، نُحيت للحكومة البريطانية انها تستطيع ان تتصرف باستعمراتها الاميركية كيفما تشاء .

وفي ٧ تشرين الاول ١٧٦٣ ، نشر تصريح ملكي جاء فيه ان الأراضي الجديدة التي يتم فتحها الى الغرب من خط مقسم المياه في جبال أللغاني ، يجب اعتبارها أراضي ملكية يحظر فيها

القيام بأية انشاءات او استثمارات ، ويُطرد بالتالي كل من استقر فيها أو قام عليها. وهكذا رأى الممرون وأصحاب رؤوس الأموال أنفسهم محرومين الافادة من الأراضي التي ناضلوا دونها وبدلوا دماءهم في سبيل استخلاصها .

ومن جهة أخرى ، رغبت الحكومة الانكليزية في ان تؤمن لحكام المقاطعات مرتباً ثابتاً يضمن لهم مع الكرامة الذاتية ، الاستقلال والسيادة ، ويجعلهم في مأمن من هوس المجالس المحلية واهوائها ، فترسخ سلطاتهم وتنزل هيبتهم في النفوس . كذلك أعرب حكام المقاطعات عن رغبتهم في الاحتفاظ بجيش دائم قوامه ١٠،٠٠٠ جندي للحفاظ على المستعمرات والدفاع عنها لدى الطوارئ . ولما كانت انكلترا غارقة في ديونها ، وجدت من العسير عليها تأمين الرسوم اللازمة من الضريبة العقارية . فمن العدل ، والحالة هذه ، ان تسهم المستعمرات في تحمل بعض هذه الأعباء التي هي في مصلحتهم وحدهم . وكان من حق البرلمان البريطاني ان يفرض رسوماً على التجارة في المستعمرات . فأقر عام ١٧٦٤ ، قانون السكر ، كما وضع عام ١٧٦٥ ، قانون التمنفة . ففرض الأول رسوماً جديدة تجبيها ادارة الجمارك أصابت عدداً كبيراً من المنتوجات الأجنبية ، من بينها عصير قصب السكر وثقالبته وهي مادة لاغنى عنها . وفرض قانون التمنفة من جهته رسماً جديداً على المعاملات القانونية ، كالسفاتج المالية وكتب الاعتماد والجرائد . وأخيراً وليس آخراً ، أعاد البرلمان سنة ١٧٦٦ ، النظر في تصدير أي بضاعة من المستعمرات الى غير انكلترا أو الى أي بلد يقع الى الجنوب من رأس فلستير ، من مستوردي الأرز في الجنوب .

لم يمكن في مثل هذه الاجراءات شيء جديد . فالجديد فيها هو ان الوزير غرينفيل ، رغبة منه في تطبيق هذا القانون ، ارسل الى اميركا فريقاً من مأموري الجمارك وسفناً تقوم على مراقبة الشواطئ البحرية ، وأحال المخالفات الى محكمة الاميرالية . وهكذا قامت الصعوبات في وجه تجارة التهريب .

وراح الامير كيون بدورهم ، بوصفهم من الرعايا البريطانيين ، يعترضون على هذه التدابير فاعترفوا للبرلمان الانكليزي ، من حيث المبدأ ، بحق اصدار القوانين المتعلقة بتنظيم التجارة في الامبراطورية عن طريق فرضه للرسوم اللازمة . أما في هذا الوضع بالذات ، فالقضية ليست قضية تنظيم التجارة ، بل ايجاد موارد جديدة للخرينة . فالرسوم المفروضة على السكر وعلى التمنفة ليست في نظرهم ، سوى ضرائب غير مباشرة . ان إقامة المعمرين في اميركا لم تفقد حقوقهم كواطنين بريطانيين . فمن حقهم الأساسي ان يقروا هم أنفسهم ، الضرائب التي يترتب عليهم تحملها . ولم يكن لهم بالتالي من يمثلهم في البرلمان الانكليزي . ورد الانكليز على هذا الحجاج بان أعضاء البرلمان يمثلون الشعب الانكليزي أينما كان وليس الدوائر التي انتخبتم . الا ان الاميركيين لم يكونوا ليرضوا الا بتمثيلهم الفعلي في البرلمان .

انطلقت إشارة المقاومة في ٢٩ أيار ١٧٦٥ ، من مجلس فرجينيا ، على يد محام شاب هو بتريك

هنري الذي أعاد الى الذاكرة مَثَل بروتوس الذي تصدى لقيصر ووقف في وجهه ، كما اسشهد بمثل كرومويل الذي وقف في وجه شارل الأول ، وحمل المجلس ببلاغته على إقرار « قرارات فرجينيا » ، وهي قرارات أيدت حق الامير كيين وكان لها اذ ذلك ، وقع هائل في نفوس القوم . وراح التجار ينظمون في ما بينهم حركة مقاطعة واسعة النطاق للبضائع الانكليزية . واتفق تجار المراهي ، الرئيسية كنيويورك وفيلادلفيا وبوسطن على ان يمتنعوا عن استيراد بضائعهم من انكلترا . وشكل الممال في المدن جمعيات لهم ، عُرفت باسم « أبناء الحرية » ، تجاهل التجار في أول الأمر وجودها ، ثم ما لبثوا ان اتخذوا منها أداة انتقموا بها ، وأخيراً توصلوا معها الى اتخاذ موقف موحد ، وارضعوا على الاستقالة ، بالقوة ، الموظفين المهود اليهم تصريف أوراق التمغة . وفي تشرين الأول ١٧٦٥ ، عقد مئذو تسع من هذه المقاطعات مؤتمراً لهم في نيويورك وجهوا خلاله عريضة الناس الى كل من ملك انكلترا والبرلمان ، صاغوها بعبارة تنبض بالاحترام . وعلى الأثر ، أرسل فرنكلين مندوباً عنهم يمثلهم في لجنة برلمانية خاصة تشكلت لهذا الغرض . وبعد أخذ ورد أقرت الوزارة الغاء رسم التمغة وخفضت الضريبة على نقل السكر بمقدار لماسة (بنفي) واحدة للغالون الواحد (آذار ١٧٦٦) ، مما أدخل البهجة والفرح الى قلوب الامير كيين بعد ان سبب لهم توقف الحركة التجارية كثيراً من صنوف الحرمان . الا ان المشكلة الدستورية بقيت قائمة كاملة ، اذ ان القانون الجديد الذي فرض رسماً على عصير قصب السكر وثفائلته ، مع انه ابقاه متدنياً جداً ، لم يشترع شيئاً جديداً في المجال التجاري . فبقي هذا الرسم ضريبة سارية المفعول وراح البرلمان يعلن صلاحيته وحقوقه المطلقة لسن القوانين ، مها كانت طبيعتها ، وهي قوانين يجب تطبيقها على كل أجزاء الامبراطورية البريطانية .

وفي سنة ١٧٦٦ ، خلال وزارة «بت» الثانية ، راح وزير المالية فاونسهند يأخذ من جديد بسياسة غرينفيل ، وحمل البرلمان في شهر مايو ١٧٦٧ ، على اقرار رسوم جديدة على الورق والزجاج والقصدير والشاي . واذ ذلك ، قام التجار في اميركا ، يقاطعون البضائع الانكليزية وعملوا على ادخال بضائع اجنبية بالتهريب ، فنتج عن ذلك اضطرابات . وفي الخامس من آذار ، اصدر اللورد بورث قراراً بالغاء الضرائب الجديدة باستثناء الرسم المفروض على الشاي ، الأمر الذي ادخل البهجة الى القلوب ، باستثناء قسلة من الناس رفضوا بكل حيلة ووسيلة ، الوقوف موقفاً معتدلاً . وفي نيسان ١٧٧٣ ، تسهلاً لشركة الهند الشرقية تصريف شحنة لها من الشاي ، رخص لها اللورد نورث ، بيع بضاعتها رأساً من الامير كيين بحيث يصبح سعر الشاي متدنياً للغاية . غير ان هذا التدبير عرض التجار الامير كيين لخسارة الأرباح الناجمة عن النقل ، كما جعل من المتعذر عليهم بيع الشاي الذي كانوا استوردوه رأساً من انكلترا ، كما ان التجار الذين اختزنوا كميات كبيرة منه رأوا أنفسهم مهددين ان يبيعوه بخسارة . واذ ذلك دفعوا الى الامام « أبناء الحرية » . فقد راح عام ١٧٧٣ ، فريق من سكان بوسطن تزيتوا بلباس الهنود الحمر ، يطرحون الى البحر وسق ثلاث سفن مشحونة شايًا .

والمهم في هذا الأمر كله هو ان الحكومة الانكليزية لم تكن تجاوزت حقوقها في هذه القضية، بينما رأى الامير كيون في المناسبة السانحة فرصة مؤاتية للتعبير عن موقفهم المتصلب هذا وعن عزمهم على معالجة شؤونهم الاقتصادية بأنفسهم ، دون ان يبالوا ، من قريب او بعيد ، بالمصلحة العامة في الامبراطورية . وبذلك عبروا بصراحة عن رغبتهم بالاستقلال التام . فقد كانوا يجاوزوا بعيداً القضية الاساسية التي كانت سبباً اولياً في هذا الجدل . ولذا قام بعض الاميركيين ، من بينهم بنجامين فرانكلين ، يسمون جهدهم ، للمحافظة على وحدة الامبراطورية وحياتها ، وذلك عن طريق الوصول الى صيغة تصونها في المستقبل ، بحيث تؤلف المستعمرات الانكليزية ، من بينها ، حلقاً يتمتع باستقلاله ويبقى متحداً ، مع ذلك ، مع الامبراطورية ، بالملك . وعلى مثل هذا كان رأي «بت» الذي استقدم فرانكلين الى دارته وأعد معه ، من آب الى كانون الأول ١٧٧٤ ، مشروع تحقيق امبراطورية انكليزية تمتد من البحر الشمالي الى المحيط الهادي . الا انهم كانوا بهذا ، اسبق من زمانهم بكثير .

واذ ذلك اغلقت الحكومة البريطانية مرفأ بوسطن واخضمت المدينة وولاية مستشوستس كلها لنظام عسكري (١ ايار ١٧٧٤) . وقد ارسلت جميع المستعمرات ، باستثناء فرجينيا ، مندوبين عنها يمثلونها في مؤتمر قاري (٥ ايلول ١٧٧٤) فأسس المؤتمر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول « الجمعية القارية *Le Congrès continental* » تأخذ على نفسها تنظيم مقاطعة شاملة للنظام الاقتصادي الانكليزي . وتحول حماس الاميركيين الى هياج شديد عندما بلغهم خبر قانون كوبيك ، الذي ربط ادارياً كل الشمال الغربي حتى الياهو بولاية كوبيك ، اي انه وضع بمثل هذه الاقطار الجبلية تحت تصرف «الباويين» اذ كانت الديانة الكاثوليكية مسموحاً بها في كندا . وهكذا اصبح الصمود في وجه الملك ومقارمته صليبية شعارها : « لا باوية » . وتآلفت في طول البلاد وعرضها لجان شعبية من المواطنين وقدم «بت» ، في اول شباط ١٧٧٥ ، مشروع تسوية رفعه الى مجلس اللوردات . وراحت اللجان الاميركية «للسلامة العامة» تقيم مستودعات وتلشء لها مخازن للأسلحة والعتاد الحربي . وفي ١٩ نيسان ١٧٧٥ ، وقع اصطدام بين كتيبة انكليزية ارسلت لوضع يدها على احد هذه المستودعات ، بأفراد الميليشيا الاميركية ، في لكسنغتن . فآتلفت المستودع الا انها اضطرت للعودة بفوضى وبدون نظام الى بوسطن ، بعد ان تعرضت لتحرشات الاميركيين ومضايقاتهم لها . وفي اليوم التالي ، اخذت فرقة الميليشيا ، في انكلترا الجديدة بضرب الحصار حول بوسطن . وهكذا نشبت في البلاد الحرب الاهلية .

استمرت الحرب تتأرجح ثماني سنوات . وكان حزب الاحرار *Whigs* ؛ حرب الاستقلال الانكليزي يعطف على الاميركيين ويعمل باستمرار ، على اثارة العراقل ، بوجه الحكومة . وكان عدد الموالين في اميركا كبيراً . فبعد ان قلق التجار جنداً من راديكالية «ابناء الحرية» ، نزحوا للوقوف الى جانب الملك ، اذ رأوا في الحرب القائمة حرباً بين الطبقات . وراح الموالون يؤلفون من بين انصارهم ، فرقاً خاصاً مما اضطر الجيش الانكليزي الى اتخاذ

احتياطات عسكرية خاصة كالتي يتخذها جيش معادي . فالمسافات الشاسعة ، والبلاد المغفرة ، زادت كثيراً من صعوبة المواصلات والتموين . والجيش الانكليزي الذي تألف من وحدات نظامية مدربة وجد حركاته وسكناته مقيدة من قبل القيادة في لندن التي كانت ترغب في ابداء رأيها في خطط الحرب والتصميم للعمليات الحربية . اما الجيش الاميركي ، فقد تألف من افراد الملبشا الذين رفضوا الخدمة في مقاطعاتهم ليعودوا ، بعد انتهاء نوبتهم وانقضاء مدة خدمتهم للعمل في الحصاد ، كما تألف من متطوعين كثيراً ما راحوا في بدء الأمر ، فريسة للبلع والخوف ، مرقباتهم سيئة تدفع لهم « بعملة ورقية قارية » ، ولم يكونوا دوماً من يطمأن الى نواياهم . وكان غايتس يدس على واشنطن ويحيك له الدسائس ، كما خان شارلي لي وارنولد القضية وتحولوا عنها . ولحسن الحظ ، فقد اظهر القائد العام الذي جرى تعيينه من قبل الكونغرس القاري الثاني ، من الروح الوطنية ، ما جعله فوق كل امتحان ، كما انه برهن عن تفهم سليم للامور والأوضاع القائمة ، وعن حزم لا يتزعزع ، ورباطة جأش ليس ما يكدرها . كل ذلك اعاد الثقة الى اكثر المترددين المتأرجحين وبعث الحماس في النفوس .

اجتمعت الكونغرس البرية الثانية في العاشر من ايار ١٧٧٥ ، وأدركت على ضوء الحوادث انه لا بد من عقد ائتلاف مع بعض الدول الأجنبية لتحقيق اهداف الثورة . فتوجهت بانظارها الى الكنديين الذين كانوا لا يزالون يذكرون ، والمرارة ملء نفوسهم ، ما لحقهم من عنت الحروب السابقة ، وما استهدفوا له من حقد هذه القوى البروتستانتية المتعصبة التي تكشفت عنها نفوس الانكليوسكسون . ان قانون كوبيك كان منحهم من جهة ثانية التسامح الديني واستمرار العمل بمعظم القوانين الفرنسية التي ساروا عليها من قبل . فلم يجر كوا ساكناً . ولذا راحت كتائب الاميركيين تغزو كندا . وأصبحت بالتالي خطراً يهدد مونريال وكوبيك . واذ ذاك نهض الكنديون لامتناس الحسام وردوا الاميركيين على اعقابهم (تشرين الثاني ١٧٧٥) . . . وهكذا بقيت الكونغرس وحدها في الميدان . وكان الملك جورج الثالث اعلن على الملأ ان الاميركيين بحالة عصيان وتمرد وحظر كل نشاط تجاري معهم ، اذ قصد من ذلك ان « يزرع » الخراب في اميركا . وأحرق الانكليز مدينتين مفتوحتين هما فالموث في مقاطعة الماين ونورفولك في مقاطعة فرجينيا .

واذ كان اعضاء الكونغرس على يقين تام بأن الحرب وحدها هي التي ستقرر المصير ، وان الحليف الوحيد الطبيعي الذي يقف الى جانبهم في حربهم ضد الانكليز ، انما هو فرنسا ، فقد قاموا بمفاوضتها . فاشترطت فرنسا عليهم لدخول الحرب الى جانبهم ، انفصالهم التام واستقلالهم عن الانكليز شريطة ان يوحدا من صفوفهم بحيث يظهرهم مظهر المتحدين . ففي ٤ تموز ١٧٧٦ ، اتخذ الكونغرس قراراً باعلان الاستقلال التام . وقد وضع نص هذه الوثيقة التاريخية جيفرسن فجاءت بمثابة قياس استدلاي ذكرت مقدمته الكبرى بمبادئ « الفلاسفة » ، هذه المبادئ التي أصبحت التراث المشترك لكل الأوروبيين . فقد جاء فيها بالحرف الواحد :

« نحن نعتبر واضحة بذاتها المبادئ التالية التي تعلم وتقول ان الناس اجمع خلقوا متساوين فيما بينهم ، وان الله خالقهم ميزهم ببعض الحقوق التي لا يمكن نسخها . من هذه الحقوق : حق الحياة ، حق الحرية والبحث عن السعادة . فالحكومات تقوم بين الشعوب لضمان هذه الحقوق وان صلاحياتها ومسؤولياتها الحقة تصدر عن رعاياها وموافقتهم . فكل مرة يستحيل فيها شكل الحكومة الى حكومة تعمل على الميث بهذه الحقوق ، حق للشعب ان يستبدل حكومته هذه باخرى وان يقيم محلها حكومة جديدة » .

ثم راحت تعدد سلسلة من العتب لهذه الحقوق الطبيعية ، من قبل ملك انكلترا والانكليز . وانتهت من سرد هذه الأمثلة بالنتيجة الحتمية قائلة :

« نحن نمثل الولايات المتحدة الاميركية المجتمعون هنا هيئة عامة ، نحتكم الى محكمة الديان الاعلى لهذا العالم ، المطلع على سلامة نوايانا وطهاره ضمائرنا . نحن ننشر ونعلن باسم هذا الشعب الطيب المقيم في هذه المستعمرات ، بان هذه الولايات الحق التام بان تكون ولايات حرة مستقلة ، وبانها لا تعترف باي ولاء ولا باي خضوع للتاج البريطاني وان كل اتحاد سياسي فيما بيننا وبين بريطانيا العظمى انقطع ويجب ان ينقطع تماماً » .

ابتهج الشعب الفرنسي لثورة الاميركيين ، اذ رأى فيهم رجالاتاً من ابناء الطبيعة ، كلهم تلقى . وجاء فرانكلين باريس بما هو عليه من بساطة الروح ، بجواربه الصوف وأحذيته الضخمة ، فازداد القوم في فرنسا ايماناً بهذا الشعور . وقد راح الشباب الفرنسي يجتاز المحيط الاطلسي باعداد كبيرة مقدماً خدماته للكونغرس الاميركي . وراحت وثيقة اعلان الاستقلال تحمّل حماس الفرنسيين الى هذيان الفرح والغبطة . وفي هذه الفترة بالذات يسافر المريكيز دي لا فاييت نفسه ويتطوع في خدمة الجيش الاميركي . وحلا للوزير الفرنسي فرجين ان يرى في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة ليشأر لفرنسا من معاهدة ١٧٦٣ المشينة . وبواسطة بومارشيه ، استطاع ان يمد الاميركيين بالسلاح والعتاد الحربي . غير ان هزائم الاميركيين المتتالية جعلته يتردد قليلاً قبل ان يكشف عن اوراقه . الا انه في ١٧ تشرين الاول ١٧٧٧ ، اضطر جيش انكليزي أرسل من كندا الى نيويورك لتعزير موقف الانكليز الحربي فيها ، الى الاستسلام ، في بلدة سراتوغا ، بعد ان احاطت به كتائب المليشيا ومنعت عنه وصول الامدادات والمؤن . وقد كان لهذا النصر الاميركي الكبير الأول صدق عظيم ووقع كبير على الرأي العام ، فأكسبهم محالفة الفرنسيين لهم . وقعت معاهدة التحالف هذه في ٦ شباط ١٧٧٨ ، وتمهدت كل من فرنسا والولايات المتحدة الأميركية على الاتقاد هدنة أو تجريباً صلحاً إلا يرضى الفريق الثاني ، وان لا ترمي السلاح الا بعد أن تنال الولايات الاميركية ، استقلالها التام الناجز . وتمهدت فرنسا بالأ تعود إلى استرجاع كندا . الا أن الولايات المتحدة ضمننت لها الممتلكات التي لها او التي بين أيديها في القارة الاميركية ، وقد استطاع الوزير فرجين ان يحمل اسبانيا على الدخول في الحرب الى جانبها (حزيران ١٧٧٩) . وأعلن الانكليز الحرب على الهولنديين الذين راحوا يبيعون الاميركيين ما هم بحاجة اليه من البارود (كانون الاول ١٧٨٠) وأخيراً راحت الدول الأخرى الواقفة على الحياد يسعى من الامبراطورة كاترين الثانية ، تؤلف من بينها حلفاً يقف بالقوة ، في وجه كل سفينة من سفنها تحاول تهريب الأسلحة الحربية .

جاء التدخّل الفرنسي حاسماً . فالاساطيل الفرنسية بقيادة امراء البحر لاموت - بيكه وغراس واستانغ وسوفرين استطاعت ان تؤمن حرية البحار . والانكليز الذين تعرضوا للهجوم ايّما وجدوا : في جزر الانتيل والهند واميركا وجبل طارق ، اضطروا لتوزيع قوام . فقد اخذت جيوشهم في اميركا تشكو عالياً من انقطاع الامدادات والذخائر الحربية . ثم ان وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٥٠٠ جندي ، في تموز ١٧٨٠ ، بقيادة الكونت دي روشمبو ، امتنت للاميركيين الذين بقوا حتى الساعة يسجلون الهزيمة قوا الهزيمة في المعارك المعبّاة ، قوة نظامية حنكتها الاعمال الحربية التي تمرست بها ، كانت بمنأى من التقلبات الموسمية أو من الاشتباكات المحلية ، وكانت لها قدرة تامة على متابعة الحركات الحربية ، وقامت بتعاون مشترك بين اسطول فرنسي بقيادة الاميرال دي غراس وبين الجيوش الفرنسية والاميركية بقيادة واشنطن ولاناييت وروشمبو . فقد اجبرت هذه الاعمال الحربية والتعاون بين مختلف القوات العاملة في مختلف القطاعات ، على الاستسلام ، الجيش الانكليزي الوحيد الذي له القدرة على التناور في البر ، وذلك في مدينة بورتون ، في ١٩ تشرين اول ١٧٨١ وبذلك ربحوا الحرب .

وقد حنث المندوبون الاميركيون قسمهم وأخلفوا بوغدهم بالرغم من ممارسة فرانكلين وضربوا بعرض الحائط توقيع الشعب الاميركي ، فسارعوا الى التفاوض مع انكلترا والى التوقيع على تمهيد للصلح ، في ١٣ تشرين الثاني ١٧٨٢ . واذ رأى الوزير فرجين نفسه امام الأمر الواقع اضطر للدخول معهم بالمفاوضات . جرى توقيع المعاهدة الفرنسية الانكليزية في فرساي ، في غرة ايلول ١٧٨٣ ، وهي معاهدة لم تعترف الا ببعض المنافع والتنازلات لفرنسا بسبب انسحاب الاميركيين من الميدان ، وبسبب هزيمة نزلت بالاسطول الفرنسي في جزر الانتيل ، في نيسان ١٧٨٢ ، ولأن المفاوضين الفرنسيين لم يطالبوا بكل ما كان يجب ان يطالبوا به . فاستعاد الفرنسيون جزر تباغو وسانت لوسيا وبعض المؤسسات والمراكز في السنغال . اما نصيب ملك فرنسا فقد كان انه حال دون استبطار سيطرة الامبراطورية الانكليزية ، وقلّم اظافرهما بعد ان نزع منها احسن مستمراتها واغناها وأمن الحرية والاستقلال لشعب من شعوبها . اما المعاهدة الانكليزية الاميركية ، فقد جرى توقيعها في باريس ونصت على اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، وحملت حدودها في الغرب الى المسيسيبي ، وفي الشمال الغربي الى البحيرات الكبرى ونهر السان لوران .

فبالرغم من انسحاب الاميركيين لم يشأ لويس السادس عشر ان يطالبهم باي تعويض لقاء النفقات الباهظة التي تحملها في الحرب . فقد تنازل لهم ، فوق ذلك ووهبهم ١٢ مليون ليرة ، وعلاوة على قروض الحرب التي استدانوها ، قدم لهم سلفة من ٦ ملايين ليرة لأجل ترميم اقتصادياتهم واعادتها على أسس قومية عام ١٧٨٣ . كل هذا حدا بفرانكلين للتبويه عالياً بالصدقة والامتنان الخالدين .

والنصر والكاف

تطور كندا

(١٧٦٣-١٧٩١)

ونشأ الولايات المتحدة الأمريكية

(١٧٨٣-١٧٨٩)

كندا وأكاديا على ضوء التجربة والاختبار راحت الحكومة الانكليزية تنهج تجاه ما كان يُعرف بفرنسا الجديدة نهجاً يتسم بالحرية الواسعة. فقد نشأت فيها مستعمرات تتمتع باستقلالها الاداري، سكانها مزيج من عروق متباينة واجناس مختلفة .

فقد استثنى الملك جورج الثالث ، في منشور له ، العناصر الكاثوليكية من الاشتراك في ادارة البلاد ، وبذلك رأى سكان كندا انفسهم خاضعين لسيطرة بضع مئات من الانكليز . الا ان خصومة انكلترا وحربها مع مستعمراتها القديمة ، حملت الوزارة الانكليزية على انتهاج سياسة تم عن تسامح اكبر . فقانون كوبيك (١٧٧٤) اعترف للكاثوليك بحرية ممارسة طقوسهم الدينية ، واعفى الكنديين من مرسوم *Bill of Test* الذي كان يفرض على كل من قسام باعباء وظيفه عامة تناول القربان حسب الطقوس الانفليكانية ، كما ترك لهم حرية العمل بجانب كبير من القوانين الفرنسية التي خضعوا لها من قبل ان يخضعوا للحكم البريطاني ، لقاء تقسم بالتزام الولاء للملك انكلترا ، والأخذ باحكام اهم الشرائع الانكليزية ، والعمل تحت اشراف حاكم عام ومجلس يقوم الملك بتعيينها . وقد اتسم اول حاكم انكليزي على كندا بروح ممتع ، واقام علاقات طيبة مع الاكليروس الكاثوليكي وطبق بكل دقة مرسوم كوبيك بحيث بقي الكنديون على ولائهم الصادق للملك انكلترا .

واتفق ان ٣٥٠٠٠ من « الموالين » الاميركيين ، نزحوا عن الولايات المتحدة ، خلال حرب الاستقلال وبمدها ، فجاؤوا وسكنوا الى الشمال الغربي من بحيرة اونتاريو . وشابت العلاقات بين الفرنسيين والانكليز الطنة وسوء التفاهم والتحفظ باستمرار . وتقديرأ لحسن موقف الكنديين وصدق ولائهم للتاج البريطاني ، اصدر الملك جورج الثالث امراً بتقسيم البلاد الى

ولايتين متميزتين : كندا العليا للانكليز ، وكندا السفلى للفرنسيين . وتمتعت كل ولاية باستقلالها الاداري ، وقام فيها مجلس تمثيلي منتخب .

وقد حافظ الكنديون الفرنسيون على عقيدتهم ولغتهم واعرافهم وتقاليدهم ، وطبقوا ما جاء على لسان النبي إرميا ، اذ يقول : « ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمارها ، واتخذوا نساءً ، وولدوا بنين وبنات ، واتخذوا لهم نساءً واجعلوا بناتكم لرجال وليلدن بنين وبنات ، وأكثروا هناك ولا تفلتوا واطلبوا سلام المدينة التي ألباتكم اليها ، وصلتوا من أجلها الى الرب ، فإن بسلامه يكون لكم سلام . » (١) . وبدون ان يتلقوا أي رديف عن طريق الهجرة والاختراب من فرنسا التي أهملت أمرهم وتخلت عنهم ، وبفضل تمكسهم بالمثل الكاثوليكية السامية وانتهاجهم في الحياة نمطاً قوامه الزراعة والاستمسك بمكارم الأخلاق على سنة الجدود ، وبفضل تزايد عدد السكان عندهم بمعدل هو أعلى ما عرف المجلس الأبيض من أمثاله ، ويعزم لا يفتر ، قرروا معه الا يتركوا أنفسهم يذروا في الكير الانكليزي والبولقة البريطانية . فقد بلغ عددهم عام ١٨٠٦ ، أكثر من ٢٥٠،٤٠٠٠ نسمة . وهكذا استطاعوا بفضل ما أوتوا من صلابة العود وصدق العزيمة ، ان يحافظوا على طابع حضارتهم الفرنسية ، وسط بلد ومحيط سكانه من الانكلوسكسون .

اما اكايا ، فقد أخذ يعود اليها تبعاً ، بعد عام ١٧٦٣ ، جماعات صغيرة من نجا من الهنة الماحقة التي ابتلوا بها وما نابهم من جرائها ، من العذابات والاضطهادات المريرة . وقد فرشوا طريق العودة ، كما فرشوا طريق الهجرة من قبل ، بالاعزة من سقطوا في مختلف مراحل صليبيهم المرير . وهكذا وصل منهم ١٢٦٥ شخصاً ، فوجدوا املاكهم ومقتنياتهم وارضيتهم يحتلها المعمرون الانكليز . ولذا استقروا بين اراض رديئة التربة راحوا يعزقونها ويحيونها بعرق جبينهم ، حتى اذا ما لانت وطابت وجادت فاجأهم على حين غرة طاريء انكليزي وبيده صك تملك ، فينتزعها ويحير مالكتها على العمل في خدمته ، وليس في اليد حيلة بعد ان كانت المحاكم التي يرفعون اليها ظلامتهم تصدر دوماً احكامها ضدهم . وكانت اجس الاجور تعطى لهم دوماً عن اشق الاعمال واقسى الاشغال . وراحت الحكومة الانكليزية ، خلال حرب الاستقلال الاميركي تداري جانبهم وتلين ملامسها ، فتتنازل لهم عن اراض يستملكونها ، كما اجازت لهم ممارسة واجباتهم وفقاً للطقوس الكاثوليكية . الا ان سيلا جارفاً من « الموالين » الاميركيين ، زاد عددهم على ٤٠،٠٠٠ ، هبط عليهم واغرقهم تحت غمره ، واخذوا في تعمير واحياء ما عرف بايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة . ومع ذلك فقد عرف الاكاديون ان يحافظوا كالكنديين على شخصيتهم وفرديتهم المميزة . فبلغ عددهم عام ١٧٩٠ ، بفضل حركة الموالين الناشطة بينهم ، واستمروا على نمائهم وتكاثرهم ، يشاطرون من الانكليز اراضيتهم ويعملون بذلك على زحزحتهم تدريجياً .

(١) - ارميا ، اصحاح ٢٩ ، عدد ٥ - ٧

الولايات المتحدة دستورها الجديد
مُخيل لمعظم الناس بما فيهم الملك جورج الثالث وفرديريك
الثاني ، ولعدد كبير من الأميركيين انفسهم ، ان الاتحاد
الذي تألف من هذه الولايات لن يعمر طويلاً ، لما بينها من فوارق واختلافات ، وبما في هذه
الجمهورية التي افوها من عناصر مخلخلة وقوى محللة . وبالفعل فقد اخذت هذه الولايات تتصرف
فيها بينها كدول مستقلة ، سيدة والفضوى فيها ضاربة اطنابها .

ويدعوة من مجلس الكونغرس ، راحت الولايات الاميركية ، باستثناء كونكتيكت ورود
آيلاند ، تنشئ نظامها ومؤسساتها الجمهورية على اساس من المبادئ التي نادى بها العقد الاجتماعي
(لروسو) ، والنظريات التي قال بها مونتسكيو وعلم . وقد اتسمت هذه النظم والمؤسسات
بالروح الديمقراطية بالرغم من قلة عدد سكانها ، في بلاد كانت فيها الملكية العقارية هي التي
تولي صاحبها ، حق الاقتراع ، وهذا مطلب يسير ، سهل التحقيق ، كما برهنت عن سماحة
وتساهل ظاهر في علاقاتها مع الكاثوليك . واذ كانت الهيئات التمثيلية توجس خيفة من
طغيان السلطة الفردية ، فقد سيجت حولها بسلطات مطلقة . فالحكام الذين ينتخبون بالاقتراع
العام يتمتعون بسلطة تنفيذية محدودة . ومثل هذا الوضع ، كان معقولاً ومقبولاً يوم كان
هؤلاء الحكام ممثلين للملك وراثي ، تتمثل في شخصه وتتجسم المصالح العامة في الدولة ، ويتمتع
بالتالي ، بنفوذ عظيم ، اما ما هو من الغرابة بمكان ، ان يكون هؤلاء الحكام هم ممثلو
الشعب . فقد ادى النظام الذي قام على هذه المجالس والهيئات الى نتائج وخيمة ، بحيث ان
سلطة الحكام اخذت تزداد وتقوى طوال القرن التاسع عشر .

وراحت هذه الولايات تتباعد عن بعضها البعض حسب منطوق مواد دستور الاتحاد الذي
أقرّ بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٧٧٧ ، اذ جعل هذا الدستور ، من هذه الولايات « عصبه من
الاصدقاء يعملون في سبيل الدفاع المشترك » ، وفي سبيل « مصلحتها العامة المشتركة » . فقد
احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها التامة واستقلالها . والكونغرس الاميركي ، لم يكن في
الواقع سوى مؤتمر من الدبلوماسيين لعدد من السفراء تبعث بهم الولايات ممثلين لها . فلكل ولاية
صوت واحد ، والقرارات يجب ان تؤخذ باجماع الأصوات . ويتولى الكونغرس الشؤون الخارجية
وكل ما يتعلق بالحرب والبحرية والنقد ، والمكايل والموازين والبريد . الا انه لم يكن من
صلاحياته ، ولا بوسعه ان يتولى النظر او تنظم النشاط التجاري بين مختلف الولايات ، ولا بين
الاتحاد والخارج . فلم يكن للكونغرس اي سبيل او اي وجه للضغط على الولايات المستقلة
وارغامها على السير باتجاه معين .

فالأضعف الذي وجدت حكومة الاتحاد نفسها فيه خلفت الفوضى في
عجز مجالس الكونغرس جميع مرافق البلاد ، وسبب لها ازمة حادة جعلت في وضع مضطرب ،
خطير ، مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فقد اقدمتها حاجتها الملحة للعال . فراحت تصدر نقداً ورقياً لا تغطية له ، فهبطت قيمته بسرعة بحيث ان خطر لاحد الحثاء من المزيفين ان يفرش جدران محله بالأوراق المالية الكبيرة . وعبئاً طلب الكونغرس من الولايات الاسهام بالنفقات العامة التي بلغت ٨ ملايين دولار ، عام ١٧٨٢ ، ومليونين دولار فقط عام ١٧٨٣ . الا انه لم يصل من أصل هذه المبالغ الا الى مليون دولار ونصف . وقد هبطت مساهمة الولايات ، عام ١٧٨٥ الى ٣٧٥،٠٠٠ دولار لا غير . ولذا عسرت قضايا تسريح الجيش وتمعدت كثيراً ، اذ راح الضباط يطالبون بمعاش تقاعدي ، وهو طلب لم يكن وضع خزينة الاتحاد يستطيع تحقيقه ، كما انسه كان يلاقي معارضة قوية لدى الرأي العام ، الذي وجد في مثل هذا الطلب وتحقيقه ايجاد جسم جديد في الدولة ونوعاً من الارستوقراطية .

واستطاع واشنطنون ان ينتزع ، في ٢٢ آذار ١٧٨٣ ، من مجلس الكونغرس سندات على الخزينة بقائد ٦٪ ومعاشاً كاملاً لمدة خمس سنوات . وقبل ان يأخذ الضباط بالانفراق ، اسسوا فيما بينهم ما يعرف ، في التاريخ ، باتحاد سلسناتي ، مع شارة خاصة تعطى للأعضاء هي عبارة عن نسر وشريطة زرقاء . فكان هذا الاتحاد ، الهيئة الوحيدة المعترف بها في كل الولايات . فالف له بلجاناً في كل المدن الرئيسية . وقد ساعدت هذه المنظمة كثيراً على تمتين روابط الوحدة ، كما جاهدت كثيراً وسعت الى اقرار الدستور الذي وضع عام ١٧٨٧ .

أما أفراد الجيش ، فلم يتيسر لهم قبض المتأخر من مرتباتهم ، فأعلنت وحدات معسكر نيوبرغ العصيان ، في أيار ١٧٨٣ ، فاضطر واشنطنون لاستعمال كل سلطته ونفوذه ليحملهم على قبول تسريحهم ، بعد دفع مرتب ثلاثة أشهر ، ونثر الوعود المعسولة للمستقبل .

واشدت الازمة الاقتصادية وأخذت بجنناق البلاد ، وهي ازمة تسببت اصلاً عن الخراب الذي زرعه الحرب وويلاتها في البلاد كما نتجت عن نزوح عدد كبير من الموالين للانكليز ، بينهم عدد كبير من التجار ورجال الصناعة الاغنياء ، ناهيك عن الامال الذي نزل بالمشروعات العامة وفقدان رؤوس الأموال ، في البلاد ، والنقص الفادح في الانتاج . وزاد في حدة الأزمة وشدتها العجز المالي المعتمد الذي تسكع فيه مجلس الكونغرس . فقد أبت عليه الولايات الاعتراف له بأي حق في فرض الرسوم الجمركية حتى ولو كان طابعاً اميرياً لتأمين جانب من واردات الخزينة . وراحت هذه الولايات المتمتعة باستقلالها وسيادتها تشن على بعضها البعض حرباً اقتصادية لا هوادة فيها . فاذا ما خطر لاحداها ان تزيد من رسوم الجمر في اراضيها ، راحت الأخرى تخفض الرسوم عندها اجتذاباً منها للتجار وخنقاً لحركة الاعمال في الولايات المجاورة . وقد رأت انكلترا في هذا الوضع الهزأة ، فرصة سانحة لها ، لاغراق البلاد بمصنوعاتها الوطنية ، وبذلك سددت ضربة قاصمة لهذه الصناعات الناشئة التي رأت النور في البلاد إبّان حرب الاستقلال . فقد باعت الاميركيين ، سبعة أضعاف ما كانوا يستوردونه من البضائع والسلع المصنوعة في الخارج ، بينها المصنوعات الحديدية على اختلاف حجومها ، والسكاكين والمسامير ومصنوعات الصفيح ،

والأجواخ والمعقاة (تجارة الخردوات) والمعاقير والمواد الطبية . وأخذت الولايات المتحدة تصدّر إليها ، بدورها ، القسم الأكبر من محصول القمح والطحين واللحوم الحليسة ، والتبغ ، وشيئاً من محصول القطن . ومع ان هذه الولايات كانت مستقلة سياسياً فقد كانت تعمل اقتصادياً على انكلترا التي منعت عليها ، مع ذلك ، الاتجار مع جزر البحر الكرايبي او جزر الانتيل ، فان أؤها فمن باب التهريب ليس الا . وقد أبت انكلترا عقد أي معاهدة تجارية معها لعجز مجلس الكونغرس عن إلزام الولايات المتحدة احترام الموائيق والتقييد بأحكامها ومندرجاتها . وفي البحر الأبيض المتوسط ، كان القراصنة المسلحون ينقضون على السفن الأميركية ، لامتناع الانكليز عن حمايتها او الدفاع عنها . وبالرغم من الاسواق التجارية الجديدة التي انفتحت أمام صادراتها ، في كل من فرنسا والبرتغال والصين ظل الميزان التجاري عندها يشكو المعجز المرح .

وكانت رؤوس الأموال تخرج باستمرار من البلاد او تختزن في صناديق أصحابها تحسباً للمستقبل الغامض . فقد عجزت عن تلبية حاجات البلاد ومطلب المرافء الشرعية ، كما انها كانت شبه مفلوذة في أقصى الغرب حيث اقتضت الحركة التصارية على المقايضات ، وحيث كانت الرسوم تجبى جلوداً او لحم خنزير مملحاً او شحماً او وسكي . وقد شلت ندورة النقد حركة البيع والشراء وكل نشاط تجاري ، فخنق بالتالي الانتاج . فلا عجب ان ترتفع أصوات المتبرمين والشاكين . وراح كثيرون يطالبون باصدار عملة ورقية ولا سيما بين المزارعين والرواد المستكشفين والقائمين بأعمال المضاربات الغارقين في ديونهم لقاء المبالغ التي استلفوها من التجار . وقد بدا للدينين ان النقد البنكوت سيخسر كثيراً من قيمته الاسمية ، وان منتوجاتهم سترتفع أسعارها وبذلك سيتخلصون بسهولة بما يرزحون تحته من ديون ، فيتاح لهم شراء الأراضي والاملاك . وهكذا راحت سبع ولايات تصدر لها عملة ورقية .

رفضت ولاية ماستشوسس الاخذ بهذا الاصدار ، فأسقط بيد الدائنين في وفاء ديونهم واستهدفوا لعقوبات السجن . وبالنظر لفقدان السيولة ونقص رؤوس الاموال الفادح ، والمزاحة الانكليزية الشديدة ، اصبحت الحياة صعبة في البلاد . وتولى ضابط قديم في جيش التحرير ، يدعى شايس ، قيادة فرقة من العصاة الخارجين على القانون معظمهم من رجال المليشيا الذين استدانوا على مرتباتهم خلال خدمتهم للعلم في حرب الاستقلال ، لتأمين أواد ذويهم . قُيِّمت حركة العصيان هذه بسهولة كلية الا ان الحركة لاقت عطفاً كبيراً من قبل الطبقات الشعبية اذ رأوا فيها نذيراً لحرب اهلية تنفجر بين الطبقات الفقيرة والطبقة الغنية . وقد كتب واشنطنون الى لي Lee ، اذ ذاك ، قائلاً : « يجب ان تتمتع البلاد بحكومة تضمن حياتنا وحرماننا ومقتنياتنا والا دهانا ما هو انكى وافظع » . فالثورة التي قامت بقيادة شايس ، انقمت الجميع بالحسوس ، بعد ان زرعت الملح في قلوب الطبقات الثرية ، بوجود قيسام حكومة قوية ، لتفرض احترام « قدسية الارتباطات الملقودة » وحقوق الملكية . فكان الوضع الذي تردت اليه البلاد من هذه البواغث التي دعت الى وضع دستور جديد لها .

امتنع على مجلس الكونغرس الاميركي ايجاد الحل المرجحى لقضية الغرب الاميركي . فخلال عام ١٧٦٣ ، وبالرغم من الاوامر والتعليمات الصادرة عن ملك بريطانيا ، وبالرغم من قيام الحرب ، لم يتوقف الرواد قط عن عبور الانهر واجتياز الجبال . وقد اضطرتهم الأزمة التي نشبت بعد حرب الاستقلال الى الانسحاب والانكفاء نحو الشرق . ففي سنة ١٧٧٦ ، رأينا ٢٥٠٠٠٠ اسرة اميركية تقم في وادي الاوهايو ، الى الغرب من ولاية بنسلفانيا بحيث اصبحت بلسبورغ مدينة صغيرة . والرواد كانوا يسرحون في الاودية التي تدير فيها روافد الاوهايو ، امثال كنتاكي والتنسي ويمتازون الاوهايو . وشكل عدد من المضاربين شركات قوية لهم اخذت بشراء الاراضي وببعضها حصصاً . وهكذا تأسست مدن جديدة ، منها مدينة لويزفيل ، عام ١٧٧٤ ، ولكسنغتن وستنتاني ، عام ١٧٩٠ . وفي هذه السنة بالذات بلغ عدد سكان كنتاكي ٧٨٠٠٠٠ لسمة وتنسي ٣٥٠٠٠٠ نسمة كما رأينا يقطن مقاطعة الاوهايو التي ستصبح فيما بعد ولاية ، ٤٢٣٠٠٠ نسمة .

وقد نشأ عن هذا التوسع والتطور صعوبات ومشاكل مع الهنود . فالامهات التي تقاتلت عام ١٧٦٨ (فورت-ستافانكس) ، وعام ١٧٨٥ ، حملت البعض منهم على التخلي عن حقوقهم العينية . وقد اضطرت السلطات الاميركية الى شن حرب فعلية عام ١٧٧٤ ، و ١٧٧٦ ضد قبائل تشيروكيز ، وعام ١٧٧٨ ضد قبائل الايروكوا .

ومع ذلك ، فلم تكن هذه الامور اصعب المشكلات وأشعبها ، وقف في وجه الحكومة الاميركية ، اذ راحت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وجيورجيا تطالب لنفسها بضم هذه الاراضي التي انتزعت من الهنود ، باعتبارها امتداداً لها ومكلة لحدودها . وقد اعترضت على هذا المطالب كل من ولايات ماسشوستس وكونكتيكت وماريلاند التي اوجست ثمر أمن رقعة هذه الولايات الضخمة ، واقترحت على الكونغرس بان يجعل من الغرب اقليماً خاصاً خاضعاً للاتحاد . فاحبط في يد المجلس المنكود الحظ وبقي متردداً لمن من الجانبين يستجيب . فأمام إصرار ماريلاند ووقوفها موقفاً متصلباً من الاعتراف بالدستور ، اضطرت هذه الولايات الراغبة في التوسع ، للتنازل ، الواحدة بعد الاخرى ، عن مطالبها ومطامعها . وحوالي عام ١٧٧٨ ، اعتُبر الغرب مقاطعة خاضعة للاتحاد .

وقد أثار الرواد ، من جانبهم ، مشاكل عديدة ، في وجه الكونغرس ، اذ راحوا يسطلون على المواشي وينهبون حدائق الكنديين الفرنسيين القاطنين كسكاسكيا وكاهوكيا ، بعد ان راحت إحدى الشركات ، تحاول انتزاع ملكيتهم . وبصعوبة كالية نال الكنديون من الكونغرس الاميركي ضمان حقوقهم في التملك والتمويض اذ ما تخلوا عنها . وقد اضفق مجلس الكونغرس الذي كان بحاجة ملحة للمال والجيش في حمل اسبانيا ، علم منح الاميركيين ، حق الملاحة في نهر المسيسيبي بعد ان اصبحت ضرورية لهم في عملية تطوير الغرب الاميركي . ولذا راحت اسبانيا تقفل النهر في وجه الاميركيين وتجرح الهنود على الوقوف ضدهم . واذ كان الرواد المستعمرون

بمحااجة شديدة للعال ، فقد أخذوا يهددون بالانفصال عن الاتحاد ، كما راح فريش منهم يهدده هو الآخر ، بالالتحاق باسبانيا .

كل هذه الامور والقضايا كانت مرآة انمكس عليها عجز الكونغرس الاميركي وضرورة تقوية حكومة الاتحاد . ولذا راحت ولاية نيويورك ، عام ١٧٨٢ ، وولاية ماسشوستس ، عام ١٧٨٥ ، تقترحان تعديل الدستور . وفي سنة ١٧٨٦ ، انتخبت الولايات مجلساً تأسيسياً ضم ٥٥ مندوباً ، اجتمع في ٢٥ ايار ١٧٨٧ ، برئاسة جورج واشنطن ، وأقر الدستور الجديد الذي صدر عام ١٧٨٧ ، هذا الدستور الذي تسير عليه الولايات المتحدة اليوم .

انشا هذا الدستور الجديد عدداً من النظم والمؤسسات الجديدة التي « تعمل دستور عام ١٧٨٧ في سبيل الدفاع المشترك » ، ومن اجل « تأمين الازدهار العام » للبلاد ، وتحقيقاً لهذه الاهداف ، فقد اتى سيادة الولايات واستقلالها المطلق ، واعلان قيام أمة اميركية واحدة تتشكل من الولايات وتكون فيه مجرد اعضاء باسم : « نحن شعب الولايات المتحدة » . ويجري العمل بهذا الدستور ويُعمل بموجبه ، عندما تقره تسع ولايات من اصل ثلاث عشر ولاية . فلم يعد اذاً للولايات من سيادة مطلقة ، وعلى الاقلية ان تتبع الاكثرية ، وبذلك اعترفت بسلطة بشرية اعلى من سلطتها وسيادتها الفردية .

استوحى واضعو هذا الدستور المبادئ التي نادى بها مونتكسكيو وعلم . وقد اخذ بمبدأ الفصل بين السلطات تقادياً للحكم الاستبدادي المطلق ، وتجنباً لهذه الفوضى التي تفضي بالبلاد الى الضعف والوهن وتؤول بالتالي الى وقوعها تحت سيطرة الاجنبي . وقام بموجب الدستور الجديد حكومة قوية باعتمادها النظام الرئاسي في الحكم ، تحت حكم رئيس ينتخب لمدة اربع سنوات من قبل المجلسين ، وينفذ باسمها القانون . ينتخب اعضاؤها المواطنين لغرض واحد هو انتخاب الرئيس . فالرئيس يمثل ، إذاً ، الشعب الاميركي ، ويكتسب بهذه الصفة ، سلطة اديبة عظيمة ونفوذاً كبيراً . فالرئيس ليس مسؤولاً امام المجلس ، وهو يختار وزراءه ، كما يشاء ويرغب ، ويصرفهم عندما يستحسن . ولا يمكن لأي من المجلسين ان يرغمهم على الاستقالة ، اذا ما حجب عنهم الثقة . فليس هنالك من نظام نيابي بالمعنى المصري . فباستطاعة الرئيس ان يتابع مدة ولايته التي تمتد اربع سنوات ، السياسة العامة التي رسم خطوطها الكبرى عندما تم انتخابه شريطة ان يصادق المجلسان على الموازنة العامة .

ويضطلع الرئيس كذلك يجانب من السلطة التشريعية . فالقوانين لا تكتسب الصفة الالزامية الا اذا اكدت مصادقته النهائية . فاذا ما رفض الموافقة عليها وأبى إقرارها ، كان باستطاعة الكونغرس ان يتجاوزها شريطة أن ينال مشروع القانون في كل من المجلسين ، اكثرية ثلثي الأصوات ، وهي اكثرية من الصعب توفرها . لا يحق للرئيس ان يقترح هو نفسه مشاريع القوانين ، ولكن بوصفه رئيساً للدولة ويمثل مصلحة البلاد باجمعها ، بإمكانه ان يقدم اقتراحاته في رسائل عامة

يرجعها الى الكونغرس يعرض فيها الوضع العام في الاتحاد كما يستعرض قضايا الساعة ومشكلاتها وموقف الاتحاد منها .

وينوب عن الرئيس ، نائب الرئيس الذي يجري انتخابه مع انتخاب الرئيس ويقوم باعباء الرئاسة ومهامها عندما يستحيل على الرئيس القيام بها .

ويؤمن الدستور مراقبة المواطنين في معالجتهم القضايا العامة التي تهم الشعب الاميركي . السلطة التشريعية بيد مجلسين : مجلس النواب الذي ينتخب ممثلي الشعب فيه الناخبون في كل ولاية ، من الذين تتوفر لهم المؤهلات القانونية فتوليمهم حق الاقتراع والاشراك بعمليات الانتخاب لاكثر هذين المجلسين اعضاء . وتنتخب كل ولاية من الممثلين لها عدداً من النواب يتناسب مع عدد سكان الولاية . فالولاية التي تضم ارقاء ، للبيض وحدهم حق الاقتراع . وفي عملية تقدير عدد ممثلي الولاية في المجالس ، يعتبر الارقاء ثلاثة اخماس عددهم . فالبيض في الولايات الجنوبية هم اكثر تمثيلاً من البيض في الولايات الشمالية ، ينتخب اعضاء المجلس لستين فقط . وهكذا بإمكان الناخب ان يراقب ممثليه ويحاسبهم على اعمالهم اثناء ولايتهم .

هنالك خطر على الولايات القليلة السكان ، هذه الولايات بالذات التي تألفت منهم انكلترا الجديدة ، بان تهدر مصالحها الولايات الكبيرة المكتظة بالسكان . ولذا كان لابد من مجلس ثان للنظر في القوانين التي مرت على المجلس الاول وقد يكون اقرها في ساعة من الهوى او الغرض ولذا قام مجلس الشيوخ . فلكل ولاية شيخان يمثلانها ، مها كان عدد سكانها . ويقوم بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ المجالس التشريعية القائمة في الولاية . وينتخب الشيوخ لست سنوات ، يتجدد انتخاب ثلث الاعضاء كل سنتين ، وذلك تقادياً للتغيرات المفاجئة التي يمكن ان تقوم بها الاكثرية تحت تأثير حوادث عاطفية .

القوانين المقترح اصدارها يجب ان يصادق عليها كل من المجلسين . يمكن تقديم مشروع القانون المقترح لهذا المجلس او لذلك ، على السواء ، باستثناء قانون الموازنة العامة الذي يجب ان يصوت عليه مجلس النواب في الدرجة الاولى ، وذلك لتأمين مراقبة المواطنين لنفقات الدولة ، وبالتالي مراقبتهم لأعمال الحكومة واجراءاتها .

يشارك مجلس الشيوخ ببعض السلطة التنفيذية . فعلى الرئيس ان ينال موافقة مجلس الشيوخ على تعيين بعض كبار الموظفين في الدولة . فما من معاهدة يوقعها الرئيس مع الدول الاجنبية تكتسب الصفة القطعية ، ما لم يقرها مجلس الشيوخ . كذلك يمارس هذا المجلس جانباً من السلطة القضائية ، اذ يتحول الى مجلس أعلى ليقاضي الأشخاص الذين يوجه اليهم مجلس النواب تهماً معينة . وهكذا اتخذت الاحتياطات الضرورية لتفادي اي انقلاب يمكن للرئيس ان يقوم به .

ولكن المجلسين ليسا مطلقي التصرف في إقرار ما يرغبان في إقراره من القوانين . فالأقلية

قد تستهدف للضغط من قبل الأكرية . ففوق القوانين يوجد الدستور الذي بموجبه يصدر ما يصدر من الشرائع والقوانين . وفوق القوانين التي يضعها البشر والدساتير التي تقرها الأمم ، هنالك شرائع طبيعية ركزها الله في الانسان وأولته حقوقاً مقدسة لا يمكن نسخها أو انتزاعها منه : كالحرية وحق التملك او الحياة . فكل قانون مخالف للدستور او يتنافى وحقسوق الانسان الطبيعية ، باطل هو وساقط ، لا يعمل به . فالحكمة العليا مكلفة النظر والحكم فيها اذا كانت القوانين مطابقة لروح الدستور ولحقوق الانسان الطبيعية . هنا تقوم وظيفته الأولى . وهذه المحكمة تنظر وتقطع في القضايا الناشبة بين المواطنين والادارة ، وفي المشكلات التي قد تنشب بين الولاية والأخرى . فهي تتحرك للعمل بناء لطلب يتقدم به احد المواطنين او احدى ولايات الاتحاد . وهذه المحكمة تتألف من سبعة قضاة يعينهم رئيس البلاد مدى الحياة ، تأميناً لما يتمتعون به من استقلال تام في اقضيتهم .

الجماعات عرضة للتغير والتبدل على مر الزمن وكر السنين . والدساتير التي يجب ان تحافظ على المبادئ العامة ، يجب ان تكون قابلة للتكيف وفقاً للظروف المستعدثة . فالدستور اذاً ، هو قابل للتكامل ، ويمكن بالتالي إدخال تعديلات عليه . تعديل الدستور يجب ان يتقدم بمشروعه ثلثا عدد الولايات . والتعديل يصبح جزءاً مكملاً للدستور اذا ما اقرته ثلاثة أرباع الولايات في الاتحاد ، من قبل هيأت خاصة تنتخب لهذه الغاية .

وقد رؤي اتخاذ اجراءات خارجية عن الدستور لتوسيع احكامه على الغرب الاميركي . فقد سبق واتخذ عام ١٧٨٥ ، قراراً باجراء عملية مسح للمنطقة الشمالية الغربية ، نص في بعض مواده على بيع الفدان الواحد من الارض بالمزاد العلني ، على الا يقل السعر الأدنى عن دولار واحد للفدان ، يدفع نقداً . بوشر بعملية المسح عام ١٧٨٦ . والقرار الذي صدر في تموز ١٧٨٧ حول المنطقة الشمالية الغربية ، جعل من هذه المنطقة ارضاً تابعة للاتحاد ، وعين لها حاكماً وثلاثة قضاة ، واوصى بقسمتها الى عدة افضية متميزة . فكل قضاء منها بلغ عدد السكان فيه ٥٠٠٠ من الذكور البالغين ، تتم بحاكم عام يعينه مجلس الكونغرس ، وقام فيه مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس آخر ينتخبه الكونغرس من بين قائمة من المرشحين بعدها مجلس النواب . وعندما يبلغ عدد سكان القضاء ٦٠،٠٠٠ من الافراد الاحرار ، يمكن له ان يصبح ولاية جديدة فيضع لنفسه دستوراً خاصاً ويرسل ممثلين عنه الى الكونغرس ، وينم بكل الامتيازات التي تتم بها الولايات الاخرى على قدم المساواة التامة معها . وهذا القرار اصبح الدعامة او الوثيقة الاولى التي قام على اساسها التطور العظيم الذي اخذ الغرب بأسبابه .

وفي سنة ١٧٨٨ صادقت اكرية الولايات على الدستور المعدل وبذلك اصبح نافذ المفعول . وقد ادخلت عليه ، فيما بعد ، عشرة تعديلات ، صودق عليها في حينه واقرت وشكلت نوعاً من اعلان حقوق الانسان ، فهي تضمن الحرية الفردية ، وحرية الصحافة وتحظر على الكونغرس

تحميد دين الدولة . واذ ذلك تم انتخاب جورج واشنطن رئيساً بالاجماع واخذ بممارسة
صلاحياته كرئيس اعلى للبلاد ، في ٤ اذار ١٧٨٩ .

كان على الدستور ان يؤمن بالضرورة ، وعلى الوجه الاكمل ، السلطة للبلاد ، والحرية لافراد
الشعب وان يساعد على نمو الاتحاد وتأمين ازدهار الولايات المتحدة .

لما كان الدستور الاميركي اول دستور محرر او مكتوب تضمنه دولة
الولايات المتحدة راوروبا كبيرة قام على المبادئ العقلانية ، وتشبع ، اسوة بوثيقة اعلان
الاستقلال ، من مبادئ وافكار « الفلاسفة » الفرنسيين ، ولا سيما من المبادئ التي نادى بها
مونتسكيو وعلم ، فقد اصبح ، كإعلان الاستقلال نفسه ، مصدر وحى وإلهام للدول الأوروبية
المستتيرة . فالولايات المتحدة الاميركية التي قدين لاوروبا بوجودها وطريقة تفكيرها
وسياستها ، والتي تلقت منها الفن يوم كان هودون يرفع فوق كابينتول رتشموند ، تمثال جورج
واشنطن على شاكلة تمثال لويس الرابع عشر برقم ديچاردين ، كما ان الكابينتول جاء نسخة عن المنزل
المربع في مدينة «نيم» كما كان اوتيل سلمٌ ملبهاً لبناة البيت الابيض ، فرساي الجديدة ، وللبناني
التي قامت في واشنطن عاصمة الاتحاد الجديدة ، في هذا الوقت بالذات انتقل طراز غبريل
الهندسي الى بوسطن ، وقد ساهمت الولايات المتحدة بمحاصيلها وتجارتها في اعداد هذه التغييرات
الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وصلت الى اوروبا عن طريق الاتصالات الدولية ،
وراحت تقدم لها ، اليوم ، مثلاً يحتذى ، لاكمال حركة التطور ، عن طريق نقل الثورة اليها .

كان الاوروبيون يلتبعون بشوق وحرارة اخبار اميركا ، وقلوبهم تحفق لكل خبر من اخبار
صراعها . وعندما بلغ مدينة ألسنور خبر نيل اميركا استقلالها ، «كان مرفا المدينة يعج بالسفن
من جميع الدول ، وقد ارتفعت الاعلام ابتهاجاً واخذ البحارة يهتفون هتافات الفرح والغبطة
... وقد راح ابي يثير فينا الشعور بالحرية السياسية ، فجمعنا حول المائدة وشربنا مع ضيوفنا نجح
الجمهورية الجديدة ... » واستولى على الجبسع ، في أوروبا رغبة شديدة دفعت الناس الى احتذاء
حذو اميركا والنسج على منوالها ، اوروبا هذه المتعبة ، المهتاجة ضد حكوماتها والتي اخذ فيها
جميع البرمين ، المستائين ، اينما وجدوا : في بروسيا والملكات النمساوية ، وفي هولندا واسوج ،
وجنيف ، ينظمون المظاهرات الصاخبة . ولم يبيلغ الحماس في مكان ما من اوروبا ، ما بلغه في
فرنسا . وهذه الثورة الهادرة التي كانت وشيكة الانفجار ، في كل مكان ، قامت بها اوروبا لان
ما تبقى فيها من مخلفات الاجيال الوسطى ، كان قريب الزوال لانه بدا للناس شيئاً لا يطاق .
وقد عرفت فرنسا وهي اكثر حكومة مركزية في اوروبا ، وفيها أكبر طبقة مهضة الجناح من النبلاء ،
مؤسساتها الثاقوية أشد ، عبودية . فكانت اكثر الدول لجانساً وأكثرها تماسكاً . وقد بدت
فيها الثورة ضرورة ملحة ، كما بدت وسائل النهوض بها سهلة التناول للغاية . ولم تكن فرنسا
لتقتنع بأن يقتصر العمل الثوري عليها وحدها . فستحاول ان تجعل من حقوق الانسان ،
المجمل البشرية الجديد ، كما تجعل من ثورتها اداة لتحرير الشعوب ، وصليبية ، تأخذ
على نفسها انقاذ الشعوب والامم وتأمين سعادة البشر .